المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
بمكة المكرمة

كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة
فرع الدراسات العليا



أثر أهل الذمة الفكري في الدولة العثمانية في الفترة من (٩٢٦ - ١٣٤٣هـ / ١٥٢٠-١٩٢٤م)

رسالة مقدمة للحصول على درجة

الماجستير

إشراف

د./ عبد الله بن عمر الدميجي و د./ جميل عبد الله المصري
(مشرفاً تاريخياً)

إعداد

ماجد بن صالح المضيان

١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

ملخص الرسالة

الحمد لله وبعد :

فهذا ملخص للرسالة المقدمة لنيل درجة الماجستير والتي هي بعنوان أهل الذمة وأثرهم الفكري في الدولة العثمانية في الفترة من السلطان سليمان القانوني إلى إلغاء الخلافة وقد جاءت الرسالة في مقدمة وتمهيد وأربعة فصول :فالمقدمة عن أهمية الموضوع وسبب اختياره ،والتمهيد عن أهل الذمة في المصطلح الإسلامي وتحدثت فيه عن الأحكام الشرعية المتعلقة بأهل الذمة وخاصة حكم توليهم المناصب الهامة في الدولة ،ثم جاء الفصل الأول في مبحثين بينت فيه علاقتهم بالدولة العثمانية وكيف حاولت بداية عصرها إضهار جانب التسامح الإسلامي في حقهم حتى بالغت في ذلك وتسلط عليها من أهل الذمة ممن حقهم الذلة والصغار ،ثم خصصت الفصل الثاني عن أهم الوسائل التي سلكها أهل الذمة لتحقيق أهدافهم وقد جاء في خمسة مباحث عن أهم هذه الوسائل ومنها :إنشاء الجمعيات الأدبية وإدخال المذاهب الوضعية من قوميات وعلمانية ،وعن سيطرتهم على الصحافة ،وكذلك المدارس واستغلال الامتيازات الممنوحة ثم الحديث عن مايسمى بعلم الآثار وخطره على المسلمين . وبعد عرض تلك الوسائل عقدت الفصل الثالث عن الآثار المترتبة على نشاط أهل الذمة ثم الفصل الأخير عن تباين مواقف العلماء في تلك الفترة ونماذج منها .

ثم ختمت الرسالة بأهم النتائج ،ثم بجداول وملاحق الدراسة ، والفهارس العامة .

وبعد البحث والجمع لشتات الموضوع تأكد لنا أن الأمة كانت قوية ومتصدرة حين كانت متمسكة بدينها فكانت ، مؤثرة لامتأثرة ،كما تبين لنا الدراسة أهمية عقيدة الولاء والبراء في حياة الأمة ،كما يلاحظ في دراسة تلك الفترة أن الحالة العلمية كانت على درجة كبيرة من الضعف مما ترتب عليه غياب المواقف الجادة من علماء ذلك العصر ولكن يبقى أن المستقبل لهذا الدين بإذن الله تعالى.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

عميد كلية الدعوة وأصول الدين	المشرف التاريخي	المشرف	الطالب
د/محمد سعيد بن محمد حسن	د/جميل المصري	د/عبد الله الدميجي	ماجد صالح المضيان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون} .

{يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به و الأرحام إن الله كان عليكم رقيباً} .

{يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً} .

أما بعد:

فقد مَنَّ الله على عباده بنعم كبيرة وأفضال وفيرة، وأعظمها نعمة الهداية إلى هذا الدين الحق والتوفيق إلى منهج السلف الصالحين، وجعل السبيل إلى هذه النعمة من الهداية، سلوك طريق العلم، بل رتب على من سلكه أن سهل الله له طريقا إلى الجنة.

وحيث أن شرف العلم مقرون بشرف المعلوم ، فإن أجل العلوم وأصل الأصول هو علم التوحيد الذي موضوعه معرفة الله تعالى بآياته وأسمائه وصفاته و القيام بعبوديته وبجميع حقوقه تعالى على عباده.

فهو أشرف العلوم وأفضلها باطلاق ومنه الرد على من انحرف عن أصل دين البشرية فعبد غير الله أو أشرك في عبادة الله ، أو حرف أسماء الله وصفاته بالتأويل وسلك مسلك التعطيل و التمثيل وهو ما تعارف عليه العلماء بعلم أصول الدين أوالفقه الأكبر، أو علم السنة أو التوحيد أو العقيدة... من أجل ذلك كان اختياري لقسم العقيدة لمواصلة تحصيلي العلمي ، فالعلم بالعقيدة من أعظم القربات وغايته من أسمى الغايات ، وهي عمارة القلوب وإحياؤها بالإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحبته وتحقيق العبودية لله وحده وتفريغها من كل محبوب أو مألوه أو مطاع غير الله تعالى، لأنه لاحياة للقلوب ولاطمأنينة ولاسعادة... إلا بمعرفة معبودها وخالقها.

كما أن العقيدة الصحيحة تجمع ولاتفرق أصحابها وتوحد بين القلوب **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾** وهي تربط المسلم برسول الله ﷺ لا بفلسفة الخلف

وسفسطة المعاصرين، وكذلك فيها النجاة في الدارين للسلامة من الخوض في ذات الله تعالى بلا علم.

ومن حكمة الله عز وجل أن جعل في كل عصر وزمان بقية من أهل العلم هم ورثة الأنبياء يدعون من ضل إلى الهدى ، ويبصرون أهل العمى ، ويصبرون منهم على الأذى

ولكن أولئك البقية يزيدون تارة فتقوى شوكتهم وتسمع كلمتهم، ولايسمع لمبتدع مع وجودهم و تارة ينقصون فيصبحون غرباء في مجتمعاتهم، بل مستضعفون بين أقوامهم ومع ذلك يقومون بالدعوةعلى وجهها وكما أمرهم الله بذلك ولكن لقلتهم وضعف جانبهم ، إن أمروا لم يسمع لهم ، وإن نهوا لم يعتد بنهيهم وما ذلك إلا لغربتهم.

ومن أشد وأحلك الفترات التي زادت فيها هذه الغربة ــ حتى أصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً ــ هي فترة إلغاء آخر خلافة حكمت باسم الإسلام وهي الدولة العثمانية ، فقد تسلط الصليبيون وبمساندة اليهود على رقاب المسلمين ، وقعد المخرفون من المبتدعة – أصحاب الكلمة في ذلك الوقت ــ عن التصدي لهم ولما يثيرونه من شبه وسموم ــ حتى تمكن الأعداء من السيطرة على المسلمين مادياً ومعنوياً وذلك مع غياب من يوقظ الأمة من غفلتها، أو ينبهها على أخطائها واحتفت قرائن مع هذا الجو المزدحم ساعدت وسهلت على الأعداء مهمتهم وأهمها انعدام الأساس الذي بني عليه المجتمع {**أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هارٍ فانهار به**} وهذا الأساس الهش بسبب أخذهم بالظاهر دون الباطن_أي الإعتقادات القلبيه وبالجسد دون الروح والغفلة عن أسس عظمة هذا الدين وأنه في عقيدته ومبادئه السماوية لا المباديء الأرضية وشريعته الإلهية لا الشرائع الوضعية مما جعل هذه العقيدة ربانية المصدر أنها جاءت ثابتة شاملة.

أما ثباتها فلاعتمادها على الوحي الثابت ، وشمولها تصديقا لقوله تعالى :﴿**قل إنَّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له**﴾.

هذه العقيدة الصافية هي فطرة الله التي فطر الناس عليها منذ أبينا آدم إلى أن يوث الله الأرض ومن عليها { **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله.ذلك الدين القيم**}.

ولايزال أنبياء الله منذ نوح عليه السلام يتعاقبون هذه الفطرة تصحيحاً وتذكيراً ﴿*مبشرين ومنذرين*﴾ إلى أن ختم الله رسله وشرائعه فتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ثم ما لبثت الأمة أن حاد بعضها عن هذه المحجة البيضاء ودب فيها (اجتيال الشياطين) فكانت بداية الانحراف في أواخر الخلافة الراشدة.

ولايزال الصراع بين الحق والباطل على تلون أشكاله وتعدد سبله وهذه سنة من سنن الله الكونية نتعرف عليها من خلال تتبع حوادث البشر وقراءة هادفة لأخبار من غبر.

بل لايمكننا التعرف على خط انحراف البشرية تفصيلا ومعرفة أسباب ذلك الانحـراف إلا بالدراسة التاريخية العقدية الهادفة، لا الدراسة الاخباريـة الجافـة أو شـحن للأرقـام والوفيات، ومهارة عرض الواقعات والحادثات، أو كما ذكر الصفدي:

(إن التاريخ للزمان مرآة وتراجم العالم للمشاركة فـي المشـاهدة مرقـاة، وأخبـار الماضين لمن عاصر الهموم ملهاة)(١).

وإن كانت هذه سمة كتب التاريخ في القرون الثلاثة الأولى فعذرهم في ذلك المنـهج: سلامة الفهم عند السابقين وصحة العقيدة وإدراك مقتضياتها. فيجب على المسلم أن تكون له نظرة خاصة في تاريخ الأمم و منطلقا ينطلق منه ، يتمثل بتحقيق الثمرات التالية:

١ــ معرفة السنن الربانية .

٢ــ معرفة الحقائق الهامة في حياة البشرية .

٣ ــ أن دراسة التاريخ تعطي حصانة ضد الخرافات والبدع وأنها من أسباب الهزيمـة و الخذلان.

٤ــ المساعدة على فهم الحاضر وتحليله(٢).

ومن أهم ثمرات هذا المنهج من ربط للدراسة التاريخية بالثوابت العقدية ، أنه يوجـه الطاقات إلى جذور القضايا وأمهات المسائل بشكل حاسم ويتضح ذلك من نماذج ما قصـه تعالى علينا في القرآن الكريم. فنجد الاهتمام مركزا على القضايا الكبرى للأمة وأن يعمـل جهد القارئ فيما يؤدي إلى رقيها وتقدمها وبذلك تكون إيحاءاته ودراسته مما يمـس واقـع الأمة واحتياجاتها... ولايكون بحثه من باب الترف العلمي المجرد، الذي يستهدف إشـباع غريزة حب الاستطلاع أوحب الظهور أو مجرد الاستئناس بأخبار من مضى..

بل لابد لنا لمعرفة واقعنا وتشخيص أدوائه من استعراض لتاريخ أمتنا المجيـد مـن قرونها المفضلة إلى أن بلغت ما وصلت إليه الآن من حالة لا تحسد عليها.

وفي خلال هذه الفترة فالأمةلاتزال بين مد وجزر ، بين عزة ورفعة ومهابة في قلـوب الأعداء حيث تتمسك بكتاب ربها وتلتزم بسنة نبيها ﷺ .

وتقوم بمقتضيات الخيرية والقوامة على أمم الأرض بأمرها بالمعروف ونهيـها عـن المنكر، وإيمانها بالله أولاً.

{ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}

وتنحدر هذه المكانة السامقة بقدر بعدها عن تمسكها بدينها وعقيدتها.

ويزداد الانحراف و الانحطاط كلما ازداد الابتعاد والتهاون عن الشرع.

---

(١) تاريخ الصفدي ,ج ١ ص١٣

(٢) انظر: محمد بن صامل السلمي – منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ١٥-٣٢. ط دار طيبة- الرياض.

ولعل من الأمثلة الحية و الواقعية لهذه الحقيقة ما طرأ للدولة العثمانية مقارنـــا ذلـك ببادئ أمرها وقوتها ومنعتها ثم بآخرعهدها وانحطاطها وتكالب الأعداء عليها.

ولقد كثرت السهام من الداخل و الخارج القاضية عليها و الحاكمة بزوالها، وأعـــرض هنا إجمالا لأهم أسباب إنحطاط ومن ثم إلغاء الدولة العثمانية، تلك الدولة التي ظلت عـــدة قرون تحمي بيضة هذه الدين و تنشر الدعوة في أماكن وأقطار لم يدخلها إلا في عـــهدها،و قوة وشوكة للمسلمين لم يبلغوا مبلغها إلا في عصرها.

بل وحافظت على أرض المسلمين، والتفافهم على قيادة واحدة، فلم يعرف أي انفصـــال من إقليم مسلم عن جسد الدولة، واستطاع السلاطين الأوائل في عـــهدها ضبـــط الولايـــات القريبة منها و البعيدة مما زاد هيبتها في قلوب أعدائها، ولولا أن الصراع كان عقديا مـــع هذه الدولة لما طاقت صبرا على مواجهتها ومحاربتها ولدب اليأس إليها:

كل العداوات ترجى مودتها إلا عداوة من عاداك في الدين

بل كانت الجهود تتحد على اختلاف تياراتها وقومياتها بل وديانا‌تها على محاربة الدولة العثمانية محاولة منها في القضاء عليها فنجد البرتغاليين الصليبيين يتحدون مع الصفويـــين الرافضة على حرب الدولة وكذلك سائر القوميات المتصارعة في أوروبا.

فمكانة هذه الدولة العظيمة من تاريخنا الإسلامي مكانة علية وهي غرة في جبين الأمة ولايجحد فضائلها إلا مكابر حاقد على الإسلام ، أو جاهل بحقيقة الدور الذي قـــامت بـــه الدولة.حتى أن أعداء الإسلام أيقنوا أن لا قائمة لهم مع قيامها، ولاشأن لهم مـــع وجودهـــا فسعوا جاهدين بكل ما أوتوا من مكر وخديعة، وأسلحة فتاكة ليزيلوا هذا العملاق الذي أرق مضاجعهم ، وأقلق راحتهم.

وساعد في إنجاح مخططات الأعداء في القضاء على هذه الدولة عدة أسباب أهمها:

إن الدولة لم تؤسّس في بداية أمرها على أساس متين من العقيدة الصحيحة الصافيـــة، وهذا من باب الإنصاف وعدم الانجراف وراء العاطفة نحو هذه الدولة. بل ولم يكـــن لـــها جهود تذكر في نشرالعقيدة الصحيحة والذب عما يخالفها ، وكذلك سمحت وشجعت كثـــيرا من البدع والخرافات على أرضها ، من بناء على القبور ونشر للبـــدع متمثلـــة بـــالطرق الصوفية وغيرها من الخرافات ومحدثات كانت سمة ذلك العصر(١) .

---

(١) و إن كان من عذر يلتمس للدولة في هذا الانحراف في التصور و أنها لم تولي الجانب العقدي حقه من الأهمية و لم ترب جيشها وشعبها على هذا الأساس المتين الذي هو سر قوة المسلمين و أهم أسباب قوامتها على الأمم..
أن العثمانيين منذ نشأة دولتهم حديثوا عهد بهذا الدين.
فدخلت الدولة على العالم الإسلامي في وقت كانت هذه البدع و الخرافات هي السمة الظاهرة لأغلب أقطار المسلمين منذ القرن السابع الهجري بل وللأسف سمة علمائها ودعاتها و مفتيها وبالتالي لم يكن لبني عثمان ـ حديثي العهد بالإسلام ـ أن يغيروا شيئا من هذا الواقع بل اختاروا المذهب الحنفي ليقضى به بين العباد و من باب العاطفة الإسلامية التي كانت سمتهم خدموا التصوف الذي كان يمثل المظهر الإسلامي في تلك الفترة .

وهذا التقصير الظاهر من الدولة في الجانب العقدي أدى بهذا البناء الشامخ إلى الانحدار السريع الذي لم يعرف له مثيل في تاريخ الدول وزوالها..

فلم تكن هزيمة الدولة العثمانية أو سقوطها مقارنة بين عصر قوة وضعف بل كان الرهان عليها من أعدائها رهان وجود وعدم .

بل تحولت من دولة تحمي الاسلام وأهله، إلى أن خرج لنا من بين أنقاض ما انهدم من ذلك البناء الشامخ من هو حرب على الإسلام وأهله!!

وهذه الفاجعة هي الأولى في تاريخ المسلمين منذ بعثة المصطفى ﷺ ، حتى فاقت مصيبتها سقوط الخلافة العباسية على يد التتار الهمجيين عام ٦٥٦هـ بكثير.

فقد ترتب على سقوط هذه الدولة، إلغاء الخلافة من حياة المسلمين وكذلك ـ وهو الأصل ـ إلغاء شرع الله من أن يحكم في بلاد المسلمين، بل وسلّ السيوف في وجه من يطالب بالشرع؟!

هذه الحوادث المتلاحقة والفواجع التي ألمت بالمسلمين عقب سقوط الدولة العثمانية ، كانت دافعا للبحث عن أسباب الهزيمة، وخطوات الانحدار، التي أدت بالمسلمين إلى إلغاء شرع الله من أن يحكم في الأرض، و إحلال القوانين المستوردة مكان الأحكام الشرعية المستفادة من وحي الله تعالى .

وذلك على أيدي رجال انطلقوا من قلب سقيم وحقد على الإسلام وأهله دفين.

فبالإضافة إلى السبب الأول الذي سبق ذكره ـ عدم اهتمام الدولة بالأساس العقدي ـ وهو السبب الرئيسي، نضيف هنا من باب أخذ العبرة والعظة و الاستفادة من دروس الماضي و حتى (لا نلدغ من جحر مرتين) أسباب الانحطاط.. والتي فتكت في الدولة أكثر مما كان يطمع الأعداء..وأذكرها إجمالاً:

فمن هذه الأسباب:

١ـ أن الدولة العثمانية منذ نشأت، دولة عسكرية أولاً ذات عاطفة إسلامية ثانيا ولم تكن دولة عقيدة بالمعنى الصحيح.

٢ـ الإمتيازات الأجنبية.

٣ـ الترف وكثرة المال في أيدي السلاطين و بالتالي بقية المواطنين.

٤ـ عدم وجود مهمة أساسية للسلاطين بعد حصول الدولة على كل أمنياتها القريبة.

٥ـ المبالغة في الزواج من الأجنبيات سواء الجواري أو الذميات وكان من مظاهر الترف في المجتمع .

بالإسلام– – أن يغيروا شيئا من هذا الواقع بل اختاروا المذهب الحنفي ليقضى به بين العباد و من باب العاطفة الإسلامية التي كانت سمتهم خدموا التصوف الذي كان يمثل المظهر الإسلامي في تلك الفترة .

٦ــ اتساع رقعة الدولة بحيث صعب على الولاة ضبط أطرافها.

٧ــ الصليبية الأوربية، و التي ما فتئ البابا و الكنيسة عامة من التحريض على الدولة العثمانية حتى وهم تحت سيادتها.

٨ ــ تقصير الدولة الكبير في جانب الدعوة لهذا الدين في الأقاليم التي تفتحها (في أوروبا).

٩ــ إغفال العثمانيين الأخذ بأسباب الحضارة المدنية، من علوم تطبيقية واكتشافات عصرية .

١٠ــ انصراف السلاطين منذ **سليمان القانوني** إلى انحطاط الدولة عن إدارة دفة الحكم فضلا عن قيادة الجيوش كما كان شأن السلاطين الأوائل، و بالتالي إسناد الأمر إلى غير أهله.

١١ــ الجمعيات السرية و التنظيمات، التي فتح لها الباب على مصراعيه خاصة في عهد الإمتيازات.

١٢ــ تشريع بعض القوانين الجائرة بل الهمجية.

١٣ــ عصيان الإنكشارية المتكرر وذلك نتيجة الترف الذي عاشوا فيه والصلاحيات التي منحوها.

١٤ــ قيام الدولة الصفوية ــ الرافضية الإثناعشرية ــ على يد إسماعيل الصفوي سنة ٩٠٥هــ ــ ١٥٠٠م فقد فتحت جبهات خطيرة جداً على أمن الدولة وعاقتها عن كثير من الفتوحات باتجاه أوربا خاصة.

١٥ــ اتخاذ أهل الذمة بطانة وأعوانا من دون المؤمنين و الركون إليهم ولاأقول الاستعانة بهم بل استوزارهم واستشارتهم وتقليدهم أعلا المناصب في الدولة، وإعطاؤهم الثقة التامة مما شجعهم للسيطرة على موارد الدولة الإقتصادية، و الثقافية و الإدارية... وجعلهم أهل حل وعقد في الدولة بدلاً من أن يفرض عليهم الذلة و الصغار على من خالف أمر الله ــ حتى تمكنوا من تنفيذ غاياتهم ومخططاتهم في القضاء على هذه الدولة وبالتالي القضاء على أساس قوة المسلمين وهو تمسكهم بدينهم وشريعة ربهم.

وهذا السبب الأخير نجد أن أهل الذمة كان لهم دور بارز في كثير من الأسباب السابقة.

ونظرا لكثرة هذه الأسباب التي أدت إلى إلغاء الخلافة من حياة المسلمين وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة الإلهية ومن تحلل ديني عقدي أصاب المسلمين تلك الفترة،

وإخلال بين في الجانب التشريعي والخلقي ، واتخاذ أهل الذمة بطانة من دون المؤمنين مما يجعل البحث في كل هذه الأسباب تفصيلا متعذرا في مثل هذه الأطروحات التي يراعى فيها استيعاب الموضوع من كل جوانبه قدر المستطاع.

لذا ارتأيت حصر هذه الدراسة في سبب رئيس من أسباب الانحطاط الفكري الذي مني فيه المسلمون في القرن الثالث عشر الهجري والمتمثل باستبدال القوانين الوضعية بالشريعة الإلهية في أغلب ديار المسلمين غفلة منهم وانبهارا بالجديد وتقليدا للغالب..

هذا السبب هو أثر أهل الذمة على العالم الإسلامي ــ في فترة معينة ومكان مخصوص .

ومن أسباب هذا الحصر:

أ ــ التعرف على الحكم الشرعي والمنهج الرباني الذي أمرنا به في تعاملنا مع أهل الذمة، وتجنب الدولة للحكم التي من أجلها شرع عقد الذمة مع أهل الكتاب .

ب ــ الأثر السلبي والمباشر الذي اكتوى به المسلمون نتيجة تسلط أهل الذمة.

جــ ــ واقعنا المعاصر ومحاولة الاستفادة من أخطاء الماضي. " فكما يتوقف فهم الحاضر على الرجوع للماضي، يتوقف فهم الماضي على فهم الحاضر" (١).

وللأسف غفلنا واستيقظ أعداؤنا ، فإنهم لا ينسون التاريخ أبدا، وهم إذا درسوا التاريخ درسوه دراسة تعصب وديانة لا دراسة ترف و متعة، وهم يدركون تفسير الحوادث جيدا مهما تطاول العهد بها، وشاهدا على ذلك:

ما قام به أهل الذمة من اليونان بعد الحرب العالمية الأولى، ولما هزمت الجيوش العثمانية بعد توريط الإتحاديين لها في الحرب الخاسرة مع الحلفاء (ألمانيا والنمسا) فاستولت هذه الجيوش على اسطنبول (مدينة الإسلام) وعاصمة الخلافة.أهدى أهل الذمة حينئذ إلى قائد الجيش الفرنسي جوادا أبيضا ليدخل إلى المدينة متمطيا هذا الجواد و قالوا له: **محمد الثاني** (الفاتح) دخلها قبل أربعة قرون ــ عند فتحها ــ وكان متمطيا جوادا أبيضا. فلم ينسوا مثل هذه الحادثة التي قد لاتذكر في التواريخ وإن كتبت ففي حواشي المؤرخين.

وما هذه المجازر التي تحصل للمسلمين الآن من قبل الصليبيين الأرثوذكس إلا شاهدا قويا على تتبع أجيالهم من بعدهم دراسة التاريخ دراسة عقدية..

وفي عصر الضعف والانحطاط للدولة العثمانية تسلط أولئك العلوج على طاقات الدولة حتى أصبح المسلمون في تسليمهم لهم(كالريش في مهب رياح الحوادث وكالغثاء في مجرى سيول الكوارث لا رأي لخواصهم فيما يراد منهم، ولاشعور لعوامهم فيما يراد بهم،

---

(١) محمد العبدة : أيعيد التاريخ نفسه (ص٦) .

وللأجانب يد في تصرف[خواصنا] في سياستنا ويد في تصريف أموالنا في مصلحتهم دون مصلحتنا ، ويد تطبع الأرواح بأخلاق وعادات تنافي آداب ملتنا، وتودع في العقول عقائد وأفكارا تقوض بناء وحدتنا ، فأي شيء بقي بأيدينا من شئوون أمتنا) (١) .

فآثار أهل الذمة على من جاورهم من المسلمين لاتكاد تنحصر في جوانب معينة بل شملت شتى الإتجاهات الثقافية والاجتماعية والفكرية .

وهذه الثالثة الفكرية هي ثالثة الأثافي التي عبدت الطريق لكل جديد ولو خالف الدين في كل جوانب الحياة، فهي أهم آثارهم.

ولصعوبة البحث في جميع الجوانب التي أثر فيها أهل الذمة على المجتمع المسلم حصرت هذه الدراسة في الجوانب الفكرية فقط لأنه أهمها على الإطلاق فبالفكر يحدد اتجاه السلوك والتصرف..

وهذا التصرف من أهل الذمة لم يكد يظهر بشكله البشع مثلما حصل في القرن الماضي الرابع عشر الهجري(التاسع عشر ميلادي) وتلك الفترة كان يحكم بنو عثمان أكبر وأهم بقعة في العالم الإسلامي ..ولذلك خصصت هذه الدراسة في أثر أهل الذمة الفكري على الدولة العثمانية.

والفترة الزمنية التي عاشتها الدولة العثمانية قرابة ثمانية قرون كانت مليئة بالإنتصارات ثم أصبحت في النصف الثاني بين مد وجزر ثم انحراف وانحطاط . وبدأت هذه الفترة في أواخر فترة **سليمان القانوني**.

من أجل ذلك جعلت البحث محصورا في هذه الفترة العصيبة فأصبح عنوانه:

" أثر أهل الذمة الفكري على الدولة العثمانية في الفترة من سليمان القانوني إلى إلغاء الخلافة (٩٢٦هـ ــ١٥٢٠م ،١٣٤٣هـ ــ ١٩٢٤م) "

ومما تجدر الإشارة إليه أنني حين عقدت العزم على الكتابة في هذا الموضوع حبا وقناعة بثمرته ــ إن شاء الله تعالى ــ واجهتني صعوبات كادت تثنيني كلية عن البحث.

من أولها ندرة المؤلفات التاريخية المنصفة بل قد تكون معدومة في تلك الفترة، وذلك أن المؤرخين والباحثين انقسموا إلى فرق مختلفة في كتاباتهم ، فمعظم الكتاب و المؤرخين العرب المعاصرين لهذه الفترة كانوا من دعاة القومية و الانفصال فاتسمت كتاباتهم بالتعصب

---

(١) رشيد رضا : مجلة المنار م٩ ج١ ص٢، افتتاحية محرم سنة ١٣٢٤هـ .

والتحامل على الدولة العثمانية وحملوها من الأخطاء الشيئ الكثير ، وبهذا كـــانت كتاباتـــهم شخصية لا تعبر عن الحقائق التاريخية تعبيرا صريحا واضحا.

أما المؤرخون الأتراك المعاصرون لهذه الفترة فلم تظهر إلا في العصر الأخير عصــر **عبد الحميد** ، واتسمت كذلك بمهاجمة الدولة العثمانية و التنديد بها سواء كان ذلك من داخـل الدولة العثمانية أو من العواصم الأوربية التي فروا إليها وكانت تحميهم و تســاعدهم علــى نشر هذه الكتب.

أما المتأخرون الأتراك فكانت مؤلفاتهم بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة مــن الحلفاء وبالتالي كانت وقت قيام ما يسمى بالجمهورية التي تزعمها مصطفى كمال ألد أعـداء السلطان عبد الحميد بل لست مبالغا إذا قلت ألد أعداء الإسلام فكان طـابع تلـك المؤلفـات التقرب إلى رئيسهم (كمال) بالكتب المليئة بالسب والشتم للدولة العثمانية والافتراء عليها.

ونتج عن ذلك أن حادت معظم المؤلفات التركية والعربية كذلك عن الحقيقة وبعدت عـن الصواب حيث كتبت بعاطفية تامة ومنسجمة مع التيارات السياسية السائدة (وهذا شأن أغلـب كتب التاريخ) .

أما الكتاب الأجانب فمن الطبيعي أن يشوهوا تاريخ الدولة العثمانية المســلمة عدوهـم اللدود وعنهم بالطبع تقبل كتاب هذا العصر ـــ إلا من رحم الله ـــ فخرجت كتاباتـــهم تقليـدا لمن سبقهم.

وهذه كانت أول وأكبر مصاعب البحث ـــ وكل باحث في تاريخ الدولة العثمانية ـــ ومن بين هذه التيارات المتصارعة خرج كتاب أفذاذ وعلماء قلائل اجتهدوا في النظر إلى القضيـة بإنصاف ظاهر وتحر للحقيقة فلم يهضموا لهذه الدولة حقها المجيد ولم يسكتوا عن الأخطــاء الظاهرة فيها والتي كانت سببا معينا للأعداء في القضاء عليها ومن أمثلة الكتابات المنصفــة ـــ مقالات في دوريات ـــ أو أجزاء من كتب لكتاب محققين أمثال **د.محمـد حـرب** والــذي أخرج الترجمة العربية لمذكرات **عبد الحميد**، وكذلك كتابات **د.جميل المصري** في حــاضر العالم الإسلامي ومثلهم **شكيب أرسلان** وقريب منهم د. عبدالعزيز الشناوي وغيرهم.

وكذلك ـــ من الصعوبات ـــ توسع موضوع البحث وخاصة في فصل (وســائل أهـل الذمة في إقصاء الشريعة) احتاج مني الرجوع إلى مصادر ومراجع متباينة التخصصات.

فمن كتب الأدب والصحافة وتاريخها في العالم الإسلامي، إلى كتب الفرق أو المذاهــب المعاصرة(والتنصير والغزو الفكري والسير الذاتية..) وتفاصيلها وكذلك كتب العلوم الإنسانية كعلم الآثار والبحث عمن تكلم فيه من المسلمين، إضافة إلى فترات زمانية متباعدة ليس فــي تاريخ العرب فحسب بل كذلك في تاريخ العثمانيين والحروب الصليبيــة وأوربــا الحديثـة

والواقع المعاصر.. في فترة تقدر بأربعة قرون على الأقل. ولايخفى ما في ذلك من مشقة كادت تثنيني عن البحث.

ويعلم الله أني بذلت جهودا مضنية في سبيل جمع شتات مواضع البحث، وفتح مغاليقه، ولايظن القارئ الكريم أن هذه المقولات والنصوص التي قد استشهد بها وجدتها في ثنايا المراجع بيسر وسهولة، بل إنني قد أقرأ المرجع أو المصدر كاملا ولا أخرج منه إلا بسطر أو سطرين أو تعليق أو لا شيء، خاصة في كتب التاريخ الإنشائي...وتتبع الحوادث.

والأصعب من ذلك الغموض الشديد الذي يحيط ببعض الحوادث والشخصيات بسبب عدم وجود الكتابة المؤصلة.. حتى وقع في نفسي استحالة المضي في هذا العمل وتمثلت بقول الشاعر:

إذا لم تستطع شيئا فدعه　　　وجاوزه إلى ما تستطيع

غير أني استعنت بالله ثم بتشجيع من المشرف على هذا البحث وعون منه أيضا صممت على المضي في هذا العمل مهما كلفني من جهد ووقت.

ومع ذلك لا يكاد يخلو عمل من نقص وخاصة إذا نسب إلي تطفل إلى علم التاريخ مع قلة بضاعتي فيه، وما ذاك إلا لتعلقه بصميم بحثي، فليس التاريخ مجرد سرد حوادث وأرقام وإنما كما قال شوقي :

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر　　　ضاع قوم ليس يدرون الخبر

خطة البحث:

وقد جعلت هذا البحث في أربعة فصول وتمهيد ومقدمة وخاتمة. وقسمت الفصول والتمهيد إلى مباحث بحسب ما تقضيه الحاجة.

أما التمهيد فيتضمن الحديث عن :

مصطلح أهل الذمة في الفقه الإسلامي. وتحدثت فيه عن المسائل الفقهية المتعلقة بالبحث من أحكام أهل الذمة، ومن يدخل في مصطلح أهل الذمة أو لا يدخل، ومن الأحكام أمثال توليهم الوظائف العامة أو التنفيذية، وكذلك الوظائف الشرعية، وحكم تمكينهم من الاستقلال بالقضاء فيما بينهم .

الفصل الأول: علاقة أهل الذمة بالدولة العثمانية ، وهو مشتمل علىمبحثين:

الأول: المراكز الحساسة التي تقلدها أهل الذمة، وإبراز الدور الخطير الذي توصل إليه أهل الذمة ومدى التسامح والتساهل الذي عوملوا به.

الثاني : الإمتيازات الأجنبية.

عرض لبنود الامتيازات ، ومدى قربها وبعدها من أحكام الشرع وما تقتضيه مصلحة الدولة المسلمة.

الفصل الثاني: وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة وفيه مباحث :

أولا: إنشاء الجمعيات الأدبية والثقافية ودورها في غرس الأفكار الحديثة والدخيلة.

ثانيا: إدخال المذاهب الوضعية ومنها :

أ ـ القوميات: ـ الطورانية .

ـ العربية .

ب ـ العلمانية .

ثالثا: السيطرة على الصحافة واستغلال أهل الذمة لهذا المركز الحساس في السيطرة على الرأي العام وتوجيهه.

رابعا: المدارس الأجنبية، واستغلال تساهل الدولة عبر الامتيازات ، وفتح أكبر قدر ممكن من المدارس ، ودور هذه المدارس في توجيه النشء إلى أفكار الإنحلال عن الدين وحب الغرب وأصحاب هذه المدارس عموما.

خامسا: ربط الشعوب بماضي ما قبل الإسلام، من وثنيات أو خرافات تحت إسم الاهتمام بما يسمى بعلم الآثار.

الفصل الثالث: الآثار المترتبة على نشاط أهل الذمة ، وفيه المباحث التالية:

أولا: تسهيل عملية الغزو الفكري.

ثانيا: توسيع النشاط التنصيري في أوطان الإسلام.

ثالثا: بروز العلمانية وجعلها المثال العصري للدولة الحديثة.

رابعا: وهو من أعظمها إلغاء الخلافة العثمانية وإلغاء مصطلح الخلافة نهائيا عن حياة المسلمين وإلغاء السلطنة من قبل، وبالتالي إقصاء الشريعة وإحلال القوانين الوضعية والمحاكم الدستورية في بلاد المسلمين.

الفصل الرابع: دور العلماء في مواجهة نشاط أهل الذمة

وقد تحدثت فيه عن نماذج من تاريخ المسلمين في تلك الفترة ، ومدى التقصير الظاهر في المؤسسات العلمية البارزة ذلك الوقت عن القيام بدورها القيادي للأمة.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والدروس التي نخرج بها من هذا البحث .

والله أسأل أن يتقبل منا ويجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم.

ولا يفوتني في الختام أن أتقدم بالشكر الجزيل بعد الله تعالى لكل من مد لي يد العون والمساعدة في مشواري الطويل في هذا البحث وأخص منهم المشرفين على هذا البحث الدكتور **عبد الله بن عمر الدميجي** والدكتور **جميل المصري** ــ المشرف التاريخي ــ حفظهم الله وكذلك الدكتور **محمد حرب** رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية الذي لم يقصر معي أبدا في مراجع ومصادر تتعلق بالبحث سواء باللغة العربية أو التركية أو الإنجليزية بل في ترجمة ما أحتاج إلى ترجمته وكذلك الدكتور نجاتي في مركز البحث العلمي الذي ساعدني في الحصول على المراجع التركية .

كما أوجه الشكر الجزيل والثناء الجميل لجامعتي الفتيه جامعة أم القرى وكليتي العريقة كلية الدعوة وأصول الدين والقائمين عليها..

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وجعل العمل خالصا لوجهه الكريم.

تمهيد

أهل الذمة في المصطلح الإسلامي

لقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والأمويين والعباسيين أن اليهود والنصارى هم أهل الذمة ممن اعترف الإسلام بهم وعقد معهم الذمة .

فالذمة في اللغة : بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام، وسمي أهل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم (١) .

والذمة في الفقه الإسلامي : العهد الذي يعطى للقوم الذين لم يدخلوا في الإسلام عند فتح المسلمين لبلادهم، ولايسترقون ويؤمنون على حياتهم وحريتهم وأموالهم وعباداتهم(٢).

وقيل في تفسير عقد الذمة بأنه إقرار من الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الذمة (٣) ، وقيل : الحكمة في عقد الذمة معهم احتمال دخولهم في الإسلام عن طريق مخالطتهم للمسلمين وإطلاعهم على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال (٤) .

ويقول **عبد الكريم زيدان** في كتابه **(أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام)**:

(عقد الذمة عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام) (٥) .

وهم يسمون أيضا بـ (أهل الكتاب) وهم الذين لهم كتب منزلة مثل اليهود والنصارى ومن له شبهة كتاب مثل المجوس (٦) . وبعد الفتح الإسلامي خضعوا للمسلمين وأصبحوا في ذمة المسلمين فأطلق عليهم أهل الذمة .

وسمي اليهود والنصارى بأهل الكتاب تمييزا لهم عن عبدة الأوثان، وذلك لأن لهم كتب منزلة هي التوراة والإنجيل وأن اعترافهم بها يجعل لهم مكانا ممتازا بالنسبة لعبدة

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ص١٥١٧ ، الفيروز أبادي : القاموس المحيط ج٤ ص١١٥ ، السرخسي الحنفي : شرح السير الكبير ج١ ص ١٦٨ .

(٢) أبو جيب : القاموس الفقهي مادة (ذمة) ص ١٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية (مادة ذمة) ج٩ ص ٣٩٠ ، ٣٩١.

(٣) إدريس الحنبلي : كشاف القناع ج١ ، ص ٧٠٤.

(٤) السرخسي : المبسوط ج١٠ ، ص ٧٧.

(٥) انظر : عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص ٢٢.

(٦) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص ٣٧ .

الأوثان وغيرهم (١) . وقد ورد ذكر (أهل الكتاب) في القرآن الكريم في آيات كثيرة(٢) منها قوله تعالى:﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (٣).

وأهل الكتاب عند الحنابلة والشافعية :هم اليهود والنصارى دون غيرهم مستندين إلى قوله تعالى ﴿ **أن تقولوا إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين**﴾ (٤).

وعند الحنفية: هم أصحاب الكتب السماوية المنزلة كالتوارة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود .

ويقول **الشهرستاني** (ت٥٤٨ هـ):(ويخاطب القرآن اليهود والنصارى بياأهل الكتاب إلى جانب هؤلاء ممن لهم شبهة الكتاب مثل المجوس، فإن الصحف التي أُنزلت على إبراهيم قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم، ولكن لايجوز مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم فإن الكتاب قد رفع عنهم) (٥) .

وقد استندت المذاهب الفقهية في قبول الجزية من المجوس إلى قول الرسول ﷺ فيهم : (سُنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي لحومهم) (٦) .

وقد اختلف الفقهاء في الحقوق الدينية لغير أهل الكتاب، وأعظم الخلاف بينهم كان في أمر المجوس هل هم من أهل الكتاب ؟ وهل يحل للمسلم مناكحتهم والأكل من ذبائحهم ؟

هذا بعد إجماعهم على صنفين ممن هم غير مسلمين وهوأن اليهود والنصارى مع تبديلهم وتحريفهم للتوراة والإنجيل أهل ذمة (وإن كانوا عرباً)، وأن المرتدين عن الإسلام ولو إلى النصرانية أو اليهودية لايدخلون في أهل الذمة ... للنصوص الصريحة في كل من

---

(١)سعدي أبو جيب : القاموس الفقهي (مادة أهل الكتاب) ص ٣١٦ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة (أهل الكتاب) ج٣ ص ١٠٧ .

(٢) سورة البقرة :آية ١٠٥، ١٠٩ ، آل عمران : آية ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٥، ٩٨، ٩٩، ١١٠، ١١٣، ١١٩ ، النساء : آية ١٢٢، ١٥٣، ١٥٩، ١٧١ .... وغيرها من المواضع على اختلاف المقصود منها .

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

(٤) سورة الأنعام : آية ١٥٦ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل - ج١ ص٣٨ .

(٦) رواه الشافعي برقم ١١٨٢ .

الصنفين . (وقد سبق ما يتعلق بأهل الكتاب)، أما المرتدون فالإجماع على عدم جواز عقـد الذمة معهم، وقد صرح بذلك الحنفية والمالكية والحنابلة (١) وذلك لعدة أمور منها :

أ ــ أن الحكمة من عقد الذمة ــ الذي ذكر سابقا ــ إطلاع غير المسلم علـى محاسـن الإسلام وأهله مما يدعوه للدخول في الإسلام، لا تتحقق في المرتد لأن الظاهر أنه لم ينتقل عن الإسلام بعد ما عرف محاسنه إلا لسوء فطرته، فيقع اليأس من صلاحـه، ولايكون عقد الذمة في حقه وسيلة لإسلامه .

ب ــ المقصود من عقد الذمة التزام الحربي أحكام الإسلام وليس تحصيل المال ، وأحكام الإسلام لازمة على المرتد أصلا ، فلا يكون الغرض من عقد الذمة معه إلا الحصول على الجزية ، وهذا لا يجوز .

ج ــ إجماع المسلمين على وجوب قتل المرتد(٢) على اختـلاف فـي موجبـات الـردة ووجوب استتابته قبل القتل (٣) ، فهو مستحق للقتل إن لم يتب ويسلم وهذا ينافي عقـد الذمة الذي يفيد بعصمة الذمي في ماله ودمه .

وبهذا يتضح أن من دخل في الإسلام ورجع عنه إلى أي ملة من ملل الكفر لا يجـوز عقد الذمة معه ولاعقد الأمان كذلك .

أما غير محل الإجماع وهم غير أهل الكتاب (والمجوس إلحاقا بهم) والمرتدين فقـد اختلف الفقهاء في جواز عقد الذمة لهم ....

القول الأول : الحنابلة والشافعية :

١ــ فذهب الحنابلة والشافعية إلى عدم جـواز عقـد الذمـة لغـير أهـل الكتـاب والمجوس(٤) لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أمرت أن أقاتل الناس حتـى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقـها)) (٥) . يبقـى على عمومه إلا ما خص منه بآية الجزية في حق أهل الكتاب ، والمجوس بما ورد فـي السنة .

---

(١) الهداية ٤/٣٧١ ، شرح السير الكبير ٤ / ٢١ - ٢٢ ، الكاساني ١١/٧، مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب ٣٨١/٣. المغني ٨ / ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) المغنى ٨ / ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق ١٢٣/٨ .

(٤) المغني ٨/ ٥٠٠ ــ ٥٠١ ، مغني المحتاج ٢٤٤/٤ .

(٥) رواه البخاري :كتاب الإيمان رقم٢٥، ومسلم :كتاب الإيمان رقم٢٠، والترمذي :كتاب الإيمان رقم ٢٦٠٦.

القول الثاني: قول الحنفية :

وهو جواز عقد الذمة لجميع أصناف غير المسلمين إلا عبدة الأوثان من العرب (١) ،

أما بقية غير المسلمين فقياساً على المجوس وخُصَّ العربُ والوثنيون بالمدة التي لم يقبل عنهم إلا الإسلام أو السيف .

القول الثالث : للمالكية(٢) :

ويقولون بجواز عقد الذمة لجميع أصناف غير المسلمين ولافرق بين عربي وعجمي ، وحجتهم نفس القول السابق، أي القياس على المجوس، وهم ممن لايقرون حتى بالربوبية فوثني العرب من باب أولى ...

ولا أخوض في الترجيح بين الأقوال والرد على الأقوال المرجوحة لأن هذا ليس مجال بحثنا وإنما من باب تنزيل الكلام على الواقع - وعلى الأخص على المكان والزمان الذي أتكلم عنه . فلايكاد يوجد من غير الملسمين في المجتمع المسلم إلابعض اليهود أو النصارى (أهل الكتاب) فقط ، حتى المجوس سوى بقية باقية تابعة للدولة الصفوية في بلاد فارس ، أما البلاط العثماني فكان يعج بالقوميات الدينية على اختلاف مذاهبها،إلاأنها لاتكاد تخرج عن فرق النصارى من أرمن، وكاثوليك، وبروتستانت ، وأرثوذكس ، ويهود يعاقبة ونساطرة بفرقهم الثلاث،والمجوس وإن كانوا قلة لاتكاد تذكرعند من أرَّخ في تصنيف مواطن الدولة العثمانية . إلا أن القول الراجح - وهو قول الجمهور- أنه يُسنُّ بهم سُنة أهل الكتاب – بل قال الإمام مالك... كما نقل عنه سحنون في المدونة: ((قال مالك في المجوس ماقد بلغك عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سُنُّوا بهم سُنة أهل الكتاب)(٣)، فالأمم كلها في هذا بمنزلة المجوس عندي))(٤)، والنصوص عن السلف في أخذ الجزية منهم كثيرة .

---

(١) فتح القدير ١٧٣/٣ .

(٢) شرح مختصر خليل للخطاب (مواهب الجليل) ٣٨١/٣، شرح الموطأ للزرقاني ١٣٩/٢ .

(٣) رواه الشافعي (١١٨٢) من طريق الإمام مالك عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال : ماأدري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبدالرحمن بن عوف :أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكره .وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن عساكر في تاريخ الشام وفيه انقطاع(قال بن عساكر: أن محمد بن علي لم يدرك عمر) ، انظر الإرواء ٨٨/٥ -٨٩ المكتب الإسلامي . وللحديث شواهد .

(٤) سحنون : المدونة الكبرى ٤٦/٣ .

وقد وافقهم الصحابي الجليل أبوموسى كما روى عنه أبو عبيدة في كتاب الأموال أن أبا موسى قال : '' لـولا أنـي رأيـت أصحـابي يـأخذون الجزيـة مـن المجـوس ماأخذتها.....(١) .

المستأمنون :

ماسبق الكلام عنه كان في أهل الذمة ومن عقد معهم عقد مقيد على الأمـان وأخـذ الجزية منهم – وما يتعلق بهم من أحكام سيأتي تفصيلها إن شاء الله .

أما القسم الثاني من المعاني من يسمون في الفقه الإسـلامي بـــ (**المسـتأمنين**) والمراد بهذا اللفظ في اللغة :

يقال : ((استأمنه أي طلب منه الأمان (٢) ، والمستأمن بكسر الميم : هو الطـالب للأمان ويصبح بالفتح بمعنى اسم المفعول مستأمن)) (٣) .

والمقصود به في الشرع : هو عقد الأمان الذي يعطى للحربي عند دخوله إلـى دار الإسلام، وهو أمان مؤقت ، بخلاف عقد الذمة الذي يشترط له التأبيد (خلافا لما مـرت عليه الدولة العثمانية في معاهدات الامتياز ..) والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾ (٤) .

واقع من تحدث عنهم في هذا البحث:

قد يعترض شخص بأن اليهود والنصارى في الدولة العثمانية لاينطبق عليهم تعريف أهـل الذمة ولاشروطهم ولا أوصافهم لامن حيث أخذ الجزية فضلا عن بقية الشروط العمرية.

ويجاب عن ذلك بعدة أمور منها :

أن ضعف الدولة وتخاذلها عن القيام بشرع الله وتطبيق ما أمرت به من معاملة مع أهـل الكتاب ممن يعيشون تحت ظلها وينعمون بأمنها وخيرها لايغير شيئا من حقيقة هـؤلاء القوم وأنهم في الأصل أهل ذمة لهم أحكام خاصة وعليهم واجبات فصلها فقهاؤنا،

يؤكد ذلك أن كتب الفقه التي صنفت تلك الفترة جرت على هذا المفهوم الذي ذكرت.

الأمر الآخرأن من يعترض على وصفهم بالذميين بحجة زوال شرطها وهو أخذ الجزيـة والإذلال ..فإن الجزية كانت تؤخذ الى سنة ١٨٦٠م تقريبا ، حين أزيل كثير من الأحكام الشرعية اعتمادا على الإمتيازات وضغوط الدول الغربية التي أقرت في مؤتمر برليـن سنة ١٨٤٠م وألزمت الدولة في قانون همايوني عام ١٨٥٦م بتغيير الأنظمـة المتعلقـة برعاياها ،وذلك في أواخر أيام الدولة .

---

(١) أبوعبيدة في الأموال ص٣٦ .

(٢) المصباح المنير ٣٤/١ .

(٣) رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ـ للإمام محمد أمين الشهير بابن عابدين ٣٤١/٣ ط العثمانية .

(٤) سورة التوبة آية ٦.

فجاءت تسمية البحث باعتبار الأغلب الأعم من عمر الدولة ،فلم ترفع عنهم الجزية إلا حين عجزت الدولة عن حماية المسلمين أنفسهم فضلا عن أهل الذمة الذين تقاسمت الدول الغربية رعايتهم بحسب انتماءاتهم العرقية .

شروط عقد الذمة :

اتفق الفقهاء على بعض الشروط واختلفوا على أخرى . فاشترط الحنفية والشافعية والحنابلة شرط التأبيد لصحة عقد الذمة فلا يصح إذا كان موقوتاً .

ولعل بعض الفقهاء كالحنابلة لم يقيدوا التأبيد كشرط باعتبار أن التأبيد من مقتضى عقد الذمة وطبيعته .

وذكر صاحب الكشاف من الحنابلة شرطين آخرين لا ينافيان صحة عقد الذمة :

الشرط الأول : التزام إعطاء الجزية كل سنة (لمن وجبت عليه) .

الشرط الثاني : التزام أحكام الإسلام .

ويدل على هذين الشرطين قوله تعالى : ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون** ﴾ (١). والصغار جريان أحكام الإسلام عليهم (٢) .

*** ما ينتقض به عقد الذمة وأمان المستأمن :**

عند الكلام على ما ينتقض له عقد الذمة يجب أن لانغفل عن الحِكَم التي من أجلها شرع عقد الذمة .(حتى يسمع كلام الله)

فإذا انقلب الوضع وأصبح التأثير عكسياً وفيه فتنة للمسلمين عن دينهم، إما بمجرد مخالطتهم مع الكفار أو بسبب الغلبة الثقافية والاجتماعية من الكفار على المسلمين، كما حصل في عصور الضعف للمسلمين، وعند تقدم مؤسسات أهل الذمة (من اليهود والنصارى) التعليمية والصحية والاجتماعية على مؤسسات الدولة العثمانية وجب حينئذ إلغاء العقد والعهد الذي لهم ، حتى لا يجعل أبناء المسلمين يتمنون اللحاق بركب هؤلاء المتقدمين عليهم ماديا ــ وبالتالي الوقوع فريسة لأفكارهم الهدامة ــ وأديانهم المحرفة ــ ولذلك فإن الشارع الحكيم ــ كما نص على شروط جواز هذا العقد وهذا التعايش، ذكر كذلك أموراً ينتقضُ بها هذا العقد ــ أو هذا الأمان ... نص عليها فقهاؤنا رحمهم الله .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٢) كشاف القناع : ٧٠٤/١ لمنصور بن إدريس الحنبلي ت (١٠٥١هـ) .

منها : الإخلال بالشروط السابقة :

١ـ كالامتناع عن أداء الجزية .

٢ـ الطعن في الإسلام أو القرآن أو سب الله تعالى أو ذكر رسوله ﷺ بسوء .

٣ـ أو قطع الطريق على المسلمين .

٤ـ أو فتنة المسلمين عن دينهم (إيذاء المسلم في دينه) .

٥ـ لحاق الذمي بدار الحرب . إذ بهذا اللحاق تنقطع صلته بدار الإسلام ويصير من أهل تلك الدار(١) .

س وبالنسبة للمستأمن يلغى عقد أمانه بمجرد خروجه من دولة الإسلام ......

ويحسن بنا هنا أن نذكر النص الوارد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي اشتهر بين الفقهاء تسميته **بالشروط العمرية :**

" قال عبدالله بن الإمام أحمد: حدثني أبو شُرحبيل الحمصي عيسى بن خالد قال : حدثني عمر أبو اليمان وأبو المغيرة قالا :أخبرنا إسماعيل بن عياش قال : حدثنا غير واحد من أهل العلم قالوا : كتب أهل الجزيرة إلى عبدالرحمن بن غَنْم : " إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنَّا شرطنا على أنفسنا ألا نُحْدثَ في مدينتنا كنيسة ، ولا فيما حولها ديراً ولا قلاية ولاصومعة راهب ؛ ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولاما كان منها في خطط المسلمين ، وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً ، وألا نكتم غشاً للمسلمين ، وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا ، ولانظهر عليها صليباً ، ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولاالقراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون ، وألا نخرج صليباً ولاكتاباً في سوق المسلمين ، وألانخرج باعوثاً ـ قال : والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون بوم الأضحى والفطر ـ ولاشعانين ، ولاترفع أصواتنا مع موتانا ، ولانظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ، وألانجاورهم بالخنازير ولاببيع الخمور ، ولانظهر شركاً ، ولانُرغِّب في ديننا ، ولاندعوا إليه أحداً ، ولانتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين ، وألانمنع أحداً من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام ، وأن نلزم زيَّنا حيثما كنا ، وألانتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولاعمامة ولانعلين ولافرق شعر ولافي مراكبهم ، ولانتكلم بكلامهم ، ولانكتني بكناهم ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ولانفرق نواصينا ، ونشد الزنانير على أوساطنا ،

---

(١) انظر عبد الكريم زيدان : أحكام أهل الذمة والمستأمنين ص٤٢ -٤٣ ، وللتوسع انظر : فتح القدير ٣٨٢/٤، المغني ٥٢٥/٨ .

ولاننقش خواتمنا بالعربيـة ، ولانركـب السـروج ، ولانتخـذ شـيئاً مـن السـلاح ولانحملـه ، ولانتقلد السيوف ، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ، ونرشدهم الطريق ، ونقوم لهـم عـن المجـالس إن أرادوا الجلـوس ، ولانطلـع عليهـم فـي منـازلهم ، ولانعلـم أولادنـا القـرآن ، ولايشارك أحدٌ منا مسلماً في تجارة إلاأن يكون إلى المسلم أمر التجارة ، وأن نضيف كـل مسلم عابر سـبيل ثلاثـة أيـام ونطعمـه مـن أوسـط مـا نجـد . ضمنـا لـك ذلـك علـى أنفسـنا وذرارينا وأزواجنا ومساكننا ، وإن نحن غيَّرنا أوخالفنا عما شرطنا علـى أنفسـنا ، وقبلنـا الأمان عليه ، فلاذمة لنا ، وقد حل لك ما يحل لأهل المعاندة والشقاق " (١) *.

الحقوق التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة :

" للحق في اللغة عدة معان، ترد كلها إلى الثبوت والوجـوب ، قـال تعـالى ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ (٢) أي ثبت ووجب * . والفقهاء يطلقون لفظ " الحق " ويريدون به معنىعاما وهو الملك بأنواعه، وقد يطلقونه ويريدون به معنـى خاصـاً وهـو الحقوق المطلقة فقط . كحق المـرأة فـي حبـس نفسـها عـن زوجهـا حتـى تسـتوفي معجل صداقها ، وكحق الشفعة والخيارات .

ويطلقـون ويريـدون بـه الحقـوق الارتفاقيـة. وهـذا هـو المعنـى الأخـص لكلمـة الحـق عندهم(٣) .

وإطلاق كلمة حقوق أهل الذمة : يفهم منها الحقوق الواجبـة لهـم فـي شـتى المجـالات وهى كثيرة - يجملها قول بعض السـلف " **لهـم مالنـا وعليهـم ماعلينـا** " (٤) . وإن كـانت هذه العبارة ليست على إطلاقهـا . لأنـه لا يمكـن أن يكـون المسـلم كالكـافر فيمـا يجـب لـه أويُمَكّن منه .

والذي يتعـلق ببحثـنا من الحـقوق هو حـقهـم في تولـي الوظـائف العـامة.

والكـلام فـي الوظـائف التـي يمكـن أن يتقلدهـا أهـل الذمـة فـي الدولـة المسلمة غـير منضبط بنص من القرآن أو السنة، وإنما في مجمله متوقف على اجتهاد الإمام - وفراسته وتغليب المصالح على المفاسد ، وإن كان هناك بعـض الوظـائف ممـا أجمـع الفقهـاء علـى

---

(١)* أحكام أهل الذمة : ابن قيم الجوزية ج٢ - ص٦٥٧ : ٦٦٠ - تحقيق د. صبحي الصالح . وفي رواية الخلال للشروط ذكرها مسندة إلى عمر، أي أن عمر هو الذي اشترط هذه الشروط .

(٢) سورة يس آية ٦ . * المنجد ص ١٣٩.

(٣) عبد الكريم زيدان : المرجع السابق ص ٧٦، نقلاً عن محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامي ص٨١ .

(٤) تطلق هذه العبارة ويقصد بها الأمان الواجب على الدولة نحو المسلم والذمي وحماية عرضه وماله فقط أما المفهوم العام فهو مفهوم باطل .

على جواز توليتهم إياها في الأصل، ووظائف لايمكن بحال أن يمكنوا منها مهما بلغ حسن صناعتهم .

فمن الوظائف العامة التي لايكلف بها الذمي لأن طبيعتها تقتضي أن لا يتولاهـــا إلا مسلم ، لأن من شروط تقليدها للشخص أن يكون مسلما :

الخلافة ، أي الإمامة (١) ، لأن الإمامة في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فـــي حراسة الدين وسياسة الدنيا به (٢) ، فمن البديهي أن يكون رئيس الدولة الإسلامية مسلما، وعلى هذا جرى المسلمون في جميع عصورهم الماضية ...

وهذا الموضع ليس خاصا فيمن يسمى " **خليفة** " بل حتى من يقوم مقامه في رئاســة الدولة " **كالصدر الأعظم** " في الدولة العثمانية مثلا .

ومن الوظائف كذلك : الإمارة على الجهاد ... لأن الجهاد عبادة وذروة سنام الإسلام وله غاياته وحكمه مما يتعذر على غير المسلم أن يتولاها .. وإن جاز لهم أن يقفوا فـــي صف المسلمين للدفاع عنهم وعن د يارهم إلا أنهم لايمكنون من قيادة جيش المسلمين .

مثل هاتين الوظيفتين موضع إجماع لايقبل فيــها اجتــهاد لامــن مجلــس أحكــام عدليةولاشورى .والنصوص في ذلك كثيرة مشتهرة "إلا أن ترو كفرا بواحا .." " أولـــي الأمر منكم .." وغيرها

أما فيما سوى مثل هذه الوظائف فيقول الله تعالى موجها عباده المسلمين إلـــى أخــذ الحيطة والحذر من أعدائهم في الدين ﴿**يا أيــها الذيــن آمنــوا لاتتخــذوا بطانــة مــن دونكم،لايألونكم خبالا، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر**﴾ (٣) .وعليه فكل مافيه علو وارتفاع على المسلمين لا يتولونه لأنــه يعــارض الصغار

تقلد الذمي للقضاء:

من المباحث المهمة والمتعلقة بموضوع بحثنا مسألة تولية الذمـــي القضـاء بيـن الذميين وتمكينهم من فتح محاكم خاصة بهم تحكم وفق شرعهم أو قوانينهم الوضعيــة أو أي قوانين يخترعوها من عند أنفسهم. وهذه المسألة كانت مشتهرة في أواخر تـــاريخ الدولــة العثمانية خاصة، بل كانت من الحقوق التي نصت عليها معاهدة الامتياز.

---

(١) الجويني : الارشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد . ص ٤٢٧ ، ج ٤ / ١٢٩ -١٣٠ متن المنهاج ومغني المحتاج .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٣٣.

(٣) سورة آل عمران آية ١١٨ .

والقضاء من الولايات الدينية بل من أعظم الولايات، وهي تلي الإمامة العظمى في الأهمية، فهل يجوز تعيين قاضي ذمي على أهل الذمة ؟

قولان مشهوران في المسألة:

القول الأول: أنه لا يجوز تعيين غير مسلم قاضيا مطلقا.

وهو قول الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية (١) .

القول الثاني:جواز تعيين الذمي قاضيا على أهل الذمة ـ في أحوالهم الشخصية ـ، وهذا قول الأحناف (٢) .

وحجة الحنفية أن الذمي أهل للشهادة على مثله والشهادة من بـاب الولايـة فكذايجـوز أن يقضي بين الذميين (٣) .

واستدل الجمهور بعدة أمور منها:

- أن القضاء وظيفة دينية فلا يجوز أن يتولاها غير المسلم.
- أن القصد من القضاء فصل المنازعات بأحكام الشريعة ، والكافر جاهل بها .
- القياس على الشهادة فكما لايجوز استشهادهم فكذلك استقضاؤهم بل القضاء أهم وأشد وقبول شهادة الذمي على مثله لم يقل به إلا الحنفية.
- أيضا إذا جاز استقلالهم بالقضاء فهذا يعني أنهم (لم يلتزموا بأحكام الإسلام) المفروضـة عليهم، ولم يصح هناك فرق بينهم وبين أهل الصلح ؟

وأخيرا فما من شك أن استقلالهم هذا يعني الإقرار علـى الظلـم والتحـاكم إلـى الطاغوت وهذا لا يقره مسلم (٤).

أما قوله تعالى:{**فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضـروك شـيئا ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين**} (٥).

فاختلف العلماء فيها على قولين محكيين عن الإمام الشافعي :

الأول:أن فيها تخييرللإمام إن شاء حكم بينهم وإن شاء تركهم فأعرض عنهم وردهم لدينهم.

الثاني: أن التخيير منسوخ .

---

(١) في المالكية ، مواهب الجليل (٨٧/٦)؛ الشافعية، مغني المحتاج (٣٧٥/٤)؛ الأحكام السلطانية للماوردي(٦٥)؛ الحنابلة، كشاف القناع(٢٩٥/٦)؛ المحلى لابن حزم(٥٠٩/١٠). أنظر د.عبد الله الطريقي (الإستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي ص٣٥٢).

(٢) الفتاوي الهندية (٣٩٧/٢).

(٣) عبد الله الطريقي، الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي(٣٥٣)، ط:١٤٠٩هـ.

(٤) انظر ترجيح الأقوال وأدلتها : عند عبد الله الطريقي، المرجع السابق، ص٣٥٢-٣٥٥. وكذلك: التشريع الإسلامي بغير المسلمين للشيخ عبد الله المصطفى المراغي(١٠١) ، وكذلك عبد الكريم زيدان، المرجع السابق (٧٦-٧٩).

(٥) سورة المائدة آية:٤٢.

قال ابن عباس: آيتان نسختا من المائدة، آية القلائد، وقوله تعالى:﴿فاحكم بينهم أو أعرض عنهم﴾ ، أما القلائد، فنسخها الأمر بقتل المشركين حيث كانوا. وأما الأخرى فنسخت بقوله تعالى:﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ (١) (٢).

وروي عن ابن عباس أن الآية في المائدة قوله تعالى:فاحكم بينهم أو أعرض عنهم إنما نزلت في الدية بين بني قريظة وبني النضير.

وذلك أن بني النضير كان لهم شرف فيدون دية كاملة، وأن بني قريظة يدون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ، فأنزل الله تعالى فيهم فحملهم رسول الله على الحصة في ذلك، فجعل الدية سواء (٣) .

وقد أطال النفس الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية وذكر أقوال و حجج من قال بأن هذه الآية منسوخة. ومن ذهب إلى أنها ثابتة إلى اليوم ، لم ينسخ منها شيء ، وللحكام من الخيار في كل دهر بهذه الآية، مثل ما جعله الله لرسوله.

وممن قال بعدم النسخ الشعبي ، وعطاء ، والنخعي ، وعمرو بن شعيب ، وقتادة.

وممن قال التخيير منسوخ ، وعلى الحاكم إذا احتكم إليه أهل الذمة أن يحكم بينهم بالحق ، وليس له ترك النظر بينهم: عكرمة ، والحسن البصري ، مجاهد ، والسري... وابن عباس(٤) كما أسلفت.

واختار ابن جرير (قول من قال: إن حكم هذه الآية ثابت لم ينسخ وأن للحكام من الخيار في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم ما احتكموا ، وترك الحكم بينهم والنظر ، مثل الذي جعله الله لرسوله من ذلك) (٥).

ووجه ترجيحه ـ رحمه الله ـ أنه لا يصار إلى القول بالنسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآتيين وورود الخبر بذلك.

ولكن لا تخفى أمور عند النظر في هذا الخبر المذكور في الآية منها:

– أن بني النضير وبني قريظة الذي دارت الروايات في سبب النزول حولهم لم يكونوا حينئذ أهل ذمة وتؤخذ فيهم الجزية ، وإنما معاهدين فقط على الصلح. فأهل الذمة لا يجوز ذلك فيهم أصلاً. (وبنو قريظة قتلوا عن آخرهم لما نزلو على حكم رسول الله) (٦).

---

(١) سورة المائدة آية: ٤٩.

(٢) أحكام القرآن ، عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكياهراسي (٧٥/٣).

(٣) المرجع السابق : ص ٧٦ ـ ٧٨ .

(٤) انظر تفسير الطبري(٥٨٤/٤-٥٨٦).ط١، ١٤١٢هـ لدار الكتب العلمية ، بيروت.

(٥) ابن جرير الطبري، المرجع السابق (٥٨٦/٤).

(٦) أحكام القرآن ، الكياهراسي (٧٧/٣).

- روي عن الحسن وعن مجاهد و الزهري أن الآية وهي قوله تعالى:﴿**وأن احكم بينهم بما أنزل الله**﴾ نزلت في شأن الرجم حين تحاكموا إليه وهم أيضاً لم يكونوا أهل ذمة ، وإنما تحاكموا إليه طلبا للرخصة وزوال الرجم ، فصار النبي عليه السلام إلى بيت مدراسهم ووقفهم على آية الرجم ، وعلى كذبهم وتحريفهم كتاب الله تعالى . ورجم اليهوديين... ثم قال بعد ذلك عماد الدين الطبري الشافعي: " وهذا يدل على أن أهل الذمة محمولون في عقودهم وقضاياهم على موجب أحكام المسلمين كالمسلمين "(١).

وبهذا يتضح أن الآية ليست في مجال ما تم تقريره سابقا من قول الجمهور من عدم جواز تنصيب قاض من أهل الذمة ولو على أهل ملته.

وبالتالي عدم سماح الدولة بفتح محاكم خاصة للدول الأجنبية لرعاياها غير المسلمين كما حصل في الدولة العثمانية عقب معاهدات الامتياز التي سيأتي تفصيلها إن شاء الله...

ومما يترتب على القول بجواز تنصيب قاضٍ من أهل الذمة أو فتح محاكم خاصة بهم ، أن يسمح بالحكم بالطاغوت وبغير ما أنزل الله في دار الإسلام.

(وإذا جاز استقلالهم بالقضاء فما معنى "التزامهم بأحكام الإسلام" إذن؟ وما الفرق بينهم وبين أهل الصلح؟) (٢).

يلي هذه المسألة أهمية عند الفقهاء قديماً عليهم رحمة الله ؟، مسألة استعمال أهل الذمة في الولايات والوظائف ، وأقصد هنا غير ما سبق بحثه من محل الإجماع على جوازه أو على عدم جوازه كالإمامة والوظائف الدينية...

* مسألة : استعمال الذميين وإشراكهم في الولايات والوظائف:

كان لاتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة أهل الذمة في دار الإسلام ، وانتشارهم حتى بلغوا من الكثرة أن أصبحوا هم سادة بعض البلاد ، لما لهم من خبرات أو عوائل ذات سيادة قديمة (قبل الإسلام) أو ومراكز عالية ، فعمت بهم البلوى ولجأت الدولة الإسلامية في أحيان كثيرة من تاريخ المسلمين إلى رجال من أهل الذمة وعهدت إليهم بكثير من الوظائف على اختلاف مستوياتها!!

فكانت هذه المسألة من الحوادث المتجددة والنوازل التي تحتم على الفقهاء بحثاً جليا لفروع هذه القضية.

ويمكن حصر أقوال الفقهاء في هذه المسألة إلى ثلاثة أقوال:

---

(١) المرجع السابق(٣/٧٨).

(٢) د. عبد الله الطريقي ، المرجع السابق(٣٥٥).

القول الأول :

إبعاد أهل الذمة عن جميع الوظائف والولايات وإن صغرت وعدم جواز توليتهم مطلقا مهما كانت الحال وإن دعت إلى ذلك الحاجة.

وهذا القول نسبه ابن القيم (١) وغيره إلى الجمهور ، وكذلك ابن مفلح (٢) . وممن أشار إلى هذا الجصاص (٣) من الحنفية ، والقرطبي (٤) من المالكي ، وأبو أمامة بن النقاش من الشافعية وابن حزم (٥) من الظاهرية) .

القول الثاني :

إن الأصل عدم جواز توليتهم ، وقد يجوز عند الضرورة أو الحاجة الشديدة على الأمور غير المهمة.

وقد يفصل بعضهم فيفرق بين الولايات التنفيذية فقط فيجوز توليتهم إياها ، بخلاف الولايات العامة المطلقة ، وهي التي يفوض صاحبها تفويضاً مطلقاً ، فلا يجوز إسنادها لغير المسلمين. وهذا التفصيل الأخير مذهب أبي الحسن الماوردي (٦).

أما التقيد بالضرورة فقط فهو رأي ابن الهمام في فتح القدير(٧) . وكذلك قد يفهم من كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره حيث قال :"لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم..." (٨).

القول الثالث :

أن الأصل هو جواز تولية الذمي جميع المناصب عدا المناصب الدينية ، والإمامة العظمى والقضاء على المسلمين (أي مواضع الإجماع التي سبق ذكرها).

وذهب إلى هذا الرأي كثير من الباحثين المعاصرين على رأسهم:

أبو الأعلى المودودي في كتاب (نظرية الإسلام وهديه) (٩) ، ود. عبد الكريم زيدان (١٠).

---

(١) أنظر أحكام أهل الذمة (٢٠٨).

(٢) انظر الذهبي، ابن مفلح، الآداب الشرعية(٢/٤٤٤-٤٤٦).ط قرضية القاهرة. وقد ذكر رواية أبي طالب عن الإمام الأحمد في أهل الذمة : لا يستعان بهم في شيء.وكذلك كلام شيخ الإسلام في بداية كتابه: إقتضاء الصراط المستقيم.

(٣) أحكام القرآن له(٢/٣٦-٣٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن(٤/١٧٨-١٨٠).

(٥) المحلى (١٢/٥٢٤) .

(٦) الأحكام السلطانية(٢٧).

(٧) شرح فتح القدير(٦/٦١).

(٨) تفسير ابن كثير (١/٣٩٨).

(٩) نظرية الإسلام وهديه (٣٦٢).

(١٠) أحكام الذميين والمستأمنين (٧٨).و نحى هذا المنحى أيضا وهبة الزحيلي (آثار الحرب) له .

واستدل الجمهور على مذهبهم بأدلة عامة من القرآن الكريم والسنة ، وأدلة خاصة في المسألة ونذكر طرفا منها:

من أصرح الأدلة في القرآن ما استدل به ابن القيم وابن مفلح والجصاص وغيرهم ممن ذهب هذا المذهب.

١- قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون**﴾ (١).

قال ابن مفلح في تأويله لهذه الآية: (بطانة الرجل تشبيهه ببطانة الثوب الذي يلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون عليه بخلاف غيرهم).

وقوله: ﴿**من دونكم**﴾ أي من غير أهل ملتكم.

قوله: ﴿**لا يألونكم خبالا**﴾ أي لا يبقون غاية في إلقائكم فيما بضركم والخبال الشر والفساد.

﴿**ودوا ما عنتم**﴾أي يودون ما يشق عليكم من الضر والشك والهلاك، والعنت والمشقة.

﴿**قد بدت البغضاء من أفواههم**﴾ قيل بالشتم والوقيعة في المسلمين ومخالفة دينكم ، وقيل باطلاع المشركين على أسرار المؤمنين...

قال القاضي أبو يعلى(٢) :

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة ، ولهذا قال الإمام أحمد:

لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب(٣).

٢- قوله تعالى: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون**﴾ (٤).

وفي معنى ﴿**لا تركنوا**﴾عدة تأويلات ذكرها ابن الجوزي في تفسيره:

أ - لا تدنوهم.

ب - لا تميلوا إلى المشركين.

جـ - لا ترضوا بأعمالهم.

د - لا تداهنوهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٨.

(٢) أنظرالأحكام السلطانية (٣٢).

(٣) تفسير الآية وما بعده، أنظر: ابن مفلح، الآداب الشرعية (٢/٤٤٤-٤٤٥).

(٤) سورة هود، آية:١١٣.

هـ ـ لا تلحقوا بهم (١).

٣- للجمهور أيات النهي عن موالاة الكفار ، فاستعمالهم نوع من الموالاة المهني عنها!

أ- قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** (٢).

وهذه الآية استدل بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عدم جواز اتخاذ النصراني كاتباً كما في قصته مع أبي موسى الأشعري التالي ذكرها.

ب- قوله تعالى: **﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير﴾**(٣) .

قال ابن جرير:

" وهذا نهي من الله عز وجل للمؤمنين أن يتخذوا الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً " (٤) .

٤- ما اشتهر عن عمر أنه نهى عن استعمال الكفار مطلقاً.

وقصة نهيه لأبي موسى حيث استأذنه أن له كاتبا نصرانيا . فقال: مالك؟ قاتلك ، أما سمعت الله يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ...﴾الآية ألا اتخذت حنيفاً؟ قال: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه ، قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله (٥).

* أدلة القول الثاني: وهو من يقين الاستعمال بالضرورة والحاجة الشديدة.

ـ نفس أدلة القول الأول إلا أنهم قالوا بأن المنع المطلق قد يترتب عليه وقوع ضرر ومشقة وحرج على الدولة الإسلامية ، (و معلوم من قواعد الشريعة ما يبيح مثل هذه المسألة).

ـ أيضا أن التكليف بغير الوظائف الدينية نوع من الإجارة ، واستئجار الذمي جائز بلا ريب .

* أدلة القول الثالث: وهو مذهب من يقول بالجواز المطلق ، وهو اتجاه أغلب المعاصرين.

---

(١) أنظر زاد المسير(٤/١٦٥) .

(٢) سورة المائدة، آية:٥١.

(٣) سورة آل عمران، آية:٢٨.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري(٣/١٥٢).

(٥) هذه القصة رواها عبد الله بن الإمام أحمد كما ينقل ابن القيم (أحكام أهل الذمة(٢١٠))، وابن أبي شيبة(٨/٤٧٠)، والبيهقي في السنن الكبرى(٩/٢٠٤)، وانظر تفسير ابن كثير(١/٣٩٨)، وانظر عبد الله الطريقي،المصدر السابق(صـ٣٧).

أ ـ قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفوههم...** ﴾

قالوا: إن الآية لم تنه مطلقا وإنما قيدت النهي بقيود... من ظهرت عدائتهم ، وأن تتخذوا بطانة ، فإن كانوا دون البطانة في المركز والأهمية فلا حرج....(١) .

ب ـ استدلوا كذلك باستعمال النبي صلى الله عليه وسلم لأسرى بدر(وهم مشركون!) فداءاً لهم من الأسر بتعليم أبناء الأنصار كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه: "كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءَهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، قال: فجاء يوما غلام يبكي إلى أبيه ، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي ، قال: الخبيث يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً " (٢) .

وهذا صريح في استعمال غير المسلمين في شأن من شؤون الدولة الإسلامية (٣) .

جـ- وكذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عينا من خزاعة يخبره عن قريش ، وهذا العين كان كافرا وأسندت إليه مهمة خطيرة.وهذامما يدل على جواز إسناد وظائف الدولة العامة إلى الذميين ما داموا أهلاً لها من حيث الكتابة والثقة والأمانة (٤).

القول الراجح :

بالنظر الى أدلة القول الاول نجد أنها صحيحة ولكنها غير صريحة في النهي المطلق عن استخدام الذميين في جميع الوظائف خاصة مع متابعتنا لواقع المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين

والقول الراجح القول الثاني: وهو الوسط القائل بجواز تولية الذمي للوظائف العادية التي ليس فيها استطالة على المسلمين عند الحاجة وعدم وجود الكفئ المسلم، وكذلك الوظائف التنفيذية التي يكون فيها الموظف مجرد منفذ لأوامر من فوقه لا سلطان فيها على أحد.

ووجه هذا الترخيص:

أولا: بالنسبة لمنع إسناد الوظائف العامة إلى الذمي.

أ ـ وجود الأدلة الكثيرة والظاهرة في الدلالة ، وهو ما استدل به أصحاب القول الأول.

ب ـ أنه لم يعهد أن أحدا من الولاة المسلمين في صدر الإسلام ولى ذميا شيئا في تلك الولايات.

---

(١) أحكام الذميين والمستأمنين، د. عبد الكريم زيدان (صـ ٧٩).

(٢) مسند أحمد (٢٤٧/١)، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح(٤٧/٤).

(٣) أحكام الذميين المستأمنين(٧٩-٨٠).

(٤) المرجع السابق(٨).

جـ - أن الوظائف العامة فيها ولاية وسلطة وصلاحيات تجعل صاحبها من أهل الحل والعقد، والكافر لا سلطان له على المسلمين كما قال تعالى:﴿**ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**﴾(١) .

د - ثم إنها وظائف غير مناسبة للكافر لأنها تتطلب أمرا مهما هو: الإيمان بأهمية هذه الوظائف وأنها أمانة عظيمة ومسؤولية شرعية وهذا لا يوجد إلا في المسلم هذا إلى أن الدولة كلها تقوم على العقيدة الإسلامية فهي دولة عقدية ذات أصول ثابتة ، وليست دولة دنيوية صرفة ومن غير المعقول أن تسند الأعمال المهمة في هذه الدولة إلى من لا يؤمن بأصولها وأسسها(٢) .

ثانيا: أما وجه القول بجواز الوظائف العادية عند الحاجة فلما سبق أيضا ومنها :

أ - قصة تعليم أسرى بدر صبيان الأنصار الكتابة.

ب - استئجار النبي ﷺ للرجل الدليل يوم الهجرة .

جـ - لما تقرر في الشرع أن التعامل والتعاون مع الكفار في الامور العادية أمران جائزان.

د - قول الجمهور بجواز استطباب الكافر.

هـ - لأنه لا سلطة في هذه الوظائف العامة ولاهيمنة فيها على الناس، الأمر الذي لا يترتب عليه ضرر(٣) .

ويجب أن ننبه إلى أنه مع ترجيح هذا القول عند بعض العلماء إلا أنهم قيدوه بأمور منها :

أولاً: وجود الحاجة إلى الكافر.

ثانياً: عدم وجود المسلم الكفؤ الذي يقوم بنفس العمل.

ثالثاً: أن يكون محل ثقة وأمانة ولم يعهد عليه خيانة.

رابعاً: أن يكون مؤهلا للوظيفة.

خامساً: أن تقوم الدولة الإسلامية بتأهيل المسلمين للقيام بهذه الأعمال وعدم تركها لغير المسلمين .

وأختم هذا المبحث بما قاله الإمام الحافظ ابن القيم في الطرق الحكمية :

"يجب على كل ولي أمر أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل ، والأمثل فالأمثل وإن كان فيه كذب وفجور"(٤)

---

(١) سورة النساء، آية: ١٤١.

(٢) عبد الله الطريقي المرجع السابق(٣٨٢).

(٣) انظر الترجيح بين الأقوال ومناقشة الأدلة، المرجع السابق (٣٧٤-٣٨٣).

(٤) ابن القيم الطرق الحكميه ،

الفصل الأول

علاقة أهل الذمة بالدولة العثمانية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول :

تسلل أهل الذمة إلى دوائر الدولة العثمانية

المبحث الثاني :

الامتيازات الأجنبية ـ عرض وتحليل

المبحث الأول

تسلل أهل الذمة إلى دوائر الدولة

وفيه مطالب :

المطلب الأول : مجال الصناعة والتجارة

المطلب الثاني : مجال الترجمة لأهم الوزراء

المطلب الثالث : مجال الاستشارة

المطلب الرابع : مجال الحريم السلطاني

المطلب الخامس : نماذج لبعض الوظائف والمراكز الأخرى

تسلل أهل الذمة إلى دوائر الدولة

أهم الوظائف التي شغلها أهل الذمة منذ أوائل تاريخ الدولة (قبل عصر الضعف) :

أولا : في مجال الصناعة والتجارة :

كان هناك اعتماد شبه كلي على أهل الذمة في مجالي الصناعة والتجارة ، ربما لمهارة اليهود في التجارة ولعدم اكتراث العثمانيين بالصناعة .

يقول برناردلويس :

(انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : الحرب ، والدين ، والحكم - أساس النظام البيروقراطي والزراعة فقط ولم تباشر نشاطا يذكر في مجال الصناعة والتجارة ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين) (١) .

ولم تلتفت الدولة لمجال الصناعة على أهميته ، ولم تسيطر على التجارة على خطورتها حيث تمثل عصب الحياة في الدولة بين رعاياها إلا في فترات متأخرة من عهد الضعف ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين من أهل الذمة .

فلقد ساهم أهل الذمة والأجانب في تنشيط الحركة التجارية في كافة أنحاء الدولة العثمانية. وقد تمتع اليهود في مدن بر الشام الرئيسية بنفوذ تجاري كبير ، فقد سيطروا على تجارة (صفد ودمشق) ولعبوا دوراً بارزاً في (بيروت ، وحلب وعكا ، وحيفا) وكان منهم في (دمشق) وحدها أكثر من أربعة وعشرين بيتاً تجارياً رأسماله قرابة خمسة ملايين فرنك ، كي يسيطروا على تجارة دمشق مع بريطانيا ، واشتهر من تجارهم اثنان من آل فرجى ، هما : مراد ونسيم .

وقد استفادوا من أحداث ١٢٧٧هـ ـــ ١٨٦٠ م (المذابح المشهورة) فاستردوا المنهوبات بأسعار بخسة، وأقرضوا المسلمين أموالا بفوائد مرتفعة لدفع الغرامات المفروضة على المسلمين(٢) .

كما سيطر اليهود على أسعار النقد وتلاعبوا بها ، وسيطروا على القوافل وجملوها على الاستراحة (٣) .

---

(١) انظر الشناوي عبد العزيز : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جامعة الأزهر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ج١/ ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) دائرة معارف البستاني مادة " دمشق " .

(٣) انظر عبد الكريم غرايبه ، سورية في القرن التاسع عشر ص ١٢٩ .

وقد جاء في معرض الكلام على أحداث الثورة اليونانية في كتاب (دور الكنسية) بيان سيطرة أهل الذمة من النصارى على أنواع الحرف والتجارة ومايسمى " بالفن " ، فقد كانت كلها في يد الأروام - خاصة شبكة السكك الحديدية (١) .

من أهم الأمور التي ساعدت على سيطرة أهل الذمة على قطاعي التجارة والصناعة ماكان في أيديهم أصلا من مدارس صناعية تجارية ومعاهد تقنية لم تكن منتشرة لأبناء الدولة ، فامتاز أبناء الأقليات من الأرمن والروم واليهود على أبناء المسلمين بالحصول على الشهادات العالية التي كانت تمكنهم من تقلد الوظائف الحكومية بل السيطرة على الدوائر الحكومية نظراً لحاجة الدولة إلى من يتقن عدة لغات أجنبية إضافة إلى حاجتها لمن يعرف الحسابات المالية الدقيقة ، والقوانين التجارية العالمية ، فكانت الدولة تستخدم هؤلاء على حساب عدم توظيف الشباب العثماني المسلم الذين كانوا يبحثون عن العمل ولايجدونه. ولم يكن أولئك الأجانب من أهل الذمة على تمتعهم بما يسمى بالوطنية العثمانية يعملون بجد وإخلاص بل كانوا يفشون أسرار الدولة إلى أعدائها من الدول الأجنبية ، وكانوا في معظمهم عملاء تلك الدول الصليبية .

إضافة لتلك الوظائف الحكومية أصبح اقتصاد البلد في أيدى هؤلاء اليهود والنصارى. نظراً لسيطرتهم على التجارة والصناعة والتي تمثل أهم المجالات الإقتصادية في البلد، وهذه السيطرة نتجت على يد من تخرجوا من المدارس الصناعية والتجارية المنشأة من قبل الأجانب فأصبح أبناءهم صناعاً وتجاراً ، ووصلوا إلى وضع اقتصادي واجتماعي مرموق حيث اقتصرت المؤسسات الإقتصادية في الدولة العثمانية على الأجانب والمتقنين للغات الأجنبية وخاصة في القرن التاسع عشر الميلادي .

وأصبح دخول المدارس الأجنبية الوسيلة للحصول على هذه المؤسسات الإقتصادية والتجارية على مافيها من سموم (٢) (كما سيأتى تفصيله في مبحث دور أهل الذمة في نشر الأفكار الهدامة عن طريق المدارس، فقد كانت تركز على جانبين مهمين على وجه العموم المواد التجارية واللغات الأجنبية ولا أقول لغة واحدة فحسب بل عدة لغات في وقت واحد . ويسعون من وراء ذلك إلى هدفين أساسين :

أولا : نشر اللغة والثقافة الاجنبية بين الشعب .

ثانيا : محاولة السيطرة على موارد الدولة نتيجة توظيفهم في كافة الدوائر الحكومية بكل يسر وسهولة .

---

(١) انظر دور الكنيسة في هدم الخلافة . مرجع سابق ص ١٠٦.

(٢) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار .

ولذلك يقول الدكتور عبد الستار فتح الله في كتابه(الغزوالفكري والتيارات المعادية للإسلام):

(قلما تجد زعيماً وطنياً ممن تصدى لقيادة التغيرالإجتماعي ، إلا وهو خريج هذه المدارس الأجنبية أو متزوج لخريجة منها) (١) .

عوامل التساهل من الدولة العثمانية :

نتيجة مساهمة أهل الذمة والأجانب في تنشيط الحركة التجارية في كافة أنحاء الدولة العثمانية عاد على الخزينة المركزية بالأموال الوفيرة التي مكنت السلاطين من الإنفاق بسخاء على جيوشهم وحروبهم (٢). وكانت الدولة تأخذ عليهم ضريبة تجارية بدأت ٢٪ وزادت إلى ٥٪ مما جعل التجار الأجانب يستاؤون من ذلك ، ولكنهم لم يلبثوا أن رضخوا، لأن أرباحهم من تجارتهم كانت وفيرة في دولة شاسعة الأطراف ، كثيرة الخيرات ، يسودها الأمن والطمأنينة على عكس بقية أنحاء أوروبا النصرانية، فأصبحت التجارة في الدولة العثمانية نداً لتجارة إيطاليا ذات الشهرة القديمة ، بل إنهم لم يلبثوا أن حلوا محلهم في أغلب المراكز التجارية بين الشرق والغرب. وازدهرت صناعة المنسوجات القطنية في الأناضول ، وصناعة الأصواف في أنقرة والمنسوجات الحريرية في استانبول وبروسة . وأصبحوا هم المصدرين لتلك البضائع لكثير من دول أوروبا (٣) ، بل كانت (بروسة) خلال القرن الخامس عشر مركزا هاما من مراكز التجارة الفارسية بين فارس وأوروبا .

وللأسف ـ كما هو واضح من السياق ـ أن التجار المسيطرين على هذه الحركة النشطة هم من أهل الذمة ، وإن لم يكن كلهم منهم، ولكن جلهم من اليونانيين والفناريين خاصة فإن هذه الطائفة من الفناريين في وقت ضعف الدولة العثمانية في رغد في العيش بالإضافة إلى معاناة سكان اليونان في تلك الفترة من الفقر والفاقة .

كان الفناريون ورجال الكنسية الأرثوذكسية من اليونانيين المتمركزين في استانبول يعيشون في ثراء كبير ، ويتمتعون بالسلطة والنفوذ ، وأعلى المناصب في الدولة (٤) .

وكان من مظاهر سيطرتهم على تجارة البلاد أن حيهم منذ عام ١٠١٠هـ ـ ١٦٠١م أصبح المركز التجاري الأول ، يتجمع فيه اليونان أو الفناريون بالثروات الضخمة ،

(١) انظر د. سعيد عبد الستار فتح الله : الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ط ١٩٧٧م ، ص ١٤٠.

(٢) محمد كمال دسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ط ١٩٧٦م دار الثقافة بالقاهرة . ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٦.

(٤) محمد كمال دسوقي : المرجع السابق ص ١٢٧.

وأصبح منهم جباة الضرائب والسماسرة . وسيطروا على تجارة القمح بالبحر الأسود ولعبوا دورا كبيرا في تجارة البحر الأبيض المتوسط . (١)

وكذلك حصل لهم بعد عقد معاهدة كارلوفيتز عام ١١١١هـ ـ ١٦٩٩م كثير من الانفتاح في التجارة مع البندقية والنمسا وغيرهما .

فعملوا ـ مرة أخرى ـ على نقل المواد الخام ، كالقطن ، والصوف والجلود من شبه جزيرة البلقان إلى وسط أوروبا .

وازدهرت أحوال التجار النصارى من رعايا الدولة العثمانية ـ أيضا ـ نتيجة المعاهدات الروسية العثمانية التي عقدت عام ١١٨٨هـ ـ ١٧٧٤م ثم عام ١٢٠٧هـ ـ ١٧٩٢م . ومن ضمن قراراتها أن يسمح لليونانيين رعايا السلطان العثماني برفع العلم الروسي على سفنهم وفتح المضايق، ففتحت تلك المعاهدات مجالا واسعا أمام اليونانيين النصارى ومهاراتهم في ركوب البحر ، فانتشرت جماعاتهم وتجاراتهم في مقاطعات جنوب روسيا ، التي غمرتها منتجات اليونان من الفاكهة والنبيذ والصابون ، والزيوت ، فكون التجار ثروة طائلة من نقل تجارة القمح للروس الآخذة في الازدهار بسرعة هائلة . وكان رفع العلم الروسي يسهل لهم كثيراً في البحر الأسود والسيطرة على الدردنيل والبوسفور.

تبع ذلك قيام الجمعيات التجارية اليونانية في مختلف الموانئ الروسية على البحر الأسود (٢).

هذا عن السلع الاستهلاكية ، إلا أن حرص كثير من أهل الذمة لم يقتصر على هذا النوع من التجارات بل زاد إلى محاولة السيطرة على العقار ، وامتلاك الأراضي الشاسعة، مقابل مايسيطرون عليه من نقد ونفوذ على الولاة ففي أوائل القرن العشرين أي بعد عام ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م ، تضاعف نشاط اليهود في بلاد الشام ، وغرب نهر الأردن خاصة ، حيث تملكوا مائة ألف دونم وثلاث مستعمرات (زمارين ، خضيرة ، وعتليت) وفي فضاء حيفا واشتروا أم العلق وبديكة والمراح وزكور بيدوس وغيرها من الإقطاعيين ، وكان لهم نفوذ كبير لدى السلطات المحلية ، فكان لهم ممثل في مجلس إدارة حيفا واستطاعوا أن ينقلوا الموظف الذي لايسايرهم .

* وقد بلغ حجم نفوذهم الأرقام التالية :

بلغ عددهم قبل الحرب العالمية الأولى في طبريا ٤٢١٠ يملكون ١١٤ ألف دونم أي أكثر من ثلث مساحة الفضاء ، أما في صفد فقد ازدادوا إلى أكثرمن ستة آلاف وسيطروا

---

(١) دسوقي ص ١٢٢-١٢٣ نقلا عن وليام ميلر ص ٥٧ ـ ٦٠ .

(٢) انظر محمد كمال دسوقي : المرجع السابق (ص ١٢٦ ـ ١٢٨).

على تجارة الفضاء واشترى الوالي العثماني من آل سرسق عشرين قرية من قرى الناصرة ومرج بني عامر، ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي كانت تملكها الحكومة بين عامي ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م و ١٢٨٩هـ - ١٨٧٢ م وشرع ببيعها لليهود .

وباع سرسق عام ١٣٢٨هـ - ١٩١٠م القولة إلى اليهود بملبغ عشرين ألف ليرة عثمانية نفس المبلغ الذي دفعه سرسق ثمناً للسبعين ميلاً التي اشتراها من الحكومة ، وحاول قائم مقام الناصرة **شكري العسلي** أن يقف في طريقة البيع ولكن والي بيروت وافق عليه (١) .

*** من الآثار السلبية لتلك السيطرة التجارية لأهل الذمة :**

كان من أهم الآثار السلبية لتلك الثروة الطائلة بأيدى اليونان على الصعيد الداخلي للدولة العثمانية - أمران مهمان :

أ - تشجيع وتمويل المشاغبين من الخارجين على السلطان من أهل الذمة في الصرب وغيرها .

ب - التأثير على أصحاب المناصب والتدخل في شئوون الدولة الخاصة والعامة بالاعتماد على ثرواتهم ورشاويهم ، وتعيين من يشاؤون من موظفين في الدولة يخدمون لهم مصالحهم ويكونون عوناً لهم عند الحاجة في المستقبل .

يضاف إلى ذلك أن هذا الاستقرار الإقتصادي الذي كان ينعم به اليونانيون قد ساعد في ظهور طبقة وسطى جديدة أحيت نهضة فكرية نشطة كانت جواً مناسبا لقيام الحركة اليونانية التي أدت إلى قيام الثورة اليونانية فيما بعد ، والمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية .

ماسبق من الملحوظات كان على الصعيد الداخلي للدولة والذي كان من أبرز ثمراته الثورة اليونانية في القرن التاسع عشر رغم ماكان ينعم به أهل الذمة في تلك المقاطعة من الرخاء وما تتمتع به من الثراء عند الكثير منهم ، ولم تكن أبدا تعاني من الفقر كما يحاول بعض المؤرخين المستشرقين أن يصوروها ، ولم تكن هناك حالة بؤس وشقاء تحت نظم الحكم العثمانية أدت بهم إلى الثورة التي نشبت في سنة ١٢٣٧هـ مارس ١٨٢١ م بل العكس هو الصحيح .

إن بلاد اليونان تمتعت برخاء لم تعرفه كثير من دول أوروبا الغربية في ذلك الحين وهذا الرخاء كان جواً مناسبا - كا سبق ذكره - تمت فيه الحركة الوطنية اليونانية التي أدت

---

(١) أسعد منصور : تاريخ الناصرة ، ط القاهرة ١٩٤٢م انظر ص ٢٨٦ - ٢٨٨.

إلى قيام الثورة والمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية . وتبع ذلك تدخل من الدول الكبرى بشئوون رعايا الدولة من النصارى .

أما عن أثر ذلك على النظام الإقتصادى فإن ذلك يظهر جليا في إضعاف وجود التجار الفرنسيين ـ الذين كانت لهم السيادة في شواطيء الدولة ـ في الموانيء العثمانية وإنهاء وجودها تماماً من الموانيء اليونانية وكذلك بقية التجار من غرب أوروبا .

وكذلك إضعاف وجودهم في تجارة الشرق الأدنى (١) .

وهذه الهزة الإقتصادية لدول أوروبا من قبل التجار اليونان لم تكن مما يستهان به، بل قد وصل حجم الأسطول التجاري اليوناني في عام ١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م إلى رقم ضخم لم تعرفه أوروبا من قبل ؛ فقد امتلك التجار اليونانيين ٦١٥ سفينة ، عليها ٨٧٨ مدفعاً لحراستها ، وتبلغ حمولتها أكثر من ١٥٣ ألف طن ويعمل بها أكثر من ٣٧ ألف بحار(٢).

ثانيا : في مجال الترجمة لأهم الوزراء :

عرض سريع لتشكيل الحكومة وتوزيع المناصب الكبرى في الدولة :

كان هناك " الديوان الهمايوني " كما يسمى في الدولة أو الديوان ، ويشبه بعض المؤرخين والمفكرين هذ الديوان في الدولة بمجلس الوزراء في العصر الحاضر .

وكان يرأس هذا الديوان السلطان نفسه ـ وهذا إلى فترة السلطان سليمان ـ فقد كان الخليفة بنفسه هو الذي يقوم على شؤون الدولة الداخلية والخارجية ومنها رئاسة الديوان إلى أن تغيرت هذه العادة الحسنة بعادة سيئة سار عليها الخلفاء من بعد السلطان سليمان .

وأصبح الذي يرأس الديوان أو مجلس الوزراء ، الصدر الأعظم ، ويتفرع عنه بقية الوزراء وكان أشهرهم ـ أى الوزراء :

- الريس أفندي .
- النشانجي باشا .
- كخيا بك .
- الباش دفتر دار .
- الدفتر أميني .

والمنصب الذي سنتحدث عنه هو : **الريس أفندي** .

---

(١)انظر مزيد من التفصيل الشناوي ومحمد كمال دسوقي :أوروبا في العصور الوسطى مرجع سابق ص ١٢٦ـ ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٩ .

كان منصب أو مركز الريس أفندي متواضعاً نسبياً بالنسبة لباقي الوظائف الكبيرة إلا أنه ترقى في المراتب والمنزلة إلى أن أصبح في مقام يوازي في وقتنا الحاضر منصب "وزير الخارجية "وكان ينوب عن الصدر الأعظم " الوزير الأول " في حالة غيابه (١). وقد ظهر الاختصاص الأخير والذي ذكرت أنه يوازى منصب وزير الخارجية وهي أعلى مرتبة توصل إليها الريس أفندي في عصر متأخر ، عصر الامتيازات وإنشاء القنصليات والسفارات الأجنبية والمفاوضات مع السفراء غيرهم .

وكان الصدر الأعظم ـ أول الأمر ـ هو الذي يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية والتفاوض معهم . ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وانعزل أكثر السلاطين عن الحياة العامة ومهام الدولة ، وانصرفوا إلى شهواتهم وملذاتهم وأحيلت مسائل السياسة الخارجية إلى الريس أفندي ـ والذي هو في أصله من طبقة القولار (العبيد) ـ !! الذين ينحدرون من أصول صليبية .

وقد استعان هذا الريس أفندي بجهاز متكامل من الخبراء والمترجمين ـ الذين كانوا يزودونه بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والإجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية، كذلك كان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التي تبعث بها السفارات الأجنبية في استانبول إلى اللغة التركية وبالعكس (٢) .

وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن العاشر الهجري السابع عشر الميلادي (أي قبل ذلك بفترة) من أصل أوروبي !! اعتنقوا الإسلام أو تظاهروا به .

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري الثامن عشر الميلادي استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية، والذين كانوا يعرفون بالفناريين . وقد كانوا على حظ موفور من العلم والثقافة ، وسعة الأفق العقلي ، والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحتد) (٣) .

كان هؤلاء الفناريون عائلات عريقة تتمثل فيها ارستقراطية المال والثقافة والجد الأصيل يسكنون حي الفنار باستانبول .

---

(١) انظر فيما سبق الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ص ٣٧٣.

(٢) انظر الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ص ٣٧٣ ـ ٣٧٦.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

وكان رئيس أهم ملة غيرإسلامية في الدولة العثمانية ـ وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية ـ من هؤلاء الفناريين ، ومقره في استانبول ، ويسمى (البطريرك) (١) ، ومع دراية الدولة بأصلهم ، وخطرهم :

كانت الدولة تؤثرهم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالي،وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتي الدانوب تحت السيادة العثمانية) (٢).

فلو قارنا بين موقف الدولة ونظرتها إلى النصارى ـ أمثال هؤلاء الفناريين وإعطائهم صلاحيات ومناصب هي من أخطر المراكز في الدولة ، والتي تؤثر على سير علاقتها ومواقفها مع أعدائها في أوروبا خاصة ، وبين موقف أعدائها الصليبيين منها ، نلاحظ مدى الحيطة عند الكفار والغفلة التي يتقلب فيها المسلمون .

بل ومواقف الدولة المخزية المتأخرة من دعاة التوحيد على يد عاملهم (**محمد علي باشا**) والي مصرفي ذلك الوقت، وتوجيهه إلى ضرب دعوة التوحيد في أرض الجزيرة العربية.

إن هذا الاعتماد على مترجمين من النصارى لم يكن من سمات عصر الضعف فقط ، بل منذ وقت مبكر من بداية علاقات الدولة الخارجية وهي معتمدة على النصارى .

فقد كانت المكاتبات السياسية التي يرسلها السلطان **محمد الفاتح** من ديوانه إلى الغرب وكذلك المعاهدات التي يعقدونها معه تكتب باللغة الرومية وبالطبع كان الكتبة الروم هم الذين يكتبون هذه الرسائل وتلك المعاهدات (٣) .

وقد كانت الكنيسة حريصة على تثقيف ابنائها الثقافة اللازمة لتمكنهم من الترقي في المناصب الحساسة والتي من أبرزها في ذلك الوقت الترجمة والخارجية .

فقد افتتحت البطريركية مدرسة لتعليم مختلف اللغات الأجنبية ، وكان يدخلها الشباب الرومي ، ويقوم أمراء الفنار هؤلاء بإلحاق أولادهم بهذه المدرسة ويضمنون لهم تعلم عدة لغات . وكان هؤلاء الأولاد يتعلمون بجوار لغتهم ـ اللغات التركية ـ والعربية والفارسية بشكل متكامل . وأغلب أبناء الروم هؤلاء من حي الفنار المشهور الذي سبق الكلام عنه .. وفيه مركز البطريركية الروحاني .

---

(١) المرجع السابق ج١ ص ٦ . ولمزيد من التفصيل انظر دائرة المعارف الاستشراقية .

(٢) الشناوي : نقلاً عن وليام ميلر ص ٢٥ ـ ٢٧.

(٣) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ، ترجمة د. محمد حرب ص ١٦.

" في داخل البطريركية عديد من المناصب والمهام الناشطة ، نصفها ديني والنصف الأخر علماني .... إن هؤلاء المنتسبين للكنيسة الأرثوذكسية في حي الفنار وأصحاب الخدمات النصف دينية كانوا مرجعاً في شؤون الدولة العثمانية الداخلية والخارجية وفي الأمور العسكرية كذلك . وقد احتلوا وظائف في الديوان السلطاني بعملهم مع رئيس الكتاب وهو بمثابة وزير الخارجية .

وكان المترجمون في الديوان السلطاني يديرون العلاقات بين الصدر الأعظم ومساعده إلى رئيس الكتاب (وزير الخارجية) من ناحية وبين سفراء الدول الأجنبية من ناحية أخرى.

ونظراً لأن الأروام التابعين للكنيسة يمثلون كل مناصب أعمال الترجمة كليا ـ فمما لاشك فيه ـ وضوح ضخامة الدور الذي يمكن أن يلعبوه في مقدرات الدولة ويستطيعون احداث خطر حياتي في حالة خيانتهم (١) .

ولم يقتصر خطر (المترجمين الروم) على هذا القطاع الخطر ـ بل إن شرهم امتد إلى أغلب المجالات التي بحاجة إلى تراجمة فهذا الأسطول السلطاني كانت إدارة الترجمة فيه موكلة بكاملها إلى الروم، هذا الاعتماد شبه الكلي على الأروام في مثل هذه الوظائف الحساسة ـ وغيرها من الوظائف كما سيأتي ـ يعود إلى النظرة البريئة عند الدولة لهؤلاء الناس، حيث لم تفرق الدولة بين الروم وبين أولادها المخلصين بل إنها اختصت هؤلاء الروم بالمناصب الحيوية وأسندت إليهم الأعمال المهمة ولم تشك فيهم . لانقول طوال الأعوام بل نقول طوال قرون، ومع أن فيهم من ظلّ مخلصاً لصداقته وخدم الدولة بنزاهة واستقامة إلا أنه كان منهم وبكل أسف من استخدم الثقة التي أولتها الدولة إليه استخداماً سيئاً ففيهم من خان الدولة، وهؤلاء يشكلون أغلبية الروم ـ والأمثلة على خياناتهم كثيرة جداً بل تكاد لاتحصى ـ من أهمها تحريفهم الترجمة على الوجه الذي يضر بالدولة.

ونذكر شاهداً على ذلك الحادثة التالية : " قبضت السلطات العثمانية على رئيس المتمردين في المورة وبعض رفاقه فوجدت معهم خطابات خطيرة، فأرسلت هذه السلطات الخطابات إلى الباب العالي . ولم يكن موظفو الباب العالي يعرفون اللغة اليونانية فأرسلوا هذه الخطابات إلى الديوان السلطاني لترجمتها . فقام المترجمون الروم بتأويل مافي هذه الخطابات وإخفاء حقيقتها، وبالتالي لم يفهم بعد مضمون هذه الخطابات بشكل قاطع، وقد اتضح هذا الموقف الخبيث الذى اتخذه المترجمون فلقوا جزاءهم " (٢).

---

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ص ١٦ ـ ١٧

(٢) المرجع السابق ص ١٨.

ومن النماذج والشواهد الدالة على خيانات أهل الذمة في قطاع الترجمة أيضاً،ماكان من (**ديمتراشكو**) ترجمان الجيش - وهو من أتباع كنيسة الفنار أيضاً - كان يعمل جاسوساً لحساب روسيا على الدولة العثمانية (١) .

كان من هؤلاء التراجمة من رقيَّ إلى مرتبة أمير ولاية مثل **ابن الكساندر ماقروكارداتو** - فقد رقيَّ إلى منصب رئيس تراجمة الديوان السلطاني ، ولما عين مديراً عاماً على إقليم الأفلاق عام ١١٢٣هـ - ١٧١١م وجد أن الامراء المحليين قد انضووا حتى عام ١٢٣٧هـ - ١٨٢١م تحت سلطة الروم ، وهكذا أصبح أمامنا ولاية عثمانية أخرى قد تردمت بواسطة أمراء كنيسة الفنار...... ولقد تحولت المملكتين (البغدان والأفلاق) إلى ضيعة لأتباع كنيسة الفنارإذا أدخلنا في حساباتنا أن مصدر متاعب الإدارة هو إدارة الترجمة لديوان السلطان، هذا غير أن شعب الأولاخ - (الأفلاق) كان عديم الصلة بالعرق الرومي اليوناني لكن مع ذلك خضع للسياسة الروحانية للبطريركية الرومية، لتدينه بالمذهب الأرثوذكسي.

للأسف الشديد لم تتنبه الدولة العثمانية إلى خطورة الدور الذي يمثله التراجمة إلا في وقت متأخر جداً . فأخذت بعض التدابير التي تداركت فيها أخطاء الماضي - ولكن بعد فوات الأوان .

والقشة التي قسمت ظهر البعير كما يقال - في حق التراجمة النصارى - مافعلته الدولة من تفتيش مفاجيء للبطريركية في استانبول فوقع في يد المسؤلين الحكوميين العثمانيين وثائق هامة وأوراق تحتوي على الاستعدادات السرية التي تقوم بها الدولة في بعض المسائل.

حصلت الكنيسة على هذه الوثائق من " **أمراء الروم** " هؤلاء التابعين لكنيسة الفنار. وكانت الأكثرية من هؤلاء متسمية بجمعية (**ايتريا**) وهي جميعة ثورية اسست بهدف العمل على استقلال اليونان ..... والواقع أن الدولة قد أخطأت عندما وثقت في كنسية الفنار ، وأخطأت كذلك عندما لم تخضعهم لتفتيشها ورقابتها على الدوام ولم تفهم الدولة خطأها إلا بعد وضوح الخيانة ....

هكذا كانت الدولة مضطرة لاتخاذ التدابير اللازمة ، فمنعت تعيين النصارى في إدارة الترجمة في الديوان السلطاني ، واستبدل بهم العثمانيون، فتم تعيين **يحيى أفندي** خليفة أول

---

(١) المرجع السابق ص ١٩.

'' يعنى رئيساً للكتبة '' واسندت إلى يحيى أفندي مهمة تعليم اللغات الأجنبية المستخدمة بين الدول والشعوب ....

وافتتحت الدولة " فرقة الترجمة " في الباب العالي - يعنى مقر الحكومة - وخصصت الدولة راتباً شهرياً لهؤلاء الراغبين في تعلم اللغات من كتبة الأقلام . (١)

*** آثار الاعتماد على النصارى في مثل تلك الوظائف :**

يعجب المؤرخون وبالأخص من يدرسون تاريخ الدولة العثمانية من منح تلك الدولة وهي في عصر قوتها وذروة مجدها في زمن السلطان **سليمان** لتلك الامتيازات الأجنبية لأعدائها من البندقية وبريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها والتي لاتصدر عادة إلا ممَّن غُلبَ على أمره أو ضيق عليه الخناق لضعفه ....

ويزول هذا العجب عندما ندرس جزءاً من الجهاز الإدارى للدولة الذي يسيطر عليه النصارى وهو وزارة الخارجية .

كان **علي باشا** - المقاوم للتمرد - إدارياً يقظاً وقوياً ، لهذا كان الأمن مستتبا ، وكانت سلطته تحد من حركة الروم وتمنع تحركهم بسبب خوفهم منه ، مع أنهم أقاموا تنظيماتهم في كل مكان استعداداً للتمرد . وكان علي باشا يتعقب بدقة بالغة كل أنشطة الروم الخفية وجمعياتهم السرية ، وكان على علم بكل أهدافهم ووسائلهم ويرسل بذلك تقارير إلى الباب العالي مرفقاً مايذكره بالأدلة والوثائق .

وكان لابد عندهم من إزالة هذا المانع الذي يتصدى لهم وهو (**علـي باشـا**) ،وكانت وسيلتهم في هذا (**هالت أفندى**) الذي كان يعمل في إدارة المترجمين الفناريين ، وقد ترقى حتى وصل إلى درجة (**كتخدا الركاب السلطاني**) .

وقد رأت هذه الجمعية أن صداقة (هالت أفندى) بالكنسيين الفناريين ذات قيمة كبيرة ولهذا ينبغي أن توظف لتطوير فاعليات هذه الجمعية حتى تكون شوكة في ظهر الدولة العثمانية ولتفتح لهم طريق التمرد ، وبالإضافة إلى صداقة (هالت أفندى) للكنسيين الفناريين، كان مديناً لهم بدين .

أرسل علي باشا إلى الباب العالي وثائق خاصة باستعداد وفاعليات هذه الجمعية ، لذلك رأى الباب العالي ضرروة التحقيق في الأمر ، لكن الذى حدث أن كلف بتحقيق نشاطات الجمعية أحد تراجمة الديوان ويدعى (**موروزي**) ، وكان عضواً في الجمعية السرية . ولذلك كان تقريره يحتوي على مايلي :

---

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ص ٢٢ - ٢٤.

" أن تبعة الدولة من الروم في بلاد المورة هادئة وهم موالون للدولة ، والموقف مأمون من كل نواحيه " (١) .

ومن النماذج أيضا على خبث التراجمة وتلاعبهم بالفرمانات والقرارات بما يتناسب مع أهدافهم ترجمان الديوان الهمايوني :

كان صدر فرمان بسبب وضوح فاعليات البطريرك في التخابر مع أهل المورة وغيرهم وضرورة عزله وقتله، ووقّت لتنفيذه يوم ٢١ إبريل (يوم الأحد) وهو يوم العيد عند الروم، ثم صدر الفرمان لقاضي التنفيذ المتعلق بانتخاب واحد من الاثنى عشر بطريقاً مكانة ، وكان لصدوره ـ أي الفرمان ـ عدة أسباب ، وسلم الفرمان لترجمان الديوان الهيمايونى ، فإذا أبقيت الصيغة على حالها ارتعدت الجماعة عند سماعها كلمة القتل ، وكذلك انتخاب بطريرك آخر قد أصبح مشكلة ، فيصحح كلمة (قتل) بكلمة (طـىّ) ، ثم لابد من توجه (استافراكي) بك إلى البطريركية، ويجمع جماعة "المتروبوليتان" ويقرأ عليهم الفرمان ، ويعمل على انتخاب المتروبوليث أو يانيوس بطريركيا .

ثالثا : في مجال الاستشارة :

نتيجة الامتيازات البيزنطية الوثنية وجاهلية القانون الروماني الاغريقي التجاري المالي عموماً التي كان يؤخذ ببعضها قبل فتح القسطنطينية على يد **محمد الفاتح** السلطان المسلم ، وضمن لليهود في بلاده العثمانية الإسلامية تلك الامتيازات ، بل وسنّ لهم أحكاما خاصة بهم ، ووفرت لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة وتنفيذ أحكامهم الجاهلية على الأرض الإسلامية .

كان أهل الذمة داخل الخلافة الإسلامية على هذا الوضع الامتيازى الخارج عن شرع الله ، فقد عيَّنهم الخلفاء مستشارين في بلاط الخلافة ومجالس الحكم ومرافقه الأخرى، وقد مر الكلام عن تشكيل ذاك المجلس المختلط من مسلمي ونصارى الجزيرة وعين فيه والٍ نصراني على الجزيرة بتصديق من الباب العالي .

وبعد أن تحولت الدولة إلى نظام المشروطية (الدستور) أصبح وجود أهل الذمة في تلك المراكز الحساسة ظاهراً . (أقصد نواباً في البرلمان ، ومستشارين)

فقد أقامت الدولة العثمانية حصناً للطوائف المختلفة في الدين ووفرت الحماية لهذه الطوائف بل وهيأت لها ظروفاً معيشية أفضل من تلك التي وفرتها للمسلمين . وبعد أن تحولت الدولة إلى نظام المشروطية (الدستور) جعلت من أهل الذمة نواباً في البرلمان

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ص ٢٧ .

العثماني ، وأتاحت لهم فرصة إبداء آرائهم بكل سماحة وسعة صدر . على الرغم من جهود الدول الكبرى في تأليب أهل الذمة على الدولة (١) .

رابعاً : في مجال الحريم السلطاني :

المتصفح لتاريخ الدولة العثمانية ومن يمعن النظر بجدية في تاريخها تواجهه مشكلة هي من أصعب المشاكل للغاية في تاريخ الدولة ، وهي مسألة الحريم السلطاني ومايتعلق بداخل القصر من شؤونهن ، وذلك نظراً لقلة المادة العلمية عنه ، إذ كان الحريم السلطاني بكل فئاته وهيئاته يعيش وراء الأسوار العالية بعيدا عن العامل الخارجي ، مما يصعب على المؤرخين الوصول إلى أخبارهم .

ومن أشهر وأبرز من كتب عن تاريخهم المؤرخ دوسو(٢) (Dohssa) في كتابه الشهير عن تاريخ الدولة العثمانية والذي يقع في سبع مجلدات ، والذي أشبه مايكون بموسوعة في تاريخ الدولة العلية .

فيقول في كتابه أنه لقي مصاعب جمة في الوقوف على مادة علمية موثوق بها عن هذا الموضوع، وأنه اتصل بعدد من زوجات السلاطين اللائي غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات اللاتي سبقت لهن الإقامة في القصر ثم حررن وتزوجن ، وأنه قدم لهؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويده بالمعلومات .

وهذا الرجل قد عكف في استانبول سنوات طويلة قرابة الثلاثين سنة على جمع مادة كتابه هذا (٣) .

---

(١) راجع ترجمة الدكتور محمد طلعت حرب ترجمة خاصة ص ٢١٨ من الأصل : الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة في الدولة العثمانية من سنة ١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م ، ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م .

(٢) هذا المؤرخ لايسلم له كل مايقوله فحقده وعداؤه لله وللعثمانيين خاصة وللإسلام عامة ظاهرة في كتاباته ولكن مثل هذه الأخبار ينقلها عنه غيره ممن كتب عن الدولة حتى من المسلمين . (ولاتخلو من مبالغات كما ذكرت) .

(٣) انظر الشناوي : المصدر السابق ص ٥٩ .

*** المحافظة على الحجاب الشرعي لكافة نساء الحريم السلطاني - حرائر وجواري :**

كانت منطقة الحريم تحاط بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، ويقصد من ذلك عزل النساء عن أي رجل أجنبي غير السلطان .

وعدم اختلاط الرجال بالنساء من الأمور التي أوجبها الإسلام وحذر من مخالفتها ، وكانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات إسلامية محافظة . ومن أبرز سمات التمسك بالشرع الحنيف ذلك الوقت احتجاب النساء. والعثمانيون لم يأتوا بجديد في هذا الصدد بل التزموا حكما شرعيا ثابتا بالكتاب والسنة ــ ونذكر مثلا يدل على صرامة السلطان في أمر الاحتجاب لنساء القصر ــ تلك الحادثة التي حصلت في عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٣هـ ــ ١٦٢٣م ، ١٠٥٠هـ ــ ١٦٤٠م) .

(حيث تجرأ أحد التجار البنادقة من جمهورية البندقية ، وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحريم السلطاني ــ واستخدم نظارة تقريب المسافات ــ وسرعان ماكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته. فأمر السلطان بشنقه فورا!

وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يعمل ترجمانا (مترجما) للسفير الفرنسي في استانبول ، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه ، وأسرعت بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسي(١).

*** من أهم المراكز في الحريم السلطاني" زوجات السلطان " :**

كانت الغالبية العظمى من السلاطين تأخذ بمبدأ التعدد لأغراض سياسية في الغالب وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ونصرانيات ،ولدن حرائر ، فلم يقعن في حياتهن في الأسر .

وحافظ السلاطين السبعة الأول (٢) على قضية الزواج من الحرائر والاقتصار على أربع، إلا أنه كانت هناك بروتوكولات خاصة في تنظيم الزوجات ومراكزهم في الدولة لاعلى أساس المساواة المطلقة بين الزوجات ، فالتي تنجب ابنا تميز عن التي تنجب بنتا ، ويتبع هذا التميز تميزا آخر في المخصصات المالية التي ترصد لكل سلطانة .. وهذا كله بغض النظر عن كون الزوجة مسلمة أو كتابية أجنبية وهذا ليس من الإسلام في شيء بل هو من عادات الجاهلية التي حاربها الإسلام .

---

(١) نقل هذه الحوادث الشناوي : المرجع السابق ص ٥٦١ . نقلا عن دوسوا .

(٢) السلاطين السبعة الأول هم : عثمان ، أورخان ، مراد الأول ، بايزيد الأول ، محمد الأول ، مراد الثاني ، محمد الفاتح .

وقد عمد كثير من السلاطين إلى الزواج من الكتابيات الأجنبيات ، ونقصد بهن على وجه الخصوص النصرانيات اللاتي لم يكن من رعايا الدولة العثمانية .

وبدأت هذه الظاهرة منذ بداية الدولة العثمانية على عهد **عثمان الأول** (٦٨٨هـ ـ ٧٢٦هـ) فقد رأى أن الدولة تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ونصرانية معادية تتربص بالدولة الدوائر وأراد تجنيب دولته أو إمارته مواجهة حربية لايستطيع في ذلك الوقت مواجهة أو ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحلي التي يتطلع إليها ، فلجأ إلى وسائل متعددة لهذه الغاية ، منها : مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة وهذا يعد في وقته أفقا سياسيا يقر عليه إذا كان منضبطا بضوابط من المصلحة ، والشرع ، وتقديم الأولى فالأولى، ولكنه استغل اسغلالا سيئا فيما بعد .

نماذج لزوجات صليبيات للسلاطين العثمانين :

أول هذه النماذج رأس الأسرة العثمانية ـ الذي تنسب إليه الدولة ـ السلطان **عثمان الأول** ، حيث أخذ لنفسه زوجة نصرانية من **بيليفيا** .

وكذلك أخذ لابنه (**أورخان**) امرأة يونانية نصرانية ، وقد بقيت على نصرانيتها هي والأولى . وزوجة أورخان بن عثمان هذه أنجبت له ابنا تولى العرش من بعده أسماه السلطان **مراد الأول** (٧٦٠هـ ـ ١٣٥٩م ، ٧٩١هـ ـ ١٣٨٩م) .

وقد حذا هذا السلطان حذو أبيه وجده ، فتزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى (**سيشمان**) بعد أن أبرم بينهما اتفاقا إبان حصار العثمانين له في (**نيقوبوليس**) على نهر الدانوب . ونص الاتفاق على دفع الجزية من الملك وأن يزوج ابنته للسلطان مراد .

وكذلك أخوه **خليل بن أورخان بن عثمان** ، عقد والده السلطان أورخان معاهدة مع امبراطور الدولة البيزنطية (**حنا باليولوج**) سميت بمعاهدة (**سكوتاري**) قرر فيها أن يتزوج خليل ابن السلطان ابنة الإمبراطور وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات فقط !

ولما تولى العرش السلطان **بايزيد الأول** (٨٠٤ هـ ـ ١٤٠٢م) أراد أن يجعل من دولة الصرب دولة حليفة كي تحجز بينه وبين دولة المجر،فتزوج من ابنة (ملك الصرب لازار) ابنته (أوليفيرا) وقد ينسب لأثار هذا الزواج أنه يسمح لابني الملك لازار (المقتول) أن يحكما الصرب خلفا لوالدهما . وهذا حسب القانون الصربي بشرط أن يدينا له بالولاء، ويقدما له الجزية سنويا ، وتقديم عدد من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني .

واتخذ أيضا خطوات أخر لاسترضائها بجانب زواجه من اختيها أوليفيرا ، هذا عن السلطان بايزيد.

وسار السلاطين من بعدهم على النهج نفسه (أي تفضيل الزواج من الكتابيات) ـ فهذا السلطان **مراد الثاني** (٨٢٤هـ ـ ١٤٢١م ، ٨٥٥هـ ـ ١٤٥١م) قد تزوج من (**مارا**) ابنه أمير الصرب (**جورج برانكوفيتش**).

وممن تنبه لخطر هؤلاء النصارى في البلاط السلطاني السلطان **محمد الفاتح بن مراد الثاني** ـ الذي أمر بترحيل زوجة أبيه (**مارا**) إلى موطنها الأصلي في الصرب ؛ كي يأمن شر الدسائس التي قد تحيكها ضده في أوساط الحريم السلطاني .

إلا أنه لم يفلت من كيد طبيبه اليهودي الخاص ـ والذي دس له السم في طعامه وقتله به ـ (وليس ذلك مستغربا على أهل الذمة) .

ومن النماذج أيضا امرأة يونانية كانت لاتزال على صليبيتها ، تزوجها السلطان **أحمد الأول** (١٠١٢هـ ـ ١٦٠٣م ، ١٠٢٧هـ ـ ١٦١٧م) ، وانجبت منه ولدين ، تربع كلى منهما على عرش الدولة واحدا تلو الآخر ـ وهما : **مراد الرابع** (١٠٣٣هـ ـ ١٦٢٣م ـ ١٠٥٠هـ ـ ١٦٤٠م) ، **وإبراهيم الأول** (١٠٥٠هـ ـ ١٦٤٠هـ ، ١٠٥٨هـ ـ ١٦٤٨م) وكان لهذه الأم الأثر السيء على الدولة ـ كما سيأتي تفصيله في حينه .

وكذلك من السلاطين البارزين الذين تأثروا بزوجاتهم أو جواريهم النصارى، السلطان الشهير **سليمان القانوني** ، وهو من أشهر سلاطين الدولة ، والذي بلغت الدولة في عصره أوج اتساعها وقوتها .

فكانت زوجته الروسية (**روكسلانة**) التي اشتهر عن السلطان افتتانه بها لدرجة أصبحت حديث المؤرخين .

من الشخصيات البارزة : والدة السلطان :

كان بجانب زوجات السلطان ـ مسلمة أو نصرانية ـ وبجانب قاديناتهم ـ توجد في الحريم السلطاني سيدات لهن وزن وثقل إلى درجة يفقن الزوجات والقادينات في المكانة ، و أصبحن يشكلن مركز قوة خطيرة في الدولة ، وعلى رأس هذه الشخصيات : والدة السلطان، فكان أعلى مركز في الحريم السلطاني يمكن أن تسمو إليه سيدة في القصر ويطلق عليها : " **سلطانة والدة** " ، وكان السلاطين يكنون لأمهاتهم قدرا كبيرا من التبجيل ، ولايرفضون لهن طلبا ، بل يزيد نفوذها على جميع زوجات ابنها وجواريه .

" بنات السلطان " :

وأثرهن لايكاد يذكر ، حيث كن يتلقين دروسا خاصة ، ثم يتزوجن في مقتبل العمر من أحد وجهاء موظفي الدولة ورجالاتها، كالصدر الأعظم أو غيره من الوزراء الكبار.

"قادينات السلطان " :

كان السلاطين الاول إلى السلطان محمد الفاتح يؤثرون الزواج من الحرائر تماما ، إلا أن الذين جاؤوا بعد محمد الفاتح اطرحوا اطراحا تاما مثل هذه الزيجات ، واتجهوا إلى جواري القصر باعتبار الجارية ملك السلطان، له أن يطأها وينجب منها فتصبح أم ولد ويتمتع نسلها بالحرية ، وهي تعتق بعد وفاة السلطان .

وقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جواري من جواري القصر ، وحرص كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع الجواري الأربع مكانا عاليا بعد أن يعتقهن ويتغير وضع كل منهن الاجتماعي ومركزها القانوني من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها :**" قادين "** .

وكانت كل قادين تعيش بمعزل عن زميلاتها القادينات الثلاث الأخريات ولايرين بعضهن بعضا إلا في الحفلات . فكل قادين بمثابة سلطانة لها جناحها ومكانتها الخاصة . وإذا أنجبت ولدا للسلطان أطلق عليها " **باش قادين** " أي كبيرة القادينات ، وتصبح السيدة الأولى في القصر بعد والدة السلطان ، ويكون ابنها في العادة وليا للعهد .

ماسبق يمثل نظرة سريعة عن مراكز بعض شخصيات الحريم السلطاني ونفوذهن على البلاط السلطاني وشؤون الدولة الخارجية والداخلية .

*** نفوذ سيدات القصر في شؤون الدولة :**

قامت سيدات الفئة من الحريم السلطاني بدور خطير في توجيه السياسة العليا للدولة ، حتى أصبحن يشكلن أقوى وأخطر مراكز القوى للدولة على الإطلاق .

كن يعملن على اشعال الحرب بين الدولة وأعدائها سواء في أوروبا أم في آسيا ، وكن يتدخلن في شؤون الجيش وبخاصة القيادات العليا ، وكن يتدخلن في تعيينات كبار الموظفين أحيانا ، وفي ترقياتهم أحيانا أخرى ، وفي عزلهم أحيانا ثالثة . فلو أن الشخص المطلوب عزله ـــ الصدر الأعظم ـــ تدخلت السلطانة الوالدة لدي ابنها أو الباش قادين أو القادين لدي السلطان فيصدر الأخير فرمانا بعزله . أما إذا كان الشخص المراد إقالته

يشغل منصبا تقل مرتبته عن مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحدى سيدات الفئة الأولى مـن الحريم السلطاني .

يقول المستشرق (**بوون**) في تعليقه على تسلل نفوذ الحريم في أجهزة الحكومـة ... ''إن كلمة واحدة تصدر عن قادين كانت تصنع الأعاجيب في معظم الأحوال'' .

*** تلاعب النساء بالصدور العظام:**

كثر تعاقب الصدور العظام في الفترة التي تبدأ في أول القرن الثاني عشر الـهجري أواخر القرن السادس عشر الميلادي ، فمثلا وقع أثناء حكـم السـلطان **مصطفـى الأول** المعروف باسم السلطان الأبلـه أو المعتـوه (١٠٣٢هـ ـ ١٦٢٢م ، ١٠٣٣هـ ـ ١٦٢٣م) أن تعاقب ستة صدور عظام مع أن حكمه لم يزد عن خمسة عشـر شـهرا أي بمعدل شهرين ونصف لكل رئيس وزراء .

وكانت الصدور العظام ـ في تلك الفترة ـ ضعاف الشخصية وذلك مـترتب علـى ضعف أسيادهم من الخلفاء .

وكان يتم تعيين وعزل الصدر الأعظم وفقا لرغبات سيدات الفئة الأولى في الحريـم السلطاني ـ كما سبق وأن بينا .

ومن أبرز الشواهد على التأثير السلبي للنساء الصيلبيات في الدولة، قصة روكسـلانة المشهورة، وهي روسية الأصل اختطفها تجار الرقيق من ذويها في بلاد القوقاز ، وكـانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه (**دي روجالينو**) وباعوها للسلطان سليمان المشرع فألحقـها بالحريم السلطاني ،واستهلت حياتها الجديدة في القصر كجارية، وكانت على حظ موفـور جدا من جمال الخلقة والرقة وخفة الروح ورهافته . وكان يطلق عليها (**خورم**) وهـي لفظة تركية معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم .

هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شغاف قلبه فأعتقها ، وانجب منـها ذكورا وإناثا وارتفعت مكانتها طبقا لقواعد البروتوكول من جارية إلى قادين .

وسيطرت على قلب السلطان وعقله معا ، فأصبحت مستشـاره الأول فـي شـؤون الدولة، واحتجب في قصره ، لأنه كان لايطيق عنها بعدا . وتخلى عن قيـادة الحمـلات الحربية ، وكان وجوده في ساحات الحرب يثير حماس الجنود ، واعتـاد الانكشـارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة . وكانت أوروبا تـدرك جيـدا مـدى النفـوذ العريض والرهيب الذي كانت تتمتع به روكسلانة . وأجمعت آراء المعاصرين لها علـى

أنها كانت السيدة الأولى في الدولة العثمانية ، وكانت تحنو لها جباه الجميع ، ويتضاءل أي نفوذ في الدولة أمام شخصيتها الطاغية وذكائها اللماح .

أرادت روكسلانة أن يكون ابنها الأمير **سليم** وليا للعهد بدلا من الأمير **مصطفـــى** ، وهو الإبن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركسية . ودبرت روكسلانة مؤامرة محكمة لتحقيق أمنيتها . وكان أول خيوط هذه المؤامرة إفساد الجو العائلي بين الســلطان وزوجته الشركسية . افتعلت مشادة كلامية مع ضرتها . وبدأت هذه المشادة بالمقارنة بيـن النشأة الأولى لكل منهما وتطورت المناقشة إلى الإشتباك بالأيدي . واصطنعت روكسلانة الضعف وتركت ضرتها تنهال عليها ضربا ولكما ، وشدت شعر رأسها ، ونزعت بعضـا منه ، وتمادت الزوجة الشركسية فخدشت وجه روكسلانة بأظافرها بحيث أصبحت آثـار الخدوش بادية على وجهها ، ونالت منها منالا كبيرا ، وهذا ما كانت تبتغية روكســلانة . واحتجبت عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرســل يسـتدعيها ، فاعتذرت عن عدم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفي آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها : أنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان ؛ لأنها " لحم يبـاع ويشترى " ، وهي العبارة التي أطلقتها عليها الزوجة الشركسية . وأصر الســلطان علـى حضورها . فجاءته على استحياء وتظاهرت بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت الدموع تنهمر من مقلتيها ، وآثار الخدوش والكدمات بادية على خديـها . وكـان شعرها غير منتظم . وقصت عليه ماحدث لها من زوجته الشركسـية . وثـارت ثـائرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لاتستحق منه تقديرا . ونجحت حيلة روكســلانة فـي إفساد الجو بين السلطان وبين زوجته الأولى .

مضت روكسلانة بعد ذلك في تنفيذ حلقات المؤامرة . فنقلت الأمير **مصطفـى** ولـي العهد وابن غريمتها حاكما على آماسيا كي يكون بعيدا عن استانبول مقر الحكـم وعـن مؤامراتها . ثم التفتت إلى إبراهيم باشا الصدر الأعظم فطلبت من زوجها السلطان سليمان عزله من منصبه . وكان هذا الرجل الألباني من خيرة الصدور العظام على عهد السلطان سليمان وموضع ثقته التامة وتقديره العميق . وقد زوجه السلطان من إحـدى شـقيقاته . وكان يخرج مع السلطان في الحملات العسكرية في أوروبا وفي آسيا . وكـان لـه دور بارز في الانتصارات الحربية على الدولة الصفوية في فارس وأكمل فتح اقليم آذربيجان ، واتجه إلى العراق وفتح بغداد في آخر عام ٩٤١هـــ ــ ١٥٣٤م ، ودخلـها السـلطان سليمان في يناير كانون ثان ٩٤٢هـ ــ ١٥٣٥م ، وكان مـع السـلطان فـي إجـراء المفاوضات مع الدول ، وكان على حظ موفور من العلم والثقافة والتدين وراعيا للشـعراء

والفنانين(١) العثمانين . واستجاب السلطان لرغبة روكسلانة فعزل إبراهيم باشا الصـــدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تقنع بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتله . وتم اغتيالـــه في اليوم الخامس من شهر مارس ـــ آذار ـــ عام ٩٤٣هـ ـــ ١٥٣٦م وهو يدخل القصر السلطاني ليلاً ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان. وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن يوجه إليه اتهام أو يقدم لمحاكمة .

وكان اغتيال إبراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلانة لإطلاق يدها في استكمال حلقـــات المؤامرة ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ويدعى رستم باشا ، اطمـــأنت إليـــه ليكون عونا لها في تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد ، وزوجته إحدى بناتها واســـمها **محرمة** ، وطلبت من زوجها تعيينه صدراً أعظماً ، حقق السلطان رغبـــة روكســـلانة . وأصبح الصدر الأعظم ألعوبة في يدها تحركه كيف شاءت وأنى شاءت، وتحقيقاً لرغبتـــها واسترضاء لها، أغدق السلطان الكثير من الرعاية على صهره رستم باشا . وانتهز الأخير مصاهرته للسلطان ، فلجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً في الإثـــراء المحـــرم والسريع . وغض السلطان الطرف عن انحرافاته واستغلاله المشين لمنصبـــه الكبـــير ، فوضع يده على عدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه " **التيمارات** " وهـــي الأرض الزراعية التي كانت تعطى لطوائف من العســـكريين طبقـــاً للنظـــام الإقطـــاعي العسكري .

ولما اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية مرة أخرى عام٩٥٥هـ ـــ ١٥٤٨م سنحت لها الفرصة التي طال انتظارها للتخلص من ولي العهد الأمير **مصطفى** ـــ ويقال أن هذه الحرب قامت بإيعازٍ منها ـــ ويقال في هذا الصدد أيضـــاً : أن روكســـلانة كانت تتبادل مراسلات مع زوجة **طماســـب الأول** (٩٣١هـــ ـــ ١٥٢٠م ، ٩٨٤هــــ ـــ ١٥٧٦م) شاه الدولة الصفوية . واتفقت السلطانة روكسلانة مع رستم على إيغـــار صـــدر السلطان إيغاراً عنيفاً على ابنه وولي عهده **الامير مصطفى** ، فأدخل رستم باشا فـــي روع السلطان أن ولي العهد يتآمر مع الفرس لتحقيق مآرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ الســـلطان أنه سمع الجنود الانكشارية يقولون : أن السلطان قد غدا رجلاً طاعناً في الســـن ووهـــن العظم منه بحيث لايستطيع أن يخوض المعارك ، وقد آن الأوان للمناداة بالأمير مصطفـــى سلطاناً وتنحية والده رحمة به وشفقة عليه . وقد فعلت هذه الوشاية فعلها، وأصبـــح الأب يتوجس خيفة من ابنه وولي عهده . وانتهى رأيه إلى ضرورة التخلص منه بقتله . ولكنـــه أراد أن يطمئن إلى سلامة الفعلة النكراء التي أزمع تنفيذها أولعله أراد أن يضفي عليـــها

---

(١) لعله يقصد به أصحاب الحرف .

صبغة شرعية إسلامية.فعرض على شيخ الإسلام أبي السعود الموضوع بعد أن غير معالمه الشكلية واستطلع رأيه في هذه المسألة . وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله : إنه كان في استانبول تاجر ثري ذومركز إجتماعي مرموق، وتطلبت تجارته أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عبد له كثيرا ماأحسن إليه أن يشرف على أعماله ويرعى في ذات الوقت زوجته وأولاده في أثناء غيابه ، ورأى التاجر أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العبد برعايتهم في أثناء غيابه . ولم يكد التاجر يغادر استانبول حتى سعى العبد لاختلاس أموال سيده وتدمير تجارته، وتآمر على حياة زوجته وأولاده . وخلص السلطان سليمان من هذه القصة الخيالية إلى سؤال طرحه على شيخ الإسلام ليجيب عليه : ماهي العقوبة العادلة التي يستحقها هذا العبد ؟ فأجاب أنه يستحق الاعدام .

يقول **ليبر** الأمريكي ــ الذي ذكر هذه الرواية نقلا عن أحد سفراء الملك **شارل الخامس** في استانبول : إن هذه الفتوى التي صدرت عن شيخ الإسلام ــ سواء كانت تعبيرا حقيقيا عن رأيه في ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصدر هذه الفتوى بإيعاز من رستم باشا أو من روكسلانة ، فإنها ــ أي الفتوى ــ جعلت السلطان سليمان يزداد تصميما على قتل ابنه وولي عهده الأمير مصطفى قياسا على أن خيانة الابن لوالده لاتقل في بشاعتها عن خيانة العبد لسيده التاجر في استانبول .

وبعث سليمان في استدعاء ابنه إلى أماسيا حيث كان يقيم السلطان مع جيشه . وخشي أصدقاء الابن مغبة هذه المقابلة ونصحوه بعدم الذهاب إلى والده . ولكنه رفض وقال : إن طاعة الوالدين أمر يفرضه الدين . وأنه لم يرتكب عملا يخشى منه غضب والده ، وأنه إذا قتله فهو على كل حال والده وهو الذي أتى به إلى هذه الحياة .

ولما دخل الابن على أبيه في خيمته أعطى الأخير إشارة معينة ، فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه . وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من شهر سبتمبر ــ أيلول ــ عام ٩٦١هـ ــ ١٥٥٣م (١) .

---

(١) هذه القصة لنا معها عدة وقفات خارج نطاق بحثنا من أهمها : اهتمام المستشرقين أمثال هذا اليهودي أو الأمريكي ليبر بأخبار الفتن وإظهارها ، وكتابة سيناريوهات كما يقال تحيك كذباتهم . انظر تفاصيل هذه الرواية عند : الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها .

خامسا : في بعض الوظائف والمراكزالأخرى :

* نماذج لبعض المراكز والتي كانت تعد ثانوية بالنسبة لما قبلها عند الدولة خاصة :

١ـ إنشاء المطابع :

كانت أول مطبعة ظهرت في استانبول في عهد السلطان **بايزيد** (٨٨٦-٩١٨هـ) (١٤١٨ - ١٥١٢م) على يد اليهود بعد مجيئهم من الأندلس بفترة، غير أن الحكومة العثمانية لم تأذن لطباعة الكتب العثمانية والعربية خوفا من إحداث تحريفات فيها إذا ماحدثت أخطاء مطبعية (١) .

وفي عام (٩٧٥هـ ـ ١٥١٧م) و (عام ١٠٠٦هـ ـ ١٦٩٧م) أنشأت البطريركية الأرمنية في اسطنبول مطبعة على يد أرمني يدعى (**آبكار**) بعد ذهابه إلى إيطاليا وتعلمه فن الطباعة فيها ، وكانت تهتم بطباعة الكتب الدينية والتعليمية ، والتاريخية الأرمنية .

ثم من بعدها أنشئت مطبعة على يد الأقلية الرومية في اسطنبول عام (١٠٣٧هـ ـ ١٦٢٧م) على يد الراهب (**نيكوودمس متاكساس**) وكان أول كتاب طبع فيها يتحدث عن اليهود، وكل هذه المطابع وهذه السنين والدولة صاحبة السيادة لم تفكر بعد بإنشاء مطبعة ينشر من خلالها الفكر الذي تريده أن ينشر بين رعاياها والأفكار والتي تتبناها (إن وجدت) . إلا أن الدولة وبعد طول غفلة لما رأت انتشار المطابع في اسطنبول وسرعه طبع الكتب ، أحدثت مطبعة على يد **إبراهيم متفرقة** عام (١١٤٠ هـ ـ ١٧٢٧م)، وكان هذا متفرقة (مولود في كوزفار المجرية) ، ولما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والمجر عام ١١٠٤هـ ـ ١٦٩٢م أسر من قبل الدولة العثمانية ، فأعلن إسلامه ، وتعلم اللغة التركية ، ودخل في كثير من المعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية وغيرها ممثلا ترجمان الباب العالي(٢) ، حاله كغيره كثير ممن هم على هذه الشاكلة ممن اعتمدت عليهم الدولة في أدق وأهم المراكز .

---

(١) وقد سبق بيان فتوى شيخ الإسلام في ذلك الحين بمنع طباعة القرآن والحديث حفظا لها من التحريف لما كان له الأثر السلبي الواضح في تأخر الحركة العلمية بين المسلمين ، وتقدم الثقافة على اختلاف مشاربها بين غيرهم .

(٢) انظر نيازي بيركز : ص ٧١٥ ـ ٧٣٧. تطور العلمانية بتركيا.

فقد أذنت الدولة (لمتفرقة) هذا بفتح مطبعة شريطة عدم طبع الكتب الدينية ــ خشية التحريف كما سبق ــ وبعد موت منشئها تعطلت المطبعة ثم استأنفت عملها عام ١١٩٨هـ ــ ١٧٨٣م (١) .

ثم تتابعت بعد ذلك المطابع فأنشأت السفارة الفرنسية في اسطنبول مطبعة ــ كانت تطبع الكتب باللغة العثمانية وتصدر جريدة استطنبول الفرنسية ، والكتب الفرنسية اللغوية التى تدرس فى مدارسها .

وما سبق ذكره من نشأة المطابع في الدولة على أيدي أهل الذمة في الغالب في بيان سيطرتهم على هذا الميدان . وسيأتي معنا مبحثا خاصا بالمطابع عند الحديث عن صحافة أهل الذمة .

٢ــ الدخول إلى وظائف الدولة عن طريق الجمعيات الماسونية :

لقد استطاعت المحافل الماسونية في الداخل والخارج بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية أن تدس يهود **الدونمة** (والذين كانو يستوطنون سلانيك) في جميع المراكز الحساسة في كيان الدولة تمهيدا لاحتوائها ومن ثم قلب نظاميا رأسا على عقب، فلا عجب أن أصبح فيهم جيل الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار الموظفين والمسؤولين .

ولعل استقراء سريعا لأسماء بعض هؤلاء القادة والنواب من الموظفين من خلال مذكرات السلطان **عبد الحميد** تبين لنا مدى تغلغل يهود الدونمة بمساعدة المحافل الماسونية في الوظائف المهمة للدولة (٢) .

يقول السطان **عبد الحميد** :

" رأيت خطابا تسلمه **أحمد جلال الدين** باشا من **علي كمال** بك في مصر ــ وغالبا ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات **قصر يلدز** ــ فيه أسماء ومصادر التمويل إسما إسما، وفي هذا الخطاب أيضا يذكر أن الدكتور **عبد الله جودت** ، والدكتور **إسحق شكوتي** والدكتور **بهاء الدين شاكر** والدكتور **ناظم** والدكتور **إبراهيم تيمور** ، ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية ، حتى إن هذه المحافل أيضا تسلم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يدا بيد. هذا ماكتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات " (٣).

---

(١) انظر لويس شيخوا : فن الطباعة في اسطنبول ، مقال في مجلة الشرق العدد ١ السنة الثالثة سنة ١٩٠٠م ، ص ١٧٤-١٨٠.

(٢) دور يهود الدونمة في سقوط الخلافة، محمد محمد ابراهيم، ص٣٢.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة محمد حرب ، دار الأنصار ، القاهرة ١٩٧٨م ص ٦٠.

وقد قام هؤلاء اليهود عن طريق محافلهم الماسونية لنشر الجاسوسية ليس بين موظفي الدولة فحسب، بل إلى البيت العثماني ذاته ، من الوزارة التركية نفسها ــ ومعلوم كيف استطاعوا تجنيد **مدحت باشا** ــ الذى يعادل رئيس الوزراء في وقتنا الحاضر ــ لتنفيذ مخططاتهم .

وقد كان لاتساع ممالك الدولة العثمانية أثره الكبير في انتشار الجاسوسية لصالح اليهود وحلفائهم من المستعمرين ، وقد دأب اليهود على وجه الخصوص على القيام بهذه المهمة .

إذ كانوا يحملون جنسيات أمريكية أو بريطانية أم روسية أو فرنسية وغير ذلك، ثم يغدون إلى البلاد الإسلامية بشكل ممثلين دبلوماسين أو مفاوضين فنيين أو ثقافيين أو مستشارين . كان أمثال هؤلاء ــ ينتشرون في السفارات ــ والبعثات الأجنبية ، ويعملون على استكشاف أسرار البلاد وتسخير من يجندونهم لخدمة أهدافهم وتذكية نار الفتنة والعداوة بين الطوائف ثم يلوذون بالسفارات الأجنبية يحتمون بها (١) . إضافة لحماية قانون الامتيازات لكل الرعايا الأجانب وتحريم مساءلتهم أو تفتيش دورهم أو فتح بريدهم أو بمن يتصلون ، وعلى أي شئ يجتمعون . لدرجة أن بطريركية الفنار وهي أكبر صرح يضم تحت لوائه أكبر طائفة غيرمسلمة في الدولة، اكتشف بالوثائق والبراهين أنها كانت مستودعات للأسلحة والذخيرة ومكان انشاء المنشورات المحرضة على الفتنة والخروج على الدولة (٢) .

تقييم لموقف الدولة العثمانية من تمكين أهل الذمة . لتلك المراكز والوظائف السابقة :

إن علماء الإسلام والمفكرين والمؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا المجيد ــ وماصاحبها من آلام الانهزامات أو أفراح الانتصارات كما هو في أول الدولة. يختلف تقييمهم لتلك الحوادث والمواقف التي كثيرا ماتكون أحادية المصدر وغير مستندة لشرع من الله أو رسوله ، وإن كان الظاهر اعتمادها على الفتاوى الشرعية ، وبعض النصوص القرآنية التي قد يفهم منها تبرير مواقف الدولة من أهل الذمة في الداخل أو أعداءها في الخارج .

---

(١) دور يهود الدونمة في هدم الخلافة ص ٣٤.

(٢) ثريا شاهين : انظر دور الكنيسة في هدم الخلافة ، ترجمة محمد حرب ص ١٠٣.

على رأس هؤلاء العلماء ــ **محمد رشيد رضا** رحمه الله ــ صاحب المنار حيث قال فى تفسيره الشهير باسم (**تفسير المنار**) عند الكلام في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر ﴾ (١) .

فجعل هذا النهي مقيدا بقيود من ظهرت لنا عداوته " لايألونكم " ، وهذا القيد الأول بم كانوا في عداوة المؤمنين ، وهو أنهم لايألونهم خبالا وإفسادا لأمرهم ماستطاعوا إلى ذلك سبيلا .

والقيد الثاني قوله عز وجل " ودو ماعنتم " أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة .

والقيد الثالث والرابع قوله تعالى " قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر " أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم في كلامهم ، فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها وعز عليهم اخفاؤها ، على أن مايخفى في الصدور أكبر مما يفيض على ألسنتهم .

ثم بعد أن فرغ من سرد تلك القيود ــ كما جعلها رشيد وإلا هي في الحقيقة صفات كاشفة لاقيود ــ بين أن الله لم يجعل أعداءً للمسلمين أبد الآبدين في كل زمان ومكان ، قال رحمه الله: جاءت الآيات مقيدة بتلك القيود لأن الله يعلم مايعتري الأمم وأهل الملل من التغير في الموالاة والمعاداة كما وقع من هؤلاء اليهود، فإنهم بعد أن كانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا في أول ظهور الإسلام قد انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في بعض فتوحاتهم (كفتح الأندلس) وكذلك كان القبط عونا للمسلمين على الروم في مصر، فكيف يجعل عالم الغيب والشهادة الحكم على هؤلاء واحداً في كل زمان ومكان أبد الآبدين ؟

إن هذا مما تنبذه الدراية، ولاتروى غلته الرواية ،وإن أرجح التفسير بالمأثور ماقلنا(٢).

ثم ذكر بعض الآثار التي أوردها بن جرير والتي تؤيد ماذهب إليه ...

ثم قال :

" ولو كانت هذه القيود للنهي عن استعمال المخالفين في كل شيء ومشاركتهم في كل عمل، لكان وجه العدل فيها ظاهراً ، وطريق العذر فيها ظاهراً، فكيف وهي قيود لاتخاذهم بطانة يستودعون الأسرار ويستعان برأيهم وعملهم على شؤون الدفاع عن الملة

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٤ .

(٢) محمد رشيد الرضا : تفسير المنار ص٤ ص ٨٠ ـ ٨٢ .

وصون حقوقها ومقاومة أعدائها ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من ديارهم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون** ﴾ (١) .

ثم يذكر صاحب المنار مايتعلق ببحثنا في الدولة العثمانية وتقلد أهل الذمة فيها أعلى المناصب، ويعد ذلك مفخرة يفتخر بها أمام الغرب وأوروبا وهذه الظاهرة نلمسها كثيرا في شيخه **محمد عبده** وهي التأثربكتابات المستشرقين عن قسوة الإسلام وكبته للحريات ــ على حد زعمهم ــ فيقول بعد الآية السابقة محاولا دفع هذه التهمة كرد فعل منه لتلك الإفتراءات:

(هذا التساهل الذي جاء به القرآن هو الذي أرشد عمر بن الخطاب إلى جعل رجال دواوينه من الروم وجرى الخليفتان الآخران وملوك بني أمية من بعد على ذلك إلى أن نقل الدواوين عبد الملك بن مروان من الرومية إلى العربية، وبهذه السيرة وذلك الإرشاد عمل العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في نوط أعمال الدولة باليهود والنصارى والصابئين ومن ذلك جعل الدولة العثمانية أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى . ومن هذا كله يقول متعصبوا أوروبا : أن الاسلام لاتساهل فيه !! رمتني بدائها وانسلت " . إلا أن التساهل قد خرج عند المسلمين عن حده حتى كتب الأستاذ الإمام في ذلك مقاله في العروة الوثقى صدرها بالآية التي سبق ذكرها (٢) .

ثم بدأ بذكر ماذكره شيخه في العروة الوثقى من هذا التساهل .. فيقول " فعلى ولي الأمر في مملكتة أن لايكل شيئا من عمله إلا إلى أحد رجلين؛ إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق مؤمرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التفاني في وقايتها من كل شأن يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان، وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية، بل فاقت منزلته في القلوب منزلتها كالدين الإسلامي الذي حل عنده المسلمين ــ وإن اختلفت شعوبهم ــ محل كل رابطة نسبية فإن كل من الجامعتين " الجنسية على النحو السابق والدينية " مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيره عليه ." أما الأجانب الذين لايتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لايهمه إلا استيفاء أجرته ثم لايبالي أسلم البيت أو

---

(١) سورة الممتحنة آية ٨،٩.

(٢) تفسير المنار : ٨٢/٤ ــ ٨٦ .

جرفه السيل أو دكته الزلازل ، هذا إذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار مايـأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر .

فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فرارا من الفقر والفاقة وضربوا فـي أرض غيرهم طلبا للعيش من أي طريق، وسواء عليهم في تحصيله صدقـوا أو كذبـوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا !! ولو كانوا مع هذا كله يخدمـون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها ــ كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية . لايجدون في أنفسهم حاملا على الصـدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة ــ ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خلقه وتصريفه لشئون عبـاده، رأى أن الدول في نموها وبسطتها ماكانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وماكان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها ، وأن تلك الدول مـاانخفض مكانـها ولا سقطت في هوة الإنحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها وارتقـاء الغربـاء إلـى الوظائف السامية في أعمالها ، فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصـا إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة .

" لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق، وأخص من بينـهم أمـراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بـل كادوا يتنازلون لهم عن ممتلكاتهم في ممالكهم بعد مارأوا كثرة المطامع فيها لهذا الزمـان وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة بعدما علمتهم التجـارب أنـهم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا عززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير، والنعمـة بالكفران، ويجاوزون على اللقمة باللطمة، والركون إليهم بالجفوة ، والصلـة بالقطيعـة، والثقة فيهم بالخديعة " .

" وما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لاتنقض ؟ ألم يأن لهم أن يرجعـوا إلى حسهم ووجدهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الرزايـا والمصائب " ؟

ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم ؟ ألاأيـــها الأمـــراء العظام مالكم وللأجانب منكم ﴿ **ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكـم** ﴾ (١) قـــد علمتـم شأنهم ولم تبق الريبة في أمرهم ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحون بـها** ﴾(٢) سارعوا إلى بناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون بـــه على غيرهم، تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركـــم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعو حكمته البالغة فيما أمركم ومانهاكم كيلا تضلـــــوا ويهوي بكم الخطل إلى أسفل سافلين ، ألم تروا ألم تعلموا ، ألم تحسبوا ، ألم تجربـــــوا ؟ إلى متى إلى متى؟ إنا لله وإنا إليه راجعون !! . (٣)

ولا يخفى مافي وجهة النظر هذه عند رشيد رضا من تمييع للأحكام الشـــرعية ينـم عن طأطأة رأس وانهزامية أمام شوكة الأعداء الفكرية وخجلا منهم في إضهار مثل هذا الحكم الصريح فقد وصف الله تعالى عموم اليهود والنصارى بقوله :

"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .."

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٠ .

٣ رشيد رضا :تفسير المنار ج ٤، ص ٩٢ .

المبحث الثاني

الامتيازات الأجنبية :

وفيه مطالب :

المطلب الأول : بداية عصر الامتيازات

المطلب الثاني : عرض نموذج من بنود الامتيازات

المطلب الثالث : تحليل لبنود معاهدات الامتيازات

الامتـــيـــازات الأجنبية

يقول الرسول ﷺ " **بعثت بالسيف بين يدي الساعة...** " (١) .

هذا الحديث وأمثاله من النصوص الشرعية التي تحث الأمة على نشر كلمة التوحيد بالجهاد " **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله ..** "(٢) .

" ....**وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله** " (٣) .

هذا المنهج وهذا الطريق طريق الجهاد والسيف كان هو مسلك الدولة وسياستها مع أعدائها وأعداء الدعوة من الصليبيين والباطنيين ، منذ نشأتها وحتى عصر السفراء والمحادثات والمخابرات، والامتيازات الأجنبية، ونقصد بهذه الفترة فترة السلطان الغازي **(سليمان القانوني)** . (ففي ذلك العهد ابتدأت المخابرات بين ملك فرنسا والدولة العلية وذلك أن **شارل كان** ملك النمسا كان أيضا ملكا لأسبانيا وهولاندا، وإمبراطورا لألمانيا وحاكما لجزء كبير من إيطاليا الجنوبية، فكانت أملاكه محيطة بمملكة فرنسا من جميع جهاتها إلا من جهة البحر، ولذلك سعى **فرنسيس الأول** ملك فرنسا إلى التحالف مع دولة آل عثمان على محاربة **شارل كان** ..... وسعي فرنسا أول الدول الصليبية الكاثولكية إلى التحالف مع الدولة العثمانية المسلمة يظهر عدم تقدم الدعوة الإسلامية في أوربا !!(٤) .

وأرسلت فرنسا أول سفرائها لبلاط الخليفة في ٦ ديسمبر سنة ١٥٢٥م وقد قابله السلطان سليمان باحتفال زائد وأجزل له العطايا بعد أن عرض عليه السفير مطالب ملكه، ووعده السلطان بمحاربة المجر لحماية فرنسا ... (٥) .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ التغيير ــ وللأسف ــ في سياسة الدولة في معاملتها لأعدائها من لغة السيف ــ أو الجزية أو طلب الدخول في الإسلام إلى المحادثات الدبلوماسية ، والموائد المستديرة ، وتبادل السفراء والسفارات، وبداية عصر الامتيازات الأجنبية والمشروطات ، فقاد إلى عصر الضعف مما سيأتي بيانه فيما يلي .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند عن ابن عمر ١٤٧/٢ رقم ٢٠٩٣، ٢٠٩٤ . ط إحياء التراث بيروت .

(٢) البخاري ــ كتاب الإيمان رقم٢٥ ، مسلم ــ كتاب الإيمان رقم٢٠.

(٣) رواه الترمذي : كتاب الإيمان رقم ٢٦١٦ (ط الكتب العلمية . ترقيم عبد الباقي) ، ورواه ابن ماجه : كتاب الفتن رقم ٣٩٧٣ (ط الكتب العلمية . ترقيم عبد الباقي) .

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص٨٣ : ٨٤ . ط/ دار الجيل .

(٥) انظر المرجع السابق : ص ٨٤ .

إن الكلام عن الامتيازات التي أعطتها الدولة العلية للدول الأجنبية ولرعاياها من أهل الذمة في الداخل من أصعب المسائل التي يقف عندها المحللون للتاريخ العثماني والدراسون له ..!!

وهذه الصعوبة ليست من حيث المعلومات والوثائق المتعلقة بهذه الامتيازات ومدى ثبوتها ،وما يتعلق بها من تفاصيل وبنود وتواريخ، فهذا كله أمر ظاهر لكل باحث ، ولكن المشكلة في تفسير هذا الحدث ، فمن قائل أنها كانت شبه انهزام من الدولة ، بحيث تزيد قوتها في التحالفات التي نتجت عن هذه الامتيازات ، وهذا بعيد جدا ، كما هو ظاهر من فترة السلطان **سليمان** خاصة ، حيث بلغت الدولة أوج اتساعها وقوتها في عهده وكذلك مما سيأتينا من صيغة المكتوب الذي أرسله لملك فرنسا.

ومن قائل أن هذه الامتيازات كانت تعبيرا عن نفسية الأتراك وسلاطينهم، خاصة من الكبر والبطر الذي كانوا يشعرون به، فقدموا هذه الامتيازات بمثابة فضل ومنة على الأجانب وإظهارا لمكانتهم العلية . وغيرها من التفسيرات ...

والذي أراه أن الامتيازات الأجنبية مرت بثلاث مراحل :

قد بدأت الامتيازات منحة ثم تحولت إلى مطالب وحقوق ممن هم في الخارج لمن هم في الداخل، ثم أصبحت ضغطا وانهزاما واستعلاء على الدولة وهذا في عصر انحطاطها وإرهاصات سقوطها .

وأسرد الآن أول خطاب أرسله السلطان **سليمان القانوني** إلى ملك فرنسا حيث ينجلي فيه ما ذكرته من أسباب الامتيازات أو السبب الرئيسي لتلك الامتيازات، وما وصف به نفسه (السلطان) من أوصاف العظمة و ....، وفي المقابل استحقار ملك فرنسا ومملكته .

يقول **محمد فريد بك** نقلاً عن **جودت باشا** في الجزء الأول : " **نص الرسالة** "...

" بعناية حضرة عزة الله، جلت قدرته وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الأنبياء وقدوة فرقة الأصفياء محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم أجمع وجميع أولياء الله أنا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين، متوج الملوك، ظل الله في الأرضين، سلطان البحر الأبيض والبحر الأسود والأناضول والروملي وقزمان الروم وولاية ذي القادر وديار بكر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وجميع ديار العرب واليمن، وممالك كثيرة أيضا الذي فتحتها آبائي الكرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة، أثار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد

جلالتي بسيف الظفرة، أنا السلطان **سليمان خان بن السلطان سليم خان بـــن السـلطان بايزيدخان**، إلى فرنسيس ملك ولاية فرنسا وصل إلى أعتاب ملجأ السـلاطين المكتـوب الذي أرسلتموه مع تابعكم فراقيان (جانرنجيانى) مع بعض الأخبار التي أوصيتموه بـها شفاهيا وأعلمنا أن عدوكم استولى على بلادكم، وأنكم الآن محبوسون، وتستقدمون مـن هذا الجانب مدد العناية بخصوص خلاصكم ، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سريرتنا الملوكانية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوما، فلا عجـب من حبس الملوك وضيعتهم، فكن منشرح الصدر، ولاتكن مشغول الخاطر فـإن آبـائي وأجدادي العظام نورالله مراقدهم لم يكونوا خاليين من الحب لأجل فتح البلاد ورد العـدو، ونحن أيضا سالكون على طريقتهم وفي كل وقت .... تحريرا في أوائل شـهر آخـر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بمقام دار السلطنة العلية " القسطنطينية المحروسـة المحمية " (١) .

واضح جدا من ركاكة ألفاظ الرسالة وأسلوبها المليء بالشـركيات حيث يسـتعين بالرسول والخلفاء وغيرها من بدع وخرافات ومدى الغرور والكبر الذي كان يتصف به السلطان . إضافة إلى أنها لايمكن أن تصدر بهذه المقدمات إلامن دولة في مركـز القوة والسيطرة ، وسيدة الموقف الذي بإمكانها السيطرة على ما شاءت من أراضـي أعدائها ـــ بمن فيهم ملك فرنسا !!

ويضاف إلى هذا السبب ـــ وهو الأول في نظري ـــ منح ملك فرنسا الامتيازات مـا سيأتي في المبحث القادم من تسلل أهل الذمة من النصارى في قطـاع مـا يسـمى بوزارة الخارجية حيث كانوا يسيطرون على مجال الترجمة في البلاط السلطاني بـل وكان منهم مستشارون(ودفتر دار) وغيرها من المراكز الحساسة وخطـر هـؤلاء الصليبيين واليهود أنهم كعادتهم يفسدون في الخفاء .

فقد كان هؤلاء يتمتعون بمكانة عالية جدا في فرنسا وكان لـهم تنظيمـهم الخـاص المدافع عن حقوقهم، وكان أميرهم الذي يوجههم مقره في القسطنطينية وبقي بها حتى في زمن الفاتح!! يدل على ما ذكرت ما نشره : شيريت سبيريدوفيتش في كتابه : (حكومـة العالم الخفية) وهى رسالة من شامورحاخام مدينة أرى ، من أعمال مقاطعة بروفـانس ، إلى المجمع اليهودي في الأستانة !! يستشيره في بعض الحالات الحرجة ومن الضغـط عليهم وتهديدهم بهدم معابدهم !! فما العمل ؟

---

(١) محمد فريد بك ـ تاريخ الدولة العلية ص ٨٥ .

فمما جاء في الرد :(تقولون إن ملك فرنسا يجبركم أن تدخلوا المسيحية ، فلا يســـعكم إلا أن تدخلوا ،ولكن لتكن شريعة موسى راسخة في قلوبكم) (١).

(وقولكم أنهم يأمرونكم بالتجرد من أملاككم ،فاجعلوا أولادكم تجارا لتتمكنوا رويدا رويـــدا من تجريد المسيحيين من أملاكهم) .

(قولكم أنهم يعتدون على حياتكم، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدمـــوا المســيحيين حياتهم).

(أنهم يهدمون معابدكم ، فاجعلوا أولادكم كهنة وإكليليين ليهدموا كنائسهم) .

كما وصاهم (بأن يجعلوا أولادهم وكلاء دعاوى ، وكتبة عدل ، ليتدخلوا دائما في مســائل الحكومة ويخضعوا المسيحيين لنيرانهم ، ويستولوا على زمام السلطة العالمية !!) .

التوقيع : أمير يهود القسطنطينية (٨٩٤هـــ ـــ ١٤٨٩م) (٢) .

هذه التوجيهات الصادرة من أمير يهود القسطنطينية كان اليهود يأخذون بها أوعلـــى الأقل في طريقهم إلى تنفيذها والتمركز في المجالات التخصصية فيها .

وهذا ما حصل بالفعل لما فوجئ العالم بالوجه الظاهر لليهود في الدولة عندما تأسست جمعية تركيا الفتاه أو الاتحاد والترقي وكان معظم أفرادها من يهود الدونمة ! كما ســيأتي بيانه في الفصل الثالث....

وبالطبع لم يتمكن اليهود من الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا في ظل التساهل الـــذي تمتعوا به من قبل السلطان العثماني ، وتركهم على وضعهم وامتيازاتهم التي منحتها لـــهم جاهلية القانون الروماني الإغريقي والبيزنطي المدني !! بل زاد عليها من الصلاحيات بما لم يتمكن المسلمون أنفسهم التمتع بها ، فكفل لهم تصريف أمورهم بطريقتـــهم الخاصـــة ، وبتنفيذ أحكامهم الجاهلية على الأرض الإسلامية ،كما سنرى ذلك جليا الآن مـــن صيغـــة وبنود الامتيازات التي منحت لملك فرنسا، وما أعقبها من تنازلات وتخاذل في الاتفاقيات . (وفى أوائل شهر فبراير سنة ٩٤٣هـــ ـــ١٥٣٦م تم الاتفاق بين المسيو لافوري ســـفير فرنسا ، والباب العالي . وصدر به خط شريف بمنح امتيازات لرعايا ملك فرنسا النـــازلين بأرض الممالك المحروسة) (٣) .

---

(١) أي مثلما فعل الدونمة في تركيا .

(٢) انظر سبيريت سبيريدوفيتشي : حكومة العالم الخفية ، ترجمة مأمون سعيد ، تحرير وتقديم ـــ أحمد راتب عروش ص ٢٦-٢٧.

(٣) محمد فريد المرجع السابق (تاريخ الدولة العلية) ص ٩١.

وجاء نص هذه المعاهدة في مجموعة البارون دي ستار الموجـودة فـي الكتبخانـة الخديوية وترجمها محمد فريد بك في(تأريخه عن الدولة العلية). وكانت هـذه الاتفاقيـة سنة ٩٤٢ هـ ــ ١٥٣٦م ، ومن مقدمة الاتفاقية يظهر جليا التعمق الصليبي في نفـوس الفرنسيين أو ملك فرنسا على الأخص ، حيث يقول في مطلعها " قد اتفق بمدينة الأستانة ... كل من المسيو جان دي لافوي مستشار سفير صاحب السعادة الأمير فرنسوا المتعمق في المسيحية ملك فرنسا .. لدي الملك العظيم ذي القوة ...الخ ألقاب التعظيم (التي درج الخلفاء على استخدامها حتى في عصور الضعف والانحطاط والسقوط !!) (١)

*** الامتيازات وبنودها :**

جاء قبل البند الأول في الاتفاقية ذكر سبب هـذه الاتفاقيـة :- ".. بعـد أن تباحث الطرفان في مضار الحرب وما ينشأ عنه من المصائب وما يترتب على السلم من الراحـة والطمأنينة.. " يذكرنا هذا الكلام بحديث المصطفى صلى الله عليه وسـلم ." إذا تبـايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر – ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد في سبيل الله سـلط الله عليكم ذلا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم .." (٢) .

وهو ما ترتب على هذه الامتيازات فيما بعد مصداقا لوعد الرسول صلـى الله عليـه وسلم حيث دخلت الدولة العثمانية بوابة الامتيازات وهي عزيزة المكانة . فما أن تركـت الجهاد في سبيل الله وآثرت (السلم والطمأنينة) كما جاء في نص الاتفاقية إلا واعتراهـا الذل والانهزام فهانت عند أعدائها، مما جرأ أعداؤها وجاراتها بل وأعداء الداخـل علـى التدخل في شئون الدولة الأساسية وتسيير دفة الحكم ......وأما البنود فهي :

البند الأول : (قد تعاهد المتعاقدان على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياتـهما، وفى جميع الممالك والولايات والحصون والمدن والمباني والثغور والبحـار والجزائـر، وجميع الأماكن المملوكة لهم الآن، والتي تدخل في حوزتهم فيمـا بعـد بحيـث يجـوز لرعاياهما وتابعيهما السفر بحرا بمراكب مسلحة أو غير مسلحة . والتجـول فـى بـلاد الطرف الآخر والمجيء إليها والإقامة بها ... بقصد الإتجار ..) .

البند الثاني : (يجوز لرعايا تابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السـلع الغير ممنوع الإتجار فيها ... على أن يدفع الفرنساوي في البلاد العثمانية مايدفعه الأتراك في البلاد الفرنساوية ، ويدفع التركي مايدفعه الفرنساويون في البلاد العثمانية) .

---

(١) نص الاتفاقية كاملة من : محمد فريد بك في تاريخه .

(٢) أخرجه أبوداود برقم ٣٤٦٢ ، والإمام أحمد برقم ٤٨٢٥ عن ابن عمر .

البنـد الثالث :

ــ فقد جاء في هذا البند :

(يعين ملك فرنسا قنصلا في مدينة القسطنطينية له أن يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه وذمته في جميع مايقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا ، بدون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضي شرعي أو صوباشي ... على أي حال ليس للقاضي الشرعي (للإسلام) أو أي موظف آخر أن يحكم في المنازعات التي تقع بين التجار الفرنساويين وبين باقى رعايا فرنسا حتى لو طلبوا منه الحكم بينهم) .

البنـد الرابـع : (لايجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضد التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا، أو الحكم عليهم فيها مالم يكن مع المدعين مستندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي ، أو القنصل الفرنساوي، وفى حالة وجود مستندات لاتسمع الدعوى أو شهادة مقدمها إلا بحضور ترجمان القنصل) .

البنـد الخامس : (ولايجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية سماع أي دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا الدولة العلية، بل على القاضي أو المأمور الذي ترفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالي ــ محل إقامة الصدر الأعظم الرسمى ــ وفي حالة عدم وجود الباب المشار إليه (أي إذا حصلت الواقعة في غيرمحل الأستانة) يدعوهم أمام أكبر مأموري الحكومة السلطانية وهناك يجوز قبول شهاد جابي الخراج والشخص الفرنساوي ضد بعضهما) .

البنـد السادس : (لايجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو السنجق بيك ، أو الصوباشي أو غيرهم من المأمورين، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي، ومن جهة أخرى يكون مصرح لهم باتباع شعائر دينهم ولايمكن إجبارهم على الإسلام أو اعتبارهم مسلمين مالم يقروا بذلك غير مكرهين) .

البنـد السابـع : (لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرنسا مع أحد العثمانيين أو اشترى منه بضائع، أو استدان منه نقودا، ثم خرج من الممالك العثمانية قبل أن يقوم بما تعهد به فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب أو أى شخص فرنساوي أخر عن ذلك مطلقا،

وكذلك لايكون ملك فرنسا ملزما، بشئ بل عليه أن يوفي طلب المدعي من شخص المدعى عليه أو أملاكه لو وجدت بأراضي الدولة الفرنساوية إن كان له أملاك بها .

البند الثامن : (لايجوز استخدام التجار الفرنساويين، أو مستخدميهم أو خدامهم أو سفنهم أو املاكهم، أو مايوجد بها من اللوازمات أو المدافع والذخائر أوالتجارة جبرا عنهم في خدمة جلالة السلطان الأعظم أو غيره في البر والبحر، مالم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم) .

البند التاسع : (يكون لتجار فرنسا ورعاياها الحق في التصرف في كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم، وعند وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية، فتوزع أمواله وباقي ممتلكاته على حسب ماجاء بها، ولو توفى ولم يوص فتسلم تركته إلى وارثه أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل ، لوكان في محل وفاته قنصل ، وإلا فتحفظ التركة بمعرفة قاضي الجهة، بعد أن تعمل بها قائمة جرد على يد شهود، أما لوكانت الوفاة في جهة بها قنصل، فلا يكون للقاضي أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق في ضبط التركة مطلقا، ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم يصير تسليمها إلى القنصل أو من ينوب عنه لو طلبها، مثل الوارث أو وكيله، وعلى القنصل توصيلها وتسليمها إلى صاحب الحق فيها) .

البند العاشر : (بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرنسا لهذه المعاهدة بجميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهم أو على مراكبهم أو سفنهم أو في أي محل أو إقليم تابع لسلطتهما في حالة الرق، سواء كان ذلك بشرائهم أو بأسرهم وقت الحرب، يصير إخراجهم فورا من حالة الاسترقاق إلى بحبوحة الحرية، بمجرد طلب وتقرير السفير أو القنصل أوأي شخص آخر معين لهذا الخصوص، ولو كان أحدهم غير دينه ومعتقده فلا يكون ذلك مانعا لإطلاق سراحه .

ومن الآن فصاعدا لايجوز لجلالة السلطان أو ملك فرنسا، ولابقبودانات البحر ورجال الحرب، أو أي شخص آخر تابعا لأحدهما أو لمن يستأجرونهم لذلك سواء في البر أوالبحر، أخذ أوشراء أو بيع أو حجز أسراء الحرب بصفة أرقاء، ولو بحار قرصان و غيره من رعايا إحدى الدولتين المتعاقدتين على أخذ أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله، يصير إخبار حاكم الجهة، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته على مخالفته شروط الصلح، عبرة لغيره ورد ما يوجد عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه، وإذا لم يضبط الفاعل فيمنع هو وجميع شركائه من الدخول إلى البلاد وتضبط ممتلكاته لجانب الحكومة التابع إليها، ويصير التعويض على ماحصل له من أضرار مما يصادر من أملاك الجاني، وهذا لايمنع من مجازاته لو صار لضبطه فيما بعد ، وللمجني

عليه أن يستعين على الحصول على ذلك بضامن هذا الصلح ، وهم السر عسكر عن الجناب السلطاني وأكبر القضاة عن ملك فرنسا .

البند الحادي عشر : (لو تقابلت دونانمات إحدى الدولتين المتعاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الأخرى ، فعلى هذه المراكب تنزيل قلوعها ورفع أعلام دولتها حتى إذا علمت حقيقتها لاتحجزها أو تضايقها السفن الحربية أو أي تابع آخر للدولة صاحبة الدوناغة، وإذا حصل ضرر لأحدهما فعلى الملك صاحب الدونانمة تعويض هذا الضرر فورا ، أو إذا تقابلت سفن رعايا الدولتين فعليهما رفع العلم وإبداء السلام بطلقة مدفع، والمجاوبة بالصدق لوسئل ربانها عن الدولة التابع إليها، ولما تعلم حقيقتها لايجوز لإحداهما أن تفتش الأخرى بالقوة أو تسبب لها أي عائق كان) .

البند الثاني عشر : (إذا وصلت إحدى المراكب الفرنساوية ـ سواء بطريق الصدفة أو غيرها ـ إلى إحدى مواني أو شطوط الدولة العلية، تعطى مايلزمها من المأكولات وغيرها من الأشياء مقابل دفع الثمن المناسب، بدون الزامها تفريغ مابها من البضائع لدفع الأثمان، ثم يباح لها الذهاب أينما تريد، وإذا وصلت إلى الأستانة وأرادت السفر منها بعد الاستحضار على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسم اللازم وتفتيشها بمعرفة الأمين المشار إليه، فلا يجوز ولايمكن تفتيشها في أي محل آخر، إلا عند الحصون المقامة بمداخل بوغاز جاليبولي (الدردنيل)، بدون دفع شئ مطلقا لاعند هذا البوغاز ولا في مكان آخر عند خروجها خلاف ماصار دفعه، سواء كان الطلب باسم جلالة السلطان أو أحد مأموريه) .

البند الثالث عشر : (لو كسرت أو أغرقت مراكب إحدى الدولتين، بالصدفة أو غيرها عند البلاد التابعة للطرف الآخر، فمن ينجو من هذا الخطر يبقى متمتعا بحريته، لايمانع في أخذ مايكون له من الأمتعة وغيرها . أما لو غرق جميع من بها فما يمكن تخليصه من البضائع يسلم إلى القنصل أو نائبه، لتسليمها لأربابها بدون أن يأخذ القبودان باشا أو السنجق بيك (والصوباشي) أو القاضي أو غيرهم من مأموري الدولة أو رعاياها شيئا منها، وإلا فيعاقب من يرتكب ذلك بأشد العقاب . وعلى هؤلاء المأمورين أن يساعدوا من يخصص لإستلام الأشياء المذكورة) .

البند الرابع عشر : (لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمانيين، و احتمى في بيت أو مركب أحد الفرنساويين، فلا يجبر الفرنساوي إلا على البحث عنه في بيته أو مركبه، ولو وجد عنده يعاقب الفرنساوي بمعرفة قنصله ويرد الرقيق لسيده وإذا لم يوجد الرقيق بدار أو مركب الفرنساوي فلا يسأل عن ذلك مطلقا) .

البنـد الخامس عشر : (كل تابع لملك فرنسا إذا لم يكن أقام بأراضي الدولة العليـــة مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع، لايلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أيا كان اســمها، ولايلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن جلالة السلطان ولابالشغل في الترسـانة أو أي عمل آخر، وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة في بلاد فرنسا .

وقد اشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا وملك انجلترا أخيه وحليفه الأبدي وملك ايقوسيا الحق في الاشتراك بمنافع المعاهدة لو أردوا ، بشرط أنهم يبلغون تصديقهم عليـــها إلـــى جلالة السلطان ويطلب منه اعتماد ذلك في ظرف ثمانية شهور تمضي من هذا اليوم) .

البنـد السادس عشر : (يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرنسا تصديقه للآخـــر على هذه المعاهدة في ظرف ستة شهور تمضي من تاريخ امضائها، مع الوعد من كليـهما بالمحافظة عليها، والتنبيه على جميع العمال والقضاة والمأمورين، وجميع الرعايا بمراعاة كامل نصوصها بكل دقة . ولكي لايدعي أحد الجهل بهذه المعاهدة يصير نشر صورتـــها في الأستانة واسكندرية ومصر ومرسيليا وناربونة، وفي جميع الأماكن الأخرى الشـــهيرة في البر والبحرالتابعة لكل من الطرفين) .

انتهت المعاهدة .(١)

تعليق على هذه المعاهدة :

يلاحظ أن الدولة منذ عقد هذه الاتفاقية لم تتقدم شبرا واحدا بعد هذا البند الأول الـذى ينص على الغاء أي شيء يمت للجهاد بصلة وذلك في قول (التعاقد على الســلم الأكيـد والوفاق الصادق مدة حياتهما ... فقد تحولت مهمة الجيوش العثمانية بهذه الامتيازات مـن دور الفاتحين الناشرين لدين الله ، الرادين لمن يصد عن دين الله ، إلى دور الدفاع عـــن حدود الدولة وثغورها ، والحارس على ممتلكاته !! واستمر الوضع علـــى هـذا الحـال وأصبحنا مع مرور السنوات نسمع بسقوط المدينة الفلانية، أوالاقليم،أوالثورة فـــى مكـان آخر وهكذا حتى تناثرت أشلاء الدولة العثمانية إلى الدولة التركية !!

أما عن البند الثاني فكما هو ملاحظ من الاجتهادات العصرية والقوانيـــن الوضعيـة البعيدة عن اجتهادات الفقهاء وعن أفعال الصحابة ــ كما تقدم معنا سابقا ــ فـــي النظـرة السريعة لأحكام أهل الذمة حيث فرض عمر رضي الله عنه على تجار أهل الذمة عشـــر اموالهم من تجارتهم .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ٢٢٤ ــ ٢٢٦ .

أما هذه الاتفاقية فيلزم منها ، لواسقطت فرنسا المكوس عن تجـار الدولـة العليـة ، لسقطت عن تجارهم ــ وهذا طبعا في صالح فرنسا ــ لأن التجارة تقريبا من جانب واحد ، وهو مانوهنا عليه سابقا من اتساع رقعة البلاد العثمانية ووفرة مواردها وأسواقها ممـا يدر أرباحا خيالية على التجار الفرنسيين أما العثمانيون فلا يكاد يذكر لهم نشاط في مجال التجارة !! وظاهر هذا البند أن الدولة العثمانية مغلوبة على أمرها في توقيعـه، مـع أن الواقع كان خلاف ذلك !!

مما يؤكد ماذكرنا من أسباب وقوع الدولة في فخ الامتيازات .

أما البند الثالث من الامتيازات فهو من المصائب العظيمة التى تورطت فيها الدولـة منذ وقت مبكر، وإن تطور بها المرض أكثر فيما بعد، حيث يبيح هذا البند لأهـل الذمـة ممارسة جاهليتهم، وتحكيم قوانينهم الوضعية على أرض الإسلام، كما أنـه بإمكانـهم أن ينشرو الفساد الفكري والأخلاقى بين المسلمين بحجة أنه بينهم فقط ، وأنـه مبـاح فـي جاهليتهم .

وهذه بداية إرهاصات إقصاء الشريعة وسنفصل فيه القول في الفصل الثاني إن شـاء الله عز وجل .

أما عن البند الرابع : فيشتم من خلاله تعطيل واجب الأمر بالمعروف والنهي عـن المنكر، حيث لايستطيع المسلم أن ينكر على الذمي شيء مما يجهربه من المنكـرات (إلا بوجود سندات وحجج ، واستدعاء شهود من أهل دينه) !! .

وفي البند السادس : بمثابة إذن تسليم وإضفاء للشرعية على حملات التنصير التـي ترسلها فرنسا ــ حيث نص البند على عدم جواز محاكمتهم (التجار ومتبوعيـهم) فيمـا يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي !!.

وكذلك أطلقت الإتفاقية حريتهم في اتباع شعائر دينهم ــ (هذا لا مراء فيه) ــ ولكن يجب أن يقيد بضوابط الشريعة حيث لايحدثون كنيسة مثلا ولايرفعون أصوات أجراسـهم وغيرها من الضوابط .

أما البند السابع : فهذا من أغرب البنود ــ حيث يفتح البـاب للسـراق والنصـابين والمحتالين والمتهمين على مصراعيه ــ فيقول كما سبق عند سرد البنود أن من اشـترى بضاعة أو استدان أو تعهد بمال، ثم خرج من الممالك العثمانية ولم يـؤد ماعليـه فليـس لصاحب الحق أن يسأل القنصل أو أقارب الجاني أو أي شخص فرنسـاوي آخـر عـن

الشخص الغائب ، وكذلك لايكون ملك فرنسا ملزما بشيء . بل إن وجد له أملاك في الممالك العثمانية استوفى الحصة منها ــ وإلا ضاع حقه ...

في البند الثامن : يدل ضمنا على السماح لهم بحمل الأسلحة مهما عظمت على أرض الدولة !! وقد جاء في الوصية العمرية عدم السماح لهم بحمل السلاح على أراضي المسلمين!

وكذلك من التعارض الصريح لهذه الإتفاقية مع شرع الله ، أنها تنص صراحة على إلغاء الحكم الشرعي، وهو الرق وأحكامه وصور العتق إذا توفرت شورطه الشرعية !! وذلك في البند العاشر عند قولهم (عند توقيع هذه الإتفاقية يصير كل من في يد الدولتين أحرارا !! بمجرد طلب السفير أو القنصل) .

كما أنها أغلقت الباب في المستقبل على استحداث رق (ولو عن طريق شرعي).

وفي البند الرابع عشر يناقض ماسبق من أن كل الأرقاء في الدولتين أحرار بمجرد توقيع هذه الإتفاقية .

ففي البند الرابع عشر يذكر لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمايين فاحتمى في بيت أو مركب أحد الفرنسيين فلا يبحث إلا في هذين المكانين فقط .

الشاهد عند ختام هذه الإتفاقية أن من الواضح جليا أن المستفيد الأول من هذه الإتفاقية هو الفرنساوي، إضافة إلى مخالفة هذه البنود لنصوص الشريعة الإسلامية والشروط العمرية في التعامل مع أهل الذمة .

وقد كان هذا الإتفاق سببا في تدخل فرنسا وباقي دول أوروبا في شؤون المملكة الداخلية ، لأن هذه الامتيازات التي منحت لفرنسا ماهي إلا نموذج لامتيازات مماثلة منحت لباقي دول أوروبا فهي وإن اختلفت في الشكل وترتيب البنود إلا أنها متشابهة في حجم الامتيازات التي منحت لكل من البندقية أولا ، ثم فرنسا وبريطانيا والنمسا حتى روسيا والتي كانت تمثل أبرز أعداء الدولة ــ ظاهرا وباطنا .

وقد فصلت الكلام في عرض الامتيازات لفرنسا نظرا لأنها تمثل الشكل الرتيب الذي سار عليه الخلفاء في منح هذه الامتيازات من حيث احتوائها على شقين :

أولا : ماهو خاص بالإقامة .

ثانيا : مايتعلق بالتجارة .

فالشق الأول : لم يتغير كثيرا في الامتيازات العثمانية كلها إلا من حيث المنطوق فقط وهو خاص بإقامة الأجانب وما تضمنه من ضمان لسلامتهم واحترام حريتهم الشـــخصية والدينية .

والشق الثاني : احتوى على ثلاث موضوعات هامة :

أ ـــ ماهو خاص بالرسوم الجمركية من إعفاء أو غير ذلك .

ب ـــ مايتعلق بحماية السفن والبضائع والتجار من أي اعتداء .

ج ـــ السلع المسموح الإتجار بها أو الممنوعة .

تحليل لبنود معاهدات الامتياز :

أما الشق الخاص بالإقامة فهو يتضمن أربع موضوعات :

١ـــ تنظيم إقامة رعايا هذه الدول من حرية تنقلهم وحمايتهم .

٢ـــ مايتعلق بهم من منازعات مع بعضهم البعض أو فيما بينهم وبين أهالي البلاد .

٣ـــ مايتمتع به السفير والقنصل ومترجموهم ومن يعملون في خدمتهم من حقوق .

٤ـــ مايخص حرية العبادة للجاليات (ويدخل فيها حريتهم في الدعوة إلى التنصـــير عـــن طريق الغزو الفكري) .

أولا ـــ إقامة أهل الذمة :

نجد مايتعلق بهذه النقطة واضح في المعاهدة السابقة من خلال البند الأول والثامن(١). فقد منحتهم حرية التنقل في أنحاء الدولة وعدم مضايقتهم بأي شيء وحرم منازلهم وعـــدم اقتحامها بدون وجود القنصل .

ونصت المعاهدة على إطلاق سراح من يثبت أنه أجنبي الجنســـية(٢)، كمـــا أكـــدت المعاهدات بألا يؤخذ ذمي بجريرة آخر من جنسيته، مدين هرب أو أفلـــس ولايســـتقضي الدين إلا من المدين نفسه أو كفيله ـــ كما نصت المعاهدات عدم المساس بمال الميت مـــن قبل الدولة مطلقا بل يسلم للقنصل (٣).

---

(١) محمد فريد بك : المرجع السابق (تاريخ الدولة العلية) ص ٢٢٤ – ٢٢٦ .

(٢) ليلى الصباغ : الجاليات الأجنبية في بلاد الشام ... معاهدة ١٥٢١م ج البند فيد مادة ٢٠٠.

(٣) محمد فريد بك : المرجع السابق (تاريخ الدولة العلية) المادة السابعة (٧) من معاهدة ١٤٣٥ مع فرنسا .

وأعفى الرعايا الإفرنج من دفع ضريبة الخراج أو الجزية أو غيرها من الضرائب على المتزوج منهم والعازب على تفاصيل في بنود المعاهدات .

ومما يترتب على هذا التساهل :

أن بعض أهل الذمة استغل هذه التسهيلات الممنوحة لهم في الخروج من الولايات العثمانية دون أن يسدد ماعليه – أو تهربا من تهمة توجه إليه ، وأحيانا رفض تسديد ماعلية من كمبيالات !! ومن ثم أكدت المعاهدات المتأخرة على منع سفر أجنبي منهم إلى بلاده إلا بضمان قنصله وإلا يظل مقيما بالبلاد حتى ينظر في أمره (١) . بمعنى أن هذه الأخطاء أثرت حتى على الدولة الأوربية ، ولكن بالمقدار الذي تأثرت به الدولة العثمانية ورعاياها من المسلمين .

ثانيا : محاكمة أهل الذمة :

الموضوع الثاني الذي بحث في هذه الامتيازات مما يتعلق بالإقامة (المحاكم الخاصة لهم) ورد في هذه الامتيازات أكثر من بند يؤكد عدم تدخل الدولة ومحاكمها الشرعية فيما يقع من خلاف بين الرعايا والأجانب .

وأهم مانصت عليه المعاهدات بخصوص ذلك :

١- يفصل السفير أو القنصل في النزاعات التي تقوم بين أفراد من جنسية واحدة تبعا لقوانين بلادهم ودون تدخل من السلطات المحلية (٢) .

ويختص القضاء العثماني في الفصل فى قضايا الخصومة بين أفرنجي وأحد رعايا الدولة العثمانية ، وفي هذه الحالة لابد من حضور السفير أو القنصل أو نائبا عنه أو الترجمان...(٣) .

وإذا كانت المنازعة بين أجنبيين من جنسيتين مختلفتين يفصل في أمرهما في محكمة الباب العالي ولايجبرون على ذلك إلا بمحض إرادتهم (٤) .

---

(١) يوسف بك آصاف : المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوربية ، ص ٨٠ .

(٢) ليلى الصباغ : المرجع السابق (الجاليات الأجنبية في بلاد الشام) ص٥٦ مادة ٣ من معاهدة ١٦٠٤ مع البندقية ، يوسف بك آصاف: المرجع السابق (المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية) ص٨ مادة (١٥) من معاهدة ١٥٧٠ مع فرنسا.

(٣) يوسف بك آصاف: المرجع السابق ص ١٨، ١٩ ، ص ٢٦ مادة ٤٨ ،٦٥.

ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٥١ مادة ٩ من معاهدة ١٥٢١ مع البندقية ، يوسف آصاف : المرجع السابق ص ٦٤، ص٧٧ مادة ١٠-١٥ من معاهدة ١٣٣٣هـ – ١٥١٩م مع إنجلترا .

(٤) انظر يوسف بك آصاف : ص٢٠ معاهدة ١٧٤٠م مع فرنسا المادة ٥٢ .

٢- الدعاوى التي ضد ذمي وتتجاوز قيمتها أربعة آلاف قرش تنظر أمام الديوان العـالي ، كما تختص هذه المحكمة بالنظر في القضايا الدينية (١).

٣- مايتعلق بالرسوم القضائية ومن يتحملها ولمن تصرف .

٤- أن لا يحاكم أهل الذمة إلا إذا صار مع المدعين حجج رسمية ووثائق رسمية تدينهم ، ومن ثم نصت المعاهدات المتأخرة على ضرورة تسـجيل عقـود البيـع والشـراء والقروض عند القاضي مع الشهود، فيحرر بشأنها صك رسمي أو حجة شرعية يرجع إليها عند المنازعات (كما جاء في معاهدة ٩٨٧هـ ـــ ١٥٧٩م مع انجلترا) (٢) .

ثالثا : السفراء والقناصل ومن يعملون في خدمتهم من تراجم وغيرهم :

من أهم ماصدر بشأنهم أن يعينوا أو يعزلوا من قبل ملـوك دولـهم أو سـفرائها ، ولايعطى لغيرهم الحق في تركهم أو نقلهم أو الإعتراض على وجودهم !!(٣) مهما بـدر منهم فتمكنوا بذلك من بلاد المسلمين في بث الفتن وتشويش الأفكار، بما لهم من حصانـة وحماية تمكنهم من أن يفسدوا كما شاءوا ، هذا هو شأن السفراء والقنـاصل فـي أكـثر الأزمان والبقاع !

وكذلك من الحقوق التي تمتع بها السفراء والقناصل أنه لايجـوز سـجنهم أو ختـم منازلهم وطردهم أوإغلاق محلاتهم بل يجب استقبالهم بكل احترام ، بل لايجوز للقضاء أن ينظر في مايرفع ضدهم من دعاوى إلا أمام الباب العالي (٤) .

ومما يتمتع به السفراء وأتباعهم (حتى الخدم والتراجمة والكتاب ..)

الإعفاء من كافة الضرائب والرسوم الأخرى !! كما أعطوا الحق في اسـتخدام مـن شاؤا في خدمتهم ومصالحهم من أي ملة شاؤا . ويعفى هؤلاء من الضرائب والرسوم مثل القناصل والسفراء .

وقد جاء في بعض المعاهدات (كالفرنسية) تحديد هؤلاء الخدم بخمسة عشر نفـرا من رعايا السلطان (٥)... وأطلق العدد للمستخدمين في معاهدات أخرى .

---

(١) محمد فريد بك : الدولة العلية ص٢٥٥ مادة ٦ من معاهدة سنه ٩٤١هـ ـــ ١٥٣٥م مع فرنسا السابق سردها .

(٢) يوسف آصاف:المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية ص٦٤ مادة ٩٠ من المعاهدة السابقة ص ٥٤ مادة ٥ سنة ١٧١٨م.

(٣) يوسف آصاف ص ٦٥ مادة ١٣ من معاهدة ٩٨٧هـ ـــ ١٥٧٩م مع إنجلترا .

(٤) ليلى الصباغ :الجاليات الأجنبية في بلاد الشام ص ٥٦ مادة ١٣ من معاهدة ١٦٠٤ البندقية ،

يوسف آصاف : ص ٦٨ مادة ٢٥ من معاهدة ١٥٧٩ مع إنجلترا ، ص ١٧٠ مادة ٥٧ من معاهدة ١٧٨٣م مع روسيا .

(٥) انظر : يوسف بك آصاف، المرجع السابق ص ١٨ مادة ٤٧ سنة ١١٥٣هـ ـــ ١٧٤٠م مع فرنسا ص١٨ مادة ٦٠ من معاهدة سنة ١٠٥٠هـ ـــ ١٦٤١م مع إنجلترا .

وكذلك يحق للسفراء والقناصل رفع علم بلادهم (وإن تضمن كفرا في شكله) في أماكن مساكنهم .

كما أن لهم الحرية في صنع النبيذ أو جلبه من خارج البلاد ، معفيا من الرسوم الجمركية !!(١) .

من أجل ذلك ــ ياللأسف ــ كان للخمور سوق رائجة جدا وخاصة بين صفوف الانكشارية ورجال البلاط العثماني ، مما ولد مشكلة على **السلطان محمود** حينما أصدر قرارا بمنع الخمور بين الجند !! فتراجع عن قراره الذي هو في غنى عنه أصلا ــ لو طبق شرع الله على أرضه !!

ومما تمتع به السفراء والقناصل ...

إعطاؤهم الصلاحية في استقدام من يشاؤون من التراجمة دون التقيد بعدد معين ، ولا يهانوا ولايسجنوا إلا بأمر من سفرائهم وقناصلهم (٢) ، وهذا القانون فتح بابا على الدولة لكل من أراد التخلص والتهرب من دفع الضرائب أن يدخله سادته من السفراء بحجة أنهم يشتغلون عندهم في الترجمة وغيرها . وهذا أدى إلى وجود العملاء المحميين من قبل سادتهم الغربيين .

وإن كانت وظائف الترجمة ليست حكرا على رعايا الدول الأجنبية ــ بل يجوز أن يكونوا من رعايا السلطان ولو من المسلمين .

فكان حريا بالدولة أن تلزم السفراء أن يستعينوا بمترجمين من رعايا الدولة من المسلمين ــ خاصة إذا عرفنا المكانة المرموقة التي يحسد عليها التراجمة والمميزات التي توفرها لهم الدولة في إعفائهم من الضرائب على اللحوم ، وحرية صنع النبيذ وجلبه ، واعفائهم من رسم الجمارك (٣) .

---

(١) انظر يوسف بك آصاف : المرجع السابق ص٦٩، مادة ٢٩ من معاهدة سنة ١٠١٤هـ ــ ١٦٠٦م مع إنجلترا ، ص١٩ مادة ٤٩-٥١ من معاهدة سنة ١١٥٣هـ ــ ١٧٤٠م مع فرنسا ، ص١٦٩ مادة ٥٣ من معاهدة سنة ١١٩٧هـ ــ ١٧٨٣م مع روسيا .

(٢) انظر يوسف بك آصاف : المرجع السابق ص ١٨ ، مادة ٤٥،٤٦ من معاهدة سنه ١١٥٣هـ ــ ١٧٤٠م مع فرنسا .

(٣) انظر يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص١٦٩ مادة ٥١ سنة ١٧٨٣م مع روسيا ، مادة ٥٦ سنة ١٧٨٣م مع روسيا كذلك.

رابعا : الشئوون الدينيه وحرية العبادة :

منحت المعاهدات لرعايا الدول الأوربية الحق في زيارة بيت المقدس ، وعدم اضطهادهم ومضايقتهم ، كما منح البنادقة في أوائل القرن السابع عشر حق إصلاح الأجزاء المخربة في كنيسة القيامة ...(١) .

ونظرا لمكانه فرنسا الدينية ولكونها الراعية الأولى للكاثوليك والبابوية والمحافظة على الديانة النصرانية والنصارى خاصة فى بيت المقدس . فقد سمح لها بأن يكون معظم الرهبان والقسيسين في كنائس بيت المقدس من الفرنسيين ، فنص في المعاهدات المعقودة معها منذ القرن السادس على حرية هؤلاء في العبادة وضرورة حمايتهم .

ومن هذه الحرية !! التى نصت عليها :

(أن لهم الحق في قراءة الإنجيل في كل مستشفى تابع لهم)(٢) ، كما جاء في معاهدة سنة ١١٥٣هـ ـــ ١٧٤٠م مع فرنسا .

ولعلنا نكتفي بهذا القدر بالنسبة للشق الأول من المعاهدات وهو مايتعلق بالإقامة .

*** مسائل التجارة في معاهدات الامتياز :**

أما الشق الآخر من المعاهدات وهو مايتعلق بالتجارة فيتضمن ثلاثة موضوعات :

١ـــ ماهو خاص بالرسوم الجمركية على البضائع وإعفاءاتها .

٢ـــ مايتعلق بحماية السفن التجارية والبضائع من الإعتداءات .

٣ـــ عن السلع المسموح بالإتجار فيها أو الممنوع (وهذا هو أهمها) .

فهذه الموضوعات الثلاثة على أهميتها ووجوب خضوعها للضوابط الشرعية ، إلا أني سأقتصر على القول فيما يتعلق بالبضائع المسموح الإتجار بها :

فقد منحت المعاهدات جميع التجار الإفرنج والسماسرة والتراجمة حرية الإتجار والإنتقال إلى أي مكان بجميع أصناف بضائعهم بدون أن يلحق بهم ضرر. أو مصادرة

---

(١) انظر محمد فريد بك المرجع السابق (تاريخ الدولة العلية) ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٦ مادة ٦ من معاهدة سنة ١٥٣٥م مع فرنسا ، ليلى الصباغ : المرجع السابق (الجاليات الأجنبية) ص ٥٦ ، ص٥٧ مادة ١٢ من معاهدة ١٦٠٤م مع البندقية ، يوسف بك آصاف : المرجع السابق (المعاهدات الدولية) ص ٢٤ مادة ٦١ معاهدة سنة ١٧٤٠ مع فرنسا ، ص ٨١ مادة ٦١ معاهدة ١٦١٩ مع إنجلترا .

(٢) انظر يوسف آصاف : المرجع السابق ص٣٤ مادة ٨٢ .

لبضائعهم (١) . وهذا مما لم يكن يتمتع به أهل البلد في كثير من الأحيان للأسف ، بل أكثر من ذلك ـ نص على مسائل دقيقة في شأن السماسرة وكانت في مجملها تصب في مصلحة اليهود .

حيث جاء في بعض المعاهدات ، ومنها على سبيل المثال معاهدة سنة ١١٥٣هـ ـ ١٧٤٠ م الممنوحة لفرنسا ، جاء بها المادة (٦٠) ، أن سبب صدور أمر خاص بموضوع السماسرة: (أن بعض اليهود وغيرهم يزعم أن السمسرة عادت إليه بالإرث فللفرنساويين الحرية في استخدام من يريدون، وعندما يطردون من خدمتهم من استخدموه للسمسرة ، وتوفي فلا يسوغ للآخر أن يطلب ممن خلفه رسما بحجة أخذ رسم القطيعة المعروف بالكدك، والذي يخالف ذلك يعاقب) (٢) .

ومما يلفت النظر في معاهدات التجارة التي لايشم منها رائحة تحكيم شرع الله مانصت عليه المعاهدات من السلع الممنوع الإتجار بها ـ فيتبادر إلى ذهن المسلم أن على رأسها ماحرم الله ثمنه وتعاطيه وانتشاره من المطعومات أو الملبوسات أو الكتب أو ... أو .. مما هو معلوم في مواضعه من كتب الفقه. ولكن نفاجأ بأن السلع الممنوعة هي : الأرز والقمح والسلاح والبارود، قد تصل دون تصريح بالإتجار فيه (٣) . هذا القرار من الربع الأخير من القرن الثامن عشر حيث منحت روسيا فقط حق الإتجار فيها (ماعدا السلاح) بمعاهدة سنة ١١٩٨هـ ـ ١٧٨٣م ونصت المعاهدة سالفة الذكر على أن للرعايا الروس شراء تلك السلع إضافة للزيت والحرير من كافة مدن الدولة عدا الأستانة (٤) .

وهذا الكلام ليس نصا فيما ذكرت (من أن هذه السلع فقط ممنوعة وكل ماعداها مسموح !! ولكن الغريب في المعاهدات أنها أيضا كانت تحدد قليلا من السلع تحت بند السلع التي يصرح الإتجار فيها .

تنافس الدول الأوروبية على الصدارة في الامتيازات الممنوحة لها وأسباب ذلك :

من الموضوعات المهمة التي أثيرت في المعاهدات مايتعلق بالنزاع بين الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا للحصول على امتياز حماية أي من الدولتين لتجارة وسفن الدول التي لاترتبط بمعاهدات مع الدولة العثمانية، بإعطائها الحق في الإتجار تحت

---

(١) يوسف بك آصاف : المرجع السابق ، ص ٦٢ ـ ٦٣، ٦ ، ١٤٧ في معاهدات ١٥٧٩م مع إنجلترا ، ١٦٠٦م معها كذلك ،ومعاهدة ١٧٨٣م مع روسيا (بند ٣) .

(٢) انظر يوسف بك آصاف : المرجع السابق ص ٢٤.

(٣) يوسف بك آصاف : المرجع السابق ، ص ٦٧ مادة ٢٣ من معاهدة ١٦٠٦م مع إنجلترا .

(٤) نفس المرجع السابق : ص ١٦٥ ، ١٦٨ مادة ٤٥٠٦٣ .

علم أي منها ـــ بل كان يصل هذا التنافس إلى درجة العداوة ومحاولة كل دولة أن تضعف جارتها ـــ مما جعل الدولة العثمانية تستغل هذا الصراع لاستمرار بقائها على أساس عدم تجمع الدول الصليبية صفا واحدا في مواجهتها !!

ـــ ولو تساءلنا عن الفوائد والمصالح التي تجنيها فرنسا مثلا أو إنجلترا لكي تكون صاحبة السيادة في حماية الدول الأجنبية الأخرى، وأن تتاجر تحت علمها وحمايتها نجد على رأسها أسباب دينية تنصيرية . حيث كانت فرنسا حامية الكاثوليك، وكثير من السفن والمراكب كانت مسخرة لأغراض التنصير . ثم تضاف أسباب أخرى إلى هذا السبب في مجملها إقتصادية مثل :

١ـــ تحقيق السيادة التجارية في الليفانت (شركة التجارة الإنجليزية) .

٢ـــ الحصول على رسم القنصلية المتحصل من الحماية ـــ وهذا الرسم من الموارد الهامة للقنصل وبالتالي لدولته ، فكانت هذه الضريبة تسدد نفقات السفير والقناصل التابعين له، وكذلك كانت سيادة فرنسا على الأمم الأجنبية يضمن لقنصلياتها ازدهارا كبيرا ومصدر إيراد كبير لفرنسا (١) .

وكان صاحب السبق في هذه الامتيازات فرنسا، حيث حظيت بمزايا لم تحظ بها الدول الأخرى، وكان لها قصب السبق في بسط حمايتها على تجار الدول التي ليس لها سفير ولاترتبط بمعاهدات تجارية مع الدول العثمانية .

وسر هذه المكانة لفرنسا خاصة، وأهل الذمة أو نصارى الداخل بالأخص . بسبب الأبواب والمجالات التي كانت وراء ذلك مثل الزوجات ـــ أمهات السلاطين ـــ وهذا مثال على ذلك:أن السلطان **محمود الثاني** وإصلاحاته المعروفة !! كانت أمه فرنسية بل ومتعصبة لقوميتها ! فجعلت من ابنها السلطان (بعد أن زوجته بفرنسية أيضا) يسعى لجعل دولته قطعة من فرنسا بنظمها وإدارتها . والغريب في ذلك أنه أصدر مجلة تصدر في عاصمة دولة الخلافة باللغة الفرنسية ؟؟

ومن تدخل أهل الذمة دخولهم في السلك الدبلوماسي من مترجمين وخبراء ومستشارين كاثوليك يحتمون وينعمون بظل الامبراطورية الفرنسية . فمن المزايا التي تمتعت بها فرنسا دون غيرها من الدول الأجنبية أن ملكها هوالوحيد الذي لقب بأمبراطور.

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق (الجاليات الأجنبية ...) ص ١١٠.

ـــ وكذلك في معاهدة ١٠١٣هـــ ـــ ١٦٠٤م مع فرنسا (١) ، ألغت الدولة العثمانيـــة مامنحته إنجلترا من امتيازات حماية الدول التي ليس لها سفير في الدولة العثمانية بـــالنص التالي : '' إن كل الأمم الأخرى التابعة للباب العالي والتي ليس لها سفير وتريد التجـــارة مع بلادنا يجب أن تحضر تحت علم ورعاية فرنسا دون أن يستطيع أبدا سفير إنجلـــترا أو أي سفير آخر أن يمنح ذلك '' (٢) .

وكانت فرنسا تقف دون محاولات بعض الدول للحصول على امتيازات خاصة لـــها وذلك مثل ما اتخذته مع جنوة وفلورنسا ، ونجحت فرنسا في معاهدة سنة ١٠٨٤هـــ ـــ ١٦٧٣م أن تحصل على سيطرة علمها علـــى بعـــض الـــدول ، فنصـــت المعـــاهدة '' البرتغاليون والصقليون والكاثوليكيون وسكان مسينا بإيطاليـــا واتكونـــا إيطاليـــا والـــدول الأخرى المعادية لنا ، والتي ليس لها سفراء ولاقناصل ولاممثلين في الباب العالي فليـــس من حقهم أن يقوموا بأي عمل لايطابق السلام وحسن النية إذا كانوا تحت علم أمـــبراطور فرنسا '' (٣) ، واستمر هذا التنافس بين فرنسا وباقي الدول الأوروبية وخاصـــة إنجلـــترا بين مد وجزر فتارة تظفر فرنسا بسبق الصدارة وقليلا ما يكون العكس .

فمثلا.. حصلت إنجلترا والبندقية على خصم في الرسوم الجمركية على تجارها فكانوا يدفعون ٣% فقط ، في حين كان تجار فرنسا يدفعون ٥% إلى عدة سنوات .

بل أكثر من ذلك فقد مرت بين الدولة العثمانية وفرنسا أزمات شديدة خاصـــة بيـــن مابين (٩٧٧هـــ ـــ ١٥٦٩م) ، (٩٨٩هـــ ـــ ١٥٨١م) ، استفاد الإنجليز من هذا التوتـــر في العلاقات فاستقروا في القسطنطينية ، وهدفهم الإنتشار في الليفانت ، ولـــم يســـتطع " جرمني " منع أول سفير إنجليزي إلى الباب العالي (٤) .

* كما أن بحارة المغرب العربي أخذوا يشنون غاراتهم على المراكب الفرنسية أكـــثر من غيرها ، مما عرقل التجارة الفرنسية بينها وبين الشرق (٥) .

ومن تلك الأزمات التي خلفها السفير الفرنسي **" جرميني سافاري ولاتكوسين "** حيـــث ازداد الوضع سوءا ، لأن تصرفه كان عنيفا مع السلطات الحاكمة .

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٩١.

(٢) البند الخامس معاهدة ١٦٠٤م مع فرنسا .

(٣) معاهدة ١٦٧٣م مع فرنسا البند ٤٥ .

(٤) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ١٥٢.

(٥) المرجع السابق ص ١٥٢.

* ففى أحد أيام الأحد ــ انتزع بالقوة مكان مشرف في كنسية سان جورج في غلطة كان يشغله سفير الامبراطور النمساوي ، وكان من جراء ذلك أن أمرت الدولة العثمانية باغلاق الكنيسة ، وعدم فتحها حتى يشفي السفير الفرنسي من جنونه (١) .

واستمرت الأزمات بين الدولتين إلى أن عينت فرنسا سفيرا فرنسيا في القسطنطينية يدعى(**سافاري دويرييف**) امتاز بقدرة عجيبة على إزالة العقبات وانتهاز المناسبات ، وقد استطاع بدبلوماسيته اكتساب ديوان الباب العالي إلى جانبه حتى أن مؤرخا تركيا قال عنه " لم يظهر تحمس لفرنسا في دار السلام، مثلما ظهر بفضل سفيرها اللعين هذا "(٢).

وهذا السفير !! لم يكتف بترك الأمور على ما كانت عليه بل زاد الطين بلة على الدول الإسلامية ــ وهذا شاهد على تضعضع السلطة والسيادة الاسلامية وتأثرها بسهولة من الداخل والخارج وعدم استقلاليتها أو سيرها على مبادئ ثابتة لاتتغير، وإنما على حسب ذكاء وفطنة أعدائها ودبلوماسية السفراء ــ يكون موقفها. فمن النجاحات التي تمت لهذا السفير (**دويرييف**) العهد الذي أبرمه مع السلطان **محمد الثالث** سنة (٩٩٦هـ ــ ١٥٨٧م) ومؤلف من (٣٢) بندا ــ جلها تؤيد ما كان قد ورد في كل الامتيازات القديمة ــ وتضيف امتيازات جديدة (٣) ، فزادت هذه الامتيازات حجما ومعنى بعد وفاة السلطان **محمد الثالث** عام ١٠١٢هـ ــ ١٦٠٣م وتولى ابنه **أحمد الأول**، فجددت الامتيازات في (٤٨) بندا . وهي تعد أكثر الامتيازات الممنوحة لفرنسا سعة وشمولا لمصلحة الفرنسيين(٤).

ويمكن أن نجمل المزايا التي اختصت بها فرنسا من دون سائر أمم الكفر وهي التي يذكرها السلطان **مراد الثالث** في رسالته إلى الملك هنري الثالث يذكر فيها ثلاثة بنود :

١ــ يخضع جميع الأجانب رسميا ــ ماعدا البنادقة ــ لسراية الفرنسيين، وربما فيهم الإنجليز، وإذا ما أرادت ملكة إنجلترا صداقة العثمانيين ، فليكن ذلك بوساطة ملك فرنسا ، وهذا نصر كبير لفرنسا .

٢ــ يكون لسفراء فرنسا حق التقدم في السير والجلوس ــ على جميع سفراء الملوك والأمراء المسيحيين .

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ١٥٢ هامش (١) .

(٢) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ١٥٣.

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٥٤.

(٤) وقد سميت دويريف الامتيازات الجديدة في مذكرة بعث بها إلى الملك في ٢ ذو الحجة ١٠١٢هـ انظر هامش (٤) ليلى الصباغ ص ١٥٤.

٣ـ يعفى الفرنسيون من جميع الضرائب الشخصية ولو كـــانوا مـــتزوجين (١) . وهـــذا الامتياز لم يحصل حتى للأتراك أنفسهم حيث نصت النظم العثمانية علـــى أنـــه لـــن يخضع للضريبة الأتراك المتزوجين أنفسهم !!

الغريب في الأمر أن هذا الغزل بين الطرفين في العلاقات والإرتماء في الأحضـــان كان متزامنا مع إعداد العدة من قبل فرنسا خاصة وباقي دول أوروبا لحرب صليبية لطرد الأتراك (المسلمين) من أوربا والاماكن المقدسة، تلك المشروعات التي كانت تجول فـــي أذهان الكثيرمن كتاب أوروبا وساستها ، وهذا هو حقيقة موقف فرنسا وباقي دول أوروبـــا دون استثناء، والخليفة المسلم مع ذلك يقوي شوكة أعدائه بمساعدتهم اقتصاديا ، وجعـــل الشرعية لهم في أن يعيثوا في الأرض فسادا ، وحرية تنقلهم في البلاد مع أنـــهم أعـــداء خلص شرعا وعرفا !! بل سمح لهم بالتدخل السافر والسخيف حتى فـــي شـــؤون البـــلاد الداخلية ، ومن الأمثلة على ذلك قبل أن يعود " دويربيف " إلى فرنســـا كلـــف بمـــهمتين شائكتين هامتين ، فكان عليه أن يذهب أولا إلى القدس لينتزع القبر المقدس مـــن أيـــدي الأرمن والروم ، وإعادته للرهبان اللاتين ــ وهذا بلاشك من التدخل في شؤون الدولـــة ــ ولكن لم ينجح رغم الضمانات التي أعطيها ، ومن القدس انتقل ديروييـــف إلـــى تونـــس والجزائر ليوقع مع سفرائها معاهدات يستجلب بموجبها الأموال المستولى عليها من قبـــل تجارتهم (٢) .

زادت حدة الجدل المثار في أوربا حول حرب العثمانيين، والمشروعات المقدمة مـــن أجل تحقيق هذا الهدف الصليبي ــ والدولة لاتزال غارقة في نومها ومستمرة فـــي منـــح امتيازات أحادية الطرف !! فالمصلحة في جميع هذه الامتيازات دون استثناء للأعـــداء !! فما هو السر في ذلك !! أهي سذاجة وعدم وعي سياسي، فضلا عن الوعي الشـــرعي، أم أمر آخر ؟ (هذا ماسبق الكلام عنه في أول الحديث عن الامتيازات فذكرنا الآراء فـــي هذه المشكلة من المؤرخين والحقوقيين فضلا عن المسلمين الغيوريـــن وتســـاؤلهم عـــن أسبابها وذكرنا بعض الأسباب مع العلم مسبقا بالآتي :

إن الامتيازات ليست في الواقع نتيجة عوامل إقتصاية ، وليست نتيجة تسلط بـــالقوة ، وهي تخالف في ظاهرها وبنودها جميع الاتفاقيات والمعاهدات بالمفهوم الحديـــث للدولـــة وسيادتها على أرضها ، كما تخالف التشريع الإسلامي في كثيرمن بنودها، وهو القـــانون والنظام الذي كانت الدولة تزعم اتباعه !! فهي مع هذا الوضع ــ كمـــا يقـــول **دوروزاس**

---

(١) وهذا يمثل البند الأول ــ والثالث ــ والرابع عشر من اتفاقية ١٥٨١م مع فرنسا .

(٢) ليلى الصباغ : المرجع السابق هامش (٢)، ص١٥٤.

وهو حقوقي بارز ــ (أن الامتيازات مشكلة لا تفسير لها) (١)، ويقول غيره (إنها مسألة تاريخية من الصعب حلها) .

ولكن مع وضوح الأمر، فقد انبرى كتاب ومفكرو أوروبا لتبرير هــذه الإنهزاميــة وتسهيل تقبلها على الدولة العثمانية وأبرازها بأنها ليست من مظاهر الضعف بــل علــى العكس من مظاهر التقدم والرقي والتطور . ويعيب على بلاده أنها لم تنهج هـذا المنــهج التقدمي في تمكين الأعداء وإعطائهم الصلاحيات والحرية كما صنعت الدولة العثمانية .

فيبرر موقف الدولة العثمانية الإنهزامي ــ بأن الفكرة الحقوقية تطورت من المفــهوم الديني الطبيعي إلى فكرة الحق العام للإنسان ، المرتكز لاعلى عقيدة دين معينــة ، وإنمــا على مباديء أخلاق عالمية وهو حق مشترك ومطبق على الجميــع، فالمفــهوم الحديــث للدولة مفهوم لاديني ، ونص كلامه (**دور وزاس**) : " إن المفهوم الديني للدولة هو آخر تعبير عن التقدم الحقوقي ، فالدولة وهي سيدة مطلقة علــى أرضــها ، تســن القوانيــن وتعميمها على جميع سكانها ، مواطنين وأجانب على السواء ــ ومهما كــانت معتقداتــهم الدينية، ولكن هذا المفهوم لم يكن نفسه في كل عصر وزمن ، وإنما تطور ونما شيئا فشيئا بحسب إبداع كل شعب ونضوجه . ولقد أبتدأ ذلك التطور من اليوم الذي تخلصــت فيــه الفكرة الحقوقية من المفهوم الديني ، هذا المفهوم الحقوقي عند جميع الشعوب في الأزمــة الأولى أي أن التطور قد أخذ مجراه منذ اليوم الذي حطم فيه القانون الروابط التي ترتبــط بالدين ، ويتثبت فيه فكرة الحق العام للإنسان ، المرتكز لاعلى عقيدة دين معين وإنما على مباديء أخلاق عالمية، وهو حق مشترك ،ويطبق على الجميع ، لأنه مقبول من الجميــع، فالمفهوم الحديث الدولي هو مفهوم لا ديني ، وطالما نص القانون ممتزجا بــالدين فــإن الدولة تلغي غير شاعرة دورها وحقوقها .

إن الفكرة الحديثة للدولة مرتبطة بشدة بمفهوم الأرض ، ودور الدولة حاليا هــو دور أرضي . أما القانون الديني فهو بالضرورة شخصي لأنه وضع من أجل المؤمنين فقــط ، أي أنه لايسير أو يحمي غيرهم ، حتى عندما يعاقب فإن فقدانه لايمس إلا المؤمنين.."(٢).

ثم يتساءل عن وضع الأجنبي إذن في إطار القانون الديني الســائد لــدي مختلــف الشعوب في العصور القديمة ! ويصل إلى ماوصل إليه المؤرخون من أن الأخــير كــان خارج القانون ، فهو لايسهم في الحياة الدينية للمواطنين . والمدينة لاتدين له بــأي عــدل لأن قوانينها ليست له. إنها للعدو. ولكن الضرورات الاجتماعية تجبر المواطنين على عدم

(١) انظر ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٢١٦ ــ ٢١٧.

(٢) دورروزاس : ص ١٨ نقلا عن ليلى الصباغ ، المرجع السابق ص ٢١٨.

معاملة الأجنبي كعدو، وتضطرهم مصلحتهم الخاصة إلى منحه حق الدخول في الحياة الحقوقية ، فيغدو الغريب عندها مالكا ، ودائنا ، ومدينا ، وتاجرا ، وصانعا ، وتحدد حقوقه وكذا واجباته ، فهو يخضع لقانون ، ولكن أي قانون ؟ إنه لايمكن أن يكون قانون البلاد التي تستقبله ، لأنه لايسهم في مظاهر عبادتها ودينها ، ولايمكن خلق قانون خاص به ، لأنه لاقانون خارج الدين . ومن ثم لامفر من تطبيق قانونه الخاص به ــ وهذا مايرمي إليه (دوروزاس) وهو منطقية قيام محاكم لكل بلد أجنبي . على أرض الدولة العثمانية ــ فهو يقول في ختام حديثه :(بأننا إذا أدركنا النظرية السابقة ، نكون قد فهمنا نظام الامتيازات ، لأن هذا النظام عندما سارت عليه الدولة العثمانية ، كان تشريعها هو التشريع الإسلامي، فغير المسلم إذن سيكون خارج القانون ، والمسلمون وحدهم هم الذين يستظلون بظله . فعندما فرضت المصالح التجارية والمطالب السياسية تنظيم الوضع الشرعى للأجنبي فإن هذا التنظيم سار دون صعوبة، لأن قانون الدولة العثمانية هو قانون ديني لايمكنه أن يطبق عليه ، فالامتيازات هي التعبير الإيجابى عن نظام شخصية القوانين) .

فعندما يكون قانون شعب ما ، هو جزء لايتجزأ من دينه ، فإنه يجب ألا يطبقه على من يعتنق دينا آخر ، لأن هذا مايفرضه الإحترام لحرية الضمير ، التى هى أبرز أنواع الحريات وأهمها، فالخلفاء بمنحهم للأجانب والمسيحيين الخاضعين لهم قوانينهم وأحكامهم كانوا قدوة مثلى في التعبير عن حرية الضمير ، لم تتبعها أوربة مع الأسف (١) .

بالطبع هذا الكلام ليس مستغربا على رجل نصراني صليبي فهو من أبعد الناس عن شرع الله . وعن حقيقة الإسلام وشمول تشريعاته .

فهل يعلم أن في الفقه الإسلامى أبوابا خاصة بتفاصيلها وفروعها تراعي أحكام أهل الذمة والمستأمنين ــ وأحكام الحربيين !! ولكن هل يخفي ذلك لحاجة في نفسه أم أنه كان جاهلا بها والأول أظهر(وإلا فشريعة الإسلام شريعة عامة لجميع البشر ، ولها صفة العموم في حق الناس كافة ، إلا أنه تعذر تنفيذها في دار الحرب ، لعدم الولاية ، وأمكن في دار الإسلام (٢)، وتفاصيل ذلك عرضت في أول التمهيد . وهذا الحقوقي ــ آنف الذكر ــ(**دوروزاس**) لم يكتف بالوضع المأساوي للدولة وروح الإنهزامية التي عانت منها الدولة في القرن السابع عشر على الأقل ــ بل يريد أن يبرر هذا الوضع ويجعل منه أمرا عقليا منطقيا لايتعارض مع سيادة الدولة على أرضها ــ حتى لاتفكر بل لاتفكر الأجيال

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٨ ــ ٢١٩.

(٢) انظر عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص ٥٩٤، وللتوسع انظر في أحكام أهل الذمة لابن القيم.

القادمة في الخروج من هذه الزلة لأنها مظهر من مظاهر التطور والتقدم البشـــري فـــي الأنظمة وإعطاء الحريات ــ فهو يقول في ختام نظريته (و للأسف أوروبا لم تتبع هـــذا المنهج في التعامل مع الأعداء)!! ؟

وفي المقابل هو وغيره من المفكرين الغربيين يقررون هذا المفهوم (شخصية القانون)

أو .... (أقليمية القانون) على تلامذتهم من المستغربين حتى تستمر الغفلة في هـــذا الجيل فلا يستفيد من أخطاء الماضي ...

وليس هذا موقف **دوروزاس** وحده، بل نجده موقفا لدي أكثر مفكـــري الغـــرب، وإن اختلفت تبريراتهم في إثبات شرعية ومنطقية موضوع الامتيازات، وتدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة الداخلية، وانظر شاهدا على ذلك موقف الحقوقي " هولاند" حيث يعـــده مظهرا من مظاهر تطور الحضارة الإنسانية .

وكذلك " أمرتون " يسمي ذلك بـــ " شخصية القانون " أو " إقليمية القانون " (١) .

(١) انظر للمزيد ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٢١٩ .

الفصل الثاني

وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة

وفيه مباحث :

المبحث الأول :

الجمعيات تحت اسم الثقافة والأدب والعلم

فيه مطالب :

المطلب الأول : نموذج من هذه الجمعيات .

المطلب الثاني : سرد لأسماء الجمعيات الأدبية ومؤسسيها .

المطلب الثالث : عرض لأنشطة هذه الجمعيات .

*** الجمعيات تحت إسم الثقافة والأدب والعلم.**

من المجالات النشطة التي ابتدعها نصارى العرب ويهود تركيا، واستغلت أبشع استغلال. مجال الجمعيات تحت ستار الأدب والثقافة، فكانوا هم أول من وضع لبناتها، وهذا يتضح من خلال سرد البدايات لتاريخ هذه الجمعيات سواء في بلاد الشام الأرض الخصبة التي احتضنت هذه المؤسسات أو في سالونيك واستانبول في تركيا .

وكانت هذه الجمعيات في بداياتها سرية في نشأتها واجتماع أعضائها ومحاضر الإجتماعات ومايلقى فيها من محاضرات ونشرات ـ إلى فترة ليست بالقصيرة ـ ثم تحولت نشاطاتها الثقافية المعلنة إلى نشاطات سياسية سرية . ونشر بعضهم دعوات خطيرة وأفكار جريئة عن أنظمة الحكم ، متأثرين بالآراء والفلسفات السائدة في أوروبا الغربية .

خاصة وأن بداية هذه الجمعيات في الشام مثلا كانت على أيدي البعثة الأمريكية وهذه أو ل جمعية أسست في سوريا . وبعدها تتابعت الجمعيات بالظهور على اختلاف مؤسسيها ومناهجها ، وهذا استعراض عام لنماذج من هذه الجمعيات :

الجمعية العلمية السورية :

شكلت أول جمعية في سورية عام ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م باسم الجمعية العلمية السورية(١) (١٢٦٣هـ ـ١٨٤٧م ، ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م) وبدأت كناد أمريكي في بيروت أسسه المبشرون قبل افتتاح أي من المدارس الكبيرة المعروفة .

وضمت هذه الجمعية خمسين عضوا، فيهم أكثر الأدباء والكتاب أمثال **نصيف اليازجي، ونوفل نوفل ، وبطرس البستاني ، وميخائيل مشاقة ، وميخائيل مدور، وميخائيل شمادة ، ومخائيل عرفان ، وإبراهيم طراد، ونعمة ثابت (٢) وسليم دي نوفل ، ويوسف كتغاكو ، جبور الخوري** ، بالإضافة إلى عدد من الإفرنج أمثال : **فانديك ، تشرشل ، وريثات جرجس هوايتن ، مالي سمث (٣) .**

---

(١) وتأسست في بيروت قبل الجمعية العلمية السورية جمعيتان : الأولى سنة ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م باسم جمعية الآداب والعلوم وكان من بين أعضائها بطرس البستاني ، ونصيف اليازجي صاحب الفكرة وبعض المتنصرين الاجانب، واقتصرت عضويتها على النصارى فقط، و لم تدم هذه سوى خمس سنوات . والجمعية الثانية قامت سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م باسم الجمعية الشرقية كما سيأتي ذكرها بعد قليل قامت بجهود اليسوعيين، وتشابه الجمعيتين في هوية أعضائها وباجتماعاتها، ويلاحظ أنها لم تضم عددا يذكر من المسلمين، فهي لم تمثل جميع فئات المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى أنها تأسست من قبل مؤسسات مصنفة مسبقا لدى الشعب . انظر عبد الكريم رافق العرب والعثمانيون من (٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م ، ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م) ط١ دمشق ١٩٧٤م .

(٢) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر ص ٢١٥ .

(٣) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر ص٢١٥ .

واضح من سرد الأسماء السابقة لأبرز أعضاء هذه الجمعية ومؤسسيها الوجهة التي تبناها هؤلاء الأعضاء والجهات التي ينتمون إليها، فجلهم بل كلهم من نصارى العرب أو الإفرنج . وكانت رئاسة الجمعية ومجلس الإدارة بالانتخاب سنويا ، فكان رئيسها لأكثر من سنة ، بين الإفرنجى الصليبي **مالي سمث** ونائبه في الرئاسة لعام (١٢٦٧هـ ــ ١٨٥١م) **بطرس البستاني** ، وهكذا كان لهم نشاط ثقافي قوي ــ أو على الأصح جديد على المسلمين والناس عامة في تلك الأونة ــ وأسلوب حديث على الدولة يتمثل في المحاضرات المتنوعة التي كانت تلقى في مقر الجمعية في مختلف أنواع فنون العلوم، منها مايكون غزوا صريحا من خلال عنوان المحاضرة، ومنها ما يأخذ طابع العلمية والتجربة والفرضية تأكيدا لمصداقية الجمعية وتحقيقا لأهدافها المعلنة ــ من أنها الجمعية العلمية، وهذا واضح جدا من الجدول التالي أوالنشرة التي نشرت عام ١٢٦٨هـ ــ ١٨٥٢م في تقرير عن أعمال الجمعية للعام المنصرم ــ عندما كانت الجمعية حكرا فقط على النصارى ــ دون المسلمين أوالدروز، فذكر في هذا التقرير تفاصيل الخطب والمحاضرات أو المقالات والمناقشات التي جرت، وتفاصيل مجلس إدارتها من رئيس وثلاثة نواب رئيس، وكاتب وأمين صندوق، وينتخب الجميع بالاقتراع السنوي السري !

وكان من بين المحاضرات التي ألقيت في الجمعية الجدول رقم (أ) المذكور في الملحق

وتوضح هذه الموضوعات نواحي اهتمام أعضاء الجمعية(١) وأهدافهم وبعض الأفكار المراد زرعها في المجتمع، وإن كانت شبه غريبة عنه مثل الإهتمام بتعليم النساء (٢) .

وزاد خطر هذه الجمعية لما أعيد تشكيل مجلسها على نطاق أوسع في (٢٠رمضان ١٢٨٤هـ ــ ١٨٦٨م) بعد أن فتحت أبوابها للمسلمين والدروز ، واعترفت السلطات العثمانية رسميا بالجمعية وحضر المتصرف **كامل باشا** (الذي أصبح فيما بعد صدرا أعظما) اجتماعها في آخر رمضان وانضم إلى عضويتها هو وعدد من رجالات الدولة، ووسعت الجمعية نشاطها، وبلغ عدد أعضائها أكثر من ١٥٠ عضوا . وشكلت لها لجنة إدارية برئاسة الأمير **محمد الأمين أرسلان** (درزي) وعضوية **حسين بيهم، وسليم بن بطرس البستاني** (نصراني) **وحسنين خوري** ......

---

(١) انظر زيدان جرجي : تاريخ سورية ص ٦٨ ــ ٦٩.

(٢) تعليم النساء وتبصيرهم من الأمور الممدوحة بل مما حث عليه ديننا، ولكن وراء هؤلاء المتنصرين من الأهداف والإفساد ماوراءهم ــ وهذا ما ظهر جليا فيما بعد .

وتقدم رئيس الجمعية بطلب إلى والي سورية **راشد باشا** بمنح ترخيص للجمعية بمزاولة نشاطها بصورة رسمية وقانونية :

" وتألقت الجمعية كشركة مركبة من أعضاء مختلفة محلية، وغير محلية للقيام بما يقتضي لانتشار المعارف من علوم وفنون "

وبدأت تلقي الخطب والمحاضرات ــ والقصائد ــ وكانت تدور في مجملها حول الموضوعات التالية :

'' فضل العرب على العلوم، وأنهم هم الذين أدبوا العلوم وهذبوا الفنون، وأن من واجب العرب أن يستعيدوا مجدهم بعد أن أصابهم ما أصابهم بسبب الكسل والملل، وعليهم أن يعولوا على أنفسهم ــ وخير طريق لتحقيق ذلك ــ هو تشييد المدارس والمكاتب والجمعيات العلمية ومعامل العلوم .. ومصانع الفنون .. ومعرض الآداب '' (١) .

هكذا يصنف أرباب هذه الجمعيات جمعياتهم . ويظهرون أهدافها ــ وكما يقال:" **كاد المريب أن يقول خذوني** " وذلك لما هو مستفيض عن نية هذه الجمعيات وأساسها وسمعتها منذ نشأتها ــ وسمعة مؤسسيها !! مما حدا بالرئيس ــ الأمير محمد الأمين أرسلان (رئيس الجمعية) ــ أن يفند هذه التهمة ويبين سلامة المقصد الذي من أجله أسست هذه الجمعية . فيؤكد أن هدف الجمعية علمي صرف وليست نتيجة عن غيرها ولامقدمة لغيرها، يراد منها نشر العلوم والفنون .... والأشتغال فيما ينفع العموم ... دون تعرض لشيء من الأمور الدينية أو الدولية (٢) .

ثم توالت بعد ذلك الإجتماعات وألقيت فيها الخطب والقصائد ــ ونذكر هنا بعض النماذج والأمثلة لما تم طرحه من أفكار ــ وثروة علمية صرفة كما يزعمون !!

ــ احتياجات العقل ــ لــ حنين الخوري ، وقصيدة لإبراهيم اليازجي في ١٢شوال ١٢٨٤هـ .

ــ درس في الموسيقى .

ــ الحاجة إلى التمدن والتقدم .

ــ وألقيت أكثر من خمس محاضرات قصائد في فوائد الجمعيات أو الجمعية خاصة .

ــ ومحاضرات في التاريخ !! الجغرافيا ــ ومحاضرة في هارون الرشيد .

ــ إضافة إلى جملة من القصص المترجمة !! وبعض الرسائل .

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة : انظر سورية في القرن التاسع عشر ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) د .عبد الكريم غرايبة : كلمة الأمير في مجموعة العلوم ص ١٦ نقلا عن. ص ١٢.

وخُتمت بمحاضرة للمعلم بطرس البستاني !! عن الهيئة الإجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية) (١) .

والجدير بالذكر أن جميع هذه الأطروحات . من خطب ومقالات وقصائد ـ طبعت في مطبعة المعارف في بيروت .

ولعل أمثال هذه المحاضرات في التأليف بين العوائد العربية والغربية والإفرنجية، كانت بمثابة البذرة الأولى للتغريب في العالم الإسلامي ونشر التفرنج بين المسلمين تحت ستار الثقافة والجمعيات العلمية الصرفة كما زعموا .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد أوعند هذه المؤسسة فقط ، لنشر الأفكار الهدامة، ولكن المصيبة تعظم إذا علمنا وتذكرنا أن هذه الجمعية الجديدة كانت بدعة ، فتألفت على غرارها جمعيات أخرى كثيرة لا تكاد تحصر للأسف (كما هو مخطط له) واستغل هذا المنفذ للتبشير (التنصير) اليسوعيون .. فأسسوا في سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م (الجمعية الشرقية) على الأسس نفسها . وتعاقبت بعدها الجمعيات التنصيرية كما سيأتي تفصيلها .

يؤكد هذا الرأي **جورج انطونيوس** بعد **أن** أشاد بدور اليازجي والبستاني

" هذه الجمعية (الجمعية العلمية) الجديدة كانت بدعة محدثة، فتألقت على غرارها جمعيات أخرى كان لها دور مهم في نمو الحركة العربية القومية ، والحقيقة أن أول صوت لهذه الحركة الوليد صدرت من إحدى الجمعيات الأولى التي انبثقت عن الجمعية التي دعا إلى تأسيسها اليازجي والبستاني .

وكان اليسوعيون أول من احتذى المثال الذي وضعه الأمريكان، فأسسوا في سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م " **الجمعية الشرقية** على الأسس نفسها وكان الروح المحرك لها هو الأب النشط **دوبرونير**" (٢)، وقد أكسبه نشاطه واطلاعه الواسع نفوذاً كبيراً في الشام، وتبوأ منزلة رفيعة(٣).

وجمعت منذ عام ١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧م بين أعضائها ـ إضافة إلى النصارى ـ جماعة من المسلمين وآخرين من الدروز بعد **أن** كانت هذه الجمعية وأمثالها منبوذة بصفة

---

(١) انظر المرجع السابق د. عبد الكريم غرايبة ص ٢٢١.

(٢) يقظة العرب:جورج انطونيوس شيوعي فرنسي ولد سنة ١٢٣٦هـ ـ ١٨٢١ م، وصل بيروت سنة ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٩م وبدأ فور وصوله يتعلم اللغة العربية .

(٣) انظر جورج انطونيوس ـ مرجع سبق ذكره ـ من ص ١١٨ ـ ١٢٠.

عامة من المسلمين لأنها كانت تحت رعاية المنصرين ومن تأسيسهم، فهذا الأمر زاد من نفور العناصر غير النصرانية، ولكن وكما هو مخطط لهذه الجمعيات أخذت الآراء تتغير مع مرور الزمن وأخذ ضباب العداوة المؤذي ينقشع تدريجيا ، وذلك لأمر مهم استجدعلى هذه الجمعية، وهو أن أعضاءها كلهم أصبحوا من العرب، وكانت حماسة النصراني اليازجي في مناشدتة العرب على اختلاف عقائدهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم، وكذلك أثمرت جهود أخوه البستاني في دعوته إلى تحطيم السدود والفوارق ...

وهكذا أنشئت الجمعية العلمية السورية ــ كما سبق سنة ١٢٧٣هـ ــ ١٨٥٧ م (وكان من بين أعضائها الأمير محمد أرسلان الدرزي، وأصبح رئيسا لها لعدة سنوات (١) ، وفيها أيضا حسين بيهم وهو عميد أسرة مسلمة ذات نفوذ، وضمت نصارى من جميع الطوائف..

وهذه الجمعية التي تألفت يمكن أن يؤرخ لها أنها بداية التحول، وأنها أخطر الجمعيات ضررا وفتكا بالمسلمين . فقد استطاعت الملل المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة وتوحدها في رابطة إيجابية فعالة وتعمل لتحقيق أهداف مشتركة ــ كما يزعم جورانطونيوس ــ وهذه الجمعية أيضا كما هو في رأي كثير من الباحثين كانت المهد الأول للحركة القومية العربية ، والمنبر الذي نودي لها من خلاله .

(فإن أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كانت في اجتماع سري عقده بعض أعضاء الجمعية العلمية السورية) (٢) .

ولم يعبأ هؤلاء النصارى من خلال جمعياتهم العلمية، بالدعوة إلى وحدة العرب على أساس اللغة والتاريخ بدلا من المثل الدينية والاجتماع على دين الإسلام ، بل الوحدة بين المسلم والنصراني والدرزي على أساس اللغة والتاريخ ، وهذا مايفخر به كاتب نصراني هو **نبيه أمين فارس** في مقدمته لكتاب " **يقظة العرب** " ، أن فكرة البعث العربي منشأها الجمعيات الأدبية والعلمية (١٢٦٣هـ ــ ١٨٤٧م ، ١٢٨٥هـ ــ ١٨٦٨م) كانوا في الغالب من النصارى، وأنهم وإن لم يمثلوا سواد الشعب، غير أننا مقتنعون بأنه لولا هذه الجمعيات الأدبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة إلى حد كبير عن العرب) (٣).

---

(١) المرجع السابق ص ١١٩.

(٢) يقظة العرب : انطونيوس ص ١٩١ ــ ١٢١.

(٣) دكتور نبيه أمين فارس : مقدمة يقظة العرب من ص ١٢ ــ ١٧ .

ثم يقول : ''إنه كان من ثمرات هذه الجهود في الجمعية أمام قصائد وخطب اليازجي والبستاني تتابعت الجمعيات في السر والعلن ــ كما سيأتى تفصيلــيا ــ تطالب بحقوق العرب''.

وأسرد باختصار بعض أسماء تلك الجمعيات التي ظهرت في القرن التاسع عشر والتي ينفطر قلب المؤمن عند التأمل في كثرتها وفي أسماء مؤسسيها، بل وفي أسمائها أيضا ....

فمن هذه الجمعيات التي تأسست رافعة الشعار السابق (وهو المطالبة بحقوق العرب):

*** (جمعية حفظ حقوق الملة العربية) (١) :**

وهذه الجمعية تأسست سنة (١٢٩٨هـ ــ١٨٨١م) ونشرت نداء إلى العرب من مسلمين ونصارى تدعوهم إلى الإتحاد والمطالبة بالحقوق القومية والحض على النهضة .

*** (جمعية بيروت السرية) (٢) .**

*** الجمعية الشرقية الكاثوليكية :**

أسسها في دير الآباء اليسوعيين عام ١٢٦٦هـ ــ ١٨٥٠م كل من **إبراهيم النجار**، والشاعر **حنا أبو صعب، ورزق الله خضرا** والمؤرخ **طانيوس الشدياق وحبيب اليازجي، وفرنسيس مسك** ، ورائد المسرح العربي **مارون نقاش** ، **وإبراهيم مشاقة والدكتور سوكة** ، وكل هؤلاء كما هو ظاهر من اسم الجمعية من النصارى .

*** الجمعية الأدبية في طرابلس (١٢٦٦هـ ــ ١٨٥٠م ، ١٢٩٣هـ ــ ١٨٧٦م) :**

أسسها **اسكندر كاتسليس وجورج كابين** وعدد من الأدباء ، وألقيت فيها خطب وأبحاث أغلقت بعد نشوب الحرب الروسية .

*** الجمعية العلمية في المدرسة الكلية (١٢٨٢هـ ــ ١٨٦٦م) :**

جمعية طلابية تأسست في الكلية السورية (الجامعة الأمريكية) لتمرين الطلاب على الخطابة والمناقشة والبحث بإشراف أحد الاساتذة ، وكان من أعضائها **جورج كابين ، وجرجي زيدان** .

---

(١) عبد الكريم غرايبة (المرجع السابق) ص٢١٧ .

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ص ٩٠ ــ ٩١ سيأتي تفصيلها لاحقا .

*** جمعية شمس البر في بيروت (١٢٨٦هـ ــ ١٨٦٩م) :**

تأسست كفرع لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين في إنجلترا ، وانضم إليها عدد من خريجي المدارس الأمريكية أكثرهم من الأطباء وأصحاب الصحف وفتحت الجمعية عام (١٢٩١هـ ــ ١٨٧٤م) فرعا لها في دمشق باسم جمعية **رباط المحبة** ضم أربعين عضوا بعضهم من المنصرين فكانت أول جمعية دمشقية . وكان هدف الجمعية المعلن هو نشر المبادئ الدينية المسيحية ومكافحة الرذيلة والكفر والسكر .. وعمل الخير .

*** جمعية زهرة الآداب في بيروت (١٢٩٠هـ ــ ١٨٧٣م) : (١)**

شكلها عدد من خريجي المدراس بإذن من المتصرف **أسعد باشا**، وجعلت هدفها التمرين على الخطابة والمناقشة والبحث وتأليف التمثيليات .

وكان من أعضائها **سليمان باشا البستاني الوزير** ، **ومترجم الإلياذة** ، **ونعمان الخوري وصاحبا المقتطف، وإبراهيم اليازجي، وجورج بثي، وأديب اسحق** .

*** الجمعية التاريخية السورية في دمشق (١٢٩٢هـ ــ ١٨٧٥م) :**

تألفت من سبعين عضوا بغرض تشجيع البحث التاريخي مع عدم التعرض للأمور الدينية والسياسية .

*** جمعية المدارس الأرثوذوكسية في حمص (١٣٠٥هـ ــ ١٨٨٨م) :**

*** الجمعية السورية الأرثوذكسية في بيروت :**

أسسها كل من **ميخائيل شمادة** ، **وفضل الله بطرس** ، **وأسعد سرسق** ، **ونعمة جرجس** ، **وجراسيموس الشامي** ، للرد على رعاية البعثات التنصيرية البروتستانتية .

*** الجمعية السرية العربية (١٢٩٩هـ ــ ١٨٨٢م ، ١٣٠٠هـ ــ ١٨٨٣م) :**

ألفها نفر من الشباب أكثرهم من النصارى من خريجي الجامعة الأمريكية، وعقد الشبان اجتماعاتهم سرا قرب **الروشة**، وانضموا إلى المنظمات الماسونية لغرض الإتصال بالمسلمين واقناعهم بوجهة نظرهم وضمهم إلى جمعيتهم ... وبدأت الجمعية بإثني عشر عضوا زادوا إلى سبعين، وكان من أبرزهم **يعقوب صروف** ، **وفارس نمر باشا** (صاحب المقطم) **وإبراهيم اليازجي وشاهين مكاريوس** (مؤسس الجمعية الصناعية في بيروت)

---

(١) انظر في أسماء الجمعيات : عبد الكريم غرايبة ، المرجع السابق ص٢١٧ وما بعدها .

وإلياس صبائين، وسليم عمورة ، وإبراهيم الحوراني ، ووزعت الجمعية نشرات سرية علقتها على جدران بيروت وصيدا ، وأثارت اهتمام القناصل ثم انحلت وتفرق أعضاؤها(١)

*** الجمعية الصناعية في بيروت (١٣٠٦هـ ــ ١٨٨٩م) :**

أسسها **شاهين مكاريوس** ــ ألقيت بها محاضرات قيمة عن تعليم الاقتصاديات، ونشرت هذه المحاضرات في المقتطف .

وهذه الجمعيات الأدبية والفنية والصناعية على اختلاف مسمياتها لم تكن قاصرة في بلاد الشام فقط ــ وإن كانت أبرز ماتكون وأكثر ماتركزت فيها ــ حتى شكلت ظاهرة في بلاد الشام أكثر من غيرها من بقاع الدولة العثمانية، بل كان يوجد قريبا من هذه الكثرة في الجمعيات في استانبول وسالونيك وأنقرة إلا أن تلك كان وراءها اليهود في الغالب، وهذه أسسها النصارى في الغالب، وقد نبه **السلطان عبد الحميد** على خطورة هذه الجمعيات والمدارس التنصيرية فقال بصدد هذه البعثات : '' إن المدارس الخاصة تشكل خطرا جسيما على أمتنا، وإن إهمالنا الذي لايغتفر هو الذي جعلنا نسمح لممثلين لكل الجنسيات بأن يبنوا مدارس في الأزمان والأماكن التي تحلو لهم وقد أثبتت الأحداث خطورة ذلك '' (٢) .

وكذلك الأمر في مصر ــ فهذه الثلاثة أقطار كانت تشكل مصدر الثقل ومنبع الثقافات والأفكار في العالم الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية خاصة.

وكما أن طابع الدعوة إلى القومية كان غالبا على تلك الجمعيات في الشام خاصة أو الدعوة للتنصير ــ كما سبق بيانه ــ كانت هناك جمعيات مسيحية هدفها الأول نسف الخلافة.

وكانت أولى تلك الجمعيات التي استهدفت نسف الخلافة " **جمعية النهضة اللبنانية** " التي شارك قادتها في مؤتمر باريس عام (١٣٣١هـ ــ ١٩١٣م) وانخرطوا في الجمعيات اللاحقة داخل الدولة والمهاجرة .

وقد ورد اسم هذه الجمعية في كتاب " **إيضاحات** " وأسماء أعضائها وجميعهم مسيحيون لبنانيون (٣)، والبيانات الواردة عن بعض أعضائها تبين أن أعضائها كانوا

---

(١) انظر في سرد أسماء الجمعيات السابقة . عبد الكريم غرابية : ص ٢٢٣ ــ ٢٢٧ .

(٢) أحمد عبد الرحيم : أصول التاريخ العثماني ص٢٥٤ .

(٣) انظر موفق بني المرجه : صحوة الرجل المرض ص ٣٠٦ .

يتمنون خدمة مصالح فرنسا وإخراج لبنان وسورية من الدولة العثمانية وإقامة حكومة فيها تحت حماية فرنسا وهذا ماحدث فيما بعد ...

ومما يؤكد تعاون أهل الذمة المؤسسين لهذه الجمعية والرؤساء لفروعها في الخارج والداخل في فرنسا خاصة . ماجاء في كتاب " **ايضاحات** " أن مؤسسيها جماعة من آل الخازن ، وأن أعضاء فرعها في بيروت هم **دعيبس المر** ، **وخليل زينيه** ، **ويوسف الغليوني** ، وكان لها فرع في مصر ورئيسه **اسكندر عمون**، ومن أعضائه **داود عمون** ، وكما كان لها فرع آخر في باريس رئيسه **شكري غانم** ، ومن أعضائه **خيرالله**، **والكونت حريصاني وزوين الخوري**، وكان لها فرع أيضا في أمريكا رئيسه **نعوم مكرزل** .. وأنه كان من غاياتها تمهيد السبيل لفرنسا للهيمنة على سوريا ،وأن خيرالله (العضو في فرنسا) كان يكتب المقالات في " السطان " كل ذلك بإيعاز من فرنسا ـ وأن فرنسا أرسلته مرتين أوثلاثا إلى لبنان وسوريا لبث الدعاية لها ... وكذلك جاء في هذا الكتاب (إيضاحات) بيان أن قنصل فرنسا في بيروت خصص مبلغا من المال لجريدة تخدم المصالح الفرنسية ضد الدولة (١) .

* ومن الجمعيات العلنية في تلك الفترة :

جمعية المقاصد الخيرية :

تأسست عام ١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م بدعم من والي سوريا في ذلك الوقت **مدحت باشا** (٢) وعملت فيما يذاع عنها على تربية الناشئة من فتيان وفتايات ، فأنشأت مدرستين للبنات ومدرستين للبنين على الأسس الحديثة في محاكاة المدارس الغربية في بلاد الشام ، كما سعت في إرسال بضعة شباب إلى المدرسة الطبية المصرية لتعلم الطب (٣) .

وكان من مزايا هذه الجمعية .. مناهضة حركة التنصير (٤) . إلا أن الحكومة عادتها وأغلقتها لنشاطها القومي الذي يؤثر سلبا على وحدة الدولة (٥) .

جمعية بيروت الإصلاحية :

---

(١) انظر موفق بني المرجه (المرجع السابق) ص ٣٠٧.

(٢) ابن يوسف كمال بك : مذكرات مدحت باشا ص٣٧ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤/٧٢ ط دار الهلال .

(٤) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ م ص١٤٩ .

(٥) انظر جرجي زيدان : المرجع السابق ٤/ ٧٢ .

ومن أعضاء تلك الجمعية **رزق الله أرقش وخليل زينيه** ـــ الأول كان متسلطا علـــى جريدة **الإتحاد العثماني** ، والتي كانت تمول من قبل القنصل الفرنسي فـــي بـــيروت (١) ، وكانت هذه الجمعية فيما تزعم أن أهدافها أو منهجها الإصلاحي على أساس اللامركزيـــة وتؤكد الرغبة في بقاء الرابطة العربية التركية تحت لواء الدولة العثمانية وتتحفـــظ تجـــاه المطامع الأجنبية .

مع أنه جاء في نص وثيقة صادرة من القنصلية الفرنسية في بـــيروت مايخـــالف أو يناقض هذا الهدف .

ونقلا من كتاب " **ايضاحات** " جاءت وثيقة عليها تواقيع **ميشيل التوينـــي** ، **ويوســف الهاني** ، **وبتروطاء** ، **وأيوب ثابت** ، **ورزق الله أرقش** ، **وخليل زينيه** والإثنان الأخـــيران ممن ذكرت أسماؤهم كأعضاء في الجمعية البيروتية، وهما مع الآخريـــن مـــن أعضـــاء الجمعية الإصلاحية البيروتية والمندمجين في حركتها، وقد ذكروا في هذه المذكـــرة أنـــهم اندمجوا في هذه الحركة للتمويه على الحكومة العثمانية من جهة، وإدخال أســـاس لوضـــع رقابة أوربية على جميع بلاد الشام من جهة أخـــرى ، ولكنـــهم مـــع ذلـــك يقولـــون أن الإصلاحات ولو تمت بمساعدة أوروبا فإنها لاتحل المسألة ولاتحقق بذلك رغبة النصـــارى الحقيقية في سوريا بسبب نزاع التعصب الإسلامى ضد النصارى ولأن النصارى مرتبطون بفرنسا بصورة لا تقبل الانفكاك كما أن أكبر آمالهم أن تستولى فرنساعلى البلادالشامية(٢).

*** جمعية (العربية الفتاة) :**

هذه الجمعية " **العربية الفتاة** " هي المقابل العربي لجمعية '' **تركيا الفتاة** '' ، وقـــد أنشئت هذه الجمعية بباريس عام (١٣٢٩هـــ ـــ ١٩١١م) قامت فيما بعد بـــترتيب عقـــد مؤتمر باريس العربي عام ١٣٣١هـــ ـــ ١٩١٣م .

ورغم تشابه الظروف في النشأة وطبيعة النشاط والأهداف بين هذه الجمعية وجمعيـــة تركيا الفتاة ـــ بل ومع وفرة وزيادة الطاقات العربية عن التركية ، أخفقت في الوصول إلى نفس النتائج التي حققتها رديفتها التركية، رغم أن أفرادهـــا ـــ أي أعضـــاء ومؤسســـي " **العربية الفتاة** " ـــ كان بينهم عدد ممن تسلموا أرفع المناصب فىالبلدان العربية في ظـــل الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، وذلك يتضح من خلال ســـرد بعـــض أســـماء المؤسسين والأعضاء التي لم يتميز فيها بين مسلم أو نصراني أو درزي ـــ ومن النماذج :

---

(١) محمد دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة . المكتبة العصرية ـــ صيدا . ج٢ ص٥٠٨ ـــ ٥١٠ .

(٢) المرجع السابق موفق بني المرجه ص ٣٠٨.

الأمير مصطفى الشهابي ــ توفيق فايد ــ إبراهيم حيدر ــ توفيق السويدي ــ محب الدين الخطيب ــ ورفيق رزق سلوم ــ يوسف مخيبر حيدر ــ رشيد الحلبي ــ الأمير عارف الشهابي ــ وفخري البارودي ــ مصطفى بردرار ــ عزت دروزة ــ نسيب الأطرش ــ ونواف الشعلان وغيرهم .

والأهم من ذلك اللائحة الداخلية للجمعية " **العربية للفتاة** " والتي اشتملت على ثلاثة أبواب ؛ الباب الأول منها ثمانية فصول :

وقد ضمت هذه اللائحة المواد الأساسية حول نشأتها ــ ثم تشكيلات الجمعية، وهي عبارة عن الهيكل الهرمي لأعضاء الجمعية وتنظيم الموظفين ومجلس الشورى وميزانية الجمعية ، والغاية من الجمعية ، وهذا مابين بالباب الأول الفصل الأول .

وللأسف رغم انضمام بعض المسلمين العرب إلى أعضائها بل ومؤسسيها، إلا أنه لايشم من أهداف وغاية الجمعية أي توجه إسلامي، بل حرصت في بياناتها ووظائفها ومايشترط في العضو وفي أعمالها ، أن تكون المسحة العلمانية هي الغالبة على هذه الجمعية، فأهدافها قومية بحتة، وتسعى إلى استقلال البلاد العربية استقلالا تاما بجميع معانيه الحقوقية والسياسية ، وجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية !!.

ثم أن شرط قبول العضوية في الجمعية (هو أن يكون عربيا مخلصا لأمته معروفا بالأخلاق التامة (والجرأة الأدبية) ولو كان يهوديا أو باطنيا حائرا، أو أي ملة من ملل الكفر .

ومن أوجه المشاكلة مثلما أفرزت تركيا الفتاة حزب الإتحاد والترقي ــ والذي كان على يديه وعلى أيدي أعضائه من اليهود والماسون وأد الخلافة الإسلامية والذل الذي أصاب الأمة ــ وغيره من الأحزاب والجمعيات الطورانية كما سبق بيانه . كذلك فإن العربية الفتاة أفرزت **حزب الإستقلال وحزب اللامركزية** فضلا عن **جمعية العهد والمنتدى الأدبي** ، وغيرها من الجمعيات العربية السرية والعلنية . وقد كان أبرز أثر تاريخي خلفته هذه الجمعية هو ماعرف بـ " **المؤتمر العربي الأول** " المنعقد بباريس عام ١٣٣١هـ ــ ١٩١٣م .

وقد لوحظ أن عضوية المشاركين بالمؤتمر تم ترتيبها بحيث تحقق المناصفة تماما بين المسلمين والنصارى ، ويبدو ذلك واضحا من خلال استعراض أسماء المشاركين فيه رغم أن الدعوة إليه كانت عامة ، كما غلبت المناصفة في لجنته التحضيرية أيضا (١).

---

(١) موفق بني المرجه : صحوة الرجل المريض ص ٣١٤.

ومن الوثائق التي تشكك في ثمرة ونوايا هذا المؤتمر والمتأمرين فيـــه ماجـاء فـــي مذكرات **عوني عبد الهادي** وهو عضو في الجمعية الفتاة من إشارة صريحة إلــى جـهود الخارجية الفرنسية للإعداد لهذا المؤتمر، حيث عرضت عليه السفر إلــى اتحـاد أوروبـا لترويج الدعاية له .. لكنه رفض ، بينما استجاب **جميل مردم** (رئيس وزراء سوريا فيمـا بعد) وقد قبض هو وعوني عبد الهادي مالا من الخارجية !! (١) .

ومن الجدير بالذكر أن ضجة ما روي عن المؤتمر كانت أكبر بكثير مـن حجمـه ــ ولعله أريد له ذلك إعلاميا ــ والذين شهدوه فعلا كانوا ٢٤ شخصا فقـط ، أغلبـهم مـن نصارى العرب وأعضاء ماسونيين بارزين في المشرق .

لما ختم المؤتمر جلساته ذهب وفد مؤلف من رئيسه وبعـض أعضائـه إلـى وزارة الخارجية الفرنسية حيث استقبلهم وزير الخارجية فشكروا فرنسا على ما لقيه المؤتمر مـن عطف وترحيب فيحين كون المؤتمرين من رعايا دولة صديقة .. وأبناء بلاد تظهر فرنسـا نحوها العطف والتودد . ونوهوا باعتمادهم على فرنسا في تحقيق المطـالب الإصلاحيـة وأشاد بالاتحاد والأخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة، وبين السـوريين واللبنانيين من جهة أخرى ...

وشكر الوزير الوفد على عواطفه ونواياه بصداقة فرنسا للدولة العثمانية وحبها الخـير للسوريين، وأن فرنسا تقبل بكل رضى وسرور أن تكون محامية لسوريا لدي أوروبا (٢).

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الجمعية (العربية الفتاة) كانت تهدف إلى النـهوض (بالأمة العربية) وتمتعها بالحكم الذاتي ، أى عدم الإنفصال عن الترك، ثم عدل البرنـامج بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وأصبحت الجمعية تسعى إلى الإستقلال عن الترك تماما وإنشاء دولة عربية غربي آسيا (٣) .

وسؤال يطرح نفسه ... مالذي غير مسار الجمعية وحول في منهجها ..!!

يقول **جورج انطونيوس** عن هذه الجمعية ــ أن هذه الجمعية تعيد إلى الذاكرة جمعيـة بيروت السرية عام (١٢٩٢هـ ــ ١٨٧٥م) مع فارق واحد وهو أن القيادة انتقلـت إلـى أيدي المسلمين(٤). أي أنها تأسست على أيدي غير المسلمين، وظل مكان الجمعيـة لمـدة عامين في باريس، (وتدار من هناك أعمالها السرية) ثم انتقلت في عـام ١٣٣١هـ ــ

---

(١) المرجع السابق ص ٣١٥.

(٢) المرجع السابق ص ٣٢٠.

(٣) انظر أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج١ ص ٩ .

(٤) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١١ ، ١١٢.

١٩١٣م إلى بيروت بعد أن كان أغلب أعضائها من المسلمين، وهذا مــن تمــام التغريــر بالبسطاء من عوام المسلمين الذين ينخدعون بالأسماء المسلمة والعقول الفرنسية !!

عندما أخذت الدولة العثمانية تشد من قبضتها ، وتحاصر الأفكــار المســتوردة التــي غزت العالم الإسلامي و بدأت تصدر اللوائــح والقوانيــن ضــد الصحــف ، والمجــلات والمؤلفات التى كانت تنادي وتدعو إلى الأفكار التحررية ــ كما يسمونها ــ كفكرة القوميــة العربية أو غيرها من القوميات وبعض المناهج الأوربية من دساتير وقوانين . عندئذ ســلك المفسدون من نصارى ويهود سبيلا أخرى ، وطرقا ملتوية يتسللون منها إلى قلب المجتمــع الإسلامي، فبدأوا يؤسسون الجمعيات بقصد الإفلات من مراقبة الدولة، والعمل بحرية أكثر نحو الوصول إلى هدفهم الرئيسي وهو إقصاء الشريعة الإسلامية مــن ديــار المســلمين، وخلخلة الإسلام في قلوب أصحابه، وتحت شعار حرية الرأي وقلب نظام الحكم !! .

وكان واضع اللبنة الأولى من بيوت الفرز هذه، هم البعثــة التصبيريــة الأمريكيــة، وماكان بينها وبين اليازجي والبستاني من ارتباط ، وقد ألح الآخــرون علــى أصدقائــهم الامريكان إنشاء جمعية علمية، وكان مأأرادوا بعد تعيين لجنة لتنفيذ الاقتراح .

يقول **جورج انطونيوس** انتقل اليازجي والبستاني ، خلال السنوات الأولــى مــن ارتباطهما مع البعثة التنصيرية الامريكية في العمل على اقتراحات إنشاء جمعيــة علميــة وقدما اقتراحهما إلى أصدقائهما الجدد في شيء من الإلحاح ، وإقناعهم بتعيين لجنة لتنفيــذ الاقتراح (١).

" جمعية بيروت السرية " :

كانت هذه الجمعية تمثل رد فعل لبعض الإجراءات الاحتياطية التي اتخذها **الســلطان عبد الحميد** متأخرا والتي كان يسميها أعداؤه طغيان وظلم وجبروت .

ومن هذه الإجراءات اشتداد السلطان في مراقبة الصحف والمجلات وكل الحركــات والجمعيات التحررية .

وكذلك كانت هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات التحررية وليدة الظروف العامة فــي بلاد الشام ، فقد نما الشعور المعادي للعثمانيين في لبنان خاصــة لسياســة عبــد الحميــد الإسلامية من لبنان (٢)، حيث كان قد نما الشعور المعادي للترك تغذيه عدة عوامل مثــل التعليم الغربي وظهور الصحف العربية (المناهضة لحكم الخلافة) والسفر إلى الخــارج

---

(١) انظر جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ٤٥.

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق . مرجع سابق ص ٩٠ .

(أوروبا) وعودة المغتربين من الولايات المتحدة ، وتوثيق الصلة التجارية بالغرب والتوسع بالأخذ بالأساليب الغربية على أنه كان ثمة عامل آخر مهم، ألا وهو شعور النصارى بأنهم أشبه بجزيرة غريبة وسط محيط من المسلمين ، وأن الحكومة ليست حكومتهم . مما جعلهم يسعون جاهدين للإنفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الإستقلال . ومن هنا فالحركة القومية في لبنان ضد العثمانيين كانت (في أغلبها) لبنانية مارونية نصرانية وليست عربية شاملة .

في هذه الظروف السابقة أسست جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥م وكانت تهدف إلى استقلال لبنان وسوريا إن أمكن (١) . وقد بدأت هذه الجمعية بأعضاء نصارى ، كما ذكر **زين نور الدين زين** في كتاب " **نشوء القومية العربية** " : إن المسؤول عن كتابة المناشير السرية المناهضة لحكم الدولة العثمانية التي تؤلب الناس على السلطة ، كان جمعية سرية تأسست في حوالي عام ١٨٧٦م (أي نفس الفترة التي تأسست فيها جمعية بيروت السرية) وتألفت من مجموعة من المثقفين المسيحيين درسوا في **الكلية السورية الإنجيلية** (جامعة بيروت الأمريكية حاليا) وأبرز هؤلاء **فارس نصر** باشا (وهو الذي يحدث زين نور الدين زين بهذه الحقائق) و**إبرهيم الحوراني** ، و**يعقوب صروف** ، و**إبراهيم اليازجي** ، و**شاهين مكاريوس** . أما الدافع الأساسي لمثل هذا العمل فهو على حد التعبير الذي يورده المؤلف زين نور الدين عن فارس نمر " احتقار الأتراك لهم واعتبارهم أدنى شأنا منهم ، واعتبار أنهم غرباء في الدولة العثمانية " أما لجوؤهم إلى الأيدلوجية القومية التي انعكست بالمناداة بسوريا وطنا ــ دون أن يتضمن ذلك تحديدا جغرافيا ــ و"العروبة " انتماء لغويا وثقافيا وتاريخيا فسببه حاجة هذه المجموعة لتأليف جبهة عربية موحدة من المسلمين والنصارى تقوم على فكرة العروبة ، وتستطيع أن تقف في وجه الدولة العثمانية بيد أن العلاقة بين المسلمين والنصارى لم تتطور . فقد اتفقوا بادئ الأمر على محاربة الظلم العثماني واستبداده .. وعلى مبدأ المساواة بين العرب والأتراك، غير أنهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية وهو طرد العثمانيين من ولاية سورية (٢) .

ولكن مالبث أعضاء هذه الجمعية المؤسسين من الشبان المثقفين أن اتضح لهم أن من أجل النجاح وتحقيق الأهداف التي كانوا يطمحون إليها فلابد من الاستعانة بجهود العرب

---

(١) المرجع السابق : ص ٩٠ ــ ٩١ محمود صالح منسي .

(٢) انظر د.وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان و المشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٦٠م ط٢ بيروت ١٩٧٨م ص ١٢٦ - ١٢٧ .

المسلمين حتى يواجهوا العثمانيين بجبهة قوية ، ولذلك انضم إلى هذه الجمعيـــة أعضـــاء مسلمون (١) .

وفي بداية نشاط هذه الجمعية كان سريا بحتا، ثم توسع عمل هذه الجمعية وفتحت لـــها فروعا في دمشق وطرابلس وصيدا وكان نشاطها يتمثل في إصدار المنشورات وإلصاقـــها في الشوارع تحت ستار الظلام ، حتى إذا ما طلع الصبح تجمع الناس حولها لقراءتها .

أما مضمون هذه المنشورات فهو مهاجمة مساويء الحكم العثماني ودعـــوة الشـــعب العربي للثورة عليه وتحطيم سياج الظلم والاستبداد (الذي يزعمونه) فوصلت الأخبار هذه إلى الأستانة ، فاستاء لها السلطان عبد الحميد استياء بالغا مما جعله يجند جنوده للقضـــاء على مثل هذه النشاطات التي تفرق الصف وتحكم لأعداء الله من المستعمرين وغيرهم ...

وقد حاصرت الحكومة العثمانية هذه الجمعية وشددت الرقابة عليها فضيقـــت عليـــها الخناق مما اضطر أعضاؤها إلى وقـــف نشـــاطها بيـــن عـــامي ١٢٩٩هــــ ـــ ١٨٨٢م ، ١٣٠٠هـــ ـــ ١٨٨٣م ، وهاجر أكبر أعضاء هذه الجمعية نشاطا إلى مصر، حيث الرقابة أخف مما سهل لهم مهمتهم التخريبية لكيان الدولـــة العثمانيـــة واســـتمروا فـــي إصـــدار المنشورات والتي ركزت على فضح مساويء الحكم العثماني وأن الدولة فشلت في إجـــراء الإصلاحات (٢) .

ويتركز برنامج الجمعية الأساسي الذي اتفق أعضاؤها على تنفيذه ولو بحد السيف في المنشور الذي بعث بصورة منه قنصل بريطانيا العام إلى حكومته فـــي لنـــدن فـــي عـــام ١٢٩٧هـــ ديسمبر ١٨٨٠م ويتركز برنامج الجمعية بتحقيق النقاط التالية :

١- منح الاستقلال لسوريا بالاتحاد مع لبنان .

٢- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد .

٣- إلغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبير ونشر الثقافة .

٤- استخدام الوحدات العسكرية المجندة من الأقاليم العربية محليـــا داخـــل حـــدود هـــذه الأقاليم(٣) .

وبالطبع وكما هو متوقع لم تقتصر هذه الجمعية النصرانية في نشأتها ـــ المشتركة بعد ذلك على الأهداف المعلنة السابقة ـــ حيث لم تحقق نتائج مرضية لدى دعاتـــها فتفرعـــت

---

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق ص ٩١ .

(٣) انظر د. جلال يحيى : مشكلة قبرص ـــ دار المعارف ـــ القاهرة ١٩٨١م ص: ١٩٨ ـــ ٢٠٠ .

النتائج (وهذا مما أدى إلى تلاشيها وانهيارها) أنها دعت الأهالى دعوة عاطفية إلى القيام بثورة مسلحة ضد الحكم العثماني قبل أن تعمل على تثبيت مبادئها في عقول الناس وإقناعهم بها(١).

وهذا من أهم أسباب فشلها إضافة إلى إسباب أخرى منها، وهومايتعلق بموضوعها ، وهو أن واقع هذه الجمعية وغالبية أعضائها ينتمون إلى من يصنفون بالأقليات غير الإسلامية والتي تخالف الدولة العثمانية ــ وطنهم ــ في العقيدة والمذهب . وبالتالي يسعون جاهدين لتحقيق أطماعهم وأطماع الدول الإستعمارية الأجنبية التي تحرص على تفتيت كيان الدولة العثماني وتأسيس دولة نصرانية في قلب كيان الدولة العثمانية ، وقد عملت هذه الدول الإستعمارية بعد أن فرضت حمايتها على الطوائف النصرانية المختلفة في الشام ــ في معاهدات الزور والذل المسماة بالامتيازات ــ عملت على إدخال التعليم بين أفراد هذه الطوائف وأسست لهم المدارس والمستشفيات والإرساليات ، وقد استطاعت هذه الطوائف استمالة بعض المسلمين المثقفين إلى جانبهم في هذه الجمعية !! لكي تقوي جبهة المواجهة وتتخذ لها صفة (الوطنية) لا البواعث الدينية !! ومع ذلك فإنه كان من المفروض والواجب على المسلمين العرب أن لا يسيروا وراء تعليمات نصارى سورية في الثورة على العثمانيين الذين هم إخوانهم في الدين، فشعورهم وانتماؤهم للإسلام أقوى من أي ارتباط قومي أو جنسي أخر. ولكن وللأسف لم يكن ذلك هو الواقع ، فهذا المستشرق **مارسيل كولومب** يقول في هذا الصدد :

" إن المسلمين العرب ماكان بإمكانهم أن يسيروا على غير هدى وراء تعليمات نصارى سورية الذين يحرضونهم على الثورة على الأتراك إخوانهم في الدين، ذلك أنهم بقدر ماكانوا عربا كانوا أيضا مسلمين . بل ربما شعروا أنهم مسلمون أكثر من كونهم عربا، فالفكرة القومية لم يكن لها أن تنتشر بينهم إلا بالقدر الذي يسمح به الإسلام ويعطيه شرعية وحقا ، وبتعبير آخر: إن العرب المسلمين ماكان بإمكانهم أن يكونوا قوميين إلا بشرط أن يبقوا مسلمين (٢) .

وبعد هذه الصفحات السوداء من تاريخ أمتنا الإسلامية في القطر العربي على وجه الخصوص ، ومن واقع الاجتماعات السرية والمحاضرات السرية والعلنية التي انبثقت عن نشاطات الجمعيات الأدبية والثقافية والعلمية في بلاد الشام ومصر والعراق ، يمكننا حصر

(١) المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٢) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ص ١٣٣.

الأنشطة التي كانت تقوم بها هذه الجمعيات والتي كـــانت بمثابـــة (مصـــانع للرجال المفسدين) ومراكز للأفكار والحقائق التالية :

١ـــ أنها كانت تدعوا إلى التفرقة العنصريـــــة والتمـــزق ، وبـــث روح العصبيـــة والكراهية بين أبناء المسلمين .

٢ـــ انها تدعوا إلى مجد العرب وعزهم عن طريق بث فكرة القومية العربية (وهذا ماتحقق بالفعل كما سنلحظ في المبحث القادم).

٣ـــ أنها كانت تلقى دعماً مادياً ومعنوياً من الحكومات الأجنبية (كما أثبتنا ذلك مـــن فرنسا مع العربية الفتاة ، وأمريكا مع الجمعية العلمية .. وغيرها) .

٤ـــ أنها كانت تسعى لفصل بلاد الشام عن الدولة العثمانية فصلاً تاماً .

٥- أن جهود تلك الجمعيات ، كان جُلُهُ يسعى لهدم الخلافة ، مركز قوة المســـــلمين ووحدتهم، ولذلك ظل شبحاً مخيفاً يهابه المجتمع النصرانــــــي الغربـــي برمتـــه ويسعى لإبادته للأبد، وهو شبح الخلافة الإسلامية .

٦ ـــ كان واقع أعضاء هذه الجمعيات يمثّل الواحد منهم درساً علمياً في مجتمعـــه للأفكار الغربية الاجتماعية السلوكية التي يقرؤنـــــها فـــي صحـــف العـــرب أو يسمعونها ممن سافر إلى أوروبا .

*** نموذج لأحدى الجمعيات السرية في تركيا (قريباً من الباب العالي) :**

لم يكن الوضع في الجمعيات غير العربية بأقل سوءً مما سبق وإن تحدثنا عنـــه في جمعيات الشام ومصر، وكيفية أوبشاعة سيطرة النصـــــارى علـــى مثـــل هـــذه المنتديات، بل على العكس، فالجمعيات الماسونية والمارونية والروميـــة فـــي بـــلاد البلقان وتركيا وصلت إلى نتائج ونجاحات في تحقيق أهدافها ، لم تتيسر لشــــقيقاتها في بلاد العرب .

فتركيا الفتاة أو الاتحاد والترقي من بعد، تمكنت من عزل عبد الحميد ، وإســـقاط الخلافة من بعد، والجمعيات الرومية والعربية تمكنت عقب إعلانها الثورات تُـــهيج الناس على الدولة من تحقيق هدفها بالاستقلال عن الدولة . بما عرف بعد باليونان .

وتدليلاً على ماسبق سنذكر أمثلة من تلك الجمعيات ...

جمعية الاتحاد والترقي :

قبل قيام هذه الجمعية والتي تعد الجمعية الأم لما ضمته من جمعيات ثورية وتحررية متناثرة في أطراف الدولة كانت في الظاهر نتيجة حتمية للضغط الذي كان يتبعه **عبد الحميد** إزاء معارضيه ، حيث ازدادت عمليات القبض والسجن والنفي . حينئذ أخذت جماعة الأتراك الشبان المنفيين في الخارج (والتي أكد السلطان عبد الحميد في مذكراته أن الغالبية العظمى من الأتراك الشبان كانوا من الماسون ، وأنهم انتسبوا بوجه خاص إلى المحفل الماسوني البريطاني الذي يذكر أنهم كانوا يتلقون منه معونة مادية) (١).

وأخذوا يصدرون صحفا في فرنسا وسويسرا وبريطانيا ومصر بوجه خاص (٢) ، (وقد بلغ عدد الصحف التى أصدرها الأمراء باللغة التركية خارج السلطنة ، أكثرمن مائة ، وثلثها تقريبا كان يصدر في القاهرة (٣) . وسرعان ماتكونت جمعيات ثورية على نمط جمعية الكاربوتاري الإيطالية ، وكان هدفها العمل على خلع **عبد الحميد** ، وكانت هذه الجمعيات سرية في الداخل وعلنية في الخارج .

كل هذه الجمعيات السابق ذكرها وغيرها سعت جاهدة متحدة الفكرة والهدف وإن اختلفت المناهج والمسميات والأماكن على خلخلة دعائم الدولة ولم تتوانى في استخدام أي سلاح يحقق أهدافها من صحافة أو مدارس ومعاهد تنشر فيها وعن طريقها أفكارها .. وهذا ما سنفصله في المباحث القادمة .

---

(١) مذكرات عبد الحميد ص ٤٩.

(٢) انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٥٩.

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٠.

المبحث الثالث :

المدارس الأجنبيـــــة وآثارها الفكرية

إن المتصفح للصراع بين الحق والباطل بين الإسلام والكفر، يرى أن ما كان يعـــرف بالحروب الصليبية والهجمات الشرسة على المسلمين تحولت إلى حرب أفتك وسلاح أمضـى على المسلمين، وهو ماعرف بسلاح التنصير أو التبشير ــ كما يزعمون ــ وكـــان أبـــرز قنوات هذا التنصير هي المدراس أو التعليم عموما، فإن هذا التعليم بمحاضنه مـــن معـــاهد ومدارس وكليات كانت بمثابة مصانع للرجال ومعامل للأفكار المتعـــددة، فمنـــها ظـــهرت الشيوعية،وفيها ولدت العلمانية، وبين أحضانها تربت القومية ... فما مـــن بـــاحث لـــهذه المذاهب الفكرية الدخيلة على المسلمين إلا ويجد أن مؤسسيها ممـــن تخرجـــوا مـــن تلـــك المدراس الذين ربوا على أعين الأئمة من اليهود والنصارى، لذلك أولت الـــدول الأجنبيـــة والقائمين عليها من الخارج اهتماما خاصا بهذا الجانب وهذا القطاع ، وكان هناك التنـــافس العظيم بينها، فلا يخفى على كل ذي لب ما للتعليم من أهمية تفوق جل الإهتمامـــات وتقـــدم على سائر المجالات . كما أنه من الواجب على الدولة المسلمة إعداد العدة التي أمرنا الله بها والاستعداد بسلاح العلم، فلا تكفى الذخيرة مهما أرعبت في كثرتها في الظاهر، ولاالعاطفـــة المجردة مهما أشعلت في الحاضر، بل لابد من أفكار ومباديء وعقائد يقـــاتل مـــن أجلـــها ويوالى عليها وتسال الدماء ويضحى لها، ولن استطرد في الكلام عـــن التعليـــم وأهميتـــه، وأهمية التركيز على هذا المجال والمراقبة العميقة من الدولة، والقيود التي يجب أن تفـــرض على كل صاحب ملة إذا ماأراد أن يفتح بابا من أبواب التعليم، أو مدرسة ويوفد إليها ســـواء أهل ملته أو أبناء المسلمين لما لذلك من آثار خطيرة تظهر لنا خلال هذا المبحث المهم .

إن الحديث عن التعليم هو الحديث عن التنصير في ذات الوقت، وهـــو حديـــث عـــن العلمانية في الوقت نفسه، وهو حديث أيضا عن خلع المسلمين عن دينهم وتقاليدهم وأفكارهم ومبادئهم إلى ماترمي إليه تلك المدارس .

لن أكتب على لساني وقلمي في هذه الوريقات، وإنما سأذكر كلام مؤسسي هذا الصـــرح في الدولة المسلمة، هم بأنفسهم يبدون أهدافهم التي من أجلها تكبدوا مـــاتكبدوا لأجـــل هـــذه المدراس .

فهذا المنصر هنري جيب يكتب إلى أحد زملائه يقول : '' لنبتهل إلى الله فـــي ســـبيل تعمير نفوس أولئك الشبان ، الذين يترددون على الكليات، لأن التعليم في مدارس الإرساليات واسطة إلى غاية ... وهي قيادة الناس إلى المسيح .. إن المدارس تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى فيستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوما ما قادة في أوطانـــهم''(١).

---

(١) انظر عبد الرحمن عوض : التبشير في ديار المسلمين ص ٨ .

وأيضا يبين لنا خطر المدارس وأهميتها لدي مؤسسيها قول **السفير الأمريكي** : '' بأنه لاقيمة لوجوده في استطنبول اذا ماأغلقت المدراس'' ، فبعد أن حاولوا إلغاء الامتيازات الأجنبية وعلى إثرها تغلق المدراس الأجنبية هدد السفير الأمريكي في تركيا قائلا : '' إن المدارس الأمريكية إذا لم تفتح أبوابها فلا معنى لوجوده هنا في تركيا '' (١) .

لذلك نجد فكرة إنشاء المدارس الأجنبية في اسطنبول خاصة كانت متقدمة على غيرها في المجالات التي سلكها أهل الذمة لإقصاء الشريعة وهدم الإسلام من داخله، قبل هدمه ظاهرا، فيرجع تاريخ فكرة إنشاء المدراس الأجنبية في اسطنبول إلى القرن السادس عشر الميلادي تقريبا عندما افتتحت مدرسة **القس بلو الفرنسي** ، وتكاد تكون أول مدرسة أجنبية في اسطنبول، ولقد استمرت الجمعيات التنصيرية الفرنسية منها بشكل خاص منذ التاريخ المذكور في افتتاح المدارس ، كما بدأت الجمعيات الإيطالية والإنجليزية في إنشاء مدارس بمراحلها المختلفة أيضا، وكانت هذه المدراس في البداية خاصة بأولاد رعايا الدولة العثمانية من النصارى واليهود والأولاد الأجانب القاطنين في اسطنبول، واستمرت هذه الحالة حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي حيث حصلت تغيرات أساسية وسياسية في الدولة العثمانية وأصبح الأجانب يتدخلون في شئون الدولة العثمانية عن طريق الامتيازات الأجنبية وبحجة حماية الأقليات الموجودة فيها، كذلك ماتبع الإصلاحات العثمانية المعروفة بالخط الهمايوني عام ١٢٥٥هـ ــ ١٨٣٩م، وأيضا الحركة الإصلاحية والدستور المشروطية ١٢٧٢هـ ــ ١٨٥٦م التي أصبحت تسوغ تدخل الدولة الأجنبية في شئون الدولة العثمانية، حيث حصل الرعايا غير المسلمين الموجودين في الدولة العثمانية على كثير من الامتيازات وأصبحت الدولة تقدم التنازل تلو الآخر للدول الأجنبية، بل وتبدي رغبتها في تطبيق القوانين الوضعية، وما ذلك من فراغ، ولم يكن ذلك من نتاج يوم وليلة، ولكن بعد مراحل كثيرة من الجهد والنشاط والمساعي التي بذلت من قبل أهل الذمة حتى أوصلت الدولة إلى هذه الدرجة من الإنحطاط. هذا الكلام يجرنا إلى الحديث عن السبب في انتشار التعليم الأجنبي، أو بدايات التعليم عند أهل الذمة في الدولة العثمانية، فلقد كان نظام الحكم العثماني يعطى للنصارى واليهود حق ممارسة الشعائر الدينية دون تعرض لأي ضغط حتى هذه الحرية الدينية كفلت لأهل الذمة الحفاظ على كيانهم وتابعوا دراسة تعاليمهم في الأديرة والكنائس دون تدخل من جانب السلطات الحاكمة العثمانية تمشيا مع السياسة العثمانية العامة التي تعطي لكل ملة حق إدارة شئونها الخاصة بكل حرية طالما أن ذلك لايعرض البلاد لأزمة ما .

---

(١)سهيل محمد صابان : المؤسسات التعليمية ص ٢٣٥.

ولذلك ظلت الأقليات النصرانية التقليدية في الدولة العثمانية تعاني من بعض ماكان يعانيه المجتمع الإسلامي في العراق مثلا زادت من تدهور أو على الأقل جمود الفكر والمعرفة خلال الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر (١) . ولم يكن هذا خاصا بالنصارى، بل كان لكل ملة أو فرقة منها مدراس خاصة بها .

إن الحديث عن بداية المدراس لأهل الذمة ونشأتها في الدولة العثمانية، يجرنا إلى الحديث عن بداية التنصير، حيث كان هذا الغرض الأول والظاهر من هذه المدارس، وكانت تدرس فيها العلوم اللاهوتية الدينية . ثم أضيف إليها العلوم التجريبية مما رفع من شأنها عند عامة الشعب وأصبحت النفوس تتوق دائما لأن يدخل أبناء المسلمين تلك المدارس، نظرا لما لها من سمعة، ولأن خريجي هذه المدارس هم الذين يتبوؤن المكانة المرموقة في البلد، وهم الذين يتولون أعلى الوظائف والمراكز، حيث منهم المترجمون ومنهم الصناع ومنهم أصحاب المؤهلات العلمية التي كانت الدولة في أمس الحاجة إليهم من تخصصات لم تكن موجودة في مدارس الدولة الإسلامية . فمع أن تلك المدارس الأجنبية في اسطنبول خاصة كانت تهتم بالتنصير وتركز عليه إلا أنها لم تتأخر في تنظيم المناهج الدراسية بحسب متطلبات التقنية العصرية وتطبيق العلوم البحتة والاستفادة من خبرة الأساتذة والمدرسين، وجلبهم من دولها إلى اسطنبول وتعليم اللغات الأجنبية المختلفة للطلاب، لذلك فقد شاع صيتها بين طبقات الشعب كافة، وكان الإقبال من قبل المسلمين أنفسهم كبيرا وبخاصة في نهاية القرن التاسع عشر حيث المتخرج من المدرسة الأجنبية يتعين في وظيفة مرموقة بدوائر الحكومة أو المؤسسات التجارية في الوقت الذي كانت فيه المدراس الحكومية لاتجد القبول لدي الشعب، ومع أن أعداد الطلاب المسلمين أصبح يزداد يوما بعد يوم في المدراس الأجنبية حتى أصبح غالبية طلابها من المسلمين، إلا أن التعليم عند أهل الذمة اتجه نحو العزلة والاستقلال والذاتية، حيث أصبح كأنه دولة داخل دولة يوجه نشأ جديدا على الوجهة التي يراها . هذا الكلام لم يكن خاصا باسطنبول فقط ، بل شمل أنحاء الدولة العثمانية، وخاصة في بيروت حيث كانت مجمع الأفكار ومجمع الثقافات، وصاحب كل مبدأ من صحافة أو مدارس أو مؤلفين أو صاحب جمعيات سواء السرية أو العلنية، وكانت المركز لهذه الطبقة التى تدعم الطبقة المثقفة في بيروت خاصة ثم القاهرة ، ونخصص في هذا المبحث بعض أسماء المدارس في تركيا في اسطنبول، وأيضا نأخذ شريحة أخرى من العالم العربي خاصة من بيروت، حيث هي من الكثرة والوفرة الهائلة بمكان، وفي العراق كانت تعد من أقل النسب في انتشار المدارس الأجنبية فيها ،أقصد أقل مما في بر الشام أو مصر

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٩٦.

من حيث النشاط التنصيري، وأيضا سأتعرض لسبب انتشار هذا التعليم الأجنبي وتفوقه على الإسلامي، وبداية تعليم البنات وبيان أن أول تعليم للمرأة كان على أيدي هذه المدارس الأجنبية سواء ما كان عند العرب أو عند الأتراك، ثم الميزانية الضخمة التي كانت ترسل لتلك المدارس والجهات التي كانت تتعهد بتمويلها ماديا، ومدى حرص النصارى واليهود على بقاء هذه المدارس لأنها تخدم أفكارهم ولأن لها نتيجة هم ينتظرونها على أحر من الجمر، كذلك سنتعرض للعلاقة الوثيقة بين التنصير والمدارس من حيث المناهج التى اشتمل عليها جدول المدارس ومن حيث القائمين على التدريس في تلك المدارس، ولايفوتنا أن نبين الآثار المترتبة على انتشار تلك المدارس على المسلمين خاصة، وعلى تمكين أهل الذمة وتمكنهم من رقاب العباد والبلاد، والأفكار التي استطاعوا أن يزرعوها ويغرسوها عن طريق تلك المدارس، فأقول مستعينا بالله :

خابت الدول الأوربية في الحروب الصليبية فأرادت أن تثير على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التنصير فاستخدمت تلك المدارس والمستشفيات ووزعت المنصرين في العالم(١).

وكانت الدولة العثمانية تولي الشئون العسكرية جل اهتمامها، ولم تلق الناحية الثقافية والتربوية نفس الأهتمام مما أدى إلى مزيد من التراجع الحضاري ، حيث أصبحت البلاد الإسلامية هدفا للغزو الثقافي وحملات تنصيرية مركزة من دول الغرب مجتمعه (٢) .

ولما أدركت الدول الغربية أن المنصرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية أخذت تلك الدولة تتبارى في استخدام المنصرين (٣) .

فالحديث إذا عن المدارس هو حديث في نفس الوقت عن التنصير، تكلم كثير من الباحثين عن بدايات التعليم خاصة في الدولة العثمانية على اختلاف أسباب الانتشار الظاهر وتغطية تلك المدارس الصليبية واليهودية على المدارس الحكومية، بل وتفوقها عليها من حيث المناهج والعدد والماديات والمقررات وغيرها، من ضمنهم الدكتور **عبد العزيز نوار** في تاريخ العراق الحديث، فذكر مايخص العراق والتعليم والمدارس الخاصة بالنصارى واليهود، وبين أن أسباب ذلك ، الصراع بين طوائف اليهود والنصارى فقال '' كان العراق

---

(١) انظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار ص ١١٥.

(٢) انظر محمد هاشم ريان : أخطار التقليد التربوي للغرب على البلاد الإسلامية . مجلة الأمة القطرية ــ ع٦٠ ذو الحجة ١٤٠٥هــ ص ٣٢ - ٣٥.

(٣) انظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار ص ١١٧.

بصفة عامة وشمالية بصفة خاصة منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر هدفا هاما من أهداف النشاط التنصيري البروتستانتي، وكان لنشاط المنصر الأمريكي **جرانت** من الأمور التي ورطت المنطقة في صراع طائفي بين الأكراد والنساطرة جلب إلى المنطقة المتاعب والتدخلات الأجنبية، وبدأت هذه المتاعب عندما حول جرانت مدرسته التي أراد أن يتخذها مقرا لنشاطه التنصيري إلى مايشبه القلعة القادرة على الصمود في وجه القوة المحلية إذا تحركت عسكريا، وبعد تلك الأحداث الدامية التي دارت في الأربعينات من القرن التاسع عشر أصبح النساطرة محط رعاية القنصل الإنجليزى من بعد ذلك''.

ثم قال '' تلك كانت الظروف التي بدأ فيها النشاط التعليمي بين الطوائف المسيحية متواضعا منذ منتصف القرن التاسع عشر عندما وفدت البعثات التبشيرية الأوربية إلى العراق فأدخلت نظم تعليم حديثة أخذت مكانها جنبا إلى جنب مع النظم القديمة '' (١) .

هذا بالإضافة إلى ما كان في العراق من مدارس مسيحية قديمة كانت غالبيتها العظمى ملحقة بالكنائس، واستطيع القول بأن الكنائس هي البدايات لكل من تلك المدارس الخاصة بأهل الذمة، فكما ذكرنا من قبل في العراق كذلك في عاصمة الخلافة اسطنبول كانت الكنائس اللاتينية الكاثوليكية بعد فتح استطنبول عام ٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م تلقن صغار أتباعها مباديء القراءة والكتابة في مدارسها الصغيرة المؤسسة قرب الكنيسة ضمن الامتيازات التي منحها السلطان **محمد الفاتح** للأرض من الموجودين في استطنبول، ولم تكن لهذه المدارس أهمية تذكر لا من حيث العدد ولاالثمرة، وكانت المقررات الدراسية عبارة عن دروس دينية والقراءة والكتابة. وبعد توسط السفير الفرنسي لدي الباب العالي أرسل الأخير عام ٩٩١هـ ـ ١٥٨٣م بعض الأعضاء، وهذا كما سبق لنا في الحديث عن الجمعيات من الفرق النصرانية والجمعيات، أسسها القسيس الفرنسي **إلياس لايونا**، وهدف هذه الجمعية التنصير ليس بهذه البساطة، بل من أجل تدريس أولاد النصارى، ففتحوا مدرسة القسيس **بنوا** الذي سبق أن ذكرتها في تمهيد هذا المبحث أنها أول مدرسة أسست في اسطنبول، إلا أنها أغلقت بعد عدة أعوام، بسبب انتشار مرض وبائي ثم استؤنفت فيها الدراسة بعد عدة أعوام، وافتتحت مدرسة أخرى عام ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٥م باسم القديس **لو** ، وأيضا جمعية **الكابوشيين** فرع من فروع طريقة فنسسك المسيحية وقد تأسست عام ٦٠٥هـ ـ ١٢٠٩م من قبل **البابا** والقديس **فرنسيسك** بغية ارشاد الناس إلى الزهد وادعاء لتغفير الذنوب للناس (٢) .

---

(١) انظر عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٢) انظر سهيل محمد صابان : المؤسسات التعليمية ص١٥٨ .

العلاقة بين المدارس عند أهل الذمة وبين التنصير :

ممن يتولون التدريس في تلك المدارس تجد أن جلهم أو كلهم من الرهبان والقسيسين سواء كانوا نساء أو رجالا . فنجد في هيئة إدارة معهد القديس للبنات أن هناك ٦٤ راهبة يكون هيئة تدريس فيه، كما كان أغلب المدرسين في معهد القديس سينون الفرنسي وهو الأول للبنين من الرهبان اللعازريين، وبعض أعضاء الفرير كانوا يدرسون الفصول .

وكان المدرسون الرهبان في المدارس الأجنبية أيضا يحاولون التأثير على الطلاب وإعطائهم صورة جملية عن الديانة النصرانية، إلا أن تخصص أولئك الرهبان لم يكن في مادة الدين وحدها، بل كانوا يدرسون كافة المواد مثل الجيولوجيا والفلسفة وغيرها من المواد، وهذا الحكم عام على جميع المدارس الأجنبية في اسطنبول أو الدولة عامة .

وكان المدرسون المتخصصون في علوم اللاهوت والديانة النصرانية وتاريخ الكنائس مرسلين من فرنسا خصيصا للتدريس في المدارس الفرنسية، كما كانت المدارس الفرنسية في الدولة العثمانية بشكل عام يديرها الرهبان الكاثوليك بمختلف جمعياتهم (١) .

وأيضا للارتباط بين المدارس عند أهل الذمة وغرض التنصير وغيره من الأفكار، أننا نجد أن أكثر المدارس الأجنبية متداخلة مع الكنائس أو ملحق بها . ويمتاز الجو الدراسي العام في مدرسة **نوتردام دوسيون** الفرنسية في اسطنبول بأنه جو نصراني خالص، فإن سكن الطلاب والمطعم وقاعة المحاضرات والفصول الدراسية كانت مزينة بصور القديس وكبار رجالات الدين النصراني، إضافة إلى أن جميع الفصول الدراسية وغرف الفسحة كانت مزينة بالصليب .

ولم يكن يمكن التفريق بين المدرسة والكنيسة، وكان الارتباط وثيقا بين المدرسة والكنيسة الملحقة بها، حيث كان الطلاب يؤخذون من المدرسة إلى الكنيسة في الأيام المقدسة عند النصارى، أما الأيتام من الطلاب الذين كانوا يدرسون على حساب المدرسة ، فارتباطهم بالكنيسة أوسع ومكوثهم فيها أكثر من غيرهم، وكان الباب الخارجي العام للمدرسة يؤدي إلى الكنيسة ولا يستطيع الطالب الدخول إلى المدرسة إلا بعد مروره من الكنيسة، لذلك لم يكن من الممكن قطع العلاقة بين المدرسة والكنيسة . وكان تأثير الطقوس الدينية التي كانت تجرى أيام السبت من كل أسبوع في قاعة الاجتماعات على الطلاب كبيرا . فقد كانوا يقربون من النصرانية يوما بعد يوم، مع أن أكثر من ٨٠% من الطلاب من المسلمين . وقد

---

(١) انظر :سهيل محمد صابان ص ١٦٠.

أعدت القاعة ونظمت مثل الكنائس تماما حيث توجد لوحة كبيرة عليها صورة منشيء طريقة سيون Sion ، وينبغي على الجميع الركوع أمام هذه اللوحة بكل اجلال واحترام كلما دخل إلى القاعة، وكان يتم فتح القاعة للمراسم الدينية وتعيين الجزاء للطلاب أو العفو عنهم .. فيؤتى بالطالب المراد عقوبته أمام جميع الطلاب والمدرسين ويتقدم إلى كرسي '' **مريم العذراء** '' وفي الاصطلاح النصراني : الأم مريم أو الوالدة مريم ، فيركع ويجلس على ركبتيه بكل إجلال وينتظر اعلان الجزاء بخوف ورهبة شديدين . كان الجزاء في الغالب كلمات قاسية تحقيرية للطالب ثم خلع لحزامه ... وفي تلك اللحظة يرجو الطالب الموت بدل الوقوع في مثل هذه الحال، وخاصة أمام جميع الطلاب والمدرسين ، وكان في قليل من الحالات يسمح بحضور المدرسين الأتراك ، الذين لم يكن من الواجب على الطلاب احترامهم مثل مايحترمون المدرسين الأجانب، إلى أخر ماعندهم من طقوس وخرافات وكانت تمارس مع أبناء المسلمين وفي دولة المسلمين (١) .

ويقول **روفائيل بطي** وهو مؤلف وأديب نصراني صاحب كتاب **تاريخ نصارى العراق** '' وكان الأسلوب الثاني وهو التعليم أداة فعالة من أدوات التبشير الكاثوليكي البابوي وأكثر وضوحا في طائفة الكلدان من غيرها، خاصة عندما نجح المبشرون البابويون في تحويل عدد من بطاركة الطائفة الكلدانية إلى الكاثوليكية، وكان هذا مشجعها جدا للبابوية كي تعمل على فتح أبواب مدارسها في الشرق أمام رجال الدين الشرقيين ، ولكن دون أن تعمل على فتح مدارس لاهوتية في العراق مكتفية بما فتحته البابوية من مدارس رجال الدين الشرقيين في بيروت وفي روما، بينما ركز هؤلاء المبشرون جهودهم في داخل العراق في افتتاح مدارس ابتدائية في (**دياربكر**) فقد التحق عدد من رجال الدين المسيحيين العراقيين بمدرسة **الجزويت** في بيروت كما رحل بعضهم مثل ــ **اقليميس يوسف داود** ــ إلى روما واستكمل هناك دراسته العليا اللاهوتية ليعود إلى الموصل في ١٢٧١هـ ــ ١٨٥٥م محملا بأفكار تعليمية جديدة تبلورت في جهوده الكبيرة نحو اخراج كتب تعليمية حديثة للغة العربية وآدابها وعلومها وفي الوعظ والخطابة، وفي المواد الاجتماعية والحساب . والحقيقة كان العدد الذي التحق بمدارس لبنان التبشيرية من مسيحي العراق قليلا إلا أن هذا العدد القليل كان يكشف بسرعة عن قدرات ثقافية ذات مستوى أعلى من أقرانه، الأمر الذي يفتح أمامه الطريق إلى المناصب العليا الكنسية، ومن ذلك وصول أحد رجال الدين الذين تعلموا في مدرسة (**غزير**) اللبنانية إلى منصب البطريركية الكلدانية (٢) .

---

(١) انظرسهيل محمد صابان : المرجع السابق ص ١٥٣ ــ ١٥٤.

(٢) روفائيل بطي : تاريخ نصارى العراق ص ١٤٨ .

توالت الجهود التنصيرية البروتستنتية منتهزة فرصة حصولها على حق إنشاء مـدارس خاصة بالطائفة، فظهرت في الثمانينات في الموصل مدرسـتان واحـدة للصبيـة وأخـرى للفتيات، وكان تعداد الأولى (خمسين) طالبا وتعداد الثانية (أربعين) طالبة ، وهـو عـدد لابأس به، بل يعتبر تحرر كبير جدا إذا أدخلنا في الاعتبـار أن هـذا النشـاط التنصـيري التعليمي البروتستنتي كان حديث العهد بالعراق ولا يستند إلى قاعدة طائفية على النحو الـذي نشاهده لدي غالبية الطوائف النصرانية الأخرى (١) .

*** المناهج :**

إذا تبين لنا مدى غفلة الدولة عن كل ما يحصل في هذه المدارس من حيـث المنـاهج والقائمين عليها في التدريس أو كثرتها أو الدعوات التي تدعو إليها، كانت هناك هيئة خاصة لوضع المناهج في المدارس الرومية التابعة للبطريكية، وهذه الهيئة مكونة من أربعة أعضاء روحانيين وأربعة أعضاء جسمانيين تضع المناهج الدراسية للمدارس الرومية في اسطنبول، مع أنها كانت مشابهة لمناهج المدارس اليونانية غير فارق يسير جدا وهو مادة اللغة التركيـة في المدارس الرومية باسطنول .

وكانت الحكومة الإيطالية كذلك تعد المناهج الدراسية لمدارسها الواقعـة فـي الدولـة العثمانية، فكانت المدارس الأجنبية تطبق نفس المناهج المطبقة في دولها التي تتبعها، وتقـرر على الطلاب نفس الكتب المدروسة هناك، ولم تكن نظارة المعارف التركية تستطيع التدخـل فيها .

وكان العامل المشترك بين جميع هذه الدول والجمعيات التنصيرية المختلفة هو إعـداد المناهج التعليمية الدراسية في المدارس حسب العقيدة النصرانية، إلا أن فرنسا لمـا كـانت متأثرة بالثورة الفرنسية ــ التي كان بموجبها الفصل بين الدين والدولة ــ تدخلت في شـئون المدارس الفرنسية التابعة للجمعيات التنصيرية المختلفة ابتداء من بداية القـرن العشـرين، وأصبحت مناهج هذه المدارس على غرار مناهج المدارس الفرنسية العلمانية .

إلا أنها لم تنفصل عن التقاليد النصرانية ولاعن التنصير كما يظهر ذلـك فـي الكتـب والجرائد في العهود الأخيرة ، غير أن هذه المدارس الفرنسية فقدت حماسها العقدي الـذي بدأت به .

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٣٠١.

وكانت المناهج الدراسية في جميع المدارس الفرنسية في الدولة العثمانية شبه موحدة، ومع أن تلك المدارس بشكل عام أنشئت للتنصير، إلا أن ذلك لم يمنع من اهتمامها بالتعليم الحديث المعاصر وتنظيم المناهج الدراسية حسب متطلبات التقنية الحديثة (١) .

وهذا هوما فتح لها باب القبول عند عامة المسلمين وأصبحوا يتهافتون على الالتحاق بها

*** الأسباب :**

ولكن قبل البداية في سرد المدارس التي كانت خاصة بأهل الذمة ومن تأسيسهم وبدايتها كانت خاصة برعاياهم وأبناءهم والأرقام المفجعة لتلك المدارس في كل اقليم أولاية من الدولة العثمانية شاسعة الأطراف تلمح إلى بعض العوامل والأسباب التي ساعدت على هذا الانتشار المريب للمدارس الأجنبية أو مدارس أهل الذمة، فبالإضافة إلى الأسباب التي تقدمت معنا في كل هذه النكسات التي توالت على الدولة من الامتيازات الأجنبية وصدور الخط الهمايوني و نظام المشروطية كان الضعف العام الذي اعترى الدولة العثمانية في نظر الهيئات والجمعيات التنصيرية والأوروبية والأمريكية فرصة لتوجيه حملات تبشيرية مختلفة الاتجاهات والمذاهب والأهداف لتنصير المسلمين في الشرق لاحتواءهم مذهبياً وسياساً أو على الأقل كسبهم عاطفياً وتشكيكهم في دينهم، وتدفق المنصرون من بروتستانت وكاثوليك عل الشرق الإسلامي وأسسوا المدارس التنصيرية التي تعد أفكار العصر الحديث وتتبع مناهجهم وتعلم العلوم الرئيسية التي عليها بنيت الحضارة الأوروبية، ولكن هذا التسابق التنصيري كان واضحاً جداً في لبنان بالذات ثم إلى سوريا وفلسطين .

يظهر لنا أن جهود المبشرين في قطاع الشرق للاستعمار الغربي أن لبنان أصبح منطلق الحركة التنصيرية الأوروبية الأمريكية لفتت هذه الحركة التنصيرية أنظار نصارى العراق، ولكن التيارات الفكرية المختلفة التي كانت تموج في الشام في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر كانت تصل ضعيفة إلى العراق في وقت كانت فيه الطوائف النصرانية في الدولة العثمانية قد بدأت تقيد الفرمانات والمراسيم التي أخذت تصدر منذ عام ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م في شأن المساواة بين رعايا السلطان العثماني وحصول النصارى في الدولة العثمانية على الحقوق التي كانت للمسلمين، فأسرعت الهيئات السياسية الأوروبية والتنصيرية إلى انتهاز هذه الأوضاع لتحويل نصارى الشرق إلى الارتباط بأوروبا لا لمصلحتهم فقط وإنما لمصلحة أوروبا ، وكان التعليم والمدارس الأوروبية أحد الأساليب المستخدمة لتحقيق هذه الأهداف. وأيضاً من أسباب انتشار تلك

---

(١) انظر محمد صابان : المؤسسات التعلمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في اسطنبول ص ٢١٤ - ٢١٥.(نقلاً عن نوري بكر : شرقدة فرانسز مكتبً لري) (نقلاً عن مجلة تربية ، العدد ٢ ، السنة ١) .

المدارس التفوق الحضاري الواضح في القرن التاسع عشر الذي غير نظرة اللامبالاة التركية السلبية في التعليم وجعلها تعيد النظر وتقارن بين مدارسها التقليدية ومؤسسات التعليم الأوروبية والأمريكية التي زرعتها الهيئات والمؤسسات التنصيرية في العالم العربي ، التي وإن كانت أعداد كبيرة منها لاهوتية الهدف قبل منتصف القرن التاسع عشر، فهي تعالج موضوعات من صميم الحضارة الأوروبية وتُعد الأذهان لتتقبل ، وتطوير العقول مع مفاهيم العصر والانسياق معها بعكس طبيعة وعمل معلمي المدارس الإسلامية آنذاك ، وكانت المؤسسات التعليمية النصرانية في لبنان بالذات من العوامل التي جعلت المقارنة تكشف بسهولة الفوارق الثقافية الشديدة بين متخرجي المدارس الإسلامية التقليدية والمتخرجين من المدارس التنصيرية، وبين الدور الذي يمكن أن يقوم به هؤلاء دون أولئك خاصة، حيث أنه كان من اليسير إلى حد كبير على النصراني الاندماج في تيار العصر علمياً وثقافياً وتجارياً، بينما كان العجز واضحاً على المتخرجين من المدارس الإسلامية، وبتوالي السنوات كانت هذه الحقائق تترسخ وتظهر على الفكر الإصلاحي التركي الإسلامي، حتى أصبحت المدارس أدوات التعليم الحديثة بنظامها وحصصها المحددة ومناهجها المشتملة على العلوم الرياضية والطبيعية والأدبية الغربية والشرقية من أهداف السياسة التعليمية العثمانية منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر (١) .

ومن الأسباب التي أدت وساعدت على انتشار وتفوق مدارس أهل الذمة على المدارس الحكومية ، التعليم المجاني عندهم ، حيث كانت البعثة من أنشط البعثات التنصيرية في تغطية حاجات المدارس الصليبية من مدرسين ومدرسات دون أية نفقات في مقابل ذلك، على أن الزيادة المطردة في أعداد المقبولين في المدارس النصرانية المختلفة واجهت الهيئات التنصيرية المسؤولة بمشكلة الكتاب المدرسي ، إلا أنها كانت أقدرعلى توفير الكتاب المدرسي من غيرها من المدارس الإسلامية الحكومية، إذ اشترت بعض الهيئات التنصيرية مطابع في عام (١٢٩٨هـ ــ ١٨٨١م ، ١٣٢٩هـ ــ ١٩١١م) فكان في ملكها مطابع خاصة .

أيضاً من أسباب انتشار وتفوق مدارس أهل الذمة، عدم تشديد الرقابة، بل انعدام الرقابة تماماً فكانت مناهج التدريس والكتب لاتسير على نفس المناهج المستخدمة في المدارس الحكومية في أغلب الأحيان . فبصفة عامة كانت هذه المدارس النصرانية بعيدة عن رقابة الحكومة ، ولها أمر إدارة نفسها بنفسها دون محاولة تذكر للسيطرة على طبيعة

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥

المناهج التي كانت تدرس بها إلا بعد عام ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م ، ولا على الطريقة التي كان يقوم المنصرون بالتدريس بها في تلك المدارس (١) .

الجهات التي تولت تمويل تلك المدارس :

فيما يتعلق بمجانية التعليم نلمح إلى أهم الجهات التي كانت تمول تلك المدارس، فلم تكن تمول لاستقبال الطلبة الأجانب من رعايا الدول الأجنبية فقط ، بل أيضا لترغيب أبناء المسلمين فيها، وكان الاعتماد في الغالب في المدارس الأجنبية من الناحية المادية على الدول التي أنشأت تلك المدارس إن كانت مسماة باسمها ـ فقد كانت فرنسا تخصص سنويا مليون ومائتي ألف فرنك فرنسي للمدارس الواقعة في الدولة العثمانية ـ كما كانت إيطاليا تخصص سنويا مليون فرنك إضافة إلى أن مصاريف بعض المدارس الفرنسية كانت تتحملها وكالة البابا للدعاية والإعلام الخارجي باسطنبول، والبعثة الخارجية الباباوية في روما . ومن نتيجة هذا الدعم المادي الكبير أن أكثرت فرنسا من افتتاح المدارس المجانية ، فإلى جانب كل مدرسة ذات رسوم، كان يتم فتح مدرسة مجانية حتى يتمكن الفرنسيون من تحقيق الهدف الذي كانوا يرمون إليه من نشر المذهب (الكاثوليكي والثقافة الفرنسية) (٢) .

كذلك مما ساعد في تحسين مستوى تلك المدارس أن نفس الكنائس كان لها ريع خاص ودخل خاص لاستمرار عملية التعليم في هذه المدارس اليهودية والنصرانية والأرمنية وغيرها، فكانت الأقليات الدينية في اسطنبول تقيم المدارس الخاصة بها، والمدارس الحكومية الخاصة بالجاليات النصرانية تقوم بإنشائها البطريركية الرومية أو بعض الأروام المهتمين بالتعليم والثقافة الرومية ، والمدراس الرومية تقوم بإنشائها الكنائس الرومانية أو بعض الأرمن المهتمين بالتاريخ والأدب الأرمني ، كذلك اليهودية تقوم بإنشائها الحاخامانية اليهودية والجمعية اليهودية التي أنشئت في باريس سنة ١٢٦٧هـ ـ ١٨٦٠م ، أما المدارس عموما عند أهل الذمة فيقوم بإنشائها في الغالب الجمعيات التنصيرية وعلى رأسها :

أ. جمعية الجزويت (اليسوعيين) .
ب. جمعية اللعازريين .
ت. جمعية الدومينيكان .
ث. جمعية الفرنسيسكان .
ج. جمعية الكابوشيين .

---

(١) انظر عبد العزيز نوار المرجع السابق ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٢) سلامة جرجس : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون ـ القاهرة ١٩٩٣م ص ١٢٩.

ح. جمعيات البروتستانت .

خ. الجمعيات التنصيرية الأخرى .

وكذلك الدول نفسها وعلى رأسها :

أ. فرنسا .

ب. إيطاليا .

ت. أمريكا .

ث. بريطانيا .

ج. ألمانيا .

ح. النمسا .

خ.باقي الدول التي لها مؤسسات تعليمية في الدول العثمانية مثل روسيا وبلغاريا وإيران(١).

كما يقوم بتمويل تلك المدارس – إضافة إلى ما سبق – بعض الأشخاص المنصرين الذين لم يكونوا يتبعون جمعية تنصيرية معينة مثل : **سايروس هاملن** منشيء معهد روبرت الأمريكي، والدولة السباقة في حجم المساعدات الموقوفة على المدارس هي الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من أن فرنسا سبقتها كثيرا في عدد المدارس إلا أن المدارس الأمريكية كما جاء في التقرير الذي أعدته الجمعية الأمريكية للتنصير والتي تدعى(Board of Mission) عام ١٣١٣هـ – ١٨٩٥م ، أن أمريكا كانت تصرف سنويا ستة ملايين دولار أمريكي لمدارسها الواقعة في اسطنبول وحدها، وكانت مصاريف **معهد روبرت** الأمريكي وحده حتى عام ١٣٣٣هـ – ١٩١٤م ثلاثة ملايين دولار وسبعين ألفا، لأن فخامة مباني المدارس الأمريكية والمختبرات العلمية والمكتبات الضخمة والأجور المرتفعة للعاملين فيها كانت تكلف كثيرا، إضافة إلى أن بعض الأغنياء الأمريكيين كانوا يقدمون بين الحين والآخر مساعدات سخية لتلك المدارس الأمريكية في الدولة العثمانية .

وقد كلف مبنى المعهد الأمريكي للبنات في اسطنبول عشرين ألف دولار دفعها **وليام شابلن** الثري الأمريكي . وتبرع **شاري ويلدر** للمعهد بعشرة آلاف دولار أمريكي .

---

(١) انظر سهيل محمد صابان المؤسسات التعليمية – مرجع السابق – ص ١٣٣ - ١٣٤.

ولم يكن هذا التبرع السخي خاصا بالأثرياء فقط **كجون كندي** (١) ومن سبقه، وإنما أيضا أصحاب المهن كان يحث بعضهم بعضا على مساعدة هذه المدارس والقيام بدعمها، فعندما اشتكت المدارس الأرمنية من الضيق المالي قام أصحاب المهن الأرمن في اسطنبول بالموافقة على دفع مصاريف المدارس الأرمنية فيها على وجه الخصوص، وكان ذلك بحضور البطريك عام ١٢٤٧هـ ــ ١٨٣١م ، إضافة إلى أنهم كانوا يقومون بتبرعات مالية لتلك المدارس . والتي كانت تحفظ لأبنائهم تقاليد وعادات آبائهم وتربيتهم على مذهبهم الديني الأرمني .

كما كانت مصاريف مدرسة **الفنار** وباقي المدارس الرومية يدفعها أغنياء الروم، إما مباشرة وإما بالعقارات التي كانوا يهبونها للكنائس أو من إيجارات تلك العقارات أو الفوائد التي تجبى من ربا الأموال .

إلا أن كثرة انتشار المدارس الرومية في اسطنبول أدت إلى تكاليف مالية ومصاريف كثيرة فكانت إلى جانب ماسبق، تقوم البطريركية الرومية بمساعدات مالية كبيرة للمدارس الرومية، إضافة إلى ذلك كانت هناك تبرعات مالية كثيرة من قبل الجماعة الرومية وأملاك الكنائس وأوقافها وضرائبها وفلوس الشمع، بل ومن المسرحيات التي تقيمها المدارس ورسوم الطلاب(٢).

من أجل هذه الميزانيات الضخمة والتي تظهر بونا شاسعا بين أرقامها وبين ماكانت تبذله الدولة العثمانية على مجال التعليم، إلا أنها كانت ومع قلة مواردها (أعني الدولة العثمانية) تخصص جل تلك الميزانية لقضايا الدفاع والجيش والأمور المادية المحسوسة التي كانت تعد قريبة الفائدة ولحظية الحاجة، وكما يقال ليست معتمدة على بعد نظر وسعة أفق وتخطيط للمستقبل، هذه المفارقة بين الميزانيتين التي كان يبذلها أهل الذمة من الداخل والنصارى من الخارج على مجال التعليم توضح لنا الإشكال الذي قد يظهر غريبا للوهلة الأولى عند الباحث في البون الشاسع بين مستوى المدارس عند أهل الذمة وأبناء غير المسلمين من النصارى واليهود في الداخل وبين المدارس الحكومية، لا من حيث المقررات والطاقات التعليمية فحسب ، بل أيضا من حيث المناهج والكثرة ومن يتولون التدريس

---

(١) تبرع بمليوني دولار لمعهد روبرت وأوقف أوقافا ضخمة إلى الآن لخدمة التعليم . د. نجاتي .وانظر:كلام في الغزو الفكري ــ مجلة الأمة القطرية ع ١ ــ من السنة ٢ محرم ١٤٠٢هـ ص٧٤ ــ ٨٠

(٢) انظر :محمد صابان ص ١٣٣ إلى ١٤١ بتصرف .

والسمعة التي بلغت الأفاق ، وقد ذكر الدكتور **محمد محمد حسين** وغيره بأنه ما من زعيم قومي ولاقائد فكره ولاصاحب مذهب إلا ونجده متخرجا من تلك المدارس (١) .

ويحسن بنا الآن أن نسرد بعض تلك المدارس سواء كانت في دول المشرق العربي أو كانت في عاصمة الخلافة اسطنبول .

مدارس أهل الذمة في العراق :

١. **مدرسة اللاتين في بغداد :** تعتبر من أقدم المدارس التي أسسها مبشرون في العراق حيث قامت بجهد (الرهبانية الكرملية التي ظهرت في العراق منذ عام ١١٤٠هـ ــ ١٧٢٨م وكانت تسير على الأساليب التعليمية الكنسية دون تطوير واضح إلا في القرن التاسع عشر عندما هيأت نفسها لاستبدال مناهج التعليم الحديثة لتصبح في أواخر القرن التاسع عشر واحدة من مدارس العراق العالية، فبالإضافة إلى التعليم المجاني، كان الاهتمام بالتعليم من الصغر أي من الطفولة وكانت تستلم الطفل منذ صغره ولاتتركه إلا بعد أن تفتح له الطريق إلى المدارس العالية إن كان لديه الاستعداد (٢) .

٢. **مدرسة الرهبان الكرمليين للأطفال (ملحقة بالكنيسة) :**

عنى الرهبان الكرمليون بتأسيس مدرسة للأطفال ملحقة بالكنيسة . وكان متوسط عدد الطلبة بها حوالي المائة يدرسون اللغة العربية والمواد الاجتماعية والحساب، وكانت تقدم لهم وجبة غذائية والملابس الضرورية فضلا عن أن التعليم كان مجانيا (٣) .

أما المدرسة الثانوية فكانت تغطي مناهج المدارس الرسمية إلى جانبها العلوم اللاهوتية ،وحيث إن الخدمات التعليمية فيها كانت على مستوى عال كان خريجوا هذه المدارس أكثر خبرة وعلما من أقرانهم في المدارس الحكومية، والدليل على ذلك أنه كانت هناك زيادة مطردة في عدد الطلبة حيث كان عددهم سنة ١٣٠٦هـ ــ ١٨٨٩م ، ١٣٠٧هـ ــ ١٨٩٠م هو ٣٠ طالبا وما أن جاءت ١٣٢٣هـ ــ ١٩٠٥م حتى بلغ عددهم ١١٩ طالبا من الكلدانيين، و٢٣من السريان، و٢٣من الأرمن، و٣ من الروم الأرثوذوكس وغيرهم من الرعايا الأجانب من خارج الدولة من الفرنسيين والإنجليز والنمساويين

---

(١) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر .

(٢) انظر : سلامة جرجس ــ تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ص١٢٩ .

(٣) لوريمر : تاريخ الخليج العربي ج٦ ص ٣٢٩٣.

بأعداد فردية، بل أشار لوريمر إلى وجود عدد قليل من الطلبة المسلمين فيها أيضا (١) .

٣. **مدرسة الآباء الدومينيكان :**

كانت هذه المدرسة بالموصل وكانت عريقة في القدم حيث إن المسئول عن تأسيسها وتشغيلها هم الآباء الدومينيكان منذ ١١٦٣هـ ـ ١٧٥٠م وظلت مثل سابقتها مدرسة نصرانية تنصيرية تقليدية لم تؤثر أيضا في الخدمات التعليمية أو في تطويرها بشكل ملموس حتى إذا ما انتصف القرن التاسع عشر أخذت تستعد لإستقبال تيار التجديد، وفعلا لم يلبث أن انطلق منها تيار تنصيري تعليمي حديث المنهج . فقد استعير لها من الخارج مطبعة في ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م ، طبعت لها الكتب بالعربية والفرنسية والكلدانية، كما أنها فتحت أبوابها ليس فقط أمام نصارى العراق من كافة الطوائف وإنما كذلك أمام مسلمي العراق الشمالي . خاصة مسلمي الموصل (٢) .

ويكاد يكون قبول أبناء المسلمين في مدارس النصارى كما في هذه المدرسة في أول الأمر من الأمور المستنكرة في بغداد خاصة ، وظاهرة جديدة على المجتمع الإسلامي، فقد كان التنافر بين المسلمين والنصارى قويا جدا بحيث كان من العسير جدا أن يقبل مسلم الحاق ابنه بمدرسة نصرانية في ذلك الوقت مهما كان مستوى المدرسة .

والسبب في إقبال أبناء المسلمين في الموصل خاصة دون بغداد، أن عدد النصارى في الموصل يكاد يصل إلى ثمن تعداد السكان ، فكانوا بالكثرة مما جعل أثرهم يظهر على المسلمين المجاورين لهم بخلاف بغداد فقد كان النصارى على اختلاف طوائفهم يشكلون ١% من تعداد السكان (٣) .

٤. **مدرسة الكلدان في بغداد :**

كانت في السابق من المدراس الدينية النصرانية، فأدخلت عليها التحسينات والمواد الحديثة ابتداء من ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م وبوجه خاص اللغات الأوربية والشرقية،

---

(١) المرجع السابق ج٦ ص ٣٢٩٣.

(٢) عبد الرزاق الهلالي : تاريخ التعليم في العراق ص ١٩٩.

(٣) هذه الإحصاءات مأخوذة من كيسية . في تاريخه المفصل عن العراق ٣/ ١٧ ، ٣ / ٢٩٨.

واستمرت في أداء رسالتها حتى وقوع بغداد في يد الإنجليز في عـــام ١٣٣٥هـــ ـ ١٩١٧م (١) .

٥. **مدرسة الاتفاق الكاثوليكيي الشرقية في بغداد :**

وقد افتتحت هذه المدرسة عام ١٢٩٥هـــ ـ ١٨٧٨م . وكانت الغالبية العظمـــى مـــن طلبتها من الكلدان الكاثوليك وأقلية من السريان والأرمن ، واســـتمرت تقـــوم بمهمـــة تعليمية طائفية إلى أن ظهرت بعدها مدرسة السريان الكـــاثوليك عـــام ١٣١٢هـــ ـ ١٨٩٥م .

وكانت مدارس النصارى في الموصل أكثر منها في بغداد حيث كان عـــدد طـــلاب النصارى قريبا من ٥٠% من إجمالي عدد الطلاب الدارسين في المداس الإسلامية، بل قد يزيد، فكان للكاثوليك وحدهم ٣٠ ثلاثين مدرسة في الموصل وحدها :

١٠ منها للسريان يدرس بها ٦٢٥ طالبا .

١٧ مدرسة للكلدان يدرس بها ٨٢٠ طالبا .

٣ ثلاثة مدارس كلاتين يدرس بها ٧٤٠ طالبا .

٢ ومدرستان للبروتستانت بها ٩٠ طالبا .

٣ مدارس لليعاقبة بها ١٨٠ طالبا (٢) .

فمجموع مدارس النصارى في الموصل وحدها (٣٥) خمس وثلاثون مدرسة يدرس بها (٢٤٥٥) طالبا. يقابله نحو (٤٠٠٠) أربعة آلاف طالب مسلم .

وكما نلاحظ كثافة المدارس النصرانية في البصرة مثلها في بغداد ، نجد أن اليهود على العكس ، فتركز كثافتهم في بغداد العاصمة ، وتنتشر قلة منها في باقي نواحي العراق، وذلك يعتمد على التركيبة السكانية لكل قطاع، ولم يكن اليهودبمعزل عن هذا النشاط الثقافي وعـــن هذا الاهتمام بالتعليم ، فنشاهد في تلك الفترة حتى نهاية الثمانينات من القرن التاســـع عشـــر حركة نشطة جدا لدي اليهود في إنشاء المدارس على أيدي جمعية **الأليانس** الاســـرائيلي ، فقد سعت جاهدة لتدخل التعليم الحديث بين يهود العراق .

فبدأت ـــ هذه الحركة النشطة ـــ في بغداد حتى أصبح لليهود في بغداد خمسين مدرســـة ، ومدرستين خارجها، كما تأسست في بغداد مدرستان للفتيات اليهوديات وسبع مدارس فـــي

---

(١) عبد الرزاق الهلالي : تاريخ التعليم في العراق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) الصباغ : تاريخ العراق ٨٧/٣ ، عبد العزيز نوار : المرجع السابق (تاريخ العراق الحديث) ص ٢٨٦ .

ولاية البصرة ، ومدرستان في العمارة ، ومدرسة ومركز ديني لهم في (قفل) ، ومدرسة واحدة للبنين في الموصل . على أن المدارس التي أسستها (جمعية الأليانس الأسرائيلي) في كل من بغداد والبصرة والموصل والحلة والعمارة كانت لاتعتبر فقط أحسن مدارس اليهود الحديثة، وإنما كانت تعتبر من أحسن مدارس العراق حينذاك وقد ابتدأت هذه الجمعية في تأسيسها منذ سنة ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م (١) .

ونظرا للنظام والدقة والعناية بتوفير المدرسين والكتب المطبوعة اشتهرت هذه المدارس في العراق حتى أقبل عليها طلبة من المسلمين والنصارى (٢) .

وكان منهج الدراسة في المدارس اليهودية يقوم على أساس التعليم الغربي من حيث العناية بالرياضيات والطبيعيات والعلوم الإنسانية على عناية مناسبة باللغة العربية والعبرية والتركية إلى جانب اللغة الفرنسية والإنجليزية .

---

(١) انظر عبد العزيز نوار : ص ٣٢٣ نقلا عن صحيفة صدى بابل العدد ٣٩ السنة الأولى ٤ جماد الأول سنة ١٣٢٨م والعدد ٤٢ في ٢٥ جماد الأول ١٨٢٨م والعدد ١٠٩ السنة الثالثة في ٢٧ القعدة ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م .

(٢) عبد العزيز نوار : ص ٣٢٤ نقلا عن لمحات عن يهود العراق في العهد العثماني في مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ج٢ ، عدد٤ ص ٤٩-٨٧ .

مدارس أهل الذمة في مصر :

إن الكلام عن مدارس أهل الذمة في مصر موضوع ذو شقين، وأقصد أنه يلزمنا أن نتحدث عن مدارس النصارى أو الأقباط ، ثم المدارس اليهودية في مصر ومايتعلق بها من مباحث.

أما الشق الأول : وهو الحديث عن مدارس النصارى فإنه أشهر من أن يذكر أو يتتبع للتدليل على كثرتها وانتشارها وذلك لما هو معلوم من تاريخ مصر قديما وحديثا من أنشطة كبيرة للأقباط في كافة المجالات بما فيها المجال الثقافي والذي يعد التعليم أحد فروعه ، إلا أنه لا يخفى ما كان من نشاط الإرساليات التنصيرية والتي سعت جاهدة لتغيير مذهب الأقباط إلى مذاهب الإرساليات التي فيها التنافس بالوسائل المعروفة عند تلك الإرساليات *.

من أجل ذلك ــ وهو وضوح حجم النصارى ومالهم من أدوار ــ رأيت أن أقتصر على ذكر نشاط اليهود والجمعيات اليهودية فى التعليم العام والخاص ، والقليل من النصارى .

إن نجاح اليهود في المجال الاقتصادى في مصر خاصة بل سيطرتهم على أهم مجالات الاقتصاد في البلد من تأسيس أول بنك ومابعده والسيطرة على سوق الصرافة ، وأهم المصانع في مصر ... ماهى إلا ثمرة من ثمرات ارتفاع المستوى التعليمي بين اليهود المصريين .

ومع أن المدارس التابعة للطائفة اليهودية في مصر قبيل الاحتلال البريطاني كانت عبارة عن كتاتيب يتلقى فيها الفقراء من أبناء الطائفة اليهودية تعليمهم الديني، إلا أن الأثرياء منهم كانوا حريصين على إرسال أبنائهم للخارج إلى جامعات ومعاهد أوروبا، مما سهل على اليهود بعد افتتاح المدارس الحديثة تأمين الطاقات التعليمية المناسبة والمدرسين الأكفاء من أبنائهم المبتعثين، وهذا الوضع ــ من التعليم في الكتاتيب وإرسال النجباء إلى الخارج ــ جعل جمعية الاتحاد الإسرائيلي لاتهتم بإنشاء مدارس في مصر إلا منذ سنة ١٣١٣هـ ــ ١٨٩٦م(١) . بعد أن استفحل نشاط الإرساليات حتى على اليهود ، وكذلك لما لاحظ أثرياء اليهود والطبقة المتوسطة مايترتب على إرسال أبنائهم إلى الغرب من اكتساب عوائد غريبة هي أجنبية عن تقاليدهم ــ هذين السببين وغيرهما ــ جعلت أثرياء اليهود وجمعياتهم يشتغلون بافتتاح المدارس الخاصة بأبناء الطائفة في داخل مصر .

---

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ الإسرائلين . مطبعة المقتطف ص ١٩٨ .

* وسيأتي نماذج موسعة في الفصل الثالث ــ مبحث التنصير في مصر .

ذكر لبعض المدارس الخاصة باليهود في مصر :

افتتحت الإرسالية الاسكتلندية (وهي من أنشط الإرساليات من اليهود) مدرستين في الحي اليهودي بالإسكندرية ، واحدة للبنين وأخرى للبنات، وكان نجاح المدارس بين البنات أكثر منه بين البنين (١) .

١ــ مدرسة **سانت كاترين** بالإسكندرية .

٢ــ ومدرسة **تلمو دقوراه** في حارة اليهود وقد تأسست هذه المدرسة سنة ١٢٧٧هـ ــ ١٨٦١م ودرس بها أكثر من ٢٠٠ طالب في مرحلة الطفولة والابتدائي .

٣ــ ومدرسة **الطائفة الإسرائيلية** المجانية بالجمالية تأسست سنة ١٣٢٧هـ ــ ١٩٠٩م يدرس بها ١٢٢ طالب ، ١٥٧ طالبة .

وهما ــ أي المجانية ــ لأبناء الطبقة الفقيرة من اليهود، وتركز وجود هاتين المدرستين وغيرهما من المعاهد العلمية المجانية اليهودية في المناطق ذات الكثافة اليهودية .

٤ــ مدارس **الليسيه اليهودي** ــ وهذه خاصة بأبناء الأثرياء ــ وكان تأسيس هذه المدرسة في كل من القاهرة والإسكندرية . وكان لهذه المدرسة مصروفات تؤخذ من الدارسين .

٥ــ مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العام .. وكانت في شارع **النبي دانيال** ــ علم على شارع ــ في الإسكندرية، وأسست سنة ١٣١٤هـ ــ ١٨٩٧م ، وهذه المدرسة قد تكون من أشهر المدارس اليهودية، وكانت الفرنسية هي لغة التعليم فيها ، وكانت تضم جميع مراحل الدراسة من أطفال وابتدائي إلى ثانوي ، كما كان التعليم بها مختلطا بين الذكور والإناث (٢) .

وانظر في الملاحق (جدول) رقم (ب) يبين إحصاء التلاميذ والمدارس العمومية والخصوصية بالقطر المصري عام ١٣٢٤هـ ــ ١٩٠٦م ، ١٣٢٥هـ ــ ١٩٠٧م .

أما فيما يتعلق بهيئات التعليم الأجنبي، فنلاحظ أن المدارس الأجنبية كانت على اختلاف جنسياتها تتبع هيئات مختلفة يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع :

النوع الأول : مدارس الإرساليات والجمعيات الدينية ويغلب عليها الصفة الدينية .

---

(١) سعيدة محمد حسني : اليهود في مصر : ص ١٣٢ . (١٨٨٢-١٩٤٨م)

(٢) المرجع السابق : ص ١٣٤ ــ ١٣٥ .

النوع الثاني : المدارس التابعة للطوائف والجاليات الأجنبية ويغلب عليها الصفة العلمانية .

النوع الثالث : وكان يتبع الحكومات الأجنبية المختلفة .

النوع الرابع : المدارس الحرة التي أسسها الأفراد من الأجانب المقيمين بمصر ، وهي مدارس لاتدعو إلى دين بعينه ولاتمت إلى قومية بذاتها، وإنما تكون لأبناء البلاد المقيمين بمصر من وطنيين وأجانب .

والجدول رقم (ج) في الملاحق يبين لنا الهيئات المختلفة التي كانت المدارس الأجنبية تابعة لها في عام ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢، ١٣٦٨هـ ــ ١٩٤٩م ...

من الإحصاء السابق يتضح لنا أن المدارس التابعة للجمعيات والإرساليات الدينية كانت تمثل الجانب الأكبر، إذ بلغ عددها ٦٢% على وجه التقريب من جملة المدارس الأجنبية سنة ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م والبالغ عددها ٣٢٦ مدرسة يليها المدارس التابعة للطوائف والجاليات الأجنبية إذ كانت تمثل حوالي ٢٢% سنة ١٩٢٢م . ويزيد عدد المدارس التابعة للجمعيات الدينية فيصل إلى ٦٧% من جملة المدارس الأجنبية البالغ عددها ٣١٢ مدرسة سنة ١٣٦٨هـ ــ ١٩٤٩م ، بينما يبلغ عدد المدارس التابعة للطوائف حوالي ١٦% من جملة المدارس الأجنبية في هذا العام .وفيما يلي أهم هذه المدارس في مصر :

أهم المدارس الأجنبية في مصر :

أولا : المدارس اليونانية :

كانت المدارس اليونانية من أظهر المدارس الأجنبية في مصر وإن اختلفت عن المدارس الأخرى، فاللغة اليونانية لم تكن من اللغات الأجنبية التي يقبل المصريون على تعلمها ، واليونان لم يكن لهم أغراض تبشيرية كالبروتستانت والكاثوليك لتحويل أقباط مصر الأرثوذكس إلى مذاهبهم، مع ذلك كان للمدارس اليونانية شأن ملحوظ ، وذلك بسبب كثرة أفراد الجالية اليونانية في مصر ، وحاجتهم إلى مدارس لتعليم أولادهم تعليما يتفق مع أصول ثقافتهم القومية مع تزويدهم بما يؤهلهم للحياة في مصر (١) .

وكان هناك العديد من المدارس اليونانية التي أنشأتها الجالية اليونانية في الإسكندرية والقاهرة منذ القرن التاسع عشر، واستمرت الجالية في نشاطها فأنشأت بالإسكندرية مدرسة فنية سنة ١٣٢٤هـ ــ ١٩٠٦م ، وقد تحولت بعد ذلك إلى مدرسة تجارية باعتبارها أكثر فائدة للجالية، كما أنشأت في نفس العام مدرسة خاصة بالبنات اليتيمات ، وفي سنة

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجني في مصر . ص ٧٢.

١٣٤٣هـ ــ ١٩٢٥م افتتحت الجالية اليونانية بالمنصورة مدرسة تضـم أقسـاما ابتدائيـة وثانوية وتجارية وقسما للتلاميذ الداخلين(١).

وفي سنة ١٩٣٣م أنشأت **مسيو بيروند** مدرسة ابتدائية فنية لتعليم الحياكة ثم تحولـت المدرسة الأولى إلى مدرسة للتدبير المنزلى وفـي سـنة ١٣٦٠هـ ــ ١٩٤١م أضـافت للمدرسة قسما انجليزيا الغرض منه إعداد كاتبات على الآلة الكاتبة (٢) .

والجدول رقم (د) في الملاحق يبين لنا عدد المدارس اليونانية فـي مصـر والـهيئات التابعة لها وعدد التلاميذ بها سنة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م .

نلاحظ من هذا الجدول أن المدارس اليونانية كانت تقتصر علـى الطـلاب اليونـانيين أنفسهم بنسبة كبيرة جدا وملحوظة، والدليل على ذلـك أن الطـلاب اليونـانيين بـالمدارس اليونانية بلغت جملتهم في سنة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م (٨٥٥٧) طالب وطالبة، بينما كـان عدد طلاب بقية الجاليات الأجنبية بنفس المدارس وفي نفس السنة ٧٣٩ طالب وطالبـة أي حوالي ٨% من جملة تلاميذ المدارس اليونانية في هذه السنة على وجه التقريب . وجميـع هذه المدارس تستخدم اللغة اليونانية في تدريس المواد المختلفة، وجميعـها يسـير علـى المنهج اليوناني مع بعض التعديل لتلائم البيئة المصرية، ومن ذلك دراسـة اللغـة العربيـة والفرنسية في المرحلة الأولى دراسيا منذ السنة الثالثة الابتدائية، ثم تضاف اللغة الإنجليزيـة إلى مواد المرحلة الثانوية، وتقوم الجالية اليونانية بتزويد أفرادها بما يؤهلهم للحياة في مصر بإنشاء مدارس للتجارة مهمتها إعداد اليونانيين الملتحقين بها للعمل التجاري الخارجي الحـر، ومدة الدراسة بها ست سنوات يدرس فيها منهج الغرض منه الإعداد للحياة، وهذه المـدارس موجودة بالقاهرة والإسكندرية والمنصورة . كما أنشأت الجالية أيضا المدارس الليلية العاديـة والفنية بالقاهرة والإسكندرية وقد قصد بها تزويد الميكانيكيين الذين تركوا الدراسة واشـتغلوا بهذه الأعمال في الصباح بما يجعلهم ميكانيكيين مؤهلين ، ومدة الدراسـة بـهذه المـدارس خمس سنوات يصبحون بعدها مؤهلين فنيا لتعليم الحياكة والآلة الكاتبة والأعمال الكتابية إلى جانب الثقافة اليونانية (٣) .

من كل ذلك يتبين لنا أن المدارس اليونانية كانت مجتمعا يونانيا خالصـا إذ أن معظـم تلاميذها كانوا من اليونانيين (٩٨% سنة ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م ، ٨٢% سنة ١٣٧١هـ ــ

---

(١) نعيمة محمد عيد : النشاط التربوي الأجنبي وأثره في التعلم في الإقليم المصري ،رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية التربية – جامعة عين شمس سنة ١٩٦١م . ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق : ص ٨١.

(٣) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر . ص ٧٧ – ٧٨.

١٩٥٢م) وذلك مما يؤيد أن هذه المدارس لم يكن يقصد بها نشر مذهب معين أو ثقافة معينة ، فلو هي اهتمت بذلك لشملت مدارسهم طلابا آخرين غير اليونانيين (٢% سنة ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م ن ٨٢% سنة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م) وإنما قصد بها المحافظة على الثقافة واللغة اليونانية بين اليونانيين المقيمين بمصر .

ثانيا : المدارس الإيطالية :

كانت المدارس الإيطالية من أشهر المدارس الأجنبية في مصر، ذلك أن الإرساليات الكاثوليكية الإيطالية كانت أقدم الهيئات الأجنبية التي مارست نشاطا تعليميا في مصر (١) .

ففي عام ١٣٣٥هـ ــ ١٩١٧م أنشئت مدرسة إيطالية بالإسكندرية سميت مدرسة **ماريا أوزيليا** تدرس الإيطالية، وفي عام ١٣٤٥هـ ــ ١٩٢٧م تأسست في هليبوليس مدرسة إيطالية سميت مدرسة **اسكندر مزوني** على اسم الكاتب الإيطالى المشهور ، وكان عدد تلاميذها عند الافتتاح ٧٥ تلميذا ، وزاد العدد إلى ٢٠٠ في عام ١٣٤٨هـ ــ١٩٣٠م ، ثم إلى ٣٠٠ في عام ١٣٥٩هـ ــ١٩٤٠م ، ثم انخفض إلى ٢٨٥ في عام ١٣٦٤هـ ــ١٩٤٥م (٢) .

وكان بمصر إلى سنة ١٣٤٧هـ ــ ١٩٢٩م نوعان من المدارس الإيطالية : **النوع الأول** وهو المدارس الدينية وكانت تابعة للبابا في روما ، **والنوع الثاني** وهو المدارس العلمانية وقد أنشأتها الحكومة الإيطالية لمنافسة المدارس الدينية نكاية في البابا الذي كان على خلاف مع الحكومة استمر ما يقرب من الخمسين عاما ، فكانت الحكومة الإيطالية تحارب البابا والمدارس الدينية التابعة له ، وتشجع على إنشاء المدارس اللادينية لمنافسة مدارس البابا وقد ظل الخلاف قائما حتى سنة ١٣٤٧هـ ــ ١٩٢٩م ، وكفت الحكومة عن المجاهرة بعدائها للبابا وللمدارس الدينية ، وأصبحت تمدها بالمساعدات والإعانات، وبعد الحرب العالمية الثانية ألغيت جميع المدارس العلمانية فيما عدا مدرسة **دون بوسكر التي تأسست** على يد هيئة **الساليزيان**(٣).

والجدول رقم (هـ) في الملاحق يوضح لنا حجم المدارس الإيطالية **في عام ١٣٥١هـ ــ ١٩٣٢م وعام ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م.**

---

(١) محمد عبد الفتاح أبو الإسعاد : المرجع السابق ص ٣٩٨.

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٣) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ٨٢ - ٨٣ .

من الجدول السابق يتضح لنا أن عدد المدارس الإيطالية كان سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م (٥٥) مدرسة ثم تناقص سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م نتيجة للظروف السابقة ، حتى بلغ ٣٤ مدرسة وبذلك تكون درجة تناقصها ٣٨% عما كانت عليه أعداد سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م . وكان معظم هذه المدارس تابعة للجمعيات الدينية إذ بلغ عدد ما يتبعها من مدارس حوالي نصف عدد المدارس الإيطالية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م وأصبحت جميع المدارس الإيطالية في مصر تابعة للجمعيات الدينية سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م إذ أغلقت جميع المدارس الإيطالية العلمانية بعد الحرب العالمية الثانية (١) .

ثالثا : المدارس الفرنسية :

نستطيع أن نذكر أن المدارس الفرنسية في مصر انقسمت إلى قسمين هما :

أولا : مدارس تابعة للإرساليات الدينية وهدفها الأصلي نشر المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية مثل مدارس : **الرهابات ، والفرير ، والجزويت** .

ثانيا : مدارس الليسيه التابعة للبعثة المدنية الفرنسية ، وتنحصر أهدفها في نشر الثقافة الفرنسية وهي مدارس غير دينية . وإلى جانب هذه المدارس توجد بعض المدارس الخاصة التي تدار لحساب أصاحبها سواء أكانوا أفرادا أم جمعيات مثل مدارس الاتحاد الإسرائيلي ، وجيرار بالإسكندرية ، وموران بالقاهرة ، وهي ليست في أهمية النوعين السابقين وإن كانت تخدم فكرة نشر الثقافة الفرنسية (٢) .

والواقع أن هذه المدارس الفرنسية ـ سواء منها التابع للإرساليات الدينية ، أو الخاصة ، أو التابع للبعثة المدنية الفرنسية ـ قد زاد عددها في مصر طوال فترة الدراسة حتى صار عددها مايقرب من نصف عدد المدارس الأجنبية في مصر جميعها، كما زاد عدد تلاميذها وتلميذاتها أيضا عن عددهم في غيرها من المدارس الأجنبية كما يتضح ذلك من الجدول رقم (١) بالملاحق.

من الإحصاء السابق يتضح لنا أن عدد المدارس الفرنسية في مصر سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م كان ١١٥ مدرسة كان عدد التلاميذ المصريين بها أكثر من نصف عدد التلاميذ بالمدارس الفرنسية (٥٣% من جملة التلاميذ بها) واستمرت المدارس الفرنسية في الزيادة حتى وصل عددها إلى ١٨٩ مدرسة سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، وبهذا تصل زيادتها إلى ٦٤% عما كانت عليه أعدادها سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، ونتيجة لتلك الزيادة زاد عدد

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٣٦ .

التلاميذ من المصريين والأجانب لها على السواء إذ بلغ عدد المصريين بها مـــايقرب مـــن ٧١% من مجموع التلاميذ بها سنة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م كما زاد عدد التلاميذ الأجانب بها أيضا فبلغ حوالي ٢٩% ، ويرجع ذلك إلى أن المدارس الفرنسية كانت تـــهدف إلـــى نشـــر الثقافة واللغة الفرنسية بين أكبر عدد ممكن من الأجانب والمصريين كما اتضح لنا ذلك مـــن أعدادها وانتشارها وزيادة عدد الطلبة الأجانب والمصريين فيها بحيث إن المدارس الفرنسـية كانت الأولى دائما من حيث زيادة عدد الطلبة بها على جميع المدارس الأجنبية ، غـــير أن عددها أخذ في التناقص حتى بلغ سنة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م حوالي ١٢١ مدرسة أي حوالي ٤٣% من جملة المدارس الأجنبية البالغ عددها في العام الأخير ٢٨١ مدرسة، وبهذا تكـــون نسبة تناقصها مايقرب من ٣٦% عما كانت عليه أعدادها سنة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م ويرجع ذلك إلى التناقص العام الذى طرأ على عدد المدارس الأجنبية نتيجة للظروف السابقة . غـير أن عدد التلاميذ من المصريين قد استمر في الزيادة حتى بلغ مايقرب من ١١% عما كـــانت عليه أعدادهم سنة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م وذلك لأن المدارس الفرنسية قد افتتحت العديد من الأقسام التي تتبع المناهج المصرية من ناحية ومن ناحية أخرى مع استمرار اهتمام فرنســـا بنشر ثقافتها في مصر .

نخلص من ذلك إلى أن عدد المدارس الفرنسية وإن كان قد نقص عن ذي قبـــل إلا أن نسبتها لازالت عالية بالنسبة للمدارس الأجنبية الأخرى وعدد التلاميذ بها .

ولما كانت المدارس الفرنسية بجميع أنواعها كبيرة العدد، لذلك ســـوف نتنـــاول أهـــم مدارس كل نوع من نوعيها الهامين الديني والمدني ، أي ماهو تابع للبعثة المدنية الفرنسية ، وماهو تابع للإرساليات الدينية .

أولا : مدارس الليسيه(١)التابعة للبعثة المدنية الفرنسية :

بدأت فكرة إنشاء مدرسة ليسيه بمصر منذ عام ١٢٩٧هـ ــ ١٨٨٠م تـــراود بعـــض أعضاء الجالية الفرنسية في مصر ولكنها لم توضع موضع التنفيذ إلا في عام ١٣٢٠هـــ ــ ١٩٠٢م غير أن النشاط الفعلي بدأ عام ١٣٢٤هـ ــ ١٩٠٦م بمدرسة ليسيه خاصة صغيرة بها ٤٠ تلميذا في العام الدراسي ١٣٢٥هـ ــ ١٩٠٧م ، ١٣٢٦هـــــ ــ ١٩٠٨م وكـــان الدافع على تأسيس هذه المدرسة هو رغبة أعضاء الجالية الفرنسية بمصر الذين لايريـــدون إرسال أبناءهم لفرنسا أو إلحاقهم بمدارس الفرير والجزويت في إنشاء مدرسة لـــهم بمصـــر ويرغبون في تعليمهم تعليما مدنيا .

---

(١) يقصد باليسيه : من ناحية استمرار فرنسا

وقد أنشئت ليسيه بباب اللوق سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م وتم افتتاحها سنة ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م فأصبحت من أهم مدارس الليسيه ، وكانت تعد للبكالوريا الفرنسية ودبلوم التجارة والشهادة الراقية للأدب الفرنسي، وأصبح لها فروع مثل ليسيه البنين بشارع الشيخ ريحان ، وليسيه الحضانة ، وليسيه البنات بشارع القاصد ، والكلية الفرنسية بشارع الظاهر . وتتميز هذه المدارس بارتفاع نسبة الأجانب بها إذ أنها بلغت ٧٥% في ليسيه باب اللوق ، ٩٠% في ليسيه الظاهر(١) .

وقد اتسع نشاط البعثة المدنية الفرنسية فأنشأت عدة مدارس أخرى في المعادي والزمالك والظاهر والشاطبي بالإسكندرية، وهذه المدرسة الأخيرة كان يقوم بإدارتها **المسيوفير** ، يعاونه طائفة من الأساتذة الفرنسيين ، وتسير هذه المدرسة على المنهج الفرنسي مع إدخال بعض التغييرات الملائمة في مناهج الدراسة ، وكانت المدرسة تنقسم إلى عدة أقسام تبدأ بقسم الروضة للبنين والبنات ومدته ثلاث سنوات ، وقسم ابتدائى ومدته ثلاث سنوات أيضا ، وقسما ثانويا ينتهي إما بدبلوم نهاية التعليم الثانوي ، أو بالامتحان في شهادة البكالوريا الفرنسية، ويلتحق الناجح في هذا الامتحان بكلية الحقوق الفرنسية ، والمدرسة تعتمد في نفقاتها على المبلغ الذي تدفعه الإدارة العامة الفرنسية لها ومصروفات التلاميذ الملتحقين بها (٢) . وكان عدد التلاميذ بها ٥٠ بقسم الروضة و١٢٠ بالابتدائي ، ٣٠٩ بالقسم الثانوي ، وأضيفت إليها أقسام أخرى كان بالقسم التجاري ١٨٣ ، وبالقسم الزراعي ٤٢ ، وبالقسم الصناعي ٤١ تلميذا (٣) .

وفي عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م أنشأت البعثة المدنية الفرنسية مدرسة أخرى بمصر الجديدة سميت مدرسة الليسيه الفرنسية المصرية، وذلك بفضل التعاون بين المصريين والفرنسيين حيث اكتتبوا بمبلغ ١٢٠ ألف جنيه قطعة الأرض التي أقيمت عليها المدرسة ، وفي ١٣٥٦هـ ٥ أكتوبر ١٩٣٧م افتتحت مدرسة الليسيه أبوابها وكان عدد التلاميذ بها ٢٣٣ تلميذا (٤) ، وكان بالمدرسة عدة أقسام حيث بلغ عدد التلاميذ بها سنة ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م ،١٣١ بقسم الروضة ، ١٨٩ بالقسم الابتدائي ، ٢٠١ بالقسم الثانوي ، ٧٤ طالبا بالقسم الفني والصناعي (٥) .

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٦١.

(٢) عبد الحميد مطر : التعليم والمتعطلون في مصر ، الطبعة الأولى الإسكندرية ١٩٣٩م . ص ٨٢ / ٨٣ .

(٣) وزارة المعارف العمومية : المراقبة العامة لإحصاء شؤون التعليم ، إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم للسنة الدراسية (١٩٤٣ - ١٩٤٤م) المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦م . ص ٤٥ .

(٤) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٦٢.

(٥) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم ١٩٤٣م . ص ٤٤.

ولقد أوضح **المسيو بسنار** السكرتير العام للبعثة الحرة الفرنسية في مصر أغراض المدارس التي أنشأتها هذه البعثة فقال : أن الغرض الأساسي الذي تسعى إليه هو نشر الثقافة الفرنسية في أجمل صورها في مصر حيث توجد مدارس ومعاهد البعثة ، وأن هذا الغوض لايمكن أن يتحقق إلا إذا كان هناك انسجام تام بين الثقافة الفرنسية وبين ثقافة مصر ، ولايمكن الوصول إلى هذا الغرض إلا بالقضاء على ضعف تعليم اللغة العربية في معاهد الليسيه الفرنسية وذلك عن طريقين هما ..

أولا : بإنشاء قسم مصري في معهد الليسيه يتبع مناهج التعليم المصرية .

ثانيا : أن يكون مدرسوا اللغة العربية مصريين للتعليم وفق أصول التربية الحديثة ، وإنشاء فصول خاصة للطلبة الذين يدرسون اللغة العربية في مدارس الليسيه الفرنسية حتى يصلوا إلى درجة إجادتها ، وبذلك تصبح اللغة العربية في هذه المدارس مادة أساسية تساعد على نشر الثقافة الفرنسية في مصر (١) .

ثانيا : مدارس الإرساليات الدينية :

وكان هدفها الأصلي نشر المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية، وكانت تمثل الغالبية العظمى من المدارس الفرنسية إذ بلغ عدد المدارس الفرنسية التابعة للجمعيات الدينية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م (٩٦) مدرسة أي حوالي ٨٣% من جملة المدارس الفرنسية في هذا العام ، وفي عام ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٧م كان عددها (١٦٧) أي مايقرب من ٨٨% من جملة المدارس الفرنسية في هذا العام والبالغ عددها (١٨٩) مدرسة ، وزاد عدد المدارس الفرنسية الدينية حتى وصل عام ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م إلى (١١١) مدرسة أي ٩٢% من جملة المدارس الفرنسية في هذا العام والبالغ عددها (١٢١) مدرسة .

أهم هذه المدارس في مصر هي :

١ـ **مدارس الراهبات** : وقد وفد إلى مصر ثلاث وعشرون إرسالية دينية نسائية منذ عام ١٢٦٠هـ ـ ١٨٤٤م حتى عام ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٣م ، وكان أهم هذه الإرساليات التي قامت بمجهود ونشاط تعليمي بمصر راهبات الراعي الصالح(٢) ، وراهبات سيدةالرسل ، وراهبات الميردي ، وراهبات القلب المقدس .

أـ مدارس رهابات الراعي الصالح :

---

(١) كوكب الشرق : العدد ٢٦٩٣ في ١١ مارس ١٩٣٤م السنة العاشرة ص ١.

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق . ص ١٣٨.

أصبح لهذه الجماعة عدة مدارس بمختلف مدن الوجه البحري كالقاهرة والإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية والسويس وبورفؤاد ، وكانت أكبر تلك المدارس مدرسة راهبات الراعي الصالح بشبرا وقد بلغ عدد تلميذات هذه المدرسة سنة ١٣٦٠هـ ــ ١٩٤١م (٣٧٠) تلميذة . ومدرسة الراعي الصالح بالموسكي التي نمت وأصبحت المركز الرئيسي لرهابات الراعي الصالح وقد بلغ عدد تلميذاتها سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م (٤٥٠) تلميذة (١) .

ب ــ مدارس راهبات سيدة الرسل :

وأهم مدارسها مدرسة الراهبات سيدة الرسل بالزيتون، وكانت تنقسم إلى عدة أقسام بلغ عدد تلميذاتها سنة ١٩٤٣م بقسم روضة الأطفال (٢٤٨) تلميذة ، وبالقسم الابتدائي(٨٥) تلميذة وبالقسم الثانوي (٣٣) تلميذة ، وبلغ عدد التلميذات براهبات سيدة الرسل بمصر الجديدة (٧٤) تلميذة بروضة الأطفال ، (١١٨) تلميذة بالابتدائي ، بينما كان عدد التلميذات براهبات سيدة الرسل بشبرا حوالي (٢٢٥) تلميذة (٢) .

ج ــ راهبات قلب يسوع أو القلب المقدس :

وافتتحت عدة مدارس لها في مصر مثل راهبات القلب المقدس بمصر الجديدة وبلغ عدد التلاميذ سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م (١٦٥) تلميذة ، وكلية القلب المقدس بالزيتون (٧٩) تلميذا بروضة الأطفال ، (٨٥) تلميذا بالابتدائي ، (٢٣) تلميذا بالثانوي سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م(٣).

٢ــ مدارس الفرير :

اتسع نشاط هذه الجماعة خلال فترة الدراسة وانتشرت المؤسسات التابعة لها في كل مكان وتوافد عدد كبير من رهبان هذه الجماعة وعملوا في مدارسها ، وأهم هذه المدارس ، الكلية الفرنسية بالظاهر (كلية دي لاسال) أنشئت هذه الكلية عام ١٣٢٢هـ ــ ١٩٠٤م وفتحت عام ١٣٢٣هـ ــ ١٩٠٥م للدراسة، وكانت تحتوى على عدة أقسام بلغ عدد التلاميذ لكل قسم منها سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م بروضة الأطفال (٥٠) تلميذا، وبالابتدائي (١٢٥) تلميذا، وبالثانوي (١١٤) تلميذا، وقد أدخلت مدارس الفرير ــ ومن بينها هذه المدرسة ــ النظام المصري مضافا إلى القسم الفرنسي، وأصبح القسم الجديد يعد للشهادة الثانوية العامة

---

(١) وزارة المعارف العمومية : إدارة الإحصاء ، إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم في السنة الدراسية (١٩٤٦ - ١٩٤٧م) المطبعة الأميرية ١٩٥٤م . ص ٧٤ ــ ٧٥.

(٢) إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م . ص ٤٤.

(٣) إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٤.

، فالمناهج تقابل المناهج المصرية وإنما باللغة الفرنسية ، وتدرس اللغة العربية كلغة ثانية بعد الفرنسية ، أما القسم الفرنسي فلم تكن هناك دراسة للغة العربية على الإطلاق (١) ، وقد بلغ عدد التلاميذ سنة ١٩٤٦م بالقسم المصري (١١٤) تلميذا ، وبالقسم الفرنسي (١٧٥) تلميذا (٢) ، وقد بلغ أعضاء هيئة التدريس في هذه الكلية (٤٢) عام ١٣٦٤هـ ــ ١٩٤٥م منهم (١٩) من رجال الدين، (٢٣) من المدنيين، ولقد كانت هناك فروع كثيرة لمدارس الفرير بالقاهرة وغيرها من مدن القطر المصري (٣).

وكانت أهم مدارس الفرير بالإسكندرية خلال فترة الدراسة **كلية سان مارك** والتي تأسست سنة ١٣٤٦هـ ــ ١٩٢٨م بعد أن ضاقت كلية سانت كاترين بعدد الطلبة وبدأت تحتل المركز الذي كانت تحتله كلية سانت كاترين ، فقد بلغ عدد أعضاء هيئة التدريس بها(٩٢) في عام ١٩٤٥م منهم (٣٢) من رجال الدين و(٦٠) من العلمانيين (٤)، وبلغ عدد التلاميذ بهذه الكلية سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م (٢٣٠) تلميذا بروضة الأطفال و(٢٣٦) تلميذا بالابتدائي و(٣٩٦) تلميذا بالثانوي و(٩٠) تلميذا بالقسم التجاري ، (٢٧) تلميذا بالقسم الخصوصي(٥) ، وكانت الكلية تأخذ بالمنهج المصري الذي تضعه وزارة المعارف المصرية إلى جانب القسم الفرنسي ، والقسم الفرنسي يؤهل تلاميذه للالتحاق بالجامعات الفرنسية (٦) ، وقد بلغ عدد التلاميذ الذين يدرسون طبقا للمناهج المصرية (٢١٣) تلميذا، بينما كان عدد التلاميذ الذين يدرسون وفقا للمناهج الفرنسية (٧٦٦) تلميذا . وتعتبر كلية سان مارك من أكبر مدارس الفرير ، وهي أخر مدرسة كبيرة أنشأها الفرير في مصر .

٣ــ مدارس الآباء الجزويت :

ومن أهم مدارسها مدرسة **العائلة المقدسة بالفجالة** التي تأسست سنة ١٣٠٦هـ ــ ١٨٨٩م ، ونتيجة لزيادة عدد الطلاب قاموا بافتتاح مدرستين صغيرتين هما مدرسة **بالقبيسي** في عام ١٣٤٨هـ ــ ١٩٣٠م وتديرها راهبات نوتردام، وفرعا آخر في مصر الجديدة عام ١٣٥٢هـ ــ ١٩٣٣م وضعت أيضا تحت إشراف هؤلاء الراهبات، وقد بلغ عدد تلاميذ مدرسة العائلة المقدسة وملحقاتها سنة ١٣٤٥هـ ــ ١٩٢٧م خمسمائة ، وصولا

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٧٨.

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٤٩.

(٣) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٤) إحصا عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م ، ص ٧٧.

(٥) الأهرام : العدد ١٩٠٤٣ في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٧م السنة ٦٣ ، ص ١١.

(٦) إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م ، ص ٧٧.

إلى الستمائة بعد عشرة أعوام والألف في عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٤٨م، وكانت تعد تلاميذها للبكالوريا المصرية وأيضا للبكالوريا الفرنسية (١).

وكانت مدرسة العائلة المقدسة تفتح أبوابها لجميع الجنسيات فقد كان بها سنة ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م (٦٠٠) تلميذا ينتمون إلى أربع عشرة دولة من : مصر ـ فرنسا ـ لبنان ـ سوريا ـ إيطاليا ـ اليونان ـ إنجلترا ـ سويسرا ـ أسبانيا ـ يوغسلافيا ـ تركيا ـ تشيكوسلوفاكيا ـ روسيا ـ إيران(٢)، وفي عام ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م بلغ عدد التلاميذ في مدرسة العائلة المقدسة بمصر الجديدة (١١٩) تلميذا في روضة الأطفال ، (١٤٨) تلميذا بالابتدائي ، (٢٢) بالثانوي،(٧) بالقسم التجاري ، وفي مدرسة العائلة المقدسة بالخرنفش (٢٧٣) تلميذا ، وفي مدرسة العائلة المقدسة الصغيرة بالقبيس (٢٢٤) تلميذا (٣) .

وهكذا كانت المدارس الفرنسية منتشرة في جميع القطر المصري سواء ماكان تابعا منها لجمعيات دينية أو مدارس علمانية ، وكان هدفها نشر الثقافة الفرنسية والدعاية للمذهب الكاثوليكي بين أقباط مصر ، وقد شملت هذه المدارس أقساما فرنسية فقط تتبع مناهج فرنسا واللآخرى أقساما مصرية وفرنسية ، كما شمل بعضها الآخر أقساما تجارية وأخرى زراعية ، وكانت هذه الأقسام الزراعية والتجارية على المستوى الثانوي وليست على المستوى العالي، وكان خريجوها لايقبلون بجامعات مصر وفرنسا ، ولكن كانت البنوك الفرنسية في مصر توظفهم بها، فكان خريجوا القسم التجاري ينتظمون كموظفين في بنك الكريدي ليونيه وغيره (٤) .

رابعا : المدارس الإنجليزية :

بدأت المدارس الإنجليزية في مصر بداية دينية قبل الاحتلال البريطاني لها ، ثم تحولت إلى نشر الثقافة الإنجليزية والمحافظة على عادات وثقافات ولغة الجالية الإنجليزية في مصر ، فبعد أن زاد البريطانيون في مصر وتشعبت مصالحهم كان عليهم أن يزودوا أبناءهم بثقافة إنجليزية تعوضهم عما كانوا سيأخذونه لو أنهم تركوا في بريطانيا وذلك بتعليم أبنائهم على نفس النظم التربوية الإنجليزية، وعلى يد أساتذة إنجليز يهيئون لهم الجو البريطاني التعليمي ، وقد جرت عادة القادرين من البريطانيين بمصر على إرسال أبنائهم إلى

---

(١) بيانات سجلات مدرسة العائلة المقدسة بالفجالة (زيارة في ١٨ /١٩٦٨/١٠م) من تقرير مائة عام في خدمة التربية في مصر ١٨٧٩ - ١٩٧٩م ، ص ١٤/١٣.

(٢) المصدر السابق : ص ٩٥.

(٣) إحصاء عن عدد التلاميذ والفصول بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م ، ص ٤٤.

(٤) جرجس سلامة : المرجع السابق ، ص ١٦٣.

بريطانيا للتزود بالثقافة الإنجليزية هناك ، ولما كان هناك عدد من أبناء الجالية الإنجليزية لايستطيع آباؤهم تحمل نفقات إرسالهم لبريطانيا ، فقد وجد أفراد الجالية البريطانية بمصر حاجاتهم الماسة إلى إنشاء مدارس إنجليزية للقيام بغرض تزويد أبناء الجالية بتقاليد وعادات أسرهم وبلادهم إلى جانب تعليمهم (١).

وتنقسم المدارس الإنجليزية في مصر إلى قسمين :

١ــ مدارس مدنية قامت دون أغراض دينية وإنما لخدمة أبناء الجالية الإنجليزية وأهمها بالإسكندرية كلية فكتوريا ، وكلية البنات الإنجليزية والمدرسة البريطانية بالقاهرة .

٢ــ مدارس دينية تابعة لجمعيات وإرساليات دينية بروتستانتية كالمدرسة الإسكتلندية التابعة للإرساليات الإسكتلندية ، والكلية الأسقفية بالقاهرة التابعة للإرساليات الإنجليزية .

والجدول رقم (٢) بالملاحق يبين لنا تطور المدارس الإنجليزية في مصر وعدد تلاميذها في سنوات ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م ، ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م ، ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م .

من الجدول السابق يتبين لنا أن المدارس الإنجليزية كانت على الرغم من مركز إنجلترا في مصر لاتصل إلى مرتبة المدارس الفرنسية ، فقد بلغ عددها سنة ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م (٣٣) مدرسة ، بينما كان عدد المدارس الفرنسية في هذا العام (١١٥) مدرسة أي مايقرب من ثلاثة أضعاف المدارس الإنجليزية في مصر ، غير أن عددها زاد سنة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م إلى (٤٣) مدرسة أي حوالى ١٠% من جملة المدارس الأجنبية في هذا العام والبالغ عددها (٤١٠) مدرسة ، ثم أخذ عددها في التناقص حتى بلغ (٢٦) مدرسة سنة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م وبذلك تصل درجة تناقصها إلى ٣٩% عما كانت عليه أعدادها سنة ١٣٥٦هـ ــ ١٩٣٧م ، غير أننا نلاحظ تفوق عدد التلاميذ المصريين على الأجانب بالمدارس الإنجليزية إذ بلغ عددهم حوالي ٦٠% من جملة التلاميذ بها سنة ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م ، واستمر في تفوقه حتى سنة ١٣٧١هـ ــ ١٩٥٢م ، وذلك راجع إلى اهتمام المدارس الإنجليزية بنشر الثقافة الإنجليزية بين المصريين وغيرهم من الأجانب . ليس أدل على ذلك من اهتمام مجلس العموم البريطاني بضرورة زيادة عدد المدارس الإنجليزية في مصر لخلق الشعور الموالي للبريطانيين وهذا ماجاء في سؤال **جورج بوتر** لوزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية يطالبه بزيادة عدد المدارس البريطانية في مصر وإمدادها بما تحتاج من أعضاء هيئة التدريس البريطانيين حتى يتهيأ لأبناء الجالية البريطانية في مصر

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ٩٣.

تعليم أبنائهم تحت نظام يطابق المنهج الإنجليزى والجو التعليمي البريطاني حتى لايرسلوا أبناءهم إلى إنجلترا ، وقد أجاب الوزير مستر **نوبل بيكر** قائلا : هناك أكثر من (١٢) مدرسة إنجليزية في مصر بها مايزيد على (٣٥٠٠) تلميذا من البريطانيين والمصريين والجنسيات الأخرى، وإن معظم أعضاء هيئة التدريس بها من البريطانيين بالرغم من المصاعب التي تواجه إرسال المدرسين البريطانيين إلى مصر .

أهم المدارس الإنجليزية في مصر هي :

١ــ كلية فكتوريا :

أسست هذه الكلية سنة ١٣٢٠هـــ ١٩٠٢م بمدينة الإسكندرية تخليدا لذكرى الملكة فكتوريا ملكة إنجلترا بعد أن افتتح لها اكتتاب عام أسسه الإنجليز المقيمون في القطر المصري ، وساهم فيه أصدقاؤهم الإنجليز في إنجلترا ، كما ساهم فيه أيضا كثير من الأجانب المقيمين في مصر وبعض المصريين ، وقد أسست هذه الكلية على أن تسير على غرار المدارس الإنجليزية ببرنامج إنجليزي وهيئة تدريس اشترط في أفرادها أن يكونوا إنجليزا، وأن يحملوا مؤهلات إنجليزية إلا من يدرس لغة إضافية أجنبية كالفرنسية أو العربية ، كما اشترط كذلك أن تكون لغتها الأساسية ، وأن تكون تحت رعاية الحكومة البريطانية (١) .

وبدأت الكلية عملها بتدريس اللغة العربية ــ اللغة الإنجليزية ــ اللغة الفرنسية ــ مبادىء الرياضة ــ التاريخ ــ الجغرافيا ــ الرسم ــ التربية البدنية ، وكانت الدراسة من الساعة الثامنة صباحا إلى الرابعة والنصف مساء والأجازة الأسبوعية يوم الأحد والدراسة يوم السبت نصف يوم ، وقد حددت المصروفات للتلميذ مابين ٨ ــ ١٤ سنة بمبلغ ثلاثة جنيهات شهريا بما في ذلك الغذاء ، وكان عدد التلاميذ بها عند افتتاحها خمسة وعشرين منهم إنجليزي واحد . وهكذا فإن المدرسة التي افتتحت من أجل الجالية الإنجليزية بمصر لم يكن بها سوى إنجليزي واحد (٢) .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٢هـــ ١٩١٤م تحولت المدرسة إلى مستشفى باسم المستشفى الإنجليزى العام رقم ١٧ وذلك فيما بين عامي ١٣٣٣هـــ ١٩١٥م، ١٣٣٧هـــ ١٩١٩م وانتقلت الكلية إلى المباني القديمة بحي المازايتا وبلغ عدد

---

(١) مجلس النواب : الهيئة النيابية الثامنة ، دور الانعقاد العادي الثالث ، المجلد الثاني ، الجلسة ٣٦ في ٢٣ مايو ١٩٤٤م. ص١٦٢٨.

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٧٢ - ١٧٣.

التلاميذ بها (٢٣٥) تلميذا عام ١٣٣٧هـ ــ ١٩١٩م منهم (١٧٠) تلميذا بالقسم الداخلـــي ، منهم خمسون تلميذا من أصل إنجليزي (١).

واستمرت المدرسة في الازدهار،فالمدرسة كما قال السيرمايلزلاسيون سنة ١٣٥٩هـــ ــ ١٩٤٠م مدرسة إنجليزية عامة نقلت إلى مصر وقبلها المصريـون جـزء مـن الحيـاة المصرية والنجاح الذي أحرزته هذه المدرسة بإرشاد المدعو لايس والدكتور ريد في تقديـم الآراء الإنجليزية إلى مصر وصهرها بين جدرانها أحسن عنـاصر الحيـاتين الإنجليزيـة والمصرية ومزجهما معا إنما هو دحض واضح لذلك القول الذي لاينطوى إلا على نصـف الحقيقة،الشرق شرق والغرب غرب .

وقد استمرت المدرسة في الازدهار حتى سنة ١٣٥٨هــــ ــ ١٩٣٩م حيـث قـامت الحرب العالمية الثانية فأصبحت الكلية مرة أخرى مستشفى باسم المستشفى العام رقـم ٦٤ ، وانتقلت الكلية إلى سان استفانو وبسبب الغارات الجوية نقل التلاميذ القسم الداخلي وعددهـم (٧٠) تلميذا إلى المدرسة الإيطالية بشبرا بالقاهرة وانتقل معهم (٩٠) تلميـذا مـن القسـم الخارجي، هذا مع استمرار الدراسة في سان استفانو بعدد من التلاميذ بلغ (٣٦٠) تلميذا مـن القسم الخارجي، ولقد عادت الكلية إلى مكانها سنة ١٣٦٣هــ ــ ١٩٤٤م بينما استمر الفرع الذي انتقل إلى القاهرة حيث أصبح مدرسة مستقلة بالقاهرة سـنة ١٩٤٨م سـميت بكليـة **فيكتوريا بالمعادي** (٢) .

وأما الكلية الأصلية بالإسكندرية فقد أصبحت تضم تلاميذ من جميع الجنسيات، ففي عام ١٣٦٣هـ ــ ١٩٤٤م كان بها (٤٠٠) تلميذا منهم (٥٠) من المسلمين ، بينما كـان بفـرع القاهرة (٣٦٠) تلميذا منهم (١٤٠) مسلما (٣) ، وفي عام ١٣٦٥هــ ــ ١٩٤٦م بلغ عـدد تلاميذ كلية فكتوريا بالإسكندرية (٦٥٧) تلميذا منـهم (٤٤) بروضـة الأطفـال ، (٣٤٦) بالابتدائي ، (٢٦٧) تلميذا بالثانوي كانوا جميعهم يدرسون وفقا للمناهج الإنجليزية المماثلـة للمناهج المتبعة في إنجلترا . بينما كان عدد التلاميذ بكلية فكتوريا بالقـاهرة (٤٤٩) منـهم (١٥٤) بالروضة ، (١٤٣) بالابتدائي ، (١٥٢) بالثانوي وأيضا يدرسون وفقا لمناهج الكلية الإنجليزية (٤) .

---

(١) مجلس النواب : نفس الجلسة السابقة ص ١٦٨٢.

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٧٧

(٣) مجلس النواب : الجلسة السابقة ص ١٦٢٩.

(٤) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٤ ــ ٧٧.

وهكذا كانت تلك المعاهد الإنجليزية تقتصر على تعليم أبناء الرعايا البريطانيين مع قبول بعض الأوربيين والمصريين وغيرهم بحيث لاتزيد على ٢٠% حتى لاتستطيع الأقلية من غير الإنجليز أن تؤثر على الطابع البريطاني للدراسة ، وإنما هي التي تؤثر فيها ، وكانت هيئة التدريس إنجليزية والمناهج على نظام المدارس المماثلة بإنجلترا، ويمكن للطالب أن يلتحق بإحدى جامعات إنجلترا، من أجل ذلك كان على الطلبة أن يتقدموا في نهاية مرحلة تعليمهم إلى امتحانات معتمدة بإنجلترا، ولهذا الغرض نشأت امتحانات ومناهج أوكسفورد وكمبردج ولندن(١).

وهكذا فإن تلاميذ الكلية يحضرون امتحانا يعده قلم الامتحانات التابع لكليتي اكسفورد وكمبردج اسمه **The Oxforf & Cambridge Schools Examinaiton Board** وهو امتحان يعقد لجميع المدارس التي تسير على هذا النمط يحق للناجح فيه الالتحاق بالجامعات الإنجليزية (٢) ، ولقد اعترفت الحكومة المصرية بشهادة كلية فكتوريا وتعامل حاملها معاملة حامل البكالوريا المصرية فيحق له الدخول في خدمة الحكومة المصرية ، كما يحق له الالتحاق بجامعة فؤاد الأول وفاروق بعد أداء امتحان في اللغة العربية (٣) .

٢ـ المدرسة الإنجليزية بالقاهرة :

بدأت هذه المدرسة عام ١٣٣٤هـ ــ ١٩١٦م لكي يجد البنون والبنات من البريطانيين في الشرق الأدنى فرصة البقاء على جنسيتهم وتزويدهم بما يجعلهم يقومون بنصيبهم نحو اتحاد ورقي الإمبراطورية التي هم أعضاء فيها ، وحتى عام ١٣٣٤هـ ــ ١٩١٦م لم يكن بالقاهرة تعليم إنجليزي لتعليم أولاد البريطانيين الذين يصعب على أولياء أمورهم إرسالهم إلى إنجلتر لتعليمهم وخاصة أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث كانت هناك صعوبات في المواصلات بين إنجلترا ومصر، على الرغم من أن الجاليات غير الإنجليزية كانت لها مدارس خاصة بالقاهرة ، والجالية الإنجليزية بالذات كانت لها مدارس على النمط الإنجليزي بالإسكندرية إلا أن سكان القاهرة من البريطانيين لم يكن لأبنائهم مدرسة على النمط الإنجليزي ليتعلموا بها(٤) .

واستمرت المدرسة منذ افتتاحها سنة ١٣٣٤هـ ــ ١٩١٦م في التطور والازدهار ودخلها إلى جانب الإنجليز عدد من الجنسيات الأخرى على ألا تزيد نسبتهم عن ٢٠ %

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٦٧,

(٢) عبد الحميد مطر : المرجع السابق ص ١٨٥.

(٣) مجلس الشيوخ : دور الانعقاد الرابع والعشرين الجلسة ٢٣ في ٢١ مارس ١٩٤٩م . ص ٧٥٨.

(٤) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٧٩ .

حيث رئي أن هذه النسبة لن تغير من الطابع البريطاني للمدرسة (١)، وقد بلغ عدد التلاميذ بها سنة ١٣٦٥هـ ــ ١٩٤٦م حوالي (٥٣٣) تلميذا منهم (٦٢) تلميذا بروضة الأطفال ، (٢٠٢) تلميذا بالابتدائي ، (٢٦٩) تلميذا بالثانوي وجميعهم يدرسون وفقا للمناهج الإنجليزية الخاصة بالمدرسة (٢).

٣ــ الكلية الإرسالية الإنجليزية بالقاهرة :

أنشئت هذه الكلية سنة ١٣٤٢هـ ــ ١٩٢٤م وكان الغرض من إنشائها تهيئة دراسة دينية لأطفال جماعة البروتستانت الإنجليز في مصر ، وكان الشعور السائد بين المسئولين عن المدرسة هو جعلها دولية لكل من يرغب في التعليم المسيحي والإنجليزي الذي تهيئه المدرسة، ولذلك كانت تضم مايقرب من تسع وأربعين جنسية سنة ١٣٤٨هـ ــ ١٩٣٠م وفي سنة ١٣٥٤هـ ــ ١٩٣٥م انتقلت المدرسة إلى مبنى جديد بحدائق القبة ، وكانت المدرسة تمول عن طريق منحة من الحكومة الإنجليزية ، كما كان المجلس البريطاني في مصر يدفع لها إعانة مالية ، كذلك كان سفراء إنجلترا وقناصلها يجمعون لها الأموال (٣) ، وقد بلغ عدد تلاميذها سنة ١٣٦٢هـ ــ ١٩٤٣م (٧٠٨) تلميذا منهم (٢١٨) تلميذا بروضة الأطفال ، (٢٥٢) تلميذا بالابتدائي ، (٢٣٨) تلميذا بالثانوي (٤) .

٤ــ المدارس البريطانية بالإسكندرية :

وقد تأسست هذه المدرسة بالإسكندرية سنة ١٣٤٧هـ ــ ١٩٢٩م بمعاونة **اللورد لويد** وعند افتتاحها لم يكن بها سوى ١٠% من التلاميذ المصريين والباقي أجانب . وقد أنشئت هذه المدرسة لأبناء الرعايا البريطانيين الذين يعجزون عن دفع المصروفات الباهظة لكلية فكتوريا (٥). وفي سنة ١٩٤٦م بلغ عدد تلاميذها (٤١٠) تلميذا منهم (٦٠) تلميذا بروضة الأطفال،(٩١) تلميذا بالابتدائي،(١٣٤) تلميذا بالثانوي، (٣٣) بالقسم التجاري، (٣٦) بالقسم الخصوصي، وجميع هؤلاء التلاميذ يدرسون وفقا للمناهج الإنجليزية الخاصة بهذه المدرسة(٦) .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٨٤ .

(٢) إحصاء عدد التلاميذ والفصول بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٤ .

(٣) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٤) وزارة المعارف : إحصاء عن عدد التلاميذ والفصول بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م . ص ٤٧.

(٥) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨٠ ــ ٨١ .

(٦) وزارة المعارف : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٧.

٥ــ كلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية :

وكانت الفكرة في إنشائها إيجاد مدرسة إنجليزية للبنات مع كلية فكتوريا للبنين، وتكون أيضا مركزا إنجليزيا تعليميا للبنات في الشرق الأوسط ، وكانت المدرسة قد تأسست سنة ١٣٥٤هـ ــ ١٩٣٥م ، وكان بها في ذلك الوقت عدد كبير من الجنسيات بلغ حوالي (٣٧) جنسية (١). وبلغ عدد تلاميذاتها سنة ١٣٦٢هـ ــ ١٩٤٣م (٣٦٣) تلميذة منهن (٢٧) تلميذة بروضة الأطفال ، (١٣٠) تلميذة بالابتدائي ، (٢٠٦) تلميذة بالثانوي ، وجميع التلميذات يدرسن وفقا للمناهج الإنجليزية الخاصة بالكلية المماثلة للمناهج المتبعة في مدارس إنجلترا(٢) ، وجميع الدروس تلقى فيها باللغة الإنجليزية ، أما اللغة الفرنسية فلغة إجبارية أيضا ، وكانت اللغة العربية إختيارية لمن تريد من البنات في الفرق العليا،حيث تدرس لغة ثالثة إضافية إختيارية كالألمانية أو العربية (٣).

ويلاحظ على التعليم الإنجليزي في مصر بعد الاحتلال البريطاني أنه لاقى تشجيعا من الحكومة البريطانية ليس فقط في صورة منح وأموال من الحكومة، ولكن عن طريق ممثلي إنجلترا في مصر بعد الاحتلال ، فلقد أسهم كل من **اللورد كرومر واللورد لويد** بصفة خاصة بمجهودات كبيرة في جمع الأموال وإسداء النصح وإرسال مندوبين للعمل بمجالس الإدارة وحضور حفلات التخرج وتوزيع الجوائز باعتبار أن هذه المدارس هي مدارس الجالية الإنجليزية في مصر التي يرأسها ممثلوا بريطانيا فيها (٤) .

خامسا : المدارس الأمريكية :

بقيت المدارس الأمريكية في مصر منذ بدأت تحت إشراف الإرساليات الأمريكية ولم تقم الجالية الأمريكية قليلة العدد بإنشاء مدارس خاصة لها ، وإنما كانت جميع المدارس الأمريكية في مصر تهدف إلى نشر المذهب البروتستانتي وبخاصة بين أقباط مصر ، وهي مدارس يحيطها الطابع الديني ، وقد توسعت الإرسالية في إنشاء المدارس، وكانت كلما تكونت جالية بروتستانتية في المكان الذي تنشأ فيه المدرسة تترك المدرسة في أيدي الأهالي البروتستانت لتنتقل نشاطها إلى مكان آخر تستطيع أن تكون فيه مدرسة جديدة حيث تبدأ

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨١ .

(٢) وزارة المعارف : إحصاء عن عد فصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م . ص ٤٧.

(٣) عبد الحميد مطر : المرجع السابق ص ١٨٧ .

(٤) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٩٤.

نشاطها فيه لنشر البروتستانتية بين الأقباط الأرثوذكس (١) ، وقد اتسع نطاق المدارس الأمريكية بمصر وانقسمت إلى الأقسام الآتية :

١ـ مدارس خارج الإرسالية	out station schools
٢ـ مدارس الإرسالية	Lission schools
٣ـ مدارس داخلية	Ecording schools
٤ـ كليات تدريبية	Training colleges
٥ـ مدرسة اللاهوت	

ويلاحظ أن المدارس خارج الإرسالية خاضعة لإشراف الأهالي أنفسهم وهي مدارس محلية ابتدائية غير أنها خاضعة للإرسالية البروتستانتية، ويدرس بها المذهب البروتستانتي وكان المدرس عادة في مثل هذه المدارس عضوا في الكنيسة يشارك في اجتماعاتها المسائية في أيام الآحاد ، هكذا كانت هذه المدارس في بدايتها مراكز للنشاط الإنجيلي المسيحي للصغار والكبار، ومدارس الإرسالية هذه الموجودة في المراكز الرئيسية كان لها نفوذ كبير في خلق الرغبة في التعليم ونشر المعلومات المفيدة .

ويتضح من الجدول رقم (٣) بالملاحق مدى تطور المدارس الأمريكية في مصرفي سنوات ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م. ويلاحظ أن عام ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م كان العام الذي بلغت فيه المدارس الأمريكية أقصى زيادتها (٦١) مدرسة أي ما يقرب من ١٩% من جملة المدارس الأجنبية في هذا العام والبالغ عددها (٣٢٦) مدرسة ، وكانت المدارس التابعة للإرسالية الأمريكية تمثل ٩٧% على وجه التقريب من مجموع المدارس الأمريكية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، وحوالي ٨٢% سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، ٩٢% سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م من جملة المدارس الأمريكية في العام الأخير. وهذا مايؤكد ماقلناه آنفا من أن المدارس الأمريكية بدأت تحت إشراف الإرسالية الأمريكية ، غير أن عدد المدارس الأمريكية أخذ يقل بعد ذلك حتى بلغ عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م (٣٩) مدرسة ثم قل بعد ذلك في عام ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م إلى (٢٦) مدرسة فقط ، وبهذا تصل نسبة تناقصها إلى ٥٧% عما كانت عليه منذ ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م .

ويرجع ذلك إلى أنه عندما بدأت المدارس الأمريكية كان لها برنامجها الخاص ، ومع مضي الزمن استحدثت شهادة إتمام الدراسة الثانوية في المدراس الحكومية المصرية ، وبدأ التلاميذ يقبلون على هذه الشهادة التي تؤهلهم للالتحاق بالوظائف الحكومية المصرية ، وقد

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٥.

أثر كل ذلك على المدارس الأمريكية في مصر إذ اضطرت إلى تغيير برامجها لكي تتمشى مع البرامج الحكومية حتى يمكن لتلميذاتها وتلاميذها التقدم إلى الامتحانات العامة المصرية حتى لايهجر التلاميذ المصريون مدارسها إلى مدارس الحكومة أو المدارس الأهلية التي يتقدمون منها إلى امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية التي تؤهلهم لدخول الجامعة المصرية أو الالتحاق بالوظائف الحكومية . ومن هنا بدأت المدارس الأمريكية تفقد طابعها الديني من ناحية ، وتعاني من منافسة المدارس الحكومية من ناحية أخرى ، ومن ثم بدأ عددها يقل وبخاصة عندما صدر القانون رقم ٤٠ عام ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م والقانون رقم ٣٨ لسنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م اللذان حتما تفتيش وإشراف وزارة المعارف على كل المدارس التي يتقدم طلبتها لامتحانات الحكومة المصرية ، فكان على مدارس الإرسالية الصغيرة بالريف إما أن تقوم بتنفيذ الإصلاحات التي طلبتها وزارة المعارف أو تغلق أبوابها ، فاضطرعدد غير قليل منها إلى إغلاق أبوابها (١) ، نظرا لعدم استيفائه للشروط التي وضعتها وزارة المعارف .

وانتشرت المدارس الأمريكية في مصر وكان أهمها بالقاهرة مدرسة البنين الأمريكية، ومدرسة البنات بالأزبكية ، وكلية البنات الأمريكية بالقاهرة التي بلغ عدد تلاميذها سنة ١٣٦٢هـ ـ١٩٤٣م (٦٩٥) تلميذة منهن (٢١٤) تلميذة بروضة الأطفال و(١٢٩) تلميذة بالابتدائي و(٣٥٢) تلميذة بالثانوي (٢) ، كما كان بالإسكندرية عدد من المدارس الأمريكية مثل الكلية التجارية الأمريكية وبلغ عدد تلاميذها سنة ١٩٤٦م (٨٦) تلميذا منهم (١٧) مصريا ، (٦٩) أجنبيا (٣) . كما كان بأسيوط عدد من المدارس الأمريكية مثل الأمريكان الثانوية بأسيوط بنين وبلغ عدد تلاميذها سنة ١٩٤٦م (٣٨٢) تلميذا منهم (٥٣) تلميذا بالثانوي و(٢٥) تلميذا بالخصوصي و(٤) تلاميذ بالقسم العالي ، ويدرس منهم (٣٥٣) وفقا لمناهج الوزارة وهم من المصريين، بينما يدرس (٢٩) أجنبيا وفقا للمناهج الأمريكية الخاصة بالمدرسة ، وبأسيوط أيضا مدرسة الأمريكان الثانوية بنات وكان بها (١٥٥) تلميذة يدرسون وفقا لمناهج الوزارة . وكان يوجد أيضا مدرسة الأمريكان الابتدائية للبنين وبها (٣٦٢) تلميذا بالابتدائي و(١١٦) بروضة الأطفال، ويوجد بمدرسة الأمريكان الابتدائية بنات بأسيوط (٣٥٩) تلميذة جميعهن من المصريات (٤) . هذا إلى جانب عدد آخر من المدارس

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٩٧.

(٢) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم ١٩٤٣م . ص ٥١

(٣) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم ١٩٤٦م . ص ٧٨.

(٤) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم ١٩٤٦م . ص ٨٥.

الأمريكية بالأقاليم مثل المنصورة والفيوم وبنها والزقازيق وطنطـا وغيرهـا مـن المـدن المصرية .

ومن أشهر المعاهد الأمريكية التي أنشئت في هذه الفترة **الجامعة الأمريكيـة** بالقـاهرة ويعود تاريخ إنشائها إلى سنة ١٣٣٨هـ ــ١٩٢٠م على أساس الإتصال بالإرسالية، أي أنها وليدة نشاط الإرسالية الأمريكية بمصر ، وفي عام ١٣٤٠هـ ــ ١٩٢٢م أصبحت جامعـة مستقلة عن الإرسالية وأصبح لها كيانها الخاص وتشرف عليها هيئة أمناء .

أما عن دوافع إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة فتعود إلى :

أولا ــ أن الأمريكيين أدركوا أن القاهرة تمثل مركزا استراتيجيا هاما في العالم العربي وأنها مركز الصدارة في العالم الإسلامي .

ثانيا ــ منافسة جامعة الأزهر في إعداد قيادات دينية مزودة بثقافـة بلادهـم ، واسـتخدام الجامعة كمركز لنشر الثقافة الأمريكية في مصر والبلاد المجاورة ، كما أنهم أدركـوا أن شهادة من الأزهر عند العرب توازي شهادة الدكتوراة من اكسفورد أو بـاريس أو هارفارد في العالم الغربي .

مدارس أهل الذمة في الشام :

كان واضحا كما ذكرنا في العراق أن التعليم تقدم بين غير المسلمين أكثر منـــه بيـــن المسلمين، وهذا واضح في عدد المدارس الخاصة بهم ـ أي المســلمين ـ بـالنظر إلــى عددهم الذي يعد أغلبية بالنسبة لغير المسلمين، وكذلك التعليم بالنسبة للإناث .

فقد أسست الطوائف المسيحية عدد كبيرا من المدارس فــي دمشــق ، فكــان للــروم الأرثوذوكس مدرسة للذكور تدرس العربية والتركية والفرنسية واليونانية . وتضم ســبعة معلمين وثلاثمائة تلميذة . وفتحوا أيضا مدرسة للروم الكاثوليك كبيرة تضــم ١٠ معلميــن و(٢٥٠) طالبا ، ومدرستان في حي الميدان إحداهما للإناث (١٠ معلميــن + معلمتــان ، ٦٠ تلميذا ، ٦٠ تلميذة) وفتح الأرثوذوكس مدرسة صغيرة للذكور في حي الميدان (معلم واحد + ٥٠ طالب) ومدرسة الإناث (٤ معلمات + ١٥٠ تلميذة) . وضمــت مدرســة اليسوعيين أربع معلمات ومائة وأربعين طالبة،وكان لآباء العــازاريين مدرســة للذكــور وأخرى للإناث ضمت ثلاثة معلمين وأربعة عشر معلمة وخمسين طالبا وخمسمائة تلميـذة، ويلاحظ الفرق بين عدد البنين والبنات،وكانت هذه أحسن مـدارس دمشــق فيمـا يخـص البنات(١) .

ومن الأمور الواضحة في مجال التعليم أن أهل الذمة كان لهم السبق في تعليم البنــات في وقت لم يكن يعرف فيه تعليما للبنات بين المسلمين إلا النزر اليسير، فقـد بـدى مـن الإحصائيات الواردة في تلك الفترة (أوائل القرن التاسع عشـــر) قلـة عـدد الطالبـات المسلمات بالنسبة لعدد الطالبات النصرانيات (٢) .

فقد بلغ عدد الطالبات من أهل الذمة (١٠٧٠) طالبة ، ومن المسلمين (٢٩٢) فقـط . وبالنسبة للطلاب من أهل الذمة في بر الشام (١٤٩٥) طالبا منهم (٣٥٠) يهوديا ، وعـدد طلاب المدارس الحكومية (٤١٠) ما بين رشيدية* أو عسكرية ، والمـدارس الإسـلامية (١٩٥٧) طالب (٣).

ويظهر من هذا العدد تأخر حركة التعليم بين اليهود رغم ثرائهم وتعاونـــهم !! وازداد نشاط البعثات البروتستانتية ، وأسس المنصر **يوحنا كروخرد** كنيسة ومدرسة فــي دمشـق عام ١٨٦٤م.

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر . ص ١٦٧.

(٢) انظر شاهين مكاريوس : المعارف في سورية ، المقتطف ج ٧ / ٥٣٧.

(٣) انظر المرجع السابق (غرايبة) ص ١٦٦ - ١٦٧.

* نسبة إلى رشيد باشا .

وبدأت بعثة بريطانيا عملها بعد عـــام ١٢٧٦هـــــ ـــ ١٨٦٠م فأسســت مدرســتين إنجليزيتين للذكور ، إحداهما خاصة باليهود ، مشتملة على (٣) معلميـــن و(٢٥) تلميـذا، وأخرى عامة فيها معلم واحد و(٤٥) طالبا .

إضافة إلى مدرستين للإناث واحدة خاصة بالمسلمين ومؤسسها البعثـة البريطانيــة !! فيها معلمة واحدة و(٣٥) طالبة، وأخرى عامة في الميدان يعمــل فيــها معلمتــان و(٥٥) طالبة(١).

ولم يكن هذا الاهتمام في دمشق فحسب وإنما أيضا في حمص حيث كان بها ما يقــرب من نصف مدارس دمشق . حيث اهتمت الطوائف من أهل الذمة بالتعليم فأوجدوا مــدارس إنجيلية ويسوعية وسريانية وأرثوذكسية، كما ألــف الأرثوذكــس عــام ١٨٨٨م جمعيــة المدارس الأرثوذكسية في حمص لنشر التعليم .

وفي حلب أيضا كان عدد الدارسين من أهل الذمة يعد كثيرا جــدا بالنسـبة لتركيبــة السكان، فقد كان عدد الدارسين في المدارس الإسلامية مساويا تقريبا لعدد الدارسين فــي مدارس أهل الذمة . كما هو واضح في الإحصائيات التالية عن المقتطف، فقد بلــغ عــدد الدارسين في المدارس الإسلامية (٢٧٣٠) طالبا ، وعدد الدارسين في مدارس الطوائف (أهل الذمة) (٢٢٧٠) طالبا، أما عدد المدارس فكان أقل من النصف بقليل فعدد المــدارس الإسلامية (٩٠) وعدد مدارس أهل الذمة (٣٩) مدرسة (٢) .

١. بيروت :

كانت ولاية بيروت لها السبق في مجال التعليم عموما حتى اشــتهرت باســم مدينــة **(العلم)**، وتلقى العلم فيها قرابة ثلث طلاب بر الشام ونصف طالباتها وكانت تضــم أكــبر الجامعات في المشرق العربي في تلك الفترة . وعلى رأسها الصرح الذي شيده المنصــرون الأمريكان وهو ما يعرف اليوم بالجامعة الأمريكية في بيروت .

وهذا الصرح العلمي !! المميز ما كان له أن يحصــل ويسـتمر إلا بعــد دراســات مستفيضة أقنعت المنصرون بضرورة الاهتمام بالتعليم العالي وأنه وسيلة للســيطرة علــى عقول العامة لإدخال الأفكار المشككة للمسلمين بعد أن يئسوا من تنصيرهم . (فهذا التعليم العالي يساعدهم على الوصول إلى الطبقات المثقفة ..... فلما أيقنوا أن لاقدرة لــهم علــى جعل المسلم نصرانيا أحبوا أن يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب إلى المسلمين وإلى المثقفيـن

(١) انظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٤ ، ص ٤٠ - ٤١.

(٢) عبد الكريم غرايبة : نقلا عن المقتطف ٧ / ٥٣٧ ، ص ١٦٩

منهم خاصة . ثم اعتقدوا أن هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامي . هذه هي الفكرة التي أقنعت المنصرين بضرورة إنشاء المعاهد العالية في البلاد الإسلامية)(١).

وكذلك كان للمنصرين غاية أخرى من التعليم العالي ، هي أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد ، وفي الجيل الناشئين في الشرق الأدنى خاصة ، وذلك التأثير الذي لا يمكن أن يتحقق إذا لم يكن ثمة تعليم عال، وعلى هذا الأساس أوجد المنصرون البروتستانت كلية في بيروت عام ١٢٧٨هـ ــ ١٨٦٢م وجعلوا على رأسها **دانيال بلس** . هذه الكلية أصبحت فيما بعد الكلية السورية الإنجيلية ثم هي اليوم الجامعة الأمريكية في بيروت . ومن رأي المنصرين أن تؤسس الكليات في المراكز الإسلامية، ولذلك لم يكتفوا ببيروت بل أرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر كما تقدم .

وهكذا أصبح للمنصرين الأمريكيين الكلية الأمريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول أيضا .

ولم يكن رأي المنصرين الفرنسيين مخالفا لذلك فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور . وهي عاصمة البنجاب في باكستان اليوم (٢) .

هذه الجامعة ــ الجامعة السورية الإنجيلية ــ (جامعة بيروت الأمريكية) . خرج منها كبار القادة المنصرين الحاملين للفكر المعاصر وواضعي المناهج، وأصبحت هذه الجامعة هي التي تتولى تأليف الكتب التي تدرس في بقية المراحل في شتى أنحاء العالم الإسلامي، واهتمام المنصرين لايقتصر على مرحلة دون أخرى أو أن يضخم جانب على حساب جوانب أخرى قد تبدو أقل أهمية ، فنجد حرص أهل الذمة على السيطرة على التعليم في جميع مراحله بدءا برياض الأطفال لأنها تجعلهم أكثر اتصالا بأهل الطلاب ، وكذلك تمكن المنصر من أن يصل إلى العقول وهي لاتزال تتأثر بما يلقى إليها ــ وأكثر ماوصل إليه المنصرون البروتستانت إنما كان عن طريق المدارس الابتدائية (٣).

أما اليسوعيون خاصة فيجعلون الصفوف الدنيا في عهدة الراهبات لأن الطلاب الصغار هم فسائل (أشتال) تغرس فيما بعد في الكليات فيجب أن تكون هذه الفسائل مطبوعة طبعا خاصا (٤) .

---

(١) فروخ والخالدي : المرجع السابق ص ٧٨ .

(٢) انظر فروخ : مرجع سابق ص ٧٩ – ٨٠.

(٣) فروخ : المرجع السابق ، ص ٧٩.

(٤) المرجع السابق : ص ٧٩.

إضافة لتأسيسهم الجامعة الإنجيلية السورية (جامعة بيروت)، أسس الأمريكان أيضا كلية في عين طورة عام ١٢٤٩هـ ــ ١٨٣٤م وفي أواخر سنوات الحكم المصري أنفقوا سبعة آلاف دولار وفتحوا مدرسة داخلية للذكور أتبعوها بعد ست سنوات بمدرسة داخلية للبنات..

وأسسوا عام ١٢٧٧هـ ــ١٨٦١م الكلية الإنجيلية الأمريكية للبنات (١) .. هذا عن نشاط المنصرون الأمريكان إلا أنه يبقى أكبر صروح التعليم الأجنبي كان الجامعة الأمريكية في بيروت الآنفة الذكر والتي اقتصرت في عامها الأول على كلية واحدة هي كلية العلوم ، ثم افتتحوا بعد عام كلية الطب وتخرج عام ١٢٨٧هـ ــ١٨٧٠م الفوج الأول الذي تألف من خمسة أشخاص من بينهم **يعقوب صروف** ، **وإبراهيم خيرالله** ، **ونعوم مغبغب** . ومعلوم ماذا تعني مثل هذه الأسماء في تاريخ الشام ومصر . كان لهم ومن خلفهم من خريجي هذه الجامعة دور بارز في تغيير الأوضاع في البلاد العربية *.

وتطورت هذه الجامعة تطورا سريعا واكتسبت سمعة مرموقة بعد أن كانت الصحف تتندر بها، من ذلك أنه كتب نتيجة تشطب أحد مداخل الجامعة كلمة كفر على جدارها فعلق أحدهم بقوله '' كيف يرتجى الخير من جامعة كتب الكفر على أبوابها '' !! فما لبثت هذه النظرة أن تغيرت، فبعد أن كانت مقتصرة على كلية واحدة وثلاثة أساتذة وخمسة خريجين عام ١٢٨٧هـ ــ١٨٧٠م من أصل (١٥) طالبا عام ١٢٨٢هـ ــ ١٨٦٦م ، ارتفع الرقم إلى سبع كليات و(٤٨١) أستاذ و(٢٧٨٥) طالبا عام ١٩٦٠م وبلغ عدد خريجيها حتى علم ١٣٧٩هـ ــ١٩٦٠م أكثر من (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف طالبا (٢) .

ولقد استفز هذا النجاح البروتستانتي البعثات الكاثوليكية ولاسيما اليسوعيين ، فنقل اليسوعيون كليتهم من غزير إلى بيروت عام ١٢٩١هـ ــ ١٨٧٤م وجعلوها جامعة باسم جامعة **القديس يوسف**، وأضافوا إليها عام ١٣٠٠هـ ــ ١٨٨٣م كلية طبية على نفقة الحكومة الفرنسية .

كما أخذت الحمية أيضا روسيا والتي كانت تعد نفسها حامية المذهب الأرثوذكسي في المشرق ، خاصة وإن الأرثوذوكس كانوا أقدم العناصر النصرانية في البلاد العربية (٣) وكانوا ينقسمون إلى ثلاث طوائف : نساطرة ، يعاقبة، والروم الأرثوذكسي .

---

(١) غرايبة : المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٢) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج٤ ، ص ٣٩/٣٧ .

* وسيضح لنا دور هؤلاء عند الحديث عن الصحافة والقومية ونشأتها وجهود أمثال هؤلاء .

(٣) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٢٦ . من مطبوعات مركز الوحدة العربية .

فكانت من أهم الوسائل التي أظهرت فيها روسيا القيصرية مما فيها للأرثوذكسي وفتح مدارس عديدة في القدس بوجه خاص وفي سائر أنحاء فلسطين ، إلا أنها لم تجعل هذه المدارس آلة للترويس ، بل جعلتها عربية ... وكذلك أسست مدرسة لتخريج المعلمين والمعلمات في الناصرة وفي بيت جالا ...(١) .

ومن مدارس أهل الذمة البارزة في الشام..

مدرسة افتتحتها **بطرس البستاني** (صاحب الموسوعة) أسماها المدرسة **الوطنية** عام (١٢٧٩هـ ـ ١٨٦٣م ، ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) عمل فيها هو وابنه سليم وتخرج منها عدد من الكتاب .

وافتتح راهبات **المحبة** (وهذه جمعية دعوية) مدارس ابتدائية مجانية للفقراء ، وثانوية للطبقة الوسطى عام ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م ومدرسة داخلية عام ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٩ م.

وأسس الروم الكاثوليك مدارس **عين القش وعين تراز**، واللعازاريين مدرسة في **عين طور** عام ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م، أما اليهود فهم وإن كان اهتمامهم كان في الغالب لا يظهر إلا في الجوانب الإقتصادية إلا أن **زاكي كوهين** (وهو يهودي إسرائيلي) أسس أول وأكبر مدرسة إسرائيلية عربية دعاها بالمدرسة الوطنية الإسرائيلية (١٢٩١هـ ـ ١٨٧٤م ، ١٣٠٧هـ ـ ١٨٩٠م) ثم أغلقها وهاجر إلى مصر (٢) .

*** المدارس الخاصة بالموارنة :**

قام الموارنة بنشاط ملحوظ في نشر التعليم، فقد أسس البطريرك (**يوسف أسطفان**) مدرسة في **عين ورقة** تخرج منها البطاركة **يوسف حبش** ، **ويوسف الخازن**، **وبولس مسعد** ، والأدباء **بطرس البستاني**، **وفارس الشدياق**، **ورشيد الدحداح**، وكان من علوم هذه المدرسة الفصاحة والمقطعة بالإضافة إلى اللغات السريانية والعربية....

وأسس **مطران بيروت يوسف الدبس** مدرسة علمانية في بيروت عام ١٢٩١هـ ـ ١٨٧٤م أسماها مدرسة **الحكمة** وبدأ التدريس فيها سنة ١٢٩٢هـ ـ ١٨٧٥م.

ومن مدارس المارون كذلك : **دار يوحنا مارون** (١٢٢٧هـ ـ ١٨١٢م) **وعجلوت** (١١٦٤هـ ـ ١٧٥١م) **واري شحرور** (١١٦٤هـ ـ ١٧٥١م) **ومارعيدهرهريا** (١٢٤٥هـ ـ ١٨٣٠م) **أنطوش جبيل** (١٢٧٨هـ ـ ١٨٦٢م) **أنطوش زحلة**

---

(١) انظر ساطع الحصري : المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢) انظر غرايبة ص ١٧٣ ، جرجى زيدان ٤ / ٣٧ - ٣٨.

(١١٨٢هـ ـ ١٧٦٩م) **أنطوش ديرالقمر** (١١٩٦هـ ـ ١٧٨٢م) بحيث زاد عدد مدارس الموارنة عن اثنتي عشر مدرسة !! (١) .

هذا كله في دولة كانت تمثل خلافة المسلمين . وتقوم بواجب حماية الدين وإقامة الشرع و... وما ذكرت ليس حصرا بالطبع وإنما ذكر لأهمها مما يبين لنا حجم تلك المدارس ومدى الأثر الذي نتصور أن تكون أوجدته بين المسلمين وبين أهل الذمة أنفسهم الذين من مقاصد عقد الذمة معهم معاشرتهم للمسلمين ، وعزلهم عن إخوان لهم في الكفر، بالتالي رجاء إسلامهم . وهذا هو ماكان يحصل في الماضي الزاهر !!

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر (١٨٤٠ - ١٨٧٦م) ص ١٧٤، وجرجي زيدان المرجع سابق ج٤ ص٣٩.

•الآثار المترتبة على انتشار مدارس أهل الذمة :

كان الهدف من إنشاء المدارس الأجنبية في الدولة العثمانية تنشئة جيل بعيد عن الإسلام متشكك فيه ، ليسهل القضاء على وحدة المسلمين المتمثلة في الدولة العثمانية التي كانت حجر عثرة أمام الاستعمار الغربي الصليبي الذي مافتيء في كل مرة يحاول ضرب المسلمين بشتى الوسائل الممكنة .

وقد وضع أعداء الإسلام لهذا الغزو أهدافا لاتتحقق إلا بعد فترة طويلة من الزمن ليتم إبعاد المسلم عن دينه بإسلوب هاديء لا إثارة فيه ولاستفزاز وبيد المسلمين أنفسهم في هدم العقيدة الإسلامية أولا ثم في إفساد الأخلاق والقيم ثانيا (١) .

وتأكيدا على الهدف الأول – والذي تحقق للأسف الى حد كبير من وراء هذه المدارس – يقول المنصر '' **تكلى** '' : يجب أن نشجع إنشاء المدارس علىالنمط الغربي العلماني ، لأن كثيرا من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية (٢) .

وقد جاء على لسان أحد أقطابهم – **زويمر** – في المؤتمر التنصيري عام ١٣٤٦هـ – ١٩٢٧م **بجبل الزيتون** في فلسطين قوله : '' أتظنون أن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين عن دينهم ليكونوا نصارى ؟! . لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لايمكن أن يكون نصرانيا مطلقا، ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ، ليكون مضطربا في دينه ، وعندها يكون المسلم ليس له في الاسلام إلا اسم أحمد ومصطفى '' (٣) .

هذا الهدف الذي يبدو واضحا ، من تصريحات أولئك المنصرين ، وغيرهم ممن لا يحصرهم هذا البحث، كان أول ثمرة وأهم ثمرة جناها العاملون في المدارس الأجنبية هي تشكيك المسلمين وأبنائهم في عقائدهم ، وتشكيكهم في أخبار القرآن وأحكامه – وفي كل ماهو ثابت في هذا الدين .

---

(١) انظر إبراهيم النعمة : كلام لمن انفرد القارب ، مجلة الأمة عدد ١ سنة ٢ن محرم ١٤٠٢هـ ، ص ٧٤ – ٨٠ .

(٢)محمد محمد الدهان : قوى الشر المتحالفة . ط . المنصورة دار الوفاء ١٤٠٦م ص ٨٤-٨٥ .

(٣) إبراهيم عكاشة : ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي ص ٣٨ ، وانظر نحو هذا الكلام لزويمر .

ونظرا لأن تفصيل القول في آثار المدارس الأجنبية يطول ، رأيت أن أجمله في نقـــاط تشمل الآثار الفكرية والاجتماعية والثقافية، وقبل سرد هذه الآثار المترتبـــة علـــى انتشـــار مدارس أهل الذمة في البلاد ــ أذ كر ببعض الأمور ــ والتي سبق الحديث عنها تفصيلا .

كان المنشئون لهذه المدارس منصرين في الغالب ، يرسلون مع تلك الإرساليات من قبل الحكومات الأجنبية أو الجمعيات التنصيرية .

كانت المدارس الأجنبية في نواحي الدولة ، صورة طبق الأصل للمدارس الموجودة في الدولة التي تتبعها المدرسة ، سواء من حيث البناء والفصول الدراسية أو من حيث المقررات والمناهج التعليمية ، إضافة إلى أنها كانت صليبية الطابع والمظهر. مع أن أكثر المدارس في بلدانهم منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت علمانية ولاعلاقة لها بالدين أو الكنيسة إلا فـــي نطاق ضيق .

كان أغلب من يتولون التدريس في مدارس أهل الذمة من الرهبان سواء أرســلوا مـــن دول الغرب للتنصير فيما بين المسلمين ، أو نصارى الداخل الذين يسعون جاهدين لتشكيكهم في دينهم وعقائدهم والطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وإبعادهم عن القيـــم والأخـــلاق الإسلامية مصدر قوتهم ومكمن عزتهم .. ومحاولة تقريبهم من العالم الغربي الصليبي كمـــا سنبينه الآن ...

وكان هؤلاء المنصرون من الأساتذة يتخصصون في مختلـــف المجـــالات العلميـــة ، ولايقتصر تدريسهم على مواد الآداب والدين فقط ..

بعد تلك المقدمات والخلفية التي يجب أن نضعها في أذهاننا قبل التوسع في سرد الآثـــار المترتبة على تلك المدارس ، أبدأ بأهم هذه الآثار وهو مايتعلق بالاعتقاد والأفكار والثقافة .

الآثار الفكرية والثقافية لمدارس أهل الذمة :

إضافة لغرض التنصير الذي هو الهدف الرئيس لنشأة هذه المدارس فقد ترتب على ذلك بعض الآثار العقدية والفكرية والثقافية التالية :

١ــ وصم الإسلام بالجمود والتأخر وتلقين الطلاب عدم ملاءمته للعصر .

٢ــ بذل الجهود في إقناع الطلاب بأن التقدم الغربي راجع للنصرانية ، وأن الإســـلام هـــو السبب في تأخر الشرق من ركب الحضارة .

٣ـ تمجيد رجالات الفكر الغربي والثقافة الغربية ، وفى الوقت نفسه الحط من قدر الأمم الشرقية ـ ويقصدون به الإسلام وعلماء المسلمين ـ والتشكيك في جهودهم والتقليل من احترام الذين يشتغلون بالعلوم الشرعية حيث لم تعد الحاجة ماسة إليهم (١) .

٤ـ وأد عقيدة الولاء والبراء من قلوب الطلاب بالعمل على موالاة الطلاب للدولة التابعة لها المدرسة ، فكل مدرسة تسعى جاهدة لتحبيب طلابها للبلد المنشيء بأساليب شتى .. وتحبب المدرسين (الصليبيين) للطلاب وإن كانوا مسلمين .

٥ـ القضاء على الوحدة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية والسعي إلى تقويض كيان الخلافة.

٦ـ تشويه صورة الإسلام في نفوس الطلاب وذلك بإثارة مشكلات وقضايا الزواج والتعدد، وقضية حرية المرأة ومساواتها وغير ذلك .

٧ـ تشويق الطلاب المسلمين للعادات والتقاليد الغربية .

٨ ـإبعاد الطلاب عن تراثهم وإيهامهم بأن ذلك التراث فارغ المحتوى، واستحقار من يقرأ ويكتب أو يؤلف في التراث الإسلامي، ويعد ذلك من مظاهر التخلف . وعلى العكس من يترجم أو يقرأ في الكتب الغربية أو يدرس في مدارسهم .

٩ـ زعزعة مكانة اللغة العربية في نفوس الطلاب ، وإبعادهم عن لغتهم الأم ولغة القرآن وتعظيم اللغات الأجنبية وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، حتى يستطيعوا الإطلاع على الكتب الأجنبية ، فيتأثروا بالفكر المادي الغربي كالعلمانية والشيوعية و غيرها .

١٠ـ إبعاد الطلاب عن دراسة التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الدولة العثمانية خاصة، وإن درس فمشوها ومحرفا . مكبرة فيه النقط السوداء !! وفي نفس الوقت تشويق الطلاب إلى دراسة تاريخ أوروبا وأمريكا .

١١ـ تشويق الطلاب إلى الكتب الثقافية الغربية . خاصة القصص الغرامية ، بحجة الإطلاع على الآداب العالمية ، ونلحظ ذلك في الحركة النشطة لترجمة الروايات والأشعار الغرامية أوالتافهة ومشروع الألف كتاب وقصائد شكسبير ونحوها .

١٢ـ إبعاد الطلاب عن الثقافة والتربية الإسلامية، وسد الفراغ بالثقافة الغربية، ومن الثقافة الغربية العناية بالجرائد والمجلات الخليعة ومجلات الأزياء الغربية (٢) .

---

(١) انظر عطية محمد صقر : الإسلام في مواجهة التحديات . ص ٤٨ ط١ الكويت وزارة الأوقاف .

(٢) انظر إقتباس:الآثار المترتبة على المدارس الأجنبية، محمد قطب: واقعنا المعاصر، سهيل محمد صابان: المدارس الأجنبية .

١٣ـ إدخال العامية مكان اللغة الفصحى ، ودخول كثير من الكلمات الأجنبية علـــى اللغـــة العربية .

١٤ـ انتشار الكتب التنصيرية بين العامة والخاصة بثمن وبدون ثمن .

أثر المدارس الأجنبية في النواحي الاجتماعية :

١ـ محاولة تغيير القيم الإسلامية في نفوس المسلمين وتشويق الطلاب إلى العادات والتقـاليد الغربية .

٢ـ العمل على تفكيك الأسرة المسلمة بإبعاد الطلاب عن أفكـــارهم وعقـــائدهم وعاداتـــهم وتقاليدهم الإسلامية التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم .

٣ـ ترسيخ النظرة المادية البحتة لدي الطلاب المسلمين . وتشويق الطلاب إلـــى الاهتمـــام بالمظاهر الخارجية البراقة وبخاصة لدي الفتيات .

٤ـ ايقاظ الحركة القومية بين مختلف شعوب الدولة العثمانية .

٥ـ إثارة الفتن والأحقاد بين مختلف الشعوب الإسلامية ، حتى بين أبناء النصارى أنفســهم، مما يزهدهم في دولتهم ويحببهم في الإستقلال .

٦ـ تشجيع الطلاب والمجتمع المسلم على الاختلاط بين الجنسين بدءا بـالفصول الدراسـية وانتهاء إلى ترسيخ هذا المفهوم في جميع المجالات ، فقد تعلم الطلاب في هذه المدارس الاختلاط الذي أدى إلى الانحراف والفسق والفجور وأصبح لكل طالب خليلته . وانتقلت هذه العدوى إلى المدارس الوطنية (١) .

٧ـ العمل على تخلي النساء عن الحجاب الشرعي الإسلامي ، بحجة أن الحجـاب لايلائـم العصر .

٨ ـ تلقين الطلاب الطرق المؤدية إلى التخلص من حكم الدولة العثمانية على أنه تخلـــص من الاستبداد والظلم .

٩ـ اقناع الأقليات بضرورة بقاء نفوذ الدول الأجنبية في الدولة العثمانية .

١٠ـ تضخيم قضية تحرير المرأة ، ويريدون بذلك الإباحية فيما يتعلـــق بالعلاقـات بيـــن الرجال والنساء .

---

(١)محمد زين العابدين العرمابي : نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامي . الرياض . دار العاصمة ص ٩٥.

أثر المدارس الأجنبية في نشر الأفكار المعاصرة :

لقد أدت مدارس الأقليات ومدارس الإرساليات دورا هاما في نشر الأفكار القومية وكانت الملل في البلاد الإسلامية ذات شخصية دينية صرفة إلا أنها ومن بداية القرن التاسع عشر بدأت في الانقسام والتشعب وانقسمت بفضل الأفكار القومية، ومن أمثلة ذلك تمرد العرب واليونان ومن بعدهم انفصال البلغار عام ١٢٨٧هـ ــ ١٨٧٠م إلا أن تمرد البلغار وانفصاله لم يكن ضد الدولة، لكنه كان ضد الكنيسة البطريركية الرومية ويقظة الروح القومية لدي البلغارعملت دورا هاما في ذلك، وهكذا بينما كانت الدولة تقترب من الانهيار حل نظام القومية محل نظام الملة وبتعبير آخر أن النزعات القومية قد أطاحت بنظام الملة القائم على الأساس الديني(١) .

إضافة إلى ذلك كانت كل مدرسة حريصة على ترسيخ العادات ونشر الأفكار التي تؤمن بها ليس بين طلابها فحسب بل حتى في الخارج .

فقد كانت المدارس الفرنسية تسعى إلى نشر العادات والثقافة الفرنسية بين الطلاب ليكونوا صورة طبق الأصل من الفرنسيين (٢).

وكانت المدارس الأمريكية تنشر العادات والتقاليد الأمريكية . وهكذا جميع المدارس الأجنبية، وقد قال مدير ثانوية القديس : **جوزيف الفرنسي** في اسطنبول عن فعاليات المدرسة ــ تمكين الطالب من إيجاد علاقة مع الغرب (٣).

وقد قال المستشرق **جب** : لقد أضاع الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت في طقوس محددة، ولاشك أن ذلك الحاصل بين فئات معينة من المجتمع كان أثرا من آثار المدارس الأجنبية، حيث أصبح الطلاب المسلمون فيها غرباء عن عادات آبائهم وأجدادهم وتقاليد شعبهم نظرا لتنشئتهم في جو علماني بعيد عن الدين والتاريخ الإسلامي (٤) .

وقد أصبحت المؤسسات التعليمية التركية تقلد مناهج المدارس الأجنبية وبخاصة الأمريكية بعد أن كانت المدارس الحكومية في مختلف المراحل الدراسية خالية من المناهج

---

(١) الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة : ترجمة محمد طلعت حرب (ترجمة خاصة) .

(٢) انظر : عمر فروخ ومصطفى الخالدي ــ التبشير والاستعمار ص ١١٤.

(٣) انظر حسين محمد محمد حسنين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، بيروت دار النهضة ط ١٣٩٢هـ – ١٩٧٢م ص٢٠٤.

(٤) سهيل محمد صابان : مرجع سابق ص ٢١٥ – ٢١٦.

المعاصرة . لذلك كان أولياء أمور الطلاب يسجلون أولادهم في المدارس الأجنبية بغية تعلمهم شيئا يفيدهم في حياتهم العملية مستقبلا .

وأذكر هنا في الحديث عن الآثار المترتبة أو الناجمة عن مدارس أهل الذمة وأثرها في إقصاء الشريعة وإدخال المذاهب الفكرية المنحرفة والأفكار الثورية هناك الوثيقة التي أرسل بها **(هرتزل)** إلى السلطان **عبد الحميد** في١٣٢٠ هـ الثالث من شهر مايو ١٩٠٢م يقترح عليه إنشاء جامعة يهودية في القدس تفتح أبوابها للطلبة العثمانيين جاء فيها :

" لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتكم المتناهية الاقتراح التالي : إنني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركيا لتلقي العلم في الخارج ومايتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية مما يجعل الحكومة أمام أحد أمرين :

ـ إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي .

ـ وإما أن تعرضهم إلى أخطار الغوايات السياسية (١) .

ثم تبرز الوثيقة الدور الخطير الذي يلعبه اليهود في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، وأن الأساتذة اليهود يمثلون جامعات أوروبا، وأن منهم عدد كبير من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول العلمية لايمكن الاستغناء عنهم، وبناء على ذلك يقدم اقتراحه قائلا : لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في امبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلا، وعندئذ لن يضطر العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج بل يبقون في بلدهم ويتلقون فيها أفضل التدريب وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها (٢) .

والذي حمل هرتزل على إرسال هذا الاقتراح ماكان يعاني منه السلطان عبد الحميد من تأثر الشعب التركي بالأفكار الثورية والاتجاهات المنحرفة والغوايات السياسية التي كان يبثها في عقولهم أساتذتهم في الجامعات الغربية، ولاسيما اليهود والماسونيون العاملون في حقل الدراسات الاستشراقية (٣).

---

(١) حسين الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ج٢ (وثائق ونصوص تاريخية ، دار المعارف)١٩٧٠م وثيقة رقم ١ ص ٩٧.

(٢) انظر : دور اليهود في إسقاط الخلافة ص ٥٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٥٥ دور اليهود الدونمة .

إهتمام المنصرين برياض الأطفال :

جعل بعض المنصرين رياض الأطفال القاعدة التي يعتمد عليها القائمون علـــى نظـــام الإرساليات التعليمية، فاهتم المنصرون برياض الأطفال اهتماما بالغا، لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها بابا مفتوحا للتنصير للتأثير على عقول الأطفال الغضة (١).

وتعتبر مدارس رياض الأطفال فيما دون السابعة من العمرالقاعدة التي يعتمـــد عليـــها نظام الإرساليات التعليمي (٢).

والاهتمام كان إذن بجميع مراحل التعليم من رياض الأطفال إلى التعليـــم العـــالي (٣). لأن كل مرحلة من مراحل التعليم كان لها اهتمامها واحتياجها، فمرحلة الابتدائي تختلـــف عن الإعدادي عما بعدها ، سواء من حيث المناهج أو من حيث الثمرة التي تحقق الـــهدف المنشود في أن الهدف لجميع مراحل التعليم عند أهل الذمة في الدولة العثمانية كانت أهدافا شبه محددة وينحصر في محاولة التنصير أو خلخلة العقائد والمباديء التي كانت راســـخة في أذهان المسلمين (الدارسين) قبل دخولهم إلى تلك المـــدارس والمؤسســـات التعليميـــة عموما .

وكان الاهتمام بالمرحلة التمهيدية أو ماسمي برياض الأطفال كبيرا كما ذكرت، ويتمثل هذا الاهتمام بتوفير كافة الوسائل التعليمية في رياض الأطفال أو الابتدائية وكثرة عددهـــا وكان سن التلاميذ يتراوح فيما بين الرابعة والسابعة وكانت رياض الأطفال في اســـطنبول خاصة ملحقة بمدارس ابتدائية أو ضمنها .

والجدول رقم (و) في الملاحق (يمثل عدد رياض الأطفال التابعة لأهل الذمـــة فـــي اسطنبول في بداية القرن العشرين) .

ومجموع هذه المدارس (٤٢) (٤)، وهي تمثل عددا كبيرا ولاشك خاصة إذا تصورنـــا المنتظمين فيها من الطلاب !! من طوائف هم أقلية ! وإن كانت هذه إحصائية غير دقيقـــة لعدم وجود وثائق تثبت الكل !! أو أنها أكثر من ذلك .

---

(١) انظر عمر فروخ : التبشيروالاستعمار ص ٧٨ .

(٢) انظر إبراهيم عكاشة : ملامح عن التنصير في الوطن العربي . ط. الرياض جامعة الإمام ١٤٠٧هـ ، ص ٣٠.

(٣) اسماعيل الكناني : فصل الدين عن الدولة ص ١٢٨.

(٤) انظر سهيل محمد صابان : المرجع السابق ص ١٧٧- ١٧٩.

أما المرحلة الابتدائية :

فلم تبعد عنها في الاهتمام من قبل المؤسسين ، وكانت سنوات الدراسة في تلك المدارس الابتدائية مختلفة نظرا لاختلاف الدول المنشئة لتلك المدارس ، فكانت كل مدرسة تسير وفق نظام البلد المؤسس أو الممول ، وليس للدولة أي تدخل في تنظيم شؤون المدارس ، فمثلا في معهد القديس (**بنو**) الفرنسي كانت مدة الدراسة في المرحلة الابتدائية ٤ سنوات في الوقت الذي كانت فيه مدرسة القديس (**ليون**) خمس سنوات ، ومعهد القديس (**جوزيف**) الفرنسي ٣ سنوات، مع أنها كلها كانت فرنسية . أما المدارس الإيطالية فكانت فيها الدراسة خمس سنوات والرومية ست سنوات وهكذا ..

والجدول رقم (ز) في الملاحق مأخوذ من نظارة المعارف العامة في اسطنبول ١٣١١هـ ــ ١٨٩٢م ويبين عدد المدارس الابتدائية الأجنبية وكان مجموعها (٢١٠) مدرسة(١).

ويلاحظ أن عدد مدارس اليهود تعد نسبة كبيرة جدا بالنظر إلى عدد اليهود كأقلية في اسطنبول .

*** المدارس الاعدادية :**

وقد بذل أهل الذمة المقيمون في اسطنبول جهدا مضنيا في إنشاء المدارس الاعدادية وقد كانت الحاجة ماسة إليها بالنظر إلى الأعداد الكبيرة المقبلة عليها من الابتدائية الكثيرة وبالطبع تختلف في أنظمتها وبروتوكولها حسب ماسبق معنا في المدارس الابتدائية .

وقد جاء في إحصائية نظارة المعارف العامة في اسطنبول في نفس السنة ١٣١١هـ ــ ١٨٩٢م عدد مدارس أهل الذمة في اسطنبول وحدها (١٢٩) مدرسة إعدادية تقريبا .

المدارس الثانوية :

أما في المرحلة الثانوية فإن الوضع يختلف نظرا لأنها تنقسم إلى مدارس تواصل التحصيل أو معاهد كلها تحت مسمى معاهد علمية أو ثقافية أو أدبية وهي في حقيقتها غير ذلك ــ كما سنفصل ذلك في الآثار التي نجمت عن هذه المدارس ــ وعدد الثانويات في اسطنبول وحدها (٣٢) ثانوية، ولنا أن نتساءل ماذا بقي للدولة إذن في تلك الفترة وقد كانت هذه الثانويات تتبع شتى الدول من فرنسية أو أمريكية أو إيطالية أو يهودية .

---

(١) سهيل محمد صابان : المؤسسات التعليمية الأجنبية في اسطنبول ص ١٨٠ - ١٨١.

المرحلة الجامعية :

ثم تأتي بعد ذلك أهم مرحلة يكون فيها السيطرة على قادة الفكر وهي مرحلة النضج عند الشباب ومرحلة تبني الأفكار والمذاهب ومرحلة التغيرات الجذرية عند الشباب، لذلك اهتم المنصرون اهتماما بالغا بهذه المرحلة وعدها معامل لتخريج قادة الشعوب ورواد الفكر الذي يريدون له الانتشار، لذلك عملت الإرساليات الأمريكية خاصة بإقامة كليات مجهزة تجهيزا جيدا في اسطنبول وبيروت وازمير وغيرها من المدن الإسلامية (١).

الجامعات التي أسسها أهل الذمة:

كانت أول الجامعات المفتتحة في اسطنبول ، جامعة (**قوروجشمة**) الرومية عام ١٢٢٠ هـ ــ ١٨٠٥م وكانت تحتوي على كليات الآداب واللغة والرياضيات والطب كما كان التدريس فيها باللغة الرومية ، وكان الطلاب من الأروام دون غيرهم (٢).

ثم أنشئت كلية أخرى لإعداد المعلمات للمدارس الرومية ، وكانت ذات مناهج حديثة إضافة إلى اهتمامها باللغات الأجنبية المختلفة (٣).

يلاحظ من تاريخ تأسيس أول جامعة أي قبل عصر التنظيمات .. والقبول خاص بالروم فقط . وافتتحت إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر كلية التجارة وكانت مدة الدراسة بها ٤سنوات، وافتتح أيضا معهد **روبرت** الأمريكي الذي كان يضم تخصصات علمية مختلفة . وكان في حقيقته كلية نصرانية غير مستتيرة لا في تعليمها ولا في الجو الذي تهيؤه لطلابها(٤) . وقد افتتح فيه كلية الهندسة وكلية الطب وأنشيء مستوصف لتدريب الطلاب فيه ، وافتتح معهد طبي لتدريب الطالبات (٥) .

وكان مؤتمر اتحاد الطلاب النصراني تعقد في معهد روبرت الأمريكي حيث كان يبحث فيه عن أوضاع التعليم النصراني في العالم الإسلامي ، وطرق مواجهة الجامعات الإسلامية لمناهضتها . مع أن عدد الطلاب المسلمين في الكليات التابعة لمعهد روبرت كان كثيرا (٦) ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى .

---

(١) انظر عمر فروخ : مرجع سبق ذكره ص ٩٤.

(٢) محمد صابان : ص ١٨٥.

(٣) انظر علي حيدر : المدارس الرومية في تركيا ص ١٦٩.

(٤) انظر عمر فروخ : المرجع السابق ص ٩٥.

(٥) المرجع السابق : عمر فروخ ص ٩٩ - ١٠٠.

(٦) انظر عمر إبراهيم عكاشة : ملامح عن النشاط التصيري في الوطن العربي ص ٣١.

أما عن الجامعات والمعاهد اليهودية فالظاهر أنها كانت تهتم بـــالمدارس الصناعيـــة والتجارية والزراعية . وإن لم يكن افتتاح الكليات ممكنا فلا أقل من أن تتضمـــن منـــاهج المدارس المواد التجارية والإقتصادية والصناعية مما يساعد الطلاب في حياتـــهم العمليـــة مستقبلا، وكانت تلك المدارس اليهودية تحت إشراف الجمعية اليهودية الباريسية (١).

ولما ذاع صيت المدارس الأجنبية في اسطنبول بحصـــول المتخرجيـــن منـــها علـــى الوظائف المرموقة في الدولة والشركات الأجنبية ، بدأ المسلمون يرسلون أولادهـــم إليـــها بغية الحصول على الشهادات العالية التي تساعدهم في حياتهم العملية مســـتقبلا، غـــير أن الدولة العثمانية كانت تمنع المسلمين من إدخال أولادهم إلى تلك المدارس قبـــل أن ينـــهوا التعليم الابتدائي شريطة اقتصار التعليم الديني في تلك المدارس على الطـــلاب النصـــارى فقط(٢). إلا أن القائمين على المدارس الأجنبية لما رأو أن القانون (الفرمـــان) العثمـــاني القاضي على النصراني بمنع تغيير مذهبه ومنع المسلم من تغيير دينه سد أمامـــهم . بـــدأ السفير البريطاني في اسطنبول في محاولاته لتغيير الفرمان المذكور، فأقنع المسؤلين بذلـــك بعد منتصف القرن التاسع عشر، وأصبح الطلاب المسلمون في هذه المؤسسات التعليميـــة يشاركون في الطقوس الدينية النصرانية لدرجة أنه إذا أخطأ الطالب لايغفر ذنبـــه إلا بعـــد تقبيل الصليب ووصل الأمر بمعهد روبرت الأمريكي والذي كان يوجد به كثير من الطلاب المسلمين إلى إفطار الطلاب الصائمين جبرا، والتحدث عن الأفكار والقيم المخالفة للإســـلام في الحفلات المدرسية العامة ، وكان المسلمون الذين دخلوا في هذه المدارس والمؤسســـات التعليمية الأجنبية من أولاد الأمراء والباشوات والقواد ومدراء البنوك والسماسرة والأطبـــاء وغيرهم من الطبقة الراقية في البلاد (٣). وقد ظلت أمور الدولة بيد هذه الطبقة مدة طويلـــة وأصبح الجمهور عرضة للتأثر بها (٤).

ولم تكن هذه النوعية من الطلاب خاصة في معهد روبرت فقط بل كذلك فـــي غيرهـــا مثل مدرسة القديس جوزيف الفرنسية في اسطنبول . وهذه التشكيلة بطلابها عام ١٣٣٢هـــ ـــ ١٩١٤م كان فيها أولاد الأمراء وأبناء الضباط والقواد ومن أبناء الشخصيات الكبيرة في الدولة (٩٠) طالبا ، ومن أولاد الأطباء كذلك (٩٠) ، ومـــن أولاد السماســـرة وأصحـــاب البنوك (١٢٠) وغيرهم من أبناء المحامين وأصحاب الإيرادات المالية الكبيرة ، وكانت هذه

---

(١) سهيل محمد صابان : المرجع السابق ص ١٨٠ ، ١٨١.

(٢) انظر المدارس الأجنبية الخاصة . مجلة النصيحة ص ٢٠ نقلا عن صابان ص ١٦٨.

(٣) انظر محمد صابان : ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) د . بركات دويدار : الحركة الفكرية ضد الإسلام. ط القاهرة ، دار التراث العربي ١٩٧٤م . ص ١١٤.

المدرسة تضم (٧٥٠) طالبا(١)، من أبناء علية القوم !! سواء من المسلمين أوغير المسلمين إلا أن عدد أبناء المسلمين أصبح يتكاثر سنة بعد سنة لازدياد شهرة المعهد بين المسلمين وغيرهم (٢).

مع هذا الجو المترف والذي ضم أبناء علية القوم في تلك الفترة تحت سيطرة أهل الذمة متمثلة بإدارة تلك المدارس ونظامها ومناهجها كان أهل الذمة حريصين على إفساد طائفة كبيرة من الطلاب حيث كانت هذه المدرسة تمثل المحطة الأولى لغرس الأفكار التي ظهرت في تلك الفترة وعقبها من تلقين المبادئ اللادينية والشيوعية وغيرها من المذاهب العصرية الملحدة معتمدين في ذلك على النظريات الهدامة التي تفسر المجتمع بأسرع ما يمكن وباسم العلم، وهذا الكلام يدعونا إلى أن نستمع إلى ما يذكره قادة هؤلاء المفسدين المنصرين مثل زويمر وغيره، مما بين لنا الأثر المترتب على هذه المدارس وانتشارها بين المسلمين وتأثر المسلمين بها . فهي في حقيقتها ما كانت إلا معاهد للتكفير ومهما يكن في تلك المدارس من علم وثقافة وأدب كما هو شائع بين الطبقة المثقفة فإن الطالب لم يستفد منها شيئا بجانب ما خسر فيها من دينه ومن إخلاصه لأمته ، فقد أصبح كثير من المتخرجين من هذه المدارس والجامعات حريصين على إفساد كثير من الطلاب من بني جلدتهم (٣).

يقول زويمر في مؤتمر أعمال المبشرين المنعقد في القدس ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م :

'' لقد أعددتم في ديار الإسلام شبابا لايعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من إسلامه ولم تدخلوه في المسيحية ''. وبالتالي جاءت النشأة طبقا لما أراد الاستعمار لا يهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل ولا يعرف من همه في دنياه إلا للشهوات (٤).

ومن الآثار التي نتجت عن هذه المدارس أن نبتت فكرة (إلحادية) أن الدين من الأعمال الفردية الشخصية الخاصة بالإنسان والتي تترك فيها الحرية الكاملة ودون التقيد في ذلك بآداب اجتماعية معينة دون أن يكون لهذا التدين أدنى صلة بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الإقتصادية السائدة في الحياة (٥).

---

(١) محمد صابان : المرجع السابق ص ١٦٩.

(٢) المرجع السابق : ص ١٧٠.

(٣) المؤسسات التعليمية في اسطنبول : (مرجع سابق) ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٤) انظر عماد شرف : حقائق عن التبشير. ط. المختار الإسلامي ١٣٩٥هـ . ص ٣٣.

(٥) انظر علي عبد الحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، ط الكويت دار البحوث العلمية. ص١٣٩ .

هذه هي حقيقة العلمانية وما تريد أن تصل إليه ـ أي فصل الدين عن الحياة ـ فهي إذن وليدة مثل تلك المدارس التي حرص المبشرون على إيجادها بين المسلمين .

ويقول المستشرق الإنجليزي (**هاملتون جب**) :

'' لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك المسلمين ولو على غير وعي منهم أثرا يجعلهم في مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد . ولا ريب أن ذلك هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار '' (١) .

(١) انظر : إبراهيم النعمة : كلام في الغزو الفكري ص ٧٤ - ٨٠.

المبحث الثالث

إحياء القوميات ونشر المذاهب الوضعية في البلاد العثمانية

ويشتمل على مطلبان :

المطلب الأول : إحياء القوميات :

أولا : القومية الطورانية

ثانيا : القومية العربية

المطلب الثاني : نشر العلمانية في البلاد الإسلامية

أولا : القوميـة الطورانـيـة

أساس الفكرة الطورانية :

تقوم فكرة الطورانية على أساس التأليف بين الناطقين باللـــهجات التركيـــة أولا ، ثـــم تكوين اتحاد حلفي منهم بينهم وبين الأمم التي أصلها طوراني مثل : المجـــر (هنغاريـــا) بلغاريا ، فنلندا ، وهي حركة تركية بحتة تعتبر الأتراك عنصرا نفيسا له سماته الســـلالية والتاريخية، ويمكنه أن يخلق قومية على غرار القوميات الأوربية التـــي ظـــهرت آنـــذاك كالنازية مثلا . فهي تهدف إلى إعلاء القومية التركية وتدعيم الصلات بين الترك في الدولة العثمانية وسائر أجناسهم في وسط آسيا ، ويقوم أساسها الفلسفي على الدعوة إلى :

١ــ ربط أتراك الدولة العثمانية بسائر أجناسهم خارج الدولة (دون اعتبار اختلاف الملـــة).

٢ــ تحرير التراث التركي والثقافة واللغة من المؤثرات العربية والفارسية .

٣ــ العمل على سيادة العنصر التركي وتفوقه بتتريك سائر الجنسيات في الدولة (١) .

وتستمد الطورانية أفكارها من فيلسوفها **(ضياء ألب)** إذ اعتبرها أساسا دوليـــا عالميـــا ورأى فيها عوضا عن الخلافة الإسلامية، لذا نراه يدعو إلى سلخ تركيـــا مـــن ماضيـــها القريب، وأعادة تكوينها تكوينا غربيا قوميا خالصا، وماذلك إلا لسبب واحد في رأيه هو أن الحضارة الغربية هي امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك الســـلف (ســـكان آســـيا الوسطى) في العصر الطوراني في تكوينها ثم ساهم الأتراك المسلمون في رقيها وتعلمـــها من أوروبا) (٢).

هذه الأفكار وأمثالها مما ساعد في ترسيخ روح القومية بيـــن المســـلمين العثمـــانيين خاصة وقد وجدت صداها لدي الشعب التركي .

كان العقل المدبر لها رجل اسمه (جوك ألب) اتصف بالذكاء والدهاء وقد تتلمذ علـــى أيدي فلاسفة الفكر الماركسي والصهيوني ، وراح يبث فكره للأتراك عبر صحيفة **(توحيد أفكار)** وقد كان يعد بحق نبي الاتحاديين وداعي الأتراك إلى صراط الطورانية .

---

(١) انظر محمود صالح منسي :حركة اليقظة العربية : ص١٥١ ، عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي ص ٢٩١-٢٩٢ .

(٢) أبو الحسن الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية . ص ٤٧ .

يقول عنه **عباس العقاد** واصفا خبثه وخطورة فكره :

ولد في سالونيك هذا كان يكنى (جوك ألب) فيلسوف الحركة ومبشرها الأكبر في القرن العشرين ، وجوك ألب رجل غير موثوق من نسبه التركي ولم يكن من المولودين في البلاد التركية ، وأنه كان ينتسب إلى جهة جانب ديار بكر بالعراق ... وكان أكثر من هذا وذاك تلميذا للعالم الاجتماعي اليهودي (دركايم) ... وهذا هو رسول الماركسية في ميدان العمل الاجتماعي(١) .

وقبل التفصيل في نشأة الفكرة الطورانية عند الأتراك يجدر بنا أن نقدم نبذة مختصرة عن هذا المصطلح ومايدل عليه :

هذه الفكرة كما هو واضح من منطوقها مركبة من كلمتين لكل كلمة مدلولها الخاص عند أصحابها :

أما الشطر الأول من الكلمة (**قومية**) :

فسيبسط الكلام عنه في الحديث عن القومية العربية وهي كغيرها من سائر القوميات لها مقوماتها وعناصرتكوينها على خلاف في بعض تعريفاتها .

أما الشطر الثاني من الكلمة وهو (**طورانية**) :

فهونسبه إلى (طوران) وهواصطلاح من أصل فارسي وهو يشير بوجه عام إلى المناطق الواقعة شرقي وشمال شرقي إيران، وهي المناطق التي كان يعتقد في القرن التاسع عشر أنها الموطن الأصلي للجنس الطوراني وتمتد هذه المناطق في مساحات شاسعه في آسيا الوسطى والشمالية ، وكان من نتيجة النظريات الطورانية أو الطورو- آرية أوالاورالد ــ الطائية الجديدة نمو شعور معين بوجود قرابة بين شعوب كانت تعتبر تنمية للجنس الطوراني ومنها الأتراك ... (٢) .

نشأة القومية الطورانية :

إن الفكرة "القومية" عند الأتراك العثمانيين بدأت أولا كحركة لغوية أدبية فقط كغيرها من القوميات ــ فأول البدايات تكون لغوية بحتة ثم تاريخية فقط وبعد ذلك يدخل الجانب السياسي فيوجهها على مايريد دعاتها الأوائل في الغالب ــ ثم صارت تظهر في الأبحاث التاريخية، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسية .

---

(١) بين الكتب والناس ــ الحركة الطورانية ط١ مصر ١٩٥٢ ص ٤٣.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ص٢٦١ .

هذا هو رأي **الحصري** ، وهو تقسيم القومية الطورانية في نشأتها إلى ثـــلاث مراحــل مهمة كما سبق معنا ــ ويقول بعد كلامه السابق: " ومن الطبيعي أن التتريك فـــي اللغــة والتاريخ مهد السبل إلى التتريك في السياسة والحكم، ولكن هذا التتريك الأخير بدوره ساعد على إتمام التتريك في اللغة والتاريخ مساعدة كبيرة ...... وقد مرت هذه الحركة في ثــلاث أدوار متتالية :

أ ــ الدور الذي يمتد من بدء حركة التنظيمات إلى حيـــث انقــلاب الدســتور وتأســيس "مشروطية الحكم " حسب تعبير الأتراك سنة ١٣٢٦هــ ــ ١٩٠٨م.

ب ــ الدور الذي يمتد من انقلاب المشروطية الثانية إلى إعلان الجمهورية التركية .

ج ــ الدور الذي بدأ بإعلان الجمهورية التركية (١) .

وقد أدى اليهود والنصارى دورا كبيرا في تحريك عجلة القومية، فكان لليهود في تركيا اليد الطولى في إذكاء روح القومية الطورانية كما كان لإخوانهم النصارى سبق الصـــدارة في إنشاء فكرة القومية العربية في البلاد العربية، وكان من أبرز المجالات التي برز فيـــها أهل الذمة وأوضحها إفسادا ، مجال التتريك في التاريخ .

فبعد أن كانت فكرة القومية التركية بمعناها المتميز عن العثمانية وعن الإسلامية علـــى حد سواء . فما كانت تجول لا في خواطر رجال الدولة ومتنوري الأمة ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس .

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى في العهد الذي عرف في التاريخ العثماني باسم " عهد التنظيمات " .

ثم بعد ذلك وفي عهد التنظيمات بالذات نشطت الحركة الأدبية فكانت نهضة أدبية قوية جدا ، تأثرت بالأدب الأوروبي تأثرا شديدا ، وهذا الكاتب اليهودي **برنارد لويس** يعــترف بل يفتخر في كتابه **(نشوء تركيا الحديثة)** ، حيث يقول: " لقد تعـــاون الأخــوة الماســون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد لأنه كان معارضا قويا لليهود، وذلك لأنه رفض بشدة إعطاء أي شبر من أرض فلسطين لليهود .

وبعد هذه الخطوة وفي هذا الجو ــ خلع الخليفة ــ عمل اليهود بلا تستر ولاوجل علـــى تحويل ولاء المسلمين في الدولة العثمانية للإسلام إلى الولاء القومي حتى يخرجوهم تبعـــا لجزئيات جنسياتهم المتعددة والتي ماوحدها إلا الإسلام .. وظهرت القومية التركيـــة علـــى حقيقتها في جمعية الاتحاد والترقي أو تركيا الفتاة، وهؤلاء هم الذين ظهرت فيهم القوميـــة

---

(١) انظر ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ٩٦ .

التركية على حقيقتها كما يقول " زين " وأصبحت تعرف بالاتحاد الطوراني وهـو حركـة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب التي تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية (١) .

" ويعتقد أن الفكرة مستمدة من كتاب فرنسي اسمه " **Khoon Cahun** " حيث يرى فيه **(كاهون)** أن الطورانيين كانوا فيما مضى من الزمن شعبا ذكيا ممتازا لكنه أخذ بالتقهقر والانحدار عندما تخلى عن الخصائص التي كان يمتاز بها في صحاري آسيا الوسطى واعتنق الإسلام دينا وحضارة ... فانظر إلى خبث هذا الكاتب الفرنسي وبذره لبدايات خطوط الطورانية وكيف تلقاها عنه سذج المسلمين والمستغربين والمتربين في أحضان الماسونية أمثال الدكتور **ناظم** . وكان عضوا بارزا في جمعية الاتحاد والترقي واعتنق الطورانية مذهبا بعد اطلاعه على هذا الكتاب الذي أعاره إياه القنصل الفرنسي في سالونيك " (٢).

وهذه البدايات للفكرة القومية الطورانية يوافق عليها أكثر الباحثين في نشأة القومية الطورانية حيث يجعلون من أقوى المعاول التي هدمت العقيدة الإسلامية والارتباط الديني لدي العثمانيين وحولتهم إلى شعارات جاهلية قومية هي الكتابات الغربية .

وتلقف بعض أبناء المسلمين وأعضاء الجمعيات اليهودية من الأتراك أوغيرهم لهذه المقولات ونشرها بين العامة على صفة بحوث علمية ودراسات منهجية أو بحجة إعادة كتابة التاريخ مرة أخرى وماشاكلها من المسالك .

إن حركة التتريك في المباحث والتأليف التاريخية بدأت في أواخر القرن التاسع عشر، بالالتفات إلى مانشره المؤرخون الغربيون عن تاريخ الأتراك قبل الإسلام .

إن مؤلفات ــ **فون لوقوك** ، **موئيزكوهين** ــ بوجه خاص أدت دورا مهما في هذا المضمار، فقد وجد بعض الكتاب في تلك المؤلفات مباحث عديدة تبرهن على أن الأتراك كانوا متقدمين في الحضارة تقدما بينا قبل ظهور الإسلام أيضا، ولذلك صاروا يقتبسون منها مايتعلق بتاريخ الأتراك " السابق للإسلام والمستقل عن الإسلام " .

ومن جهة أخرى أخذ بعض الكتاب يهتمون بالمباحث المتعلقة بخدمة الأتراك للحضارة الإسلامية، وينشرون الرسائل والمقالات للبرهنة على أنهم لم يكونوا أهل حرب وضرب فقط ، كما يزعم بعض المؤرخين بل إنهم كانوا أهل علم وحضارة أيضا ...

---

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ص ٨٧ ، نقلا عن صالح العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ١٠٥.

(٢) انظر العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ١٠٤ – ١٠٥.

وهذه الجهود بلا شك قدمت دورا مهما في إيقاظ روح القومية وإثارة الغرور القومي عند الأتراك العثمانيين. فأصبحت تسمع كلمة " تركي " تستعمل للمرة الأولى بنوع من الاعتزاز، كما بدأت صفة (تركي) تحل محل صفة (عثماني) في كثير من الصحف ، بعد أن كانت تستعمل أحيانا في أوج التاريخ العثماني للإشارة إلى الرعاة التركمان ثم بعد ذلك إلى الفلاحين الجهلة الخشنين الذين يتكلمون اللغة التركية في قرى الأناضول . كما شاع استعمال اصطلاح " تركستان " وانكمش مدلول مصطلح " عثماني " الذي أصبح يستعمل لتميز أتراك الدولة عن أتراك البلاد الأخرى (١) .

ثم يذكر ــ ساطع الحصري ــ أنه علاوة على هذين التيارين السابقين فإن جهود الكتاب والمؤرخين والمفكرين تعدت هذين الاتجاهين ومنها :

أولا : بدأ تيارقوي يدعوإلى إعادة النظر في التاريخ المدون وشبهتهم وحجتهم في ذلك:

أن التاريخ العثماني مثل تاريخ الإسلام ، كتب بنظرات دينية، وهذه النظرات الدينية حالت دون تقدير الوقائع على وجهها الصحيح فمثلا : اعتناء المؤرخين بأن ينزلوا اللائمة على جنكيز خان وأن يلعنوه ، لإنه غزا بلاد الإسلام وحارب المسلمين . ولكننا إذا نظرنا إلى الوقائع التاريخية وحقائقها بنظرات مجردة عن التعصب الديني اضطررنا إلى التسليم بأنه كان من عظماء التاريخ فضلا عن ذلك فإنه خدم الأتراك في جمعهم تحت راية واحدة،فيجب علينا أن نغير نظرتنا إليه ، وأن نعدل عن لعنه ولانتردد في تعظيمه !! وهذا ماهو حاصل إلى الآن في تركيا .

هذا مثال وغيره من الأمثلة كثير . وفعلا هذه الجهود التي بذلت في هذا السبيل والمقالات والكتب التي نشرت حول هذه القضايا ، أثرت في مشاعر الأتراك العثمانيين تأثيرا قويا .وصار الجيل الجديد منهم لايذكر **جنكيز خان وآتيلا** إلا بالتعظيم والاحترام، حتى إن بعضا منهم صار يتهافت على تسمية أولاده بأسماء هؤلاء الذين كانوا يلعنون في السابق .ومما يؤيد الكلام السابق ــ لساطع الحصري ــ ماذكر صاحب أصول التاريخ العثماني في قوله '' إن مما ساعد على نمو وظهور الشعور بالقومية التركية أن عددا من الأوروبيين المتخصصين في الدراسات التركية بدأوا يكتشفون ماضي الأتراك والدور الحضاري الكبير الذي لعبوه في آسيا الوسطى ، ودور لغتهم وثقافتهم في التاريخ ويلفتون النظر إلى الشعوب المعاصرة التي تتكلم اللغة التركية ، خارج نطاق الامبراطورية العثمانية ، في آسيا الوسطى ، ومنطقة الفولجا ، والقوقاز ، وإيران '' (٢) .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٦٢ .

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٦٠ - ٢٦١.

ثانيا : ومن الاتجاهات والتيارات التي أنضمت إليها التيارات السابقة اتجاه جديد لـــم يسمع به الأتراك من قبل ، بل ولم يخطر على بال المثقفين منهم فضلا عن عوام النـــاس . وهو تيار توسيع مفهوم الترك والأتراك ليشمل عدد كبير من أمم التاريخ القديم .

فقامت حركة قوية باعتبار الأتراك والتتار والمغول .. كلهم أمة واحدة، وصار القـــوم يعتبرون رجال جميع هذه الأمم أجدادا لهم وأسلافا .. ثم أخذ التيار يتعدى هـــذه الحـــدود أيضا، فصار بعض الكتاب يعتبرون السومريين والحثيين أيضا في الأتراك ويدخلون جميـع مآثر الحضارة السومرية والحضارة الحثية في نطاق مفاخرهم القومية .

وهذه الجهود بدأت أولا شخصية وفردية على أيدي بعض اليهود مثل **موئيز كوهيـــن** ، **وخالدة أديب** ، ولكنها لم تلبث حتى أصبحت جماعية تولتها الهيئات والجمعيات ، وفي آخر الأمر تبنت الحكومات نفسها هذه الجهود وعهدت بأمرها إلى لجان وهيئات رسمية .

ووصلت هذه الجهود إلى انحرافات كبيرة جدا عن منحى البحث العلمي ، ومن الأدلـــة على هذه الانحرافات وبعدها عن التوثيق ، أضرب بعض الأمثلة من بحوث قدمت بأدلتـــها وبراهينها الساطعة على زعمهم، وهي أبعد ماتكون عن المعقول والمنطق، فضـــــلا عـــن الحقائق العلمية والبراهين الثابتة :

فقد ألف أحد أساتذة تاريخ الحقوق في جامعة استانبول كتابا عنوانه " **منشأ الحضـــارة اليونانية** " حاول فيه البرهنة على أن الحضارة اليونانية منحدرة من أصول تركية .

وأما أبرز البراهين التي أوردها ، أن اليونانيين كانوا يعبدون آلهة اسمها " **آثينا** " وهي المدينة المعروفة بها الآن .

ويقول: '' من الأمور الظاهرة للعيان إن هذا الاسم يعني " **آنا** " مخفف من آن ــ آنـــا، النصف الأول من هذه الكلمة " آن " تدل في اللغة التركية على "**الحصان**" ، والنصف الثاني " **آنا** " تدل على " **الأم** " ، واعتبار الحصان أم **الألهة** من خصائص الأتراك .. يمكن الجزم بأن اسم هذا الإله انتقل إلى اليونان من الأتراك .. فلا يبقى مجال للشك في أن الحضــــــارة اليونانية انحدرت من أصول تركية !! وأغرب من ذلك أن الكتب المدرسية التركية الحديثة تزعم أن طارق بن زياد ، تركي الأصل '' (١) .. ويوردون على ذلك أدلة أغرب وأتفـــه من قصة اليونان وحضارتهم ! .

فالذي تحول في هذا الأمر وجعل له خطورته وأثره البالغ في المسلمين هو تحول هـــذه الجهود من جهود فردية ومشاريع خاصة إلى تبني الدولة لهذه الخرافات والأفكار الهدامـــة

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص١٢٣ .

والأبحاث المتكلفة الممجوجة أمثال ماسبق من الشواهد، ولكن بلا شك لاقت أمثال هذه الأبحاث رواجا بين العقول الخاوية المسلمة نفسها لخبث اليهود ومكرهم، في إرساء قواعد القومية الطورانية ونبذ العقيدة الإسلامية .

والعجيب في الأمر أن أبرز قادة الطورانية كانوا من اليهود ، فإنه من المعلوم عند الكل : أنه قبل القرن التاسع عشر لم يكن الترك يعرفون لهم هوية غير الإسلام ويمكن للمرء أن يتحدث عن العرب المسيحيين أو التركي المسيحي فهو تعبيرسخيف واصطلاح مناقض لمعناه (١) . فإن الأتراك قد اندمجوا في الإسلام اندماجا أنساهم قوميتهم إلى أن جاء أمثال " **موئيزكوهين** " اليهودي العثماني .

ولنترك **نيازي بركز** يحدثنا عن الدور الذي لعبه اليهود في إرساء تيار القومية الطورانية في كتابه " **المعاصرة في تركيا** " .

* يقول نيازي بركس الأستاذ بجامعة ماكجل بكندا ، في كتاب " المعاصرة في تركيا " " إن لليهود المحليين في الدولة العثمانية في القرنيين التاسع عشر والعشرين دورا ضخما في إرساء تيار القومية الطورانية . فالعلماء اليهود في الغرب مثل **لوملي دافيد، وليون كاهون، وأرمينيوس فامبري** تصدروا الكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية، كما أن اليهود المحليين (في الدولة العثمانية) مثل **كراسو** (قراصوا) ، **وموئيركوهين، وأبراهام غالانتي** ، كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي . وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم في الاستيلاء على السلطة . تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطنا قوميا لليهود ... (٢) .

ثم يتابع نيازي بركس ذكر شخصية من أبرز الشخصيات التي كان لها دورها الفعال والخطر في خلق الفكرة القومية الطورانية فقد وصفه " **رينيه بينو** " بقوله :

" إن موئيز كوهين هو خالق للفكرة القومية الطورانية في الدولة العثمانية ، إن كتاب موئيز كوهين " **طوران** " هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية، لقد أسهم موئيزكوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي، وهي السياسة التي أثرت على العلاقات التركية العربية ، خاصة في بلاد الشام ، وهي السياسة التي تتردد شكوى العرب منها أثناء حكم **جمال باشا** الاتحادي (٣).

---

(١) انظر : جي . أي كرونباوم – ترجمة د. صدقي حمدي : الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية .ص٤٧٠، ط المثنى . بغداد .

(٢) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ١١٩.

(٣) محمد حرب : المرجع السابق ص ١٢١.

وكانت الحرية التي تمنحها الدولة لكل مفكر على اختلاف أهوائهم ومقاصدهم ، من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية ، ليس في عصر موئيز كوهين بل قبل ذلك أيضا . يؤكد هذا المفهوم **لوثروب ستوارد** في (حاضر العالم الإسلامي) بقوله : " وكان من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية، هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية ، والمدرسية لطوائف النصرانية ، التي كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تحت رعايتها القومية ، وتتماسك وتسير سيرا قاصدا في طريق الانفصال عن السلطنة العثمانية (١).

وهذا ماحدا بقوميات كثيرة وإن كانت شبه منعدمة ولايعرف لها تاريخ ولاسابق حضارة ، ولكن إحياء للروح الوثنية وإبعادا للمسلمين من الاعتزاز بدينهم، فقد كان إحياء ذلك الشعار الطوراني (الذئب الأغبر) في تركيا الكمالية آنذاك بداية مشجعة لرفع الشعارات الوطنية والقومية في سائر ممالك الدولة العثمانية ، فإذا بالفرعونية تبرز في مصر والفينيقية في الشام ، والبابلية والآشورية في العراق والبربرية في المغرب، وقد قام المبشرون والاستعمار والمستشرقون بالترويج لهذه القوميات على سبيل الدعوة لإحياء الوطنية ، ولتكون عوضا عن القومية الإسلامية ، من ثم قضوا على كل قومية ترتبط بالإسلام في الوقت الذي تم فيه ربط الوطنيات بالغرب وقوى الاستعمار المختلفة (٢).

لم يكن العرق أو القومية هو الذي يفرق بين جماعة وأخرى بل الدين، وكانت الهوية السياسية لكل الرعايا هي (العثمانية) أي اعتبار المواطن في الدولة العثمانية عثمانيا أما قوميته فكانت الدين الذي ينتمي إليه، وإن فكرة القومية العلمانية في غرب أوروبا كما كانت أوروبا تفهمها في القرن التاسع عشر لم يكن لها بصورة جماعية أي أثر في التفكير السياسي في الامبراطورية العثمانية (٣) .

وكان لايعرف قبل القرن التاسع عشر قومية تركية إلا على سبيل السخرية من بعض البدو الذين لم يدخل الإسلام قلوبهم، بل حاولوا لفرط شعوبيتهم وبغضهم للعرب والإسلام أن يكون لهم نبي تركماني هو **بابا اسحق** .

الخلاصة أنه لم يكن يعرف إلا القومية الإسلامية، أما القومية التركية في تلك الفترة فكانت تمضي حينا إلى حين مع عقائد الغلاة أعداء السنة ، وأدعياء النبوة ، حتى لقد كانت الأوساط الحاكمة ــ وهي تركية خالصة ــ لا تجد بدا من تجريد الجيوش دفاعا عن

---

(١) انظر ستوارد لوثروب : حاضر العالم الإسلامي ٣ / ٣٢٧.

(٢) محمد محمد إبراهيم زغروت : دور يهود الدونمة في سقوط الخلافة العثمانية ص ١٠٩.

(٣) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية (مرجع سابق) ص ٤٠ .

القومية الإسلامية إلى أن جاء العصر الحديث وقد دخلت القومية التركية في دور جديد (١).

* ظهر المفهوم الجديد للقومية الطورانية نتيجة أبحاث الأوروبيين في النصف الأخير من القرن الثامن عشر التي سبقت الأتراك أنفسهم في إبراز خصائص الأمة التركية لغة وتاريخا ، وكان أشهر ماكتب في تلك الفترة كتاب (التاريخ العام للهون والترك والمغول وبعض التتار الغربيين) للمؤلف الفرنسي **ج ـ دكيني** في سنة ١١٦٩هـ ـ ١٧٥٦م ، ١١٧١هـ ـ ١٧٥٨م .

ثم أخذت هذه الدراسات تتكاثر في القرن التاسع عشر ، وكان المجريون ممن سبق الناس إلى مثل هذه الدراسات . إذ كانوا يبحثون عن أصلهم الأسيوي البعيد، وكذلك الفنلنديون، ثم راجت هذه الدراسات عن الألمان والروس والفرنسيين والإنجليز . ومن أشهر المستشرقين الذين خدموا الدراسات التركية **آرمينوس فابري** سنة ١٢٤٧هـ ـ ١٨٣٢م الذي جمع معلومات كثيرة عن الأتراك .

كما كان الباحث الروسي **رادلوف** يجوب بلاد الترك في آسيا الوسطى يفتش عن المخطوطات ويدرس اللهجات ويجمع أزياء الطوائف المختلفة والآلات الموسيقية .

* فتحت هذه الدراسات عيون الشباب الأتراك على ماضي جنسهم وعلى تاريخ السلالات التركية الأخرى بآسيا وعلى تاريخ الدول التركية القديمة (٢) .

وكما حدث في معظم الحركات الأوروبية ، كان الباحث الثقافي متمثلا في نهضة اللغة التركية وإعادة كتابة التاريخ بمثابة الدفعة الأولى مهدت للفكرة القومية وطورتها فيما بعد إلى حركة سياسية (٣).

وقد آتت هذه الحركة الثقافية ثمارها في تركيا ، وكان أول من نماها من الترك **أحمد وفيق باشا** ، **وسليمان حسني باشا** ، ففي سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م نشر أحمد وفيق قاموس (**اللهجة العثمانية**) في نفس الفترة نقل كتاب الشجرة التركية من اللهجة الشرقية إلى اللهجة التركية القومية . ولم يكتف أحمد وفيق بترجمة كوميديات موليير إلى اللغة التركية، بل قام بتتريك أسماء شخصياتها . ونشر سليمان حسني كتابه (**تاريخ العالم**) وقد استفاد في وضع هذا الكتاب من دكيني بوجه خاص .

---

(١) د. أحمد السعيد سليمان ، التيارات الدينية والقومية في تركيا المعاصرة ص ٢١.

(٢) د . أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ص ٢٤.

(٣) صلاح العقاد : دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا وإيطاليا أمريكا وتركيا ص ١١٨ ، القاهرة ١٩٥٦م .

بهذا نرى أن كتاب **دكيني** كان له أثر عظيم في توجيه الجيل الأول من مروجي القومية التركية، وكما كان لدكيني أثرا على الجيل الأول، كان **لليون كاهون** أثرا بالغا لكتاباته مثـل **(مدخل إلى تاريخ آسيا)** على الجيل التالي من القومية ومروجها مثل **خـــالدة أديــب ــ** سيناكوك ، (وتأثر به أيضا **رضا نور** وقد نقل عنه كثيرا في كتابه **(تاريخ الــترك)** الــذي أراد أن يلقن به الأجيال القادمة أصول القومية التركية (١) .

نخلص من ذلك إلى أن منشأ القومية التركية فكرة ومنهجا تأسست على أيد يهوديـــة .

---

(١) د . أحمد السعيد سليمان : التيارات الدينية والقومية في تركيا المعاصر . ص ٢٦.

ثانيا : القومية العربية

يحسن بنا قبل الحديث عن هذه الوسيلة التي سلكها أهل الذمة مـــع الأمـــة الإســـلامية لإقصائهم عن الشريعة ، أن نقدم بتمهيدعن معنى القومية حسبما يتبادر إلى الذهـــن عنـــد إطلاقها .

القومية : مصدر صناعي ــ ونسبتها إلى قوم ، ولفظ قوم ورد فـــي القـــرآن الكريـــم والسنة المطهرة مطلقا ومقيدا ، وقد ورد لفظ قوم ويقصد به الرجال فقط .. وذلـــك علـــى سبيل المقابلة مع النساء ، كقوله تعالى : ﴿ **لايسخر قوم من قوم** ﴾ ثم قال بعدها ﴿ **ولانساء من نساء** ﴾ (١) .ولأن قوم كل نبي رجال ونساء

وسمي القوم قوما :لأنهم في الأصل يقومون بمهام الأمور و يقيمونها بمـــا تقـــوم بـــه وتصلح عليه(٢).

المراد بالقومية في المصطلح العصري وعند دعاتها :

هي قومة العرب على أساس اتحاد اللغة الواحدة والتاريخ الواحد .

تدل على قوم العرب سواء كانت هذه القومية على الأساس الثابت كالإسلام أو كـــانت على غير الإسلام، بل اللادينية كما هو حاصل، ويجعلون من أساس قيام القوميـــة توفـــر مقومات على اختلاف بينهم في تعبيراتهم عنها . ومحصلتهم واحدة وهي اتحاد الوطنية في اللغة الواحدة والتاريخ .

ولكن هذه المقومات وهي اتحاد اللغة والتاريخ موجودة " منذ القرون الأولى، ولكن لـــم توجد الفكرة القومية حتى في أوربا كمذهب وفكرة للحياة إلا فـــي القـــرن التاســـع عشـــر الميلادى ومابعده " ، والذي يهمنا في ظهور القومية هو نشأتها في المجتمعـــات المســـلمة، ومن الذي كان وراءها من دعاتها سواء القومية العربية أو القوميـــة الطورانيـــة أو حتـــى البربرية في دول المغرب .

والسبب في تأخر ظهور القومية في كل أمة سواء في أوروبا ــ عند سيطرة الاعتقـــاد عند العامة والخاصة ــ بأن ــ " الله الذي يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء أغدق علـــى امبراطورنا خصالا ومزايا كثيرة و نصبه سلطانا علينا " (٣) . وهذا الفكـــر يضـــاد قيـــام القوميات، و هذه نظرة الحصري ويعلنها هو صريحة في أن السبب الرئيسي لتأخر ظهور

---

(١) سورة الحجرات آية ١١ .

(٢) انظر صالح العبود : فكرة القومية العربية ص١٢ .

(٣) ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية ص٦٥ ، صالح العبود : فكرة القومية العربية ص ٢٩ ــ ٣٠ .

القومية قوة الدين " عند الأتراك " أي أن العلاقة بين الفكر القومي والدين السماوي علاقة تضاد وتنافر ..

ويؤكد الحصري نظرة القومية إلى أن السبب الرئيسي لتأخر ظهور القومية هو قوة الدين بما يقوله عن الأتراك فيما يلي :

'' وأما عند الأتراك فالأمور كانت أكثر تعقيدا من جميع النماذج التي ذكرناها آنفا . لأن الشعب التركي كان العنصر الحاكم في دولة إسلامية كبيرة تجمع بين السلطنة والخلافة ، فالشعور القومي ظل تابعا للشعور الديني مدة طويلة ، وذلك أوجد بعض الحالات الخاصة التي حملت القوم على معالجة الأمور بأساليب ووسائل خاصة . وكان من أهم هذه الوسائل إصلاح اللغة والأدب بنظرات قومية بحتة ، وإعادة النظر في مباحث التاريخ على أساس تبعدها من النظرات الدينية وإيجاد تاريخ تركي جديد يثير في النفوس حس الغرور والمباهاة بأمجاد الأجداد ... '' .

لذلك كان من أهم البدائل التي وضعتها العلمانية عن الإسلام كفكر ومبدأ للحياة الفكرة القومية، فهي إحدى النتائج التي أفرزتها الأفكار العلمانية ، فيما أفرزت من آثار ، فقد كان التعصب القومي مظهرا من مظاهر استبعاد الدين عن الحياة، فلا يكون الإسلام هو الرابطة التي يعقد لها الولاء ويجتمع عليها المسلمون وتتوحد بها الآمال والآلام والتعايش والمصير.

فالفكرة القومية فكرة علمانية اتخذت منذ البداية طريقا مغايرا للإسلام (١).

بداية الفكرة القومية العربية :

تبدأ فكرة القومية العربية ببداية فترة المدارس التبشيرية والجمعيات الأدبية والعلمية النصرانية وذلك من سنة ١٢٤٩هـ ــ ١٨٣٤م إلى سنة ١٢٨٥هـ ــ ١٨٦٨م على أيدي النصارى، ونصارى العرب هم أول من حمل فكرة القومية العربية ونشرها لمصلحتهم ولغبن المسلمين ومضرتهم (٢).

ومن أبرز من شرح هذا الدور الكبير لنصارى العرب ، واحد منهم وممن تولى كبر هذه الوثنية في بلاد المسلمين، وقد سطر التجربة والأعمال التخريبية في كتابه الموسوم بـ " **يقظة العرب** " لمؤلفه **جورج انطونيوس** .

---

(١) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص ١٨١.

(٢) صالح العبود : فكرة القومية العربية ص ١٤٤.

يبين كيف أن التسامح الديني كما يسميه " **شكيب أرسلان** " وهو في حقيقته بعد عن شرع الله وتطبيق ما أمر الله به المسلمين في تعاملهم مع أهل الذمة .

فقد فتحت الدولة العثمانية الباب على مصراعيه للرعايا الأمريكان ومكنتهم من فتح الجمعيات والجامعات التي سعت في نشر الفكر القومي تحت شعار الثقافة .

يقول **جورج انطونيوس** عن بداية الفكرة القومية : " بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٢٦٣هـ ــ ١٨٤٧م بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت ، في ظل رعاية أمريكية (١).

أما الثورات و المتكررة التي حدثت في القرون الثلاث السابقة مثل " **فخر الدين** " في الشام و" **محمد علي** " في مصر وغيرهم في العراق أوجزيرة العرب، فلا علاقة لها بالقومية بل ذات أسباب خاصة ..

ومن الركائز المهمة التي اتكأ عليها دعاة القومية، قضية التعليم وتطوير وتعديل المناهج والذي تحمل المبشرون أعبائها ، فقد وضعوا المناهج على مايهوونه من أفكار، ثم جاءتهم مشكلة المعلمين ومن الذي سوف يتولى تدريس النشء .

ففتحوا أو حولوا بعض معاهدهم إلى معاهد لإعداد المعلمين فكان التعليم من تلاميذهم ومن وضعوا الفكر القومي منهم .

ومن هؤلاء التلاميذ تأسست الجمعية السورية في عام ١٢٩٢هـ ــ ١٨٧٥م وهي من المحاضن المهمة التي انطلقت منها الشرارة الأولى على أيدي نصارى لبنان .

فقد تأسست هذه الجمعية على أيدي خمسة من المثقفين النصارى درسوا جميعاً في الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأمريكية) وأخذت توزع منشوراتها في الشوارع في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا . منددة بالحكم العثماني ومطالبة باستقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية (٢) والتركية .

وقد أصبح من الأخبار المتواترة والتي لاينكرها أحد من العرب النصارى أو المسلمين أو العجم هي قيام الفكرة القومية على أيدي رجالات ومفكري النصارى، والذين كان من أبرزهم رجلان وصفهم انطونيوس بالعظمة نظراً لما بذلا في وضع البذرة الأولى للقومية

---

(١) انظر جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ٧١.

(٢) انظر عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ص ٨٣ - ٨٤.

هم نصيف اليازجي ١٢١٤هـ ـ ١٨٠٠م ، وبطرس البستاني ١٢٣٤هـ ـ ١٨١٩م .
حيث يقول جورج انطونيوس في إطرائهم :

" وقد آن لنا أن نتعرف على رجلين عظيمين كان بأيديهما زمام الحياة الفكرية في ذلك العصر في لبنان ... " (١).

فيذكر ترجمته للأول منهما على أنه من أسرة ماضيها خير من حاضرها لبنانية، وقد تلقى التعليم الرسمي الجاف ولكن لم يستطيع أن يخنق نبوغه، وقد شحذت عزيمته الدروس التي تلقاها عن كاهن القرية، وزادت في تطلعه إلى المعرفة ثم بدأ يعرض لشيء مما امتاز به من ذاكرة فذة وحرص ومثابرة على التحصيل واستفادته من المخطوطات وولعه بالأدب العربي وكشف أسراره .. إلى أن قال : وقد أيقظ جمال هذا الأدب الدفين الوجدان العربي في نفسه فهام به وكأنه مسحور ، وأصبح الرسول الداعي إلى بعثه وإحيائه (٢).

فكان رسول القومية الأول . ونشط نشاطا منقطع النظير في مجال تخصصه وحصيلته الأدبية التي أسسها بجدارته وملكته اللغوية القوية !!

وكانت الصفة البارزة التي تميزه هي صفاء الأسلوب، فكانت كتاباته أمثلة تحتذى لنماذج جديدة في التعبير الأدبي .

وكان من الطبيعي أن يتجه إليه الأمريكان يطلبون منه العون !! على إصدار كتب في علوم اللغة العربية .. وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض أن تستعمل في المدارس ولاسيما مدارس البعثة التبشيرية الأمريكية (٣).

" ولم يقتصر جهد هذا الرجل على التأليف فقط ، بل كان عنده أخطر من هذا المجال في نشر أفكاره القومية . . وذلك في بيته الذي ظل مفتوحا للمريدين الذين لم يزل عددهم في ازدياد يتحلقون حوله وينهلون من علمه !! وهو يحدثهم عن جمال اللغة والمواطن الفنية (الإبداعية) فيها ثم نشط في مجالسه في دعوته إلى إحياء الأدب القديم حتى استطاع ونجح في إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيد إلى النجاة، وكان لحديثه في دعوته أن اتجه إليه العرب على اختلاف عقائدهم من نصارى ومسلمين !! في زمان كان التعصب الديني فيه لا يزال عنيفا وكان يهيب بهم ويذكرهم بتراثهم المشترك وأن يشيدوا على أسسه مستقبلا يجمعهم إخوانا متآلفين " .

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١٠٩.

(٢) انظر المرجع السابق : ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) انظر جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١١.

هذا وقد نشأ أولاده وأطفاله الذين يبلغ عددهم اثني عشر من البنين والبنات على نفس الأفكار، حتى بلغ من تأثر أحد أبنائه بتعاليم أبيه أن أصبح فيما بعد أول من نادى بالتحرر القومي للعرب (١).

أما الرجل الثاني فكان **بطرس البستاني " المنصر "** ولد سنة ١٢٣٤هـ ـ ١٨١٩م وكان أيضا عربيا نصرانيا من جبل لبنان ويختلف عن اليازجي صاحبه في أنه تعلم كل ما أتيح له من لغات غير العربية بعد أن أجادها .

فالتحق وهو ابن عشر سنين بكلية الدير، وتعلم فيها السريانية واللاتينية فضلا عن العلوم اللاهوتية وعلوم اللغة العربية .. ولتفوقه الدراسي وذكائه !! اختاره الرهبان ليوفدوه إلى الكلية المارونية في روما على نفقتهم (إلا أنه لم يذهب إلى روما من أجل أمه) وشرع في احتراف التدريس، وحين ذهب إلى بيروت عام ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م تعرف **بإيلي سميث** وبأمريكي آخر جاء إلى بلاد الشام مبشرا وطبيبا وهو الدكتور **تيلوس فان دايك..**

وقد نمت هذه المعرفة بينهم ولم تقتصر على الصداقة وحدها بل تعدتها إلى الامتزاج الروحي فاعتنق البستاني المذهب المشيخي البرسبتاري .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية ارتباطا وثيقا ... وحين طلب منه أن يساعد إيلي سميث في ترجمة التوراة انهمك في تعلم العبرية والآرامية واليونانية القديمة، وأخذ يستزيد من معرفته بالسريانية واللاتينية حتى أصبح متمكنا من جميع اللغات التي كتبت بها أقدم نصوص الكتاب المقدس وكان قد تعلم الإيطالية وتعلم الفرنسية أيضا .

وكان يلقي المحاضرات والمواعظ في الجمعية الأدبية ـ هكذا أسموها ـ التي حث البستاني الأمريكان على إنشائها، كما كان يكتب لهذه الجمعيات النشرات (٢) .

من الواضح جليا من حياة هذا الرجل والمقتطفات المختصرة التي نقلتها أيضا عن جورج انطونيوس تتضح لنا مجموعة من الحقائق تبين للعاقل حقيقة دعاة القومية العربية والمؤسسين لها ومن ذلك :

١ـ أن هذا الرجل منصر قبل أي شيء آخر .

٢ـ أنه متعصب لملته وليس كما يزعم في دعوته التخريبية أن اللغة أساس وحدة الشعوب.

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١١ - ١١٢.

(٢) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١٢ -١١٣.

٣ــ تستره هو وأمثاله من دعاة القومية بشعار الأدب والثقافة واستعارة العناوين البراقة لجمعياتهم ونشرا تهم ومؤسساتهم التنصيرية ــ كما سيظهر هذا الأمر بجلاء أكثر في المباحث القادمة .

٤ــ أنه اعتكف مدة عشر سنوات وكان شغله الشاغل ترجمة التوراة مع أخيه إيلي سميث.

٥ــ في ظل من ترعرع وتربى ؟! ومن الذي احتضنه منذ طفولته إلى كهولته إلى هلاكه ؟! إنهم الأمريكان !!.

بعد هذه المقدمات نلقي نظره على جهود بطرس البستاني ــ القومية والوطنية :

ففي أحداث سورية ١٢٧٦هـ ــ ١٨٦٠م والمذابح التي حصلت بين المسلمين والنصارى ، سعى البستانى إلى تخفيف حدتها بإصدار صحيفة أسبوعية صغيرة في بيروت بعنوان " **نفير سورية** " وكانت أول صحيفة سياسية أتيح لها الصدور في تلك البلاد، وقد أوقفت معظم جهدها في الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة لأن المعرفة كما يذكر في مقالاته المخلصة !! أسبوعا بعد أسبوع ــ تؤدي إلى الاستنارة العقلية والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التعصب وتحل محل المثل العليا المشتركة بين الدينين (١).

ثم يعلق جورج انطونيوس على الكلام السابق بأن هذا الكلام يبدو تافها في وقتنا الحاضر ــ أي بعد أن ذابت الفروق العقدية بين المسلم والكافر والذمي ! ــ ولكن بلاد الشام لم تكن قد سمعت بمثل هذا الكلام من قبل، وكان يشتمل في طيا ته على نواة الفكرة القومية(٢) .

المدرسة الوطنية :

وكانت الخطوة الثانية في سبيل تحقيق فكرته ــ أن أنشأ مدرسة أسماها " **المدرسة الوطنية** " بعد ثلاث سنوات من قدومه لبيروت . غايتها أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم تعليما أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية .

وقد عين في هذه المدرسة **نصيف اليازجي** مدرسا أول للغة العربية مما أكسب هذه المدرسة شهرة واسعة وسريعة وجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام (٣).

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١٤.

(٢) المرجع السابق ص ١١٤.

(٣) المرجع السابق ص ١١٥.

صحيفة الجنان :

ومن الخطوات البارزة أيضا في سبيل تحقيق الفكر القومي لدي المسلمين خاصة عند هذا الرجل بطرس البستاني ــ أنه أنشأ في عام ١٢٨٧هــ ــ ١٨٧٠ م " **الجنان** " وهــي صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين، وكانت الغاية منها محاربة التعصب والدعــوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن وكان شعار الصحيفة (**حب الوطن من الإيمان**) وهــو شعور لم يكن يعرفه العالم العربي حتى ذلك الزمن (١).

وكان هدف الصحيفة الحقيقي عرض الآراء التي كان يدعو إليها مؤسسها، وأنها كانت تهدف إلى توجيه الأفكار إلى التسامح الديني والنظرة الواسعة للأمور ! "

دائرة المعارف :

وهذا المشروع من أضخم مشاريع هذا العصر، فقد شرع فيه وهــو فــي السادســة والخمسين من عمره لا يتطرق إليه الوهن وبنشاط وحيوية الشباب ومع ازدحام الأشــغال والأعمال عليه، ومات وهو يكتب فيها وبيده قلمه بعد أن أنهى ستة أجزاء منها أكملها مــن بعده أولاده إلى أن أصبحت على ما هي عليه الآن أحد عشر جزءا .

جمعية الآداب والعلوم :

اتفق اليازجي والبستاني خلال السنوات الأولى مــن ارتباطــهما بالبعثــة التبشــيرية الأمريكية على أن يقترحا إنشاء جمعية علمية وأهدافها رفع مســتوى المعرفــة ــ علــى نظرية البستاني في المعرفة السابقة ــ بين الشباب والكبار عن طريق اتصالــهم بالثقافــة الغربية .

" وقد حقق المشروع غايته في عام ١٢٦٣هــ يناير ١٨٤٧م فأنشئت الجمعيــة فــي بيروت باسم "**جمعية الآداب والعلوم** " وكان من أعضائها **اليازجي والبستاني**، وكذلك **إيلي سميث وكورلنيليوس فان دايك** ، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في الشــام وهــو الكولونيل **تشرشل** المشهور ــ ولم يمض عامان حتى بلغ عدد أعضائها خمسين عضــوا . أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت، ولم يكن فيها عضــو مســلم واحــد ولادرزي، وكانت هذه الجمعية الأولى من نوعها في بلاد الشام . بل في أية بقعة أخــرى من العالم العربي" (٢) .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٦، ١١٧

(٢) المرجع السابق : جورج انطونيوس ص ١١٦ - ١١٧ .

ثم بعد ذلك تتابعت الجمعيات العلمانية التي توسلت بالأدب والثقافة لنشر الفكرة القومية، وفي عام ١٢٦٦هـ ـــ ١٨٥٠م أسس اليسوعيون (الجمعية الشرقية) أسسها الأب دوبرونيير. وآخر هذه الجمعيات وأشهرها والتي شملت أعضاء مسلمين ونصارى لأول مرة تحت مظلة واحدة هي **الجمعية العلمية السورية** ١٨٥٧م وقد بلغ عدد أعضائها (١٥٠) عضوا، والجدير بالذكر أنها لم تظهر هذه الجمعية ويتجرأ على تأسيسها والإعلان عنها إلا بعد إصدار الخط الهمايوني (الذي سيأتي تفصيل بنوده في الكلام عن العلمانية) عام ١٣٧٥هـ ـــ ١٩٥٦م ، الذي صرح ولأول مرة بالمساواة المطلقة بين المسلمين والنصاى، فإن هذه الجمعية أعلنت بعده بسنة واحدة من إصداره (١).

وبعد الكلام عن هذه الجمعيات والمجلات التي أرى أنها من أهم الوسائل في نشر الفكر القومي بين المسلمين العرب وماسبق من نماذج ماهي إلا شواهد على الدعوة إلى تلك الفكرة ـــ ومن نافلة القول كما يقال ـــ أن نذكر شهادة رجل من شيوخ القوميين ويعد المنظر للأفكار القومية في عصره ومؤلفاته ومحاضراته أشهر من أن تذكر في هذا المجال هذا الرجل هو **أبو خلدون** ساطع الحصري وشهادته تعد من الشهادات المهمة في هذه القضية، أي أن أهل الذمة هم الذين كانوا يذكون نار القومية العربية ضد الدولة العثمانية لإقصاء الشريعة عن الحكم وإضعاف شوكة المسلمين بتفريقهم وتشتيت شملهم .

يقول هذا الرجل الذي نصب نفسه على عرش القومية العربية في العصر الحديث وحمل لواءها في محاضرة له عن نشوء القومية العربية :

(كان العرب المسلمون التابعون للدولة العثمانية ينظرون إلى التاريخ بنظرات إسلامية بحته ، فيذهبون إلى أن كل المفاخر والأمجاد تنحصر فيما دونه تاريخ الإسلام .. ولهذا السبب ماكان يرتسم في أذهان هؤلاء صورة تاريخ يستحق التسمية باسم تاريخ الأمة العربية ،كما أن التاريخ العثماني ماكان يظهر لهم إلا بمظهر" تتمة للتاريخ الإسلامي العام) (٢).

هذا الفكر هو السائد العام في المجتمعات العربية إلى القرن التاسع عشر .. وفي نهاية التاسع عشر الميلادي نبتت نابتة تشاطر الفريق الأول في الرأي ـــ وهم قسمان :

١ـــ القسم الأول : بدأ يتشكك في شرعية خلافة بني عثمان على العرب، وأن الأصل في الخليفة أن يكون قرشيا، وهذا مفقود في بني عثمان، فلا يصح أن يكونوا خلفاء للمسلمين عامة، ولكن يبقى أن مجرد التشكيك في شأن الخلافة والاستقلال عن الدولة

---

(١) المرجع السابق : ص ١٢٣.

(٢) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية . مركز دراسات الوحدة العربية ط١ ص ١٢٢.

العثمانية مظهر من مظاهر الفكرة القومية عند العرب المسلمين، إلا أنـــها كـانت فكـرة ممزوجه باعتقاد ديني ومرتبطة بغايات دينية . فلا يصلح أن تجعل بداية الفكـرة القوميــة العربية .

٢ــ والقسم الثاني : جرهم إلى الدندنة حول الخروج والثورة علـى الدولـة وسـوء الأحوال في البلاد من جراء فساد الحكم، ويقولون بوجوب مطالبة الدولة بإصلاحات جديـة في البلاد العربية لإزالة عوامل هذا الفساد وتحسين أحوال البلاد .

وبدأ هؤلاء أو جماعة منهم من متنوري الأتراك أيضا يشـكون مـن فسـاد الحكـم ويطالبون بإصلاح الأحوال فقالوا بوجوب مشاركة هؤلاء في مســاعيهم الإصلاحيـة !! وهؤلاء كما هو ظاهر لايظهر على مطالبهم ودواقعهم أي منحى قومي ، إلا طائفة يسـيرة منهم أخذت تقارن بين الولايات العربية وبين سائر الولايات العثمانيـــة ويوازنـون بيـن أوضاع العرب في الدولة وبين غيرهم من العناصر الأخرى ، وكانت النتيجة مـــن هـذه المقارنات أن حقوق العرب مهضومة في السلطنة العثمانية بالنسبة لسائر الشعوب العثمانية (وهذا كما هو معلوم تاريخيا ظاهر بطلانه) .

ثم يخرج الحصري بالنتيجة التالية :

'' ويظهر مما ذكرته آنفا أن مواقف العرب المسلمين من الدولة العثمانية في أواخـر القرن التاسع عشر كانت تنم عن عدة تيارات واتجاهات :

كان السواد الأعظم منهم مرتبطا بالدولة على علاتها ، متكلا عليها مستسـلما إليـها ولكن :

١ــ جماعات من المتنورين المتجددين كانت تنتقد أحوال الدولة وتشتكي منها وتدعـو إلى تغييرها وإصلاحها .

٢ــ جماعات تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق إلى أصحابه .

٣ــ وجماعة تطالب الدولة بإجراء إصلاحات جديدة في البلاد العربية .

٤ــ وجماعة أخرى تشترك مع أحرار أتراك للدعوة إلى إصلاحات عامة تشمل جميع البلاد العثمانية على حد سواء .

٥ــ وجماعة أخيرة تطالب بمراعاة حقوق العرب في مختلف شئون الدولة '' (١) .

---

(١) ساطع الحصري : المرجع السابق ص ١٢٣.

هذه المواقف السابقة مجمل مواقف العرب المسلمين في تلك الحقبة الزمنية ولايظهر منها أي توجه ظاهر نحو الفكر القومي .

بل لم يكن أحد منهم يتصور أية كيان أو مفخرة بدون الإسلام، فالمسلمون برآء من نشأة الفكر القومي والإسلام أصلا بريء منه . وهذا بشهادة رجل عربي الأصل من **دياربكر** كان من أبوين مسلمين إلا أنه ارتد عن عقيدته فاعتنق العروبة مذهبا ودينا ...

بل أصبح هذا الرجل لايتحرج من ترديد الثناء والإشادة بشاعر نصراني دعا إلى الكفر الصريح في سبيل الوحدة العربية، ويذكر ذلك ويسطره في مؤلفاته القومية وهذا البيت هو :

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنم (١)

وهذا طرف يسير من مناقب هذا الرجل ! ولكن مع ذلك هو ينسب الفضل لأهله فيبين – كما وضح غيره من قبل ومن بعد – أن مؤسس الفكرة القومية العربية هم نصارى العرب، ونتركه وهو يشرح لنا الأسباب التي سلكها النصارى لابتكار هذا المذهب دينا لهم والدعوة إليه وعزوف المسلمين عن هذه الدعوة !!

فيقول في المحاضرة التي ألقيت في ١٣٦٠هـ ١٤ / ٢ / ١٩٤٨م بعنوان نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية حتى الحرب العالمية الأولى :

وأما العرب المسيحيون فكان لهم مواقف تختلف عن ذلك اختلافا بينا، (ويقصد مواقف المسلمين السابقة الخمسة) وأنهم بوجه عام ماكانوا يرتبطون بالدولة ارتباطا قلبيا وإنما كانوا يخضعون لحكمها خضوع اضطرار، والسواد الأعظم منهم ما كان يهتم بالتاريخ العثماني ولا التواريخ العربية لأنه كان يعتبرها كلها بمثابة (تاريخ إسلامي محض) لايخص أحدا غير المسلمين.

ولكن ... قام من بينهم جماعة من المتنورين يدرسون التاريخ من الكتب الغربية ثم يرجعون إلى التواريخ العربية ويطالعونها لنظرات مستلهمة من الكتب المذكورة ويتوصلون من هذه الدراسات والمطالعات إلى الحقائق التالية :

إن الامة العربية من أعظم الأمم في التاريخ وكان لها حضارة قبل الإسلام وصار لها أرقى بكثير من ذلك بعد الإسلام .

---

(١) ساطع الحصري : اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ص ٢٥٠.

والنصارى ساهموا في بناء الحضارة العربية قبل الإسلام وبعد الإسلام وهذه الحضارة لم تكن دينية بحتة كما يتوهم ذلك الجهلاء . بل إن لها كثيرا من العناصر والمظاهر التي لاتمت إلى الدين بأية صلة كانت، ومما يبرهن على ذلك أن الإداريين اقتبسوا منها أشياء كثيرة وكثيرة جدا .

ولذلك كله يجب على العرب النصارى أن يفتخروا بالتاريخ العربي وبالحضارة العربية مثل المسلمين (١) .

ويجب عليهم أن يتآزروا مع هؤلاء لإنهاض الأمة العربية وإعادتها إلى ما كانت عليه من العز والمجد في سالف الزمان .

" هذه الملاحظات وأمثالها كانت تجول في خواطر البعض من العرب النصارى الذين تثقفوا بالثقافة الغربية ودرسوا التاريخ الإسلامي بعقلية عصرية، ولا أراني في حاجة إلى الإيضاح ، بأنها كانت البذور الأولى لفكرة القومية العربية الخالصة المتجردة من الاعتبارات الدينية " .

ولهذا السبب نجد التفكير في القومية العربية بدأ عند العرب النصارى قبل أن يبدأ عند المسلمين منهم كما أن الكتاب والشعراء الذين سبقوا غيرهم في الدعوة المتحمسة إلى النهضة كانوا من العرب المسيحيين " (٢) .

وبالطبع بعد الدعوة المتحمسة هذه والتي للأسف لاتفتأ ولاتكل ولاتعرف اليأس كانت النتيجة سحب طبقة من متنوري المسلمين ــ كما يسمونهم ــ إلى شباك هذه الفكرة اللادينية، ومن أمثلة هذا الحماس في الدعوة مالمسناه في حياة **البستاني واليازجي** وسار على نهجهما أولادهما من بعدهما، فهذا إبراهيم اليازجي سخر شعره وقلمه في إرساء قواعد القومية العربية لدرجة أنه يعتبر من أول الأصوات التي نادت صراحة بالالتفاف حول راية وشعار القومية العربية ــ ومن أجل العروبة فقط لا لدين ولا من أجل أي شعار آخر ــ ومن أجل ذلك :

'' يحق لنا أن نقول إن أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كان في اجتماع سري عقده بعض أعضاء الجمعية العلمية السورية، وكان أحد الأعضاء وهو إبراهيم اليازجي ابن ناصف اليازجي ممن قدر لهم أن ينالوا شهرة أدبية كبيرة ، كان قد نظم قصيدة اتخذت

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص١٢٤ .

(٢) ساطع الحصري : محاضرات ...مرجع سابق : ص ١٢٤.

صورة النشيد الوطني والقصيدة في جوهرها تحريض للعرب على الثورة تغنت بأمجاد العرب وبمفاخر أدبهم وبالمستقبل الذي يستطيعون أن يضعوه لأنفسهم باستلهام ماضيهم ..

وكانت في جملتها مثيرة للمشاعر مفعمة بالألفاظ التي تلهب الحماسة، وقد ألقيت هذه القصيدة بصوت خافت في جو بالغ السرية والكتمان في حضور ثمانية أشخاص فقط '' .

ولكن بعدهم انتشرت هذه القصيدة وذاع صيتها حتى بلغت القريب والبعيد والمؤيد والمعارض، فكان من يسمعها لايأمن على نفسه أن يتهم بالخيانة بسببها وهو كذلك، ولذلك لم تدون على ورقة بل كانت تحفظ في الصدور وتنتشر بالرواية الشفهية في المدينة كلها بل جميع أنحاء البلاد حتى لاقت عقولا خاوية من الشباب خاصة وهم في سن يسهل فيها التأثر بطابع الفكرة القومية (دون معرفة لمصدر هذه الأبيات) .

وهكذا أصبح لها نصيب وافر في تغذية الحركة القومية وهي في بدايتها (١).

وقد تتابعت القصائد تلو القصائد من هذا النصراني الحاقد، فبدلا أن يفرض عليه الذلة والصغار سام هو المسلمين بسموم ألفاظه وشعره (وهذه النماذج يسيره من حصاد تلك العزة ، ومن أبرزها تلك القصيدة البائية التي تناقلها الناس شفويا لم تصل إلينا مكتوبة والتي سبق التنبيه على أنها كانت بمثابة الشرارة التي حرقت الهشيم في الجمعية العلمية على لسان إبراهيم اليازجي) .

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب (٢).

* وقبل أن أختم الحديث عن دور النصارى من العرب في إحياء القومية العربية ، أحب أن أعرج وأبين دور اليهود كذلك . حيث النصارى لم ينفردوا لوحدهم بهذا السلاح الفتاك ، الذي شتت شمل الأمة ، ولكن اليهود كذلك ، خاصة في بلاد العراق .

كانت من أول الصحف اليهودية ، وأشهرها في العراق صحيفة تدعى " **صدى بابل** "، كانت هذه الصحيفة تدافع عن وجهة نظر الصهيونية دون أن تثير مخاوف المسلمين ، رغم ماكانت تتضمنه مقالات هذه الصحيفة من دعوة لعودة اليهود إلى فلسطين.

كان التيار السياسي الذي سار فيه اليهود تيار القومية العربية ، وذلك عن طريق الصحافة والزعامة الدينية ، وفي اعتقادنا أن مسيرتهم مع هذا التيار كانت مجرد سياسة تستهدف القضاء على الوجود التركي في البلاد العربية وانفراد اليهود بفلسطين ، وقد تزعمت صحيفة (**صدى بابل**) هذا التيار العربي المدافع عن العرب !

---

(١)جورج انطونيوس : المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) انظر نبيه فارس : مقدمة يقظة العرب ص ١١.

وقد كانت (صدى بابل) من أقوى الصحف المنادية بإعطاء العرب حقوقهم كاملة ، وبأن تتخذ القومية العربية مكانتها بين قوميات الدولة العثمانية ، وناقشت بطريقة غير مباشرة مسؤولية الحكومة العثمانية في إبعاد بعض الضباط العرب عن الولايات العربية مدافعة عن هؤلاء الضباط ، مطالبة بأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الولايات العربية (١) بل إن هذه الصحيفة كانت تتحدث عن (جامعة عربية) في عام ١٣٣١هـ ــ ١٩١٣م يكون نواتها شيوخ الخليج العربي (٢) .

والذي كان يذكي نار القومية بين أهل العراق خاصة ــ على تأخر العراق في هذا المجال ــ هو اتصال عناصر من الجمعيات السرية في بيروت وغيرها ممن سبق ذكرهم من نصارى العرب، فقد التقى النواب العراقيون بزملائهم السوريين وكونوا جبهة واحدة في المجلس واشتركوا في المنتدى الأدبي ، وكانوا عندما يعودون للعراق يشترون الأفكار الجديدة التي صاروا يؤمنون بها ، خاصة إزاء اتساع الهوة بين الأتراك والأماني العربية وحصل الاتصال القوي بين العراقيين والجماعات السرية مثل القحطانية والفتاة وحزب اللامركزية وكذلك تزامن هذا الاتصال بين عامي ١٣٢٨هـ ــ ١٩١٠م ، ١٣٣٢هـ ــ ١٩١٤م مع تطور الصحافة ، والتي كانت تدعو إلى القومية العربية مثل (صدى بابل) اليهودية المنشأ، والتي تقدم ذكرها آنفا، وقد شرح هذا الوضع القنصل الأمريكي في مذكرة رفعها إلى كاتب الدولة . مما بين مدى مراقبة الأمريكان في الداخل للتغير الذي يصيب البلاد وتحريكها كل هذه الخطوات التي تخدم أهداف أهل الذمة والنصارى على وجه الخصوص .

كتب القنصل الأمريكي في بغداد إلى حكومته تقريرا في عام ١٣٣١هـ بتاريخ ١٧ مارس ١٩١٣م ذكر فيه " إن عرب العراق يشتركون في الحركة التي تهدف إلى إقامة حكم ذاتي إن لم يكن الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وأنهم انضموا إلى جمعية سوية (اللامركزية) مقرها القاهرة . ولها فروع في ولايات بغداد والبصرة والموصل وهدفها الحصول على الاستقلال لهذه الولايات الثلاث ، وثمة شائعة بأنهم يهدفون إلى إقامة دولة عربية تكون عاصمتها دمشق ، واستطرد القنصل الأمريكي في تقريره فذكر أن الوطنيين في البصرة بعثوا مذكرة إلى حكومة الأستانة يطالبون باستقلال ذاتي واسع وخاصة احتجاز الضرائب التي تجمع من الولاية لكي تنفق عليها ، وأن الحكومة العثمانية وعدت ببحث

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ج١ العراق ، (١٩٨٣عين شمس) .

(٢) الأعداد التي ذكر فيها الكلام السابق صدى بابل ، عدد ٢١٤ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٣م - ٢٣ ذي الحجة ١٣٣٣ هـ ، والكلام الذي قبله :صدى بابل عدد ٥٥ في ٢٧ شعبان ١٣٢٨هـ ــ ١٩١٠ م ، عدد ١٣ في ٢١ شوال ١٣٢٧هـ ــ ١٩٠٩م.

ماجاء بهذه المذكرة ، ولكن الوطنيين في البصرة مصممون على نيل الاستقلال.......أما في بغداد ــ كما جاء في تقرير القنصل الأمريكي ذاته ــ فإن الشرطة وضعت يدها على أحــد المنشورات التي أصدرتها الجمعيات السرية ، وكان المنشور بعنوان " **الصرخة الأولــــى** " وأن الوطنيين في بغداد طلبوا من الوالي العثماني أن يغادر هو وهيئـــة الإدارة العثمانيـــة البلاد ، وذكر القنصل الأمريكي أن قوة الحركة القومية في العراق لايعرف حجمها تمامـــا بسبب السرية التي كانت تحيط بها ...(١) .

---

(١) عبد العزيز سليمان نواز : تاريخ العراق الحديث .

المطلب الثاني :

العلمانية

من وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة عن ميدان الحياة ، وجعل المسلمين لاهم لهم إلا الدنيا وزينتها ،وإشباع الغرائز والشهوات ، دون التطلع لمستقبل هذا الدين أو حمل هـم الإسلام ، والقيام بأوامر الله تعالى في الأرض بحيث يكون حالهم حال البهائم جسـدا بـلا روح ولاعقل ، دنيا بلا دين ، مسلمون بلا إسلام.

فالناظر لتاريخ الإسلام والمسلمين منذ فجر الرسالة إلى القرن السابع عشر بل والثامن عشر يرى أن هذه الغاية لأعداء الله من أبعد المستحيلات إن لم تكن من الممتنعات ؛ حيث نشاهد في التاريخ مدى الهزائم التي مني بها المسلمون عبر التاريخ ، ومـدى فظاعتـها ، وبشاعتها ، إلا أنهم لم ينسلخوا بها عن دينهم أويتبرأوا منه ، بل كانت النظرة السائدة والتي لايختلف فيها مسلمان أن سبب الهزائم هو : تخلينا عن شرع الله ، وتقصيرنا في جنـب الله ، وهذا ماكان يصرح به الخلفاء العثمانيون الأواخر في عصر انحطاط دولتهم " إن عـدم الانقياد للشرع الشريف كان السبب فيما أصاب الدولة خلال المائة والخمسـين سـنة مـن تدهور وضعف " (١) .

" ليكن معلوما للجميع من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن بداية ظهور هذا الديـن المبين وهذه الدولة المحمدية ثم بعد ذلك سيطرتها على الشرق والغرب كان فقط في ظـل الشريعة المطهرة ، وسيف الجهاد " (٢).

ويقول السلطان **عبد المجيد** : " أن ماأصاب دولتنا من ضعف إنما هو بسبب تفريطنـا في الشرع المطهر " (٣).إن هذه النظرة الشرعية لأسباب النصر والهزيمة في الأمم جعلت من المستحيل أن يتبنى السلاطين المسلمون ، فضلا عن شعوبهم فكرة تقوم على أساس نبذ الدين ، ولكن وللأسف هذا ماحصل في دولة الخلافة ، وظهر جليا في القرن التاسع عشـر الميلادي في جميع أنحاء العالم الاسلامية . حيث أصبحت هذه الحقيقة المجمع عليها تفـهم

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٤٤.

(٢) نص الفرمان الذي أصدره محمود الثاني في إلغاء الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ الموافق ١٨٢٦م ، ومحمود الثاني هذا من أوائل وأنشط من سعى في سياسة التغريب في الدولة العثمانية ، فريدبك ، نص فرمان رقم ٤٧١ محفظ رقم ١٤.

(٣) انظر تاريخ العراق الحديث : المرجع السابق ص ٤٤ .

مقلوبة تماما وأصبح ينادي بعض أبناء المسلمين بأن سبب التأخر والانحطاط هو التمسك بهذا الدين .

ولم يكن هذا التحول الفكري العكسي الرهيب وليد ساعة ولاثمرة جهد يسير نظرا لصعوبة تغيير الأفكار والمعتقدات والتقاليد الثابتة والموروثة صاغرا عن كابر ، وإنما هي ثمار جهود جبارة طويلة الأمد كانت تنخر في فكر الأمة الإسلامية دون أن يتنبه لها أحد حتى آتت أكلها أخيرا وأينعت ثمارها وظهر ماكان مدفونا في الباطن على ألسنة وأقلام المقتنعين به .

فيا ترى ما هي هذه الوسائل والأساليب التي سلكها أعداء الأمة حتى وصلت إلى هذا الحد من القناعة الفكرية الرهيبة .

وما هو أهم معول استخدمه أعداء الإسلام في هدم الشريعة وإقصائها عن الحكم ، وبأي وسيلة وأسلوب استطاعوا إقناع بعض المسلمين بالتخلي عن دينهم والانسلاخ منه؟!

هذا هو ما سأتحدث عنه في هذا المبحث . فأقول وبالله التوفيق :

إن أهم معاول اليهود والنصارى في هدم الخلافة والملة هو : إدخال المذاهب الفكرية العصرية الهدامة على أنها نظريات علمية أثبتت نجاحاتها في أرض الحضارة والتقدم والتكنولوجيا (أوروبا) ، وعلى رأس هذه المذاهب ومن أشدها فتكا " **العلمانية** " أو "**اللادينية**" فهي الأصل الذي بنوا عليه كل ما سواه من نظريات أعقبتها، كالقومية على اختلاف أنواعها، والشيوعية ، والرأسمالية ، وهذه الأخيرة ماطرحت في الساحة إلا لسد الفراغ الناتج عن نبذ الدين كبديل مالي يشغل به الملحدون ، والمنسلخون من دينهم .

فما هي هذه العلمانية ؟ ومامأصلها ؟ وأين نبتت ؟ وكيف دخلت أرض المسلمين ؟ ومن هم دعاتها في الداخل ؟ وما ارتباطها بالقوانين التي شرعت في أواخر عصر الدولة العثمانية ......؟ .

هذه التساؤلات هي مدار حديثنا في هذا المبحث ، وإن كان الحديث عن الأمور النظرية والاصطلاحات الكلامية ليس من صميم البحث ، ولكن أكتفي بالإشارة فقط ....

تعريف العلمانية :

كلمة " **علمانية** " جاءت ترجمة محرفة للكلمة الإنجليزية " **Secularism** " والترجمة العربية لهذه الكلمة في القاموس الإنجليزي ... **العلمانية** : هي النظرية التي تقول إن الأخلاق والتعليم يجب ألا يبنيا على أسس دينية ...(**العلماني**) : هو المؤمن أو المؤيد أو المعتقد في العلمانية ..

وجاء في دائرة المعارف البريطانية في مادة " **Secularism** " أنه حركة اجتماعية تهدف إلى نقل الناس من العناية بالآخرة إلى العناية بالدار الدنيا فحسب ، وذلك لأن الناس قد انكبوا على الدين وحب الإله والتأمل في الآخرة ، وذلك في القرون الوسطى ، وجاءت اللادينية تقاوم هذا الاتجاه ، وشجعها على ذلك نمو النزعات الإنسانية في عصر النهضة ، وهي نزعات زادت صلة الإنسان بالدنيا ، وباعدت بينه وبين الدين ، ثم نما هذا الاتجاه ليصير اتجاها مضادا للدين ....(١) .

وهذا الكلام الخطير يتضح منه : أن العلمانية لاتعني فصل الدين عن الدولة فحسب ، بل المعنى أعظم من ذلك فهي تعني : عزل وإقصاء الدين بالكلية عن الحياة بشتى جوانبها ، الأخلاقية والتعليمية ، والاجتماعية والسياسية ، والتربوية ...

هذا هو معنى العلمانية عند أربابها وفي البيئة التي نشأت وظهرت فيها ، سواء في المعاجم البريطانية أو الفرنسية .

أما في اللغة العربية فلا يعرف في المعاجم والقواميس العربية نسبة يمكن بفتح العين أو كسرها أن تنسب بالألف والنون قياسا .

فمادة '' **علم** '' المأخوذة منها كلمة " **علمانية** " إما أن تكون بكسر العين وسكون اللام وإما أن تكون بفتح العين وسكون اللام .

وعلى الأول يكون معناها : العلم الذي هو ضد الجهل وعلى هذا تنطق علمانية بكسر العين وسكون اللام ، نسبة إلى العلم بكسر العين .

وعلى الثاني يكون معناها : العالم ــ بفتح اللام ــ أو الدنيا ، وعليه يكون معنى كلمة (علمانية) : الدنيوية ، في مقابل الآخرة ، وهذا هو الألصق بحقيقتها ، وواقعها ، فالأصح إذن أن تنطق (علمانية) بفتح العين ، وسكون اللام .

ومجيء الكلمة محرفة ، على هذا النحو أمر واضح ، بغية التلبيس والتحريف على المسلمين وطمس الحقيقة ، وبمثابة دس السم في العسل كما يقال ، لأنها توحي بأن معناها نظام علمي أومذهب علمي يقوم على أساس العلم التجريبي ، ويشفع لهذا الفهم أن العلم الأوروبي التجريبي قد نما وازدهر في عهد محاربة الدين ، ونبذ الكنيسة له ، والتي ناصبت العلم والعلماء العداء ، كما هو معلوم من واقع الثورة الفرنسية .

ولم تنسب النسبة القياسية أي " علمية " **مبالغة في الإيهام** ، وزيادة في التلبيس والتضليل .

---

(١) هذه الترجمة من دائرة المعارف عن نشأة العلمانية ، ودخولها إلى المجتمع المسلم . د/ محمد العرمابي ص ١٨.

أما على اللفظ الثاني " علمانية " فالمراد نظام دنيوي في مقابل الآخرة وهو مؤيد لما سبق ذكره في المعاجم الغربية . فهذا اللفظ هو الراجح ، وهو الأدل على المسمى كما هو ظاهر (١) .

وبهذا يظهر أنه لاعلاقة لها بالعلم ، بل وليست فصل الدين عن الدولة فقط ، بل فصل الدين عن الحياة كلها .. !!

منشأ العلمانية الأصلي :

لن ندخل في جدل تاريخي في أصل العلمانية ، ونشأتها ، ومن وراءها ، فهذا محله الكتب التي أفردت العلمانية بالبحث ، ولكن أكتفي بـ : التذكير ببعض الحقائق التي أصبحت شبه متواترة عند الباحثين . فأصل فكرة العلمانية يهودية ، وهذا لايكفي لطرحها على الشعب الأوروبي المتعصب لنصرا نيته ، بأن ينبذ دينه ويتخلى عن كنيسته من أجل فكرة جديدة ، وتفسير حديث للحياة والكون .وإنما شجع وساعد على نشرها ، وبالتالي إقرارها كمذهب حضاري عدة عوامل نذكر أهمها :

البيئة التي نبتت فيها العلمانية ، وسماتها :

فأول بلد احتوى العلمانية ، وتبناها كمهج حياة .. **فرنسا** .. وذلك بقرار من اليهود الذين استغلوا الثورة الفرنسية أبشع استغلال ، وهذه عادتهم في انتهاز الفرص ، واستغلال الأحداث، فحقيقة الثورة كانت على أي شيء ؟ وما الدافع للثوار على أفعالهم ؟ إنها الكنيسة ، وماكانت تتخبط فيه من طغيان ، وخرافات ، ودجل وتكميم للأفواه ، ومحاربة لكل جديد ، وإن لم يقدح في الدين وتقتيل للخبراء والمخترعين على مرأى من جميع الناس ، ومن إخوانهم بالذات . كل هذه الهرطقات وأكثر ، بلغت درجة لايطاق معها سكوت وتحطم أمامها كل صبر ، ونفد كل عقل ، فلا مجال للإصلاح !! هكذا قرر المنظرون اليهود للثورة، وهكذا أقنعوا الناس أنه لاحل لمشاكلنا إلا بالتخلص من سلطان الكنيسة والبراءة من الدين بالكلية ــ الإلحاد ــ والطريق هو الثورة والثورة فقط . فسخط الناس على الكنيسة ورجالها ، ونقموا نقمة لاهوادة فيها ، وانسحب هذا السخط على الدين ، وعلى كل ما يمت للدين بصلة، بل كرهوا كل رجل دين ، وإن لم يروا منه مايستدعي الكره ، أو الغضب .

كما اقتنع العامة بها بتأثير الدعاية اليهودية المسلطة كالصحافة التي سيطروا عليها ، عن طريق المحافل الماسونية ، فتأثروا بما يسميه " **دوركايم** " **بالعقل الجماعي الدعائي** .

---

(١) انظر في أصل العلمانية : معجم اللغة العربية " المعجم الوسيط " ج٢ ط مصر ١٩٦١م، منير البعلبكي : " قاموس المورد " دار العلم للملايين ط بيروت ١٩٧٧م، د. محمد البهي : " العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق " ط الأزهر ١٩٧٦م، أنور الجندي : "سقوط العلمانية " ، عماد الدين إسماعيل : " تهافت العلمانية " ط الرسالة ١٩٧٥ م . وانظر : العلمانية ، د. سفر الحوالي.

أو عن طريق الإقتناع والغزو الفكري بحقيقة غريبة لم نعرفها من قبل ، وهي :

إن الدين والعلم نقيضان ، لايجتمعان ، وضلعان متوازيان ، لايلتقيان ، ولانستغرب من هذه النتيجة التي توصل إليها عامة الشعب ، إذا عرفنا البيئة ، والدين المحرف ، والثمار العفنة لأعمال الكنيسة التي جعلت من هؤلاء الثوار بركانا ينفجر في عام ١٢٠٣هـ ـ ١٧٨٩م نتيجة غليان على نار هادئة في بدايتها ، ومازالت تزداد اشتعالا إلى أن بلغت قمة الغليان في الثورة الفرنسية التي أنشئت أسسها على مباديء العلمانية ، ونبذ الدين بالكلية(١) .

بل وشرعت لها كثيرا من النظريات الدنيوية والاجتماعية والاقتصادية ، والتاريخية ، والطبيعية ، والغريب أن أغلب هؤلاء المفكرين من اليهود . ومن أبرز هؤلاء المفكرين الفيلسوف اليهودي " **بسبنوزا** " رائد الفكرة العلمانية ، باعتبارها منهجا للحياة . فهو يقول في كتابه " **رسالة في اللاهوت والسياسة** " : '' ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة ، على السواء ، إعطاء من يقومون بشئون الدين الحق في إصدار القرارات أيا كانت أو التدخل في شئون الدولة ، وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الإجابة على الأسئلة المقدمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقينا ، والأوسع قبولا بين الناس '' أ . هـ (٢).

ولا أظننا في حاجة إلى تعليق على هذه العبارة الخبيثة ، والتي لايزال المسلمون يكتوون بنارها ، حيث أصبحت واقعا مألوفا مرضيا به ، بخلاف دور العلماء في صدر الإسلام ، ومواقفهم المشهورة والقوية مع من يريد أن يمس جناب هذه الشريعة بالتغيير والتبديل ... !!

ماسبق من الكلام عن العلمانية في أوروبا ، وسبب وجودها أوظهورها ، أن السبب الرئيسي هو فساد الكنيسة في كل المجالات ، دون استثناء ، وسيطرتها على العقول .

والسؤال الذي يطرح نفسه : مأأوجه الشبه بين الإسلام السماوي الدين الرباني ، والنصرانية المحرفة ؟ إن وجدت !! ولو شبها واحدا جليا !! لاأظن أحدا يجرؤ على مقارنة بين الخرافات الوضعية التي هي اختراع البابوات والكنيسة ، وبين دين الرسل ، وشريعة الله في أرضه وكذلك التحريف والبعد عن دين الله ، وتخلي المسلمين عما أمرهم الله به من الخلافة في الأرض وعمارتها ، لم تبلغ إلى درجة نحتاج معها إلى مصلحين من

---

(١) للاستزادة في موضوع الثورة الفرنسية انظر : لمحمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، د .سفر الحوالي : العلمانية، فيشر :تاريخ أوربا في العصر الحديث، الفصل الأول أسباب ونتائج الثورة الفرنسية .

(٢) دكتور سفر الحوالي: العلمانية ص ١٧١ ، ٤٢٦.

خارج المسلمين ، والاستعانة بأنظمة مستوردة ، فلا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الحق قائمين ، لايضرهم من خذلهم ولامن خالفهم ، وهذا ولله الحمد الشعور السائد عند المسلمين، فلم يكن هناك ذكر لأي بديل عن الإسلام طوال عصور المسلمين السابقة ، ولم يجرؤ أحد على أن يطرح الردة على اختلاف مسمياتها بديلا عن دين الله تعالى ، لاقومية ، ولااشتراكية ، ولاعلمانية ، ولا .. ، ولا ....

وفي ذلك يقول أبو القومية العربية ومنظرها '' **ساطع الحصري** '' :

"... أما فكرة القومية التركية ، بمعناها المتميز عن العثمانية (وهى تعني الإسلام) وعن الإسلام على حد سواء .. فما كانت تجول في خاطر رجال الدولة ومتنوري الأمة ، ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس ... " (١).

ونقلت هذا النص لإعتقادي بأن القومية والعلمانية هما وجهان لعملة واحدة، فدعاة القومية هم دعاة العلمانية .

وكان التجديد الذي يطرأ على الدولة ودعاة التغيير يتم باسم الدين ،ولايستطيع أحد منهم أن يخرج عن إطار الشريعة وماتقره لجنة الفتوى ــ وشيخ الإسلام ــ فكل نظام يستحدث يعرض على شيخ الإسلام في الدولة ، فإن طلب التعديل سمع منه ، ولكن وللأسف منيت الدولة بعلماء سوء ، تارة مثل " **موسى كاظم أفندي** " (٢)، وآخرين مستغفلين ومن السهل تدليس الحقائق عليهم وإبهارهم بالحضارة الغربية ، وهذا مافعله اليهود ، والشعراء النصارى في السنوات الأخيرة . ولكن ومع ذلك ومع سرعة التغيرات التي كانت تتوالى منذ خلافة السلطان **سليمان** ، والذي لقب (**بالقانوني**) لكثرة التنظيمات التي سنت في عهده (ولم تسم تشريعات قط !!) ومع هذه العاطفة الدينية القوية لدى الدولة ومملوكيها في تلك الفترة من تاريخ الأمة كيف استطاع أعداء الإسلام من اليهود والنصارى إدخال فكرة العلمانية ، ونبذ الدين . وكانت أول مظاهرها : علمانية الحكم في صورة قوانين مستوردة من فرنسا وبريطانيا وغيرها من أمم الكفر.

فقد استطاعوا أن يقنعوا العامة فضلا عن قادة الفكر المتسمين بالإسلام بأنها طريق الخلاص من تلك النكسات وهزائم الدولة المتلاحقة ، وحتى تلحق بركب الأمم المتحضرة صاحبة الريادة والسيادة في كل المجالات : الصناعية ، والاجتماعية ، والتربوية، فلا بد أن ننهل مما ينهلون، وأصبح المسلمون أرضا خصبة يتقبلون أي فكر مستورد بعد أن تيقنوا

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء القومية العربية ص ٩٣.

(٢) وهو من الروا فض الذين أفتوا بخلع السلطان عبد الحميد ، وكان عضوا في المحفل الماسوني أيضا .

من أنهم مهزومون ، وعددهم الغالب هو صاحب الفكر المتنير ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب.

وحصل ماحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منه . فقد صح عنه في الحديث المرفوع " لينقض الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليها ، وأولهن نقضا الحكم ، وآخرهن الصلاة " (١) .

فالعلمانية في الدولة العثمانية ، والبلاد الإسلامية بصفة عامة بدأت بعدة مراحل أولها ما اصطلح على تسميته بعصر التنظيمات والذي كان يسعى وراء هذا الثقب اليسير في ظاهر جدار الشريعة التي لها السيادة ، ولاسلطان فوق سلطان الشرع هم أهل الذمة ، بصفتهم خبراء عسكريين خاصة ، وسفراء لدول متحضرة، فلم يزل كثير من السفراء ــ خاصة سفير إنجلترا ــ يحاول إقناع الباب العالي والخليفة بضرورة عمل الإصلاحات الجذرية في الجيش العثماني، وتوافقت هذه المحاولات مع حسن نية بعض الخلفاء ، وخبث كثير من الصدور العظام أمثال : (**رشيد باشا**) الذي ذهب إلى فرنسا وغيرها من عواصم أوروبا وتلقى غسيلا جيدا لعقليته ، ثم تدرج في ممالك الدولة من وزير للخارجية إلى صدر أعظم ، وكان ممن حمل لواء التغريب ، فأولئك السفراء والقناصل بدأوا طريقتهم باسم الإصلاح والتنظيم الذي تقتضيه الظروف الواقعية ، وأن الجيش العثماني لم يعد يصلح على أسلوب الفوضوية الذي تمثله الانكشارية ، فالظروف العسكرية الدولية تقتضي وجود جيش منظم يستخدم الوسائل الحديثة في القتال بدلا من الخيول والسيوف .

فلجأت الدولة العثمانية إلى ملوك أوروبا النين كانوا لايزالون في نظر العثمانيين حتى ذلك الحين : خنازير حقيرة ، يدل على ذلك عبارة الصدر الأعظم (**لتوماس مور**) حين أتى إلى الباب العالي ، بشأن الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، فقال له الصدر الأعظم : " إن مولاي السلطان لايهمه أن يقتتل كلبان بعيدا عن مملكته ، فلا داعي لدخولك عليه " (٢).

يطلبون منهم إيفاد مدربين للجيش العثماني ، وجاء المدربون من ألمانيا وفرنسا والسويد ، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يتولى تدريب وتنظيم الجيش الإسلامي خبراء كفرة (٣). وموجة التنظيمات لم تكن في السلك العسكري فقط ، بل سرت على أغلب قطاعات الدولة ، فعندما أريد إصلاح الجهاز الإداري استوردت أيضا الطرائق الغربية في تقسيم الولايات وتحديد تنظيم مسؤليات كل وال ، وقاض ، وكذلك الجهاز التعليمي ،

---

(١) المسند ٥ / ٢٥١.

(٢) د. سفر الحوالي : العلمانية ص ٥١٤ هامش ٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٥١٣ - ٥١٤.

ومناهج الحكم ، واقتصاد الدولة ، لكل ذلك وضعت دساتير مكتوبة ذات بنود وقواعد على النمط الأوروبي (١) ــ وسيأتي الآن تفصيل الكلام عنها ــ ومع ذلك كـــان البـــاب العالي في الدولة حريصاً على تسمية تلك الإصلاحات تنظيمات ، ولم يطلق عليـــها اســـم تشريعات ، وإن كان عليها طابع التشريع والابتداع والاقتباس من القوانين الغربية الكـافرة ، وما ذاك إلا لحرصه على عدم إثارة العلماء والعامة ، حيث كان هناك مجلس المبعوثات فيما بعد لاصدار الأنظمة بحجة أنه ليس في مقدور مجلس العلماء وضع اللوائح النظاميـــة للجيش ، وإدارة الدولة .. ، لأنه يراها من الشكليات التي لاتستحق الاهتمام ، ولم يلتفـــت لأهميتها إلا فيما بعد ، حين أسندت مهمة " **مجلة الأحكام العدلية** " لأناس غير متخصصين من علماء الشريعة بل إلى وزارة العدل التي يمثلها رجال عصريون في الغالب ، الأمـــر الذي نتج عنه صراع دامي بين شيخ الإسلام وأحمد جودت باشا الذي كلف بصياغة مجلـة الأحكام العدلية. ولكن على أي حال هذه التنظيمات والاقتباسات من القوانين الوضعية وإن لم تعارض الشرع صراحة إلاأنها مهدت الطريق إلى استيراد العلمانية بعفنها ونتنها إلـــى أرض الإسلام .

دور أهل الذمة في إدخال النظم العصرية إلى الدولة العثمانية:

قبل الدخول في تفاصيل التنظيمات ، وماأعقبها من ســـن القوانيـــن ، والتشـــريعات الوضعية لقانون التجارة ، هو أولها ، وقانون العقوبات و ... و..... نذكر بالنظام القديـــم للدولة ، حيث كان السلطان العثماني هو الرئيس الفعلي للهيئة الإسلامية الحاكمـــة التـــي كانت تتكون من أربع فئات وهو : شيخ الإسلام (وكان يطلق على مفتي القســـطنطينية) القضاة ، المفتون ، أساتذة الشرعية وأصول الدين، وهيئات التدريس، وكان لكل فئة منـــهم سلطتها خاصة شيخ الإسلام ، فكان يباشر إصدار الفتاوى ذات الطابع السياسي المتصلـــة بالسياسة العليا للدولة ، بل وإصدار الفتاوى التي تبين تعد الســـلطان علـــى الشـــريعة ، وإعلان ضرورة خلعه ، وحصل نماذج لذلك في تاريخ الدولة (٢) في عصرها الثـــاني و من هذه النماذج عزل السلطان سليم الثالث.

وعلى ذلك كان أكثر القضاة ، بل جميعهم من المسلمين المخلصين ، وليسوا من الأروام أو الأرمن أو غيرهم ممن أصلهم نصارى أو يهود كما حصل في آخر عهد التنظيمات .

وكان القضاة يفصلون في القضايا على ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهـــب الرسمي للدولة . وكان بداية من حاول أن يدون مذهب الإمام أبي حنيفـــة علـــى صـــورة

---

(١) انظر التفصيل تاريخ العراق الحديث ، وانظر المصدر السابق ص ٥١٤ فما بعدها .

(٢) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ٣٩٦/١ - ٤١١.

القوانين الشرعية السطان **محمد الثاني** ٨٥٥هـ ـ١٤٥١م ، ٨٨٦هـ ـ١٤٨١م وقد كلف بهذا المشروع(**خسرو باشا**) وقد قام به فعلا عام ٨٧٤هـ ـ ١٤٧٠م ، ثم زادت الحاجة مرة أخرى حيث حكم العثمانيون مناطق أخرى إسلامية مثل الشام ، والحجاز ، ومصر ، فوكل **سليمان القانوني** (٩٢٦هـ ـ ١٥٢٠م ، ١٠٠٤هـ ـ ١٥٩٦ م) **الشيخ إبراهيم الحلبي** مهمة إعداد قوانين للشريعة ، وبالفعل أتم هذه القوانين عام ٩٥٦هـ ـ ١٥٤٩م في كتاب أسماه **ملتقى البحار** الذي أصبح منذ ذلك الوقت أساس القانون العثماني حتى عهد الإصلاحات في القرن التاسع عشر (١) وهو خاص بالخصومات بين المسلمين . أما بالنسبة لأهل الذمة فإنهم منذ عصر السلطان **سليمان القانوني** ـ عصر القوة والغلبة للدولة ـ كانت لهم محاكم كنسية خاصة بهم ، يرأسها رئيس الملة . ولها جهازها الإداري الكنسي المستقل، وذلك تطبيقا لما جاء في الامتيازات الأجنبية التي سبق بيانها .

وازداد التدخل الأجنبي بعد وفاة السلطان سليمان القانوني (بداية بفرنسا) فقد عمدت إلى التدخل لصالح رجال الدين وقوافل الحجيج الكاثوليكية .

وكذلك بعدها بسنين عام ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م تبنى **لويس الرابع** قضية الجالية المارونية في جبل لبنان ، في أعقاب زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا ، وقد وافق هذا الاتجاه إزدياد عدد الكاثوليك في بلاد الشام بسبب امتداد نشاط الجزويين ، والفرنسيسكان وغيرهما من المؤسسات الكاثوليكية إلى الشرق الكاثوليك في الشرق ومحاولة ضم النصارى غير الكاثوليك من أتباع الكنائس الشرقية (٢).

فالناظر لهذه الأمواج المتلاطمة لجهود النصارى في بلاد الشام يشعر وكأنها دويلات صليبية داخل سور الدولة العثمانية ، خاصة لفرنسا صاحبة السبق في الفكر العلماني ، فما ينشر في باريس ينقل إلى أرض الشام ويدرس في المدارس الأجنبية التي كانت لها الريادة والسيادة في تلك الفترة .. !!

---

(١) محمد أنيس : انظر الدولة العثمانية ، الشرق العربي ص ٩١ ط الأنجلو .

(٢) محمد أنيس : المرجع السابق ص ٢٠٦.

اتجاه العلمانية في القرن الثامن عشر :

سبق الكلام عن حال الدولة منذ عهد السلطان سليمان إلى نهاية القرن السابع عشر تقريبا من ناحية أخذها بأساليب وطرق الفرق العلمانية في تسيير أمور الدولة والحياة وأنه لم تظهر إلا بوادر يسيرة تعتبر مثل الشام والثغرات التي من خلالها تسرب الفكر العلماني فيما بعد بصورة أظهر ، فاتسعت الثقوب والخروق .

فرغم وعي العثمانيين بتقدم الحضارة الغربية الحديثة فإنهم ظلوا في السابق بمعزل عن التطورات الغربية لاعتقادهم باستعلاء نظامهم ، وأن الغربي ليس مؤهلا لأن يقلده المسلم !! . ولكن بداية القرن الثامن عشر انتهى هذا الاعتقاد ؛ إذ بدأوا يدركون أن قوة عسكرية أكبر منهم قد قهرتهم ــ هزمت الدولة عدة مرات من روسيا والنمسا ــ وأصبح الاعتراف بالهزيمة هو الدافع والمحرك نحو الاتجاه الجديد ، وتطلع الدولة نحو الإصلاح والتغيير على النمط الغربي(١) .

فحمل الفكر الغربي السلطان **أحمد الثالث** (١١١٤هـ ــ ١٧٠٣م ، ١١٤٢هـ ــ ١٧٣٠م) وصدره الأعظم **إبراهيم باشا** الذي كان مولعا متطلعا إلى الغرب وماعنده من جديد وخاصة فرنسا إذ كانت تمثل أكثر الحضارات تقدما في ذلك الوقت ، ولعل من أهم أسباب ذلك حاشية إبراهيم باشا من أهل الذمة أو ممن أصولهم نصارى من أرمن أو مجر أو غيرهم مثل (**إبراهيم متفرقة** ١٠٨٠هـ ــ ١٦٧٠م ، ١١٦٧هـ ــ ١٧٥٤م) فقد كان مجري الأصل ، وقد وقع في الأسر متأخرا ثم أسلم وغير اسمه وأظهر تفوقا في اللغة والعادات التركية مما جعله مقربا جدا للصدر الأعظم إبراهيم باشا ..

فالحاشية المشبوهة ، ونشاط السفارات الأجنبية كانت تسعى دائما إلى إقناع الحكومة بضرورة السير في ركاب الغرب اللاديني وإن لم تكن صراحة ، فهي بالإغراء بما عندهم من مظاهر الحرية والإباحية و...وبدأ الاهتمام بالحضارة الغربية يبرز في العقد الثاني من الثالث عشر الهجري القرن الثامن عشر الميلادي بين الطبقات المتعلمة ، وتمثل هذا خير تمثيل في كتابات "**جلبي محمد**" وابنه "**سعيد**" الذي كلفه الصدر الأعظم إبراهيم باشا بزيارة المعالم الحضارية في الغرب ، وكتابة تقرير عما يمكن أن يطبق في بلاط الدولة ــ وهذا يذكرنا بما فعله الشيخ رفاعة الطهطاوي وما قام به كما في الذهب الإبريز في أخبار باريز ــ فوصف مشاهداته في العاصمة الفرنسية كما لو كان اكتشف عالما آخر قد انبهر بما رأى، يتبادر إلى أذهاننا أنه انبهر بالمصانع والمعامل والتكنولوجيا ، والاتصالات

---

(١) نيازي بيركز : تطور العلمانية في تركيا ص ٢٣ -٢٤

السريعة عن مقومات الحضارة المادية ، ولكنه غض البصر عن ذلك كله (وركـــز فـــي كتاباته على العادات الاجتماعية ، وبخاصة تلك التي تتصل بالنساء !! فذكر أن في فرنسـا تتمتع النساء بمنزلة عالية أكثر من الرجال ، وأنهن حرات في الذهـاب لأي مكـان ، وأن الرجل النبيل من أعلى مرتبة يظهر احترامه وتقديره للمرأة حتى لو كانت تنتمي إلى أدنـى طبقات المجتمع) (١) إضافة إلى وصفه لدور الأوبرا والمسارح ، والمستشفيات والمراصد والمواني التي شاهدها . وقد لاقت تقارير جلبي محمد وابنه سعيد اهتماما مـــن السـلطان والصدر الأعظم ، وكان من أهم نتائجها : القرار الخاص بالموافقة على إنشـاء مطبعـة ، وهي التي أسسها **سعيد جلبي** بالاشتراك مع **إبراهيم متفرقة** الذي سبق بيان أصلـه وأنـه مجري ، وكان لهذه الطبقة الأثر السيء والذي لايخفى على أحد في ترسيخ وضـم الفكـر الغربي وانحراف المسلمين وإغرائهم بواقع الإباحية الفرنسية من خلال كتابـات **متفرقـة** وغيره من الكتاب ، حيث ترجمت كتب الفلسفة والفكر الغربي المنحرف . وللأسـف لـم يستغل المسلمون وأقصد الدعاة والعلماء في تلك الفترة وجود المطبعة في نشر العلم والفكر الإسلامي الأصيل ، بل حصل جدل طويل حول جواز طباعة الكتب الشرعية ، فبعـد أن كتب ستة عشر من العلماء ــ من بينهم شيخ الإسلام **عبد الله أفندي** ــ بجـواز الطباعـة مطلقا قاد حينئذ النساخون حركة المعارضة الرئيسية ضد الكتب المطبوعة بحجـة حمايـة الدين ، ولم تهدأ الزوبعة إلا عندما صدرت الفتوى بإجازة طباعة الكتب باسـتثناء القـرآن الكريم والكتب الشرعية مطلقا وسمح بطباعة القواميس وكتب الرياضة والطـب والفلـك والطبيعة والجغرافيا والتاريخ (٢).

كما نشطت في تلك الفترة حركة الترجمة والحركة الأدبية العثمانيـة والتـي يتبناهـا شعراء من اليهود والعثمانيين ــ كانت بذرة القومية الطورانية فيما بعد ــ وترجمت كذلـك الكتب الفارسية والعربية إلى العثمانية ، وشقت الموضوعات العلمانية طريقها ممـا مـهد لقبول الأفكار الجديدة والأساليب الغربية فيما بعد (٣).

واستمرت أفكار التجديد تأخذ ألوانا جديدة وطابعا أقوى في المجتمع مع مرور الزمـن ، وبسرعة مذهلة ، فبالرغم من احتجاج الناس على السلطان **أحمد الثالث** ، وما اتصف بـه من استغراب في تقليدهم في القصور والبذخ ، والأثاث والإسراف ، إلا أن من جاء بعده ــ السلطان **محمود الأول** (١١٤٢هــ ــ١٧٣٠م ، ١١٦٧هــ ــ ١٧٥٤م) ــ استمر علـى

(١) المصدر السابق : ص ٣٣-٣٤

(٢) المصدر السابق : ص٣٩

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٩

الجهاز الإداري السابق ، فواصل حركة التجديد على الأسس الغربية ــ العلمانية ــ ولكــن بخطوات أخطر وأفتك ....

فالمرحلة الأولى : كان التجديد عبارة عن تقليد المغلوب للغالب في لبسه ومظــهره ، وصياغته، وأثاثه ، وعاداته ...

أما المرحلة الثانية : فأصبح البعض ينظر بشيء من الإعجاب إلى الأفكار الغربيـــة دون تفريق ، وافقت الشرع أو خالفته، وأصبحت بعض النفوس من المسلمين تتوجه إلـــى ماعند الغرب من أنظمة الحكم ...

فمن هو الذي وراء هذه الخطوات السريعة في طريق العلمنة في الحكم ؟

إنه ذلك الرجل آنف الذكر **إبراهيم متفرقة** ، والذي سبق بيان أنه مجري الأصـــل ، يقال : إنه أسلم ، فقد أدخل طرقا ، وأفكارا جديدة من الغرب ، وأبرز أعمالـــه عنـد أول خلافة **محمود الأول** : كتابه المطبوع عام ١١٤٣هـ ــ١٧٣١م بعنوان : " **أصول الحكـم في نظام الأمم**" وقد قدمه هدية للسلطان ، ويزعم أن هدف الكتاب هو : دراســـة أسـباب الانحراف في الدولة، وأسباب القوة في الدولة العثمانية .

فما هي أسباب القوة في نظره ؟ هل هي الأخذ بنظام الغرب ونظمه ؟!

(ذكر ثلاثة صور للحكومة هي : الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية ، ووصف باختصار ــ طرق تمثيل الشعب ، والبرلمانات وكيفية إدارة ممثلي الشعب الحكومــة) (١) وذكر إنجلترا كمثال للشكل الديمقراطي للحكومة وذلك بتفاصيل أكثر من الأشكال الأخرى، وكأنه يرمي إلى تطبيق هذا النظام الوضعي في أرض الخلافة ، والكتاب من ثلاثة أجـزاء، وفي الجزئين الأخيرين مباحث أخرى عسكرية وجغرافية وغيرها . وهذا الكتاب طبـــع ــ بالطبع ــ في مطبعة " **إبراهيم متفرقة** " وماهو إلا واحد من انتاجاته . فإنه لمـــا أغلقـت المطبعة عام ١١٥٥هـ ــ ١٧٤٢م كانت قد طبعت سبعة عشر كتابا منـــها رسـالة فـــي وصف فرنسا ، ورسالة في الفنون الحربية المطبقة في الجيوش الغربية (٢) وغيرها ..

ومن المجالات الحساسة التي دخلتها العلمانية ، أو بدأت الفكرة مبكـــرا فـــي قطـــاع الجيش ورجاله من صغار وكبار ، وقد أظهر**الكونت يوتفال** ويسمى (**فمبـــارجي أحمـد**) دورا بارزا في فترة السلطان **محمود الأول** ، فقد عهد إليه بتدريب المدفعية على الطريقـــة الأوروبية ، وهذا الرجل قد دخل الخدمة التركية عام ١١٤١هـــ ١٧٢٩م بعد أن أسلم .

---

(١) المرجع السابق ، نيازي بيركز ص ٤٢-٤٤

(٢) برنارد ولويس **The Middle east and the west p 33**

وكان قد نفي من فرنسا ثم من النمسا ، وفي تقاريره للسطان يصف نظم وتكتيكات القوات العسكرية الألمانية والفرنسية ، ونصح باستخدام وحدات مشابهة كما اقترح تكوين قوات طبية خاصة .. ولكن الأمر الخطير الذي خرج فيما بعد من شيوخ تركيا الفتاة ودعاة الإلحاد افتتاح مدرسة الهندسة العسكرية في (**اسكي دار**) عام ١١٤٦هـ ــ ١٧٣٤م لتدريب المهندسين العسكريين(١). وبالطبع تولى التدريس في هذا الصرح التعليمي أساتذة أوروبيون من يهود ونصارى ، ومع استمرار موجة الضعف في الدولة ولدى السلاطين خاصة أو غياب المصلحين الجادين تغيرت لهجة دعاة التغريب والعلمانية من التلميح إلى التصريح ، فهذا أحد الكتاب المجهولين... ينادي بتمرير الأمور المتعلقة بالدنيا من سيطرة التقاليد والاعتبارات الدينية وإخضاعها لمقاييس العقل ، لأن الأمر يتطلب فصلا جوهريا بين الدين والدولة . وهذا كاتب آخر يدعى **أحمد رسمي** وكان مقربا من الصدر الأعظم **خليل حامد** ذكر أن الهزيمة لاترجع إلى الوسائل الحديثة التي أدخلت في الدولة وإنما إلى وعي المحافظين (٢) .

ويمكن اعتبار الدعوة السابقة أول دعوة صريحة تنادي بفصل الدين عن الدولة في تاريخ الدولة العثمانية .

وقد استمر هذا الصدر الأعظم " **خليل حامد** " بتشجيع تيار الإصلاح على أساس العلمانية خاصة بعد توقيع معاهدة " **كتشك كينارجي** " عام ١١٨٨هـ ــ ١٧٧٤م والتي كانت من أكثر المعاهدات شؤما على الدولة لتضمنها تنازلات كبيرة ، وتدخلات صريحة من الروس في شؤون الدولة بل نصت أيضا على أن تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية لروسيا (٣) . وضمنت بنودا تتعهد بها الدولة العثمانية بالسماح لروسيا في بناء الكنائس في الآستانة، وترميم القديم ورعايتها للأبد !! وأجبرت الدولة على بناء كنائس أيضا بحجة حرية العبادة(٤).

وكان من أهم نتائج المعاهدة أن جدد المصلحون الجدد اهتمامهم الأول في تأسيس مؤسسات تعليمية غير تقليدية (غير إسلامية) وكذلك فتحت مدرسة جديدة للهندسة عام ١١٩٠هـ ــ ١٧٧٦م للضباط البحريين (٥).

---

(١) نيازي بيركز ، المرجع السابق ص ٤٧ – ٤٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦-٥٨.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٠ – ١٧١ ، محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٦٩.

(٤) انظر المادة ١٤ ، والمادة ١٦ من المعاهدة .

(٥) نيازى بيركز : ص ٥٩.

وهذه النظرة الجديدة أثرت على العقلية المحلية وجعلت حتى المنتسبين للإسلام يعتقدون أن الإدارة السياسية ينبغي أن تبنى على اعتبارات القوة المادية لا الدينية (١).

هذا التخبط الذي حصل في أنظمة الدولة ، وجريها وراء كل ماهو عند الغرب إبان عهد الصدر الأعظم خليل حامد، ففي عهده وفدت للأستانة أعداد متزايدة من الغربيين بخاصة الفرنسيين ممن جاءوا لمهمات رسمية أو غير رسمية ، وكان موقف الدولة هو الترحيب بكل غاز حاقد على الإسلام ، فقد كان خليل حامد ميالاً لكل إصلاح مستورد مستوحى من الغرب مما جعل عامة المسلمين يتهمونه بخيانة الدولة والدين . فعزل ونفي وقتل ، وتَتَبَّعَ عَدَداً من أتباعه بالاغتيال وهو في ذلك عدو الشريعة والدولة (٢) .

لكن هذا الموقف من الشارع المسلم هل أوقف تيار العلمانية في البلاد ؟!! هذا ماسنراه في التنظيمات العثمانية والدستور .

لقد أدى السفراء الأجانب دوراً كبيراً في جلب دعاة التغريب والعلمانية إلى البلاد والذين أصبحوا أساتذة ومنظرين لحركة التنوير، ففي عام ١٢٠٧هـ ــ ١٧٩٣م أرسلت الحكومة العثمانية إلى باريس قائمة بوظائف الضباط والفنيين الذين ترغب في استحضارهم من فرنسا وأرسلت قائمة أخرى عام ١٢٠٩هـ ــ ١٧٩٥م بناء على توجيهات وأوامر السفير الفرنسي الجنرال **دوبابيه**.

وفعلاً جاء هؤلاء المعلمون وكانوا أول من مارس التأثير الشخصي والمباشر على الشبان المسلمين كما كانت اللغة الفرنسية هي المستخدمة في التدريس (٣).

ومن وسائل التغريب التي جلبت العلمانية للبلاد فيما بعد عندما تأسست سفارات دائمة عام ١٢٠٧هـ ــ ١٧٩٣م في عواصم أوروبا الرئيسية ، لندن ، باريس، فيينا ، برلين ، مدريد ، .. إلخ فوجد بهذه العواصم بعض الأتراك الذين أقاموا في أوروبا مدداً طويلة جعلتهم يألفون الحياة الغربية ويتنكرون لكل قديم موروث عنه وطلب منهم كتابة تقارير عن الأوضاع هناك في شتى المجالات ، وكتب بعض هؤلاء السفراء اقتراحات للإصلاح(٤).هذه البدايات الصغيرة في ظاهرها والبطيئة جداً بالمقارنة مع أقطار أخرى من العالم الإسلامي مهدت الطريق لأي فكرة حديثة يرى الناس أن فيها خلاصهم من الذل والهزيمة التي لم تفارقهم في القرن التاسع عشر خاصة وماقبله ! ولو كانت هذه الفكرة

---

(١) المرجع السابق : ص ٥٤.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ١٧٣.

(٣) برنارد لويس **The middle East and the west . p 38 - 40.**

(٤) نيازي بيركز : العلمانية في تركيا ص ٧٧.

تتعارض مع الشريعة بل تقصي الشريعة كليا عن ميادين الحياة وهذه الدعوة لم تظهر شبه صريحة إلا في عهد السلطان **محمود الثاني** (١٢٢٣ ـــ ١٢٥٥هـ) ، أما فترة **سليم الثالث** (١٢٠٤ ـــ ١٢٢٢هـ) فإن الحياة الغربية أصبحت مألوفة عند بعض طبقات المجتمع ـــ خاصة الأغنياء والمثقفين ـــ لاأقصد الاهتمام بالعلوم التجريبية والحرص على الاستزادة وحب الاطلاع وتنمية المواهب كما كان يشاع عن الغربيين . ولكن في الحياة الاجتماعية والتخلي عن قيود مفهوم الأخلاق ومفهوم العرض والعفة والدين وبعض التكاليف الشرعية فإن تزايد عدد المقيمين الأجانب أدى إلى تسرب بعض طرق الحياة الأوروبية .

وهذا من مظاهر العلمانية والتي سيأتي الكلام عنها في الباب الثالث إن شاء الله فانتشرت الأزياء الأوروبية الفرنسية بين الطبقات الراقية ، وتزايدت الرغبة بين الشباب على تعلم اللغة الفرنسية (لغة العلم والحضارة على زعمهم) .

وتكونت مجموعات صغيرة من المفكرين العلمانيين باسم النوادي الأدبية كان أغلبهم من يهود الدونمة ـــ كما مر معنا ـــ وقد تولى بعضهم شئون هامة في محاولات للإصلاح في عهد سليم الثالث .

هذه التغيرات أو الانتكاسات الغربية عن المجتمع قادته إلى ثورة من أعنف الثورات على السلطان وحكومته قادها العلماء لاتهامهم السلطان بأنه لم يعد حاميا للدين ، وأنه واقع تحت سيطرة " الإفرنج " فصدرت الفتوى من شيخ الإسلام (١). بأن كل سلطان يدخل أنظمة الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على إتباعها ويخالف الشريعة لا يكون صالحا للملك ويعزل (٢).ولكن وللأسف تلك الفتوى من شيخ الإسلام لم تكن منبعثة ـــ في ظاهرها ـــ من الحرص على الأمة بقدر ما كانت ناتجة عن ضغوط الإنكشارية (الذين هم على الطريقة البكتاشية أغلبهم) لفوات مصالحهم ، فالأدعياء من الصوفية والعلماء وكانوا يعارضون سليما ، فجعلوا تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في حكم اللادينية ، ولبس الزي العسكري الحديث في حكم التشبه بالنصارى، وأساءوا إلى سمعة السلطان سليم الثالث حتى وصل الأمر أن أفتى شيخ الإسلام في الدولة **عطاء الله أفندي** بالفتوى السابقة كان الذي يخشى منه دعاة الإصلاح على النمط الغربي وجود الإنكشارية الذين يأتمرون تحت رأي الهيئة الإسلامية ولاسلطان للسلطان عليهم فأصبحوا يتحكمون في كثير من شئون

---

(١) ولننظر بهذه المكانة المرموقة لمنزلة المفتي وخطورة دوره في الحفاظ على جناب الشريعة من التغيير والتبديل، هذه المكانة التي لم يحافظ عليها فيما بعد، مما جعل المفتين والقضاة موظفين كسائر موظفي الدولة - يفصل وينقل ويعزل !! وسحب البساط من تحتهم فلم يلتف حولهم لاخاصة ولاعامة .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ١٩٤.

الدولة ، وإن كان المسيطر عليهم فعلا هم شيوخ الطريقة البكتاشية الباطنية، فلم يكن الدافع لدى الإنكشاريين في ثوراتهم ضد السلاطين هو حماية جناب الدين ولكن حماية شهواتهم وامتيازاتهم التي توصلوا لها طوال حكم الخلفاء السابقين. مما جعل السلطان **محمود الثاني** شغله الشاغل منذ توليه الخلافة هو إبادة هذا الجيش بأكمله (وإن لم يتوفر بديل مساو يحمى الدولة من المعتدين) وفعلا هذا ماتم في عهده منذ البداية .

ومن بعدها بدأ يصرح بأهدافه الإصلاحية والتي سميت فيما بعد بالوطنية والعلمانية وأصبح يدعو لدولة عثمانية مؤلفة من كل الرعايا بصرف النظر عن الجنس واللغة والدين فقد اشتهر عنه قوله : " إن نيتنا إلى اعتبار المسلم مسلما في المساجد فقط وكذلك المسيحي مسيحيا في الكنائس واليهودي يهوديا في المعابد ، وأتمنى أن يتمتع الجميع خارج هذه الأماكن ــ التي هي أماكن العبادة فقط ــ بنفس الحقوق السياسية وبحمايتي الأبوية "(١).

وقد شهدت تلك الفترة صعود رجال الدولة أصحاب الفكر الغربي العلماني وتحكمهم في مصير الدولة، وسنذكر نماذج لهؤلاء الرجال فهم: إما رجل غسل عقله في عواصم أوروبا أو نصراني أو يهودي حاقد ترقوا في المناصب إلى أن أصبحت لهم السيادة في البلد وخاصة في بلاد الشام .

ومن الخطوات الجريئة ماطرأ من تغيير على منصب شيخ الإسلام على خطورته ومكانته الرفيعة منذ قيام الدولة، فقد أحال **محمود الثاني** الأمور المتعلقة به إلى الشئون الدينية وأسس ديوان الأحكام العدلية عام ١٢٥٣هـ ــ ١٨٣٧م لدراسة الشئون القانونية والتشريعية وكان هذا الديوان بداية فكرة القانون الوضعي التركي ــ وإن تولى رئاسة الديوان فضلاء من أمثال **جودت باشا** وكان من أول تباشير هذا الديوان إصدار قانون الجزاء الذي نشر عام ١٢٥٤هـ ــ ١٨٣٨م فهو يمثل المحاولة الأولى لتأسيس قانون عام مدني لا يتقيد بالشرع (٢).

ومن الخطوات الجريئة التي مكنت لأهل الذمة غرس مبادئ العلمانية في نفوس شبان المسلمين بل وأطفالهم ، وإنشاء مدارس علمانية جديدة بجوار المدارس الدينية دون محاولة الاصطدام مع المدارس (الشرعية)، فتأسست مدارس للتعليم العالي لتخريج أهم عناصر النظام الاجتماعي العلماني من محامين وأطباء ومهندسين وكبار موظفي الدولة ، نتج عن أن ينحى علماء المدارس الدينية جانبا ونابهم التجاهل العام في شئون التعليم

---

menzes tanbey old and new P. 81-88(١)

(٢) نيازي بيركز : المرجع السابق ص ٩٧ - ٩٩.

والسياسة والقانون (١).وسبق أن ذكرت أن غالب الذين تولوا التدريس والتدريب هم من نتائج الثورة الفرنسية من العلمانيين . حيث يقول **برنارد لويس :**

" وقد ساعد على نشر الفكر الغربي الوافدون الأوروبيون إلى الشرق الأوسط كمعلمين وباحثين وخبراء ومستشارين ومبشرين وسياسيين وأصحاب أعمال، وكان أشدهم تأثيرا المدرسون العسكريون وكان أكثرهم من الفرنسيين .. إلخ، أضف إلى ذلك أن الحكومة العثمانية نفسها أرسلت عام ١٢١٠هـ ــ ١٧٩٦م طلب للجنة الأمن القومي في باريس لتزويدها بعدد من الخبراء العسكريين والفنيين " (٢).

من الوسائل التي سلكها أهل الذمة في إدخال العلمانية :

انتشار الكتب الغربية وإن كانت تحمل فكرا مناقضا للإسلام ونشر ذلك عن طريق البريد الدبلوماسي والأجنبي ، واستغلال حصانة السفارات في ترويج الفكر الغربي .

فقد بدأت الكتب الغربية تنتشر عن طريق الترجمة، وعن طريق المدارس الأجنبية والتبشيرية التي كانت تفتحها الحكومات الأوروبية في الدولة العثمانية وتزودها بالكتب والمدرسين والموجهين حيث كان ينتسب إلى هذه المدارس الكثير من أبناء البلاد، وقد ساعد ذلك على نشر الأفكار الأوروبية وفي عام ١٢٠٨هـ ــ ١٧٩٤م ترجم النداء الذي أصدرته حكومة الثورة الفرنسية إلى اللغة العربية كما ترجمت كتب فرنسية سياسية إلى العربية والتركية (٣).

وللأسف كان هذا النشاط في الترجمة والمدارس الأجنبية مبعثه من الأجانب الذين لايقرون بمبادئ الإسلام بل إنهم يريدون هدم كيان هذا الدين ــ ثم أصبح منهجا تسلكه الدولة خاصة في عهد **محمود الثاني** (١٢٣٣هـ ــ ١٨١٨م ، ١٢٥٥هـ ــ ١٨٣٩م) حيث اتسعت حركة الاتصال بالغرب ــ وكان من العناصر المؤثرة جدا على شخصية هذا الخليفة زوجته الفرنسية

فلم يكتف السلطان محمود بجلب المهندسين والمدرسين والمدربين من الغرب للجيش النظامي الجديد ، بل أسس مدرسة للطب وكانت دروسها باللغة الفرنسية ، كما أسس " **إدارة الترجمة** " ومجلسا أعلى للقضاء، كلفه بإعداد القوانين الجديدة ، وفي عهده أيضا ظهرت طبقة الأفندية الذين راحوا يكتسبون الطباع الأوروبية في الحياة واللباس (٤) . بل

---

(١) نيازي بيركز ص٦٣ **Historiual Bacb gerand of Turkih Seularirm**

(٢) برنارد لويس تعريب نبيل الطويل : الغرب والشرق الأوسط ص ٦٤.

(٣) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٥٨.

(٤) عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ص ١٨٠ ، وانظر د .حسين مؤنس : الشرق الإسلامي في العصر الحديث.

في الخمور والرقص . يوضح ذلك نظرة في مكتبه الكلية الحربية تبين لنا مدى حجم الغزو الذي وجه للمسلمين في تلك الفترة حيث ضمت أربعمائة كتاب بالفرنسية وكتب **فولتير وجان جاك روسو** (١) .

الشاهد أن النظرة للتعليم تغيرت بالكلية وهذه النظرة تظهر في تقرير أعده (**مجلس الأمور النافعة**) عام ١٢٥٤هـ ـ ١٨٣٨م إذ يقرر أن جميع الفنون والصناعات من نتاج العلم والمعرفة الدينية تخدم الآخرة ، ولكن العلم يخدم العالم الدنيوي وإنه لايمكن اتخاذ أي شيء بدون الحصول على العلم ووسائل الحصول على العلم والثقافة توجد في النظام الجديد للمدارس(٢).

وظل صراع بين شيخ الإسلام ومجلس الأمور النافعة حول هذا التقرير وكيفية تدريس القرآن الكريم . وحول أمور شكلية مرتبطة بأقوال متعصبة المذاهب أحيانا وتارة صراع فكري حول مناهج تدريس الشريعة وتنحيتها عن الحياة وحصرها في المساجد وأن لا علاقة لتعلم الشرع بأسباب الرقي والحضارة .

* من الأبواب التي تسللت منها فكرة العلمانية إلى البلاد الابتعاث دون ضوابط، ففي سنة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٧م أرسل السلطان **محمود الثاني** بعثة تركية مؤلفة من مائة طالب لعدة دول أوروبية وبعد ذلك بسنوات ارتفع عدد الطلاب كثيرا وبلغ الآلاف (٣) ومابين عام ١٢٣٥هـ ـ ١٨٢٠م ، ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م كان في أوروبا أشياء كثيرة تعلمها الطلاب الشرقيون وتأثروا بها ، كانت من أهم أسباب ظهور طائفة جديدة من أبناء الدولة العثمانية لم يستطع أن يتمثلهم المجتمع العثماني القديم، وقد أطلق عليهم اسم (الشبيبة العثماني والشبيبة العثمانية) وتشكلت منهم مجموعة من المتحررين الذين استوطنوا أوروبا ليقوموا بدور المعارضة (٤) . وكان منهم الجمعيات السرية والعلنية، وهذه الشبيهة فيما بعد كونت ماعرف بـ " **تركيا الفتاة** " ، والذي سيطر عليه الماسونيون ووجهه اليهود حيث شاؤوا .

ومنذ بداية ظهور هذه النابتة كانت تتلقى التشجيع من دول الغرب (وهذا الجيل الذي تلقى ثقافته من أوروبا ومن بعض الكليات العصرية في تركيا نشأ على الاستهانة بقيمة الدين أو اللباس في صورة مستقلة وعلى تقديس الحضارة الغربية وفقد في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق القادر على نقد فلسفة الحضارة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها

---

(١) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) نيازي بيركز The Developme,t of Sein Turkey P . 105 .

(٣) نيازي بيركز : المرجع السابق ص ٢٧.

(٤) عبد الكريم المشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا .

ومعرفة مايصلح لتركيا اقتباسه والإفادة منه ومالايصح مع طبيعة تاريخها ومكانتها في العالم الإسلامي .. وأكثر هؤلاء من ذوي الثقافة المحدودة في الشرع، ويضاف إلى ذلك مالقوا من بعض العلماء من تثبيط وماجربوه فيهم من جمود وضيق نظر، وفى البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على القديم وإلى التصميم على تغريب تركيا (١).

وبالطبع تلك الخطوات التي أنجزها دعاة التغريب والعلمانية دخل معها بعض سمات المجتمع العلماني من فساد أخلاق ومجون وكذلك من تفلت من التكاليف وعدم الاكتراث لمخالفة أحكام الشريعة (وخير شاهد على ذلك ماذكره المؤرخون من نبأ الدعوة التي أقامها السلطان لشاة إيران **اسماعيل** وماقدم له من أنواع الرقص الغربي وفنون الموسيقى الغربية) فأصبح كثير من الصور في الحياة الاجتماعية لم تكن موجودة بل لا أبالغ إن قلت أنها لم تكن تخطر على بال مسلم إبان حكم الخلفاء أمثال **محمد الفاتح** ، فإن السلاطين سابقا وإن كان منهم السكير والماجن والعابث إلا أنهم كانوا غالبا خلف أسوار عالية مثل **سليم بن سليمان القانوني** .

أما في عهد السلطان **محمود الثاني** فإن الوضع تغير للأسوأ ، فقد بدأ الأتراك يرتدون البنطلون على الطريقة الأوروبية ، وظهرالذين كانوا يشغلون المناصب الهامة بدون لحى، كما أخذت صور الأدميين تظهر في الصور وأصبحت الموسيقى الغربية تسمع في شوارع استانبول (٢). وجعل محمود الثاني من نفسه نموذجا لاقتباس مظاهر الغرب فطور لباسه بحيث يظهر بمظهر الحكام الأوروبيين وقص لحيته وارتدى البنطلون .

وكان أول سلطان يشهد الاحتفالات العامة والموسيقية والأوبرا وحفلات رقص الباليه التي كانت تعرض في بعض السفارات الغربية، بل استقدم الموسيقيين الغربيين وأنشأ فرقته الموسيقية الخاصة التي أصبح بإمكانها عزف الموسيقى لضيوفه الأوروبيين (٣) .

ثم خطا بعد ذلك خطوات جريئة بوضع صوره في المعسكرات وأن تؤدى لها التحية كما تؤدى لشخصه (٤) .

وهذا من عوامل ترسيخ الوطنية في نفوس الجند ــ على حد زعمهم ــ ومعروف حكم الإسلام في تعظيم الصور وتعليقها .

---

(١) د. حسين مؤنس : المشرق الإسلامي ص ٤٣.

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني . ص ١٩٥ – ١٩٦.

(٣) المرجع السابق : ص١٩٧ .

(٤) محمد عبد اللطيف البحراوي : الإصلاحات العثمانية في عصر محمود الثاني ص ٢٠٥.

هذه التغيرات الاجتماعية الكبيرة وتزامنها مع تغيرات في نظام الحكم وفي الحياة الاقتصادية غير المنضبطة بضوابط الشرع لم تحصل في عشية أو ضحاها ، ولم تتم بسهولة، بل نتيجة لكمات متلاحقة وأمواج عالية متعاقبة وغزو مسلط من الخارج والداخل صادف قلوبا فارغة فتمكن من نفوس المسلمين بل جعلهم يعتقدون أن بعدهم عن الدين هو الصورة الصحية وارتباطهم بالماضي والتقاليد هوالصورة المرضية التي تحتاج إلىعلاج.

وهذا يظهر في خطاب لأحد رجال الدولة إلى أحد الدبلوماسيين الفرنسيين يقول فيه ''إننا لانستطيع أن نغير كل شيء بين عشية وضحاها وعليك أن تدرك عمق جذور الخرافات والعادات التي ينبغي أن نتغلب عليها ، إننا نواجه مهمة صعبة تشبه صعوبة تعليم لغة جديدة لكل الوطن (١).

وليت مصيبة هؤلاء اليهود والنصارى اقتصرت على إغراء الأمة بالشهوات والملذات، لو كان الأمر كذلك لهانت المصيبة حينئذ ، فلعل الغافل أن يستيقظ والعاصي أن يتوب ويتفكر بمصير أمته، ولكن الطامة الكبرى والتي مازال المسلمون يكتوون بنارها الشبهات الفكرية التي لبس بها على كثير من شباب الأمة بل وعلى علمائها للأسف .

فاستطاعوا أن يقنعوهم بإقصاء الشريعة عن ميدان الحياة باسم حاجتها إلى التنظيم الجيد المقتبس من الأمم المتحضرة (الأوروبية) وبحجة أن التنظيمات لاتتعارض مطلقا مع الشرع بل لكل بابه، وسخروا لهذه الدعوة كبار العلماء في ذلك الوقت أمثال شيخ الإسلام **عارف حكمت** ،عندما ثار كثير من الناس في مختلف الأقاليم على التنظيمات الجديدة التي عرفت باسم (**خط شريف كلخانة**) سنة ١٢٥٥هـ ــ ١٨٣٩م ومن الطبيعي أن تكون هناك ردود فعل عند عوام المسلمين فضلا عن علمائهم، لأن هناك (أحكاما في الشرع معلومة من الدين بالضرورة لايجهلها أحد، وقد اعتاد الناس طوال القرون السابقة ــ أقصد بما يتعلق بأهل الذمة من الأحكام .

وكذلك معرفة الناس عامة بأن وراء صياغة هذه التنظيمات رجال نصارى وكلت إليهم المهمة بحجة الخبرة و... فهذا **إبراهيم باشا** حين استولى على بلاد الشام ــ خارجا على السلطان ــ استشار المسلمين في تنظيماته التي شرعها (من منح النصارى حريات واسعة وألغى القيود على أزيائهم المميزة وأباح للإفرنج دخول مدينة دمشق راكبين وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها ورفع أعلام تحمل شارة أو شعار الصليب لأول مرة في تاريخ دمشق الإسلامي) !! كذلك ــ وهو الشاهد ــ أنه اعتمد على رجال من النصارى أمثال **بطرس كرامة وحنا البحري** ، وعهد إليهم إدخال تنظيمات إفرنجية ، وترتيب مجالس ملكية

---

(١) نيازي بيركز : المرجع السابق ص ٦٤.

ومدنية وعسكرية ونظامات حديثة ، وأسوأ من كل ذلك كان تنظيم الجباية والمساواة أمـــام القانون لافرق بين مسيحي أو مسلم أو يهودي (١) .

ولكن الغريب في الفرمان الذي صدر (واعدا بالإصلاحات) ــ وهذا من خبث ومكر كاتبه ــ أنه لم يقص الشرع جانبا ويذكر القانون فقط (بل يلاحظ ورود ذكر الشرع مقترنا بالقانون لأن الدولة أبقت على الشرع والمحاكم الإسلامية القديمة بدون تغير يذكر، ولكـــن بتجريد من الصلاحيات ــ كما سيأتي بيانه قريبا ــ وأوجدت قانونا مدنيا تطبقـــه محـــاكم نظامية وتعيش جنبا إلى جنب مع الشرع والمحاكم القديمة (٢) .

هذا الاقتران ولد التلبيس لدي عامة الناس بل لدي العلماء فهو يذكر في نص " **الخـــط الشريف** " إن عدم الانقياد للشرع كان السبب فيما أصاب الدولة من ضعـــف، وأن غايـــة الخط هو إحياء الدين والدولة والملة .. إلخ إلا أن في صريح العبارة لهذا الخـــط مايـــهدم الدين والملة بل وكان أجرأ خطوة نحو الأخذ بالقوانين الوضعية، ولكن مع الأسف الدعايـــة الكبيرة والمظاهر الحافلة التي أعدته لقراءة هذا الخط من تجمع لكبار رجال الدولة ودعـــوة العلماء والموظفين من رجال السلك السياسي " ودغدغـــة " مشـــاعر العلمـــاء بضـــرورة المحافظة على الشرع الحنيف وإحياء الدين .. وغياب العلم الشرعي الموصل وهو قبل كل شيء، هذا كله جعل أهل العلم في ذلك الحين تتخبط مواقفهم كما سنرى الآن .

فهذا (الخط الشريف) باعتراف رجال الدولة إنه مع ظهوره فلا مجال للتقاليد القديمة لتكون ميزانا صالحا للحكم ولابد من الأخذ بأساليب الغرب ولاتعارض مـــع الشـــرع (٣). وهذا دليل قوي بأن مصلحي تلك الفترة لم تكن مهمتهم مجرد إدخال تغـــيرات عســـكرية معينة أو مهارات وتقنيات مدنية، ولكن الأمر يتضمن شيئا أعظم من ذلك إذ كان يعني خلق دولة جديدة وحديثة ومجتمع علماني، فما راعت القوانين والدولة ذات شأن لن يكون هنـــاك مكان للاعتبارات الدينية وقد أدى صدور (خط شريف كلخانة) إلـــى ردود فعـــل قويـــة فالرأي العام التركي وقف منه موقفا قوميا فنشبت بعض الاضطرابـــات فـــي الأنـــاضول والمعارضات الشديدة التي ماتلبث أن تلين وترضخ للأمر الواقع وترضى بالهزيمة بل تطلع البعض إلى **محمد على باشا** أن يخلص الدولة من النفوذ الأوروبي ومـــن **رشـــيد باشـــا** الكافر(٤) .

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سورية في القرن التاسع عشر ص ٥٥ ، نقلا عن " الحكومة المصرية في بلاد الشام "ص ٢٢-٢٣ وغيره

(٢) عبد الكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث ص ٢٠١ - ٢٠٢ . ط . جامعة دمشق ١٩٦٠.

(٣) سبق نص : الفرمان كاملا في الفصل الأول ، انظر محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية : ص ٢٥٤-٢٥٦.

(٤) على حد تعبيرهم .

وهو الذي وراء فكرة التنظيمات التي أسلفت وقد كان أوروبي النزعة والمنشأ (١).

تدخل أهل الذمة في صياغة القوانين :

وقد استعان **رشيد باشا** عندما أراد أن يضع قانونا للعقوبات وفقا للشرائع الحديثة عام ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م استعان بأحد الخبراء الفرنسيين . ولذا أخذ بعضهم يعد العدة للخلاص منه إذ وجدوا الدولة تساوى بهم النصارى واليهود وتستبدل قوانين النصارى بقوانين الدولة المسلمة، فلم يلبث أن عزل رشيد باشا من الصدارة، ولكن هذا الصراع حول التنظيمات وشرعيتها لم يزل مستمرا وقد دافع عنه أناس ونافحوا عنه من المحسوبين على العلماء على أساس أنه مجرد تنظيمات لاتمس الشرع .. وليس عليها طابع التشريع .. وهذا كلام ساقط من كل وجه ولا أدرى كيف يخفى على من عنده مسحة من علم واطلع على التغيرات التي أعقبت صدور التنظيمات ومافيها من مناقضة صريحة للشريعة، بل وتنحية المحاكم الشرعية وجعلها خاصة فقط بما يسمى بالأحوال المدنية هذا ماحصل سنة ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٦م حيث نظمت المحاكم الشرعية وحددت صلاحياتها سنة ١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٧م ـ على ماسيأتي تفصيله ـ ومنعت من سماع القضايا الجنائية ثم الحقوقية واقتصرت ولايتها على الأوقاف والتركات والزواج والطلاق والنفقة !! (٢).

ثم بعد ذلك نقول لاتناقض بين الأنظمة والقوانين الفرنسية وبين الشريعة !! ومن العلماء الذين كشفوا زيف التنظيمات وماوراءها شيخ الإسلام (**مصطفى صبري**) حيث كشف زيف هذه التنظيمات من النصوص و الوثائق الخطيرة التي تكشف حقيقة التنظيمات ومغزاها مقدمة . يقول السفير الفرنسي في تركيا **"ادنكلهارد"** في مقدمة كتابه " **تركيا والتنظيمات** " :

" كان الغرض العام من التنظيمات تقريب الهيئات الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة، وفي الحقيقة إن الإسلام الذي كان مؤسس الحكومة العثمانية ظل حاكما مطلقا فوق الحكومة، فقد كان القانون المدني متحدا مع القرآن لكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لايمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة لاتقبل التغيير في العقائد الدينية ، فوجب لتحصيل الائتلاف إما إزالة الحائل بالمرة أو تخفيف وطأته، بمعنى إما أن تحول الأمة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها من تأثير القوانين الدينية ، كما وقع في العالم المسيحي وإما أن تخلص بالتدريج عن الحدود والقيود الدينية من تفسير العقائد الأساسية تفسيرا

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٠٢ .

(٢) د .حسين مؤنس : المشرق الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

موسعا وللاحتراز من غضب شعب جاهل متعصب لايلبث أن ينفعل ويتأثر، كانت الحكومة العثمانية قد اختارت الشق الثاني (١).

والشيخ **مصطفى صبري** من العلماء الأفذاذ الذين تصدوا للفكـــر العلمـــاني وحركـــة التغريب في الدولة ومواقفه من العقلانيين والملحدين مشهورة .

ومما يدل على التردد بل التناقض في المواقف بين علماء ذلك الجيل الموقف السـلبي لشيخ الإسلام " **عارف حكمت** " كما يخبرنا **خير الدين التونسي** في مقدمته حيـــث أرســـله السلطان إلى جهات الاضطراب ، لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتثال، فخطب بذلـــك على المنبر وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعي ومـــاهي إلا ضبط للجهات الشرعية !! التي كانت أهملت (٢).

ووافق **عارف حكمت** على هذا الموقف الشيخ **إبراهيم الرياحي التونسي** . ودافع بشدة عن سياسة التنظيمات **خير الدين التونسي** في مقدمة كتابه (**أقوم المسالك**) بل ويعتبرهـــا الوسيلة الوحيدة لإنهاض الدولة من التردي ، وإن الشريعة لاتنـــافي النظيمـــات السياســـية المقوية لأسباب التمدن والنمو العمراني كما يعتقده كثير ممن ذكرنا (٣) ... ويعزي **خـــير الدين** أسباب المعارضة إلى أحد أمرين فقط !! فيقول بعد أن ذكر حججـــهم واحـــدة تلـــو الأخرى ورد عليها : " إن أولئك الذين يدعون أن التنظيمات شرع جديد مخالف لشـــريعة الإسلام لايتعدون واحدا من اثنين :

١ـــ الطائفة الأولى : من يجهلون مصالح التنظيمات ولايفرقون بينها وبين الاســـتبداد بل يعدونها منها من بدع آخر الزمان، ويؤثرن عليه البقاء على ماكان ومنشأ ذلك القصـــور عدم الاطلاع على مصالح التنظيمات في جميع أنحاء المعمورة .

٢ـــ الطائفة الثانية : من يدركون مصالح التنظيمات وجدواها، ولكن يؤثرون عليـــها مصالحهم الشخصية ويخشون فوات الامتيازات التي تيسر لهم مع وجود الاستبداد ومنشـــأ ذلك نقص الديانة والهمة والإنسانية وعدم ملاحظة العواقب الدنيوية والأخروية (٤).

ثم يورد حجة من حججه القوية :

---

(١) شيخ الإسلام مصطفى صبري : موقف العقل .. ج٤ ص ٣٤٨.

(٢) خير الدين التونسي : من مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ١٤٢ تحقيق المنصف الشنوفي . الدار التونسية للنشر١٩٧٢م.

(٣) المرجع السابق : ص ١٦٠.

(٤) المرجع السابق : ص ١٥٢.

شبهة : وهي مقارنة بين مافعله السلطان **سليمان القانوني** من تنظيمات وبين هذه التنظيمات الجديدة ويقول : " إنه كما لم يكفر في السابقة فكذلك في اللاحقة " .

الرد : يقال شتان مابين الأمرين فليس هناك أي وجهة شبه بين القضيتين ولست مبالغا في قولي هذا . فقد مر معنا أن **سليمان القانوني** كلف الشيخ **إبراهيم الحلبي** مهمة إعداد قوانين للشريعة فكانت في كتب اسمه " **ملتقى البحار** " (١). وقد اقتبسه من الفقه الحنفي، فهذه على الخلاف في مسألة تقنين الشريعة .. **أما عبد المجيد ومحمود الثاني** فقد كلفوا **فيليب وجورج ولويس** و..... واقتبست من القانون الفرنسي والبريطاني والبلجيكي وغيرها ..

فهل الفقه الحنفي في منزلة القانون الفرنسي ؟!! قطعا لاتخفى الإجابة على مسلم ، ولكن التلبيس الذي حصل هو بتزويق الألفاظ واختيار المتشابه من القول .

ولكي نتعرف على مدى الخراب الذي حصل للبلاد في عهد ماسمي بالتنظيمات ومدى البعد عن دين الله بل ومبارزته سبحانه بالمحاربة بدلا من أن يحمي جناب التوحيد ... فنعرض لقطات يسيرة من القوانين التي ترتبت على خط كلخانة والخط الهمايوني الذي أعقبه دون التفصيل في جميع بنود هذه القوانين، ونبين منها صحة مزاعم من يقول أنها لاتخالف الشرع أو عدم صحتها .

ظهور لائحة ببنود أول قانون علماني صريح "قانون العقوبات":

" لقد قررت حكومة **رشيد باشا** إنشاء محاكم مدنية وجنائية مختلطة عام ١٢٦٣هـ ــ ١٨٤٧م وقد تشكلت المحاكم المختلطة من عشرة من الأجانب وعشرة من المسلمين العثمانيين وعشرة من غير المسلمين العثمانيين، الأمر الذي مهد الطريق لإصدار أول قانون علماني وهو قانون التجارة في ١٢٦٦هـ ٢٨ يولية ١٨٥٠م المأخوذ من القانون الفرنسي الصادر عام ١٢٢٢هـ ــ ١٨٠٧ م فهو لم يزل حديثا لم يمض عليه أكثر من ٤٠ أربعين عاما تقريبا

وأصبحت المحاكم التجارية هي المسئولة عن وزارة التجارة . فنشأت بذلك أول المحاكم العلمانية خارج نطاق الشريعة وسلطة شيخ الإسلام " (٢).

وكما سبق فإن القانون صدر سنة ١٢٦٦هـ ــ ١٨٥٠م أما المحاكم التجارية المختلطة فكانت قبل ذلك، كما أصدرت في نفس تلك الفترة قوانين القضاء والعقوبات . وقد

---

(١) محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي ص ٩١.

(٢) نيازي بيركز : تطور العلمانية في تركيا ص ١٦١.

ظهرت في عهد **عبد المجيد** بعض القوانين الجديدة والتي تمت فيها التشكيلات الحديثة لإصدار الأحكام ــ وقد ورد في خط كلخانة " من الضروري ومن المهم أن توضع وتؤسس وتسن بعض القوانين الجديدة لضمان حسن إدارة الدولة العلية وممالكها المحروسة " .

وبالفعل تضمن القانون الجنائي عام ١٢٥٦هـ ــ ١٨٤٠م وتم تعديله وتطويره ثلاث مرات بين الأعوام ١٢٦٦هـ ــ ١٨٥٠م ، ١٢٧٠هـ ــ ١٨٥٤م ، ١٢٧٣هـ ــ ١٨٥٧م ولكن رغم هذه الاجراءات فقد حافظ على روحه الأصلية مثل صيانة الشرف والعرض والمال دون التفريق والنظر لاختلاف المذهب والجنس بقوانين جنائية .

ولم يكن الموظفون فقط يطبقون مواد القانون، ولكنها وضعت تحت سيطرة الأهالي في نفس الوقت وكانت هذه الظاهرة ديمقراطية .... وجاء في القانون نفسه وصف أحكام الشريعة بأنها أحكام تخمينية، وأن هذا القانون يضع حدا للأحكام التخمينية كما جاء في المادة الأولى منه لأنها ستوقع من قبل الدولة فقط . وبهذه الصورة فقد كان هناك وعد بتطبيق المساواة بين أفراد العربية دون التفريق بالدين .

والسؤال الذي يطرح نفسه عند عرض هذه القوانين هل كانت من بنات أفكار المصلحين المسلمين في الدولة ؟

يجيب **ضياء قرال** عن هذا التساؤل : " لقد استفادت الدولة العثمانية عند سن قانون العقوبات من موضوعات الدول الغربية الجنائية " .

ويمكن القول بأن التعديلات التي تمت سنة ١٢٩٤هـ ــ ١٨٧٧م قد اقتبست كليا من القانون الجنائي الفرنسي (١).

ولايستغرب ذلك إذا عرفنا أن الصدر الأعظم **عالي باشا** قبل إعلان خط الإصلاح قد قام بجمع السفراء لكل من فرنسا وإنجلترا الموجودين في استانبول ليضعوا أسس فرمان الإصلاح (٢) ولذلك جاءت هذه القوانين ظاهرة التأثر بالقوانين الفرنسية والإنجليزية.

قانون التجارة :

بالرغم من إصدار قانون العقوبات قبل إنشاء المحاكم الجنائية فقد صدر القانون التجاري لأول مرة سنة ١٢٦٦هـ ــ ١٨٥٠م بعد إنشاء المحاكم التجارية، وكانت الضرورة ــ على حد زعمهم ــ تقتضي إصدار القانون التجاري نظرا لأهمية التجارة !!

---

(١) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٣.

(٢) أنور ضياء قرال : التاريخ العثماني المرجع السابق ص ٥ .

فلا يمكن رفع المستوى الاقتصادي ــ زعموا ــ إلا عن طريق قوانين وضعية مستقاة من الغرب فتكونت لهذا الغرض لجنة من التجار وكان أغلبهم من اليهود ثم النصارى . ومن أشخاص آخرين باسم الخبراء.

ويتكون القانون من ٣٤١ مادة وينقسم إلى ثلاثة أقسام يشتمل القسم الأول : على المعاملات التجارية وأعمال الشركات وقواعد البورصة . أما القسم الثاني : فيشمل التجارة البحرية والتأمينات المتعلقة بها . والقسم الثالث : يختص بتصفية وتحقيق قضايا الإفلاس .

" ثم أعقب صدور هذا القانون بأقسامه الثلاثة قسم رابع اعتبر ذيلا للقانون السابق وهو بعنوان " **ترتيب وتنظيم المحاكم التجارية** " وأصبحت منذ ذلك الوقت قاعدة نظرا لقضايا التجارية في المحاكم التجارية بعيدا عن الشرع على حسب هذا القانون وأصوله تنظر هذه القضايا في المجالس المدنية في الأماكن التي لاتوجد بها محاكم تجارية ..." (١).

والذي يهمنا في البحث أن إصدار هذا القانون وتطبيقه في جميع أنحاء البلاد على المسلم والذمي كان بمثابة اعتراف رسمي من الدولة المسلمة بنظام القانون، واستقلال القضاء عن العلماء، وذلك بتناول الشئوون المختلفة خارج مجال الشريعة، ومثل هذا الاعتراف يعد ثورة تحريرية وانغماس في المذهب العلماني وتنحية للشريعة الإسلامية وأعقب ذلك ثورة اجتماعية وقانونية كاملة والتي تسمي في اصطلاح الشرع رده شاملة .

ترتب على قانون التجارة أن صدر عقبه قانون الأراضي ١٢٧٣هـ ــ ١٨٥٧م والذي يعتبر في أهم القوانين التجارية التي صدرت في تلك الفترة، وهو يشبه قانون إصلاح الأراضي المصري (المقتبس من القانون الفرنسي) والذي كان في نفس العام، ثم سرت هذه الفتنة إلى أغلب قطاعات القضاء تحت ضغوط سفراء الدول الأوروبية من جهة وشعور الخلفاء بضرورة الإصلاح والتغيير إلى التغريب من جهة أخرى . فأنشئت المحاكم الجنائية والتي سميت بـ " **مجلس التحقيقات** " .

كانت الشبهة التي تشبث بها دعاة العلمانية باسم الإصلاح أن من الضرورة أن تبدأ الدولة العثمانية في إصلاح شئونها وإدارتها، وأن تصلح من تشكيلات الحكم ولم يكن في الإمكان إصلاح المحاكم الشرعية التي تعمل بأحكام الشريعة طبقا للقواعد السابقة، لأن هذه المحاكم كانت تعمل بأحكام الدين ولاتحاكم غير المسلمين حسب قوانين المسلمين الجنائية وفي الحقيقة فقد سن قانون العقوبات على نهج القوانين الأوروبية بعد سنة من إعلان خط كلخانة (٢).

---

(١) برنارد لويس : ظهور التركية الحديثة .

(٢) أحمد الهواري : الإصلاحات من عهد سليم إلى عهد عبد العزيز ص ٢١٧.

بالإضافة إلى ذلك انتقلت اختصاصات القضاة إلى الولاة بسبب الإصلاحات الإدارية التي قامت بها الدولة .

والشيء الذي لاشك فيه هو ضغط الدول الأجنبية لإنشاء المحاكم التجارية المختلطة وتطويرها، ولهذا السبب تأكدت منفعة المحاكم للأجانب (أهل الذمة) أكثر من التجار الأتراك (المسلمين) (١).

ولاشك أن هذه المحاكم المختلطة جرت ويلات للمسلمين ليس على المدى البعيد وإن الله سلط عليهم الفقر والفاقة إضافة إلى غضب الله ومقته .. بل على المدى القريب، إذ تضرر التجار المسلمون ضررا بالغا، وذلك لعدم درايتهم بتفاصيل هذه القوانين الوضعية وأنظمتها ، ومن جهة أخرى عدم اندراجهم في حماية الدول الأجنبية مثل بقية اليهود والنصارى .

ويذكر **أنور ضياء قرال** وجهة نظر كل من **لطفي أفندي** و**أحمد جودت باشا** في هذه المحاكم فيقول عن لطفي : " عانى أغلب التجار من الرعايا العثمانيين من أضرار كبيرة بسبب عدم معرفتهم بقانون التجارة وأصوله، وأيضا بسبب أن الأجانب كسبوا معظم القضايا التجارية التي نشبت بينهم وبين التجار المسلمين بواسطة محاميهم ومترجميهم ، ولم يكن للتجار المسلمين وكلاء لهم ورابطة للمرافعة عنهم ولهذا السبب أسيء للتجار المسلمين .

وكثيرا مادخل غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية في حماية الدول الأجنبية وبهذه الوسيلة أنجزوا أعمالهم " (٢) .

وقد أيد **أحمد جودت باشا** رأي **لطفي** السابق لكنه تناوله بطريقة أخرى قائلا: " أحدثت المحاكم المختلطة ضررا للدولة العثمانية وكذلك الحماية الأجنبية بدرجة كبيرة، وهل كان في استطاعة الدولة إنشاء محاكم تجارية تتوافق مع متطلبات العصر نعم كانت هناك قدرة ولكن من تولوا القيادة في ذلك العصر لم تكن لديهم المعرفة بالشؤون القضائية، وربما كان هذا دليلا على عدم معرفتهم على أي شيء تطلق كلمة التجارة " (٣).

ومنذ ذلك الحين والدولة في تخبط عجيب في المجالات القانونية، وفي إصدار الأنظمة واللوائح في شتى القطاعات من عقوبات ، تجارة ، قانون الجنسية ، وغيرها من القوانين

---

(١) مرجع سابق ذكره : **Eziya Kanal Adigecen k Eser . S. 151 , 152**

(٢) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٣) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٢ .

التي صدرت وذلك أن الدولة أرادت أن ترضي الجميع أقصد أعداءها في الخارج وأهـــل الذمة في الداخل والمسلمين أو المستغربين من أبناء المسلمين ،، فقامت على عمل مخــرج من الشريعة الإلهية والقوانين الوضعية .

وتولى هذا الخلط أناس من أجهل وأبعد الناس عن الشرع وغيرها من القوانين الغربية وإنما أقصى مايقال عنهم أنهمرجال سياسة مثل **رشيد باشا** ، **وعالي** ، **ومدحت** وأمثالـــهم. فيقول **أنور ضياء قرال** واصفا هذا الوضع :

" عندما طرحت مبادئ الدولة القانونية الجديدة في (خط الكلخانة) وكانت الضــرورة تقتضي عمل إصلاحات في مجال القضاء، ولم يكن في الإمكان إقناع العلمـــاء والمحـــاكم الشرعية بهذه الإصلاحات، فقد سمحت الدولة بإنشاء جهاز جديد للقضاء بجانبها كما حـدث في إصلاحات النظام الجديد، لأنه لم يكن في مقدور الدولة القضاء على قوانيـــن الإســلام المتمثلة في المحاكم الشرعية والتي تعتمد على أسس الدين .. فإفســـاد المصلحـون مــن تشكيلات وقوانين الدول الأوروبية كفرنسا وإنجلترا . فأنشأوا نظاما جديدا للقضـــاء مثلمـا فعلوا في إنشاء نظام تعليمي جديد وجيش جديد .. فسنت في عهد **عبد المجيـــد** قوانيـــن التجارة والعقوبات والنظم المدنية وأنشئت المحاكم التجارية والجنائية واقتبست الدولة مـــن قوانين وتشكيلات أوروبا في وضع الأسس والقواعد لإنشاء محاكم نظامية خلاف المحاكم الشرعية دون الحاجة إلى إصدار فرمانات خاصة بإلغاء القضاء الشرعي أو حتى تحديـــد سلطاتها بخطابات رسمية (١). ولكن يقول تعـــالى ﴿ **ويمكـــرون ويمكـــر الله والله خـــير الماكرين** ﴾ (٢) .

وأذكر حادثة واحدة على مسألة من المسائل التي لبس بها السفراء الأجانب على رجال السياسة في الدولة لتبرير قيام محاكم مختلطة ونقلها أكثر من كاتب منهم **ساطع الحصـــري** حيث يقول : أنها أفحمت العلماء !! كما يزعم .. لأنه يرى أن التنظيمات كانت تحت تـأثير عاملين أساسيين :

أ ـــ ضغوط الدول الأوروبية ومطالبتها بإصلاح أحوال النصارى .

ب ـــ إقتناع رجال الدولة بضرورة إصلاح نظام الدولة وتجديدها على أســـاس اقتبـــاس النظم الأوروبية دون مساس بالأحكام الشرعية .

---

(١) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٥.

(٢) سورة الأنفال : آية ٣٠ .

ولإعطاء فكرة واضحة لتأثير هذين العاملين يذكر مثالا لحادثة حصلت لأبي التنظيمات **رشيد باشا** : جمع رشيد باشا مجلس العلماء وعرض عليه مسألة خطيرة فقال إن سفير إنجلترا قال لنا في مناسبات عديدة " إن دولتنا تسعى للدفاع عن الدولة العثمانية ضد روسيا بكل ماتملك من قوة إلا أنها تلاحظ عندكم بعض الأقوال التي تفسح مجالا واسعا للتحركات الروسية ذلك لايفسح لنا المجال للدفاع عنكم، إنكم لاتقبلون شهادة الذمي على المسلم مع أنكم تحكمون بلادا كثيرة جميع سكانها مسيحيون، فيجد المسلمون الفرصة ليعتدوا عليهم دون ماخوف من عقاب، بسبب عدم وجود شهود مسلمين غير أتباعهم المأجورين وبسبب عدم الالتفات إلى شهادة غير المسلمين مهما كان عددهم " (١).

وبعد أن عرض **رشيد باشا** على المجلس تفاصيل أكثر وجه إلى العلماء سؤالا ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين على الأقل في المناطق التي لايوجد فيها سكان مسلمون — وهذه مغالاة واضحة حيث لايوجد قطر خال من المسلمين — ولكن مجلس العلماء قال بإجماع الآراء لايوجد سند شرعي لذلك على الإطلاق ومع هذا توصل إلى طريقة عملية لمعالجة هذه المشكلة الشائكة ؟!! حيث قال : " إنه يجوز للحكومة أن تتخذ ماتراه من التدابير الإدارية في مثل هذه الحالات إذا صدر أمر سلطاني بذلك لأن الأوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة تكون مطاعة وواجبة التنفيذ " (٢) .

فتسللت القوانين الوضعية إلى البلاد الإسلامية باسم المصلحة العامة تارة وباسم اجتهاد ولي الأمر تارة أخرى ، وكلما بطلت شبهة جاءوا بشبهة جديدة وهكذا لم يكتف بإدخال القوانين الأوروبية في التجارة ومجال القضاء عموما، بل تعدى إلى قطاعات شتى .

فكانت علمنة الجيش بإدخال قوانين تلزم النصارى واليهود بالتجنيد حالهم حال المسلمين مما أغلق باب الجهاد ، وأصبح لا يميز بين عساكر الدولة المسلمة وبين غيرها من ملل الكفر اللادينية، فلا مبادئ يقاتل من أجلها ولاعقيدة يدافع عنها .

وكذلك كانت منذ وقت مبكر علمانية التعليم فبدلا من سيطرة العلماء على تسيير عجلة التعليم في البلاد فتحت قنوات وأبواب واسعة لأهل الذمة، سيطروا من خلالها على أعلى طبقات المجتمع دون أن تغلق المدارس الشرعية كما فعلوا في المحاكم الشرعية، ففي عام ١٢٧٣هـ ــ١٨٥٧م تولت وزارة المعارف أمور المدارس والمعاهد ووسعت من سيادتها عليها فحولت هذا المجال المهم من السيطرة الدينية إلى العلمانية (٣) .

---

(١) ساطع الحصري : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٩١ - ٩٢.

(٢) المرجع السابق : ص ٩٢.

(٣) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٣٦٧.

ونشط السفراء الأجانب نشاطاً منقطع النظير في التسابق على فتح المـــدارس والمعـــاهد التنصيرية والجامعات كما تقدم .

كل ذلك على مرآى من الخليفة ! بل ومن العلماء والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة!!

ولكن من الشواهد على ذلك مايذكره عرض **نيازي بيركز** عن علمانية التعلـــيم فـــي القرن التاسع عشر :

وقد افتتح ليسيه " **غلطة سراي** " عام ١٢٨٥هـ ــ ١٨٦٨م بناء على توصية وزيـــر التعليم الفرنسي حيث كان التعليم فيها علمانياً وباللغة الفرنسية .

هذا إلى جانب المدارس والمعاهد التنصيرية ، مثل معهد " **روبرت** " عام ١٢٧٩هـــ ــ ١٨٦٣م والمدارس الكاثوليكية الفرنسية والمدارس الإنجليزية والأمريكيـــة والألمانيـــة والإيطالية فكانت أول محاولة من حكومة إسلامية لإدخال التعليم في المســـتوى الثـــانوي بلغة غربية(١) ، والمصيبة العظيمة التي مكنت لأهل الذمة في نشر أفكـــارهم ومذاهبـــهم الهدامة في أرض الإسلام أنهم استطاعوا أن يتسللوا إلى كراسي الحكم ويسيطروا علـــى تفكير رجال الدولة حتى الخلفاء، وسبق التمثيل بالسلطان **محمود وعبد المجيـــد** ومثـــال أصرح وأغرب أن يكون خليفة المسلمين ماسونياً !! وعلى صلة قوية بأعضاء تركيا الفتاة .. وذلك هو السلطان **مراد الخامس بن السلطان عبد المجيد** (١٢٥٦هـــــ ــ ١٨٤٠م ، ١٣٢٢هـ ــ ١٩٠٤م) والذي جاء به **مدحت باشا** بعد ماتمكن من عزل عمه الســـلطان **عبد العزيز** بفتوى استصدرها من شيخ الإسلام بحجة إخلاله للشؤون الدينية، فتولى بعـــده السلطان **مراد** (وكان شاباً مغرماً بالموسيقى ويجيد اللغة الفرنسية وعلـــى صلـــة قويـــة بإعضاء تركيا الفتاة دخل الماسونية عن طريق ولي عهد إنجلترا عندما كان في لنـــدن)، وكان أعضاء تركيا الفتاة من يهود وماسون **يأملون** منه دفع عجلة سير الدولة علـــى درب الغرب فقد كانت ثقافته وانتماءاته فكراً وسلوكاً اوروبية (٢).إلا أنه سرعان ماخلع لجنونـــه وتولى بعده السلطان **عبد الحميد** في سبتمبر (١٢٩٣هـ ــ ١٨٧٦م) وبـــدأ فـــي عـــهده صفحة جديدة في التاريخ العثماني المنهار ملأت بالأحداث المتميزة والمواجهة الصعبة مع دعاة العلمانية.

---

(١) نيازي بيركز : تطور العلمانية في تركيا ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٢) انظر د. محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد : المقدمة والتعليقات ص ٤ ، ١٣٣ .

الخلاصة :

أنه إذا كانت الفترة من ١١٣٠هـ ـ ١٧١٨م حتى عام ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧ م قد مهدت الطريق لإقصاء الشريعة عن طريق الفكرة العلمانية للحياة على أيدي الأساتذة والمنظرين من يهود ونصارى باسم الخبراء والمدرسين والفنيين أو السفراء تارة أخرى، فإن المرحلة الثانية التي امتدت من عام ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م حتى توليه **عبد الحميد الثاني** هي مرحلة بناء قواعد الاتجاه العلماني في الدولة مع تغير الوجوه بدلاً من أن كنا نستمع إلى أصوات **برناردلويس وجورج** .. أصبح الوضع في الفترة الثانية على أناس يحملون اسم **مدحت** ، **ورشيد ومصطفى** وغيرهم ممن تتلمذوا على أولئك .

وتم في عهدهم (الثاني) تقليص نفوذ الهيئة الإسلامية إلى أقصى درجات الهامشية فأصبح تعلق العامة بهم من باب طلب البركة وإحياء الطقوس البدعية وفي المناسبات الدينية.

وفي المقابل أسست المدارس العلمانية واقتبست مظهريات الغرب وفتحت أبواب الوظائف العامة والخدمة العسكرية لرعايا السلطان من غير المسلمين والمساواة بين جميع الطوائف في المال والخراج والمكوس .

وحدث الانهيار البشع في التشريع بصدور القوانين العلمانية في شتى مجالات الحياة كقوانين الجنسية والعقوبات ، التجارة ، التملك للعقار .. إلخ . وإنشاء المحاكم المختلطة وتنصيب قضاة من اليهود والنصارى والسماح لأهل الذمة لتملك العقار بل وللأجانب من الخارج !! .

وفتح الباب دون قيد أو شرط للدول الأجنبية في أن تفتح مدارسا علمانية وصحافة لادينية تدعو إلى الردة إلى أن استصدر قانونا بحرية الردة في الدولة تحت ضغط من إنجلترا ..

فكانت النتيجة ثورة فكرية كبرى وإن شئت سمها نكسه وردة بكل ماتحمله كلمة ردة، بل حتى الجوانب الأدبية اعتراها ما اعتراها من تغيير وتبديل وتحريف .

المبحث الرابع :

سيطرة أهل الذمة على الصحافة

وفيه مطالب :

المطلب الأول : معنى الصحافة وأهميتها

المطلب الثاني : بداية ظهور المطابع

المطلب الثالث : أهم الأدباء الذين تربعوا على عرش الصحافة

المطلب الرابع : أهم الصحف والمجلات لأهل الذمة في الدولة

المطلب الخامس: نماذج مما يكتب في صحافة أهل الذمة

الصحافة

معنى الصحافة وأهميتها :

الصحافة لغة مشتقة من الصحف : جمع صحيفة والصحيفة التي يكتب فيها(١)، وفي القرآن الكريم قال تعالى ﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى** ﴾ (٢) والصحف هنا بمعنى الكتب المنزلة .

وقال الجوهري : " إن الصحيفة وجمعها صحف وصحائف هي الكتب بمعنى الرسالة"(٣). ولما عرف العرب الصحافة في مطلع القرن التاسع عشر لأول مرة ، كانوا يطلقون عليها لفظة " الوقائع ".

ومن أصحاب الصحف من أطلق على صحيفته التعريف الفرنسي (**جورنال**) وذلك حين أنشأ **خليل الخوري** صحيفة (**حديقة الأخبار**) .

وكان أول من اختار لفظة صحيفة هو **رشيد الدحداح** إلا أن **أحمد فارس الشدياق** صاحب جريدة (**الجوائب**) ومناظر الدحداح في المسائل اللغوية استعمل لفظة جريدة وهي مأخوذة عن الجرائد أي قضبان النخل المجردة من خوصها .

كما استعمل القس **لويس صابونجي** صاحب مجلة " **النحلة** " لفظة نشرة بمعنى جريدة أو مجلة .

وقد ظل أرباب الصحف في القرن التاسع عشر لايفرقون بين الجريدة والمجلة إلى أن تولى **إبراهيم اليازجي** إصدار مجلة **الطبيب** عام ١٣٠١هـ ــ ١٨٨٤م بالاشتراك مع الدكتور **بشارة زلزل وخليل سعادة** . فاستعمل لفظة مجلة وهو يقصد بها الصحيفة العلمية أو الأدبية أو الانتقادية وماشاكلها .

وجاء في **المنجد** أن المجلة مشتقة من مادة جل جلالا وجلالة أي عظم وكبر وعلا مقاما وقدرا وحكمة (٤) .

والمجلة إذن هنا هي الكراسة فيها الحكمة وقد خصت الآن بالصحيفة التي على شكل كراسة وفي تفسير آخر وهو الأصح : أن المجلة مشتقة من مادة جلا جلاء أي ظهر ووضح (٥) .

---

(١) ابن منظور لسان العرب ، مادة (صحف) (٤/ ٢٤٠٤) .

(٢) سورة الأعلى آيه ١٨ ــ ١٩ .

(٣) الجوهر الصحاح ص ٣٥٧ من المختار .

(٤) الأب لويس المعلوف المنجد .

(٥) أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص١٢ .

التعريف الاصطلاحي :

*عرف **أديب اسحق** صاحب جريدة (**مصر**) في القاهرة (الجريدة لفظ أطلق اصطلاحا على الصحيفة المفردة أو الصحائف المصحفة تطبع في أوقات معينة مشتملة على أنباء وآراء ومباحث من السياسة أو الأدب أو العلم أو منهن جمعاء) (١).

* وقد عرف بعضهم الصحيفة الحديثة بأنها كل نشرة مطبوعة تشمل على أخبار ومعارف عامة وتتضمن سير الحوادث والملاحظات والانتقادات التي تعبرعن مشاعر الرأي العام وتعد للبيع في مواعيد دورية وتعرض على الجمهور عن طريق الشراء والاشتراك .

* الصحافة تعني فن تسجيل الوقائع اليومية بدقة وانتظام وذوق سليم ، مع الاستجابة لرغبات الرأي العام وتوجيهه والاهتمام بالجماعات البشرية وتناقل أخبارها ، ووصف نشاطها ، ثم تسليتها ، وتزجية أوقات فراغها . وعلى هذا فالصحافة هي مرآه تنعكس عليها صورة الجماعة وآراؤها وخواطرها (٢) .

قال **أحمد شوقي** :

لكل زمان مضى آية ... وآية هذا الزمان الصحف.

لسان البلاد ونبض العباد ... وكهف الحقوق وحرب الجنف .

تسير مسير الضحى في البلاد ... إذا العلم فرق فيها السدف.

وتمشي تعلم في أمة ... كثيرة من لايخط الألف (٣).

قال **نابليون الأول** : " الصحافة ركن من أعظم الأركان التي تشيد عليها دعائم الحضارة والعمران " .

وقال **روزفلت** رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا : " ليس المجرم الحقيقي هو من يتعمد القتل وارتكاب أعظم المعاصي بل هو الذى يملك شيئا لايكون من أهله بالغش والخداع كالصحافي المقلد أو السياسي المنافق ، لأن الواجبات الأولية في الصحافي أو السياسي هو أن يكونا حاصلين على ثقة الشعب بمجرد القدوة الصالحة في الأعمال والأقوال " .

وقال **جرجي** منشئ مجلة "**الهلال**" في القاهرة : " الجرائد عنوان الحضارة ودليل المدنية . فإذا رسخت قدم جماعة في المدنية كثر في جرائدهم وتعددت مواضيعها " .

---

(١) فليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ط١ ص١٣

(٢) أديب مروة : ص٢٧.

(٣) ديوان شوقي : ج٢ ص٦٢

وقال **عبد الحميد زكي** صاحب جريدة " **السياسة المصورة** " بالقاهرة. " الجرائد مدرسة العامة " .

وقال **محمد الشريف ابن الشيخ المنوبي التجاني** صاحب جريدة " **خطيب العالم** " في تونس : " الصحافة هي العمل الذي تهابه السلاطين ويخضع له كل جبار في العالمين " .

وقال **محمود كامل كاشف** صاحب مجلة " **الإخاء** " في طوخ قليوبية بمصر " الصحافة في الغرب حكومة عاملة في قلب حكومة عاملة " .

بداية ظهور المطابع العمومية :

يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ أول مطبعة استخدمت الحروف العربية ، سواء داخل البلاد العربية أو خارجها ... وترجع أهمية المطابع إلى أنه بظهورها تنشر المعرفة على حسب الوجهة التي يتبناها صاحب المطبعة ، وكذلك بدخول المطابع دخلت الصحف ، والذي يرجحه بعض المؤرخين أن أول مطبعة عربية ظهرت في الشرق العربي كانت على يد أحد البطاركة في حلب في أوائل القرن الثامن عشر(١) حوالي ١١١٣هـ ـ ١٧٠٢م مطبعة **روما** ، ولكن يذكر **خليل صابان** في كتابه **(تاريخ الطباعة في الشرق)** أنها ظهرت في سنة ١٠١٩هـ ـ ١٦١٠م في ولاية طرابلس الشام في **دير فرخنا** بواسطة بعض رهبان الطائفة المارونية الذين جلبوها معهم من روما بعد انتهاء مدة بعثتهم. وكانت تصحب ظهور المطابع معارضة شديدة من الهيئات الشرعية في البلاد خشية التحريف لكتب التراث، والبعض يرفضها لأنها من الغرب ...إلى أن صدرت فتوى شيخ الإسلام وصدر معها فرمان في سنة ١١٢٤هـ ـ ١٧١٢م بالإذن **لسعيد أفندى** بإنشاء مطبعة وطبع جميع أنواع الكتب ماعدا الكتب الشرعية الإسلامية (٢).

أما أول مطبعة استخدمت الحروف العربية فقد تأسست في روما سنة ٩٢٠هـ ـ ١٥١٤م ، وقد طبع فيها خلال القرن السادس عشر عدد من الكتب الثقافية إلى جانب الكثير من الكتب النصرانية (بغرض التنصير أوغيرها وكانت ترسل هذه الكتب إلى أسواق الشرق وتباع فيها) .

ومما يؤيد هذا الرأي (أنها أول مطبعة عربية) صدرت بعض المنشورات عن السلطان **مراد الثالث** وقد طبعت في هذه المطبعة سنة ١٠٠٢هـ ـ ١٥٩٤م (٣) ، ثم كانت أول مطبعة في جبل لبنان سنة ١١٤٥هـ ـ ١٧٣٣م على يد **الشماس عبد الله الزاخر** في دير **مار يوحنا الصايغ** ، ثم أوصى بها إلى الرهبان **الشويزيش** (فرنسية) قرية

---

(١) أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص١٣٨.

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص٣٤

(٣) أديب مروة : الصحافة العربية ص١٣٨ .

الشويز ، وكان أكثر مايطبع فيها الكتب الدينية ، ثم نافس الأرثوذكس أصحاب دير الشويز والكاثوليك وأنشأوا في بيروت مطبعة تقليدا لمطبعة الشويز عام ١١٦٣هـ ــ ١٧٥٠ م .

وكانت هذه المطابع بدائية ومحدودة الإنتاج والطاقة، واستمرت على طباعة الكتب الدينية وتسويد الكتب الأدبية إلى بداية ظهور الصحافة .

ومن أوائل المطابع العربية كذلك والتي أنشئت في لبنان **المطبعة الأمريكية** التي أنشئت في بيروت عام ١٢٤٩هـ ــ ١٨٣٤م بعناية الدكتور **غالي سميث** ، والذي أوكل مهمتها إلى **نصيف اليازجي**، وقد كانت المطبعة الأمريكية تفوق المطابع السابقة ، وبإحضارها ولدت أو ل صحيفة عربية في لبنان . ومن أهم المطابع التي تأسست في منتصف القرن التاسع عشر ، مطبعة **الآباء اليسوعيين** والتي كانت من أفخر المطابع وأكملها استعدادا ومازالت قائمة (١) .

* ولم يكن الوضع في مصر بعيدا عما سبق في الشام ، فلم تعرف مصر الطباعة قبل مقدم الحملة الفرنسية عام ١٢١٢هـ ــ ١٧٩٨م وعلى رأسها نابليون ، وكانت **مطبعة نابليون** بداية نقلة وتحول كبير في مصر، فقد بدأت أول ماطبعت بثلاث صحف، اثنتان بالغربية، وواحدة بالعربية، ولم تقتصر على إصدار الفرمانات والتوجيهات ..

الشاهد مما سبق أن المسلمين كانوا بعيدين كل البعد عن هذا الاختراع الجديد سواء في عاصمة الدولة أوفي البلاد العربية بشطريها الشام ومصر، بينما استمر النصارى في التسابق على فتح المطابع، ففتحت خلاف ما ذكر من مطابع في لبنان مطبعة **القديس حاورجيوس** وقد أسسها **بوش نقولا الجبيلي الملقب بأبي عسكر** . لخدمة طائفته الرومية الأرثوذكس والتي يرأسها يومئذ المطران **أيوانيكوس اليوناني** (٢) .

وقد تبع هذه المطبعة مطبعة **فرجيا الثانية** (٣) في أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٢٢٣هـ ــ ١٨٠٨م .

سبب تفوق النصارى في الأدب العربي والصحافة على المسلمين في تلك الفترة:

من يتابع السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية ويقف عند كل حدث منه ومدى استغلال أهل الذمة لكل ظرف ــ ويقابله إهمال المسلمين لكل الفرص التي تسنح لهم ــ تتجلى له عدة أمور يستشف منها سبب تفوق أهل الذمة وكيف استغل أهل الذمة مداخل بنود هذه الأنظمة وسخروها لمصالحهم الشخصية والفكرية ، ويتذكر مدى التنافس الذي

---

(١) خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص ٣٧ .

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص٣٩ ، شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ٢٢/١.

(٣) الأولى كانت سنة ١٦١٠م في ولاية طرابلس الشام .

كان بين الدول الغربية في توسيع نفوذها في البلاد العثمانية عن طريق تأسيس المدارس التابعة لها لنشر لغتها وثقافتها .... .

مما سبق نستطيع أن نستنتج بعض الأسباب التي أدت إلى تفوق أهل الذمة ــ خاصة في المجال الذي نحن بصدد الحديث عنه ــ وهو الأدب والصحافة :

١. إنشاء المدارس الأجنبية :

من المرغبات التي امتازت بها المدارس الأجنبية إضافة لتعليمها اللغات الأجنبية، الاهتمام باللغة العربية اهتماما كبيرا ، وليس كمجرد تعلم لغة فقط ، وهذه الميزة لم تكن تتوفر في المدارس الحكومية حيث كانت لغة التدريس بها التركية ، وإن درست فيها العربية فعلى أيدي مدرسين أتراك يرطنون بها رطن الأعاجم ، فتبدو لغة ضعيفة ركيكة .

ولساطع الحصري رأي وجيه في انتشار المدارس الأجنبية ومواضع تمركزها حيث يقول : " كانت المدارس الأجنبية تؤسس ــ بوجه خاص ــ في القرى المسيحية والمدن التي يكثر فيها المسيحيون ، فكانت تجذب وتجمع في الدرجة الأولى أطفال غير المسلمين بطبيعة الحال . وكانت حصة الولايات العربية من هذه المدارس الأجنبية وهذا النفوذ الغربي كبيرة ، ولاسيما في حلب ، والموصل ، وبيروت ، والقدس ، ولبنان " (١) ولقد وجد تعليم الأدب العربي واللغة العربية موئلا في المدارس الأجنبية ، والمدارس الطائفية المسيحية ، فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحيين أكثر من انتشاره بين المسلمين ، لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم، بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية ــ إذا أرادوا تعليمهم ــ ولغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية (٢).

وكان بديهيا أن يساير هذا التطور التعليمي تطور صحفي من نفس تلك الفئة التي كان لها سبق في مجال التعليم ، وهم النصارى خاصة .

ولذلك نجد أوائل الصحف بالعربية كانت من أبناء النصارى، ففي سنة ١٢٧٣هـ ــ ١٨٥٧م في الأستانة أنشأ **اسكندر شلهوب** صحيفة عربية سياسية ، مالبثت أن ألغيت أو استبدلت ، وعقبه أو سبقه **رزق الله حسون** رائد الصحافة العربية الأول في الأستانة صاحب جريدة **"مرآة الأحوال"** والتي كانت تعد أول جريدة عربية (لأن ماقبلها لم يستمر ..) وكان إصدارها سنة ١٢٧١هـ ــ ١٨٥٥م (٣) .

---

(١) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص٨٢.

(٢) شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ص٥٦

(٣) أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص ٢٣٠

والسبب الثاني لتفوق النصارى في الآداب العربية هو التنظيمات : ويقصد بالتنظيمات المنشور الذي صدر في عهد السلطان **عبد المجيد** سنة ١٢٧٢هـ ــ ١٨٥٦م وهو مايعرف بالخط الهمايوني ــ وقد سبقت الإشارة إليه ــ والذي يتعلق بالثقافة بين النصارى من جو التنظيمات : كتنظيم شئون البطريركيات والأسقفيات وتكوين المجالس الملية ، الجسمانية والروحانية ، والتي عودت قسيسي الطوائف النصرانية على " العمل المشترك" وزادت من ترابط المجموعات النصرانية في المؤسسات الدينية والخيرية والتعليمية .

أما المسلمون فلم يكن لديهم أمثال هذه التشكيلات ، فكانت أمورهم كلها موكلة للدولة ، لم تكن توجد بين الفرد المسلم وبين الدولة "صلة " تذكر من أي نوع كان ، ولكن يوجد بين الفرد النصراني وبين الدولة " علاقة " منظمة تنظيما معشريا ، ترعى الشيء الكثير من مصالحها . وبالتالي سمح لهم بالنوادي والجمعيات . وغيرها من المنتديات الثقافية التي حفلت مواهبهم في الأدب واللغة عموما .

أهم الأدباء الذين تربعوا على عرش الصحافة منذ نشأتها

ناصيف اليازجي :

هو ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد الحمصي الأصل وهم عشيرة كبيرة أكثرهم من طائفة الروم الأرثوذكس أما فرع ناصيف فإنه ينتمى إلى الروم الكاثوليك .

كان مولده في قرية **كفر شيما** من قرى الساحل المذكور في ١٢١٤هـ ٢٥ آذار سنة ١٨٠٠م وتلقى مباديء القراءة على يد راهب من بيت شهاب يقال له القس (متى) وكان والده عبد الله من الأطباء المشهورين في وقته على مذهب **ابن سينا** وكان مع ذلك أديبا وشاعرا . فمنشأ ولده ناصيف على الميل إلى الشعر . وأقبل على الدرس والمطالعة بنفسه وتصفح ما تصل إليه يده من كتب النحو واللغة ودواوين الشعراء.

ونظم الشعر وهو في العاشرة من عمره . وقد بلغ من كل علم لبابه ودرس أشهر مصنفاته وهي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس السورية وبعض المدارس المصرية . أشهرها " **فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب** " وكتاب " **الجوهر الفرد** " وله " **طوق الحمامة**" أيضا .

وقد أسس " **الجمعية العلمية السورية** " ــ كما تقدم ــ التي اشتهر امرها وأنشئت لها مجلة باسمها، وكان في أول حياته منتدبا من السيد **غناطيوس الخامس** بطريرك الروم

الكاثوليك سنة ١٢٣١هـ ــ ١٨١٦م ليكون كاتبا عنده في دير " **القرقفة** " المشيد في كفر شيما .

ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة بيروت وأقام بها منقطعا للمطالعة والتأليف والتدريس في "**المدرسة البطريركية**" للروم الكاثوليك ثم " **المدرسة الوطنية** " للبستاني وكذلك " **المدرسة الكلية** " للأمريكان .

توفى ببيروت سنة ١٢٨٨هـ ــ ١٨٧١م ودفن في مقبرة الروم الكاثوليك في **الزيتونة**(١) .

بطرس البستاني :

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن أبى شديد بن محفوظ بن أبى محفوظ البستاني ولد في عام ١٢٣٤هـ ــ ١٨١٩م في" **الدبية** " بلبنان ودخل منذ صباه مدرسة (**عين ورقة**) حيث تلقى أصول اللغات العربية والسريانية والإيطاليةواللاتينية، فأنفق هناك بين تعلم وتعليم مدة عشر سنين حتى أحرز كل العلوم التي تعلمها تلك المدرسة . ثم زايلها وجاء إلى بيروت فتعرف على الدكتور عالي **سميث** رئيس الرسالة الأمريكانية وقسسها الذين أحبوه لنجابته وشملوه بعنايتهم . فقرأ عليهم اللغات اليونانية والعبرانية والأنكليزية مع بعض العلوم العصرية وتبع مذهبهم البروتستانتي، وإذ آنسوا منه براعة في المعارف جعلوه سنة ١٢٦٢هـ ــ ١٨٤٦م أستاذا في مدرسة **عبية** حيث تخرج عليه الكثير من الشبان في سوريا ولبنان . وبعد سنتين عين ترجمانا لقنصليات أميركا في بيروت واتخذه المراسلون الأميركان معاونا لهم في إ دارة شئون مطبعتهم ومساعدتهم في تأليف كثير من مطبوعاتهم لاسيما ترجمة التوارة من العبرانية إلى العربية .

وهو واضع قانون الكنيسة الإنجيلية في بيروت وقانون المدرسة الداودية الدرزية في عبية. وكان بطرس رئيسا للجمعية الخيرية البروتستانتية وعضوا في عمدة الكنيسة الإنجيلية في بيروت . وعين عضوا فخريا في المجمع الديني الأعلى في الولايات المتحدة وسمي عضوا في الجمعية العلمية السورية ١٢٤٠هـ ــ ١٨٥٢م فاعتنى بتنظيم أشغالها .

أما نشاطه الصحفي فقد قام بإنشاء أربع صحف وهي **نفير سويا والجنان والجنة والجنينة** . وتوفي سنة ١٣٠٠هـ ــ ١٨٨٣م (٢) .

أحمد فارس الشدياق :

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر بن فهد الشدياق من سلالة المقدم رعد ابن المقدم خاطر الحصروني .

---

(١) أديب مروة : المرجع السابق ص٢٣٢ .

(٢) المرجع السابق : ص٢٣٣ ، فليب طرازي ج١ .

ولد سنة ١٢١٩هـ ــ ١٨٠٤م في عشقوت بلبنان من أسرة مارونية ، لما بلغ فارس من العمر أشده تلقى الآداب العربية والسريانية في مدرسة **عين ورقة** ، بعد ذلك سافر إلى مصر فكتب في جريدة **الوقائع المصرية** ثم دعاه المراسلون الأميركان سنة ١٢٤٩هـ ــ ١٨٣٤م إلى جزيرة مالطة حيث عهدوا إليه إدارة مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتها . فأقام عندهم أربع عشرة سنة وعلم في مدارسهم ثم تبع مذهبهم البروتستانتي وطبع هناك كتبا شتى من تأليفه .

وبعد ذلك دعاه باي تونس إلى خدمة مملكته وأرسل له سفينة مخصوصة لتقله إلى بلدة فلبى الدعوة، وهناك ذكر **فيليب طرازي** أنه ترك مذهب البروتستانت وتبع دين الإسلام وصار يعرف بالشيخ **أحمد فارس الشدياق** .

وفي سنة ١٢٧٣هـ ــ١٨٥٧م اتخذ الأستانة (اسطنبول) محلا لسكناه فانشأ فيها بعد ثلاث سنوات جريدة " **الجوائب** " .

توفي في القسطنطينية سنة ١٣٠٤هـ ــ ١٨٨٧م ودفن في **جبل لبنان** مسقط رأسه .

الكونت رشيد الدحداح :

هورشيد غالب سلوم موسى يوسف بن الخوري جرجس ابن الخوري يوسف ابن الخوري وميخائيل ابن جرجس الدحداح ولد عام ١٢٢٨هـ ــ ١٨١٣م في **عراقون** إحدى قرى **كسروان** من جبل لبنان، ثم أرسله أبواه إلى مدرسة " **عين ورقة** " حيث أتقن أصول اللغة العربية وفروعها ودرس اللغتين السريانية والإيطالية وسائر العلوم . وبعد ذلك دخل مدرسة **بزمار** للأرمن الكاثوليك فاشتغل في تحصيل اللغة التركية وبرع فيها .

ومن أعماله أنه نشر شرح **ديوان عمر بن الفارض** في نحو ستمائة صفحة ثم أنشأ في اللغتين العربية والفرنسة جريدة " **برجيس باريس أنيس الجليس** " التي شحنها بالمقالات السياسية والتاريخية والأدبية حتى ذاعت شهرتها شرقا وغربا. استوطن فرنسا ومات فيها عام ١٣٠٦هـ ــ ١٨٨٩م .

خليل الخوري :

هو خليل بن جبرائيل بن يوحنا بن ميخائيل بن عبده الخوري ولد عام ١٢٥١هـ ــ ١٨٣٦م في **الشويفات** من أعمال جبل لبنان **درس** في بيروت في مدرسة **الروم** الأرثوذكس اللغة العربية والتركية والفرنسية، وفي ١٢٧٤هـ ــ ١٨٥٨م أنشأ صحيفة " **حديقة الأخبار** " فكانت أول جريدة عربية صدرت برخصة رسمية من طرف الحكومة العثمانية خارجا عن عاصمة السلطنة، ولهذا كان خليل الخوري من أخص رجال النهضة الأدبية في سوريا في القرن التاسع عشر، وفي سنة ١٢٧٦هـ ــ ١٨٦٠م عينه **فؤاد باشا** مأمورا بمعيته، وسنة ١٢٨١هـ ــ ١٨٦٥م **فوضت** إليه ولاية سوريا إدارة مطبعتها

وجريدتها الرسمية بإرادة سلطانية . وتقلد عدة مناصب كبيرة في الدولـة . وقـام بإنشـاء الجميعة الخيرية الأرثوذوكسية في بيروت، وتوفي ١٣٢٥هـ ــ ١٩٠٧م وهي السنة التـي أتمت فيها " **حديقة الأخبار** " خمسين سنة .

رزق الله حسون :

ولد سنة ١٢٤٠هـ ــ ١٨٢٥م في **حلب** وتعلم فيها مبادئ القراءة وأتقن الخط . ولمـا ترعرع انتقل إلى دير **بزمار** وهو دير لرهبنة الأرمن الكاثوليك الإنطونية فـدرس العلـوم اللاهوتية واللغات الفرنسية والتركية والأرمنية والعربية والعلوم الرياضية . ولقـد عـرف رؤساء الأساقفة بعهده ومدحهم على ذلك بأبيات موجودة بخطه في دار بطريركية الـروم الكاثوليك بدمشق مدح به البطريرك هكسميوس .

ولما نشبت حرب القرم بين روسيا والدولة العلية وتدخلت فيها الدول المتعاهدة وهـي بريطانيا وفرنسا منحازة إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٧٠هـ ــ ١٨٥٤م ، وأنشـأ رزق الله حسون جريدة " **مرآة الأحوال** " في دار السعادة، فكانت أول جريدة عربية فيـها، وكـان يصف فيها حرب القرم ويحارب الدولة فيها ثم أصدر مجلـة عربيـة عنوانـها " **رجـوم وغساق إلى فارس الشدياق** " ثم عطل مرآة الأحوال ونشر مجلة عربية طبعت في لنـدن عام ١٢٩٦هـ ــ١٨٧٩م كانت تصدر كل خمسة عشر يوما مرة عنوانها حل المسـألتين الشرقية والمصرية " وهى أول مجلة عربية شعرية .

وتوفي في مدينة لندن سنة ١٢٩٧هـ ــ ١٨٨٠م .

ميخائيل مدور :

هو ميخائيل بن يوسف مدور ولد في بيروت سنة ١٢٣٧هـ ــ ١٨٢٢م ودرس اللغتين الفرنسية والإيطالية في مدرسة **عين طورا**. ومن الشخصيات التي كان لها دورا كبيرا فـي صنع الأحداث على اختلاف المجالات التي شارك فيها من صحافة وفن وتأليف وموسـيقي اليهودي المصري " **يعقوب صنوع** " وقد بدأ حملته العنيفة ضد الدولة العثمانية فـي مصـر حينما أصدر مجلة " **أبو نظارة زرقاء** " سنة ١٢١٥هـ ــ ١٨٧٧م وهي مجلة هزلية يغلب عليها الطابع النقدي الساخر ، وقد اصطدم يعقوب صنوع بالسلطة الخديوية التـي أغلقـت صحيفته وأمرت بطرده خارج مصر . فذهب إلى باريس وواصل إصدار صحيفته من هناك، وقد لعبت هذه الصحيفة دورا كبيرا في مناهضة الدولة العثمانية والتهجم عليـها ، وكـانت تنادي بتأييد الحركات الاستقلالية بين العرب وقد ساعده المامه بعدد كبير من اللغات علـى الكتابة والنقد ، وقد أصدر بعد جريدته الأولى '' أبو نظارة زرقاء '' عدة صحف ومجـلات في باريس منها "**النظارات المصرية**" عـام ١٢٩٧هـــ ــ ١٨٧٩م و " **أبـو صفـارة** " ١٢٩٨هـ ــ ١٨٨٠م وجريدة " **الحاوي** " سنة ١٢٩٩هـــ ــ١٨٨١م وجريـدة " **الوطـن**

المصري " سنة ١٣٠١هـ ــ ١٨٩٣م و **"الثرثارة المصرية"** ١٣٠٤ هـ ــ ١٨٨٦م و " **التودد** " سنة ١٣٠٤هـ ــ ١٨٨٦م و **"المنصف"** سنة ١٣١٦هـ ــ ١٨٩٨م (١). وهذه الصحف والمجلات هي أسماء متعددة لصحيفته الأولى " **أبو نظارة زرقاء** " ليتحايل لإدخالها إلى مصر تحت هذه الأسماء المستعارة وظل يصدر جريدته تلك إلى أن هلك سنة ١٣٣١هـ ــ ١٩١٢م .

ويعقوب صنوع صهيوني تظهر صهيونيته من خلال كتاباته وأعماله فضلا عن أنه كان من أبوين يهوديين رضع منهما الحقد على الإسلام والمسلمين، وقد جاء في كتاب **أسرار اليهود** لـ (نسيم ملوك) أن ابن صنوع كان من أكبر المؤيدين له في إصدار الكتاب للدفاع عن الأمة اليهودية .

وكان الغطاء الذي يتستر تحته غطاء الدفاع عن حقوق العامة، وأخذ تأييد الشعب والعوام بحرية الصحيفة الإعلامية على الحكومة العثمانية والمصرية التي سرت في أعماق الوطن العربى نظرا لما كان يضفيه على كتاباته من محاورات عامية وتناهيه في النقد والسخرية للأحوال العامة والتنديد بالحكومة والحكام . وعلى إثر ذلك أغلقت صحيفته وغادر القاهرة إلى باريس ليواصل نفس الحملة والحرب من هناك كما سبق توضيحه .

ومن الصحفيين الذين قاموا بدور كبير في زعزعة السلطة العثمانية **أديب اسحاق** وكان قد بدأ حياته الصحفية في القاهرة سنة ١٢٩٤هـ ــ ١٩٧٧م وأصدر بها جريدتيه " **مصر، والتجارة** " وقد أصبحت جريدتاه الناطقتين بلسان الحزب الوطني الأول الذي تأسس بشكل سري في حلوان، وكان يضم عددا من كبار الملاك، وقد نقل جريدته (**مصر**) إلى الإسكندرية، وكتب فيها عدد كبير من الكتاب والمثقفين أمثال **جمال الدين الأفغاني** الذي نشر بجريدة مصر مقالتين الأولى " **روح البيان في الإنجليز والأفغان** " أما الثانية فكانت بعنوان **"الحكومات الاستبدادية"** ويتعرض السيد جمال الدين في هذه المقالة للدولة العثمانية واستبدادها (٢) .

وعندما تولى **رياض باشا** رئاسة الوزارة في عهد **الخديوى توفيق** ألغى صحيفة **"مصر والتجارة** " فانتقل إلى باريس وأقام بها فترة من الزمن وأصدر بها جريدته **"مصر والقاهرة"** على حساب أموال الحزب الوطني المصري الذي أوفد **أديب اسحق** إلى باريس ليقوم بالدعاية للحزب الوطني في العاصمة الفرنسية وليهاجم الاستبداد من هناك (٣).

---

(١) انظر في التراجم السابقة : أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص ٢٣٢ ، ٢٣٤.

(٢) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨م – ١٨٨١م ص ١٠٧ ، ١٠٨. وعبد العليم القباني : منشأة الصحافة العربية بالإسكندرية ١٨٧٣–١٨٨٢م ص ٥٣ – ٨٦ الهيئة العامة للكتاب المصري ١٩٧٣ م .

(٣) جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق . ج ٢ ، ص ٩٧ .

الكاتب الصحفي : داود صلبوا (١٢٦٨هـ ـ ١٨٥٢م ، ١٣٣٩هـ ـ ١٩٢١م) :

هو أحد كتاب الصحافة المعروفين ، ولد بالموصل عام ١٢٦٨هـ ـ ١٨٥٢ م في أسرة فقيرة الحال، لكن فقر أهله لم يمنعه من الدرس والتحصيل فقد أرسله أبوه (**يوحنا شماس**) وهو في الرابعة من عمره ليتعلم في إحدى مدارس الموصل، وقد تخرج من المدرسة الابتدائية في الموصل وقد بلغ سنه العاشرة فعكف بعد ذلك على كتب العربية وآدابها يدرس لنفسه حتى استوت ثقافته مما أهلته إلى أن تناط به إدارة المدرسة التي كان يدرس فيها سابقا (**الكلدانية البطريركية**) وبعد فترة انتقل إلى بغداد وقد تقلد فيها عدة وظائف تعليمية ومن هناك أصدر جريدته " **صدى بابل** " عام ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م شاهرا إبداعه مندداً بالظلم مطالبا بحرية العرب عامة والعراقيين خاصة ، ونادى بإحياء تراثهم ولغتهم العربية التي أصابها الجمود في هذه الفترة ، وقد جمع بين السياسة والشعر فقد كان شاعرا يهجو من رأى هجاؤه ويمدح من رأى مدحه .

وقد حارب وهاجم هذا الكاتب الدولة العثمانية وسلاطينها وألب عليهم وشهر بهم في جريدته ، وكان في كل ذلك يدعو إلى الدفاع عن حرية أبناء قومه المسلوبة ولغتهم المنسية ـ على زعمهم ـ وقد سجن عدة مرات بسبب فتنته وتطاولاته على السلاطين العثمانيين . وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م نفته السلطات العثمانية إلى القيصرية بأمر **جاويد باشا** إلى بغداد في العام نفسه لأنه مدح **طالب باشا** النقيب ذلك السياسي الذي ناصب الخلفاء العداء وكان من أكبرخصومهم . وقد فقد في هذا المنفى باقي حريته ـ كما يقول ـ إلا أن السلطات العثمانية أطلقت سراحه.

مشاهير الصحفيين في الدولة العثمانية :

وقد اشتهر أغلبهم من خلال أكثر من جريدة أو مجلة ، إضافة إلى مالهم من مؤلفات وهي أسماء كثيرة أشهرمن أن تذكر .

ومن توفير العناء على من يريد بحث تاريخ الصحافة في العالم الإسلامي أن نذكر المسلمين الذين اشتغلوا وحرروا في الصحف وذلك لسهولة حصرهم فإنهم قلة لا يجاوزون أصابع اليد الواحدة بخلاف صحف وكتاب أهل الذمة فإنه البحر الذي لاساحل له .

وبالإضافة إلى ماسبق ذكره فهذه أسماء أشهر النصارى في الصحافة :

* يوسف الشلفون .
* إبراهيم سركيس .
* حنابك أبومصعب .
* سليم الخوري .
* فرنسيس حراش .

* د. كرنيليوس فان ديك .
* سليم البستاني .
* لويس صابونجي .
* يوحنا بلو اليسوعي .
* إبراهيم اليازجي .
* أديب بك اسحق .
* نقولا لاتتاش .
* يعقوب صروف .
* خليل سركيس .
* فارس نمر .
* المطران حبار سيموس مسرة .
* سليم مياس الشلفون .
* سلمان البستاني .
* نجيب البستاني .
* سليم دي نوفل .

كل هذه الأسماء السابقة في بيروت وحدها، وهذا ليس حصرا لها كلها بالطبع، فكيف بباقى نواحى الدولة العثمانية، وقد بلغ مجموع الأعلام الذين اشتهر عنهم الاشتغال بالصحافة، بل تولوا هم بأنفسهم تأسيس عدد من الصحف في الفترة الأولى لنشأة الصحافة في الدولة العثمانية مايقرب من خمسين رجلا في بيروت لوحدها في القرن التاسع عشر فقط (١٨٠٠) على أيدي حملة نابليون حيث ظهرت أول جريدة باللغة العربية للوجود، أما أول صحيفة باللغة العربية يصدرها عربي فكانت سنة ١٢٧٢هـ ـ ١٨٥٦م في الأستانة على يد **رزق الله حسون الحلبي** (نصراني) سنة ١٣١٧هـ ـ ١٩٠٠م تقريبا .

من هؤلاء الخمسين أربعة فقط عرفوا بأنهم مسلمون ولاأقول عرفوا بدفاعهم وتبنيهم قضايا المسلمين من هؤلاء الأربعة **رفاعة الطهطاوي** ، الحاج **حسن بيهم** وغيرهما . أى نسبة المسلمين أقل من ١٠% من مجموعهم .

أما عن مشاهير الصحافيين من أهل الذمة في بقية نواحي الدولة العثمانية فلا يكاد يختلف الوضع عما سبق ذكره في الشام أو بيروت خاصة . فمن أبرزهم :

* البطريرك غريغوريوس الرابع .
* الياس بك مطر .
* جبرائيل دلال .

* عيسى اسكندر المعلوف .
* القس توما أيوب .
* جريانا مراش .
* خليل غانم .
* عبد الله مراش .
* الشيخ أبو نظارة (يعقوب صنوع) اليهودي .
* ميخائيل عوطر .
* يوسف باقوس .

يقابلهم من المسلمين عبد الرحمن الكواكبي ـ واشتهر في جريدته **الشهباء** ، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إشتهرا بمشاركة بعض الصحف اليهودية ـ كما سيأتي ذكره إضافة لصحيفة العروة الوثقى .

وقد كانت بلاد مصر مأوى الصحافة المهاجرة من بلاد الشام بعد الضغوط التي واجهتها من الدولة العثمانية ، فكان أولئك النصارى في لبنان وبيروت خاصة هم الذين على أكتافهم تأسست النهضة الصحافية في مصر والتي فاقت كل الأقطار في ذلك الوقت، فقد بلغ مجموع ماكان يصدر منذ تكوين الصحافة في عام ١٢١٤هـ ـ ١٨٠٠م إلى ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م من مجلات وجرائد ١٣٩٨ على اختلاف مدن مصر ويتركزهذا العدد الكبير في القاهرة فقد بلغ مجموع مايصدر فيها من جرائد ومجلات ١٠٣٨ (١) .

هذا العدد الكبير من المجلات والجرائد في مصر كان لأهل الذمة نصيب الأسد حتى اليهود وهم يشكلون أقلية في مصر لايتجاوز عددهم عشرات الآلاف من (٤٠ ـ ٦٠) ألف يهودي إلى احتلالهم لأرض فلسطين . على هذا العدد الذي يعد قليلا . وهو مبالغ فيه أيضا ـ إلا أنها كانت تتمتع بكل الحريات ، سواء الاقتصادية التي سيطروا عليها ، فأول أربعة بنوك في مصر من أملاكهم بالكامل ـ ولم يسمح لغير اليهود بافتتاح بنوك (٢) . وكذلك الحرية الفكرية فكان منهم الأدباء والشعراء ـ بل مايسمى بالفنانين والمطربين وكان لهم محبين ومريدين من المسلمين، ولاأقصد عوام المسلمين بل من المحسوبين على الدعوة والإصلاح ، فهذا **جمال الدين الأفغاني** لما قدم على مصر سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م وعاش بها ثماني سنوات كان مريدوه من شباب المسلمين والنصارى واليهود على حد سواء(٣) بل كان **يعقوب صنوع**(١) مريدا قربه الأفغاني إليه ، واقترح عليه توجيه مسرحه

---

(١) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) لما حاول طلعت حرب فتح بنك خارج نطاق اليهود .... وما فعل به ...

(٣) علي شلش : اليهود والماسون في مصر ص ٨٤.

نحو الموضوعات الاجتماعية ، ثم اقترح عليه إصدار صحيفة بعد تعطيل مسرحه ، وكـــان يمده ببعض كتاباته ، وبعد رحيل صنوع إلى باريس عام ١٢٩٥هـــ ــ ١٨٧٨م تقرب إلـــى الأفغاني عدد من شباب اليهود في الإسكندرية ، ودعوه إلى الخطابة ، ونظموا له حفلا ألقـى فيه خطبة خطيرة في ذلك الوقت ونادى فيها بتكوين حزب وطني وعلى إثر ذلك ظـــهرت " **جمعية مصر الفتاة** " في مطلع ١٢٩٦هـــ ــ ١٨٧٩ م علـــى أيـدي شـباب اليـهود فـي الإسكندرية (٢) .فإذا كان هذا حال المجدد كما يعتبره تلاميذه أمثال الإمام محمـــد عبـده أو غيره من المتأخرين المتأثرين ببهرج ما ينشرعنه . !!

فماذا تظن بغيرهم من المستغربين ، والمتفرنجين الذين يحملون أسماء أحمـــد وعلـــي وعمر ، .. في هذا الوسط الذي عشش فيه الجهل على أبناء المسلمين وانحرفـــت المفـاهيم والموازين عندهم ، واستطاع اليهود ــ خاصة ــ من أهل الذمة في مصر لوحدها ، إصدار مايقرب من خسمين صحيفة، ويعد ذلك ازدهارا على المستوى الثقافي الذي اتيحت لهم فيـــه حرية التعبير أو إن شئت فقل التخريب ــ وذلك في الفـــترة مـــن ١٢٩٤هـــــ ــ ١٨٧٧م ، ١٣٦٦هـــ ــ ١٩٤٧م فقد كان معظم هذه الصحف بالعربية (٣) .

بالإضافة إلى ذلك العدد فكانوا يسيطرون على ماينشر في غير صحفهم تحـــت تـــأثير ضغوطهم الاقتصادية . وامتلاكهم لكبرى شركات الإعلانـــــات منـــذ بدايـــة هـــذا النشـــاط الاقتصادي في مصر ــ على رأسها شركة الإعلانات الشرقية ، والذي كان مديرها يـــهوديا يدعى هنري حاييم ، وكذلك كان مدير الإعلانات في الأهرام ، وفي دار الهلال يهوديا (٤).

والسبب في سيطرتهم على مؤسسات الإعلان والدعاية أن معظم محال التجارة والبنوك والمؤسسات في مصر كانت في يد اليهود (٥). وقد استخدمت هذه الإعلانات لما تشكله مـــن دخل مالي للصحيفة وسيلة ضغط على أصحاب هذه الصحف لما ينشر ومالا ينشر مما يوافق أهواء اليهود .

فقد كانت الإعلانات تعطى للصحف التي تؤيد اليهود أو التي لاتعارضـــهم ، وتعطـــى أيضا للصحف المعارضة كطعم في البداية فيظهر بعدها موقف الصحيفة من اليهود .

---

(١) سبقت نبذة عنه في رجالات الصحافة (يهودي صحفي - موسيقار - ممثل - تاجر ...

(٢) علي شلش : اليهود والماسون في مصر . ص ١٤١ .

(٣) علي شلش : المرجع السابق ص ١٤٢.

(٤) سعيدة محمد حسني : اليهود في مصر (١٨٨٢-١٩٤٨م) ص ١٤٣.

(٥) المرجع السابق : ص ١٤٣ ــ ١٤٤.

وعندئذ وقبل أن نفصل الحديث بصحافة أهل الذمة عموما ، أوالنصرانية على وجـــه الخصوص نذكر بأن الصحفيين اليهود في مصر والذين كان لهم دورا بـــارزا فـــي الفســـاد الفكري والخلقي و.. وقد ترجم لبعضهم من قبل كيعقوب صنوع ، ونذكر هنا غيره منهم :

* الحاخام فرج مزراحي : وكان يدعو صراحة إلى وطن قومي لليهود من خلال جريدته
* مراد فرج ليشع : ١٢٨٢هـــ ـــ ١٨٦٦م ، ١٣١٣هـــ ـــ ١٨٩٦م وهو أبـــرز كـــاتب يهودي مصري بالعربية ـــ كان محاميا من طائفة القرائين .
* البرت موصيرى .
* سعد ليتو مالكى : وهذا بالإضافة لنشاطه الصحفي أصدر مجموعة من الكتب والرسائل والقصص الأدبية وكان يعد بعد مراد فرج من أدباء اليهود بالعربية .
* هارون تركى حداد .
* الفريد بلوز .
* صادق سعد : واشتهر بكتاباته السياسية (١) .

وجميع هذه الأسماء ممن اشتهروا بصحفهم العربية ، وهناك عدد آخر قد يفوقهم ممـــن كتبوا بالعبرية أو الفرنسية أمثال شلوموا فران، وأنابيل أهارون بن شمعون ، مسعود حيـــي بن شمعون ، وبالفرنسية موريس قارحي ، نوري قارحي رينيه ، يوسف قطاوي ، أما أهـــم الصحف والمجلات اليهودية فنذكر منها :

١ـــ **أبو نظارة زرقاء :** لصاحبها ومحررها ومؤسسها وموزعها **يعقوب صنـــوع** وقـــد صدرت عام ١٢٩٤هـــ ـــ ١٨٧٧م وإن كانت تعبر عن الرأي العام في مصر كما تدعيه من نقد للظلم والاستبداد إلا أن اليهود يعتبرونها ممثلا لرأيهم في مصر . وبعد أن منعـــت مـــن داخل مصر انتقلت إلى باريس بأسماء كثيرة سبقت الإشارة إليها في ترجمة يعقوب صنوع .

٢ ـــ **جريدة الحقيقة :** وقد صدرت فـــي **الإســـكندرية** ســـنة ١٣٠٦هـــــ ـــ ١٨٨٩م أصدرها **الحاخام فرج مزراحي** واتجاه هذه الجريدة غير واضح وغير متخصصـــة إلا أنها كانت تدعو لوطن قومي لليهود (٢).

---

(١) انظر علي شلش : المرجع السابق ص ٤٢-١٣٣ ، عواطف عبد الرحمن : (اليهود المصريون صحفـــهم ومجلاتهـــم) رســـالة ماجستير من كلية الإعلام بجامعة القاهرة ، سهام نصار : صحافة اليهود العربية في مصر ، ١٨٧٧ - ١٩٥٠م، ســـامي عزيـــز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص ١٩٤ / ط١٩٦٨ دار الكتاب العربي.

(٢) انظر سامي عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص ١٩٤.

٣ــ **جريدة التهذيب** : لصاحبها **مراد فرج** وكانت تصدر في القاهرة ثلاث مــرات فــي الاسبوع من سنة ١٣١٩هــ ــ ١٩٠١م ، ١٣٢١هــ ــ ١٩٠٣م، كما أصــدر مــراد فرج بعدها صحيفة الإرشاد سنة ١٣٢٦هــ ــ ١٩٠٨م .

٤ــ**جريدة اسرائيل** : اسبوعية أصدرها **البرت موصيري** . بثــلاث لغــات ، عربيــة، وعبرية، وفرنسية واتجاهها صهيوني .

٥ــ **جريدة الشمس** : مصدرها **سعد يعقوب مالكى** وهي اسبوعية صهيونية بحتة .

٦ــ **جريدة الاتحاد الاسرائيلي** : أصدرتها جمعية الاتحاد الاسرائيليين القرائيــن وهــذه الجريدة باللغة العربية .

واستمرت الجمعيات الصهيونية في إصدار مجلات وجرائد سواء مصرحــة أو غــير مصرحة كمجلة **الشبان القرائين** وهي مجلة دينية ، ومجلة **الكليــم** وجريــدة **نهضــة اسرائيل**، وتقول **سهام نصار** في رسالتها عن الصحافة اليهوديــة فــي مصــر: " أن الصحف اليهودية العربية منذ عام ١٢٩٤هــ ــ١٨٧٧م إلى الاحتلال بلغ٣١ صحيفــة وهذا يعد عددا كبيرا كما ذكرت من قبل بالمقارنة مع عدد اليهود في مصــر . وعــدد الصحف التي أصدروها بالفرنسية ١٠ عشر صحف على الأقل في الفترة نفسها (١).

وهناك نصوص وثائقية تبين اهتمام اليهود بالصحافة ودورها في التاثير على العــالم ، ولايستغرب أويستنكر هذا الاهتمام بالإعلام أو الصحافة خصوصا على اليهود ليس فــي العالم الإسلامي فحسب بل في العالم أجمع ــ أوروبا وأمريكا .

وهذا ماكان يوصي به حكماؤهم في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم وجمعياتهم السرية المنتشرة في العالم .

سيطرة اليهود على الصحافة ووسائلهم في ذلك:

يذكر (**وليام عاي**) فى كتابه المشهور (**أحجار على رقعة الشطرنج**) . . عن يــهودي ألماني أسس في سنة ١١٩٠هــ ــ ١٧٧٦م جمعية يهودية سرية جميــع أعضائــها البــالغ عددهم ٢٠٠٠ ألفين من اليهود وأطلق عليها اسم **جمعية النورانيين** ويدعــى مؤسســها **آدم وايزهاوبت** وقد وضع آدم هذا تعليمات لتحقيق أهداف الجمعية ــ التنظيم فــي السـيطرة ــ على العالم، وكان البند الرابع في التعليمات ينص على : (على النورانييــن الوصــول إلــى السيطرة على الصحافة وكل أجهزة الإعلام الأخرى والسيطرة على الأخبار) (٢).

فليس الأمر قاصرا على الصحافة فقط وإن كانت أهمها في ذلك الوقت، بل كل وســائل الإعلام كما رأينا من يعقوب صنوع، وكما هو مشتهرعن فرسان الســينما العربيــة أو

---

(١) علي شلش : المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) انظر للأهمية وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج . ص ٩٠ - ١٠٠. دار النفائس

مايسمى بالنجوم: فإنهم رجالا ونساء من اليهود في الغالب أبرز من سيطر عليهم اليهود.

وفي عام ١٢٨٦هـ ــ ١٨٦٩م عبر الحاخام اليهودي " **راشورون** " في خطاب ألقاه في مدينة **براغ** (إذا كان الذهب قوتنا الأولى للسيطرة على العالم فإن الصحافة ينبغي أن تكون قوتنا الثانية)(١) .

ولعل من أبرز مايبين اهتمام اليهود بالصحافة خاصة والإعلام عموما ، ماخصص في البروتوكول الثاني عشر من البرتوكولات الموسومة بــ " **بروتوكولات حكماء صهيون** " حيث وضحت فيه الأساليب الناجحة للسيطرة على وسائل الإعلام وخاصة الصحافة التي كانت أقوى قنوات الاتصال الجماهيري آنذاك حيث جاء فيها :

- لن ينفعنا أن نسيطر على الصحافة الدورية فحسب، بل علينا أن نظفر بإدارة شركات النشر لكي لا نكون عرضة لهجمات النشرات والكتب .
- إن وسائل الإعلام التي يجد في الفكر الإنساني ترجمانا لها يجب أن تكون خالصة لنا في الدنيا .
- إن الطباعة يجب أن تكون تحت سيطرتنا .
- الأدب والصحافة هي أعظم قوتين إعلاميتين وتعليميتين خطيرتين ، ويجب أن تكونا تحت سيطرتنا .
- يجب أن لا يكون لأعدائنا وسائل صحفية يعبرون فيها عن آرائهم ، وإذا وجدت فلابد من التضييق عليها بجميع الوسائل لكي نمنعها من مهاجمتنا .
- لن يصل طرف من خبر إلى المجتمع دون أن يمر علينا ، وذلك بالسيطرة على وكالات الأنباء العالمية وهي قليلة ، وحيث نسيطر عليها لن تنشر إلا مانختاره نحن من هذه الأخبار.
- لابد من السيطرة على الصحافة الدورية حتى تصبح طوع أبنائنا ، نهيج عواطف الناس حين نريد ، ونثير الحزبية الأنانية التي تخدم مصالحنا حين نريد ، ونسيطر بواسطتها على العقل الإنساني.
- ستكون لنا جرائد (صحف) شتى تؤيد الطوائف المختلفة من ارستقراطية وجمهورية وثورية بل وفوضوية أيضا ، وستكون هذه الجرائد (الصحف) مثل الإله الهندي **فشنو** لها مئات الأيدي وكل يد ستجس لنا نبض الرأي العام المتقلب .

---

(١) زياد أبو غنيمة : السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية ص ١١ – ١٢.

- سنصدر نشرات تهاجمنا ، وتعارضنا ، ولكن بتوجيه اتهامات زائفة ضدنا مما سيتيح لنا الفرصة كي نقنع الرأي العام بأن من يعارضنا لايملك أساسا حقيقيا لمناهضتنا ، وإنما يعتمدون على الاتهامات الزائفة .
- يجب أن نكون قادرين على إثارة عقل الشعب عندما نريد ، وتهدئته عندما نريد ، وسنفعل ذلك بطبع أخبار صحيحة أو زائفة حسبما يوافق غرضنا وسننشر الأخبار بطرقنا الخاصة بحيث يتقبلها الشعب ويصدقها ، ولكننا يجب أن نحتاط جيدا قبل ذلك لجس الأرض قبل السير عليها .
- يجب أن نشجع ذوي السوابق الخلقية على تولي المهام الصحفية الكبرى وخاصة في الصحف المعارضة لنا ، فإذا تبين لنا ظهور أية علامات للعصيان من أي واحد منهم ، سارعنا فورا إلى الإعلان عن مخازيه الخلقية التي نتستر عليها ، وبذلك نقضي عليه ، ونجعله عبرة لغيره (١) .

نماذج مما يكتب في صحافة أهل الذمة :

١ـ الأهرام :

صدرت هذه الصحيفة في أغسطس واتخذت الصحيفة صورة أهرامات الجيزة شعارا لها (وهذه بداية دعوتها من خلال اسمها وشعارها) فانطلاقا من حضارة فرعونية خاصة بمصر تقوقع على نفسها بعيدا عن العالم الإسلامي الذي ظل ومايزال بعدها رائد العمل العلمي والسياسي ، لما وهبت من كفاءات مبكرة وماعرفت به من كثافة بشرية تصنع منها قوة عظيمة لوتحركت بوعي وعرفت درب العمل المنظم على هدى وبصيرة، وعلى الرغم من ذلك فإن جريدة الأهرام لم تستطع أن تخفي نزعتها الطائفية حتى في عددها الأول حين أعلن محررها الخواجا **سليم أفندي تقلا** أسماء موزعي الجريدة في الصفحة الرابعة من العدد الأول حيث وردت أسماء الموزعين في مختلف مدن القطر المصري وشتى أقطار البلاد العربية على النحو التالي :

في الإسكندرية : الخواجا حبيب غرزوزي .

في الاسماعيلية : الخواجا موسى بطابني .

في المحلة الكبرى : الخواجا حبيب بولاد .

في المنصورة : الخواجا جبرائيل لباد .

في طنطا : الخواجا دهان دهان .

---

(١) زياد أبوغنيمة : السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام ص ١٣ ـ ١٤ .

وهكذا في يافا : الخواجا سليم أفندي كسار .

في بيروت : الخواجا فرنسيس راهبة واسكندر كسيب .

في دمشق : يوسف أفندي مطران .

في بغـداد : سليم أفندي فرج .

وقد ذكر جميع موزعيه النصارى في الأقطار المسلمة . على هذا المنوال الذي تخيرنـا منه، وعلى هذا الذكر فإن كلمة الخواجا ليست فيما أوردناه مـن عندنـا، وإنمـاهي اللقـب التبجيلي الذي يوحي بالتقدير والاحترام في أوساط غير المسلمين، وقد أوردته جريدة الأهرام مضافا لهذه الأسماء تقديرا لأصحابها واحتراما، لا إساءة لهم وامتهانا .. لكنها حقيقة تكشـف صورة من صور التكاتف والتحيز بين فئة الخواجات العاملة في ديار الإسلام (١) .

نماذج من أخبار العدد الأول من الأهرام :

١ــ قوبل حضرة ملك اليونان وقرينته في لوندرة بما يليق بمقامهما وقد أكرمت حضرة ملكة إنجلترا المعظمة جلالة الملك بأفخر النياشين .

٢ــ انفجرت حلة (مرجل) البارجة البحرية الإنجليزية المسماة (تندر) بينما كانت تحـت الامتحان الأول بعد نهاية بنائها ، ومات بسبب ذلك ٤٥ رجلا صار دفنهم باحتفال وقـد أرسلت جلالة الملكة أحد خواصها ليتفقد أحوال أعيانهم وأنعمت عليـهم بمائـة لـيرة إنجليزية فضلا عن إبقاء المرتب الذي كان لرجالهم .

٣ــ إن حضرة امبراطور ألمانيا قد ترك سالسبوري ليذهب منها إلى كاستين ، وقد رافقـه إلى محطة سكة الحديد حضرة امبراطور دولة أوستريا والمجر وهناك ودعا بعضـهما متعانقين ثلاث مرات متتابعة !!!

ولم تنس جريدة الأهرام في عددها الأول بعد أن سردت أخبـار الأبـاطرة والملـوك والأمراء والقادة والجنرالات في أوروبا أن تزين العدد بخبر واحد يقـول " بـأن الأخبـار الواردة من سوريا تعلن بأن السكينة مستقرة في جميع أنحاء الولايـة وأن أحـوال التجـارة مشوشة والإفلاس في بعض المدن متكاثر " ، ثم ساقت خبرا آخر عن لبنان تعلـن فيـه أن دولة رستم باشا المتصرف وصل إلى الأستانة العلية بالصحة والسلامة، كما لم تنس جريـدة الأهرام مصر بحكم صدورها في مصر فنشرت صورة دعوة من تاجر بالإسكندرية رفعـها ضد زميل له يطالبه فيها بسداد ماعليه من ديون (٢) .

(١) يوسف العظم : رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر . ص ١٢ ــ ١٤ .

(٢) هذه النماذج والأخبار نقلا عن : يوسف العظم ــ المرجع السابق ص ١٥ ــ ١٦ .

٢ـ دار الهلال :

ومن هذا المنطلق التضليلي وهذا التحرك الإعلامي المخادع ، وعلـى هـذا الأسـاس القلمي المزور أقامت الصليبية في مصر دارا أخرى للتضليل جعلـت الـهلال شـعارها لا الصليب حيث ولدت دار الهلال ، التي أسسها أحد مزوري تاريخنا القديم والحديث الخواجـا "**جرجي زيدان** " عام ١٣٠٩هـ ـ ١٨٩٢م ، فضمت الدار عددا من حملة الأقـلام الذيـن كانوا صحفيين مبتدئين تعلموا على أيدي الخواجات من آل زيدان ليعملوا على مسخ التـاريخ الإسلامي وطمس معالم الحضارة الإسلامية الصافية والتشكيك في وحدة العقيدة والفكر فـي الأمة الإسلامية الواحدة .

لقد كان جرجي زيدان من الدهاء بحيث لم يجعل " الصليب " عنوانا لداره الصحفيـة أو مجلته الشهرية أو كتبه ورواياته الأدبية والتاريخية وإلا لما دخلت بيتا ولما فسـحت أمامـها المجالس والمنتديات .

ولم تصدر دار الهلال صحيفة واحدة بل عددا من الصحف تخصص كل واحد منها فـي لون معين من الفكر وأسلوب خاص من المعالجة ، رغم أنها تلتقـي جميعـا علـى خدمـة التغريب والتفرنج والدعوة إلى استيراد الفكر والمبادئ مثلما تستورد الأحذية والثياب .

وقد بلغ من حقد القائمين على أمر دار الهلال أنهم قسموا كتاب مصر إلى فئات عديـدة. فهذه فئة تكتب عن الإسلام الرسمي فتناقش قضايا بدهية في حياة المسلمين لتصل في نهايـة المطاف إلى موقف من مواقف التشكيك أو الإلحاد . وهناك فئات أخرى كثيرة تثير الجيـل الجديد بالكأس والجنس وتحرك المرأة بدغدغة عواطفها والمطالبة بمـا يسـمى بـالحقوق والمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة . أفكار ضالة دعت لها دار الهلال في صحفها منـها فصل الدين عن الدولة، وتبني اللغة العامية وهجر لغة القرآن، كمـا حملـت لـواء دعـوة الاختلاط وهجر الإسلام والتخلي عن العادات والتقاليد الإسلامية الكريمـة لتحـل محلـها العادات المستوردة من الغرب الكافر . ونشأ في المجتمع المسلم العربي فكر مدمر يتنـاول حشدا من الأسئلة التي توحي بالضياع وتشير إلى غفلة وجهالة بحقيقة هذا الدين مثل :

ـ لماذا لا نهجر الدين كما هجره غيرنا وننهض .

ـ لماذا لا يقوم مجتمعنا على أسس من القيم والعادات الغربيـة الهابطـة طعامـا وشـرابا وسلوكا ونظام حياة .

ـ لماذا تتحدث في السياسة وقد بدأت حديثك بالدين ؟ .

ـ لماذا لا نصلي ونصوم ثم نطبق ديمقراطية الغرب أو اشتراكية الشرق ؟ .

وقد نهجت صحف دار الهلال نهجا خاصا في التقييم على كتاب الفكر الإسلامي الملتزم والأدب العربي المرتبط بثقافة القرآن (١) .

... هذا نموذج لما كان ولازال ينشر في صحافة أهل الذمة .

فهل من يقظة إسلامية تمحو هذه الغمامة التي طال سوادها على شـــعوب المســـلمين ، ولازالوا يتتلمذون على أفراخها !! حتى وصل الأمر إلى الآثار الأليمة التـــي يعـــاني منـــها المسلمون اليوم .

---

(١) انظر المرجع السابق : ص ٢٢ ، ٢٥ .

المبحث الخامس

إحياء الثقافات القديمة ومحاولة ربط الشعوب بماضي ما قبل الإسلام باسم علم الآثار

فيه عدة مطالب :

المطلب الأول : تعريف علم الآثار ونشأته

ـ في اللغة

ـ في الاستعمال الشرعي

ـ في المعنى الاصطلاحي

المطلب الثاني : بعثة الآثار والباحثين في حملة نابليون

المطلب الثالث : خبراء الآثار في جزيرة العرب

المطلب الرابع : أقسام علم الآثار

المطلب الخامس : الأهداف التي يرمي إليها علماء الآثار

إحياء الآثار

من المطارق التي ساهمت في هدم الخلافة وشاركت في إقصاء الشريعة تحت مسمى العلوم العصرية والاكتشافات العلمية ماسمي بعلم الآثار الذي هو وليد القرن الماضي فقط ،ولكنها موجة من الموجات الجديدة التي ركبها أعداء الإسلام ونفذوا من خلالها إلى أبواب كثيرة في حياة المسلمين استعصى عليهم قبلها ولوجها .

كما حققوا باسمها أهدافا عند النظر إليها للوهلة الأولى يظنها المسلم ضربا من الخيال.

لذلك ولأهمية هذا العنوان خصصته بمبحث مستقل وإن كنت سأكتفي ببعض الإشارات المتناثرة مما يقرب أو يولد لنا صورة واضحة إن شاء الله عن هذا المصطلح عند المسلمين أولا من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة ما إذا كان لهذا العلم أصلا عند المسلمين أوهو فن من فنونهم العلمية .

ومن ثم الحديث عن مدلول مايسمى بعلم الآثار عند أرباب هذا الفن من الغربيين المؤسسين . وكذلك محاولة إلقاء الضوء على ماتهدف إليه بعثات التنقيب عن الآثار في بلاد المسلمين مع بيان الشواهد التاريخية والوقائع العصرية قدر المستطاع ..

والتي من خلالها نتوصل إلى النتائج التي تبرز لنا حقيقة مايسمى بعلم الآثار وماهو موقف المسلم منه ومن أبحاثهم المتتابعة ونتائجهم التي حولوها من فرضيات إلى نظريات ومسلمات لاتقبل الجدل .

مفهوم الآثار في نصوص الشرع من القرآن والسنة :

إن أصل كلمة آثار : وهى جمع أثر جاء في القرآن وفي السنة النبوية المشرفة . وتكرر ذكر هذا المفهوم داعيا إلى الوقوف والتامل في الآثار المادية وأخذ العظة والعبرة منها ، إذن القرآن لكريم أورد كلمة آثار نفسها بنصها في قوله تعالى في سورة غافر ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ ثم قال بعدها ﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون. فلما رأوا بأسنا قالوا ءامنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ (١) .وكما قال تعالى أيضا ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب** ﴾(٢). وقال تعالى ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير . فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد . أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو ءاذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ (٣). والمراد بهذه الآية أي ألم يكن للناس وهم يظلمون في جنبات الأرض عيون أو قلوب أو آذان فيشاهدون بها آثار القوم التي تنبيء عن مصير المشركين الذين أهلكهم الله بظلمهم وبشركهم علهم يعتبرون فلا يقعون فيما وقع فيه غيرهم من الشرك بالله مالم ينزل به سلطانا .

إذن فالله سبحانه وتعالى أمرنا أن ننظر في الأرض وأن ننظر في الآثار ولكن لغاية سيأتى تفصيلها، ونستشفها من الآيات الكثيرة جدا التي تأمرنا بالتفكر والنظر والسعي في الأرض ومنها قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ **ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا** ﴾ (٤) والمقصود بالقرية قرية سدوم بالأردن ، وقال تعالى في سورة الحجر ﴿ **ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وءاتيناهم ءاياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين فأخذتهم الصيحة**

---

(١) سورة غافر آية ٨٢ ، ٨٥.

(٢) سورة الفجر من آية ٦ ــ ١٣ .

(٣) سورة الحج من آية ٤٢ - ٤٦ .

(٤) سورة الفرقان آية ٤٠

مصبحين . فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون ﴾ (١) وأصحاب الحجر هم قوم ثمــود وقــوم صالح الذين أشركوا بالله وأفسدوا في الأرض ، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ **ومكــروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرنــاهم وقومــهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمــون ، وأنجينــا الذيــن ءامنوا وكانوا يتقون ﴾** (٢). وقال تعالى ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾** (٣).

ثم قال في حق هؤلاء القوم الذين كذبوا أنبياءهم أشركوا بالله تعــالى . ﴿ **فلمــا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عــذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فــأصبحوا لايــرى إلا مســاكنهم كذلــك نجــزي القــوم المجرمين﴾**(٤). وهذه الآيات وغيرها الكثير في القرآن الكريم تدل دلالة واضحة عند المسلم أن المقصود من هذه الآثار والتعرف عليها والأمر بالنظر والسعي فــي الأرض أن تقــترن بأخذ العبرة يعني تدعو الدارس والمشاهد (السامع والباحث) إلى تدبر أحوال نفسه وأســوته ومجتمعه فلا يدعها أو يدعهم يقترفون مااقترف غيرهم من الآثام فيهلكم الله بعذاب أليم فيحل بنا ماحل بمن قبلنا ممن أعرضوا عن الله سبحانه وتعالى فلم يبق لهم إلا هذه الآثار التي تدل على تعذيب الله لهم، فإنهم أوتوا من القوة مالم نؤتاه ومع ذلك دمرهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومما جاءت به لفظة آثار أيضا على معاني أخرى فيها، قوله تعالى في سورة يس ﴿ **إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وءاثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾** (٥).

وقد وردت مادة هذا اللفظ في القرآن الكريم في مواضع كثيرة فــي ســورة المــائدة والصافات ويس والكهف وغيرها من سور القرآن الكريم، وعليه يمكننا أن نقول إن مفــهوم الآثار في كتاب الله هو دراسة مخلفات الأمم السابقة أو النظر في مخلفاتها سواء المادية منها أو الفكرية ذلك لأدب المسلم وأخذ العظة والعبرة وأن لا تقع فيما وقعوا فيه من انحرافــات عن ما أمرهم الله به من التوحيد، فأثار القوم مخلفاتهم التي يعرفنا القرآن ببعضها مما نــراه ولايزال باقيا إلى وقتنا الحاضر كمدائن صالح وءاثار الفراعنة وأصحاب الأخدود وغيرهمــا من الآثار المشاهدة على الأقوام السابقين أو مما لم يبق كقوله تعالى ﴿ **كم تركوا من جنــات**

(١) سورة الحجر من الآية ٨٠ إلى الآية ٨٤.

(٢) سورة النحل من الآية ٥ إلى الآية ٥٣ .

(٣) سورة الاحقاف الآية ٢١ .

(٤) سورة الأحقاف من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٥ .

(٥) سورة يس آية ١٢ .

وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما ءاخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وماكانوا منظرين ﴾ (١).

لذا يمكن تعريف علم الآثار : " بأنه علم ودراسة مخلفات الأمم السابقة سواء المادية منها أو الفكرية الثابتة أوالمنقولة الظاهرة منها أو المطمورة وذلك لتحقيق أهداف عامة "(٢).

بالطبع لايفهم من الكلام السابق أن القرآن نص على شيء اسمه علم الآثار أو فن من الفنون يدعى بالآثار أو ما شاكل ذلك مما يطلق عليه الآن أو يصنف في أنواع العلوم الإنسانية أبدا، بل لم يعرف ذلك في القرآن ولا في السنة بل ولا في حياة المسلمين أبدا كما ستراه في هذا المبحث .

نشأة علم الآثار

هذا العلم من الفنون الحديثة وظهر في بداية القرن العشرين وكان بداية الاهتمام به هو الاهتمام بما تركه السابقون وماخلفه الأقدمون من تراث وغيره .

وقد عرف الدكتور / **عباس سيد أحمد** أستاذ قسم الآثار بجامعة الملك سعود (ليس من اليسير تحديد الكيفية التي بدأ بها علم الآثار إذ أن مولده كان نتاجا لمخاض طويل يصعب تحديده كحادثة معينة، ولايعرف فن من الفنون العصرية أو السابقة لاقا مالاقاه فن الآثار من تعقيد في بداية نشأته وخلاف بين الباحثين في نشأة هذا العلم ، وإن كانوا متفقين على أنه من نتاج هذا العصر كعلم مستقل .

إلا أنه مما أثبته الرحالة المكتشفون وأصحاب الهوايات وأصحاب الثراء الذين كانت هواياتهم اقتناء الأشياء النادرة من التحف، أحيانا بالشراء أو بحفر بعض المواقع بل أحيانا بنبش القبور . وقد استطاع بعضهم تكوين مخزون هائل من التحف القديمة وأصبحت لديهم متاحفهم الخاصة وقد أدى ذلك إلى انتشار تجارة التحف وبالتالي البحث عنها وتشجيع جمعها والحصول عليها وكان هناك صنف آخر وهم سراقون اشتهرت تسميتهم بصائدي الكنوز سعوا في بعض المواقع تخريبا وخاصة المقابر الملكية بهدف الحصول على القطع المعدنية الثمينة ثم أخذ هذا الجمع والاهتمام بالآثار اتجاها علميا كما يسمونه وهو يربط كل نوع من التحف وجيل معين بعصر أو باشخاص معينين أو بشعوب معينة وكنتائج للجمع المكثف للتحف تكدس لدى بعضهم مجموعات ضخمة وأخذت تتحول من مقتنيات خاصة إلى متاحف تملكها دول كمجموعة **إياس أشمول** التي انبثق عنها المتحف الأشمولي باكسفورد عام ١٠٩٣هـ ـــ ١٦٨٢م،كما أن مجموعة **سيب** في هولندا تحولت إلى متحف

(١) سورة الدخان آية ٢٢، ٢٤ ، ٢٩ .

(٢) انظر جمال عبد الهادي ووفاء رفعت : علم الآثار ص ٥ ، ٦. طبعة درا الشروق جدة

بترسبرج بعد أن اشتراها **بتر** الامبراطور الروسي في عام ١١٣١هـ ـ ١٧١٩م وكذلك حال مجموعة **سلون** في بريطانيا نجم عنها المتحف البريطاني ١١٧٢هـ ـ ١٧٥٩م (١) .

فهذه هي بداية نشأة علم الآثار، وقد أشار الدكتور **عباس سيد أحمد** إلى أن أول من أطلق كلمة آثار بريطاني يدعى **دانيا ولنسون** الذي ضمنها كتابا له صدر عام ١٢٦٧هـ ـ ١٨٥١م تحت مسمى " آثار وحوليات ماقبل التاريخ باسكتلندا " والمقصود بالعبارة تلك الفترة السحيقة من حضارة البشرية السابقة لظهور الكتابة (٢).

وقد نشأ هذا العلم وظهر أول ما ظهر في أوروبا ، وعند باحثيهم الذين كانوا يسمون أول المشتغلين بهذا الأمر مهوسين ، ويوصمون بالجنون والسفه والتفاهة ونحو ذلك ، ومن هؤلاء الباحث الفرنسي **جاك بيرت** الذي أبدى اهتماما بدراسة المخلفات القديمة من الأدوات الحجرية وعظام الحيوانات واستمر بأبحاثه من سنة ١٢٥٤هـ ـ ١٨٣٨م حتى ١٢٥٧هـ ـ ١٨٤١م فاعتبره معاصروه شخصا مهووسا ثم بدأ منذ ذلك التاريخ تتوالى الاكتشافات من تقسيم العصور إلى ثلاث عصور ـ العصر الحجري والعصر البرونزي والعصر الحديدي ـ وكان هذا الاكتشاف يعد نقله عظيمة في علم الآثار، وتوالت الاكتشافات ليس فقط في بلاد أوروبا وآثار اليونان والرومان بل حتى في بلاد المسلمين وكانت بداية ذلك على أيدي الحملة الفرنسية في مصر حتى عاد البحث عن الآثار المصرية وآثار الفراعنة في حملة نابليون الذي كان معه طائفة من الخبراء المخصصين لهذا الغرض وكان أو ل وأهم وأكبر اكتشاف للآثار المصرية مايسمونه باكتشاف **حجر رشيد** الذي يعود الفضل الكبير في قراءة النص المكتوب عليه بكامله إلى العالم الفرنسي **شامبليون** ـ كما يقولون ـ وهو الذي قام بفك الطلاسم الموجودة عليه المكتوبة باللغة المصرية القديمة التي يسمونها **بالهيروغلوفية والديمقوطيقية** ثم توالت بعد هذا الاكتشاف المحاولات لمعرفة المزيد من الآثار الفرعونية حيث قاد **جوقاني بلزوني** إحدى هذه المحاولات فقام بنبش بعض القبور الملكية، كما قام الألماني **كيبس بوس** في منتصف القرن الماضي بإعداد وصف جيد لمواقع الآثار المصرية، كذلك بعده الفرنسي **اغوست ماريت** قام بعمل حفريات واسعة في مصر بل قد تولى هيئة الآثار المصرية كأول مدير لها وله يرجع الفضل في إنشاء المتحف الوطني المصري وكذلك الوضع في غير مصر كالعراق وفي آسيا الوسطى وبلاد الشام حيث تولى التنقيب عن آثارها **آرغولد توماس، جورج فنلي، هنري فورنك، هنري بوالدلي،** وفي العراق **مواردين سيرين،**

---

(١) د. عباس سيد أحمد محمد علي : علم الآثار المولد والنشأة . مقالة بمجلة المنهل عدد ٤٥٤ في سنة ١٩٥٣م عدد في رمضان وشوال ١٤٠٧هـ ص ١٢-١٣.

(٢) المصدر السابق : ص ١٤.

ومن الدلائل التي تدلل بها على أن هذا العلم غربي محض لا دراية للمسلمين به ولا اهتمام لهم به الرجوع إلى معاجم أنواع الفنون .

وهذه المعاجم تذكر كل فن وعلم وجد بين الناس سواء كان ممدوحا أو مذموما كالسحر والموسيقى و...... فإنك تجد مثل هذه المعاجم تتكلم بالتفصيل عنه ورجاله ، فعند النظر في **مفتاح السعادة** وهو من أشمل معاجم أنواع الفنون نجده يقول عن علم الآثار : " وهو علم يبحث فيه عن أقوال العلماء الراسخين من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين وأفعالهم وسيرهم في أمر الدين والدنيا " (١) .

فهذا هو غاية مايفهم عند المسلمين الأوائل والمصنفين المتأخرين من كلمة الآثار إذا ماذكر علم الآثار فإنه يقصد به آثار السلف الصالح والمرويات النبوية التي من أقواله وأفعاله وسيرته صلى الله عليه وسلم، فتلك الكتب التي تجمع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هي كتب الآثار وهذا هو مصطلح الآثار عند المسلمين وقد سبق لنا وبينا مدلول هذه الكلمة قبل أن يأتي به الأوروبيون إلى بلاد المسلمين إذ لا وجود لفن يدعى بعلم الآثار في وسط المسلمين في كتاب الله العزيز .

نخرج بنتيجة لا أظن أحدا يجادل فيها وهي حقيقة واضحة أن تأسيس علم مستقل له مقدماته وأدواته ومنظريه يسمى بعلم الآثار ويصنف من العلوم الإنسانية المعروفة بالمصطلح العصري إنما هو من بدع اليهود والنصارى ومن اختراعات الغرب، فقد نشأ عندهم فأسس على أيدي رجالهم ، وصنف فيه مؤلفوهم بل وتولاه حتى في ديار المسلمين رجال منهم وتربعوا على أعلى المناصب من خلاله .

تعريف علم الآثار عند أصحابه :

لايكاد يتفق خبراء الآثار على تعريف وضع حد معين لفهمه ، إلا أننا نحاول أن نخوج بخلاصة ما يذكرونه في تعريف هذا الفن في مصطلح أهل الفن فيقولون : " دراسة ماصنع الناس ومافعلوا حتى يمكن فهم كل طريقة من طرق حياتهم وذلك لأنهم يزعمون أنه لايمكن أن تظهر صورة كاملة وواضحة لحياة الناس في السابق إلا عن طريق الدراسة الأثرية للأشياء التي قاموا بها وبصنعها " ، وهذا هو بداية تعريف علم الآثار ومنهم من يعرفه بأنه "علم يبحث دراسة مخلفات الأمم السابقة المادية لأهداف إنسانية" .

وبالطبع من خلال تلك العبارات يتبين لنا مدى البون الشاسع بين مراد المسلمين وأهدافهم من النظر في ملخفات القوم أو دراستها والتي سبق لنا بيانها في مفهوم القرآن من أخذ العظة والعبر ، ومعرفة نعم الله على خلقه وسنة الله الكونية في هذه الحياة وتداول الملك

---

(١) أحمد مصطفى طاش بحدي : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في الموضوعات والفنون ج٢ ص ٥٥٢.

الذي يعطيه الله لبعض ويمنعه من بعض ويزيله متى شاء ونحو هذه هي نظرة المسلم للآثار
.

وبين النظرة الأوروبية المادية البحتة للآثار والنتيجة التي نخرج بها أن لا علاقة للمسلمين بعلم الآثار بالمفهوم الذي يرمي إليه النصارى ، ولا اهتمام لهم بمجرد الماديات الجوفاء التي يحاول أعداء الله هدم التوحيد وإرجاع الوثنية وذبذبة عقائد المسلمين من خلال هذا الفن .

وزيادة في البراهين والتدليل على أن علم الآثار بضاعة صليبية وسلاح من أسلحتهم نذكر أسماء المهتمين بعلم الآثار حتى في ديار الإسلام .. وأهدافهم من ذلك فنجد ولله الحمد أن لاوجود لعلماء مسلمين بينهم ، بل ولا حتى بالأسماء، وإنما كلهم من اليهود والنصارى. ولما اهتم بعض المسلمين بهذه البعثات الأثرية وشاركوا فيها سواء أفرادا أوجماعات كان دورهم شبه محصور في جمع المخطوطات وتسجيل الكتب والمؤلفات في رحلاتهم إلى البلاد المراد التنقيب عن الآثار فيها .

من أول وأشهر بعثات الآثار في ديار المسلمين تلك الحملة الصليبية الت قادها **نابليون** على بلاد مصر المسلمة ، وكان عازما على إقامة امبراطورية شرقية له على أرض مصر ، ولكن مقاومة إسلامية لم تكن بالحسبان أجبرته على النكوص .

وقد استعد نابليون لحملته الفرنسية استعدادا يفوق التصور والوصف لا من حيث العدة والعتاد فحسب، بل من حيث حجم الطاقات العلمية والثقافية أيضا . والآلآت المطبعية والمخبرية التي جلبها إلى مصر (١) ، وإن كان الباحثون لايجزمون بشيء معين في حجم هذه الاستعدادات ولكن ماثبت منها يعد أمرا عظيما في ذلك الوقت فقد جلب معه كبار الخبراء والعلماء في ذلك العصر في سائر العلوم التطبيقية والتجريبية ومن لهم المرجع في علوم الهندسة والطب، وقادة عسكريين وكذلك جهز الحملة بمطبعة عربية متكاملة هي الأولى في البلاد المسلمة ، وأخرى فرنسية وثالثة يونانية، فهذه ثلاث مطابع جلبها معه في حملته على مصر، كذلك اصطحب معه نوابغ بلاده في الرياضيات، والطب، والجغرافيا، والطبيعة، والهندسة، والفلك، والأدب، والكيمياء، والاقتصاد، والسياسة، والمعادن، وطبقات الأرض، والآثار، وعلم الحيوان، والنبات، وفن العمارة، وهندسة الري، والقناطر والجسور، والميكانيكا، وطائفة من رجال الفنون من رسامين ومغنيين وممثليين وموسيقيين ونقاشين......إلخ .

فبلغ عدد هؤلاء مائة وستة وأربعين عضوا ما بين عالم وأديب ومنقب آثار، وتتألف منهم لجنة العلوم والفنون التي كونها نابليون . ويقول **الرافعي** في تاريخه عن الحركة

---

(١) انظر بالتفصيل : عبد الرحمن الرافعي ــ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ــ ج١ ، ص ٨٢ ــ ٨٥ .

القومية في مصر وتطورها (كما جهز نابليون حملة هذه المجموعـــة كاملـة مـن الآلات المطبعية والرياضية وكان فيهم جماعة من أقطاب العلوم ممن يشار إليه بالبنان في فرنســا أمثال **مونج** العالم الرياضي **وبورتليه** العالم الكيميائي ، وهما الذان عهد إليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة، **وقوربييه ولومبو جوفور وأسان هيلبر** وغيرهم) (١) .

قال المسيو **نيبرس** : " أن نوابغ فرنسا في الحروب والعلوم والفنون قد صحبوا نـابليون في الحملة وجذبتهم إليها ثقتهم في قائدها الفتى العظيم وركبوا دون أن يعرفوا إلى أي جهـة يقصدون " (٢) .

أصدر نابليون أمره بإنشاء المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنسي وذلك في ١٢٠٣هـ ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨م (٣) وضمنه الغرض مـن إنشـائه وبيـان اختصاصاته، وهذا الأمر يتألف من ست وعشرين مادة تتلخص فيما يلي :

الغرض من المجمع ـ أقسام المجمع ـ انعقاد المجمع ـ مكتب المجمع ـ أبحاثه .

وذكر في الغرض منه :

١ـ تقدم العلوم والمعارف في مصر .

٢ـ دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية التاريخية الخاصـة بمصـر ونشـرهذه الأبحاث .

٣ـ إبداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشيره فيها .

وقد يكون هذا الأخير من أهمها وهو هدف رئيسي من أهداف بعثات التنقيب عن الآثار وهو التجسس والتعرف على طبائع الشعوب ليسهل التأثير عليهم .

* أما أقسام المجمع : فمن ضمن أقسامه قسم مستقل للآداب والفنون بأنواعـها . ومـن أعضائه القسيس **رفائيل دموناخيس** على أن كل قسم يتألف من اثنى عشر عضوا (٤) .

نبذة عن بعض هؤلاء الباحثين والخبراء في البعثة العلمية لنابليون :

يظن للوهلة الأولى أن أولئك الخبراء ماهم إلا مهندسين وجيولوجيين وأطباء فحسـب، بينما عند النظر في انتاجهم ومؤلفاتهم نجد أنهم منصرون أولا ودعاة حريصون على تحقيـق هذه الغاية قبل كل شيء، والأدلة على ذلك ـ أنك تجد عالم الرياضيات هذا وله مؤلف فـي

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج١ ص ٨٣.

(٢) تسيبرس : تاريخ الثورة الفرنسية ج١٠ ، عن الرافعي ج١ / ٨٤.

(٣) مراسلات نابليون ج٤ وثيقة رقم ٢٠٨٣.

(٤) مراسلات نابليون ج٤ وثيقة رقم ٣٠٨٣. نقلا عن الرافعي ـ المرجع السابق ١/ ٨٢ .

الوهابية وتاريخها ـــ ومهندس الري له مرئيات في طبائع الشعب المصري وتاريخ مصـــو... وهكذا .

ومن الأمثلة على ذلك ...

جومار (١١٩١هـــ ـــ ١٧٧٧م ، ١٢٧٨هـــ ـــ١٨٦٢م) : له في مصر أبحاث جغرافية وأثرية، واشترك في وضع كتاب (**تخطيط مصر**) وقضى سبعة عشر عامـــا مشـــتغلا فـــي اظهار الكتاب، وله فيه أبحاث جغرافية وأثرية شغلت عدة أجزاء من الكتاب من أهمها بحـث مستفيض عن تخطيط القاهرة القديمة، وانتخب عضوا بالمجمع العلمي الفرنسي مكافـــأة لـــه على أبحاثه في الآثار المصرية، وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود في فرنسـا من كبار علماء الجغرافية والآثار القديمة.

لاتكري (١١٨٨هـــ ـــ ١٧٧٤م ، ١٢٢٢هـــ ـــ ١٨٠٧م) : من علمـــاء الرياضيـــات ومن مهندسي القناطر والجسور ، ومن علماء الآثار، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجـــه القبلي وتخطيطها .

كوارتسيز : من خريجي مدرسة الهندسة العالية (السنترال) وله كتـــاب فـــي تـــاريخ الوهابية ـــ كما يسميها ـــ من بدء ظهورها إلى سنة ١٨٠٩م.

جالوا (١١٩٠هـــ ـــ ١٧٧٦م ، ١٢٥٧هـــ ـــ١٨٤٢م): منقب في الآثار وله " يوميات " عن الحملة وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت في كتاب تخطيط مصر .

دفيفليه : مهندس قناطر وري وآثار، وله يوميات ، وكان جالوا ودفيفيه متلازمين فـــي أبحاثهما الأثرية .

*** خبراء الآثار في جزيرة العرب :**

١ـــ قام الرحالة الأوروبي **دي فرتما** بزيارة مكة قادما من دمشق في أوائل القرن الســـادس عشر .

٢ـــ قام المغامر الأسباني **باديانى لبلخ** بزيارة جدة عام ١٢٢٢هـــ ـــ ١٨٠٧م تحت اســـم " علي بك العباسي" مدعيا أنه أمير مسلم من نسل الخلفاء العباسيين .

وقد ترك كتابات تحوي وصفا دقيقا لمكة والكعبة وما كان يجري أيام الحج .

* كتابات **جاك بيرين** : هو باحث عن جميع الرحالة الذين زاروا شبه الجزيرة حتـــى عـــام ١٣٢٢هـــ ـــ ١٩٠٤م .

* **نيوؤر** الهولندي (١١٧٤هـــ ـــ ١٧٦١م ، ١١٧٧هـــ ـــ ١٧٦٤م) ولـــه كتـــاب بعنـــوان وصف بلاد العرب .

* **سيتزن** الألماني (١٢٢٥هـــ ـــ١٨١٠م) وقد نقل بعض نقوش ظفار احدى عواصم دولة سبأ في اليمن.

* **هاليفي** (١٢٨٦هـ ـــ١٨٦٩م) زار كل بلاد اليمن بما فيها مأرب ونجران ونشر أبحاث بالفرنسية .

* **جلازر** (١٢٩٠هـ ـــ١٨٨٢م) .

* **ولنذ** (١٢٤٠هـ ـــ١٨٢٥م) .

* **مايلز** (١٢٨٤هـ ـــ١٨٦٧م).

* **بوركهارت** (٥٧٠هـ ـــ١١٧٥م) .

* **برتون ، فون فريده ، هيرش ، بنت** .(١) .

ومن أهم من كتب في تاريخ بلاد العرب :

١ـــ **دوتي** (١٢٩٢هـ ـــ١٨٧٥م) وقد زار مدائن صالح والعلا والخريبة منها نصوص لحياتيه وثمودية ونبطية ترجمها له **رينان** .

٢ـــ **دايت ننج** (١٣٠٠هـ ـــ ١٨٨٣م) زار العلا ومدائن صالح والخريبة وتيماء

٣ـــ ورحلة **أرنو** إلى سد مأرب عام ١٢٥٩هـ ـــ ١٨٤٣م وحرم بلقيس وضرائب مدينة صرواح وقد نسخ نقشا قديما .

وقد نشر مذكراته (فرزنل) في جدة عام ١٣٦٤هـ ـــ ١٩٤٥م في كتابه (**بحوث في النقوش الحميرية**)، وفي عام ١٣٨٩هـ ـــ ١٩٦٩م أصدرت الأكاديمية الفرنسية موسوعة النقوش السامية.

٤ ـــ **موزل** .

٥ ـــ **جادلين وسافنياك** .

٦ ـــ **ديودنياك** (٢) .

٧ ـــ الرحالة **برترام توما وهنري سان جون فيلي** .

٨ ـــ مؤلفات **رايسي رويسمان** الجغرافية والأثرية في ثلاثة أجزاء .

كل الأسماء السابقة لا تدع مجالا للشك أن أهل الذمة هم الوحيدون ـــ ولا أقول السابقون ـــ في التنقيب عن الآثار في البلاد الإسلامية ، وتوجيه اكتشافاتهم الوجهة التي يريدون. أما البعثات الإسلامية والباحثون المسلمون فاقتصرت كتاباتهم الأثرية على تسجيل تاريخ الرحلات على الطراز القديم المعروف عند السابقين أو جمع وتصوير أكبر قدر ممكن من المخطوطات . فهذه هي الآثار عندهم . فمن نماذجهم :

---

(١) جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت : المرجع السابق ص٢٢ ـــ ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص٥٣ .

ــ **نزيه مؤيد العظم** : وكتابه رحلة في بلاد العــرب الســعيدة ســنة ١٣٥٥هــــ ــ ١٩٣٦م .

ــ بعثة الجامعة المصرية ونشاطها في حضر موت .

ــ جامعة الدول العربية وتصويرها لمخطوطات اليمن في بعثتها سنة ١٣٧١هــــ ــ ١٩٥٢م .

وأخيرا فهذا شاهد آخر على أن علم الآثار منشأة وتطويرا بضاعــة غربيــة غريبــة عــن المسلمين .

أقسام علم الآثار :

ومن الشواهد والأدلة الدالة على أن الباحثين اليهود والنصارى هم الذين ابتكروا هــذا المصطلح الجديد في فهم الآثار ... ماوضعوه من أقسام أو تقاسيم للآثار الموجودة على وجه الأرض وأن اهتمامهم اقتصر على الجوانب المادية التي هــي مقيــاس الحضــارة عندهــم وتسجيلها ورصد مابقي منها ..

فقد جعلوا علم الآثار ثمانية فروع . وليس منها مايهتم بآثار المسلمين أو تاريخ الأنبيــاء وآثار أقوامهم لأن من أهدافهم كما سنرى طمس التوحيد وتاريخ الدين السماوي بما نظمتــه من مواقف الأنبياء مع أقوامهم المكذبين .. مما بقي من آثارهم إلى الآن وهذه الفروع كمــا هي في جامعة لندن كالتالي :

١ــ آثار ماقبل التاريخ .

٢ــ آثار أوروبا الغربية .

٣ــ الآثار المصرية الفرعونية (الهكسوس) .

٤ــ الآثار الأشورية (آثار ما بين النهرين) .

٥ــ الآثار الرومانية واليونانية (الوثنية) .

٦ــ آثار العهد المسيحي القديم والعصور الوسطى .

٧ــ آثار عهد النهضة .

٨ــ الآثار الشرقية (الهند والصين وفارس) .

أما الآثار الإسلامية على حسب تصنيفهم كآثارهم في الأندلس وأوروبا وفرنسا ورومــا واليونان وماهو في بلاد الملسمين الآن قد أسقطها الأوروبيون من حسابهم وتقسيمهم .

الأهداف التي يرمي إليها علماء الآثار :

أولا : إحياء القوميات المندثرة لتفكيك وحدة المسلمين :

من الوسائل التي حرص عليها أعداء الإسلام من أهل الذمة وسبق لنا أن فصلنا القول فيها في مبحث مستقل ، إلا إننا هنا في أسلوب آخر ووجه جديد يتحقق من خلاله تلك الغاية عندهم فعلمنا في مبحث الصحافة كيف سعوا لتحقيق هذه الغاية عن طريق إطلاق أسماء قديمة على هذه الصحف بعضها قد اندثر وأخرى لامفهوم لها عند المسلم، ففي العراق نسمع بصحيفة من أشهر الصحف وهي **صدى بابل** من أيدي يهودية . وفي مصر **الأهرام** من أيدي نصرانية ، **النيل ــ أبوالهول ــ عكاظ ــ الندوة ــ اليمامة ــ مجلة الآثار المصرية** . **أقلوديوس أبديوحنا** مجلة فرعون ومنشئها **عبد العزيز** رسمي ، وهوالذي يعد له فضل في إحياء اللغة القبطية المنقرضة فقد تعلمها وأتقنها وعلمها وألف فيها وتولى نشرها، وعين مفتشا في دار الآثار المصرية في القاهرة ١٣٠١هـ ــ ١٨٨٤م (١). وغيرها من الأسماء التي تنبيء عن إحياء قديم لا قيمة له عند المسلمين ، وهو غرض من أغراض أهل الذمة لإنشاء روابط مختلفة غير رابطة الدين والأخوة الإيمانية . وقد تبعهم في ذلك بعض المسلمين بوعي أو بغير وعي في تقليدهم في إحياء الرموز القديمة غير الإسلامية وإحياء أسمائها والاهتمام بتاريخها وجعلها أسماء للصحف والنوادي الأدبية أو الرياضية أو الجمعيات وغير ذلك . وهي أيضا من نتاج دعاة القومية العربية الي عصفت بأكثر بلاد المسلمين ، ولازالت حتى عصرنا الحاضر .

ولقد وجد أعداء الإسلام في الدراسات الآثرية الممسوخة فرصتهم التي لا تعوض لإحياء القوميات الفرعونية والعربية و الفارسية والسريانية والكلدانية (٢) ..والبابلية والآشورية وغيرها .

ولقد كان هذا الهدف واضحا في أبحاث هذه البعثات الأثرية ، وتبني الإعلام وأصحاب الأقلام كل اكتشاف جديد يزعمونه أو يلحظونه ... .

ثانيا : إحياء الوثنيات القديمة حتى يسهل صرف الأمة المسلمة عن دينها :

بالطبع لا أقصد بهذا الهدف الذي سعى إليه باحثوا الآثار في البلاد الإسلامية أنهم كانوا يرمون إلى اعتناق المسلمين الوثنيات التي اندثرت وكانت من قبل معبودات لأهالي المنطقة من الآباء والأجداد ، فهذه سذاجة بالغة لو حاولوها .. ولكن كما يقول أحد المستشرقين الصرحاء في كتابه "**الشرق الأدنى ومجتمعه وثقافته** " (إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ماقبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى

---

(١) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج٤ ص ٣٠٢.

(٢) علم الآثار : مرجع سبق ذكره ص ١٦.

عقائد ماقبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذبه بين الإسلام وبين تلك الحضارات) (١). للأسف هذه الصراحة عند عدونا ، يجهلها كبار مثقفينا ــ ولا أقصد من يتجاهلها عن خبث بل عن غفلة وسذاجة ــ فتجدهم يتطايرون فرحا لنشر كل جديد من اكتشافات القوم في بلادنا ، بل ويتسابق بعضهم للتتلمذ عليهم في دراسة هذا الفن وفتح معاهد وكليات خاصة به في شتى بلاد المسلمين !! ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ومنهم من يريد صرف المسلمين عن دينهم وإسلامهم، وهذه غاية من أولى غاياتهم، ولكن لايعني ذلك أن أهل مصر مثلا يدخلون في الفرعونية أو يعود أهل العراق إلى الأيام الآشورية وماكانوا فيه من الشرك بالله، وإنما يخرج من دينه وكفى ليصبح هدفا سهلا .

ولم يكن طرحهم قاصرا على إبراز تلك التماثيل والصور والحجارة التي أثرت بها عوامل التعرية عرضا مجردا أو الإكتفاء بتلفيق قصة حياة صاحب الصورة أو ما يرمز إليه ذلك الحجر أو تلك الصورة ، بل اتخذ أهل الذمة في دراساتهم الآثارية أسلوبا ماكرا خبيثا وهو تسليط الضوء على التقدم العلمي (ولو بتكلف) الذي أحرزته الأمم السابقة (كالفرعونية والآشورية وغيرهم)، وفي المقابل مدى التخلف العلمي والحضاري الذي يعيشه المسلمون بالمقارنة بما في أوروبا في العصر الحاضر، مع أنهم أصحاب دين صحيح وهو الإسلام ، وأولئك الفراعنة مثلا وثنيون ويتخذون غير الله أربابا ...

ويقصدون من ذلك تقديم شاهد ــ وخاصة للجيل المفتون ــ بالتقدم العلمي والحضارة الغربية واكتشافاتها حتى يعضد دعوتهم بأن التقدم المادي يتم تحقيقه في غياب العقيدة الصحيحة ، بل إن الدين هو سبب تخلف الشعوب التي تعيش في أرض الإسلام (٢)، وقد انطلت هذه الحيلة على بعض أبناء المسلمين خاصة وأنهم لايكادون يفيقون من غفلتهم وحقارة وسفاهة ما هم عليه حتى يشغلوهم باكتشاف جديد، ومقبرة جديدة، وصنم جديد، ليست في مراكز البحث العلمي ويطلع عليها الدارسون والمتخصصون والمهتمون بكل جديد في أبحاث الآثار، بل يشغل بالاكتشاف كل طبقات المجتمع حتى الأميين عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .. ويطعم بقدرات التقدم التكنولوجية والفنية .. وللأسف استطاعوا تحقيق قدر كبير من هذا الهدف ــ يتمثل بالكتابات والمقالات التي يكتب بأيدي مسلمة ــ وما هي إلا معاول مساعدة للخط الذي رسمه المستشرقون، وكذلك انعدام الكتابة الإسلامية المتميزة من متخصصين في هذا الفن يؤكد نجاح أعداء الإسلام في تحقيق غاياتهم التي من أجلها هجروا أوطانهم عشرات السنين باسم التنقيب عن الآثار (**دورنيس ــ**

---

(١) محمد قطب : واقعنا المعاصر ص ٢٠٢.

(٢) انظر د. جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت : المرجع السابق ص ١٨.

فيليبى ــ هورغرونية ..) الذين سنفصل الحديث عنهم في الكلام على غرض التجسس من أغراض البعثات العلمية ، والتعرف على طبائع الشعوب .

ثالثا : إبعاد مفهوم القرآن الكريم في التعرف على الآثار السابقة :

إن القرآن الكريم جاء بمفاهيم كثيرة عند تعرفنا على الآثار والغرض منها . وإبقاء الله تعالى لها في دعوتنا للتفكر فيها . كما سبق بيانه في مفهوم القرآن الكريم للآثار .

فمن مفاهيم القرآن الكريم : أن القصور الفارهة ، ونحت الجبال ، والآثار الشاهقة الدالة على مهارة صانعيها وقوتهم وبأسهم ، قرينة ظلم في المجتمع ، وإغترار من أفراده بما من الله عليهم من قوة، وذلك بقوله تعالى ﴿ **إرم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذي الأوتاد ، الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ،** ﴾ (١) فنجد الله ذكر عقب قوم عاد ومدينتهم ارم التي لا مثيل لها بين المدن (وهذا مقياس حضارة ورقي في مفهوم هذا العصر) ، وقوم ثمود وما أوتوه من قوة في جلب الصخور ونحتها ، وكذلك فرعون ذكروا بأنهم طغوا في البلاد فاتكروا فيها الفساد.

وهكذا في سائر تاريخ البشرية نجد أن مايسمى بالصروح الحضارية والمعالم الأثرية لا تنشأ إلا في دول الظلم والبعد عن منهج الله حتى في تاريخ المسلمين .

فمن الآثار التي خلفها المسلمون في مصر مثلا نجد أنها في عهد الدولة العبيدية، وآثار المسلمين في بلاد الأندلس بدات في عصور الضعف وانتشار المعاصي والمظالم وطغيان المال، وكذلك آثار المسلمين في الهند والشام والعراق .. كلها في عصور انحطاط المسلمين العقدي الفكري، أما عند غير المسلمين فالأمر أوضح وأظهر، فآثار الرومان (أعظم امبراطورية حكمت الأرض غير الإسلام) في كل البقاع التي حكمتها، من الأردن والشام عموما ، وشمال أفريقيا وأوروبا على اتساعها من أطغى دول الأرض ولم يعرف في تاريخ البشرية أمة مثلها استعبدت وأسترقت كل الشعوب التي كانت تحت أيديها . ونفس الوضع في آثار الفرس .

هذه الرؤية التي تكاد تنطمس عند المسلمين تحت تأثير الكتابات الغربية في تحويل مفهوم الآثار إلى مجرد الانبهار والدهشة والتأمل في بديع وإتقان صناعتها . ثم ماذا ؟ لاشيء يمشي إلى ما بعدها من مخلفات القوم ، بل إن هذه النظرة العامية الساذجة تحولت في أذهان العوام كما يقول الأستاذ **محمد قطب** :

" لقد كانت الآثار الفرعونية موجودة منذ آلاف السنين .. سرق منها ما سرق ونهب منها ما نهب .. وبقيت المعابد والهياكل الضخمة يزورها من يزور مصر ويعتبرها من

---

(١) سورة الفجر من آية ٧ ــ ١٢ .

"عجائب " الماضي السحيق ، يتسلى برؤيتها ، ويقف عندها ليأخذ العبرة .. ويمضى .. ويعود إلى بلاده ليصفها لمن لم يرها .. ثم يمضي الأمر كله بلا احتفال كبير (١).

وأما المسلمون من أهل مصر فقد كانوا يرونها دون شك ، ويعجبون من دقائق صنعها، ولكنها في حسهم أصنام وأوثان تركها قوم غابرون . انقطعت الصلة بينهم وبينهم ، بكون هؤلاء مسلمين وأولئك من عبدة الأوثان .

وكان هذا هو الحال في كل مكان في العالم الإسلامي سواء في جزيرة العرب أو بلاد الشام أو العراق أو غيرها من البلاد .. وظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام .. الناس في إسلامهم ، وهذه الآثار في الأرض ، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ ...

حتى جاء الصليبيون وجاسوا خلال الديار ونبشوا الأرض المسلمة لاستخراج حضارات ماقبل التاريخ ، لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء للإسلام (٢).

حينئذ تغير مفهوم المسلمين شيئا فشيئا، ذلك المفهوم الذي أخذوه من كتاب ربهم عن هذه الآثار إلى ما أملاه عليهم أعداؤهم . ومن ذلك أن نجعلها مزارات وأعيادا مكانية ، وتشد لها الرحال أقاصي الأرض . فقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول مدائن صالح إلا بشرط . وهو قوله " **لاتدخلوها إلا وأنتم تبكون** " (٣) ، وفي رواية للترمذي " **فإن لم تبكوا فتباكوا** " وعلل ذلك بأنها ديار الذين يعذبون ، وهذه العلة في مخلفات الفراعنة المصريين والرومان الوثنيين وغيرهم ممن جعل الله لنا بقايا بلدهم آية لاتخاذ العظة والعبرة لا أن نعظمها في نفوسنا ونجعلها شاهدا حضاريا لمن قبلنا ..

ولا يفوتني هنا أن أنبه على مفهوم خاطيء نحو مصطلح الحضارة وجعل صروح الآثار مقياسا لها ، بل على العكس فـ**أنها قرينة لعلو طبقة على أخرى وعبودية من الإنسان للإنسان** :

وهذا الأمر قد جاء الإسلام بنقضه وتحرير الإنسان من عبوديته للمخلوق إلى عبودية الخالق ـــ وهذه هي الحرية الحقيقية التي كفلها الاسلام .

* أما شواهد هذا المفهوم فيمكننا أن ندلل ببناء الأهرامات الشاهقة وحفر مقابر الفراعنة، أو من التاريخ العصري حفر قناة السويس باسم الفرنسيين على أيدي الشباب

---

(١) محمد قطب : واقعنا المعاصر : ص ٢٠٢.

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٣) رواه البخاري . كتاب الصلاة باب ٥١ ، الصلاة في موضع الخسف والعذاب .. بلفظ " عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها عليهم لايصيبكم ما أصابهم " . ورواه في كتاب الأنبياء باب ١٧ ، وفي أربعة مواضع أخرى ٣٣٨١ ـــ ٤٤١٩ ـــ ٤٤٢٠ ـــ ٤٧١٢ ترقيم عبد الباقي ، انظر فتح الباري ٦٣١/١ . ورواه مسلم في الزهد ٢٨، ٣٩ .

المسلمين ، فإن هذه الأعمال الحضارية تمت على حساب عبودية عشرات الألوف من البشـر لشخص أو عائلة أو جماعة أو شركة كالشركة الفرنسية صاحبة امتيـاز قنـاة السـويس . وبالطبع كان النظام السائد نظام الإقطاع وهو أقبح من الرق الذي يشنع عليه في الإسلام .

وأيضا هذه الأرقام الفلكية التي تنفق من أجل شهوة سلطان أو رغبة لزوجة ـ كيف لـو أنفقت وبذلت في سبيل الحضارة الحقة وهي تحرير الإنسان من عبوديته للمخلـوق بـإثراء فكره ونشر العلوم النافعة ، وتفقيه الناس وسد فاقتهم واحتياجاتهم من مأكل وملبس ومسـكن ونشرعقيدة صافية ـ هذه الأمور هي مقياس الحضارة والرقي عند المسلمين الأوائل، لذلـك نجد في عصور القوة للمسلمين يبرز معها العلم النافع بين أفـراد المجتمـع، وتفتـح فيـها المدارس على اختلاف تخصصاتها وتكثر فيها المؤلفات النافعة . وعلى العكس في عصـور الضعف والظلم والطغيان يبرز فن العمارة الإسلامية والزخرفة الإسلامية ، والقصور التـي يتفاخر أصحابها على أنها من عجائب الدنيا ، ثم تصنف بعد ذلك بما يسمى الآن بالآثـار. يجلي لنا هذه الحقيقة الخليفة الراشد **عمر بن عبد العزيز** حين تولى الخلافة نظر إلى مـافي الجامع الأموي بدمشق من زينة وزخارف، فعزم على إبطالها وقال :

" لقد هممت أن أعمد إلى تلك الفسيفساء، وذلك الرخام، فأقلعه وأجعل مكانـه طوبـا ، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالا ، وأنزل تلك البطائن(١) فأبع جميع ذلك وأدخله بيت المال ".

هذا المسجد مكث في بنائه احدى عشر سنة متوالية (طوال مدة خلافة الوليد) وكلـف ماكلف فقد جلب له البنائون من شتى بقاع الأرض حتى عدا يومنا هذا من أكـبر صـروح الآثار الإسلامية !! في دمشق بل في بلاد الشام . ولكن ثم ماذا ؟! رحم الله عمر بن عبـد العزيز . فقد أدرك حقيقة الحضارة التي يجعجع بها المستشرقون . وما هو مقياسها .

رابعا : طمس التوحيد في حياة البشر ومحاولة إقناع الناس أن الدين ثمرة التطور:

وهذا الهدف من أبرز الأهداف التي يستميت أهل الآثار في تقريره ومحاولة لي عنـق كل نص أثري حتى يوافق هذه القضية عندهم ، وبالمقابل طمس أي علم من المعالم الأثريـة يفهم منه دعوة الأنبياء أو الإيمان بالله وتوحيده .

ومن الجدير بالذكر أن هناك مؤلفات كاملة تبنت هذا الهدف وألفت من أجل ترسيخه بين المسلمين . وللأسف نالت من المسلمين العناية بالترجمة وتكرار الطبع .

---

(١) الستائر .

ومن أمثلة هذه المؤلفات :

ــ تطور الفكر الديني في مصر القديمة : تأليف **جيمس هنري بريستيد** ، تعريب زكــي سوس.

ــ مصر القديمة نشأتها وتطورها : تأليف **أدولف أرمن** تعريب عبد المنعم أبو بكـــر ، ومحمد أنور شكري .

ــ الحضارة السامية القديمة لــ **سوسكاني** .

ــ قصة الحضارة : **ول ديوارنت** . وهذا مشهور جدا بل يكاد يكون موضع ثقة الكثـــير من الدارسين لما يظهره من ثناء مسموم على الإسلام أو الرسول صلى الله عليه وسلم (١).

ومسألة أن الله خلق البشر مفطورين على توحيده مسألة لاخلاف فيها عنـــد المســلمين والأدلة من فضل الله واضحة وصريحة في هذه المسالة ، ﴿ **فطرة الله التي فطـــر النـــاس عليها لا تبديل لخلق الله** ﴾(٢)،﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشـــهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غـافلين** ﴾ (٣)، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديـــث القدســـي " **خلقـــت عبـــادي حنفـــاء فاجتالتهم الشياطين** " (٤) .

وكان الله يرسل بين الفترة والأخرى عند غفلة الناس عن توحيد الله وانحرافـــهم عـــن منهج الإسلام من يدعوهم إلى التوحيد الخالص ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (٥) ، رسلا وأنبياء يوحي إليهم من الله الهداية البشرية . هذا ماجاء القرآن الكريم بتقريره ودلـــت عليه قرائن كثيرة من مخلفات الأمم السابقة وما فهم من كتابات على آثارهم ، ولو أنصـــف خبراء الآثار لشهدوا هذه الحقائق ، مثل دراسته للقصة التي يسمونها **جلجاش و أبجيدو** التـي تضمن قصة الطوفان وخطوطها الرئيسية كالتالي :

إن شخصا أهل لحمل الرسالة يعيش في مدينة على ضفاف الفرات يتلقى الأمر مـن الله لبناء السفينة وتحميلها من كل أنواع الكائنات الحية ، لأن الله غير راض عن تصرفات أهـل المدينة وشيوخها ثم اكتمل البناء وحمل الرسول سفينته من كل زوجيـــن اثنيـــن فأرســل الله أوامره إلى السماء فأمطرت وإلى الأرض فتفجرت بالعيون ونسفت الجبال وهلك الناس ..(٦)

---

(١) جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت : علم الآثار : ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة الروم آية ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٤) رواه مسلم ــ باب ٦٣ ، احمد في المسند ١٦٠٤ .

(٥) الأعراف آية ٥٩ ، سورة هود وغيرها .

(٦) علم الآثار : المرجع السابق ص ٢٦.

فحينما تعرف علماء الآثار على هذه القصة وغيرها من دراسات أثرية تثبت حدوث فيضان كالح شمل بلاد العراق القديم، مع هذا لم يكلفوا أنفسهم ربط هذه القصة بما ورد من تفصيل واضح وجلي لها في القرآن الكريم .

* كذلك من الشواهد الأثرية التي حاول ولايزال علماء الآثار طمس حقيقتها :

مصارع قوم صالح وهي في الأصل مساكنهم حقيقة قائمة ، لم ينقطع التذكير بها والتنبيه إلى الأحداث التي يرويها كل داعية إلى الله على مدار تاريخ البشرية بما في ذلك رسل الله الكرام بعد صالح عليه السلام، فالقرآن يروي لنا ذلك على لسان شعيب عليه السلام ، وهو يدعو قومه إلى عبادة الله وحده دون شريك ، وألا ينقصوا الكيل والميزان ، ولئلا يحيق بهم عذاب يوم محيط مثلما حاق بقوم صالح أو قوم نوح أو قوم هود أو لوط .

﴿ ويا قوم لايجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وماقوم لوط منكم بعيد ﴾ (١).

(ولقد حاول علماء الآثار غير المسلمين طمس وجه الحق الذي تعكسه آثار مدائن صالح ، وقالوا مدائن صالح ليست إلا بناية كانت تستعمل للدفن . وذلك لكي ينفوا عنها صفة المساكن التي أخبر بها القرآن الكريم والحديث . كما قالوا إن الذين سكنوا هذا المكان ليسوا ثمود الذين استخلفهم الله بعد عاد، إنما هم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ، كما قالوا إنهم وبقايا العماليق أتوا إلى ذلك المكان من الفرات ، أو بقايا فلول الهكسوس طردوا من مصر)(٢).

وجملة هذه التخمينات والشكوك محاولة تستهدف زعزعة الحقيقة التي أخبر بها القرآن الكريم **﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا آلاء الله ولاتعثوا في الأرض مفسدين ﴾** (٣) .

هذا هو موقف علماء الآثار من هذه الواقعة وفي كل واقعة لايمكن أن يربط شيء من فناء أمة ، أو زوال حضارة ببعدها عن الله ، أو عذاب شامل لحقها من السماء ، أو أي معلم من معالم الدين !! بل يحاولون إقناع الناس أن الدين ثمرة التطور، وأثر من الآثار الاقتصادية أو الاجتماعية خاضعة للعادات والتقاليد . ومن ذلك جاء خبث بعضهم بإطلاق اسم " **التراث الإنساني** " على كل الديانات السماوية وما فيها من كتب تنسب إلى الله تعالى أو حتى كلام الله القرآن الكريم فيقولون : التراث الإغريقي ، التراث البيزنطي ، التراث المسيحي ، و التراث الإسلامي ويقصدون به كلام الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) سورة هود آية ٩ .

(٢) علم الآثار : المرجع السابق ص ٦١.

(٣) سورة الأعراف آية ٧٤.

وقد ولج أعداء الإسلام من أهل الذمة أو تلاميذهم من المسلمين إلى زعزعة كثير من الثوابت الإسلامية تحت غطاء اسم التراث . لأن المنهج النقدي يسري على كل التراث الإنساني ، وبالتالي يسري على القرآن والسنة (الوحي) بوصفهما تراثا إنسانيا . وفي ذلك يقول صاحب كتاب " **الغارة على التراث الإسلامي** " (لقد وجد من يتحدث عن (التراث) ليس بوصفه الفعل الإنساني المتعاطى في مرجعية الإسلام ، وإنما بوصفه هو الإسلام ذاته ، هو البديل عن الإسلام ، وأصبح المسلم المعاصر يواجه الحديث عن القرآن والسنة ــ الوحي ــ بوصفها (تراثا إنسانيا) وبالتالي يكون المنهج النقدي الذي يسري على التراث الإنساني يسري عليهما ، ونتج عن ذلك محاولات تتناول النص القرآني كوثيقة تاريخية قد لا تثبت علميا ــ **طه حسين** على سبيل المثال ــ ومحاولات أخرى للتعامل مع النص القرآني كنوع من فنون النص ومحاولة بكر في الفن الروائي ، بما يميل إلى الخيال واللاواقع ونحو ذلك ــ **محمد أحمد خلف الله** ــ كما وجدت محاولات للتعامل مع الوحي بوصفه نصوصا أيديولوجية تقبل النقد من خلال سياقها التاريخي الاجتماعي ــ **محمد أركون** ــ على سبيل المثال .

وغني عن البيان ما تحمله هذه المحاولات من مخاطر على هوية المسلم من حيث أنها تطعن في صلب هويته، وعمادها وقطبها المحوري ، ألا وهي عقيدته الإسلامية ، مع ملاحظة أن هذه المحاولات (الاجتهادية) توضع تحت وصف الدراسات التراثية ، ومن ثم يطلق على معظم أصحابها وصف (**المفكر الإسلامي**)، وكل ذلك من أوله إلى آخره إربالك للعقل المسلم ، أو سحب له إلى مسالك التيه والضلال ، إلى الحد الذي يدفعه لليأس من البحث عن (هويته) أي عقيدته (١).

هذا المفهوم في الربط بين الهوية والتراث مدخل للتضليل من جانب آخر ، لأنك إذا نزعت الأصل البارز والقطب المبهر الممثل لهوية الإنسان المسلم أو الأمة المسلمة ــ أعني الإسلام ــ واستبدلته بمصطلح جديد لايزال خاضعا للتنازع في تحديد ماهيته ــ أعني التراث ــ فقد فتحت الباب لإدخال الحديث عن الديانات السابقة للإسلام ، حتى الوثنيين منها ، بوصفه جزء من هوية الأمة المسلمة ، فالآشورية ، والفارسية ، والفرعونية ، والفينيقية تصبح أجزاء لاتتجزأ من (هوية) المسلم وانتمائه التاريخي ، وسوف لن يعدم صاحب هذا الرأي شاهدا من شجرة !! أو (كعكة العيد) أو رسم (فنجان القهوة) كلها شواهد أنقلها عن أصحابها وليست من عندي (والكلام لـ جمال سلطان) ! لكي يخلص بأن هذا التراث الجاهلي الوثني حي في الواقع ، وبالتالي فهو جزء من الهوية الإنسانية للفرد وللمجتمع !! إلى الحد الذي يقول فيه باحث أكاديمي وميداني مصري كبير ، وهو الدكتور **سيد عويس**

(١) جمال سلطان : الغارة على التراث الإسلامي ص ٣٧ . ط برمنجهام لندن ــ مركز الدراسات الإسلامية .

أناأرى نفسي وثنيا في بعض تصرفاتي ، ونحن المسلمين المصريين في الواقع وثنيون ومسيحيون ومسلمون في وقت واحد ومن دلائله على ذلك قوله : أنا أعتبر نفسي كمصري في ضوء أنماط سلوك وثني ، ويتمثل ذلك عمليا في قيام ربة البيت بنقش قرص الشمس على الكعك !! (١) .

هذا نتاج علم الآثار ومصطلح التراث على مفكري الإسلام فضلا عن عوامهم ..!

خامسا : التهوين من خطورة الصور والتماثيل وآثارها على عقيدة المسلم :

لايخفى حكم التماثيل والتصاوير على مسلم قرأ ماورد في السنة الصحيحة بشأنها والوعيد الشديد في حق من صور تلك التصاوير وموقف المسلم منها، حتى أن بعض العلماء اختلفوا في صناعة التماثيل والتصاوير هل يعد شركا أم أنه من الكبائر ، والمحققون على الأخيرة . ويكفي المصورين شؤما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حقهم "**أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون** " (٢) . هذه الحقيقة التي كانت واضحة عند سلف هذه الأمة ولم تكن لتقبل النقاش، ولكن المشكلة والتفكير فقط في إزالتها ولمن يكون وكيف .. أقول هذه الحقيقة سعى خبراء الآثار والمهتمون بها إلى زحزحتها من قلوب المسلمين . بدء بالتشكيك والتهاون في شأن التصاوير وانتهاء بتعظيمها والرهبة لها وعندها، وذلك بسلوكهم ونهجهم نحوها عدة أمور :

أولا : تعظيم شأن الأصنام من منحوتات على الصخر أو الخشب أو مصنوعة من الذهب أو الطين .. أو ....وإبهار المشاهد لها وانبهاره بها ، وجعله يقف عندها ويتفكر لا بمنازعة الله حق من حقوقه سبحانه ومضاهاة خلقه له، بل في جمالها وعظمتها ، وكثيرا ماتعرض هذه الصور والتماثيل بشكل مكثف ويراعى فيه العنصر الجمالي الذي ينسي المشاهد قبح هذا الفعل وخطورته على المسلم، ولقد تحول حس المسلم وقلبه عند مشاهدتها من استهجانها والبراءة منها ومن أفعال الذين لايعلمون ، ويتمنى أن لوكان له من الأمر شيء، لحطمها وساواها بالأرض كما هو واجب على كل مسلم : " **أن لاتدع صورة إلا طمستها** " (٣)، ويؤجر على فعله ذلك امتثالا .. فانقلبت الصورة إلى الانبهار بها والتفكر في مهارة صناعها ومدى التطور الذي بلغوه في فن النحت والنقش والتصوير ، ومدى مطابقة الأصل للصورة !! واعتبار ذلك فنا من الفنون !

وحتى ترسخ هذه الصورة المقلوبة عند المسلمين، سعى علماء الآثار إلى عرض نقوشهم الأثرية المشتملة على الأصنام بكثافة مريبة تأخذ بلب المشاهد .. مما يعيد ذكريات

---

(١) انظر المرجع السابق : جمال سلطان ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) سيأتي تخريجه في ذكر الأدلة في الصفحة التالية .

(٣) سيأتي تخريجه في ذكر الأدلة في الصفحة التالية .

عبادة الأوثان ، ولاينتهي معرض لعرض هذه الصور وأعمال الفنانين والفنانات الذي يفتتحه كبار المسئولين إلا ويبدأ في الاستعداد للمعرض الثاني والثالث وهكذا دواليك ...

ناهيك عما تتناقله وكالات الأنباء من الأثمان الخيالية لتلك اللوحات التي يعرض بالمزاد العلني في المعارض الدولية ، ويتسابق الذين لاخلاق لهم في المزايدة في أثمانها مهما بلغت للحصول عليها .

والآن نشير إلى بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في النهي عن النحت وتصوير ذوات الأرواح لما في ذلك من مضاهاة خلق الله تعالى ، ولأنه وسيلة من أكبر وسائل الشرك ، وما كانت عبادة الأوثان أول ما عبدت من دون الله على وجه الأرض من قوم نوح إلابسبب تعظيم الصور وتزيين الشيطان لأتباع أولئك الصالحين حتى اتخذوا لهم تلك الصور لتذكرهم بهم وتعينهم على الاقتداء بهم في الصلاح والعبادة ، ولايزال الشيطان بهم حتى عبدوها من دون الله تعالى ، فجاء الإسلام بتحريمها سدا لذريعة الشرك وحماية لجناب التوحيد .

أحاديث التصوير والمصورين والحكمة من تحريمها :

١ــ روى البخاري عن ابن مسعود رضي لله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **إن شر الناس عذابا يوم القيامة المصورون** " (١) .

٢ــ وفي الصحيح من حديث عائشة مرفوعا " **أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله** " (٢) .

٣ــ ومن حديث ابن عمر مرفوعا " **إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم أحيوا ماخلقتم** " (٣) .

٤ــ ومن حديث عبد الله بن عباس رضي لله عنهما قال : سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يقول : " **من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ** " (٤) رواه البخاري والترمذي والنسائي .

---

(١) البخاري ١٠ / ٣٢١ ، ٣٢٢ في اللباس باب عذاب المصورين يوم القيامة . ومسلم رقم ١٠٩ في اللباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

(٢) مسلم كتاب اللباس رقم ٩٢ ، المسند للإمام أحمد ٦ / ٣٦.

(٣) النسائي ٢١٥/٨ ، المسند ١ / ٢٤١.

(٤) البخاري ٣٧٤/١٢ ، ٣٧٥ في التعبير باب من كذب في حلمه ، والترمذي رقم ١٧٥١ في اللباس باب ماجاء في المصورين، النسائي ٢٥١/٨ في الزينة بأن ذكرها يكلف أصحاب الصور يوم القيامة .

٥ـ وصح عنه مرفوعا أنه قال : " **إن الملائكة لاتدخل بيتا فيه صورة** " (١) .

٦ـ وروى الأمام أحمد من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " **أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنا إلا كسره ، ولاصورة إلا لطخها ، أي طمسها ....** " الحديث .

٧ـ وللنسائي عن أبي الهياج قال : قال لي علي " ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : " **أن لاتدع صورة إلا طمستها ولاقبرا مشرفا إلا سويته** " (٢) .

والحكمة من النهي مطلقا عن التصوير على اختلاف أشكاله :

أ ـ حماية جناب التوحيد مما يقدح به أو يزيله أيضا مثل التصاوير .

ب ـ إن وصول الشرك إلى بني آدم كان عن طريق تعظيم الصور والاهتمام بها كما هو معروف .

سادسا : التجسس في بلاد المسلمين وعلى شعوبهم ومعرفة طبائع مجتمعاتهم :

إن من آلات الحرب وإعداد العدة التي احتاج لها أعداء الأمة في مواجهتها الجاسوسية على اختلاف أغراضها وأهدافها ورأوا أن أفضل وسيلة للتسلل إلى قلب العالم الإسلامي والتحرك بكل سهولة في أزقته وبين شعبه والتعرف عن قرب لحالة الناس وطبيعة البلاد وأرضها وقدراتها وهي تتقمص دور خبراء الآثار وحملات التنقيب عن الآثار، وقد ذكر لنا التاريخ المعاصر حوادث وأسماء ونماذج لهذه العينات والدور الذي قامت به ـ بدءا بمواقفهم مع السلطان **عبد الحميد** إلى أيامنا هذه !!

ومن الأمثلة على ذلك ماجاء تحت عنوان " **التجسس لاكتشاف البترول عن طريق الأبحاث الأثرية** " في مذكرات السلطان **عبد الحميد** عند **محمد حرب** في ترجمتها حيث يقول: " ذكرت أنى أعطيت الألمان خط سكة حديد بغداد ، وذلك لكي أجر الإنجليز إلى الاتفاق الذي أرضى عنه ، ولهذا قصة أخرى أعرضها هنا :

(لما قال الروس لا للاقتراح الإنجليزي الرامي إلى تقسيم دولتنا ، بدأ الإنجليز يتقربون مني بشكل لم أستطع في البداية فهمه ، وإن استطعت معرفته بعد مرور أشهر .

فذات يوم قابلني السفير الإنجليزي ، وتحدث طويلا في أن الأناضول وسوريا ، والحجاز تعد مهد أعظم حضارات في التاريخ . وسألني إن كنت فكرت في مشروع للتنقيب عن الآثار في هذه المناطق فربما يمكن العثور على كنوز لو قامت مشاريع للتنقيب عن هذه

---

(١) البخاري ١٠ / ٣١٥ ، ٣٢٧ في اللباس باب ماوطىء من التصاوير ، وباب من لم يدخل بيتا فيه صورة .

(٢) رواه النسائي ـ كتاب الجنائز ٩٩ .

الآثار هناك، هذا وأن التماثيل الصغيرة والقلل والأواني المكسورة العتيقة والنقود القديمة التي ستخرج من تحت الأرض لها قيمة الكنز والنظر فيها ربما يكون من شأنه تغيير التاريخ وسيمكن بواسطتها الحصول على معلومات قيمة كثيرة ،وبعد أن قال إن قراءة الخط المصري القديم قدم للحضارة العالمية مكسبا عظيما جدا أضاف قائلا : إن الدولة العثمانية لو وجدت أن عمليات التنقيب عن الآثار في هذه المناطق تكلفها الكثير فإن الحكومة الإنجليزية مستعدة لتقديم مختلف المعونات بكل سرور. وسترسل رجالها على وجه السرعة وسيبدأون في الحفر وستصرف لهم الحكومة الإنجليزية مصاريفهم، وفوق هذا فإن مايعثرون عليه من الآثار التاريخية هناك سيتركونه لنا دون مقابل .

ولما كان هدفي إقامة علاقات وطيدة مع إنجلترا ولم أكن أعرف ماينطوي تحت هذا الاقتراح قبل، استدعيت الصدر الأعظم **خليل رفعت** باشا على الفور وشرحت له الاقتراحات الإنجليزية ونبهت عليه بمتابعة أعمال هذه الوفود القادمة ، والحقيقة أن الإنجليز أرسلوا مجموعة من علمائهم إلى استنبول دونما تأجيل كثير، قابلتهم جميعا في لقاء عام معهم وتمنيت لهم النجاح وأقمت لإكرامهم في ذلك المساء مأدبة عشاء دعوت إليها أيضا سفراء الدول الأخرى وكان يبدو على السفير الروسي بشكل خاص وبوضوح أنه غير ممتن من هذا التصريح، كان (**انجاتيف**) يسمع باهتمام وهو يبتسم حديثي عندما قلت إن الإنجليز طلبوا السماح لهم بالتنقيب عن الآثار خدمة للتاريخ والحضارة .

وبدأ فريق من العلماء تنقيبهم في (قيصرية)، وفريق آخر في (الموصل)، وفريق في نقطة قريب من بغداد، وكانوا ينقبون بمساعدة العمال المحليين، وكنا أيضا قادرين على متابعة أعمالهم ولم يظهر شيء من هذه الحفريات غير بضعة أواني مكسورة وقلل وتماثيل صغيرة وتوابيت ومقابر، وسلمنا الإنجليز هذه الأشياء حتى النقود النحاسية القديمة .

كان السفير الإنجليزي يطلب كثيرا مقابلتي والتردد علي للإدلاء بمعلومات عن هذه الحفريات، وكنا نتحدث وكنت أقدر جميع هذه الفرص وكنت أمهد الأرض للاتفاق الذي فكرت في عمله، كنت أريد ألا أقدم أنا هذا الاقتراح، ولكن كنت أريد أن يقدمه الإنجليز بأنفسهم إلي ، وبذلك يكون اقتراحهم هم، وإذا وجدته مناسبا وافقت عليه وإن لم أجده كذلك كنت سأرفضه وهكذا كنت أحاول اقتطاف الأفضل .

حدث في هذه الأثناء شيء لم أستطع فهمه أيضا . جاءني السفير الإنجليزي ذات يوم وهو متحمس وقدم لي سيفا مرصعا عثر عليه في إحدى الحفريات بجانب الموصل كان السيف مكسورا ، لكن يده كانت مرصعة بكثير من الأحجار الكريمة .

وقال السفير : إن هذا السيف سقط على الأرض أثناء إحدى الزلازل فذهب جزء منه إلى أعماق بعيدة وعثر على الجزء المتبقي ضمن الحفريات، شكرت السفير وأنعمت عليه ولكن لم يكن لدي مخابراتي علم عن سيف كهذا .

إذن فتفسير الأمر عل شكلين : الأول : أن مخابراتنا لم تعرف بهذا الخبر، والثاني : أن السفير ربما لعب على لعبة لا أعرفها . عرضت السيف على بعض التجار من السوق والذين يفهمون في هذه المسائل . قالوا إن هذا السيف ليس قديما ولكن أدخلت عليه بعض الحيل ليبدو كأنه قديم .

إزداد اهتمامي جدا بالأمر ، لكني لم أبح لأحد بشيء ، ثم علمت من الأخبار التي تروى إلى أن بعثتي التنقيب عن الآثار في الموصل وبغداد، تركا أعمالهم على وجه الأرض وبدأتا تحفران آبارا .

في ذلك الوقت وضحت أهدافهم . كانوا يريدون مني أن أصدقهم، وهكذا كانوا يريدون أن يحصلوا على إمكانية العمل براحة أكثر . وهذا السيف الذي قدم لي على أنه قديم ومزين بالأحجار الكريمة كان من أجل أن تزيد ثقتي بهم، ولم يكن مايبحثون عنه أواني مكسورة أو تماثيل وإنما كان البترول .

كنت أعرف من قبل أنه من أجل العثور على البترول في الأفلاق (رومانيا) تفتح الآبار، وعن طريقهما يبحثون عنه بعد فترة، جاءني السفير الإنجليزي بحجة أن يقول لي خبرا آخر . قال لي : إن قسما كبيرا من أراضي سوريا والحجاز عبارة عن صحراء والمعاناة شديدة في هذه الأماكن من العطش ، لعدم وجود الماء ولهذا السبب فإنه يتعذر تعمير هذه المناطق، ولذا فإن الحكومة الإنجليزية إذا أصدرت موافقتي ـ مستعدة باسم الإنسانية ـ أن تفتح آبارا هناك، ولكن لهذا شرط إذا تم العثور على الماء وتكونت واحة فإنهم سيتركون استخدام الماء الذي سيخرج للأهالي ولكنه في هذه الحال يصبحون أصحاب الماء.

إن الاتفاق ذاته لايسير كما أريد .

رفضت الاقتراح ولم أكتف بهذا، بل أغلقت رسميا الآبار التي فتحوها بالموصل وبغداد، تأثر الإنجليز أبلغ الأثر بهذا ، وغضبوا ، وتركوا الآبار كما هي، ولكنهم بدأوا يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة متخذين من **جمال الدين الأفغاني** وسيلة لمآربهم، وكانوا يريدون الوصول إلى غاياتهم باحتواء أمير الحجاز، وفي مقابل هذا قمت بإرسال قافلة من الدراويش كبيرة نوعا ما إلى مسلمي الهند وقابل الإنجليز هذا بإثارة نكبة كريت، وذهبوا لأكثر من هذا بأن حاولوا إقناع روسيا وفرنسا بإسقاطي من على العرش ورفض الروس

بلهجة حادة هذا الاقتراح الإنجليزي لأن إنجلترا كانت ترتب في روسيا حركات تمرد لإجبار القيصرعلى قبول الحكم الدستوري كما فعلت تماما مع الدولة العثمانية) (١) .

*** ومن أشهر النماذج والشواهد على استغلال أهل الذمة علم الآثار للجاسوسية :**

" **كرستيان سنوك هورفونيد** " : وهو أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وأندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين، وقد عد عميد العربية بعد **كولدز** في طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوروبا، وكان لهوفرونيد أثرا بالغا على الاستشراق عموما والهولندي خاصة، وترك فيه عمقا وطموحا في محاكاته وتقليده من المستشرقين المتأخرين في نشاطاته التنكرية .

ولد " **كريستيان سنوك هورغرونيه** " لأب قسيس في سنة ١٢٧٣هـ ــ ١٨٥٧م، ودرس اللاهوت على أستاذ التوارة **كونن** ثم بدأ دراسته للعربية والإسلام على **دي خويه** وتخرج عليه في رسالته عن الحج إلى **مكة** في سنة ١٢٩٧هـ ــ١٨٨٠م .

وبعد انتهاء المؤتمر الاستشراقي بسنة سافر " سنوك هروغرونيه " بصحبة القنصل الهولندي " **كراوت** " إلى جدة .. ومن ثم إظهاره الإسلام ودخوله إلى مكة المكرمة .

والثابت تاريخيا أن **سنوك** أظهر الإسلام على رؤوس الملأ والشهود احتيالا، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ومن ثم في أندونيسيا طيلة حياته .

إن **سنوك هورغرونيه** كان بارعا في تمثيل الدور على زوجته وأولاده كبراعته في تمثيل الدور على الكثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم .

مكث **سنوك** ستة أشهر ونصف في مكة باسم " **عبد الغفار** " وصار يختلف إلى مجالس العلماء وشيوخ التعليم، فوطد علاقاته بالكثير من علماء مكة وبالكثير من علماء (جاوة) و(سومطرة) و(اتشيه) ، وخاصة شيخ مكة ومفتيها " **أحمد بن زيني دحلان** " ولعل هذا الشيخ قد أجازه أو زوده برسالة توصية لتتم بها خطة سنوك هورغرونيه في فتح السبل أمامه في أندونيسيا وخاصة إقليم (اتشيه) الذي كان ثائرا على الحكم الهولندي وقنع أخيرا براتب محترم يتقاضاه من القنصلية الهولندية في جدة مدة حياته . وليس عجبا أن يسمي المسلمون في (اتشيه) **حبيب الرحمن الظاهر هذا وسنوك هورغورنيه بـ**" الخونة " حتى يومنا هذا ، لما قاما به الأول من أدوار خيانية جاسوسية، والثاني عمالته للاستعمار الهولندي

ويبدو أن كاتب الرسالة التي بشأن سنوك فضحا له كان يعرف أن اتهام سنوك كان بسبب النقوش . لقد كان في الجزيرة العربية رجلان أجنبيان أحدهما **هوبر** الفرنسي والآخر كان ألمانيا وهو **أووتينك** الذي اتخذ حينذاك اسم **عبد الوهاب**، وقد كان الفرنسي يبحث عن نقوش أثرية ليفوز بمجد " اكتشافي " كما فاز " **شامبليون** " من قبل، وحدث أن أحد أدلاء

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة د . محمد حرب .

هذا الفرنسي قتله . والسبب حسب المفهوم الأوروبي لسلب أمواله ومتاعه . دار شك من الفرنسيين أن هورغرونيه له يدا في القتل للحصول على نقوشه، وظهر هذا الاتهام في جريدة Le Temps **الزمان الفرنسية**، وفيها ظهر أن هناك هولنديا تحت اسم **عبد الغفار** يحاول الحصول على نقوش أثرية . وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بإبعاد هوفرونيد دون أن تخبر واليها بالسبب، وقد نشر هورفرونيد قصة تحت عنوان " رحلتي إلى الجزيرة العربية " سنة ١٣٠٢هـ ــ ١٨٨٥ م يحكي فيها غفلة الحاكم التركي وشريف مكة ، وغفلة الكثير من العلماء الذين لم يشكوا أن هورفرونيد جاء إلى مكة كأي مسلم يطلب العلم والحج. والحديث عن مشاهد هذا المستشرق واستمراره في طريق التنكر تطول وتزداد غرابة !! خاصة في العلاقات القوية التي استطاع أن يربطها مع وجهاء البلد بل وعلمائها(١).

وهذه مقاطع من نماذج المراسلات التي كانت بينه وبين أهل جاوة أو مكة :

(في رسالة أرسلها **محمد بن صالح بن عمر بن سمارنج** مؤرخة في ١٣١٠هـ ــ ١٠ نوفمير ١٨٩٣م يطالب منه التدخل في إصلاح ذات البين كفريقين حول مسجد، نرجوكم المعونة والإعانة على الإسلام ..و... وأنتم ياأخي لايخفى عليكم الأجر في الدنيا والأخرة ، نرجو الإصلاح في أمور المسلمين) .

وفي رسالة أخرى في ١٣١٥هـ ــ ١٨٩٨م من **بندر شربيوت** (إلى جناب المكرم المحترم الفاضل شيخ الإسلام في الجهة الجاوية الحاجي **عبد الغفار** متع الله بحياته آمين) .

ومن المراسلات بينه وبين صديقه الحميم **عثمان بن عبدالله بن عطيل العلوي** حول مثوى المسجد .

وبعد أن أيد رأيه بعدم شرعية الصلاة بالمسجد الجديد بالرغم من فتوى العلماء في مكة بجوارها معتمدا على فتوى صديقه **عثمان العلوي** بنص شيخ الاسلام ومفتي **بنافيا** الشيخ سنوك هورفونيد فتواه بالتوصية :

بـ " أن هذا **البنكولو** (العالم ومؤيد المسجد الجديد) كما يظهر يستحق التعنيف الصارم(٢).

وقد نجح سنوك هوغرونيه بالسماح لجماعة الأحمدية القاديانية بالعمل في أندونيسيا لأنها جماعة لاخطر منها سياسيا (٣) ، بل هي ربيبة الاستعمار الإنجليزي ومن صنع أيديهم .

---

(١) انظر تفصيل هذه النبذة عن هذا المستشرق لـ : السامرائي ــ الاستشراق بين الموضوعية والإفتعالية ص ١٠٤ ــ ١١٢ .

(٢) انظر قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والإنفعالية ص ١٦٣ .

(٣) د . جميل المصري : حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص٥٦٧ .

آراء ونتائج إقامة هوغرونيه قرابة سبعة عشر عاما تحت ستارات مختلفـــة باسـم الإسلام تارة ، أو البحث عن النقوش أخرى . وتعرفه على طبائع الشعوب خلال تلك الفترة مما أثمر له ولإسلامه النتائج والتوجيهات التالية :(١)

١ـــ العمل على الحد من انتشار الإسلام . فاقترح سنوك وضـــع حـــد لتعييـــن المـــأمورين المسلمين في البلدان التي أهلها وثنيون حتى لاتساعد الدولة على نشر الإســـلام بينـــهم بدون قصد منها، وهو ما وقع فيه الألمان بشرق إفريقية في مستعمراتهم .

٢ـــ نصح بإعطاء الحرية الدينية وعدم التعرض للمسلمين في عقائدهم جهارا خوفـــا مـــن الانتفاض والاضطراب . ولكن التعرض يكون بحذر وحيطة وخفية لا مجاهرة . وذلـك أنه كان في هولندة حزبا ممالئا لجمعيات التبشير يحث الحكومة أن تحمل المسلمين على النصرانية قسرا ، فبين هورغرونيه ما في ذلك من المخاطر .

٣ـــ كما نصح الحكومة أن لاتقيم العقبات في طريـــق الحـــج لاسـيما أن مسـلمي جـاوة وسومطرة هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن ، وذلك ردا على بعض النـــواب الهولنديين الذين يدفعون الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله . فيقـــول: " علـــى الحكومة أن تسلك سبيلا وسطا فلا تحث على فريضة إسلامية ولاتنهى عنها كما فعلـت في الزكاة، فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحدا ولا تمنعها " .

٤ـــ من ناحية القضاء : ذهب إلى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الإســـلامية ، بـــل ينبغي حمل المسلمين على القوانين الهولندية إلا مايتعلق بالأحوال الشـــخصية كالنكـــاح والطلاق والميراث .

٥ـــ من ناحية السياسة الدولية : ينبه جهارا وبدون محاباة إلى قطع كل علاقة سياسية بيـــن الجاويين وسائر الحكومات الإسلامية ، وخاصة دولة الخلافة العثمانية التي يقول عنها : (الخلافة ليست كالبابوية لا شأن لها في السياسة، بل هي رئاســـة سياســـية مـــن أراد الاعتصام بها من المسلمين لا تمكنه طاعة حكومة مسيحية) . بل يذهب إلى أكثر مـــن ذلك فيقول : على هولندة منع قناصل تركيا وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كـــانت مع الأهالي . بل والأغرب أنه ينصح !! بمنع الاشتراك في الإعانـــات لسـكة حديـد الحجاز وعدم إباحة أية إعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الأتـــراك وأيتامهم ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعـــة، وعلـــى مراقبة التعليم الديني حتى لايقع فيه شيء من الدعوة إلى الاتحاد الإســـلامي، ويطلـــب حذف باب الجهاد من الشريعة .

---

(١) د. جميل المصري : حاضر العالم الإسلامي ج٢،ص٥٦٦ ـــ ٥٦٩ ط الجامعة الإسلامية .

٦- يوصى الدولة الهولندية بالحد من هجرة الحضارمة إلى أندونيسيا خوفاً أن ينشروا الدعوة الإسلامية ويوصى بوضع الحواجز أمام من في أندونيسيا منهم ومراقبة حركاتهم وسكناتهم ، وتنغيص حياتهم لحملهم على ترك تلك الديار .

٧- دعا إلى أن تكون هناك علاقة عاطفية قوية بين الشعب الأندونيسي وهولندا تناقض نزعة الصلة بالعرب والإسلام . ومن الخطوات العملية لتحقيق هذا الهدف :

أ - عمدت هولندا إلى اللغة فأخذت تحول دون قيام لغة موحدة فضلاً عن انتشار العربية.

ب - محاولة نشر اللغة الهولندية وجعلها أساس التعليم في المدارس في المراحل الأولى.

ج - عملت على إبقاء تعدد اللهجات لكي لايكون أي رابط يساعد على توحيد شمل هذا الشعب الكبير .

ولما نجحت الحركة الإسلامية في أن تعرض اللغة الأندونيسية (باهاساهندونيسيا) بدلا من ٢٥ لغة كان يتخاطب بها السكان وتتشعب إلى ٢٥٠ لهجة محلية وكانت تكتب بحروف العربية ، عملت هولندة إلى تحويلها إلى الحروف اللاتينية في أوائل القرن العشرين (١).

٨ - تشجيع الحركات الإلحادية والهدامة كالتيار الشيوعي الماركسي باعتباره كفيلاً ببث الإلحاد بين صفوف الأهالي ونشر الفساد بينهم، وهذا بدوره يشغل المسلمين ويدعوهم لمقاومته بضراوة ، مما يغفلهم عن مقاومة الاستعمار الهولندي ومؤسساته المختلفة(٢).

٩- كذلك منحت هولنده الباب للأحمدية القاديانية المنحرفين عن الإسلام وهيأت لدعاة هاتين الملتين أفضل الظروف بافتتاح مركز للقاديانية في البلاد، اندفع المسلمون يقاومون هذا التيار وانشغلوا في مجادلاته عن مقاومة الاحتلال .

١٠- قامت السياسة الهولندية تحت توجيه خبرائها (أمثال هورفورنيد) على الاتجاه للدعوة إلى إحياء تاريخ امبراطورية ماجابا هيت الوثنية القديمة والمغالاة في تقدير هذا التاريخ، ومحاولة اتخاذه مثلاً أعلى في الدولة بواسطة علماء الآثار وعلماء اللغات القديمة (وهذا أمر سعى إليه هورفورنيد في زيارته للجزيرة العربية ولعله للأغراض نفسها) .

فعملت هولندة على صبغ الجامعة الأندونيسية بصبغة قومية خالصة (٣) لإخراجها من جوهرها الإسلامي وطبعها بروح إقليمية ووثنية قديمة .

---

(١) أنور الجندي : العالم الإسلامي ص ١٤٠ – ٣٠٠.

(٢) محمود شاكر : أندونيسيا ص ٤٨.

(٣) د .جميل المصري :حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص ٥٦٦ – ٥٦٩.

هذا الهدف لم يكن خاصاً بالمستشرق (سنوك) بل تواطأ عليه جل المستشرقين والباحثين في تاريخ الأمم فسعوا جاهدين لتحقيق هذه الغاية وهي ربط الشعوب الإسلامية بماضي ما قبل الإسلام بإحياء الثقافات القديمة إن وجدت وان لم يجدوا ما يحييونه فنجدهم يختلقون بعض الحوادث التافهة ويبنون عليها معتقدات وحضارات ، وتركب حولها قصص وأساطير - كما فعلوا في مصر، والعراق والأردن ....

واضح من تلك التوجيهات التي أوصى بها **سنوك** الحكومة الهولندية أنه تمكن من دراسة طبيعة الشعب الأندونيسي دراسة دقيقة لما يتميز به من عاطفة دينية جياشة ، حرص كل الحرص على عدم مصادمتها وأنه مكث عدة سنوات يعمل عملاً بطيئاً ومتواصلاً توصل من خلاله إلى مايطمح إليه من تخدير الشعب المسلم .

وهذه النقاط التي ذكرها الأمير **شكيب أرسلان** كتبها عن علم بهذا المستشرق، فقد كانت هناك علاقة شخصية بينهما، وكانوا أعضاء في مؤتمر واحد في مؤتمر المستشرقين في ليدن عام ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م ، وكانت الحكمة عند هؤلاء المستشرقين هي العمل بدون إعلان على حد تعبير شكيب أرسلان (١) .

---

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي ج٣/٣٧٣ ، وفي نفس التوجيهات السابقة ، انظر المرجع نفسه ج١ ص٣٣٩،٣٤٢.

الفصل الثالث

الآثار المترتبة على نشاط أهل الذمة في الدولة العثمانية

فيه مباحث :

المبحث الأول : تسهيل عملية الغزو الفكري لأبناء المسلمين

المبحث الثاني : تغريب الثقافة بين أبناء المسلمين وبروز العلمانية

المبحث الثالث : توسيع النشاط التنصيري في بلاد الإسلام

المبحث الرابع : إلغاء الخلافة وإلغاء تطبيق الشريعة

المبحث الأول :

تسهيل عملية الغزو الفكرى لأبناء المسلمين

قبل الحديث عن انتشار مظاهر الغزو الفكرى في ديار الاسلام ، في أواخر أيـــام الدولـــة العثمانية وتسهيل مهمته في كل وسائله – ومن ذلك وجود أشخاص من طبقة المثقفين يدافعــون عنه ويثنون على الافكار الوافدة ــ وينكرون وجود الغزو الفكري .

أشير هنا إلى مصطلح "الغزو الفكري" الذي يتردد في هذا العصر كثيرا على ألسنة البـــاحثين والكاتبين والمتحدثين، لنكشف في وضوح أن هذا المصطلح لم يسمع به قبل القرن الرابع عشــو الهجري (القرن العشرين الميلادي) ولكن ليس معنى عدم وجود المصطلح أو عـــدم اســتخدام المصطلح قبل القرن الرابع عشر الهجري أن معنى الغزو الفكري ومفهومه وموضوعه لم يكـن موجودا لان المستقرئ لأحوال الأمم والشعوب يجد أن مفهوم "الغزو الفكري" كان موجوداً فـــي القديم وفي الحديث.

وكلمة (الغزو) في اللغة العربية تعطى معنى: القصد والطلب والسير إلى قتال الأعــــداء في ديارهم وانتهابهم وقهرهم والتغلب عليهم ومصطلح الغزو الفكري قصد به "إغارة الأعـــداء على أمة من الأمم بأسلحة معينة وأساليب مختلفة لتدمير قواها الداخلية وعزائمـــها ومقوماتـــها وانتهاب كل ما تملك"(١).

والفرق بين (الغزو الفكري) و (الغزو العسكري): أن الغزو العسكري يأتي للقهر وتحقيق أهداف استعمارية دون رغبة الشعوب المستعمرة.

أما الغزو الفكري فهو لتصفية العقول والأفهام لتكون تابعة للغازي(٢). وقد يكون الغــزو الفكري أشد وأقسى لأن الأمة المهزومة فكريا تسير إلى غازيها عن طواعية والى جزارها عن رضا واقتناع وحب لاتحاول التمرد والخلاص وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلـــة حيث أن كلمة الغزو استعملت في معناها وهى الإغارة على أمة من الأمـــم للاعتــداء عليــها وانتهابها ولكن عن طريق الفكر وتدمير القوى المفكرة فيها وهذا ما لفتت أيليه كلمة "الفكر" التي تطابق معناها في العربية معناها في المصطلح(١).

---

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعى في الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٦٨٠ ط دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨٠ بتصرف.

(١) انظر: المصدر السابق، ٦٨١ مع تصرف واضافة.

وسيتضح لنا بعد قليل عند سرد مظاهر الغزو الفكري أن هناك غزو موجه مقصود بـــه إذابة الشعوب وانسلاخها عن عقائدها ومذاهبها وحضارتها لتصبح مسخاً شائهاً تابعـــاً لغـيره يؤمر فيطيع .. ولقد عمل هذا الغزو على تضليل المجتمعات الإنسانية وخداعها والتحويل عليها وقلب الحقائق وتشويه الحقيقة عن طريق زخرفة القول والدخول إلى المخـــاطب مـن نقطـة الضعف والاستغفال لإغرائه والإيقاع به والإيحاء إليه بسلامة الفكرة وصحة المفهوم المزيـف الذي تحمله كلمات الغازي .

وقضية الغزو الفكري أصبحت اليوم من أشد القضايا خطراً وتبدو ظواهر هـــذا الغــزو المدمر في قلوب وعقول كثير من المثقفين في هذا العصر واضحة بينه والسلاح الذي يسـتعمله "الغزو الفكري" مدمر فتاك، يؤثر في الأمم والمجتمعات أكثر مما يؤثـر المدفـع والصـاروخ والطائرة وقد ينزل إلى الميدان ويعظم خطره حين تخفق وسائل الحديد والنار في تحقيق الهدف والوصول إلى الغاية والخطر الذي يجتاحه هذا الغزو أكثر بكثير من قتل الأفراد بل مـن قتـل جيل بأسره إذ يتعدى ذلك إلى قتل أجيال متعاقبة والسلاح الذي يستعمله هذا الغزو هو ســلاح الحيلة والشبهات وتحريف الكلم والخديعة في العرض(٢).

ومما لاينكر: أنه لم يواجه دين من الأديان ولا عقيدة من العقائد مثل ما واجه الإسلام من تحديات فقد واجه الإسلام منذ فجر تاريخه تحديات عنيدة من مخالفيه.

على أن خطر هذه التحديات هي تلك التي تواجهها المجتمعات الإسلامية اليـــوم، وهــى تحديات تتمثل بالمواجهة السافرة حيناً والمستترة أحياناً هذا التحدي الذي يتمثل حاليـــاً بــالغزو الغربي(١).

هذا الغزو الذي كتب له النجاح والتفوق كانت له أسباب ساعدت على تقبله بين المسلمين أهمــها تفوق الغرب المادي والتعليمي على المسلمين في تلك الفترة (فترة الركود والبعد عن مقومـــات الحضارة والانتصار) مما شجع أعداء الإسلام على أداء مهمتهم القذرة فمن أول الأفكار التــي أثرت في المسلمين الثورة الفرنسية ويعزو المؤرخ عمر عبد العزيز نجاح الأفكــار الفرنســية الغربية وتأثيرها على الدولة العثمانية إلى القوة المادية للغرب واقامة اقتصاد أوربـــي متحكــم

---

(٢) راجع: ابراهيم النعمه، المسلمون امام تحديات الغزو الفكرى ص ٧ ط شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق ١٩٨٦م.

(١) عز الدين الخطيب التميمي وآخرون، نظرات في الثقافة الاسلامية، ص ٣١ دار الفرقان، عمان ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م. الاردن.

وتفوق عسكري وسياسي يفوق كثيراً ما كان لدى العثمانيين أو أية أمة إسلامية وخاصة في عصر الدولة الثاني ويبدو أن أفكار الثورة الفرنسية في عالم الإسلام وفى الدولة العثمانية كان يرجع إلى أنها كانت أول ثورة اجتماعية في أوربا تدعو إلى العلمانية ولا تتأثر بالعقيدة النصرانية (٢) ولم تستثن الدولة العثمانية نفسها أو الولايات الخاضعة لها من التأثيرات لهذه الثورة إذا كانت التأثيرات الفرنسية في الدولة العثمانية عسكرية ودبلوماسية أكثر منها فكرية إلا أن هذه المؤثرات قد فتحت قنوات تسرب منها الفكر والتقنية الأوروبية أول مرة إلى عالم الإسلام عن طريق المدرسين والخبراء الفرنسيين. حيث وجد العثمانيون انه من الضروري تعلم اللغات وهكذا أخذ العثمانيون ينقبون في الآداب الغربية فأخذت بهذه الطريقة الأفكار الغربية وأفكار الثورة الفرنسية تتغلب على حواجز الرفض الإسلامي لكل ما هو نصراني وسار تقدم الدولة الحديثة في هذا المجرى المضاد للإسلام.

والواقع أن هذا التأثير قد أصاب المجتمع العثماني بكل طبقاته ولئن كان التأثير في أول الأمر ضعيفا، إلا أنه أصاب الفئات النصرانية التي كانت تعيش تحت مظلة الدولة العثمانية، فزادت خلال القرن الثالث عشر الهجري الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي حيث استطاعت هذه الأفكار أن تؤثر في بنية المجتمع العثماني وان تصيب جميع فئاته بدرجات متفاوتة بكلمات ثلاثة براقة (حرية – إخاء – مساواة)(١) كانت تمهيداً للحركة الدستورية وحرب القرم وصدور الخط الهمايونى سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م كما سبق الحديث عنه .

ومن بدايات الغزو الفكري في الألقاب إطلاق تسمية الرجل المريض على الدولة العثمانية ودعاية الرجل المريض دعاية مغرضة، أطلقت على الخلافة العثمانية في سنواتها الأخيرة فكانت هذه الدعاية دعاية يهودية انطلقت أو خرجت من يهود الدونمه في داخل تركيا نفسها فهذا التعبير لم يكن إذا ترجمة حقيقية لوضع الخلافة قبل السقوط(٢) إنما هو مجرد دعاية للتشهير بضعف الدولة العثمانية وإيهام الناس بذلك لزعزعة ولاء ولاياتها أو شعبها لاتخاذها حجة للانفصال وهذا ما فعله محمد على حين ثار على الدولة العثمانية فانفصل عن الدولة سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م وقد سبقه في ذلك اليونان.

---

(٢) عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربى، ص ٢٥٨.

(١) عمر عبد العزيز عمر المرجع السابق ص ٢٥٨ – ١٥٩.

(٢) هيئة الاخبار: الرجل المريض، دعاية يهودية، مجلة التضامن الاسلامى السنة ٤٤، الجزء ٥، ص ٥٩ – ٦٠. نقلا عن خلف الوذيناني . الدولة العثمانية والغزو الفكري ص٤٥

لذلك نجد زعماء أوربا حريصين على ترسيخ هذه النسبة لتحقيق أهدافهم فليس مجرد شماتة فمن أوائل من أطلق هذا الاسم أو عبارة "رجل أوربا المريض" هو نيقولا الأول قيصر روسيا سنة (١٢٤١هـ / ١٨٢٥م - ١٢٧٢هـ / ١٨٥٠م) في حديث له جرى سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م وبينه و بين رئيس وزراء بريطانيا في وند سور في إنجلترا وقد قال قيصر من قبل في أسلوب بعيد عن الدبلوماسية واللباقة، حيث قال:

"ليس في استطاعتي أن أبعث الحياة في الموتى، أن الإمبراطورية العثمانية دولة ميتة وليس لدى ثقة أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظاً على الحياة انه في حالة انحلال في جميع النواحي"(٣).

ومن الحقد الدفين الذي يبطنه أعداء الإسلام - ما يقوله هانوتو:

"الدين الإسلامي يبعث في الإنسان الخمول والكسل ولا يوقظه منهما ... وان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لان الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك وان كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج أوربا علما ومدنية نجحت"(١).

فعملاء الغزو الفكري قد عملوا منذ نهاية القرن الثالث عشر الـهجري التاسع عشر الميلادي وبعبارة أصح منذ أن استقر في مجامع الصهيونية والاستعمار تدمير الخلافة الإسلامية، عند ذلك عملوا على تخريب الفكر الإسلامي وتشويه عقل المسلمين وهم ما زالوا يعملون حتى الآن، الأسماء تتغير والشعارات تتلون ولكن الهدف واحد هو تجريد المسلم من أقوى سلاح وهو أيمانه بالله وان كتائب الغزو الفكري (الطابور الخامس) الذي يعمل داخل صفوفنا ليجهز على مقاومتنا(٢).

وهكذا نرى أن التعاون بين السياسة والتنصير قد اعطى ثمرته الأولى حين أخذت الأقطار الشرقية تسقط تحت السيطرة أو النفوذ الأجنبي إلا أن هذه الدول لم تقص المنصرين بعد أن نالت حاجتها من جهودهم بل زادت تقريبهم لأنهم أصبحوا اعرف الناس للبلاد وأهلها واتجاه الريح فيها لذلك وقف المنصرون ورجال السياسة وجها لوجه أي الفريقين يجب أن يتقدم على الأخر وكان المنصرون من قبل يدخلون البلاد وبعد ذلك يأتي الجيش على أثر ذلك ولكن

---

(٣) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ٢، ص ٨٣٠ - ٨٣١.
حسنه لبيب: تاريخ الاتراك العثمانيين جـ ٢ ص ٣٧. نقلاً عن د. خلف الوذيناني - المرجع السابق ص ٢١٧

(١) السيد أحمد فرج: جذور العلمانية ص ٣٦. نقلاً عن المرجع السابق - الوذيناني ص ٢١٩

(٢) محمد جلال كشك: الغزو الفكرى، (الطبعة الرابعة، القاهرة، المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥هـ) ص ٧. نقلا عن المرجع السابق - الوذيناني ص ٢٢٠

في أواخر القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي أخذ المنصرون بتقديم الجيش أولاً لأن ذلك يسهل مهمتهم(٣).

معنى هذا أن تغيير هذا النظام يعطينا دلالة واضحة على ضعف الدولة العثمانية وعدم استطاعتها المقاومة كما كانت في سابق عهدها لبعد هذا الميدان عن الدولة المنشغلة في مشاكلها الداخلية وما أكثرها آنذاك. لهذا فضل المنصر أن يعمل بعد الاحتلال فكان حكام هذه المناطق على حق في تخوفهم حينما يعتقدون أن مجيء المنصرين ينهي دائماً تدخل الدول النصرانية في بلادهم ثم بعد ذلك يفقدون جزءاً منه(١).

ولقد تظافرت قوى الشر والكفر والعدوان على نشر هذا الغزو الفكري وترويجه في العالم الإسلامي حيث تحالفت في هذا الصهيونية العالمية والاستعمار المتواطئ معها والاستشراق والتبشير واتخذوا مختلف الوسائل والأساليب المؤدية إلى تحقيق أهدافهم. والتي كان من أبرزها إرساليات التبشير في العالم الإسلامي، وافتتاح المدارس والكليات والجامعات الأجنبية التي انتشرت في البلاد الاسلاميه منذ بدء الاستعمار إلى وقتنا الحاضر وإرسال البعثات الطلابية إلى الجامعات الأوربية لتلقى العلوم والأفكار والنظريات الغربية، تلك البعثات التي بدأت منذ العهد العثماني وعهد محمد على(٢) بمصر وكذلك الطعن في الإسلام وتشويه صورته أمام الناشئة والشباب ونشر الفلسفات الهدامة(٣)، وبث النظريات والمذاهب المعادية للإسلام(٤).

ولقد نفذ هؤلاء الغزاة المستعمرون بأفكارهم المسمومة إلى العالم الإسلامي عن طريق منافذ وحقول عديدة من أهمها وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروؤة والمؤسسات التعليمية ومراكز التوجيه عامة على اختلاف اختصاصاتها ومسئولياتها، وكذلك الأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية.

---

(٣) مصطفى خالدى وعمر فروخ: التبشير والاستعمار ص ١٤٤ - ١٤٥.

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ: المرجع السابق ص ١٤٥.

(٢) هو محمد على باشا ابن ابراهيم أغا المعروف بمحمد على الكبير مؤسس آخر دولة ملكية بمصر ولد في (قولة) سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م ألبانى الأصل مستعرب كان والى مصر سنة ١٢٢٠هـ وعنى بتنظيم حكومتها توفى بالاسكندرية سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م / الزركلى - الاعلام، جـ ٦ / ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٣) أمثال: الوجودية، والفوضوية، والقاديانيه، والبابيه، والبهائية.

(٤) أمثال: الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقوميات بانواعها. وللاستزاده في هذا المجال راجع كتاب "الغزو الفكرى وأثره في المجتمع الاسلامى المعاصر" للدكتور/ على عبد الحليم محمود في الصفحات ١٧٥ - ٢٠٠ من الطبعة الأولى.

ولقد كانت هناك عوامل عديدة ساعدت على انتقال الفكر الدخيل إلينا وغزوه لنا في عقر دارنا، يأتي في مقدمتها إلغاء الخلافة الإسلامية وانهيار الدولة العثمانية التي وقفت قرابة الستة قرون سداً قوياً حصيناً منيعاً ضد الأطماع الغربية الاستعمارية وظلت شبحاً مخيفاً وكابوساً ثقيلاً يجثم فوق صدور الغزاة الصليبيين حتى في أشد مراحل ضعفها وانحطاطها وما استتبع ذلك من فرقة وانقسام واختلاف هذا بالإضافة إلى تخلف العالم الإسلامي في الأعصر الأخيرة وضعفه وتقصيره في الأخذ بأسباب النهضة والتقدم والرقي وذلك ناتج عن بعده عن المنهج الإلهي الصحيح وضعف روح العقيدة والجهاد في بناء الأمة الإسلامية والركود العلمي والفكري الذي هيمن على الحياة الإسلامية في الوقت الذي كانت فيه أوروبا قد نفضت عنها غبار الماضي وحثت الخطى على طريق الاكتشافات والعلوم الحديثة أثبتت تقدمها وتفوقها في شتى المجالات والميادين.

وقد تحقق لاعداء الإسلام ما أرادوا، ويتجلى لنا ذلك من خلال تلك التبعية الفكرية التي بدأت إعجابا بالمظاهر المدنية والمبتكرات العلمية الغربية ثم تحولت إلى شيوع روح الانهزام الفكري وضياع روح الاعتزاز بالشخصية الإسلامية لدى فريق ممن تخرج على أيدي أساطين الاستعمار ووفق مناهجه وخططه وفقد كل السمات الأصلية التي تربطه بعقيدته وأمته. وتلقيهم الأفكار والمفاهيم الغربية المعادية للإسلام بالاستحسان والقبول واعتناقها والترويج لها حيث شاعت على ألسنتهم وبأقلامهم فكرة فصل الدين عن الدولة وعن العلم والاقتصاد وعزلة عن القضاء والتشريع على نحو ما جرى في أوربا في عصر النهضة واعتماد القوانين الوضعية الأجنبية والمناداة بتحرير المرأة وسفورها والدعوة إلى تطوير الإسلام وتحليل الوقائع التي حلت بالمسلمين في العصر الحديث بمنظور غربي والتماس الحلول في غير المنهج الإسلامي واقتران تلك الأفكار والدعوات التي تستهدف الإسلام عقيدة وتشريعاً ونظاماً ومنهاجاً بإثارة طائفة من الشبهات التي لا ترتكز على أي سند علمي أو برهان منطقي واقترانها أيضاً بمحاولة وضع نظم الحياة وصياغة القيم والأخلاق وفق المفاهيم الغربية.

مظاهر الغزو الفكري

أولاً: حملات التشويه:

إذا بحثنا في حملات التشويه - والتي كانت مظهراً من مظاهر الغزو الفكري - وجدنا أن هذه الحملات مست كل ما يتصل بالإسلام من عقائد ونظم وتراث وتاريخ وفكر وحياة.

(١) فهناك محاولة تشويه عقائد المسلمين، بغير سند ولا دليل .

(٢) وهناك محاولة تشويه القرآن الكريم وهى محاولة قديمة وحديثه وهذه المحاولة كغيرها بعيدة عن العلم والمنطق.

يقول المستشرق جب:

"إن محمداً قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها وشق طريقه بين الأفكار والعقائد الشائعة في بيئته فالقرآن من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها(٣).

(٣) وهناك محاولة تشويه السنة النبوية وهى محاولات ضاربة وعميقة الجذور في تاريخ الحرب ضد الإسلام وهى محاولات تستهدف ما تستهدفه محاولات تشويه القرآن الكريم من عزل المسلمين عن دينهم بتشويه مصدريه الأساسيين: القرآن والسنة ... وهى حرب دخلت على المسلمين حديثا عن طريق الغزو الفكري، وقد جند أعداء الإسلام لتشويه السنة ما جندوا من أقلام وكتب ومجلات وبحوث. ومجمل محاولات الأعداء:

أ ـ الادعاء بأن هناك أحاديث مما يراه المسلمون صحيحا لا يمكن أن تكون قد صدرت عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ب ـ والادعاء بأن محاولة وجود شئ في الحديث النبوي يمكن القطع بصحة نسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم تاريخياً، محاولة فاشلة.

ج ـ الإدعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت في الآراء أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التي يؤيد بها رأيه(وهذا الأمرفيه بعض الحق كالمرجئة والرافضة وغيرهم...فهي كلمة حق أريد بها باطل).

د ـ الادعاء بأن الأحاديث النبوية ليست إلا سجلاً للجدل الديني في القرون الأولى(١).

---

(٣) انظر: الدكتور على عبد الحليم محمود، الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام ص ٢٩ جامعة الامام ١٤٠١هـ.

(١) المصدر السابق ص ٣٩، ٤٠.

(٤) وهناك محاولة تشويه شخصية الرسول محمد ص وهـــي محـــاولات قديمـــة وحديثـــه ومستمرة، تهاجم رسول الله ص وتحاول أن تنال من شخصه الكريم. ومن هؤلاء الأعداء الحاقدين على الإسلام الذين تطاولوا على شخصية الرسول الصادق الأمين:

١- وليم موير في كتابه "**حياة محمد**".

٢- الفردجيوم في كتابه "**الإسلام**".

٣- صمويل زويمر في كتابه "**الإسلام تحد لعقيدة**".

٤- جولد زيهر في كتابه "**تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي**".

٥- هـ أ . ر . جب في كتبه:

(أ) طريق الإسلام.

(ب) الاتجاهات الحديثة في الإسلام.

(جـ) المذهب المحمدي.

(د) الإسلام والمجتمع الغربي.

٦- فيليب حتى وهو نصراني لبناني في كتابه "**تاريخ العرب**".

٧- مجيد خوري وهو نصراني عراقي في كتابه "**الحرب والسلام في الإسلام**"(١).

وغير هؤلاء كثير ... وما أردنا الإحصاء أو الاستقصاء .. وكل هؤلاء حـــاولو تشـــويه الإسلام ونالوا من شخص الرسول عليه السلام فيما كتبوا وافتاتوا على الحق وموهوا، وملأوا الدنيا ضجيجاً بأصوات الباطل، وهراء الجاهلين وسموم الحاقدين (٢) .

(٥) وهناك محاولة تشويه مجال الغيب في الإسلام وهذه المحاولة أريد منه زعزعة الإيمـــان بالغيب عند المسلمين ولذا جاءت المحاولة بالتشكيك في كل ما لاتدركه الحواس وتفســير الجزاء عند المصدقين به .. بأنه جزاء روحي والجنة والنار بأنها شعور نفســـي. وقـــد استغل المستشرقون من النصارى بعض كتابات غلاة الصوفية والفرق الباطنية في تسويغ مثل هذه المعاني الباطلة.

(٦) وهناك محاولة تشويه التاريخ الإسلامي: وهذه المحاولة من أخبث المحاولات وأكثرهـــا خبثا ومكراً فقد صور هؤلاء الحاقدون على الإسلام والمسلمين أن الفتوحات الإســـلامية فتوحات غزو واستعمار وان الخلافة الإسلامية خلافة تآمر وسفك للدماء وغير ذلك كثير مما لايقره عقل ولادين.

---

(١) انظر: الدكتور على عبد الحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦.

وبالتالي حصل تشويه كبير لمفهوم الجهاد الإسلامي وحقيقته ودلالاته الشرعية .

(٧) وهناك محاولة تشويه التراث الإسلامي ولا يخفى ان تشويه تراث الأمة هو تشويه للأصالة التي تنطلق منها وتراث المسلمين تعرض لانتهاك هؤلاء الحاقدين على كل ما هو إسلامي فأصابه ما أصاب غيره من الافتراء والافتئات.

(٨) وهناك محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية وذلك بالادعاء بأنه لايوجد نظام للحياة معروف في الإسلام والتهم التي وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة ولكن أبرزها وأخطرها:

أولاً: اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم(١).

ثانياً: اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية.

ثالثاً: اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد.

رابعاً: اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها في عصر من العصور.

خامساً: اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير الإسلامية في ظل الدولة الإسلامية.

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من أهل الذمة وغيرهم وشاركهم في إطلاقها بعض المسلمين المخدوعين بالفكر الغربي.

(٩) وهناك محاولات تشويهية أخرى، تتصل بجوانب من الإسلام:

أولاً: أن هذه المحاولات في مجموعها، تشكل انقضاضاً على مبادئ الإسلام وتعاليمه.

ثانياً: من مظاهر الغزو الفكري: إحياء النزعات الجاهلية التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام كالدعوة إلى القومية والدعوة إلى الفرعونية والآشوري والفينيقية وما جرى مجرى هذا مما يتنافى مع الإسلام.

ثالثاً: الدعوة إلى التحلل والإباحية، وهذه دعوة خبيثة لأنها تطعن الأمة في أخلاقها وقيمها وقد شاعت في المجتمعات الإسلامية أمور تعافها الفطر السليمة ولكنه الانحراف الذي لا يعترف بالقيم الفاضلة.

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨.

رابعاً: إبعاد العلماء من مراكز التوجيه والسلطة: ولا يخفى أن إبعاد العلماء عن المراكز التوجيهية أمر له خطورته وفي بعض المجتمعات تقلص دور العلماء وأصبح قاصراً على خطبة الجمعة وبعض الأحاديث التي تخضع للعيون الساهرة والمراقبة الدقيقة وأصبح بعض العلماء يجرون وراء المناصب جرياً تذل له الجباه ويطلبون المناصب بما لهم من مآثر في الاتباع وأياد في التصفيق والتأييد.

خامساً: التعليم والثقافة ولا يخفى أن الغزو الفكري ينتشر من خلال مدارس التعليم ومعاهده وجامعاته أفضل من أي مظهر آخر.

وقد دخل الغزو الفكري إلى العالم الإسلامي من باب يخيل إلى السطحيين من الناس انه الباب الطبيعي. إذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن، يقول القس زويمر "المدارس احسن ما يعول عليه المبشرون في الاحتكاك بالمسلمين"(١).

ومن المعروف أن المسلمين أقبلوا على هذه المدارس بكثرة كاثرة يزدادون من مناهجها ويلتهمون كل ما أنتجته من عقيدة وفكر لا يميزون صحيحها من فاسدها ونفعها من ضرها(٢).

سادسا: الإعلام على اختلاف صوره وأشكاله من صحافة وتلفاز ومذياع ....

فلا يخفى على مسلم مدى الشرور التي غزت المسلمين عن طريقها ــ وقد سبق بيان شيء منها في الكلام عن الصحافة واستغلال أهل الذمة لها ــ وبما أن الثقافة ليست علوماً ومعارف وأدباً وفنوناً فحسب بل مناهج فكر وخلق تصطبغ حياة الأمة بصبغتها في شتى ضروب نشاطها، فان "الغزو الفكري" استطاع من خلال الثقافة، ان يلقى من الأخلاط الغربية الملتمسة ــ المستقاة ــ من الفكر الغربي المنحرف والتوجيه الفاسد، القائم على التخطيط الشرير (١).

ولذا قام الغزو الفكري بالدعوة إلى الأغراض الآتية:

١- الدعوة إلى إضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية وإحياء الثقافات الجاهلية.
٢- الدعوة إلى العامية والى تطويرها.
٣- إيجاد الشعور بالتبعية الثقافية والشعور بمركب النقص.
٤- دفع الجامعات إلى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية.

---

(١) محب الدين الخطيب، الغارة على العالم الإسلامي، ص ٤٨، ط ١٣٨٤هـ.

(٢) إبراهيم النعمة: المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري، ص ١٣.

(١) انظر: عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص ١٦٧، ١٦٨.

٥- توهين جهود المخلصين الثقافية والإبداعية.

٦- تمجيد القيم الغربية وتسفيه القيم الإسلامية والدعوة إلى نبذها.

٧- لفت المجتمعات إلى القشور وإلهائها عما يفيد وينفع.

٨- إحياء المذاهب الفلسفية والجدلية والبعد عن الأساليب العملية.

٩- إنشاء الموسوعات التاريخية الإسلامية وبذر الشكوك ولي الحقائق فيها.

١٠- الحرص على تكوين جيل مثقف يحمل راية الاستشراق والدعوة إليه(٢).

١١- الدعوة إلى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغات غير اللغة العربية، ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن.

سابعاً : الخدمات الاجتماعية: والخدمات الاجتماعية مظهر من مظاهر الغزو الفكري وقد وجد المخططون لغزو العالم الإسلامي إن الخدمات الاجتماعية طريق ساعد على إمراره من خلال الخدمات الاجتماعية ولذلك أصبحت الملاجئ والمستشفيات والمستوصفات والجمعيات الخيرية ووكالات الإغاثة ودور الأيتام والمسنين وغيرها .. مراكز غزو !! كما سيأتي تفصيله..

ومما يلاحظ أن "الغزو الفكري" لم يقتصر على المظاهر التي ذكرنا بعضاً منها وإنما كانت هناك خطوات أخرى محسوبة ومتعددة على كافة الجهات والطرق ومن هذه المخططات:

١- الإرساليات التبشيرية التي قل ان يخلو مجتمع إسلامي منها.

٢- الإعداد الصهيوني والتنسيق بينه وبين الفكر الغربي.

٣- التصنيف والتأليف في المباحث الإسلامية واستغلال قصور المسلمين فيها.

٤- إلقاء المحاضرات في الجامعات أو الجمعيات الإسلامية.

٥- إنشاء دوائر المعارف الإسلامية والمعاجم المختلفة وغيرها.

٦- استغلال البعثات العلمية والثقافية.

٧- الامتيازات الأجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها.

٨- استغلال الأقليات والطوائف والثغرات.

٩- التعاون بين التبشير والسياسة.

١٠- استغلال الحركات الوطنية، والتطلعات السياسية.

١١- استغلال فقر الشعوب وحاجتها وربط الإحسان بالتبشير.

---

(٢) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٢٢.

وقد اتخذت الحكومة قراراً يمنع منح المصريين رخصاً لفتح حانات لبيع الخمور ومنعت الرخص أيضاً عن الأحياء الوطنية واستثنت الأحياء الأوربية في القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والسويس والإسماعيلية فيستطيع الأجنبي أن يفتح ما يشاء من حانات الخمور غير إن هذا الأمر لم يمنع الوطنيين من فتح حانات الخمور إذ أقبل الأجانب على استخراج الرخصة لفتح الحانة واعطائها للمصري لقاء ٣٠٠ أو ٤٠٠ جنيه فيفتح المصري ألحانه باسم الأجنبي بعد أن يدفع له هذا المبلغ ويتعهد أيضا بان يدفع للأجنبي أجراً شهرياً يتراوح بين ١٠ ، ٢٠ جنيهاً وقد نتج عن ذلك أن تعددت الحانات في القاهرة حتى بلغت بها أكثر من مائة حانة يديرها مصريون ويملكها الأجانب رسمياً[١] ومن جراء ذلك انتشرت عادة شرب الخمور بين المصريين حتى اعتادت أغلب الطبقة الوسطى من المصريين على شرب (الويسكي) ظهرا (والبيرة) عصرا (والكنياك)مساءاً ظنا منهم ان ذلك من مظاهر التمدن والحضارة الأوروبية [٢] وقد استغل الأجانب ما عرف باسم المسموحات الجمركية وهذه ضمن اتفاقات الامتيازات. وكانوا يهربون عن طريقها المخدرات إلى مصر ففي يناير سنة ١٩٣١م تمكن رجال الشرطة من القبض على عصابة من اليونانيين تمكنوا من تهريب كمية كبيرة من الحشيش وزنتها نحو نصف طن باستعمال خطاب نسبوا صدوره من القنصلية الإيطالية إلى الجمارك للإفراج عن الصناديق التي كان بها الحشيش على أنها مسموحات جمركية على اعتبار ان بها أدوات خاصة بالقنصلية[٣] .

وهكذا مارس الأجانب الاتجار بالمخدرات وتهريبها في ظل حماية الامتيازات الأجنبية تحقيقا لهدفهم في الإثراء السريع من وراء هذه التجارة الرابحة وأقبل المصريون على تقليدهم في هذه التجارة والعادة السيئة التي نقلها الأجانب وروجوها في مصر الأمر الذي ترك أثراً سيئاً في المجتمع المصري حيث أخذت هذه التجارة تستشري بين أرجائه وطبقاته.

وهكذا فتحت الامتيازات الباب واسعاً أمام الأجانب لكي ينشروا هذا الفساد بين الأهالي في طوال البلاد وعرضها ويبثوا سمومها لتفتك بأجسامهم وعقولهم وأموالهم فتكاً ذريعاً.

---

(١) البلاغ: العدد ٢٥٦٨ في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١م السنة ٩، ص ٥.نقلاًعن النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب في مصر / محمود محمد سليمان أحمد : ماجستير جامعة الزقازيق .

(٢) حلمي على مرزوق: تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين، الطبعة الأولى، دار المعار القاهرة سنة ١٩٦٠، ص ٣٦.

(٣) كوكب الشرق: العدد ٦٣٧ في ٢٨ سبتمبر ١٩٢٦م السنة الثالثة، ص ٤.نقلاً عن محمود سليمان/المرجع السابق

وكذلك استغل الأجانب الامتيازات فاتخذوا أرذل المهن للإثراء منها ومن ذلك فتحهم نوادي القمار التي انتشرت انتشارا بالغا بين الطبقات في كل من القاهرة والإسكندرية فكانت المقاهي هي المرتع الخصب الذي يلجأ إليه المقامرون من المصريين والأجانب.

وانتشرت محلات القمار الأجنبية في كل مكان فلم تكن الشرطة أيضا تستطيع دخولها إلا بموافقة القنصليات وحضور مندوبيهم، وإذا تمكن العساكر من الدخول فعندما يقرع الجرس الكهربائي وتخفى أدوات اللعب ويأخذ اللاعبون في قراءة الجرائد أو لعب العاب غير تلك(١).

و هذه النوادي لم تقتصر على القمار فقط بل كان بها من يتاجر في المخدرات والرقيق الأبيض كما أقام الأجانب أيضا نوعا من المقامرة العلنية مثل المراهنة على سباق الخيل وصيد الحمام وأخذوا يرغبون الجمهور فيه بوسائل شتى كإعلانات شائعة في الصحف وعلى جدران الشوارع لتحقيق الكسب السريع والربح الوفير(٢).

وقد انتشرت في عام ١٩٢٧م نوع من أنواع القمار يعرف باسم "الألعاب الأمريكية" وهى عبارة عن صندوق مقفل يلقى اللاعب فيه قطعه من النقود ثم يحرك يداً خاصة باللعبة فأما أن تمنح اللاعب قطعة من الحلوى أو عددا من القطع النحاسية يمكنه أن يدفعها ثمنا لما شرب في المقهى أو لا تمنحه شيئا وانتشرت هذه اللعبة في القاهرة ومنها إلى عواصم المديريات الكبرى حيث اجتذبت البسطاء والشبان وصغار العمال وصبية المدارس ابتغاء الربح منها ولكنهم لم يجنوا منها إلا الخسارة والأسف لما فقدوه وكان المستفيد دائما هو الأجنبي سواء كان صاحب اللعبة أو صاحب القهوة.

وقد بلغ عدد الأماكن التي تجرى فيها الألعاب في مدينة القاهرة خمسة وعشرون محلا ولم تستطع الحكومة إغلاقها لأنها مملوكة لأجانب(٣).

ومن القاهرة انتقلت هذه اللعبة إلى أنحاء مصر ففي أهم شوارع طنطا أنشأ بعض الأجانب محلا للمقامرة العلنية التي تعرف باسم اللعبة الأمريكية رغم ان الحكومة لم توافق على

---

(١) يوسف خليل جاد الله ص ٧٥.

(٢) البلاغ: العدد ١٤٧٣ في ٩ يناير ١٩٢٨، السنة ٥ ص ١.(نقلاً عن محمود سليمان).

(٣) وزارة الداخلية: ادارة عموم الأمن العام، تقرير عن الأمن العام في القطر المصرى عام ١٩٢٨، مطبعة مصر سنة ١٩٢٩، ص ٦٩.

منحهم رخصة لفتح هذا المحل ولكنهم فتحوه اعتمادا على ما لهم من امتيازات تحول دون إقدام الحكومة بغلق هذا المحل المعد للمقامرة العلنية(٤).

وأصيب المجتمع المصري بانتشار الدعارة والبغاء كآفة من الآفات التي نقلها وعمل بها الأجانب في مصر، حيث جاء إلى مصر آلاف المهاجرين من اليهود والأرمن والإيطاليين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين الذين اشتغل معظمهم بالدعارة والبغاء، فانتشرت البيوت السرية في القاهرة والاسكندرية وعواصم المديريات وكثرت بها البغايا من الأجنبيات اللاتي لم تخل أحياء الأزبكية ووجة البركة وبولاق من اسرابهن(١).

ولقد مارس الأجانب تجارة الرقيق الأبيض في شتى أنحاء القطر المصري لا سيما في الأماكن التي يتواجد بها، وكان موقف الحكومة المصرية سيئا، فقد كانت هناك بيوت مرخص لها بالقيام بالبغاء العلني، هذا إلى جانب العديد من المنازل السرية التي أدارها الأجانب ولم تكن الحكومة تستطيع اتخاذ أي إجراءات ضدهم وكانت تكتفي بالقبض على العاهرات الأوربيات وتقوم بتسليمهن إلى قنصلياتهم لمحاكمتهم أو تطلب من القنصليات إبعادهم خارج مصر(٢)، فكانت الامتيازات الأجنبية عقبة تحول دون سيطرة الشرطة على بيوت الدعارة غير المرخصة والتي يديرها الأجانب بسبب تغيير جنسية صاحب البيت فيذكر أن الشرطة قد علمت ان هناك فرنسية تدير بيتا للدعارة، وعندما وصل البوليس إلى البيت المذكور ومعهم مندوب من القنصلية فوجئنا بأن مدام ريفون صاحبة البيت تعلن أنها باعت المنزل لمدام جنتلى الايطالية فلم يكن من الممكن دخول المنزل بدون حضور ممثل القنصلية الايطالية وفي الأسبوع التالي عدنا ومعنا الممثل القنصلي الإيطالي لتعلن مدام جنتيلى أنها باعت البيت لأجنبي آخر الأمر الذي يتطلب حضور مندوب قنصليته(٣)، وهكذا يتحايل الأجانب على القانون ليستمروا في تجارتهم في ظل حماية الامتيازات لهم.

وكانت مصر تتعرض كل عام لسيل مستمر من البغايا الأجنبيات إذ كانت انجلترا وإيطاليا ورومانيا وفرنسا مصدر خصب لتوريد تلك البغايا لمصر حيث يسهل استعمال الجوازات

---

(٤) البلاغ: العدد ١٥٥٢ في ٩ أبريل سنة ١٩٢٨ السنة ٦ ص ١. (نقلاً عن محمود سليمان) .

(١) لطيفة محمد سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٨٤، ص ١٩٨.

(٢) السياسة: العدد ٣٧٦٨ في ٣١ يوليه سنة ١٩٣٥، السنة ١٣ ص ٦/٧، البلاغ: العدد ٢٥٧٠ في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣١ السنة ٩ ص ٢.

(٣) النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب في مصر، ص٢٦٢-٢٦٣.

المزورة، فضلا عن أن البغايا يتمتعن بحرية نسبية فلم يكن هناك قانون يحد هجرتهم إلى مصر، ويحدد إقامتهم بها.

ومما يبين لنا مدى انتشار تجارة البغاء في قطر مسلم هذه الإحصائيات في سنة واحدة فقط حيث بلغ عدد اللائى ضبطن في الشوارع ١٨٨٤ امرأة بغى، وعدد البيوت التي اتخذ ضدها اجراءات عقابية ١٠٢ منزل(١) !

وفي سنة ١٩٣٤م تقول إحصائيات وزارة الداخلية بأن عدد النساء الذين ضبطن يحرضن المارة على الفسق (٢٩٣٣) بغى، وعدد البيوت ٣٥٩ هؤلاء الذين اتخذ بشأنها إجراءات قانونية! بخلاف البيوت التي لم يتعرض لها وقد تكون أكثر. هذا في القاهرة فقط(٢)!!

---

(١) السياسة: عدد ١٥٩٤، ١٦ ديسمبر السنة السادسة ص ١.

(٢) انظر النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب في مصر: محمود محمد سليمان أحمد - رسالة ماجستير جامعة الزقازيق كلية الآداب -نقلا عن التقرير السنوي لشرطة القاهرة لسنة ١٩٣٤م، ط الأميرية ١٩٣٥ ص ٢٦٣.

المبحث الثاني :

تغريب الثقافة بين أبناء المسلمين وبروز العلمانية

إن الحديث عن التغريب هو حديث عن ثمرة من ثمرات الغزو الفكري التي سبق الكلام عن مظاهره بل عن سمة من أبشع سمات هذا الغزو وهى قلب مقاييس وأعراف الناس ومفاهيمهم في كل مجالات الحياة و أبلغها مجال التشريع وإلغاء الشرع الحنيف واستبدال القوانين الوضعية به.

ولا تقف عملية التغريب التي يقوم بها الغرب والمستغربون عند مجال واحد ولا جزئية واحدة ولكنها تتناول كل مجالات الحياة عند المسلمين في الدين واللغة والآداب والفن والقوانين والسياسة والتعليم و .... و .....

وكان يجب أن يتنبه المسلمون إلى أن الغرب فيما يعقده من مؤتمرات أو يؤلفه من مؤلفات إنما يسعى لحماية المصالح الأوربية عامة واليهودية خاصة، و لأهل الذمة نشاطات كثيرة في مجال التغريب والنيل من الإسلام ومحاولة إذابة المجتمعات الإسلامية في المجتمعات الغربية.

ولتغريب الشعوب الإسلامية طرق كثيرة و متشعبة سلكها أعداء الإسلام منها:

- تدعيم العصبيات الإقليمية والتأكيد على المعاني الوطنية وحدها دون الإسلامية.
- ومنها اهتمامهم بنشر ألوان معينة من الثقافة كاهتمامهم بالآثار القديمة في كل موطن من مواطن الشعوب المسلمة (كما سبق معنا تفصيله) وفي السابق في عصور الوعي واليقظة الإسلامية كان يتوقف عند كل جديد وافد على المسلمين هل يتعارض مع الإسلام أم لا أما هذه العصور الأخيرة فلم يعد مهما هذا الأمر المستحدث مما سمح به الإسلام ويقبله؟ بل المهم أنه من الغرب إذن يجب علينا أخذه لكي نرقى لدرجة الأمم المتحضرة.

من أجل ذلك أجاب سعيد النورسي حين سأله شيخ الأزهر محمد نجيب المطيعي عن رأيه في أوربا ورأيه في الدولة العثمانية قائلاً: إن أوربا حامل بالإسلام فستلده يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حامل بأوربا وستلدها يوما ما"[١].

وبعد انتشار التغريب في العالم الإسلامي نسي المسلمون أصل دينهم فحدث انهيار هائل في القرن الأخير في هذه الأمة وأصبح المسلم المهزوم أمام هذا الوضع، مسلماً لم يكتمل إسلامه، ولم يتثقف ثقافة الإسلام، ولم يدرسه ولم يطلع على دينه كما جاء صافيا، فالمنهزم أمام

---

(١) حياة بديع الزمان النورس وترجمته: ص ٤٩ - ٥٠.

المبادئ المستوردة منهزم لأنه فقد السلاح .. وصار يردد ما قيل له وما يلقنه دون تحكيم عقل لأنه لا يوجد عقل .. بل صار نسخة كربونية عن تفكير من يملي عليه(٢).

مجالات التغريب:

أ- التغريب في التشريع:

من أخطر المجالات التي حصل فيها التغريب وليس على مستوى تركيا فقط بل يكاد يكون على كل البلاد الإسلامية ما حصل في مجال التشريع واستقدام القوانين المدنية الأوروبية والتي يرجع إليها جميع شرائح المجتمع فعمت بها البلوى فمن لم يشارك في التشريع أصابه غبارها.

- عند بعض الكتاب أن بداية التغريب كانت في عهد سليمان القانوني. فهو الذي استقدم بعض القوانين الأوروبية لحل بعض الأمور، من هنا فقد أطلق عليه سليمان القانوني وعلى أي حال لم يذهب أحد إلى أن قوانينه تناظر الشريعة، فهي لا تعدو أن تكون تنظيمات تتناول شئونا لم يرد فيها نص تتعارض مع أحكام الشريعة(١).
- وقيل إن العصر المسمى بالعصر الخزامى(٢) يعتبر عصر العلمانية السرية ولكنها لم تستمر كثيرا بل انتهت بانتهاء ذلك العصر وقد ألغى السلطان محمود الثاني (١٧٨٥-١٨٣٩ت) الجيش الإنكشاري سنة ١٨٢٦، وأقام مكانه جيشا على نظام أوروبي جديد، وهذا أدى به إلى القيام بتحديث الأسلحة وقام بجانب هذا بتغيرات شكلية قلد فيها الغرب تقليدا أثار سخرية الناس، ولما مات تولى بعده السلطان عبد الحميد (١٨٣٩-١٨٦١) وسار على خطة والده السلطان محمود الثاني. وكان وزيره رشيد باشا أكبر شخصية ماسونية في وقته. واحتضن الماسونيين ووجه أجهزة الدولة نحو البعد عن التراث الإسلامي والتمسك بثقافة أوروبا. وقام باستخدام دستور على النمط الغربي سمى بالتنظيمات والمقصود بها: إعادة تكوين الدولة العثمانية الإسلامية على أسس غربية.

---

(٢) عوامل النصر والهزيمة ص ١٢٠.

(١) انظر المجتمع الإسلامي والغرب، لهاملتون جب ورفيقه: ١/٦٣، تاريخ العرب لفليب حتى: ٢/٨٤٠، الوثنية الحديثة: ٣٨٢.

(٢) بدأ اعتبارا من أيام السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣-١٧٣٦) وسمى بهذا الاسم بعد عام ١٧١٨ بسبب انتشار الترف والاهتمام بالزهور والورود والأذواق (انظر البوم العثمانيين: ٦٩).

يوضح أحد سفراء فرنسا في تركيا سابقا الغرض من التنظيمات بقوله: "كان الغرض العام من التنظيمات تقريب الهيئة الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية النصرانية التي عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة ولاشبهة في خطورة ماهية المشكلات التي يتضمنها هذا المشروع – وهو التغريب – فقد كان العامل في وقوف الامبراطورية العثمانية في موقفها بالقرون الوسطى، الذي غمرها يوما بعد يوم في ظلام تلك القرون الكثيف، والذي سينتج يوما من الأيام اندراسها التام و بقاء الحكومة العثمانية منفردة في خارج الهيئات الدولية الأوروبية وكان السبب الحقيقي في هذا الانفراد هو الدين، وفى الحقيقة إن الإسلام الذي قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقى حاكما مطلقا فوق الحكومة ناظما" وبعد ذلك يوجه الإداريين قائلا: "إما أن تحول الحكومة من الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحي، واما إن تخلص بالتدرج عن الحدود والقيود الدينية من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيرا موسعا. وللاحتراز من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب لا يلبث ان ينفعل ويتأثر من كل شئ، اختارت الحكومة العثمانية الطريق الثانى "فهذه الكلمات تعلن ما كان يضمر المتفرنجون الاتراك أن يفعلوه بدين الله"(١).

وشكلت اللجان لوضع القوانين الخاصة كقانون الأراضي الذي نشر عام (١٨٥٧) وقانون السندات والسجلات (١٨٥٨) وقانون الجزاء (١٨٥٧) وقانون التجارة (١٨٧١) وكانوا يحرصون على ألا تخالف الشريعة الإسلامية. وحين أراد العثمانيون وضع القانون المدني عهدوا بذلك إلى لجنة كان منها جودت باشا وزير ديوان الأحكام العدلية – وغيره من العلماء فنظموا كتاب "مجلة الأحكام العدلية"، حيث أخذوه من نصوص الشريعة المبثوثة في كتب الفقه وأصدره السلطان عبد العزيز (ت: ١٨٧٦) بإرادته السنية عام (١٨٧١) قانون تعتمده المحاكم في جميع أنحاء الدولة العثمانية(٢). وكان مصطفى رشيد باشا يعتقد ضرورة تغيير النظام الإداري من أساسه تماما. وكتب ما اعتقده هو بلسان السلطان عبد الحميد، وفي الواقع ان التنظيمات هي حركة لترك الحضارة الإسلامية التي تبناها الشعب المسلم خلال قرون، والتوجه الى ما يسمى بالحضارة الغربية أما إلغاء الشريعة الإسلامية وتنحيتها وتطبيق القوانين الوضعية بديلا عنها، فقد حصل ذلك حين قطعت تركيا صلتها بالإسلام نهائيا. واختارت لها دستورا أوروبيا بدلا من أحكام الإسلام. وفي عام ١٩٢٦ تم الاعتماد على القوانين الغربية رسميا.

(١) نقله الشيخ مصطفى صبرى، انظر موقف العقل ٣٤٨/٤ – ٣٤٩.

(٢) انظر العلمانية وأثرها على الأوضاع الاسلامية في تركيا (ص ١٥).

ألغيت الشريعة بمقتضى القانون رقم ٤٢٩(٣)، وأصبحت أنظمة الحكم الغربي مطبقة وغــيرت أحكام المواريث إذ سوت بين الذكر والأنثى. وجعلت أصحاب الحق الأصليين في الإرث هـــم الفروع دون غيرهم(١). وقد سئل وزير العدل بين سنتي (١٩٣٤ - ١٩٣٥) رفيق شوكت إنجـا عن القانون المدني فأجاب قائلا: ان المواد المتعلقة بالزواج والطلاق أثرت على البنية الأساسية وتقاليد الشعب واقتصاده، وظهرت المشاكل الاجتماعية، وفقدت الأسرة كرامتها(٢)، ومع ذلـــك فقد صرح سيد بك (استاذ الفقه في الجامعة) بضرورة التغيرات في مجلـــة الأحكـام العدليـــة، وضرورة الاقتباس من القوانين والمؤسسات الحقوقية الغربية بلا تردد(٣).

وكان للتغريب في الدولة العثمانية وبعد زوالها وتحولها إلى الجمهورية التركية مجـــالات مختلفة . وطرق مختلفة من التعليم والعلاقات البشرية والفنـــون والمجـــال المـــادي والثقـــافي والسياسي ونلخص بعض هذه المجالات فيما يلي:

(ب) التغريب في مجال التعليم:

بدأ التغريب في مجال التعليم والتربية بأعمال المربيات الأجنبيات، واصبحن سببا رئيسـيا في بعد المسلمين عن ثقافتهم وقيمهم الأخلاقية. لذا انتشرت اللغة والحيـــاة الغربيـــة وثقافتـــها ونظامها.

ومن ناحية أخرى أخذ بعض المسئولين من السلك السياسي أولادهم معهم أثناء ســـفرهم الى الغرب. وسجلوا أولادهم في المدارس الأجنبية لتعليم اللغة. وانتشر الترغيب في المـــدارس الأجنبية على شكل منظم، وكان من بينها المدرسة السلطانية (ثانوية قلا طصاراى) التي افتتحها الفرنسيون وفتح الأمريكيون "الجامعة الأمريكية" وأشرفوا علـــى إدارتـــها. وزاد الفســـاد فـــي المجتمع، وفي المقابل أهملوا المدارس الإسلامية وجاء الجمهوريون وفتحوا مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية ولا تعلم الدين ألغيت جميع المدارس الاسلامية(٤). وقد تأثر التعليم الديني تأثيراً كبيراً لهذه الاجراءات العلمانية، فكان لالغاء المدارس الدينية أثره الكبير في البـــلاد، انعكـــس بدوره على الأجيال الجديدة، فهذه الخطوة قضت على التدريس الديني، الذي كان منحاه علـــى نمط وأسلوب حلقات المساجد وكان هذا النوع واسع الانتشار، ففي ولاية "قونية" فقط وفي ســـنة

---

(٣) انظر نهاية الخلافة ص ١٨٦، الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٠٢.

(١) مشهداني ص ٣٠٢.

(٢) أثر السنين لاما هراز، دار عرفات ١٩٧٥ - استنبول.

(٣) انظر في الشريعة الى العلمانية ص ٢٤١.

(٤) انظر محنة السائرين على طريقة الشريعة ١٤ - ١٥.

١٨٩٩(٦٦) مدرسة بها (٣٦٦٦) طالبا وكانت هذه تغذى مساجد القرى والمدن بالأئمة والخطباء والوعاظ والحفاظ والمرشدين والمشايخ(١).

وتناقص عدد الطلاب في كلية الإلهيات وفي مدارس الخطباء حتى بلغ في عصر كمال عشرين طالبا فقط. بينما كان (٢٨٥) طالبا سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥) أما المدارس التي أسست لتخرج الخطباء والأئمة فقد كانت سنة ١٩٢٤، ثلاثا وعشرين مدرسة، بها (١٤٤٢) طالبا فوصل العدد إلى مدرستين عام (١٩٢٩) بها (١٤١) طالبا فقط. وفي عام ١٩٢٠ تقلص العدد الى (٥٧) طالبا فألغيت المدرستان(٢)؟

ومن الإجراءات العلمانية ووسائل التغريب التي حصلت في قطاع التعليم، إلغاء كلية الإلهيات وإنشاء عوضا عنها قسم الدراسات الشرقية في كلية الآداب، وصار الطالب يلقن أن الثقافة والتقاليد الاسلامية هي من أسباب تأخر الأتراك وجمودهم.

وأصبحت مسألة تعليم القرآن وأمور الدين للأولاد مسألة شخصية تتوقف على نشاط أولياء الأمور، وأصبح الغرض الأساسي للتعليم في تركيا كما جاء في برنامج الحزب الجمهوري هو إعداد مواطنين جمهوريين قوميين علمانيين. لذلك نجد جداول المدارس الأولية والمتوسطة والثانوية تخلو من مواد الدين بينما خصص للرسم والموسيقى ساعتين في الأسبوع(٣).

لقد نشط في عصور الضعف للدولة نشر التغريب الثقافي والاجتماعي عن طريق المدارس الأجنبية التي سهلت لها الامتيازات طريقها، فأصبح (في عهد الكماليين) ينشر التغريب بين المدارس الرسمية الحكومية كانتشاره في المدارس الأجنبية، حتى تكلم بعض المسلمين أيام إلغاء الحروف العربية وبداية الكتابة بالحروف اللاتينية، أن هذه المدارس مدارس إلحاد.

وأيضا من مظاهر التغريب جعل التعليم مختلطا بين الذكور والإناث، مما حدا ببعض الغيورين القيام بشيء من المعارضة ما لبثت أن طأطأت رأسها لعملية التغيير والتغريب، فقد أصبحت هذه المدارس هي الوسيلة للرزق والمكانة الاجتماعية، ولقد كان المتخرج من معاهد المعلمين يعين مدرسا في مدارس القرى والمدن لينشر إلحاده بين الشعب وبسطاء المسلمين.

---

(١) محمد عزة دروزه ص ٧٢.

(٢) الحركة الكمالية والعلمانية في تركيا - حسين عثمان الطنوبي ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) المرجع السابق ص ٣٠٩.

أصبحت المقارنة بين خريج المدارس الرسمية وخريجي الجامعات والمعاهد الإسلامية مقارنة مؤلمة حيث للأول المكانة والمرتبة والاحترام والوظيفة أما الآخر - فلا عمل إلا إمامة مسجد لا يحترمه أحد - ويعيش ذليلا فقيرا.

وتعلمت النساء أيضا على الطريقة الغربية، وتخلقت معظمهن بأخلاق الغرب وثقافته، أصبحت مناهج التعليم والتربية الغربية هي المطبقة في مدارس وجامعات تركيا(١).

ومن أبشع الإجراءات العلمانية وأعظمها ضررا بالمسلمين مما كان له الدور الكبير في تجهيل الأتراك بكاملهم بدينهم وتاريخهم إلغاء الحروف العربية، فالجيل الجديد نشأ بعد هذه الإجراءات والقوانين (منع الكتابة العربية) ولم يكن بإمكانه أن يقرأ ما كتبه آباؤه وأجداده، وانفصل الحاضر عن ماضيه العريق، وهكذا جهلوا الأمة بلغتها وتراثها ودينها .. وصارت المكتبات التي تضم آلاف الكتب القيمة لا يستفيد منها الجيل القديم، وتم صرف المسلمين في تركيا عن تراثهم الإسلامي بتغيير الحروف العربية، وتصفية اللغة التركية من معظم الكلمات العربية التي تتضمنها لتنشأ أجيال تعجز عجزا كاملا عن الاتصال بتراثها الإسلامي، فتنقطع عنه ينشأ بلا دين(٢).

أما عن الدارسين في الخارج - في الغرب - من المبعوثين فكان من نتائجها ان يعود المبتعثون وقد صاروا خلقا آخر، ممسوخا كل المسخ لا يعرف دينه ولا ثقافته، ولا حضارته ولا قومه وأصبح المجتمع المسلم الجديد في أيدى هؤلاء المنحرفين.

وبمخططات صليبية أحكم المنحرفون قبضتهم على الأجيال فلم تكن المسألة في الدولة العثمانية فقط والتي بعدها. وليست إفساد جيل بعينه يذهب ويذهب معه فساده، إنما كان الهدف سريان السم في الأجيال المتتالية لكيلا يخرج جيل يفكر في العودة إلى الإسلام(١). لذلك نجد أن الجرعات التي أخذها الطلاب في تعلميهم كان لها أبلغ الأثر في انتشار الفكر التغريبي بين فئات المجتمع.

---

(١) فصل الدين عن الدولة: ص ٢١٩، اسماعيل الكيلانى - المكتب الاسلامى.

(٢) انظر واقعنا المعاصر محمد قطب ص ٢٢٢.

(١) واقعنا المعاصر ص ٢٣٣.

(جـ) التغريب في وسائل الإعلام على اختلاف أشكالها:

١ـ ترجمة الكتب الغربية إلى اللغة التركية ونشرها في تركيا:

وانتشرت فكرة اتخاذ الكتب والمكتبات الخاصة خصوصا في تركيا بين الأدباء والمثقفين، ومعظم الكتب المترجمة كانت باللغة الفرنسية، أو الإنجليزية بالدرجة الثانية، وعن طريق هـذه الكتب الغربية انتشر الميل إلى الغرب وكتبهم ومؤلفاتهم.

بل هيأت الحكومة (أيام الكمالية) لبعض المختصين في اللغات ان يترجموا كتبا في فلسفة اليونان وتمجيد التاريخ الأوربي .. فأخرجوا للمسلمين مترجمات عن كتب الفلاسفة، وأباطيل اليونان في آلهتهم المزعومة وأساطير الغرب. ونتيجة هذه الترجمات أطلع من لا يجيد اللغات الغربية من الأتراك على ثقافة الغرب وأباطيله، ومال المنحرفون إلى التشبه بالغرب فيما اطلعوا عليه. يقول ضياء باشا في الدعوة الى دراسة لغات أوروبا: " إذا أردت أن تحيط علما بالدنيا فلابد من تعلم لغة أوروبا، لقد برز القوم في الفنون، فلا تحجم عن الدرس والتحصيل أنت حقيق أن تلم بعلم تلك البلاد فدع عنك جنون التعصب، لن يكون الشاعر شاعرا إلا بذلك، ولن يكفر الإنسان باللسان. ابذل في التحصيل الهمة ان كنت ذا أهمية، وأكثر من ترجمتك لتنفع بها أهل وطنك " (٢).

٢- تأسيس المسارح:

كان الهدف من نشر المسرحيات وترجمتها إلى اللغة التركية هو التغريب وقد بدأ المسرح أعماله في أول أيام الجمهورية التركية سنة (١٩٢٠م) وصدر القانون رقم [٢٠٢١] في ١٩٢٣م لحماية جوقه الموسيقى، وفتحت مدرسة الموسيقى بأنقره سنة ١٩٢٤ وجعلت مادة "الموسيقى" مادة إجبارية تدرس في جميع المدارس، وقد اهتمت لذلك وزارة التعليم، وقام الممثلون بتمثيل مسرحية أمام رئيس إيران السابق أثناء زيارته لتركيا في ١٩٣٤/٦/١٧م(١).

وكان للقصص والمسرحيات دور كبير في إشاعة السفور، وافساد أخلاق المسلمين في المجتمع التركي لأن الأساسيات التي كان يركز عليها المنحرفون في الاعلام "الشاب" "الفتاة" "العلاقات بين الرجل والمرأة".

---

(٢) تاريخ الأدب التركى لحسين مجيب ص ٤٠٠.

(١) تاريخ أوبرا: ٢١٧-٢١٨، ت جواد ممدوح الفار، نشر وزارة الثقافة والسياحة، ١٩٨٢ أنقرة.

٣ــ الصحافة :

من الأدوار التي استعملها الدونمة أو نصارى العرب في الإعلام الصحافة – وما كان لـــها من دور حاسم في المعركة. مما كانت تنشر من صور للجمعيات النسائية وللأزياء، وما كـــانت تروى من أخبار النشاط النسوى الذي قل ان تخلو منه صحيفة(٢).

وكما كنا قد قررنا من قبل في مبحث سيطرة أهل الذمة على الصحافة– نؤكد هنا بأمثلـــة على ذلك: سيطرة الدونمة على الإعلام التركي بأموالهم وأشخاصهم .. متعاونين مع الصليبيـــة العالمية تعتبر جريدة الحرية أكبر دار نشر في تركيا ومن هذه الـــدار تصـــدر مجـــلات بيـــن اسبوعية وشهرية تحتل المكانة الأولى في التوزيع بين المجلات، ولا شك أن لدار الحرية أثـــراً كبيراً في توجيه قطاعات ضخمة من الشعب التركي، هذه الدار تملكها وتديرها أسرة من يـــهود الدونمة تحتضن هذه المؤسسة كبار كتاب اليسار.

كما إن جريدة "المليه" جريدة واسعة الانتشار ويتبعها دار للطباعة والنشر وتصدر سلاسل كتب مختلفة وتملكها وتديرها أسرة من يهود الدونمة هي عائلة "ايبكجى" ويكتب فيها إلى جـــانب كتاب اليسار أقلام يهودية معروفة. وكذلك جريدة الجمهورية التي أسسها يونـــس نـــادى كـــان يرأسها يهودي من الدونمة(٣) فهذه الصحف في مقدمة الصحف التركية ذات الفعالية الواضحـــة والنفوذ والتأثير سواء بين المثقفين ثقافة عربية أو بين بعض الطبقات الشعبية – وكـــان هنـــاك شئ من التضييق على هذه الصحف أيام عبد الحميد لما تحمله من أفكار هدامة منحرفة ولكـــن كان البريد الدبلوماسي يخرق الأنظمة والرقابة(١)، وهدف هذه الجرائد لايكاد يختلف في العمـــل على إبعاد المسلمين عن إسلامهم وانتشار التغريب والفساد الخلقي في أقصى حدوده الممكنة.

(د) تغريب المرأة المسلمة:

بذلت محاولات لجعل المسلم التركي مثل النصراني الغربىالفرنسى واشتدت المحـــاولات بشأن المرأة بصفة خاصة، وقد كانت النساء يعشن حياة إسلامية مـــن الاحتشـــام بالحجـــاب – والبعد عن الاختلاط – والمحافظة على العفة ...

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: ٢١٧/٢.

(٣) انظر يهود الدونمة: لمحمد عمر ٥١ – ٥٢.

(١) انظر بديع الزمان سعيد النورسى لجمال كوطاى: ص ٧٧.

فبدأت بعد التنظيمات محاولات عديدة في الدفاع عن تحرير المرأة واستمرت الموجه إلى العهد الجمهوري وألغوا كثيراً من الكتب ودافعوا عن اختلاط النساء بالرجال ودافع بعضهم عن الرقص والحياة الغربية وقال قائلهم: لا يمكن ترقى تركيا إلا بـــأن يبـدأ هـدم جـدار منـع الاختلاط(٢) بل انتقد بعضهم طريقة الزواج الإسلامي – وأراد بعض المثقفيـن ان يتخـذ مـن أسلوب الغربية أسلوبا لحياته وتأثر المسلمون بالغرب حتى في عدد من ينجبون من الأولاد(٣).

واهتم الدونمة من اليهود بمسألة إلغاء الحجاب وذلك عن طريق الدعــوة للسـفور فـي صحفهم ومجلاتهم ودعوا بحرارة للاختلاط بين الطلبة والطالبات في الجامعات – وتبنى بعـض مثقفي الأتراك فكرة اليهود هذه فاصبح يدعو مثلهم إلى ما دعوا إليه – وتولت أجهزة الدعايــة اليهودية إصدار الكتب والرسائل والمقالات لمهاجمة الحجاب – وكانت لهم صلات بالحكومــة مكنتهم من إغلاق كل مجلة أو كتاب يعارض دعوتهم، وكانوا يقومون بنشر الصحف والمجلات المنحرفة لافساد المجتمع – وخصصت مجلات للنساء فقط .

وانقل هنا عبارتين لاثنتين من أوائل الأشقياء الأتراك اللائى نزعن الحجاب وعملن فـي وظائف مختلطة في الحكومة. جاءت في مجلة اسرتنا: تقول امرأة تدعى فريده: إنها أول امـرأة تركية عملت في الحكومة بدأت عملها بخلع الملابس الخارجية القديمة وتلبس ملابس حديثـــة. وتقول أخرى تدعى حاطى: أنها عملت كعضو في المجلس الوطني وأنها لبست ملابس حديثـة أصبحت من جميلات أنقرة خلال نصف ساعة وأصبحت امرأة حديثة في أنقرة"(١).

(هـ) التغريب في اللباس والزي :

بدأت حركة التغريب في الأزياء واللباس من وقت مبكر في الدولة العثمانية فـي عـهد السلطان محمود الثاني، فقد أصدر قانون الأزياء في ١٨٢٩/٣/٣ واجبر الجميع من الموظفيـن غير العلماء على لبس الجاكيت والسروال والطربوش، وجعلت العمامة والجبة للعلمــاء فقـط. وقص السلطان لحيته وطلب من الموظفين تقليده في ذلك – وهكذا قلد العثمــانيون لأول مـرة الحياة الاجتماعية الغربية، واستمروا على أسلوب الغرب حتى ١٨٦٠م، ولا شك كـان تقليـد النساء للغرب في الأزياء بشكل أكبر أسرع وازداد الاهتمام بالتزين وأدوات التجميل(٢).

---

(٢) رواية ثروة فتوت من ناحية التغريب ص ٩٠ – ٩١.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٠.

(١) مجلة اسرتنا: العدد ١٥ – ص ١٤ مارس ١٩٨٣.

(٢) رواية ثروة الفنون من ناحية التغريب ١٤٣، ١٤٨، ١٥٨. تأليف جاهد كارجا، وزارة الثقافة والسـياحة ط ١ ١٩٨٥ أنقرة.

ورغم جهود اليهود والنصارى لم تظهر المرأة التركية فـي المسـرحيات أيـام الدولـة العثمانية بسبب تمسكها بدينها أو تقاليدها! فلم يحدث ظهور المرأة التركية في المسرحيات أمـام الناس الا في عام ١٩١٩(٣).

ومسألة اللباس والزي ليست مسألة شكلية كما يريد البعـض ان يقـرره وللأسـف مـن المسلمين بل هى تعنى الكثير لذلك "كان التخطيط الصليبى والصهيونى للمرأة المسلمة ان تسـير في ذات الخط الذى دفعت اليه المرأة الأوربية من قبل، ضمانا لافساد المجتمع الاسلامى كلـه حيث لا تكون هناك أم مسلمة تلقن أبناءها مبادئ الدين والأخلاق وهم في مرحلـة الطفولـة، وبذلت الصليبية والصهيونية كل ما في وسعها واستخدمت كل وسائلها لجعـل عـودة المـرأة المسلمة الى الاسلام والى الحجاب الاسلامى مستحيلة بعد أن تعرت بجسدها كلـه أو معظمـه وبعد أن أصبح العرى أصلا من أصول المجتمع المتحدث، وعلامة على الرقـي، والتحضـر، والتطور والانطلاق(١).

وسقط الحجاب تدريجيا عن طريق زوجات رجال الدولة، وبنات المدارس والجامعـات. وكانت هناك جهود شيطانية لافساد المجتمع التركى بالغاء قوامة الرجل على المرأة، واعـلان المساواة بين الجنسين الذكر والانثى. كتبت صحيفة السياسة الاسبوعية مقالا عن فتاة تركيا فـي ١٩٢٦/٥/١٧ذكرت فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضا عاما في رحلة على نفقة الحكومة، تتنقل فيها بين موانئ أوربا الشهيرة، فتقول ان هذه الباخرة كانت تقـل (خمسـا وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة، كلهن جميلات مقصوصات الشعور، لا يكـاد يمـيزهن الرائى من فتيات لندن وباريس).

ويقول مراسل الصحيفة: انهن يتقن الكلام بالانجليزية، وبعضهم قد تلقـى دراسـته فـي الكلية الأمريكية في استانبول.

ويروى بعض تصريحات الفتيات فتقول احداهن: ان المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسـير في الطرقات في ظلام واننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات، فنلبس أحدث الأزياء الأوربية والامريكية، وندخن، ونسافر، ونتنقل بغير أزواجنا.

---

(٣) تاريخ الادب التركيى المصور والمنقوش من أيام التنظيمات الجمهورية: سيد كمال فراعلـى أوغلـو دار انعلاب ١٩٧٨ استانبول ص ٨٨/٢.

(١) واقعنا المعاصر: ص ٤٤٦.

وصرحت امرأة أخرى بأن "يعشن على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يوصف، فكلهم يرقص وبعض النساء يبدأ الرقص من "تانجو" و "فوكس تروت" وقد تعلمت ذلك في المدرسة (١) .

ويعلق مراسل الصحيفة على ذلك الوصف بقوله: ان هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية" .. ولا يسع كل محب لتركيا الا ان يغبطها على هذه الخطوات(١).

ونشر شكيب ارسلان مقالا عن "السفور والحجاب" حاول ان يقدم للناس درسا يستنبط فيه العظة من تطورات السفور في تركيا، وعرض للمراحل التى مر بها، ليبين ان الدعوة الى نزع الحجاب هى مرحلة تهيئ لما يليها من الدعوات التي ترمى الى هدم الدين، فيقول: منذ اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨م قال أحمد رضا بك وهو احد زعماء الاحرار مادام الرجل التركى لا يقدر أن يمشى علنا مع المرأة التركية على جسر غلطة - باستانبول - وهى سافرة الوجه فلا اعد في تركيا دستورا ولا حرية. وكانت هذه هى المرحلة الأولى. وفي هذه الايام بلغني -الحديث لشكيب- أن احد مبعوثى مجلس أنقرة الكاتب رفقى بك وكان كاتبا عند جمال باشا في سورية كتب:

انه ما دامت الفتاة التركية لا تقدر ان تتزوج بمن شاءت ولو كان من غير المسلمين، بل ما دامت لا تعقد معادلة مع رجل تعيش وإياه كما تريد، مسلما أو غير مسلم، فانه لا تعد تركيا قد بلغت رقيا(٢).

(و) التغريب في مجال الأدب والفن والمجالات الأخرى :

منذ أن أعلنت التنظيمات عام ١٨٣٩م والدولة العثمانية تسابق على الزمن من أجل التغيرات ليس العسكرية فحسب بل والسياسية عموما والاجتماعية، وأصبح التغريب سياسة الدولة رسميا. وان لم يكن بالجرأة التي حصلت بعد ذلك، فكان من ضمن الإجراءات العلمانية التغريبية - اعطاء اهتمام أكثر باللغات الأجنبية (كما سبق تقريره) وازداد التأثر بالغرب بين المثقفين وبين (١٨٣٩ - ١٨٦٠) وأضيف التغريب إلى مجال الأدب والسياسة بعد عام ١٨٥٩م.

---

١) عثمان بوجار : محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية .

(١) انظر الاتجاهات الوطنية - محمد محمد حسين ٢١٩/٢.

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية - المرجع السابق ٢٥٨/٢ - ٢٥٩.

وكان لسياسة الابتعاث التي اتبعها بعض السلاطين أثرها التدريجي في تقبل الأفكار الغربية وأنماط الحياة الغربية وكان من أهم المجالات التي عني الأعداء بها مجال السياسة أى مجال الحكم والتشريع، وقد غلب الاحتلال الصليبي الأمة على نفسها فنحى شريعتها وألجمها بالحديد والنار والعسف والتسلط(١).

وذبحوا عددا من علماء المسلمين والغوا المحاكم الشرعية، وهموا بإلغاء الإسلام بكامله(٢).

- وان كانت الأمة وللأسف كما رأينا في الغزو الفكري الذي سلط عليها وحركة التغريب التي هيأت الناس لتقبل ما هو جديد ولو كان ردة عن الاسلام بل سخرت أقلام مسلمة أمثال عبد الرازق حيث قرر فيها شرعية القوانين الوضعية وهو خريج وشيخ من شيوخ الأزهر!!
- ألغيت الخلافة وتضمن ذلك إلغاء الدين أيضا (كما سنفصله في المبحث التالي).
- منع السفر الى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستبدل النكاح المدنى بالنكاح الشرعى(٣).
- فصل الدين عن السياسة والدولة بل والدنيا عموما – لبعض الاقطار. هذا الفصل أخذ يعمل به جزئيا في بعض البلاد الإسلامية وتماما كما في تركيا حيث جعلوا كل همهم أن يفصلو تركيا عن ماضيها الإسلامي بإحياء النعرات والتغريب، وكذلك بدأت الجهود لفصل تركيا عن العالم الإسلامي وبشكل ادق عن الخلافة الاسلامية، وجعل الدين والدنيا متنافران ليس لاحدهما علاقة بالآخر وفصلوا العلوم الدينية الشرعية عن العلوم التطبيقية العضوية، فجعلو الدين الإسلامي اجنبياً عن الحكومة التركية. وعلى هذا الاساس حذفت المادة التي تنص على انه دين الدولة الاسلام، واضافة مادة مدنية تنص على ان كل من بلغ سن الرشد من أفراد الأمة، حرا في اختيار أي دين شاء(٤).

كذلك من شواهد التغريب والاجراءات العلمانية في البلاد:

منع علماء الدين من الاستمرار على التزيي بلباسهم القديم أيام العثمانية(٥) ومنعت الحكومة لبس العمائم حتى على أئمة المساجد وخطبائهم والسير بها في الشوارع فكان الامام

---

(١) محمد قطب : واقعنا المعاصر: ٣٠٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٥٩.

(٣) موقف العقل: مصطفى صبري ٣٦٥/٤.

(٤) المرجع السابق ٢٩٨/٢.

(٥) مشهداني : العلمانية وأثرها على الأوضاع في تركيا ص (٣٠٣).

عندما يدخل المسجد يخلع القبعة ويضعها جانبا ويرتدى العمامة وبعد الفراغ من الصلاة يرجع إلى القبعة فيخرج بها!!.

وكذلك من الاجراءات العلمانية في البلاد: الآذان والصلاة باللغة التركية:

قررت الحكومة اجراء تجارب للآذان باللغة التركية، وفي عشاء يوم ١٩٣٢/٢/٣ أذنوا في مسجد أيا صوفيا باللغة التركية، كانت الايام أيام رمضان والصلاة صلاة التراويح – ووقف المصلون ضد هذا القرار – ولكن منع كل معارض ومنع المفتي من القيام بواجبه وتعاقبت القرارات حتى صدر القرار في ١٩٤١/٦/٢ بالحكم على من لم يتبع هذا الأمر ولم يطبقه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر بموجب قانون الجزاء رقم ٥٢٦(٢).

وكذلك من الاجراءات التغريبية والتي تفصل الأمة عن ما ضيها واسلامها:

اصدار قانون يجعل الاجازة الاسبوعية يوم الأحد (كالنصارى الأوربيين) بدلا من يوم الجمعة(٣).

واستمر توالى اصدار القوانين العلمانية كاعلان العلمانية نظاما للدولة، واغلاق بعض المساجد وجعلها متحفا او مستودعا للمواد الغذائية أو جعلها اصطبلا للحيوانات.

وكذلك إلغاء التقويم الهجرى واستبدل به التقويم الغربى الميلادى.

ألغيت قوانين الميراث والطلاق وحل مكانها مساواة الرجل بالمرأة في الميراث.

ألغى قانون منع المسكرات في أيلول ١٩٢٣.

ألغيت وزارة الشريعة والأوقاف في ١٩٢٤/٣/٣ بقانون رقم ٤٢٩.

ألغيت المدارس الدينية بقانون رقم ٤٣٠(٤).

على أثر هذه الاجراءات قطعت كل صلة لتركيا بالإسلام وكان تمزيق الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة الغاية التي كان ينتظرها أعداء الإسلام في الداخل والخارج وتحققت لهم على يد وتخطيط اليهود والنصارى من أهل الذمة وتنفيذ مصطفى كمال. وهذا ما سنتحدث عنه في المبحث التالي.

---

(٢) من الشريعة إلى العلمانية: ٣٦٨ – ٣٦٩.

(٣) الحركات الملية إلى تركيا: ٦٧.

(٤) من الشريعة إلى العلمانية: ٢٤٤.

المبحث الثالث :

توسيع النشاط التنصيري في أوطان الإسلام

تعريف بمصطلح التبشير:

قبل أن نتناول بداية الدعوة الى التنصير (وهو ما يسميه القوم التبشير) وانتشار أمرها في البلاد الإسلامية نود أن نتوقف قليلا عند لفظة "التبشير" فلقد درج بعض الباحثين على إطلاق تسمية البعثات الدينية النصرانية، التي أتت من الغرب بالبعثات التنصيرية وإذا كانت كلمة "تبشير" تصلح بمعنى تحويل الوثنيين على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم إلى النصرانية أي دين سماوي!!، و أن كان الكفر ملة واحدة إلا أن كلمة تبشير لا يصح استخدامها بحال من الأحوال بمعنى تحويل المسلمين من الدين الحق الذى لا يرضى الله غيره إلى النصرانية المحرفة أو حتى تحويل النصراني الأرثوذكسي الى المذاهب النصرانية الأول.

إذن لا يصح أبدا أن تسمى البعثات الطبية أو التعليمية التنصيرية "بعثات تبشير" ذلك لأن الإسلام الدين الحق الذي جاء به محمد ﷺ مبشراً ونذيرا. قال تعالى: {يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كثيرا}(١).

ويبدو ان كلمة "التبشير" جاءت التسمية إلى الإنجيل والدعوة إلى الكرازة به (أي الوعظ به) حيث يطلق على التبشير في بعض اللغات الأوروبية Evangolisation وهى مأخوذة من التسنية الإنجيل(٢).

طبيعة التنصير وأهدافه:

ان الباعث الحقيقي والأول في رأى القائمين على التنصير إنما هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا إلى استعباد اتباعها، وان ضرورة التنصير وطبيعة نشاطه قد تناولها الكتاب المقدس في كل من العهدين القديم والحديث فقد جاء في الإصحاح الثامن والعشرين لانجيل متى "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيكم به، وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر" (١) (إنجيل متى: ٢٨ ص ١٩ - ٢٠).

والتنصير وسيلة من وسائل تمكين الاستعمار من الرسوخ بأقدامه في البلاد، وأنه وسيلة للتفرقة العنصرية، وأنه أيضا وسيلة لتوهين العروبة واضعاف اللغة العربية في ربوع العالم

---

(١) سورة الاحزاب آية ٤٥-٤٧.

(٢) د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور - دراسات في الفكر الاسلامى - القاهرة ١٩٨٩ ص ١٦٥.

(١) انجيل متى : ٢٨ ص ١٩ ــ ٢٠ .

العربي، فمن أقوال زعماء المنصرين عن أهداف التنصير قول لورانس براون "إذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن ان يصبحوا لعنة على العالم وخطرا وأمكن أن يصبحوا نقمة له أيضا أما إذا ظلوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ – لاقوة ولا تأثير" وينصح القس كالهون سيمون عن رغبة التنصير في تفريق المسلمين التي عبر عنها براون فيما قبل بقوله "ان الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب السود، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية، ولذلك فان التنصير يعمل على اظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها، فوحدة المسلمين اذن في نظر التنصير يجب ان تفتت وان توهن ويجب ان يكون هدف التنصير هو التفرق في توجيه المسلمين واتجاهاتهم.

وهكذا كان التنصير أحد دعائم الاستعمار في مصر والشرق الإسلامي، فتسلل المنصرون إلى البلاد الإسلامية وعملوا جاهدين على أن ينفثوا سمومهم في أفكار ضحاياهم، وكان نشاطهم الطعن في الإسلام، وصرف النشء عنه فالتقت مصلحة المنصرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم، واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق، واقنع المنصرون زعماء الاستعمار للمنصرين أعمالهم ومهمتهم وبسط عليهم حماية وزودهم بالمال والسلطان وهكذا كان التنصير الصليبي في العالم الإسلامي حرب صليبية كتلك الحرب التي بدأها الغرب الصليبي منذ تسعة قرون.

وقد أشار كثير من الساسة إلى أهمية الدور الذي يقوم به التنصير.

فقال لورد بلفور وزير الخارجية البريطاني: إن المنصرين في نظر الاستعمارهم عيونه التي تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحى التي تهمهم معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم والثقافات التي يتأثرون بها .

وقال زويمر: ليس الهدف من التبشير هو ادخال المسلم في دين آخر فقط ولكن الهدف هو إخراجه عن الإسلام حتى يكون خصما له وعدوا(١).

فلا يمكن ان نتصور أن التنصير دعوة للدين النصرانيى فقط لأنه أحد أدوات الاحتلال والغزو الاوربى ولا يهمه من أمر الدين إلا الغلبة بأي اسلوب كان حتى يكفل سيادة الحضارة الغربية(٢).

---

(١) انور الجندى: الاسلام والدعوات الهدامة، ط ١، دار الكتاب اللبنانى، بيروت سنة ١٩٧٤م، ص ٢٤٥، ٢٥٠.

(٢) محمود محمد شاكر: أباطيل وأ سمار جـ ١ مكتبة دار العروبة دبى ص ٢٠٩.

من نماذج نشاط المنصرين في الدولة العثمانية ما سبق معنا في بلاد الشام وتركيا والعراق عند الكلام عن مدارس أهل الذمة ونشاطها التنصيري نأخذ الآن شريحة أخرى من بلاد إسلامية هي مصر وعن نشاط المنصرين فيها ووسائلهم في ذلك من تعليم وطب وخدمات اجتماعية .

المؤسسات والارساليات التبشيرية التي مارست نشاطها في مصر:

أولاً: الارساليات الكاثوليكية:

وكانت أهمها: ارساليات الفرنسسكان والجزويت والقرير والراعي الصالح، والقلب المقدس وغيرها، وفي الفترة ما بين ١٨٤٤ - ١٩٤٣ - وفدت الى مصر ثلاث وعشرون ارسالية دينية نسائية وحوالى هذا القدر من الارساليات من الرجال وتسابقت هذه الارساليات الكاثوليكية الى انشاء المدارس الملحقة بكنائسها وغلب عليها الطابع الدينى ومن أهم هذه الارساليات، الارسالية الايطالية والارسالية الفرنسية(٣).

ثانياً: الارساليات البروتستانتية:

وهذه الارساليات البروتستانتية هى في غالبيتها إما انجليزية أو أمريكية:

أ- الارسالية الانجليزية:

بدأت انجلترا نشاطها التنصيري في مصر بارسال أول بعثة تنصيرية الى مصر سنة ١٨٤٠م وتلتها بعثة أخرى سنة ١٨٦٠م برئاسة (مس وتلى) التي وهبت حياتها ونشاطها للمهمة التي اغتربت من أجلها وسعت وبذلت كل جهودها للنجاح في تعليم الفتاة المصرية فأسست مدرسة بالقاهرة لتعليم الفتاة وأعقبت ذلك بافتتاح مدرسة اخرى بالأسكندرية عام ١٨٥٦م وتتابعت المدارس التابعة لتلك الارساليات التي جعلت التعليم فيها مجانيا للفقراء وبمصروفات للقادرين. حيث لم يكن أحد يستطيع ان يميز مطلقا أيهن المجانيات(١) واهتمت الارساليات الانجليزية بالدعوة الى المذهب البروتستانتى سواء بين الاقباط أو اليهود والمسلمين في مصر واتخذت من الكنيسة البروتستانتيه مصدرا لهذه الدعوة كما اتخذت من تعليم البنات محورا لانتشار دعوتها واستمرارها بين الأجيال عن طريق الفتاة ام الأولاد في المستقبل تحقيقا لأهدافهم الدينية والسياسية(٢).

---

(٣) جرجس سلامة: تاريخ التعليم الأجنبى في مصر في القرنين ١٩/٢٠، ص ٤٠ - ٤٣.

(١) الياس الأيوبى: تاريخ مصر في عهد اسماعيل ١٨٦٣-١٨٦٩، المجلد الأول، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

(٢) الياس الايوبى: المرجع السابق ص٢٢٥ .

ب- الارساليات الامريكية:

بدأ النشاط الأمريكي في مصر كما بدأ في الاقطار العربية الأخرى علـــى يـــد البعثـــات التنصيرية الأمريكية ذات النشاط التعليمى والطبى والاجتماعي، ولم يكن الهدف مـــن مجـــئ المرسلين الأمريكيين الى مصر هو رعاية أبناء الجالية الأمريكية لأن عددها كان محدودا جـــدا في مصر ولكن مهد لمجيء المرسلين الأمريكيين منذ نزول البعثات التنصيرية الى بلاد الشـــام عام ١٨٢٠م فبدأت صلات الولايات المتحدة بمصر وبدأ التمثيل القنصلى بين مصر والولايـــات المتحدة عام ١٨٣٢م(٣) وأخذت الارساليات الامريكية في تحقيق أهدافها بافتتاح المدارس فـــي كل انحاء مصر، كما كان المعلم في تلك المدارس الأمريكية عضوا فـــي الكنيســـة الانجيليـــة يشارك في اجتماعاتها المسائية وأيام الأحد.

ويمكن ان نوجز الاهداف التى وضعتها الارسالية الامريكية نصب عينها عند مجيئها الى مصر وكانت تسعى الى تحقيقها عن طريق نشاطها التعليمي فيما يأتى:

١- ان يكون هدف المدارس الامريكية في مصر نشر المعرفة الدينية والدنيوية فـــي طـــول البلاد وعرضها.

٢- ان تكون المدارس الامريكية نواة للكنيسة الانجيلية وآمالها لان صغار اليوم هم رجـــال ونساء المستقبل.

٣- تربية الطفل وهو صغير تربية دينية، وتدريب الاطفال سواء كانوا مـــن البنيـــن أم مـــن البنات على التعاليم الانجيلية ليشربوا وهم صغار تعاليم ومبادئ المذهـــب البروتســـتانتي فيحافظوا عليه وهم كبار.

٤- المدرسة دار لتربية الأعضاء للكنيسة الانجيلية والطفل الذى يستمر تلميذا بضع ســـنوات في المدرسة الأمريكية يصعب عليه ان يعيش في المستقبل بغير مكان دينى ينتمى اليه.

٥- أن تكون المدرسة مكانا يجتمع فيه المشرفون على الارسالية بالأباء وتكون المدرسة بذلك المركز الذى يمكن أن يتصل عن طريقه المرسلون الامريكيون واتباعـــهم بـــالمصريين وينشرون بينهم مبادئ المذهب البروتستانتى(١).

وقد ركزت الارسالية الأمريكية - شأنها شأن غيرها من الارساليات نشاطها بين طبقتيـــن من طبقات المجتمع المصرى هما:

---

(٣) محمد فؤاد شكرى: بناء دولة مصر محمد على، ص ٢٨٦.

(١) محمود محمد سليمان أحمد: النشاط السياسى والثقافى والاجتماعى للاجانب في مصر ١٩٢٢-١٩٥٢ ص ٢٢٧.

أولاً: الطبقة الارستقراطية المسيطرة والتي تتسم بالجاه والسلطان والتي اتخذت منها سندا لنشاطها بالتأييد والدعم المادى.

ثانياً: الطبقة الفقيرة والتي تمثل القاعدة العريضة في ذلك الوقت والتي تفتقر الى النفوذ والجاه، كما انها محرومة من التعليم والرعاية الصحية، فاعتبرت منها ميدانا خصبا يسهل احتواؤه كما يسهل التأثير فيه عن طريق التعليم والخدمات الاجتماعية.

أما الطبقة المتوسطة والتي كانت تتمتع بالثقافة الى حد ما والتي كانت تمثل عماد المجتمع فلم يكن مجالاً لنشاط الارسالية الامريكية – ولا الارساليات الاجنبية – لأن هذه الطبقة بحكم انتشار التعليم، والثقافة بين أفرادها وتوفر الامكانات الاقتصادية للأسرة ولو بصورة تهيئ لها حياة كريمة كانت تحافظ على تراث المجتمع وتقاليده فضلا عن تمسكها بالمعتقدات الدينية التي تسلمتها من الآباء(١).

ولقد افسحت الامتيازات الأجنبية المجال لنشاط الإرسالية الأمريكية وغيرها من الارساليات وأمكن لها ان تمارس نشاطها بحرية والتدخل في أمور العقائد والأديان ونشر المذهب البروتستانتى وان تسترت بذلك خلف عدد كبير من مدارس الارسالية التي انتشرت في مختلف انحاء مصر والذى تستطيع ان تقوله: ان تلك الحرية في الممارسة قد سمحت لهذا النشاط التنصيري بالهجوم على الاسلام والدعوة الاسلامية ففى الجامعة الامريكية بالقاهرة التابعة لارسالية التبشير الأمريكية، نجد أن هذه الجامعة كانت تلعب دورا تنصيريا، فعلى سبيل المثال كان يدرس بها كتاب Ploblems of Religian ويقول هذا الكتاب عن النبى ﷺ انه في السنوات الأخيرة من حياته سار مداورا ويخترع الرؤى والأحلام الموافقة لحاجاته والاسلام دين حربى ينص على الجهاد على الكفار وتنقصه الصفات الرقيقة العذبة التي للنصرانية ولم يثبت أنه دين رقى وتقدم بل هو يجيز الرق وتعدد الزوجات(٢) هكذا كان هجوم المنصرين الامريكيين على الاسلام والرسول صلى الله عليه وسلم.

---

(١) طلعت ذكرى مينا: الارسالية الامريكية ونشاطها التربوى في مصر، ص ٤٣.

(٢) نبيل عبد الحميد: النشاط التبشيري الامريكى في البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣ – المجلة المصرية التاريخية، المجلد السابع والعشرون سنة ١٩٨١ ص ٢٧٠.

هذه الوسائل استخدام أحد مشايخ الحارات في الاتصال بالأسر الفقيرة لمعرفة عدد أولادها وتبين حالتهم المعيشية وابلاغ ذلك الى ادارة المدرسة والملجأ فتذهب احدى المنصرات الى هذه الأسر بدعوى الاحسان اليها والعطف عليها ويصل بعد ذلك الى أخذ البنين والبنات الى المدرسة والملجأ تحت ستار تربيتهم وتعليمهم والعناية بهم والعمل على تنصيرهم(٤).

ثانياً: الخدمات الطبية:

احتلت الخدمات الطبية مكانا بارزا في نشاط الارساليات الأجنبية في مصر وامتدت لتشمل المصريين جميعا في وقت كانت فيه الخدمات الطبية في البلاد تكاد تكون غير وافية بالغرض، فاتخذت الارساليات من هذه الخدمات مدخلا لها لتحقيق رسالتها في احتواء من يتنصر من المسلمين ومن يتحول من الاقباط للمذهب الذى تدعو اليه في وقت عمت فيه الامراض الاجتماعية من فقر وجهل ومرض انحاء المجتمع المصرى، فاستغل المنصرون تلك الناحية ابشع استغلال في سبيل الوصول الى مآربهم.. وذلك لأن المريض الذى يئنّ من آلام المرض مستعد أن يضحى بكل ما يملكه للتخلص من آلامه ... واذا كان المريض ابنه أو اباه أو زوجه زادت التضحية!! يدل على هذه المهنة القذرة قول احدهم "حيثما نجد بشرا نجد آلاما، وحيثما تكون الآلام تكون الحاجة الى الطبيب، وحيثما تكون الحاجة الى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير"(١).

وهناك مزية أخرى يجدها المنصر في مجال الطب أنه يستطيع الوصول الى جميع طبقات الناس حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم من جميع طبقات المسلمين وكان الاطباء لا يعالجون المريض أبدا الا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذى يشفيه هو المسيح ويدعوه الى اعتناق النصرانية التي يعالجه من أجلها(٢).

وأهم المستشفيات التي اسستها الارساليات هى:

١- **مستشفى هرمل الانجليزي:**

كانت هذه المستشفى في مصر القديمة ويرجع اختيارها الى رغبة هربر مؤسسها الذى رأى ان مصر القديمة حقلها واسع وزمامها يشمل قرى كثيرة آهلة بالسكان مثل قسم الخليج والبساتين والمعادى وأثر النبى وغيرها فضلا عن اتصالها بمدينة القاهرة شمالا والجيزة شرقا،

---

(٤) البلاغ: العدد ٣١٣٦ في ١٣ يونيه ١٩٣٣ السنة ١١ ص ٧.

(١) عمر فروخ والخالدى: المرجع السابق ص ٥٢.

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ – ٥٦.

كما يرجع الى أن هربر كان لا يحب المركزية في العمل بل أراد تسهيل امتداده حتى تأخذ كـل جهة من الجهات المجاورة نصيبها من الفائدة حتى تعم الخميرة كل العجين ونفس هذه الخطـة اتبعها فيما بعد عند تأسيس المستشفى الانجليزى في منوف واهتم مستشفى هرمل اهتماما خاصا بمعالجته البلهارسيا والانكلستوما التي كان يصاب بها نحو ٩٠% من المزارعيـن والفلاحيـن وكان نظام العمل في هذا المستشفى يغري الناس وخاصة العامة منهم على الـتزاحم والاقبـال على المستشفى، ففى الصباح المبكر تصرف التذاكر مجانا حتى الساعة الثامنـة فيقفـل بـاب المجانية وتصرف التذاكر مقابل خمسة قروش للتذكرة ويرجع السبب في ذلك الـى ان يعمـل المرضى على التبكير حتى يحضروا صلاة الصباح وسماع الـدرس الدينـى اذ يقـف أحـد المنصرين فيلقى في جموع المرضى درسا دينيا يتناول فيه احاطة الدين الاسـلامى بالتشـكيك ويجمع الاسباب الباطلة والواهية ليضلل بها صغار العقول ويبعدهم عن دينهم ولا تنحصر مهمة الطبيب في هذا المستشفى على فحص ووصف الدواء للمريض والقيام بعلاجه فقط بـل كـان لزاما عليه ان يسأل المريض عند الفحص عما ألقى عليه في درس الصباح الدينى وفـي هـذا يشعر المريض بوجوب الاصغاء والانتباه وحفظ ما سمعه من المنصر حتى يلقى من الطبيـب عناية كبيرة ويندس المنصرون بين المرضى ليتعرفوا بأحوالهم والطرق التي يغزون بها قلوبهم وافئدتهم فمن كان فقيرا منوه بالغنى والسعادة ومن كان مريضا بداء خطير وعدوه بان يتوسطوا له لدى الاطباء لينال الشفاء العاجل ومن كان عاطلا فتحوا له باب الأمل بايجاد ما يريده مـن عمل ومن كانت أرملة أخذوا أبناءها الى ملاجئهم وأغدقوا عليهم النعم والهدايا واخبروهم بـأنّ ذلك من فضل المسيح وبركته(٢).

واذا دخل المريض المستشفى كان عليه حضور صلاة الاحد والاستماع للدروس الدينيـة كل يوم، ثم توزع عليهم النشرات التنصيرية لقراءتها ومن لا يعرف القراءة قرأهـا لـه احـد المنصرين وكلها تدعو الى اعتناق النصرانية والطعن في الاسلام ونبيه.

هذا وقد اثير موضوع قيام مستشفى هرمل الانجليزى بالتنصير بين مرضاه من الفقـراء المسلمين سؤال للنائب عبد الحميد الرمالى عن مدى صحة ذلـك فأجـاب رئيـس الـوزراء بالايجاب، وان الوزارة ستعمل لمنع القائمين بادارة المستشفى من القيام بأى دعاية دينية في

---

(٢) احمد محمد سالمان: خفايا المبشرين في تنصير ابناء المسلمين، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٣هـ ـ ١٨/١٩.

المستقبل(١).وكان المرضى مجبرين على حمل تذاكر سطرت على ظهرها عبارات تنصيرية ومثال ذلك تذكرة كان يصرفها مستشفى الارساليات الانجليزية بمنوف للمرضى ومكتوب عليها عبارة "المسيح يسوع جاء للدنيا علشان يخلص الخاطئين، أجرة الخطيئة هى الموت اما عطية الله فهى حياة دائمة، ... واحنا خدامينكم علشان خاطر يسوع" الى جانب بعض عبارات من الانجيل وكان المستشفى يكلف المريض بان يحمل التذكرة كلما غدا الى المستشفى حتى يحفظ ما عليها من ايات الانجيل.

ولم تختلف المستشفيات الأخرى كمستشفى أسيوط الامريكى ومستشفى طنطا الامريكى وغيرها من المستشفيات التي اقامتها الارساليات في مختلف القطر المصرى ففى صباح كل يوم يقرأ الانجيل مع المرضى وتناقش وتدرس بعض آيات الانجيل واذا خرج المريض من المستشفى تردد عليه الاطباء في منزله حتى يقع في حوزتهم.

ونخلص من هذا بان التطبيب كان وسيلة للعمل التنصيري مستخدما المستشفيات والمستوصفات التي لم تنشأ لدفع سقم ولا تخفيف ألم وانما أقيمت في معظمها لتفتن الناس في دينهم وتفسد عليهم عقائدهم، فالمرضى ملزمون بالاستماع لاقوال المنصرين مرتين في كل يوم ودعواهم بأن شفاءهم كان بسبب تمجيده الرب يسوع في صلواتهم اليومية واعتناقهم التعاليم النصرانية.

ثالثا: الاعمال الاجتماعية:

اهتم المنصرون بالعمل الاجتماعى النصرانى وتطبيق مبادئ النصرانية في جميع الصلات الانسانية فالنشاط الاجتماعى يجب ان يرافق التعليم المباشر للانجيل ويساعده من اجل ذلك قيام المنصرون بالعديد من الاعمال الاجتماعية مثل: إيجاد بيوت للرجال والنساء وإيجاد اندية وملاجئ للأيتام والعجزة والاعتناء بأعمال الترفيه والحيلولة دون تشغيل الاطفال واصلاح الاموال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل وبالأجور والامور الصحية والذين يقومون بهذه الدعوات الظاهرة لا يقصدون الاصلاح الحقيقى بل يقصدون التسلل والتنصير الى جماعات المسلمين(١).

---

(١) مجلس النواب: الهيئة النيابية الثامنة، دور الانعقاد العادى الأول، المجلد الثانى الجلسة ٣٢ في ١٩ اغسطس ١٩٤٢ ص ١٤٨٧.

(١) عمر فروخ وآخر: المرجع السابق ص ١٨٩ / ١٩٠.

ومن أهم الاعمال الاجتماعية التي استغلها المنصرون في عملهم التتصيري الاحسان والاحسان هنا لايأخذ صورة دفع المال فقط بل منها أيضا التعليم المجانى والمساعدة في ايجاد عمل.

أما كيف يستغل المنصرون اعمال الخير في سبيل التنصير فتمثله تلك الملاجئ التي انشئت لاطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وايوائهم واذا كانت هذه الملاجئ لن تجعل كل الاطفال نصارى فإنها على الاقل لن تبقيهم مسلمين كآبائهم(٢). ومن أهم هذه الملاجئ:

١- ملجأ ليليان تراشر:

اسسته مرسلة أمريكية تدعى ليليان تراشر لليتامى والارامل ومن التقطتهم من الشوارع والطرقات ممن لا يعرفون لهم ابا ولا أما والاطفال الذين فقدوا نعمة البصر والذين أساء اباؤهم معاملتهم بسبب مساوئ الزواج والطلاق والارامل اللاتى تركن أطفالهن بدون عائل أو سند وبعد الحياة داخل الملجأ وسط وسائل الاغواء التي تقوم بها المبشرات للتأثير على عقول البنات والاولاد واغرائهم بدين النصرانية وحملهم على الخروج من دين الاسلام(٣).

٢- ملجأ سان لويس بالعباسية:

وهو ملجأ اجنبى العقيدة واللغة والصبغة وتديره امرأة فرنسية ويعاونها جماعة من الراهبات وطريقة الحصول على هؤلاء الاطفال ان تذهب الامهات تحت جنح الظلام فيدفعن بابه المفتوح دائما ويتركن اولادهن في سلاسل مخصصة لذلك ثم يقرعن جرسا هناك لتنبيه الراهبات الى وجود طفل جديد فتسرع الراهبات الى حمله وهناك ينشأ الطفل في هذا الوسط اجنبيا بكل معنى الكلمة في اسمه ودينه ولغته وجنسيته وتنص لائحة الملجأ ان هؤلاء اللقطاء يتبعون الديانة النصرانية الكاثوليكية(١) وبهذه الطريقة ساعد الأجانب على انتشار جريمة الزنا مادامت هناك طريقة للتخلص من المولود بالتوجه الى هذا الملجأ ومن ناحية اخرى حصلوا على فريسة لتنصيرها.

ومن أوجه النشاط الاجتماعى التي تستغل للتنصير في مصر (جمعية الشبان النصرانيين) و (جمعية الشابات النصرانيات) ومن الانشطة التي تمارسها هذه الجمعيات المخيمات والمؤتمرات.

---

(٢) المرجع السابق ص ١٩٢ / ١٩٣.

(٣) الاخبار: العدد ٣٧٠٩ في ١٣ يوليه ١٩٣٣ السنة ١٣ ص ١.

(١) محمود سليمان : النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب ..مرجع سابق

هذا الى جانب الاندية التي كانت تضم نشاطا اجتماعيا مختلف الأنواع والألوان، فـــهناك تقام حفلات وتلقى محاضرات وليالى سمر ومطاعم ومنامات يأوى اليها من يشاء وغير ذلك من أسباب التسلية على أن الذى تضمه هذه الأندية ليس أمرا مقصودا لذاته وانمــا كــل مــا يــهم المبشرون لا أن يأتى الناس الى هذه الأندية ليتمتعوا بما فيها من أسباب التثقيف والترويح، بــل أن تجتذب بهذه الأسباب اناسا يستمعون الى صوت المنصر الانجليزى أو الأمريكى أو الفرنسى أو الهولندى وغيرهم(٢).

رابعاً: المكتبات وبيع الكتب:

لقد استغل المنصرون انشاء المكتبات لبيع الكتب في الظاهر ولتكون ستارا لادارة أعمــال التنصير واستجلاب الزبائن ومحادثتهم أثناء البيع وكانت مطبعة النيل التبشيرية تقوم بطبع هــذه الكتب وبيعها للجمهور(٣).

خامساً: الصحف والمجلات:

استغل المنصرون الصحافة لنشر دعوتهم التنصيرية، وحسبنا ان نذكر ما قاله المنصــر ولسون كاشن عن دور الصحافة في العمل التنصيرى "أن الصحافة لا توجه الرأى العام فقط أو تهيئة لقبول ما ينشر عليه، وبل هى تخلق الرأى العام" وقد استغل المنصرون الصحافــة فــي مصر للتعبير عن آرائهم النصرانية أكثر مما استطاعوا في أى بلد اسلامى آخر(١).

واتخذ المنصرون لهم صحفا في مصر تروج دعوتهم مثل بشائر السلام ومجلة الشــرق والغرب و غيرها مما سبق ذكره في مبحث صحافة أ هل الذمة.

سادساً: تشجيع اللغة العامية بدلا من الفصحى:

من الوسائل التي اتخذها المنصرون لتفكيك وحدة المسلمين وتشــويه ثقافتــهم العربيــة الاسلامية دعوتهم لاستعمال اللغة العامية بدلا من الفصحى لغة القرآن الكريم فيقــول هــؤلاء المنصرون أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم مادام هناك لغة واحدة يتكلمــها العرب ويعبرون بها عن آرائهم.

---

(٢) عمر فروخ، وآخر: المرجع السابق ص ٢٠١.

(٣) محمد عزت اسماعيل الطهطاوى: التبشير أو الاستشراق أحقاد وحملات على النبى محمد ﷺ وبلاد الاسلام، الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ص ٣٠.

(١) محمد محمود شاكر: المرجع السابق ص ٢٩٧.

وأخذ الأجانب المنصرون وأعوانهم بدراسة اللغة العامية المصرية، وأخذت كتبهم ووسائلهم تتابع في الظهور، وكان معظم الدارسين من الأوربيين الذين عاشوا في مصر وتولوا فيها مناصب عالية، منهم الدكتور ولهلم سبيتا.

ومن الأجانب الذين دعوا الى استخدام العامية في مصر وليم ولكوكس فقد كان لا ينى عن محاربة الفصحى بالدعوة الى اقصائها عن ميدان الكتابة والأدب واحلال العامية محلها، إذ ألقى محاضرة في نادى الأزبكية وكان موضوعها لماذا لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين، فقال : إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ولو ألغوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مخترعين، ثم اتجه بعد ذلك الى الانجيل فترجمه الى العامية وصار مبشرا يجادل الناس في عقائدهم ويحمل الى القرى النائية الأدوية، وظل يعمل في مستشفى هرمل الانجليزى الذى مارس من خلاله التنصير بالنصرانية بين المترددين على المستشفى(١).

كما كان المنصرون يعلنون عن وجود فرع لتعليم فن الأشغال اليدوية في نادى الشابات التابع لجمعية المرسلين الأمريكان، وأنه يمكن لكل فتاة أن تلتحق بهذا الفرع فتتعلم التطريز وغيره مقابل عشرة قروش شهريا، وكان هذا الاعلان يخدع الكثير من الأسر التي تود ان تكون بناتها خبيرات بالأشغال اليدوية، وعندما تجتمع الشابات المسلمات في النادى تجتهد المنصرات في التودد اليهن والتقرب منهن ليضمن استمرارهن على الحضور حتى اذا مضى اسبوع أو اثنان على حضورهن طرقت المنصرات باب التنصير بين هؤلاء الفتيات في صيغة حكايات عن المسيح المخلص والمنقذ(٢)، كما كانت هناك بعض المنصرات الامريكيات يتنقلن بين القرى وهن حاملات أدوية ونشرات دينية، فيزرن الأهالى في بيوتهن ويوزعن عليهم هذه الادوية مجانا وينشرون بينهم العقيدة النصرانية.

---

(١) أنور الجندى: الاسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب، مطبعة لرسالة (ب.ت) ص ٢١٦، عمر الدسوقى: في الادب الحديث، الجزء الثانى، الطبعة الخامسة، دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٠.

(٢) البلاغ: العدد ٣١٤٣ في ٢٠ يونيه ١٩٣٣، السنة ١١ ص ٧.

المبحث الرابع :

إلغاء السلطنة والخلافة وإلغاء تطبيق الشريعة

تمهيد :

لابد قبل البدء في المخطط اليهودى الانجليزى الذى تمت فيه فصول هذه الجريمة من القاء نظره سريعة على حياة "مصطفى كمال أتاتورك" ذلك الرجل الذى جعل منه الاعلام الغربى وكتاب المستشرقين البطل المخلص – المنقذ – بل رسخ في أذهان الصبية في تركيا انه الإله وذلك في عهد الالحاد الذى حكم به هذا الرجل، أكبر وأطول خلافة اسلامية هذه الشخصية أصبحت اسطورة سيطرت على أذهان بعض القادة السياسيين في البلاد الاسلامية في عهده وبعد هلاكه، مما جعل الاستاذ أبا الحسن الندوى يقول: "أصبح اتاتورك رمز التقدم والثورة في كل بلد ناهض وفي كل مجتمع متحرر من العالم الإسلامي، والمثل الأعلى للقادة والمفكرين السياسيين المسلمين على اختلاف اجناسهم وبيئاتهم ولا نعرف زعيما – على فقره في النبوغ العقلى والتعمق – من زعماء البلاد الإسلامية، أثر في النفوس والعقول وأثار الاعجاب بشخصيته وأعماله، واثار الرغبة في تقليده والاحتذاد به، مثلما فعل أتاتورك في الزمن الأخير"(١).

- ولقد صورت كتابات كثيرة حول شخصية هذا الرجل له أو عليه ومن حقيقة نسبه وأهدافه ومن الذى كان يوجهه أو يخطط له:

فمن حيث النسب قال المؤرخ ارغولد تونى في كتابه (العظماء المعاصرون) يذهب الى ان دما يهوديا يجرى في عروق الأسرة الكمالية التي كانت تقطن سلانيك(٢).

- ولد مصطفى في سلانيك مقر يهود الدونمة في تركية عند قدومهم من أسبانيا .. ودخل المدرسة العسكرية، وبعد تخرجه أرسل الى الجيش الخامس الذى كان مقره الشام، ثم بعث الى يافا للتدريب في قسم المشاة إلا أنه هرب مستخفيا الى سلانيك وبعد وساطات سمح له بالبقاء وعين ضابطا في الجيش الثالث المرابط في سلانيك. وأصبح ينتقل من قطر الى قطر ومن منصب الى آخر الى أن كلف في عام ١٩١٨ للمرة الثانية قائداً للجيش السابع في فلسطين، وما لبث أن انسحب بالجيش التركى عائدا الى تركيا – ويستدل من ذلك مؤلف كتاب (الرجل الصنم البرهان في دراسة مستفيضة ان مصطفى كمال لم ينسحب بجيشه الا وهو متواطئ مع الجنرال الانجليزى "اللنبى" لتسليم سوريه للانجليز بلا قتال حقيقي (١) .

---

(١) أبو الحسن الندوى: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص ١٢. نقلا عن مشهداني .. مرجع سابق ص٢١٥

(٢) محمد صبيح: أتاتورك ص ٤٨. نقلا عن نفس المصدر ص٢١٥

(١) الرجل الصنم ص٩٨ ، انظر عبدالكريم مشهداني : مرجع سابق ص٢١٦ ــ ٢١٧ .

بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى كلفه السلطان وحيد الدين بالذهاب الى الاناضول مفتشا للجيش الثالث مزودا بصلاحيات واسعة، وفي الأناضول أعلن عصيانه ضد الدولة، واستقال من الجيش، وعقد بعدها عدة مؤتمرات مطوله لتحقيق رسالته من خلالها منها مؤتمر "أرضروم" في ٢٣ يوليو ١٩١٩م، ثم بعد شهرين دعا الى مؤتمر "سيواس" في ٨ سبتمبر عام ١٩١٩م . وبعد سقوط اسطنبول رسميا بيد الحلفاء انتقلت جمعيته الوطنية والتى عرفت بالمجلس الوطنى الى أنقرة وافتتح فيها مجلس الأمة في ٢٤ ابريل ١٩٢٠م.

وبعد ذلك بدأت قصة البطل الاسطورة على بداية حروب اليونان والتي كان قائدها أحد العسكريين البارزين الأتراك وهو عصمت إينونو.. في ٦ يناير ١٩٢١ وقعت معركة إينونو الأولى على اثر الهجوم الذى شنه اليونان على القوات التركية، وانتهت المعركة بانتصار الاتراك وكان انتصارا بالغ الاهمية ليس في تركيا فحسب بل في العالم الاسلامى كله وانطلقت الهتافات والقصائد والمديح حيث كان أول نصر للمسلمين بعد الهزائم المتكررة والاحباط الذى أصاب المسلمين ولقب بعدها قائد المعركة بـ عصمت اينونو واخذ هذا اللقب حتى أولاده من بعده الى يومنا هذا. وفي مارس من العام نفسه وقعت معركة اينونو الثانية وانتهت بغلبة الاتراك كذلك على اليونان وبعد ثلاثة أشهر خاض الاتراك المعركة الفاصلة مع اليونانيين وهى معركة صقاريا التي حققت النصر الكاسح للاتراك وألقت باليونانيين في البحر - وحينها أطلق على مصطفى لقب "الغازى" - وكان هذا اللقب لا يطلق الا على الخلفاء الأقوياء من قبل.

وما ان تم له هذا النصر في المعارك ضد اليونان - هذا النصر الذى يشكك فيه بعض المؤرخين وانه بمساعدة انجلترا حتى تصنع منه بطلا حربيا بأن يطاع وان يسود - أو يفصل عدد من القادة العسكرين الأفذاذ، ولم يكن لمصطفى كمال فيه الا القليل من الجهد والتخطيط .

حتى استوى على قمة القيادة العليا للبلاد وأصبح الامر الناهى - واستطاع اسقاط - جميع خصومه ومعارضيه - وان كانوا على حق في معارضتة، وتحذير الأمة منه - الا ان الناس في ذلك الوقت قد اسكرتهم نشوة النصر على اليونان، وكذلك خدّروا بالغزو المتكرر، الذي سيطر على تفكيرهم واختياراتهم.

بعد ذلك تمكن مصطفى من الغاء الخلافة، وتسنم منصب رئيس الجمهورية التركية - بعد محاولات من مسلمى الهند والعالم الاسلامى أن يكون هو الخليفة الا انه قابل ذلك بالرفض

الشديد – ثم على اثر ذلك قام بأكبر و أعنف حمله علمانية حطمت معالم الاسلام في تركيا(١) – شكلا ومظهرا وروحا واصلا – فلم تكن حرية علمانية كما يدعون بل الحادا جبريا.

وهذه نماذج من أقوال وافعال مصطفى كمال تبين لنا من خلالها شخصيته وما جناه على المسلمين.

كما هو معروف من سيرته انه انضم الى جمعية الاتحاد والترقى ودخل مع الماسون(١) ثم الحق باحدى الشعب التي تتألف منها الجمعية، وكانت هذه الشعبة فرعا من منظمة (النيهلت) الدولية التي تضم اشتاتا من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود(٢). ومنذ كان طالبا كان يدعو الى الغاء القوانين العتيقة.

وأقسم مع أعضاء الجمعية على (مكافحة استبداد السلطان – وانشاء حكومة دستورية تكون مهمتها تحرير الشعب من رجال الدين، وتحرر النساء من الحجاب)(٣).

وينقل الاستاذ الندوى عن بعض من عرفوه (كان بفطرته ثائرا لا يحترم دينا او انسانا او وضعا من الأوضاع، ولا يقدس شيئا على الاطلاق)(٤).

ومن أقوال مصطفى: "ان الامبراطورية العثمانية قامت على اساس الاسلام، وان الاسلام بطبيعته ووضعه عربى، وتصوراته عربية، هو ينظم الحياة من ولادته الى وفاته، ويخنق الطموح في نفوس اتباعه، ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام، والدولة لاتزال في خطر مادام الاسلام دينها الرسمى"(٥).

وكان كثيرا يردد "إن قوة العقل والإرادة تتغلبان على قوة الإله، وكان مصمما على سن قوانين لمنع الدين في تركيا، ولو احتاج ذلك إلى استخدام القوة، والى الخدعة والتضليل(٦)" وقد استخدمها جميعا في مخططه وبأبشع الأشكال.

---

(١) انظر: عبد الكريم مشهدانى: المرجع السابق ص ٢١٧ – ٢١٩.

(١) الرجل الصنم ص ٧٠.

(٢) الذئب الأغبر ص ٣٠.

(٣) الذئب الأغبر ص ٢٧.

(٤) الصراع: المرجع السابق ص ٦٤.

(٥) نفس المرجع ص ٧٠.

(٦) .الرجل الصنم ص ٧٢ .

هذا هو أتاتورك البطل المخلص والذى اغتر به للاسف مجموعة من كبار الادباء والمفكرين واستغلال أتاتورك للاسلام.

لقد استغل مصطفى كمال الاسلام لا تديناً وعبادة لله تعالى ، وإنما ليقينه برسوخ العقيدة ومدى عمقها في الامة التركية خاصة وفى باقى الأقطار المسلمة عامة، ويعرف مدى القوة التي تنطوى عليها نفسية الجندى التركي حيث يقاتل دفاعا عن دينه، ومدى البذل الذى سيناله من الشعوب المسلمة اذا علمت انه يقاتل باسم الاسلام - وفعلا هذا ما حصل له من جمهور المسلمين من مساعدات مالية ومعنوية و ...

ومن هذا المنطلق راح مصطفى واتباعه بمظاهر التدين والتقوى - وهو في حقيقته كما وضح جليا كاره للدين متربص به شرا - بل انه ظهر وله صور مازالت بلباس وزي عالم الشريعة وكان حريصا وأتباعه في بداية ظهوره على ارتياد المساجد مع الناس للصلاة. وحضور المناسبات الدينية (وما اكثرها في ذلك الوقت) من موالد - واحتفالات دينية[١] أخرى.

واتقانا للتمثيل استقدم مصطفى كمال أحمد السنوسى الكبير وقربه اليه واتخذه ستارا لهذه التمثيلية[٢].

وكان ينادى في حرب الاستقلال "ان الكفار قادمون، سيجبرونكم على لبس القبعة وسيدوسون على القرآن، وسيعتدون على أعراض زوجاتكم وامهاتكم وبناتكم"[٣] ولعله كان يقصد نفسه بقوله "الكفار قادمون".

هذا هو مصطفى كمال وهذه هى أقواله وفكره تصرفاته وسنرى ما هى اجراءاته العلمانية واعماله المستقبلية، والتي للاسف نجح فيها نجاحا كبيرا. مازالت تركيا والعالم الاسلامى الى اليوم تعانى وتكتوي بنارها. ولازال الغرب الصليبى يمجده ويثنى عليه. للجهود الجبارة التي ما كان يحلم بها في ظل الخلافة وأولها. الغاء الشريعة بالكامل والغاء الخلافة

---

(١) انظر مشهدانى، العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص ٢٢٨.

(٢) العرب والترك لجميل بيهم : ص ١٧٦.

(٣) الرجل الصنم ص ٣١٣؛ وانظر: التل، الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام ص ١٠٠.

للأبد (كما يريدون) ومسخ شخصية الفرد المسلم إلى انسان غربى آخر تماما كما نلخصه في السطور التالية:

١- القانون المدني. أو إلغاء الشريعة.

في ٨ نيسان من ١٩٢٤ - ١٣٤٣هـ اصدر المجلس قانونا بتشكيلات المحاكم ألغيت بموجبه المحاكم الشرعية وعهد بمهام هذه المحاكم لمحاكم الصلح والمحاكم الأصلية (المركزية).

ثم شكلت لجنة لوضع القانون الجديد واستقدم خبراء أجانب لوضعه فاقتبس القانون الجنائي من التشريع الإيطالي والقانون المدني من القانون السويسري والقانون التجاري من القانون الألماني(١).

وفي ١٠ نيسان عام ١٩٢٨ جرى تعديل على الدستور التركي فرفعت عبارتا (تنفيذ الأحكام الشرعية) و (دين الدولة الإسلام) وعدل شكل اليمين الذي يحلفه رئيس الجمهورية وأعضاء الوزارة ومجلس النواب فأصبح الحلف بالشرف بدلا من الحلف بالله(٢).

٢- إلغاء المدارس الدينية.

كان أتاتورك يكره اللغة العربية لأنها لغة الإسلام وكان ينتظر الفرصة المناسبة للقيام ضدها بحمله واسعة، فعلاوة على أن المدارس التركية تعتمد الأبجدية العربية فانها كانت تعلم اللغة العربية على نطاق واسع(٣).

وكانت مدارس الشريعة تغذى مساجد القرى والمدن بالأئمة والخطباء والوعاظ والحفاظ والمرشدين وكانت منتشرة جدا حتى انه كان في ولاية (قونيه) في سنة ١٣١٧هـ ٦٦ مدرسة فيها ٣٦٦٦ طالبا وقد تقرر إلغاء هذه المدارس في نفس الجلسة التي تم فيها إلغاء الخلافة ووزارتي الشرعية والأوقاف بالإجراءات التالية:

---

(١) تركيا والسياسة العربية ص ١٠٢.

(٢) تركيا الحديثة: ص ٢٠١.

(٣) الرجل الصنم ص ٣٥٠.

أولاً: المؤسسات العلمية والتدريسية في بلاد الجمهورية قد ربطت بوزارة الأوقاف.

ثانياً: جميع ما يدار من قبل وزارتي الأوقاف والشرعية، أومن قبل الأوقاف الخصوصية من مدارس ومكاتب ربط بوزارة المعارف.

ثالثاً: جميع ما في ميزانية الأوقاف والشرعية من مخصصات المدارس ينتقل إلى ميزانية المعارف.

رابعاً: وزارة المعارف تنشئ في الجامعة كلية إلهيات عالية لتنشئة متخصصين في الأمور الدينية كما تنشئ مدارس خاصة لتخريج الأئمة والخطباء وغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية.

ولكن مصطفى كمال لم يلبث أن ألغى كلية الإلهيات واقفلها كما ألغى المدارس الدينية التي أنشئت لتخريج الأئمة والخطباء واقفلها كذلك عام ١٩٣٠(١).

٣- حرب القبعة:

قصة لبس القبعة أو عدم لبسها والتي تعتبر عند الأغلب قضية من التوافه التي كبرها (مصطفى) فجعل فيها قضية الجماهير وفرضت من أجلها حرب دموية رهيبة بل وهاجر بعض العلماء والمفكرين من تركيا إلى مصر أو الشام أو غيرها – فرارا من بطش قانون القبعة كما سمي من بعد.لأنهم كانوا ينظرون إلى القبعة كرمز للكفر وعلامة على أهله ــ وكما ذكر صاحب كتاب الرجل الصنم (أن الذي أتى به مصطفى – على شكل قبعة – لم يكن إلا صليباً وقماشاً، وهذا الصليب الجديد لم يأت به مصطفى لكونه عنصرا للهندام، بل من أجل تحدى الإسلام)(١) والذي يعيش مع أحداث تلك الأيام العصيبة يتحسر على أطول وأعظم دولة حكمت باسم الإسلام ثم يؤول أمرها إلى هذا المعتوه – وتقوم في شوارعها حرب صليبية منها وفيها(٢)؟

---

(١) تركيا الحديثة ص ٧٢.

(١) الرجل الصنم ص ٣٢٤.

(٢) انظر تفاصيل واحداث اصدار قانون القبعة: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص ٦٦، الذئب الأغبر ص ٢١٤، تركيا الحديثة ص ٧٩، العلمانية واثرها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ص ٢٨٣ – ٢٨٩. وقد اقتبست منه واستفدت في الرجوع إلى المصادر الأصلية.

نتابع الإجراء في طريق مسخ الدين من قلوب المسلمين:

استعملت الجمهورية الجديدة التي يديرها الدونمة!! القوة بل والهيمنة في تطبيق كل ما تريد لتلحق بركب الأمم المتمدنة!! زعموا.

ولو كانت هذه الإجراءات من الأمور الشكلية فإضافة هنا إلى ما تقدم معنا من إلغاء الشريعة في التحكيم واستبدال القوانين الوضعية بها، كأساس ومبدأ للدولة تبعتها خطوات اجتماعية وتدخل في قضايا الناس الخاصة.

فحرمت الكتابة باللغة العثمانية (بالحروف العربية) واستبدلت الحروف اللاتينية بالعربية وجعلت ذلك إجباريا ليس في سجلات الدولة فحسب بل في كل ما يكتب ويطبع وينشر (وكان الكماليون) يعتذرون عن تأخيرهم في إلغاء الحروف العربية أنها لغة القرآن الكريم ولم يكن ذلك ميسرا في ظل الخلافة العثمانية! ولكن بعد أن طرحت الحركة النضالية عن الشعب التركي لباس القرون الوسطى من خلافه – إلى محاكم شرعية – إلى كتب فقهية وقرآنية عربية!!

وهيأته للباس الحضارة الجديدة ، فانه لم يعد يصح أن تبقى اللغة التركية خاضعة لسيطرة لغة أجنبية![1].

وقد عمدت الجمهورية الجديدة لتحقيق هذه الغاية إلى عدة إجراءات منها:

أولاً: اشتقاق كلمات تركية جديدة.

ثانياً: البحث عن كلمات تركية من بين اللهجات التركية المختلفة.

ثالثاً: أخذ الكلمات الأجنبية وخاصة الفرنسية كما هي[2]!

وحيث قامت لجنة بترجمة القانون السويسري حرصوا على عدم استعمال أي مصطلح عربي، فعبروا عن المصطلحات القانونية بواسطة الجمل!! مما يوقع في أخطاء كثيرة لفقر لغتهم التركية من المادة[3].

---

(١) تركيا والسياسة العربية ص ١٠٩. نقلا عن المشهداني - مرجع سابق ص٨٣

(٢) الرجل الصنم ص ٣٤٣.

(٣) نفس المرجع ٣٢٨.

يقول الأمير شكيب أرسلان "لقد كان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة على تركيا في حياتها العلمية والأدبية والاقتصادية وتعذرت الكتابة على الجميع بالحروف اللاتينية، فانحصرت في فئة قليلة وأصبحت الجريدة التي كان عدد قرائها بالألوف لا يقرأها الآن سوى بضع مئات، ولا تزال هذه الأزمة الكتابية مشتدة في تركيا، ولايزال الغازي مصمما على حمل تلك الأمة على الحروف اللاتينية حبا في التفرنج(٤).

إلغاء السلطنة (أول نوفمبر ١٩٢٢)

وحسم مصطفى كمال مسألة السلطنة بالقوة والتهديد، وذلك عندما تعرضت مسألة السلطنة في اجتماع المجلس الوطني في أول نوفمبر ١٩٢٢ لمناقشات طويلة، فرأى أنه من الضرورة إلقاء بيان مسهب في هذا الأمر. فتعرض لتاريخ الإسلام والأتراك، فذكر أن البشرية مرت بعهدين: الأول عهد الصبا والشباب البشرى، والثاني عهد الرشد والكمال الإنساني. فالعهد الأول هو الذي بدأ بآدم حتى محمد ﷺ حيث يبدأ العهد الثاني وهو عهد الرشد والكمال البشرى. وانتقل إلى انتخاب أبى بكر للخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ وآراء الصحابة في الخلافة بعد الوفاة، ثم تعرض لعمر ووفاته، وانتخاب عثمان، وخلافة على وما دار بينه وبين معاوية من حروب باسم الخلافة، وهنا يذكر أن الخلافة تحولت إلى سلطنة إسلامية باسم الخلافة. ثم تعرض لتاريخ الأتراك حتى قيام "هولاكو" بالاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م. وقتل الخليفة المستعصم العباسي، فرفع بذلك الخلافة من وجه الأرض. وذكر أنه لولا السلطان سليم الأول الذي فتح مصر عام ٩٢٤هـ - ١٥١٧م، وأعطى أهمية لشخص لاجئ يحمل لقب الخليفة، لما استمر هذا اللقب حتى ذلك الوقت، ويذكر للمجلس أن مقام السلطنة قد اجتمع في يد المجلس الوطني الذي يمثل الشعب، مبرهنا على ذلك بأن مقام الخلافة في بغداد في عهد الخلفاء العباسيين وفي مصر ظل يعيش قرونا بجانب السلطنة مع انفراده عنها.. وأكد أن مقام الخلافة بعد إلغاء السلطنة عنه لن يكون ضعيفا كما كان في بغداد ومصر، بل سيتربع فيه شخص عال يستند على الدولة التركية، مما سيحقق القوة والبركة والفائدة للشعب التركي والعالم الإسلامي(١).

---

(٤) حاضر العالم الاسلامى جـ ٣ ص ٣٥٢.

(١) انظر نص الخطبة في: مجلة المنار: خطبة الغازى مصطفى كمال باشا المجلد ٢٣، الجزء العاشر ديسمبر ١٩٢٢م ص ٧٢٢ - ٧٨٤.

ويتبين من حديثه أنه يحاول إثبات أن السلطنة والخلافة كانا منفصلين في التاريخ، وأنه يمكن إلغاء السلطنة بينما يمكن إبقاء الخلافة، وأن السلطنة ليست سوى سلطنة دنيوية يتولاها الشعب. ولعل أهم ماحرص عليه في بيانه هو استغلاله للشعور الديني، فيصف الرسول عليه السلام بأن "وجهه نورانيا، وكلامه روحانيا" ويذكر المجلس أن من المصادفات السعيدة أن يجتمع في يوم رحيل الرسول بعد أن أتم الرسالة. وأتم تأسيس الإسلام: "وها نحن أولاء في يومنا هذا - ١٢ من ربيع الأول - ندرك ذكرى ذلك اليوم، فقد ارتحل الرسول الأعظم إلى

دار البقاء في مثل هذا اليوم بالتاريخ العربي(١).

وقد أحيلت الاقتراحات المقدمة لإلغاء السلطنة إلى ثلاث لجان بالمجلس: لجنة الدستور، الشؤون الشرعية، والعدل، ورأس هذه اللجان الثلاثة الشيخ مفيد أفندي. ودافعت لجنة الشؤون الشرعية عن السلطنة على أساس أن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن أن تفصل(٢).

وبدأ النقاش يطول في هذا الأمر. ووجد مصطفى كمال أن اللجنة الدستورية والشرعية ضده وأن المناقشات تسير في اتجاه مضاد للهدف الذي يسعى إليه، وهو ما يعني هزيمة شخصية له وهو في بداية سعيه لتكوين دولة على أسس عصرية، عندئذ قطع مناقشات اللجنة واعتلى المنصة قائلا بصوت عال: "أيها السادة، أن السيادة وحق الحكم لايمكن أن تحول من شخص إلى هيئة عن طريق المناقشات الأكاديمية، وانما تؤخذ بالقوة والغلبة. فبالغلبة أخذ العثمانيون السيادة من الشعب واستمروا في حكمهم أكثر من ستة قرون. والآن فان الشعب سيستردها بالثورة ضد هؤلاء المغتصبين.

عندئذ أدركت اللجنة الشرعية عبث المناقشات، وأنها مسألة شكلية، وأن إلغاء السلطنة سيتم سواء وافقت أم لا.

وهكذا ظهر بوضوح أن مصطفى كمال قد أعد للأمر عدته، وأن المناقشات في المجلس أريد بها أن تكون شكلية. وتم إلغاء السلطنة بالتهديد بقطع الرؤوس المعارضة، الأمر الذي يثبت أنه كان يتعجل الحصول على السلطة المطلقة بأي ثمن ليصبح صاحب القرار، فعن

---

(١) مجلة المنار: المصدر السابق ص ٧٧٤.

(٢) Berkes, N, OP LIT. p. 450

طريق نقل سيادة الدولة إلى المجلس الوطني الكبير يستطيع إدارة شؤون الدولة بصفته رئيسا للمجلس.

وقد احتوى قرار إلغاء السلطنة على مادتين: نصت الأولى على تقرير الأمر الواقع من تركز حكم الأمة في المجلس وبطلان وجود حكومة الأستانة، أما الثانية فنصت على بقاء الخلافة في العائلة العثمانية، وذلك على النحو التالي:

١- بموجب قانون التشكيلات الأساسية، فان سياسة الدولة التركية قد انتقلت في يد المجلس الوطني الكبير. وبناء عليه فان الشعب التركي يعتبر الحكومة التي في الأستانة والتي تستند إلى السيادة والشخصية قد انتهت إلى الأبد في ١٦ من مارس ١٩٢٠م.

٢- أن الخلافة في آل عثمان وسوف ينتخب المجلس الوطني الكبير لها من آل عثمان وأرشدهم وأصلحهم علما وخلقا، والدولة التركية هي سند الخلافة(١).

وأقر المجلس مقدمة للقانون حملت فيها على السلطان لتآمره مع الأعداء ضد الحركة الوطنية، ونصت على أن أمثال هذه المواقف تثبت أن السلطنات الشخصية ليست إلا بلاء على رأس الأمم وبالموافقة على تجريد الخلافة من السلطة انتهى الصراع بين حكومتي استانبول وأنقرة، كما انتهت فترة مصانعة علماء الدين وأهل الأناضول.

وعندما سئل رأفت باشا - حاكم استانبول من قبل المجلس الوطني - عما يتوقعه لتركيا من فصل الخلافة عن السلطنة، أجاب: "تتوقع كل ما يتوقعه بلد ديمقراطي من فصل الكنيسة عن الحكومة.

ويتبين لنا مما سبق أن أهم التبريرات التي حاول مصطفى كمال وأنصاره ترويجها: أن هذا الفصل لا يعد مخالفا لتعاليم الإسلام، وأن التاريخ يثبت أن الخلفاء عندما جمعوا بين السلطة الدينية والزمنية سارت دولهم إلى الفناء والانقراض، وأن الزمن الحالي لا يقاس بزمن الخلفاء الراشدين ولا شك أن هذه الحجج جاءت متأثرة إلى حد كبير بما حدث في أوربا من صراع بين الكنيسة والحكومات وما أسفر عنه ذلك الصراع من فصل بين السلطة الدينية والزمنية، فاقتصر تأثير رجال الدين هناك على الناحية الروحية بينما تركت شؤون الحياة إلى الحكومات.

---

(١) صحيفة الاهرام: السلطة والخلافة - حديث رأفت باشا، العدد ١٣٩٠٣، الأربعاء ٢٢ نوفمبر ١٩٩٢م.

أما شيخ الإسلام الأسبق للدولة العثمانية – الشيخ مصطفى صبري – فيذكر أن ما ابتدعه الكماليون من تجريد الخلافة من السلطة والتفريق بينهما – أمر يرجع إلى ارتداد الحكومة التركية وانتزاعها عن لباسها الديني، وأن مصطفى كمال ما اخترع هذا التفريق لإصلاح الإدارة التركية، وانما لانتزاع السلطة من آل عثمان: "فليس مرمى الكماليين فيما فعلوه سوى غرضين، أحدهما إفشال السلطة من آل عثمان ونقلها إلى مصطفى كمال، والتفريق بين الخلافة والسلطة. ثم نقل السلطة أولا إلى المجلس الوطني كان عبارة عن التستر والإيهام في المغزى والمرام. والغرض الثاني إلغاء الخلافة وأبطالها على التدريج، لإخراج حكومتهم من أن تكون حكومة إسلامية(١).

ويذكر أيضا أن الكماليين اتخذوا من فتح أزمير حجة على ما تقدم وما تأخر، فأخرجوا الخلافة عن الحكومة وخرجوا عن الدين، ووجدوا فرصة الجرأة عليه بين أعين المسلمين وظهرانيهم خلال التصفيقات والتهاني التي نالوها منهم بذلك الفتح.

ومن الواضح بعد استعراض التبريرات المختلفة لتجريد الخلافة من السلطة أن الهدف كان تولى تقاليد السلطة في الدولة تمهيدا لإلغاء الخلافة وتأسيس دولة على النمط الغربي.

وهكذا بإلغاء السلطنة أصبحت حكومة المجلس الوطني هي التي تدير تركيا، ففي الرابع من نوفمبر ١٩٢٢ سلم الصدر الأعظم توفيق باشا أختام الدولة إلى السلطان وحيد الدين، فانتهى بذلك منصب الصدر الأعظم من الدولة، وأدار رأفت باشا في نفس اليوم استانبول إداريا باسم المجلس الوطني الكبير. وتحقق بذلك خطوة من خطوات مصطفى كمال الرامية إلى الانفراد بالسلطة.

المجلس الوطني وإدارة تركيا:

بات السلطان وحيد الدين يتوجس شرا بعد تجريد الخلافة من السلطة، واصبح من المتوقع أن يترك العرش، حتى أن جريدة "الشرق الجديد" تساءلت في ٧ نوفمبر ١٩٢٢: "ماذا ينتظر السلطان السابق". ومع توجيه الاتهام بالخيانة العظمى إلى السلطان والوزارة السابقة، ودعوتهم للمثول أمام المحكمة، تأكد السلطان أن حياته في خطر، فاستعان ببريطانيا لتساعده على الابتعاد عن عاصمة الخلافة. ويمكن أن نتلمس أسباب هروب السلطان وحيد الدين، من

---

(١) مصطفى صبرى: النكير على منكرى النعمة، ص ١١ – ١٣.

الخطاب الذي بعثه عام ١٩٢٤ إلى رئيس جمعية تضامن العلماء بمصر - الشيخ محمد فراج المنياوى - إذ كان يتوجس شرا مما يدور حوله: "لم يكن ابتعادنا من نحو عام عن عاصمة الخلافة إلا هجرة بعد الذي شهدنا حول العرش من ظلمات وعصيان هائل فترتب على برنامج معتد أثيم فلم نترك العاصمة إلا لنجد محيطا مساعدا للدفاع عن نصوص الشريعة الغراء وحق الكلمة العليا وقد رمينا بوزر هذه الغيرة الدينية ولكن كانت الحاشية توجس شرا من هذا الاستعداد للدفاع، وانتهى بنا ذلك إلى ضرورة الابتعاد عن عرشنا، وها هي الأيام أتتنا بفجائع كنا نقشعر من سماع حديثها.

وقرر المجلس الوطني في نفس اليوم الذي فر فيه السلطان وحيد الدين، خلعه من الخلافة، واستصدر مصطفى كمال فتوى دينية بخلعه بسبب خضوعه للأعداء وهو يحمل صفة إمام المسلمين، ومناوأته للجهاد ضدهم وقراره إلى جانبهم.

وتم انتخاب عبد المجيد بن عبد العزيز - وابن عم وحيد الدين - خليفة، فأرسل مصطفى كمال باسم المجلس في ١٩ من نوفمبر ١٩٢٢ برقية إلى الخليفة الجديد يخبره فيها بقرار انتخابه خليفة.

وأرسل مصطفى كمال برقية إلى رأفت باشا حاكم استنبول، يخبره بشروط انتخاب عبد المجيد خليفة: "أن عبد المجيد أفندي سوف يلقب بخليفة جميع المسلمين ولن يضاف إليه أي لقب آخر، وعليه إبلاغنا برقيا عن طريقكم بنص البلاغ الذي سيوجهه للعالم الإسلامي، وبعد موافقتنا عليه سنعيد النص إليه عن طريقكم لأذاعته رسميا، ويجب أن يتضمن النقاط التالية:

١- أن يعبر صراحة عن سروره لانتخابه خليفة من قبل المجلس الوطني الكبير لتركيا.
٢- التنديد بسياسة وحيد الدين.
٣- أن يتضمن بلاغه بشكل مناسب المواد العشر الأولى للدستور، والتأكيد على الشخصية الخاصة للدولة التركية والمجلس الوطني الكبير وحكومته، وأن يعلن أن النظام الإداري هو أنسب الأشكال لصالح رغبات سكان تركيا والعالم الإسلامي.
٤- وان يتضمن بلاغه مدحه للخدمات التي أدتها الحكومة الوطنية الديمقراطية في تركيا، والجهود التي بذلتها.
٥- وما عدا النقاط المذكورة، فان البلاغ يجب ألا يتضمن أية إشارة تحمل مغزى سياسيا.[1]

(١) أنظر عبد الكريم مشهداني - مرجع سابق ..

وبموافقة عبد المجيد على هذه الشروط أصبح منصب الخلافة لاأهمية له، ولـــم يعـد للخليفة مكان في دولة حديثة، ولهذا فانه ليس من المبالغة القول بأن الخلافة من الناحية العملية قد ألغيت مع إلغاء السلطنة في أول نوفمبر ١٩٢٢.

نتائج إلغاء السلطنة:

مع فصل السلطنة عن الخلافة تلاشت فكرة الدولة العثمانية-العظمى- وأصبحت إمكانية قيام الجمهورية في تركيا أكثر قربا واحتمالا. وقد طبع هذا الفصل الخلافة بطابع الروحانيـــة. فأصبح مجالها مقصورا على الناحية الروحية ووسائل العبادة، وهى صورة لا تعرفها الخلافـــة الإسلامية. ويضيف شيخ الإسلام الأسبق-مصطفى صبري – نتيجة هامة، فيذكـــر أن فصـــل السلطنة عن الخلافة قد أفسدهما معا، لأن الخلافة في اللغة عبارة عن النيابـــة عـــن حكومـــة رسول الله ﷺ في أمته. فإذا جردت من السلطة فإنها تذهب. أما الفساد الخاص بالسلطة فلأنها عندما اقترنت بالخلافة كانت مقيدة بأحكام الدين الإسلامي إذ لا معنى لكون الحكومة حـــائزة للخلافة، إلا كونها نائبة عن حكومة الرسول ﷺ ومقيدة بأحكام الدين وعند افتراقـــها عنـــها تعتبر غير مقيدة بها.

وسرعان ما ظهر مفهوم مصطفى كمال عن نظام الدولة، وموقفه مـــن وحـــدة العـــالم الإسلامي والخلافة ويكشف لنا عبد العزيز جاويش – الذي كان يتولى لجنة الشؤون الثقافيـــة الإسلامية في تركيا – موقف مصطفى كمال من خلال حديث دار بينه وبين مصطفى كمال في نهاية ١٩٢٢ – استخلص من خلال هذا الحديث موقفه وإصراره على أن هؤلاء الخلفاء هـــم الذين كانوا مصدر شقائنا وبلائنا ويتضح مما دار في هذا الحوار أن مصطفى كمال وأعوانـــه أنهم كانوا يهدفون إلى القضاء على الخلافة كجزء من خطة مرسومة لتحويل الدولة عن النظام الإسلامي.

وقد بدأ مصطفى كمال في تلك الفترة يجاهر بآرائه ضد الدين للمرة الأولـــى صراحـــة، وهو ما يتضح من حديث دار بينه وبين الكاتبة الإنجليزية، جريس اليسون، فـــي نهايـــة عـــام ١٩٢٢ عن الحجاب والدين، إذ ذكر لها أن الحجاب سوف يزول خلال عامين من تركيا. وعن الدين تروى الكاتبة أن مصطفى كمال صرح لها تصريحا خطيرا يكشف عن حقيقة موقفه من المسألة الدينية: "انك تتحدثين عن الدين، فاعلمي أنى رجل لا دين له، وفي بعـــض الأحيـــان أتمنى لو ألقيت الأديان في قاع البحر".

وتذكر الكاتبة أيضا قوله: "أن الحاكم الذي يحتاج إلى الدين لتثبيت حكمه لهو حاكم ضعيف، كمن يحاول أن يمسك الشعب بخيوط واهية. أن شعبي سيتعلم مبادئ الديمقراطية الصحيحة، ومبادئ الحقيقة والعلوم. وسوف تزول الخرافات وسندع للناس حرية العبادة، فلكل عقيدته، شريطة ألا تتعارض والعقل أو تدعوه إلى الاعتداء على حرية الآخرين ".

إلغاء الخلافة (٣ من مارس ١٩٢٤م) :

كان من الطبيعي بعد إعلان الجمهورية أن يتخذ مصطفى كمال الترتيبات لإلغاء الخلافة، وأن يفصح عن وجهته إلى الغرب، أما حديثه عن الخلافة والجامعة الإسلامية، فتبدو فيه النية المبيتة والعزم الراسخ على إلغاء الخلافة، فكلاهما في تصوره أمر غير واقعي. بل انه ينكر تماما وجود الجامعة الإسلامية في يوم من الأيام ويعتبرها فكرة خيالية، ويظهر استخفافه بها. أما الخلافة فقد صارت كما يراها عبئا ثقيلا على كاهل الأتراك بينما الخلافة أمر يخص مسلمي العالم.

وحقد مصطفى كمال الدفين على مقام الخلافة، الذي لم يعد يخفيه في تصريحاته، وعمله بالتالي على الإسراع في التخلص من الخليفة، قد يفسره خوفه من هذا المقام، وبخاصة بعد تحركات الخليفة في تلك الفترة. الأمر الذي جعله يسرع بالتخلص من كل ما يشكل خطرا على مركزه من ناحية، وخططه من ناحية أخرى. لذلك لم يكتف فقط بتصريحاته عن وجهته الغربية وانما حاول أيضا تمرير مشروع في المجلس الوطني لالغاء المدارس الدينية ولكن لم يكن من السهل قبول هذا المشروع.

وفي لقاء مع مصطفى كمال أزاح الستار عن سر هام، فعندما سئل عن عدم إلغاء الخلافة بعد إلغاء السلطنة أجاب بوضوح: "عندما ألغينا السلطنة كان من الواجب أن تلغى الخلافة في الوقت نفسه، وان يطرد أفراد الأسرة القديمة من البلاد بسبب سلوكهم الإجرامي. ولكن اتخاذ مثل هذا الإجراء كان أمرا معقدا وقاسيا على شعبنا، وبخاصة أن معاهدة السلام (لوزان) لم تكن قد وقعت (١).

وهذا الأمر يثبت بما لايدع مجالا للشك أن إلغاء السلطنة لم يكن سوى خطوة إلى إلغاء الخلافة تمهيدا لعلمنة الدولة.

---

(١) عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ص٢٧٢ .

وما لبثت حدة الهجوم بعد لقاء مصطفى كمال بالصحفيين، أن ازدادت حدة الهجوم على الشرع الشريف في الصحافة وقد أثيرت مسألة تعدد الزوجات في ذلك الوقت و لم يكن هناك ما يبرره، ولكن ذلك كان تمهيدا لما ستتخذه الجمهورية التركية من أمور في المستقبل.

أما جريدة (ايلرى) – لسان حال الكماليين في الأستانة – فكانت أكثر جرأة في الهجوم على الشرع الحنيف، فطالبت في ٢٤ من فبراير ١٩٢٤ بإلغاء وزارة الشريعة والمحاكم الشرعية وتعدد الزوجات وطالبت بالعيش خارج نطاق قوانين الشريعة. كما طالبت باستبدال اللاتينية بالعربية بحجة أن الحروف العربية سبب التأخر في العلم والتعليم، مما أخر تركيا وجعلها وراء الأمم(١).

ولم يقتصر الأمر على الصحافة فقط بل زاد إلى جميع وسائل الاتصال مع الشعب .

وكان التنديد بالخلافة والخليفة والمدارس الدينية بحجة حماية الجمهورية واضحا في جلسة المجلس الوطني في ٢٧ من فبراير ١٩٢٤م، إذ انتهز أنصار مصطفى كمال فرصة تخصيص الجلسة لمناقشة الميزانية، فأثاروا مسألة مخصصات أعضاء الأسرة العثمانية وميزانية وزارة الشؤون الدينية والأوقاف فقام واصف بك نائب "صاروخان" خطيبا فذكر أن الأمم التي أعلنت نظام الجمهورية في أوربا طردت الملك من بلادها، وحض الأعضاء والحكومة على إلغاء الخلافة والمدارس الدينية، وقام بعده نواب كثيرون عزفوا على نفس الوتر، كان أبرزهم شاعر الطورانية "محمد أمين" الذي قال: مادام الله والنبي موجود!!فلالزوم لواسطة ، والدين يمنع هذه الواسطة. فمادمت أرى تحت هذا السقف إخواني . والعلماء يمثلون الأمة فأنا لا أرضى بشيء آخر. فإما كل شئ وإما لا شئ.

وقد تبلورت مناقشات الكماليين في المجلس فيما يلي:

١- ضرورة إلغاء الخلافة.
٢- فصل الشئون الشرعية عن الوزارة.
٣- إلحاق المدارس الدينية بوزارة المعارف العمومية.
٤- توحيد المحاكم المدنية والشرعية.
٥- ضرورة طرد آل عثمان من البلاد.

---

(١) مصطفى صبري: النكير على منكري النعمة ص ٢٠٣.

وجاء قانون إلغاء الخلافة الصادر في جلسة الثالث من مارس ١٩٢٤ على النحو التالي:

١- يخلع الخليفة، وتلغى الخلافة، لأنها في جوهرها مندمجة في معنى ومفهوم كلمة الحكومة والجمهورية.

٢- يحرم الخليفة المخلوع وجميع أعضاء الأسرة العثمانية ذكورا وإناثا بما فيهم أزواج الأميرات (الأصهار) من حق الإقامة داخل حدود الجمهورية التركية إلى الأبد.

٣- على جميع الأفراد المذكورين في البند الثاني، مغادرة أراضى الجمهورية التركية خلال عشرة أيام كحد أقصى من تاريخ نشر هذا القانون.

٤- تسلخ الوضعية القانونية والجنسية التركية من الأفراد المذكورين في البند الثاني.

٥- من الآن فصاعدا يحظر على الأفراد المذكورين في البند الثاني التصرف في ممتلكاتهم الثابتة داخل الجمهورية التركية. ولهم الحق في تصفية علاقاتهم بالالتجاء إلى المحاكم العامة بطريق التوكيل خلال سنة واحدة.

٦- تعطى مبالغ للأفراد المذكورين في البند الثاني بواسطة الحكومة لمرة واحدة على أساس تغطية نفقات تكاليف رحلتهم تختلف بمقدار درجات ثروتهم.

٧- على الأشخاص المذكورين في البند الثاني تصفية أملاكهم الثابتة خلال مدة سنة واحدة وذلك بعلم الحكومة وإذنها. وفي حالة عدم التصفية فإنها تصفى بإشراف الحكومة وتعطى لهم حصيلتها.

٨- تنقل ملكية الأفراد الذين استولوا على عرش الدولة العثمانية، والواقعة في الجمهورية التركية والمسجلة في الطابو[1] إلى الأمة.

٩- تنقل المفروشات والتحف والممتلكات الشخصية الموجودة في القصور والقلاع إلى الأمة.

ويظهر من صياغة القانون مدى حرص مصطفى كمال على استئصال الأسرة العثمانية ذكورا وإناثا بما فيهم الأصهار من الجمهورية التركية ونزع الجنسية التركية عنهم، وذلك حتى لا يشكل أي فرد منهم في المستقبل نواة يتجمع حولها فيما بعد أنصار الخلافة فتهدد سلامة الجمهورية.

---

(١) الطابو: ادارة سجلات الأرض.

نتائج إلغاء الخلافة :

لقد ترتب على إلغاء الخلافة نتائج على جانب كبير من الأهمية، فرغم أن الخلافة في ذلك الوقت كانت صورية، إلا أنها كانت على الأقل رمزا لتجمع المسلمين، فبالقضاء عليها قضى على الرمز الذي يمثل وحدة المسلمين، وفقدت تركيا مكانتها بين العالم الإسلامي الذي كان ينظر إليها على أنها دولة الخلافة.

ولهذا أحدث إلغاء الخلافة دويا هائلا في العالم الإسلامي، وبصفة خاصة في مصر والهند فقد كان مصطفى كمال في بادئ الأمر - يمثل في نظر المسلمين مبعوث العناية الإلهية لنصرة الخلافة واحياء مجد الإسلام. فمقامه كما يصوره الشاعر الكبير شوقي هو مقام خالد بن الوليد من العرب:

الله أكبركم في الفتح من عجب ياخالد الترك جدد خالد العرب

وكثرت الدعوات منذ ذلك اليوم لعقد مؤتمر الخلافة، وبرز أسم مصر والأزهر كمصدر لهذه الدعوة ومركز من أهم مراكز النشاط الإسلامي(١).

وهذا الدوي الذي أحدثه إلغاء مقام الخلافة بين المسلمين، جعل أحد الباحثين يذكر أن الرعب الذي أصاب المسلمين من جراء إلغاء الخلافة ربما يعادل ذلك الذي حدث في بغداد عندما أعدم التتار الخليفة العباسي.

ومع إلغاء الخلافة فان فكرة الجامعة الإسلامية بدأت تضعف، وبدأ يظهر مبدأ الوطنية القومية قويا في البلاد الإسلامية. ولا شك أن هذا الأمر قد سر أوربا كثيرا.

وهذا الأمر يوضحه المسيو جاسير الفرنسى، مقرر معاهدة لوزان في حديثه أمام لجنة الأمور الخارجية في مجلس الشيوخ الفرنسى، إذ يذكر أن فرنسا يجب أن تقف موقف التحفظ ولا تشترك في أي تدبير يرمي إلى إعادة الخلافة العليا التي تكون بمثابة الراس لحركة الجامعة الإسلامية .

---

(١) د. محمد محمد حسين ،الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: جـ ٢ ص ٢٢، ٢٣ - ٣٥.

ويهمنا هنا أن نذكر – ردا على حجج الكماليين التي تذكر أن الخلافة ليس لها سند في القرآن والسنة – أن مستند "الخلافة" الأول هو – الإجماع، فالإجماع أصل عظيم من أصول شريعة الإسلام وأقوى إجماع أو أعلاه هو إجماع الصحابة رضوان الله عليهم، والمقصود بالإجماع ليس الإجماع على شخص خليفة، وانما الإجماع على وجوب قيام الخلافة ومع أن أصل "وجوب" الخلافة "هو الإجماع" فقد استدل العلماء أيضا بنصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة(٢).

ولهذا خسر مصطفى كمال بإلغاء الخلافة تأييد واحترام المسلمين، واكتسب تقدير الدول الغربية وكان يريد بذلك أن يؤسس دولة غربية قائمة على أسس الغرب وحضارته وحده، قائمة على فصل الدين عن الحكم. ولهذا فلن يكون من المبالغة أن نقول أن الغرب قد وجد في مصطفى كمال ضالته المنشودة.

نبذة يسيرة عن شخصية السلطان عبد الحميد:

كان السلطان قبل أن يتولى السلطنة شخصاً بسيطاً في حياته لم يشتهر عنه أبداً انه كان مبذرا أو يحب حياة اللهو . بل كان معتدلا واستمر على بساطته هذه حتى أيام السلطنة. وفي المقابل كان أمراء البيت العثماني في ذلك الوقت منهمكين في اللهو والمجون وكانت عليهم ديون كثيرة بسبب إسرافهم وتبذيرهم بينما السلطان عبدالحميد كان هو الوحيد الذي لم تكن عليه أية ديون وبالتالي لم يكن تحت ضغوط اليهود وحبائل المرابين، لذلك كان يتهم بأنه بخيلا لأنه لم يكن مبذرا – وهذه معادلة غريبة بالطبع .

قبل أن يتولى السلطنة رافق عمه السلطان عبد العزيز في الزيارة أو الجولة الكبيرة التي ذهب إليها السلطان عبد العزيز إلى دول أوربا – ورافقهم كذلك أخو السلطان عبد الحميد وهو مراد الأمير، في هذه الرحلة ظهرت تصرفات الأمير مراد خاصة في المحطة الأولى فرنسا ثم بعد ذلك انجلترا من شرب للخمور ودخول للحفلات الخاصة جدا بينما كان السلطان عبد الحميد يمتاز بالوقار والهدوء وكان شخصية محترمة من الكل وعرف عنه أنه لا يشرب أي نوع من الخمور.

---

(٢) انظر لمسالة "الخلافة والإسلام" في:د. محمد ضياء الدين الريس: الإسلام وأصول الحكم في العصر الحديث ص ٢٤٥ – ٢٦٧.

أيضا مما هو مسطر ومعروف من ترجمته أنه كان يحب سماع الموسيقى الغربية وكان قبل تولى السلطنة حليق اللحية ثم بعد ذلك أطلق لحيته – ويعزى حبه للسماع بأنه لما كان أميراً صغيراً في القصر درس الموسيقى الغربية على يد اثنين من كبار الأساتذة الايطاليين وهما: كواتيلى ولومبارلي. وكذلك قبل ذلك تلقى في بداية حياته الموسيقى الغربية على يد الفرنسى ألكسندر (١).

وكذلك فمن خلال مذكراته والكتب عنه يتفق بأن كان مولعاً بقراءة التاريخ إلا انه للأسف لم يستفد مما في التاريخ من عبرة.

وكذلك من حيث اللغات فكان يجيد بجانب اللغة التركية اللغة العربية، والفارسية، والفرنسية أيضا كان على عادة السلاطين المتأخرين من بنى عثمان من بعد محمود الثاني كان يرتدى الملابس الغربية، وكان يدخن السجائر على ماهو معروف من حياة الأوربيين.

ومن الناحية العقدية فكان راعيا للموجة العامة من انتشار التصوف في شتى أقطار العالم الإسلامي، فقرب منه مشايخ الصوفية ومنهم أبو الهدى الصادي الرفاعي، وكذلك الشيخ محمود أبو الشامل وتقول ابنة السلطان عبد الحميد في مذكراتها "كان والدي يؤدى الصلوات الخمس في أوقاتها ويقرأ القرآن الكريم ... والقول مازال لابنته وفي شبابه سلك مسلك الطريقة الشاذلية، وكان كثير الارتياد للجوامع ولا سيما في رمضان إذ كان يذهب لجامع السليمانية وفي أحد الأيام عندما كان يؤدى الصلاة في هذا المسجد التقى مع شيخ فاضل يدعى حمزة رافع وتصادق معه وانتسب عن طريق هذا الشيخ الذي تقابل معه إلى الطريقة الشاذلية ثم انتسب بعد ذلك إلى الطريقة القادرية، بواسطة الشيخ عبد الله أفندي وهذا الأخير كان الشيخ الأكبر لتكية يحيى أفندي (٢).

كان السلطان عبد الحميد يعلم أن اليهود هم المحركون لخيوط المؤامرة التي حيكت ضده لأنه وقف في وجه مخططات اليهود والتي منها جعل فلسطين وطن قومي لهم.

يقول عصام الدين آرتوك وهذا كان أحد رؤساء الأمن القومي السابقين في تركيا، وقد ألف كتابا اسمه ما وراء الأستار في عهدين: قال لي صديقي ملازم أول الخيالة، عندما كنت

---

(١) أحمد الدعيج : التاريخ السياسي للدولة العثمانية ــ الدرس الرابع عشر .

(٢) أحمد الدعيج : المرجع السابق .

في حراسة السلطان عبد الحميد شكى لي السلطان المخلوع في أحد الأيام: أن أشد ما آلمني هو تبليغي قرار الخلع من قبل ذلك اليهودي الماسوني – يقصد امانويل قرصوه – فلا أستطيع نسيان قرصوه من بين الوفد الذين جاءوا إلى يلدز – لقد كان هذا اهانه لمقام الخلافة – ونحن نعلم جميعا مدى الحقد الذي يكنه اليهود –منذ زمن الرسول ﷺ - للإسلام ولمقام الخلافة وعندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءني في أحد الأيام الجنرال تيودور هيرتزل المؤسس للمنظمة اليهودية، مع رئيس الحاخامات موشيه لينى فقبلت الزيارة لمعرفة مقاصدهم فكان طلبهم هو وطن لليهود وكانوا يقترحون القدس لذلك. حتى إن هرتزل قال بلا خجل نحن مستعدون لتقديم الملايين التى ترونها مناسبة من الذهب حالا من اجل القدس (١).

(يقول السلطان عبد الحميد وشعرت بأن الدم يطفر إلى رأسى. فقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين إلى عرض الرشوة في مقام سلطنتنا، فصرخت فيهما اخرجا من هنا حالاً أن الوطن لايباع بالمال) (٢). الكلام جميل ولكن للأسف السلطان عبد الحميد كان فعله خلاف قوله، فكان يجب أن يقف موقفا أكثر حزما مع من جاؤو لتحطيم الخلافة – خاصة وانه يقول انه عالم بهم!

من الوثائق المهمة في حياة السلطان عبد الحميد رسالة بعث بها من المنفى بعد خلعه إلى أحد مشايخه وهو محمود أفندي أبو الشامات – وهذا من كبار مشايخ الصوفية في دمشق في تلك الفترة.

ومن خلال هذه الرسالة نعلم أن السلطان عبد الحميد كان على دراية بما كان يخططه له اليهود إلا انه لم يتخذ الإجراءات المناسبة أو بالأصح لم يكن يستطيع اتخاذ هذه الإجراءات.

وكذلك هذه الرسالة تبين مدى تعلق السلطان عبد الحميد بمشايخ الصوفية خاصة في مطلعها حيث كتبت هذه الصيغة:

ـ يا هـــو ـ

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين إلى يوم الدين.

---

(١) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وأثرها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص٣٨٧ .

(٢) أحمد الدعيج : المرجع السابق .

أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبى الشامات، وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامي أعرض أنني تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدي: أنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً، واعرض أنني ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

وبعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، والى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة، المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

إنني لم أتخل عن الخلافة الإسلامية بسبب ما، سوى أنني - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

أن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم إصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي الآتى:

(إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا - فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا - فلن اقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف المسلمين آبائى وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضا).

وبعد جوابى القطعي اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وقد حمدت المولى وأحمده، أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية، والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة:

فلسطين ... وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فإنني أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام. وبه أختم رسالتي هذه.

ألثم يديكم المباركتين، وأرجو واسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامي بسلامي إلى جميع الإخوان والأصدقاء.

يأ أستاذي المعظم، لقد أطلت عليكم التحية، ولكن دفعني لهذه الإطالة أن تحيط سماحتكم علما، وتحيط جماعتكم بذلك علما أيضا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في ٢٢ ايلول ١٣٢٩ هـ

خادم المسلمين

عبد الحميد بن عبد المجيد(١)

من أهم إنجازات السلطان عبد الحميد دعوته إلى الجامعة الإسلامية ومحاولاته الجادة لتحقيقها وكذلك قرب منه الشخصيات البارزة في ذلك الوقت من الصوفية وغيرهم وأيضا قرب بعض الزعامات العربية مثل سيد طالب باشا النقيب، نقيب الأشراف بالبصرة، وأحمد باشا الفهيد وهؤلاء كانوا أعضاء في مجلس شورى الدولة، وهما من العراق. وقرب غيرهم كثير كابن عبد القادر الجزائري.بل وكان حرسه الخاص من العرب.

بالرغم من الملاحظات والمآخذ على السلطان عبد الحميد الاأن ذلك لايمنعنا من العدل في حقه وممن نبه على ذلك الدكتورمحمد محمد حسين حيث يقول :

"إن من الإنصاف لذلك الرجل أن نشير إلى أن تاريخه العلمي الصحيح لم يكتب بعد، لأن ما كتب عنه حتى الآن إنما كتبه أعداؤه، وهم ذوو نفوذ وسلطان في تركيا وخارجها، وربما تبين من بعد أن الرجل لم يكن دموياً، ولا مترفاً على النحو الذي صورته به الدعايات التي شوهت سمعته، وربما تبين من بعد أن للصهيونية أصبعاً في هذه الدعايات، فصلة الاتحاديين باليهود معروفة مشهورة. ثم إن سياسة عبد الحميد كانت تتجه نحو محاربة العصبيات الجنسية، وربط أجزاء الأمبراطورية العثمانية برباط الجامعة الإسلامية وحدها، بينما كان الاتحاديون يدعون إلى الطورانية مع ما كان متفشياً بين بعض أعضائهم من

---

(١)عبد الكريم مشهداني، المرجع السابق، ص٣٨٩-٣٩١.

النزعات الإلحادية، وربما تبين كذلك من بعد أن السلطان عبد الحميد، كان يخشى أن يستتبع استصدار الدستور سيادة هذه العناصر من المتفرنجين والملحدين ودعاة الطورانية. هذا إلى أن من المؤكد أن إسقاط عبد الحميد الذى عارض في هجرة اليهود الى فلسطين، كان جزءا من المؤامرة الكبرى لاغتصاب فلسطين، فلم يكن ذلك متيسرا، وهى قلب الأمبراطورية الإسلامية، وقد كان لابد من تفكيك هذه الأمبرطورية أولا، وليس بين خلع السلطان عبد الحميد، وبين صدور وعد بلفور أكثر من ثماني سنوات(١).

وقد حدد السلطان عبد الحميد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو:

إن الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعمارى هى تجميع المسلمين في كل مكان من كنف الخلافة الإسلامية الذى تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة في كيانها بين العرب والترك. ومن هنا كان نداؤه المشهور: يا مسلمي العالم ... اتحدوا . وقد مضى السلطان في تنفيذ مخططه، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية، وذاعت في كل مكان، وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة سرعان ما انبث خريجوها في كل أطراف العالم الإسلامي الهند والصين وأفريقيا ومصر وتركستان وبلاد العرب، ولقيت الدعوة قبولا وتعاطفا، واستطاع السلطان أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز رجال الفكر والسياسة.

وانطلقت الصحافة الأوربية، وتابعتها الصحافة العربية التي ظهرت في مصر، والتي قاد حركتها خريجو الإرساليات التبشيرية من أمثال سليم سركيس وجرجي زيدان، وفارس نمر ويعقوب صروف وفرح أنطون، وغيرهم من الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان ومعارضته، وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصه، وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب اليهودية العالمية.

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد اللورد كرومر، أحد دهاقنة الاستعمار الانجليزى الذى حمل على فكرة الجامعة الإسلامية، ودعا الدول الأوربية في تحريض سافر الى التجمع للوقوف في وجه هذه الدعوة، وهاجمها هانوتو المستشرق الفرنسى، ووصفوها بأنها بؤرة التعصب الدينى، وأنه ليس القصد منها إلا تحدى الدول الغربية المسيحية. وحملت

---

(١) الدكتور محمد محمد حسين "من كتابه: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر الجزء الثاني ص ٩٦.

جريدة المقطم في مصر لواء معارضتها، وكذلك الأهرام والهلال والمقتطف، وغيرها من الصحف التي كانت تصف السلطان عبد الحميد بأنه السلطان الأحمر المستبد(١).

يقول الأستاذ عبد الله التل:

"يكفى السلطان عبد الحميد فخراً أن القوى التي تآمرت عليه كانت كلها من أعداء الإسلام، وأنه صان الأمبراطورية الإسلامية طوال مدة حكمه، وأن عملية التمزيق لم تبدأ إلا بعد أن سيطر الماسون" (١).

فقد ضمت جمعيات الماسون السرية المجرمين والإرهابيين من اليهود والبلغار والصرب واليونان والأرناؤوط، وهم عماد الثورة التي زحفت على استانبول وعزلت السلطان عبد الحميد، وكان أحد أعضاء الوفد الذي قدم للسلطان وثيقة العزل (قرصو) اليهودي الذي صده السلطان مع هرتزل في المحاولات الصهيونية الأولى. وقد نشرت جريدة (نهضة العرب) الصادرة في باريس عام ١٩٠٩م – ١٣٢٧هـ مقالاً بعنوان:

"الإسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي" لكاتب وصفته الصحيفة بأنه أحد فضلا العثمانيين المسلمين في باريس "

ومما جاء فيه:

"تناقل العارفون من الناس ما كان من أمر اليهود والماسون من جمعية الاتحاد والترقي، واشتراكهم في نهضتها، وقيامهم بمناصرتها، حتى ذهب البعض إلى أن فوزها كان ثمرة مساعيهم، وأن اليهود لما قنطوا من تحقيق أمانيهم في عهد الحكم السالف باستملاك أراضى فلسطين، وتشييد مملكة يهودية فيها كما هو معلوم عنهم لدى الخاص والعام، عمدوا إلى الماسونية، ولهم فيها اليد الطولى، فاتخذوها آلة لترويج مقاصدهم" ويضيف الكاتب: وقفت في

---

(١) انظر الاستاذ أنور الجندى: ملتقىالفكر الإسلامى بتلمسان ١٩٧٥م – ١٣٩٥هـ المحاضرة الرابعة. الصفحات ٤ – ٥ – ٦ – ٧ – ٨.

(١) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ص١٦ .

الجرائد آخراً على التفاصيل المتعلقة بالجيش المقدوني[١] وفيها أن معظم العساكر التي تـألفت منها حملة سلانيك، كان من اليهود وكان الضباط يولونهم الأفضلية على عساكر المسلمين. ثـم

(١) وهناك من يقول: إن حركة التمرد هذه التي قامت في استانبول عام ١٩٠٩م-١٣٢٧هـ والتي عرفت بحركة ٣١ مارس ليست إلا حادثة مدبرة من قبل جمعية الاتحاد والترقي التـي اجتمعت وتداولت الرأى، واتخذ رؤساؤها القرار التالي: العمل على إحداث عصيان مسلح مدبر له، واغتنـام الفرصة للاستيلاء على ثروة قصر يلدز، وذلك بعد إلصاق تهمة تدبير العصيان بالسلطان عبـد الحميد، ثـم الضغط عليه للحصول على موافقته سحب المودعات في فيينا، ثم خلع السلطان وتنصيب ولي العـهد المطاوع محمد رشاد، وبموجب الخطة المدبرة يستعان بالمشايخ لايقاد نار التعصـب، وحشـد لـهذا الغرض خليط من العسكريين والمدنيين والشيوخ انطلقوا الى مسجد آيا صوفيا، ثم حاصروا البرلمـان وهم يهتفون: نريد الشريعة، ووقع لغط وحوادث قتل، وانتهى الأمر بتحرك جيش الحركة من سلانيك، واحتل استانبول بحجة قمع التمرد، ثم صنع مذبحة (طاش قشلة)، وخلع السلطان عبد الحميد الذى لـم تكن له أية علاقة بهذه الأحداث المدبرة، كما يصرح هو بنفسه في عدة مواضع من مذكراتـه التـي نشرتها مجلة المجتمع الكويتية، ويقول مصطفى طوران الذى عايش الأحداث بنفسه لحظة بلحظـة - ضمن تعليقه على الأحداث في كتابه القيم أسرار الانقلاب العثماني: "لقد ثبت بما لا يقبـل الشـك أن وكالة الاستخبارات الانجليزية كانت وراء هذه المؤامرة ص ٨٨. والكتـاب كلـه اسـتعراض لـهذه الأحداث التي عاشها المؤلف حية، ويقول بأنه أحد الشاهدين الوحيدين اللذين بقيا علـى قيـد الحيـاة ويمضي قائلا: أحداث ٣١ مارت التي يحاول بعضهم الإيهام بأنها محاولة لإحياء الاستبداد والإطاحـة بالعهد النيابي وبالحرية، هى في الحقيقة مؤامرة دبرها الأعداء لهدم الخلافة العثمانية وتمزيقـها، وأن هذه الحادثة أعجزت المؤرخين عن إصدار حكم قاطع بشأنها، والسبب في هذا تعمد مدبري المؤامـرة في قتل شهود الحوادث، لقد دبرها أعداؤنا بالعرق والمال، استهدفوا بها تمزيق الأمبراطورية العثمانية وهدم الخلافة، وأخرجوها على المسرح بشكل تمرد عسكري ص ٦. وتقول: آلما وتلن في كتابها "عبد الحميد ظل الله على الأرض" ففي السادس عشر من ابريل أبرق الكولونيل شوكت قائد حامية مقدونيـا الى القسطنطينية بأنه عائد لإقرار النظام في العاصمة. ولم يستطع شوكت الاعتمـاد علـى أخـلاص جنوده إلا اذا استطاع اقناعهم باخلاصه للسطان، وهكذا كان الجنود الذين زحفوا تحت إمرته يظنـون أنهم يؤدون رسالة عليا كانوا يعتقدون أنهم زاحفون لحماية السلطان لا لخلعه، ولما سمع العسـكريون الأوربيون عن نية الزحف على القسطنطينية، قدروا أن تستغرق الحملة ثلاثة أسابيع، وهى مدة كافيـة لإعطاء من بيدهم الأمر في العاصمة الوقت الكافى لتجنيد الفرق الآسيوية ضد الجيش المقدونى، وقـد يكون من نتائجها انتصار ساحق لعبد الحميد ضد تركيا الفتاة وضد أوربا، وعوده لسياسـة الجامعـة الإسلامية. وبعد ثلاثة أيام وصل شوكت إلى القسطنطينية، وكان عدد جنوده يتضاعف أثناء الطريـق وانضمت اليهم عصابات من البلغار والصرب والأرمن والأروام واليهود، خليط من القوميات والعقـائد التي اتحدت في مقاومتها للإسلام. : **عبد الحميد ظل الله على الأرض ـ آلما وتلن ص ١٩٦.**

ما لبثت أن طالعت عن الوفد الذي حمل للسلطان عبد الحميد فتوى الخلع، وقد تألف من أربعة أعضاء بينهم يهوديان: عمانويل قره صو رئيس اللوج الماسوني في سالونيك، وسلمون ابراك. فمتى كانت الأمة تعهد إلى اليهود بتنفيذ الفتاوى الشرعية، وتنتدبهم سفراء إلى خلفاء الإسلام يتلون عليهم نص الشرع الشريف، ويبلغونهم إرادة الأمة بخلعهم عن كرسي الخلافة؟! بل ما الذي اضطر جمعية الاتحاد والترقى إلى تأليف الوفد على هذه الصورة؟ وكيف رضى اليهوديان بأن يكونا ممثلي الإسلام في هذه المهمة؟!.

هل فاتهم ما يكون من تأثيره على المسلمين؟! أم أيقنوا بالفوز العاجل فظنوا أنهم قبضوا على عناق الدولة، وقريباً ينشرون فوقها راية اليهود؟

ولعمري لا أرى هناك إلا استدراجاً في الخطة التي آلوا على أنفسهم اتباعها، وقد ناصروا أصحاب الاتحاد والترقى حتى ولوهم الحكم بالسيف، ومكنوهم من العرش، فخلعوا سلطاناً ونصبوا سلطاناً، واستأثروا بحق يختص بالمسلمين، ثم باهوا به وافتخروا وقالوا: "جمرة نلقيها في صدر الإسلام، فتتلظى على فتيان الترك، فنصليها بينهم ناراً حامية تلتهم الدولة وتقوض أركانها، فنقيم على بقاياها هيكل أورشليم"(١).

وتضيف صحيفة (نهضة العرب) معلقة على المقال السابق:
إنه كان من الممكن للوهلة الأولى إقناع العثمانيين بأن جيش الأحرار لم يدخل الأستانة إلا ليمحق استبداداً وظلماً مهيناً، ولكنهم عندما رأو العصابات البلغارية يقودها ساند نسكي تسوق الجند النظامي مقيداً لمحاصرة يلدز، ورأوا قره صو يحمل فتوى الخلع إلى السلطان، وعلموا أن ليس هناك خلع سلطان بل تقويض أركان الدولة العثمانية.

وبعد عزل السلطان عبد الحميد، ونقل السلطة الكاملة إلى جماعة الاتحاد والترقي أخذت النكبات تتوالى على الدولة الإسلامية العظيمة، واندلعت الثورات في البلقان وألبانيا، وسلخت النمسا ولايتي البوسنة و الهرسك عن السلطنة مقابل (٥٣) مليون فرنك، ذهبت إلى جيوب الاتحاديين، وبدلاً من أن يرى الناس تطبيقاً صادقاً لشعارات (الحرية والعدالة والمساواة)، أخذوا يواجهون عبودية وظلماً واستبداداً أضعاف ما كان يؤخذ على العهد الحميدي، ثم ما لبثوا

---

(١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية نقلاً عن: جريدة (نهضة العرب) الصادرة في باريس عام ١٩٠٩م ص ٣٣٨.

أن أضاعوا ليبيا، ولقد صورت أبواق الدعاية الماسونية قصر السلطان عبد الحميد بؤرة فساد وفجور، وجعلته وكراً للدسائس والمؤامرات" (١) .

"والثابت أنه لولا السلطان عبد الحميد الذي كان الغرب يسميه السلطان الأحمر لأصبحت فلسطين في يد الصهيونية قبل عام ١٩١٧م - ١٣٣٦هـ، فلقد زاره هرتزل وزاره من قبل هرتزل ومن بعده رسل الحركة الصهيونية، وعرضوا عليه القروض الضخمة وتحالفاً سياسياً يدافعون بمقتضاه عن السلطان في صحف أوربا وأمريكا، ويوقفون حملات الدعاية التي سادت في دوائر السياسة والبرلمانات والمؤتمرات الدولية، والتي كانت تركيا ووزراؤها وسلطانها ومذابح الأرمن هدفاً دائماً لها، مقابل أن يسمح لرواد الصهيونية أن يبنوا مستوطناتهم في فلسطين، ولكن السلطان بفضل تمرسه بالسياسة الدولية ومعرفته لمهاب الأمور قبل وقوعها، أدرك أن هذه المستوطنات التي تبدو بريئة هي أول الغيث، أوهى مستصغر الشرر الذي ستنجم عنه أكبر الحرائق" (٢).

---

(١) عبدالله التل :الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام ص ١٧.

(٢) الاستاذ فتحي رضوان. مجلة الأزهر ص ٨٥١ عدد ابريل ١٩٧٩.

الفصل الرابع

دور العلماء في مواجهة نشاط أهل الذمة

أولاً : أحمدجودت باشا
ثانياً : محمد عاكف
ثالثاً : مصطفى صبري
رابعاً : رشيد رضا

تمهيد :

الواقع المظلم الذي كان يعيشه المسلمون إبان سقوط الخلافة وما قبل ذلك ــ عدا ما كــان من نور التوحيد في جزيرة العرب على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ فكــان الفكـر الصوفي هو السمة البارزة لعلماء ذلك العصر وبالتالي بدا أثرهم واضحــاً علــى الحكـام والأمراء ، ومن ثم على العامة . فعاش المسلمون تلك الفترة على أوهام الخرافة وقَلَّ فيـهم المذكر والناصح فأصبح كثير من المعدودين من العلماء ــ إلا من رحم الله ــ دعاة وطنيـة أو شعارات شخصية أو حزبية ، بل تعطلت كثير من المؤسسات الشرعية وقعدت عن القيام بواجبها من النصح للأمة كالأزهر والذي يعتبر أكبر مرجعاً لمسلمين في ذلك العصـر، أو مشيخة الإسلام في استنبول .

لذلك رأيت أن أعرض نماذج من العلماء والدعاة الغرباء في تلك الفترة العصيبة ، والذيـن كانت لهم جهوداً عظيمة في مواجهة الأفكار الوافدة على بلاد المسلمين .

نماذج لبعض العلماء والدعاة الذين أبلو بلاء حسنا في مواجهة أهل الذمة :

من الشخصيات التي يهتم بها عند دراسة تاريخ الدولة العثمانية خاصة والتاريخ الإسلامي المعاصر بوجه العموم سواء منهم من كان أثرهم سلبيا على المسلمين **كمدحت باشا أو جمال باشا السفاح** أو غيرهم ممن كانوا يحسبون على الدعوة **كالأفغاني ومحمد عبده** .

وهناك في المقابل أناس سخروا طاقاتهم كليا في سبيل هذا الدين وفي محاولة إصلاح ما انكسر في عظم المسلمين سواء من الداخل أو بتأثير وتحريض الأعداء في الخارج . وهؤلاء الرجال المصلحون يصعب حصرهم ولاشك ــ كانت جهود كل منهم جهودا فردية وإن كانت المحاولات جادة لعمل إصلاحي جماعي من قبل هؤلاء المصلحين ومع ذلك فإن التاريخ لاينسى ما لهؤلاء العلماء من دور بارز في مواجهة الفكر الوافد .

من هذه الشخصيات من تبوأ مكانة علية في الدولة العثمانية مما مكنه من إحداث تغييرات جذرية في نظام الدولة وتحقيق كثير من الأفكار الإصلاحية واستغلال كل إمكاناته ووجاهته في سبيل الدعوة لهذا الدين وحمايته من العابثين !

ومن أهم هذه الشخصيات مايلي :

أولا : أحمد جودت باشا :

يعتبر أحمد جودت من الشخصيات العثمانية الرائدة في ميادين التاريخ والفقه والفكر العثماني في القرن الثالث عشر الهجري،فضلا عن مكانته كرجل دولة تبوأ عددا من المناصب العلمية والمدنية في الدولة العثمانية .

مولده:

ولد أحمد جودت في سنة ١٢٣٨ه/١٨٢٢م وكانت وفاته سنة ١٣١٣ه/١٨٩٥م.وقد عاصر أحمد جودت أربعة من السلاطين العثمانيين ،وشهد فترة من أدق وأحلك الفترات في تاريخ الدولة العثمانية ،وهي ما يعرف في التاريخ العثماني باسم عهد التنظيمات .

وقد حفلت بتغييرات جذرية ،شملت كل المؤسسات العثمانية ،وكان عهد التنظيمات يتسم بالدعوة القوية تجاه الغرب ،وأن التغريب هو الحل الشامل والسبيل الوحيد أمام العثمانيين لكي يجتازوا أزماتهم السياسية في الداخل والخارج .

ونتيجة لهذا الاتجاه إلى الغرب انبثقت مجموعة من الأزمات الفكرية والإقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية ،في الدولة العثمانية ،..هذه الأزمات كانت مؤشرا إلى أن التنظيمات الغربية عاملا فعالا في انحلال الدولة .

ونذكر هنا شيئا من جهود أحمد جودت في مواجهة التغريب ونشاط أهل الذمة .

لقد تبوأ **أحمد جودت باشا** عدداً من المناصب العلمية والمدنية في الدولة العثمانية فقد عاصر أربعة من السلاطين العثمانية ، وشهد فترة من أدق فترات التاريخ العثماني حفلت بتغيرات جذرية ، وشملت كل مؤسسات الدولة وهي ماتعرف في التاريخ العثماني باسم عهد التنظيمات ـــ والتي سبق لنا تفصيلها ـــ وهي باختصار تعني إعادة تنظيم مؤسسات الدولة وفق النظم والمفاهيم الغربية ، لتكون بديلاً عن النظم والمفاهيم العثمانية .

وكان أبرز مجالات الإصلاح عندجودت باشا الإصلاح القضائي ومحاولة نقل الدولة من مستنقع القوانين الوضعية إلى الشريعة الإلهية ، وكان في صراع مع دعاة التغريب والتنظيمات .

ونتيجة لهذا الاتجاه التغريبي في الدولة ، انبثقت مجموعة من الأزمات الفكرية والإقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية في الدولة العثمانية ، وكانت مؤشراً للعقلاء على أن التنظيمات الغربية لم تقدم الحل الكامل للأزمات المتراكمة ، بل على العكس كانت عاملاً فعالاً في إنحلال الدولة العثمانية والقضاء على البقية الباقية في القلب النابض فيها مثلها في ذلك مثل المصالح السياسية للدولة الأجنبية والامتيازات الأجنبية لأهل الذمة في الدولة .

وقد استطاع الشيخ **أحمد جودت باشا** أن يتفهم بواعث هذه الأزمات في تلك الفترة ، ويتلمس مظاهر الخلل المهدد للكيان الإسلامي للدولة العثمانية ، لتدارك أسبابه وتشخيص أدواته ، وأن يصوغ فكرته حول كيفية الخروج منها .

ومن الملفت للنظر في شخصية **جودت باشا** أنه لم يحصر نفسه في مجال واحد أو وظيفة فقط ، وإنما حاول تتبع كل خلل والإصلاح من الجذور مهما كلف ذلك وقتاً وتضحيات .

فمن تشخيصه للمرض على أن أهل الذمة وتحت ستارات كثيرة وحمايات وامتيازات استطاعوا أن يجرّوا الدولة إلى مشاكل متداخلة ومتشابكة الخطوط يعجز المسئولون عن تفسيرها أو الربط بينها .

فما علاقة تفليس الدولة بالاستغراب ، وبالفتن والحروب في دول البلقان أو اليونان أو الألبان وكل ذلك تزامن أيضا مع فساد وتدهور أخلاقي داخل المجتمع العثماني!!([1]) .

([1]) وفاء أحمد قطب البستاوي : فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا ص١٧ ـــ ٢٢ (بتصرف) .

كان ولاة الأقاليم التي يقطنها الأقليات (أهل الذمة) يوكل عليها أمراء من أهلها ، وهم الذين يتولون بأنفسهم إثارة شعوبهم على الدولة تحت ضغوط وتوجيه من روسيا خاصة ، وهم الذين يكلفون من قبل السطان بإخماد الفتن !! فهم الخصم والحكم .

وكما مر معنا سابقا في ذكر دعاة التغريب والقبة المنارة نحوهم ومن الذي كان يشجع الدولة على هذا التيار المسدود الذي اتجه إلى الأخذ بالحياة الغربية ليست في مجال التنظيمات كما أعلن فقط بل في الحياة الاجتماعية وطرق المعيشة . فأخذت بعض عادات وتقاليد المجتمع الأوروبي تحل محل القواعد والأصول التي كانت تحكم المجتمع العثماني في عصور القوة السابقة لعهد التنظيمات .

وقد تكبدت الدولة الكثير من الأموال في سبيل الأخذ بمظاهر المدنية الغربية التي دفعت بها إلى هاوية الإفلاس والإقتراض من ناحية ومن ناحية أخرى إلى تدهور أخلاقي داخل المجتمع العثماني والإقتراض من البنوك الغربية الربوية، وهذاجعلها تحت هيمنة وسلطة تلك الأموال اليهودية وتنفذ كل مايملى عليها من شروط للإقراض ..

جودت باشا الذي شخص المرض وعرف حقيقته وأدرك أعراضه وأبعاده سعى في مشروع إصلاحي كبير، لم يحصر في المجلة العدلية التي اشتهر بها، بل ولاتقنين الشريعة فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الإصلاح الأمني أولا . وضبط الأمن في البلاد حتى يستطيع هذا الأمن تنفيذ الأوامر .. !! والإصلاح المالي .. حتى تخلص الدولة من الضغوط الخارجية الملزمة لها على ما لاتريد . ثم الإصلاح الاجتماعي .. لبيان خطورة السير في نفق التقليد الغربي المظلم، وإصلاح القضاء بالأخذ بالشريعة الإلهية ونبذ القوانين الوضعية، وإلغاء كل مايتعارض مع الشرع من نظم وقوانين قديمة في البلد . واستغل **جودت** منصبه ومكانته في الدولة في تنفيذ مخططه الإصلاحي . وهذا ماسنفصله في الورقات التالية .

اختلال الأمن على إثر صدور قانون التنظيمات :

حرصت إنجلترا على التغلغل بنفوذها داخل الدولة عن طريق دفع سفيرها لدي الدولة العثمانية . " **كاننج** " بالضغط على رجال التنظيمات ، وبسط السيطرة الإنجليزية داخل الدولة ، بحجة حماية مصالح رعايا الدولة من غير المسلمين من ناحية ، والتصدي للمطامع الروسية تجاه الدولة العثمانية من ناحية أخرى .

وقد عمل "**خط كلخانة** " سنة ١٨٣٩م على زيادة التدخل الأوروبي بشكل عام في شئوون الدولة العثمانية، حيث كان نتيجة لهذا المرسوم أن اندلعت الثورة في لبنان

والبوسنة، ففي لبنان تدخل السفير الإنجليزي " **ستراتفورد** " وممثلوا الدول الأربع ، لوقف الصراع بين المارونيين والدروز ، واقترحوا تقسيم جبل لبنان إلى قسمين : منطقة مارونية في الشمال ، ومنطقة درزية في الجنوب ، وقبل العثمانيون هذا التقسيم غير أن استمرار النزاع بين الطائفتين استمر ، مما أتاح للدول الأوربية الفرصة للتدخل في هذا النزاع وأصبحت كل من فرنسا والنمسا تعطفان على المارونيين وتتصلان بهم ، كما حاول الروس الإتصال بالأرثوذكس والدروز ، وعملت إنجلترا كما تدعي على ضبط التوازن بين عناصر الجبل ، مما اضطر الدولة العثمانية إلى السماح ببعض الحكم الذاتي وهدأت الحالة في لبنان بعض الوقت إلى أن انفجرت الثورة مرة أخرى عام ١٨٥٨م .

أما في البوسنة ، فقد قامت الثورة فيها سنة ١٨٥٣م مباشرة قبل حرب القرم ، ولقد كانت بذور هذه الثورة ترجع إلى إعلان خط " **كلخانة** " سنة ١٨٣٩م والذي كان السبب المباشر لقيام الإضرابات في البوسنة ثم امتداد الثورة بعد ذلك إلى الجبل الأسود (١). ذلك لأن المساواة القانونية بين مسلمي الدولة ومسيحييها التي نصت عليها التنظيمات وتعهدت بها الدولة العثمانية جاءت في الوقت غير المناسب ، فما أن انتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان مبدأ القومية الغربية قد اشتهر لدي الأقليات الدينية التي اهتمت بلغاتها ، وآثرت الإنفصال على الإندماج في الدولة ، ونتج عن ذلك إثارة الاضطرابات الداخلية للدولة العثمانية ، هذا إلى جانب أن الطوائف من غير المسلمين ، استفادت إلى حد كبير من التغلغل الأوروبي في الدولة في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية وفي الإصلاحات نفسها مما زاد في ثروتها ونفوذها ، وعلى الرغم من ذلك بدلاً من إبداء ولاءها للدولة ازدادت مطالبتها بمزيد من الحقوق وبالتدريج ازدادت مطالبتها بالاستقلال .

وقد كانت الدول الأوروبية وراء اندلاع الثورات في بلاد البوسنة والهرسك ، ومن قبلهما في بلاد الصرب والجبل الأسود ، حيث كانت تقوم بتحريض الأقليات الدينية هناك ، كما بثت بذور الفساد في بلاد البوسنة والهرسك ، فاضطربت وقامت مطالبة بامتيازات كبلاد الصرب والجبل الأسود (٢).

ولم تكتف الدولة الأوروبية بتحريض هذه الأقليات ، بل اقترحت تكوين وفد من قناصل الدول ، وإرساله إلى البوسنة والهرسك لتقابل المندوب السامي العثماني الذي اجتمع بوفد القناصل والمتمردين ، ولم يصلوا إلى شيء، بل على العكس فإن وجود هيئة أوروبية في

---

(١) محمد مصطفى : المرجع السابق ص ٨.

(٢) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية . تحقيق إحسان حقي . ص ٥٢٣.

المسألة دفع بدول إوروبا إلى مطالبة الدولة بالقيام بإصلاحات في البوسنة والهرسك ، وقد فتح هذا الباب أيضا لتدخل أوروبي سياسي في شئون الدولة ([1]) .

وهكذا تجسد التدخل الفعلي للدول الأوروبية في الشئون الداخلية للدولة العثمانية بحجة حماية الرعايا من غير المسلمين .

الديون والرقابة المالية :

منحت قوانين التنظيمات الأجانب مزيدا من الامتيازات في المسائل المالية والتجارية داخل الدولة العثمانية، وقد أفسح كل هذا المجال لازدياد التدخل الأجنبي في شئوون الدولة، وتوجه سياستها الداخلية والخارجية ، فالمعاهدات التجارية التي وقعتها الدولة في فترة التنظيمات ، وفي عهد السطان عبد العزيز على وجه الخصوص قد أدت إلى زيادة التدخل الأجنبي في شئون الدولة ، حيث منحت هذه المعاهدات التجارية امتيازات جديدة للأجانب داخل الدولة العثمانية التي أصبحت سوقا لاستثمار رؤوس الأموال الأجنبية ، وبموجب ما نصت عليه قوانين التنظيمات ، أصبح للأجانب حق التملك في الأراضي ومنشآت الدولة العثمانية ، وأصبح لهم الحق في التجارة الداخلية ، وأفسح هذا المجال للتدخل الأجنبي وإثارة المشاكل للدولة العثمانية ([2]) .

كما أن زيادة القروض التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية ، وتدهور ماليتها بشكل استحال معه الوفاء بقيمة هذه القروض ، وفوائدها الباهظة ، مما أفضى إلى فرض الرقابة الأوروبية على مالية الدولة العثمانية .

وبناء على قرار مجلس إدارة الديون العمومية للدولة العثمانية ، الذي تشكل نتيجة فرض الرقابة الأوربية على مالية الدولة ، تقرر وضع قسم من واردات الدولة العثمانية تحت التصرف الأوروبي .

والجدير بالذكر أن اعتراض السفراء الأوروبيين في استانبول على لائحة إصلاحات وتغيرات ، شرع الباب العالي في إجرائها في وزارة المالية ، عكس مدى حجم التدخل الأوروبي وفرض السيطرة في توجيه سياسة الدولة الداخلية، كما أن لجوء بعض رعايا الدولة من غير المسلمين إلى سفارات إنجلترا وفرنسا وروسيا لرفع شكواهم، وهكذا فإن

([1]) محمد حرب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ، ص ٦٦-٦٧.

([2]) ومن ضمن الامتيازات التي منحتها .الدولة العثمانية للدول الأوروبية ، في ما يتعلق ببيع حصة الدولة من المعادن الموجودة في الممالك العثمانية ،على الرغم من عدم مشروعية وجواز بيع حصة الدولة بغيرها – الشركات الأجنبية، ومنحها حق استغلال ثروات الدولة المعدنية ، مما ساعد على تغلغل النفوذ الأوروبي داخل الدولة .

إتساع دائرة التدخل الأوروبي في شئون الدولة ، وتغلغل النفوذ الأجنبي بها ، أدى بالدولة إلى المزيد من التدهور والانهيار ، فعهد التنظيمات قد أفسح المجال للتدخل الأجنبي في شئون الدولة الداخلية والخارجية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى وضع الدولة العثمانية تحت الوصايا الأجنبية، ومن ثم فإن إعلان التنظيمات يعد بمثابة البداية لعهد جديد حافل بالمشكلات الداخلية في الدولة العثمانية .

ضغط النمط الغربي على الحياة الاجتماعية العثمانية :

إن الخطوات التي اتخذتها الدولة العثمانية في إتجاه الإصلاح والتجديد على النمط الغربي ، بدءا من عهد السلطان **محمود الثاني** وفترة التنظيمات ، قد انعكست آثارها على كل مؤسسات الدولة ، ومع إتساع هذه الخطوات لاستيعاب كل مظاهر التجديد ، ظهرت آثارها واضحة على الحياة الاجتماعية بالدولة العثمانية .

وقد أسهمت عدة عوامل في دفع المجتمع العثماني ناحية الغرب ، وهي كما يلي :-

١- شغف السلطان محمود الثاني بالمظهر الغربي :

تخلى السلطان **محمود الثاني** عن مراسم الاحتفالات والعادات التي كانت سائدة من قبل في عصور الدولة الأولى ، واتخذ عوضا نظام آخر أوروبي ، حيث شرع السلطان في هذا العهد على ارتداء الزي الغربي، وعلاوة على ذلك جعل السلطان **محمود الثاني** السترة والبنطلون زيا إجباريا ، ولأهمية غطاء الرأس في الدولة العثمانية ، قرر السطان **محمود الثاني** التجديد فيه أيضا على النمط الغربي . كما حرص السلطان **محمود الثاني** على استقبال الدبلوماسيين الأجانب وفقا للبروتوكول الأوروبي . وينسب أيضا لعهد السلطان **محمود الثاني** بدء خروج السيدات للتنزه والتجول في كل مكان ، وبدون غطاء الوجه ومن ثم بدأ ـ كما يقول البعض ـ ظهور وانتشار مساوئ أخلاقية لم تكن موجودة من قبل في الدولة العثمانية .

٢- شغف رجال الدولة في عهد التنظيمات بنمط الحياة الغربية :

وقد بدأت في عهد السلطان **عبد المجيد** بعض عادات وتقاليد المجتمع الأوروبي ، تحل محل القواعد والأصول التي كانت تحكم المجتمع العثماني في العصور السابقة لهذا العهد ، وكان وراء ذلك ازدياد اختلاط رجال الدولة في هذا العهد بالأوربيين ، وكانت السيدات هن أكثر أفراد المجتمع العثماني ، تأثرا باختلاط رجال الدولة بالأوربيين .

٣.الانفتاح الثقافي على الغرب :

لعبت الطباعة والنشر دورا بارزا في ازدياد الانفتاح على الغـــرب والاطـــلاع علـــى مناهجه، حيث نشطت حركة الترجمة والنقل عن الآداب الأوروبية ، كـــا بـــدأت تتوافـــد الجرائد والمجلات والكتب الأجنبية على الدولة العثمانية بشكل منتظم ، مما ساعد على نشر الثقافات الغربية ، وتأثيرها في التحول الفكري تجاه الغـــرب وقـــد ظـــهرت حالـــة مـــن الإزدواجية في المجتمع العثماني في فترة التنظيمات ، حيث بدأت المطالبـــة مـــن جـــانب مؤيدي التنظيمات بزيادة الاختلاط مع الأوروبيين والاقتباس عن الغرب، كذلك في نفـــس الوقت الذي اعترض فيه بعض رجال الدولة من أرباب الفكر الإسلامي على هذا الاتجـــاه وهذه التغيرات الاجتماعية([١]). غير أن الاستغراق في النقل عن الغرب في ذلك العهد كـــان أقوى وأمضى من محاولات التمسك بالقديم.

٤.تدفق الأجانب وأمراء أسرة محمد علي إلى الأراضي العثمانية ([٢]) :

أصبح مصطلح السياحة مألوفا في الدولة فانتشر السواح وكثر التجوال في أراضـــي الدولة العثمانية ، لا لغرض إلا للتنزه ونشر العادات والتقاليد من قبل الأجانب الأوروبيـــن خاصة، وكذلك الطبقات المترفة من أسر الأمراء كأسرة محمد علي ، فقـــد تدفقـــت إلـــى أراضي الدولة العثمانية .

أولا : فكرة الإصلاح المتكامل عند جودت باشا :

تقوم فكرة الإصلاح عند **جودت باشا** على فكرة رئيسية، ماهية التكامل فـــي إجـــراء الإصلاحات حيث أن الإصلاحات كل لا يتجزأ، فيرى **جودت باشا** أن التنظيم فـــي حيـــاة الدولة وفي إدارة شئونها يضفي عليها استقرارا معنويا تدعمه قوتها العســـكرية ، فيكتمـــل بذلك عظمة الدولة داخليا وخارجيا . وإن أي حكومة تمتلك هذين الأمرين تمتلـــك معـــهما زمام الأمور ، وتوجب رعاياها على الامتثال لأوامرها بلا أدنى فتور أو غضاضة ، حيث أن كمال انتظام الدولة مرهون بانتظام كل إدارتها ومؤسساتها ([٣]).

([١]) اعترض عزت محمد باشا الذي تولى الصدارة على انحراف الدولة وراء التيارات الغربية ، وطالب بضرورة العودة إلى اســـتمرار تطبيق نظم الدولة القديمة وحاول منع تطبيق قوانين التنظيمات ، كما طالب بالعودة إلى التمسك بغطاء الرأس " الطربوش " ووضـــع علامات عليه للتفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، كما طالب النساء العثمانيات بالاحتشام في ملابسهن وعدم ارتداء الملابس الغربيـــة ولكنه لم يوفق في هذا وعزل من منصب الصدارة قبل أن يكمل سنة .

([٢]) وفاء البستاوي : المرجع السابق .

([٣]) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ٤٣. حركة الجامعة الإسلامية .

ومن ثم فإن الأفكار التي طرحها **أحمد جودت باشا** بخصوص إصلاح مؤسسات الدولة، كان يتناسب ووجهات النظر المعاصرة ، حيث أنه كان يرى أن نظام العمل بمؤسسات الدولة العثمانية يشبه دقة الساعة ، وأن أي عطل يصيب إحدى هذه المؤسسات كان بالضرورة ينتقل إلى باقي مؤسسات الدولة وهذا ماحدث تماما بالنسبة للدولة العثمانية عند تشخيصه لأسباب فشل حركات الإصلاح السابقة بها، حيث أعلن أن الخطوات الإصلاحية التي اتخذت كان يجب أن تشمل كل المؤسسات ، أي لابد من التكامل في إصلاح المؤسسات المختلفة بالدولة في نفس الوقت مع ضرورة التنسيق بينها في العمل الإصلاحي . ونتيجة لما تقدم نجد أن فكرة الإصلاح لدي **جودت باشا** كانت تقوم على أساس أن الدولة في احتياج إلى إصلاح وليست في حاجة إلى إعادة بنائها التاريخي .

ثانيا : الخطوط العامة لفكر جودت باشا الإصلاحي في المجال العدلي :

كان فكر جودت باشا الإصلاحي في المجال العدلي يقوم على الأسس التالية :

- إن تحقيق العدل مهمة أساسية في الدولة لتتمكن من سياسة رعاياها ، كما أنه قيمة إسلامية أصيلة ، ومن هنا جاء رفضه التام لاقتباس القوانين والمفاهيم الأوروبية ووجوب حماية القوانين والعادات الإسلامية ، واعترض بشدة على آراء بعض رجال الدولة التي تتجه إلى تطبيق نصوص مترجمة عن القوانين الفرنسية .
- إن الدين الإسلامي قد كفل للجميع الحرية والمساواة في الحقوق ، وبناء على ذلك فإن **جودت باشا** كان يعتقد أن بعد المجادلات التي نشبت في العالم الغربي حول موضوع كفالة الحرية والمساواة في الحقوق أن الدولة والحكومة تستطيع أن تحول دون وقوع الفتنة والفساد والظلم ، وذلك باتباع الأسس وأحكام الشريعة الإسلامية فقط
- إن فكر التنظيمات كما يرى جودت فكر أجوف في باطنه وحقيقته فأخذ جودت على عاتقه عبء إعلان وجهات نظره القاطعة هذه، والتي تعبر عن إحساسه وفكره.
- إن إصلاحات الدولة العثمانية الإسلامية لابد وأن تتم من خلال تطبيق القوانين والنظم الإسلامية مع الأخذ بما يفيد ويتفق مع الشريعة الإسلامية من التطورات الغربية .

وبعد أن حدد **جودت باشا** إتجاهاته الفكرية لإصلاح الدولة، بدأ في عقد موازنة بين الشرق والغرب وبين تاريخ المدينتين ، والعصور التاريخية لكلا الكتلتين، ومن ثم تأتي إصلاحات **جودت باشا** العدلية ، تعبيرا حقيقيا وتجسيدا لفكره القائم على أساس ضرورة عودة الدولة إلى تطبيق أحكام وقوانين الشريعة الإسلامية .

ثالثا : كيفية الإصلاح العدلي العثماني في تذاكر جودت باشا :

عاب **جودت باشا** على علماء عصره جمودهم الفكري ، وتأخرهم العلمي ، ولما كان هؤلاء العلماء هم مناط العدل في الدولة العثمانية ، فإن رفع مستواهم وكفاءتهم سيعيد للدولةانتظام حياتها العدلية، وبالتالي تنظيم بقية مؤسساتها الأخرى ، وذلك يتم عن طريق :

- رفع مستواهم العلمي ونشر المعارف والعلوم الدينية .
- دراسة وتعديل القوانين التي صدرت في فترة التنظيمات ضرورة للإصلاح العدلي .
- الربط بين الإصلاحات العدلية والإدارية ضرورة لإصلاح القضاء الإداري بالدولة العثمانية .
- صقل الملكات بالتجارب العملية والممارسات العديدة أهمية (التدريب ــ الممارسة) .
- تحقيق العدالة في محاكم الدولة العثمانية .
- سرعة الفصل في الأحكام .
- أهمية المجالس العرفية في الحياة العدلية (اتجه **جودت باشا** من منطلق إدراكه لأهمية مراعاة تقاليد كل ولاية ، إلى تنظيم وتصنيف المحاكم إلى درجات ، فأوجد درجتين للمحاكم تنظر الدعاوى وهي المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف ، ثم يأتي بعد ذلك إعلان الحكم في المحاكم المتميزة).
- نشر الوعي والثقافة القانونية .
- تأسيس ديوان الأحكام العدلية (وقد حرص **جودت باشا** من خلال رئاسته لديوان الأحكام العدلية أن يحقق أمرين :

* الأول : أن يقوم بنفسه بإجراء دراسة لنظم وقوانين مؤسسات الدولة المختلفة ، لوضع أسس قانونية صحيحة لإدارة هذه المؤسسات ، وقد بذل في سبيل ذلك قصارى جهده .

* الثانى : اختيار أفضل العناصر من بين العلماء وأصحاب الخبرة وأساتذة القانون ، ليكونوا أعضاء بديوان الأحكام العدلية .

ــ إعداد مجلة الأحكام العدلية :

لاحظ **جودت باشا** على ضوء دراسته لقوانين مؤسسات الدولة المختلفة ــ وجود ملابسات عديدة في النظر في بعض الدعاوى القانونية ، بسب وجود تناقض في بعض مواد القوانين الخاصة بنظام الولايات ، وبين قانون العقوبات وغيره من القوانين الأخرى التي كانت تطبق في الدولة في ذلك الوقت ، وأدى ذلك بالطبع إلى وجود صعوبات كبيرة في النظر حتى في الدعاوى القانونية العادية .

ولما كانت هذه الدعاوى تعرض أيضا على مجالس مختلفة ، منها ما كان يفصل في هذه الدعاوى وفقا لأحكام الشريعة ، ومنها ما كان يفصل فيها وفقا لما نصت عليه القوانين التي استحدثت في فترة التنظيمات والمقتبسة من القوانين الغربية، وقد أعطى ذلك انطباعا قويا بعدم التأكد من تطبيق العدالة والحكم بالحق في الكثير من الأحيان ولمرات عديدة .

ومن ثم عدم إمكان التأكد من صحة الأحكام التي تكفل المساواة في الحكم من خلال هذه التطبيقات المتباينة التي ترتب عليها ظهور ماعرف بازدواجية الفكر القانوني داخل الدولة العثمانية والذي أتت به التنظيمات، وأدت إلى عدم استقرار الحياة العدلية بالدولة.

ولهذا السبب اقتضت الحاجة وبشدة إلى إصدار قانون خاص يحكم وينظم تطبيق المواد القانونية على كيفية واحدة وثابتة ومن ثم تقرر :

أولا : وقف إصدار أي قوانين أخرى في ذلك الوقت .

ثانيا : وجوب إعداد أثر قانوني كبير يتضمن كافة الأحكام الواجبة التطبيق في مختلف المنازعات القانونية وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية ، على أن يعمم تطبيقها في سائر المحاكم الشرعية والنظامية ، وذلك نظرا لندرة وجود علماء الفقه في تلك الفترة .

وبناء على ذلك انشغل **جودت باشا** بالبحث والتمحيص في الهيئة العلمية التي تشكلت تحت رئاسته بديوان الأحكام العدلية لتأليف كتاب عن المعاملات الفقهية والذي عرف باسم " **مجلة الأحكام العدلية** " (1).

والجدير بالذكر أن " **مجلة الأحكام العدلية** " التي أسسها **جودت باشا** ، تعد من أهم الأعمال التي أكسبته نجاحا كبيرا وشهرة واسعة في مجال القانون الإسلامي والعثماني ، حيث أن نجاح هذا الإنجاز الهام الذي يعد من ضمن إنجازات الإصلاح العدلي في تلك الفترة، يرجع الفضل فيه ــ بعد الله تعالى ــ إلى الهيئة العلمية التي تشكلت من كبار علماء ذلك العهد تحت رئاسة **أحمد جودت باشا** ، كما أن مجلة الأحكام العدلية عمل جدير بالتقدير ليس فقط بالنسبة للدولة العثمانية، بل بالنسبة للعالم الإسلامي، فقد أخرج جودت باشا الفقه الإسلامي من تلك الدائرة الضيقة التي رسمها له بعض الفقهاء الذين لم يستطيعوا المواءمة بين القواعد الفقهية وتطور المجتمعات الإسلامية ، فتجاوزوا عن مصالح الناس ، وماجرى عليه العرف بينهم، غافلين بذلك عن قاعدة فقهية متفق عليها وهي أن " **المعروف عرفا كالمشروط شرطا** " فضيقوا في تفسيرها ، وأفسحوا المجال أمام

---

(1) هي مجلة تشريع القوانين وفق أحكام الشريعة الإسلامية وقد داوم فيها جودت باشا على نشر آرائه المتصلة برفضه تطبيق القوانين الغربية .

خصوم الإسلام ليدعوا أن الشريعة الإسلامية غير قادرة على مسايرة مصالح الناس وتطور المجتمعات . فلم يأخذ في تدوينه المجلة بالأشياء التي تصطدم بمصالح الناس المخالفة للعرف .

وتنقسم هذه المجلة إلى ستة عشر جزءا عرضت على السلطان **عبد العزيز** بعد إتمام الكتاب الثاني عشر منها والذي يعرف باسم " **كتاب الصلح** " فأصدر السلطان **عبدالعزيز** قرارا بتطبيق مواد هذه الكتب في كافة المحاكم الشرعية والنظامية .

وهكذا كان إصدار مجلة الأحكام العدلية ــ وهي الجامعة للمبادئ القانونية الإسلامية ــ مسألة حيوية لتحل محل الاجتهادات ، ولتمثل الخطوة الأولى في طريق إيجاد فكر قانوني إسلامى بعيد عن المؤثرات الغربية ، ولتظل النموذج الذي يدل على عمق وتكامل الفكر القانوني الإسلامي ، وليؤكد **جودت باشا** من خلالها إمكانية تقنين أحكام الشريعة الإسلامية وبالتالي تطبيقها ، وإن الإصلاح لايكون بالاتجاه نحو الغرب ، إنما يكون بالعودة إلى أصول الإسلام الحقيقية (١) .

أما عن جهود جودت باشا في إصلاح المجتمع العثماني :

فهي أيضا تتطلب من الأصول ما تبناه جودت أولا بصفته مؤمنا متمسكا بدينه ، ثم مؤرخا ورجل قانون ، ومفكرا وأديبا ومعلما وأيضا عالم اجتماع ، ويمكننا أن نجمل مشروعه الإصلاحي الاجتماعي في النقاط التالية :

١.إثبات الفروق بين المجتمع العثماني والمجتمع الأوروبي :

من خلال رصد **جودت باشا** للفروق التاريخية والاجتماعية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بعد دراسة للعصور التاريخية المختلفة لكلا الكتلتين توصل جودت إلى أن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها ، التي تختلف عن نظم وقوانين الغرب النصراني، ومن ثم لايكون الإصلاح في أي مجال من مجالات الحياة بالاتجاه إلى الغرب ، بل بالرجوع إلى أصول أنظمتها الإسلامية .

فهناك فروق مادية ومعنوية تحول دون الاقتباس المطلق الذي أراده رجال التنظيمات . ومن ثم نادى جودت بوجوب حماية العادات والتقاليد الإسلامية في المجتمع العثماني وسلك طريقا لذلك .

---

(١) ماجدة صلاح مخلوف : المرجع السابق ص ٨٧.

٢. إصلاح المدارس العثمانية وفتح مؤسسات تعليمية في كافة أرجاء الدولة :

حرص **جودت باشا** حينما أسندت له وزارة المعارف أواسط سنة ١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٣م على إعداد برامج تعليمية لكافة المستويات من المدارس الأولى وحتى المدارس العليا .. ولإحياء التعاليم الإسلامية قام بكتابة العديد من الأعمال والمؤلفات الشرعية لتوضيح كل الأسس الإسلامية، ويشير **جودت باشا** إلى أن التعليم هو السبيل الوحيد لتطوير المجتمعات . وركز في رسالته على أمور أهمها :

ــ تكثيف العلوم الدينية، بل جعل مدارس اللاتين تحت سلطة الدولة، وألحق بها جودت ثمانية عشر طفلا من طائفة اللاتين الكاثوليك، ويتولى تدريسهم مدرسين مسلمين وتلقى الأطفال النصارى في هذه المدارس دروسا لحفظ أجزاء من القرآن الكريم إلى جانب العلوم الحديثة .. وبعد فترة وجيزة ارتفع عدد الأطفال من ثمانية عشر إلى خمسين طفلا ، وهكذا أعاد اتجاه **جودت باشا** إلى نشر الإسلام بين أطفال الرعايا النصارى في المدارس الخاصة بهم بعد إخضاعها لإشراف الدولة [١] .

٣- التمسك بالتقاليد الإسلامية والحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي :

إن عمق نظرة **أحمد جودت باشا** الدينية وقوة إيمانه وارتباطه بالدين الإسلامي، انعكس على مفاهيمه السياسية والأخلاقية والاجتماعية، فالإسلام عند **جودت باشا** ليس فقط إيمان وعبادات، وإنما هو أيضا أسلوب حياة فيجب أن يكون النظر لكل مجالات الحياة سواء كانت الأخلاقية أو القانونية أو الاجتماعية من خلال منظور ديني، لأن ذلك سيؤدي بالضرورة إلى حسن النوايا وصلاح العمل [٢].

كما يرى **جودت باشا** أن قوانين الشريعة المستوحاة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم صالحة لكل زمان ومكان ، ومن ثم يجب أن تكون هي المحكمة في المجتمع وخاصة بالنسبة لدولة تهيمن على ملل ومجتمعات مختلفة كالدولة العثمانية التي اتسعت دائرة سلطانها لتشمل مناطق شاسعة وأجناس مختلفة .

٤.ضرورة البعد عن التغريب وإنقاذ الدولة من آثاره :

يرى **جودت باشا** أن الدولة العثمانية قد خدعت إذ أقبلت على مدنية الغرب وانسلخت عن شرقيتها ، مما أفضى بها إلى التقهقر والانهزام، فالدولة العثمانية بدأت كحكومة شرقية

---

[١] انظر فيما سبق : تذاكر أحمد جودت باشا ج٣ ص ١٨-١٩.

[٢] وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح في مذكرات جودت باشا ص١٣٥ .

إسلامية ذات كيان اجتماعي قوي وانتهت بفعل التنظيمات إلى حكومة غربية ضعيفة ومجتمع مفكك.([1])

على ضوء ذلك قام جودت بتتبع ورصد الظواهر الاجتماعية في مختلف الولايات العثمانية التى خضعت لمأمورياته الإصلاحية ولاحظ تعثر بعض هذه الولايات وخاصة القريبة منها من المدن الكبيرة والعاصمة بمظاهر المدنية الغربية، وما لهذا التأثر من آثار.

* ومن الضرورات الإصلاحية تنشيط الوعاظ للقيام بدورهم في التوعية الدينية للمجتمع :

فقد اهتم **جودت باشا** بمناشدة العلماء والوعاظ لتوجيه النصح والوعظ للشباب والفتيات العثمانية لمراعاة التقاليد الإسلامية والحرص على اتباعها لأن فيها صلاح المجتمع، وذلك لما يعرفه **جودت باشا** من تأثير كبير للقوى الشرعية والعاطفة الدينية الممثلة في رجال العلم والفتوى على جميع فئات المجتمع المسلم .

وكذلك اهتم جودت باشا بإقامة شعيرة الصلاة جماعة خاصة الجمعة بعد أن لاحظ أن الصلاة لاتقام جماعة في بعض المناطق كالقوزان إما لعدم وجود جوامع أو افتقارهم للأئمة فحرص على تشييد الجوامع وإرسال الأئمة والخطباء ([2]) .

٥. محاربة الفكر المادي الغربي والقضاء على بعض العوائد الغربية :

فقد انتشر الاهتمام بالتوافه من الأمور على عادة الغرب ، وكذلك انتشر الترف والإسراف والاهتمام بالمظاهر إلى درجة تفوق الإسراف أيضا، وكذلك من المجالات الخطيرة التي ركز عليها جودت انتشار ظاهرة غلاء المهور التي بدأها النصارى أخذا من إخوانهم في الغرب .

وكان لهذه الظاهرة التأثير السلبي الكبير على شباب المجتمع العثماني، فهي أحد الأسباب الرئيسية في انتشار ظاهرة عزوف الشباب عن الزواج واتجاههم إلى اللهو واتخاذ العشيقات والخليلات بالحزم !! وكذلك المأساة بالنسبة للفتيات فكثر خروجهن من البيت وترددهن على الأسواق بعد أن وصلن إلى سن العنوسة، بل يسجل جودت هذه المظاهر من وقت مبكر في الدولة :

ـ ارتياد الفتيات الشوارع بصحبة الفتيان ، وهذه ظاهرة تعد غريبة على المجتمع العثماني المسلم .

([1]) أحمد فهد شويكة : حركة الجامعة الإسلامية ص ٤٢.

([2]) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا ص١٤٠ .

ـ ارتياد الفتيان إلى الحانات والتعرض للفتيات في الشوارع .
ـ اتجاه الفتيات إلى نهج جديد وغريب على المجتمع الشرقي الإسلامي، كـالتردد على الأسواق صباحا ومساء ، كما أصبحت من رواد الحانات ،وكذلك ارتدين الملابس ذات القماش الشفاف ، المبالغ في الزركشة تقليدا للأزياء الأوروبية .

وقد أرجع **جودت باشا** هذه السلوكيات إلى الانفتاح على الغرب الأوروبي ووجود طبقة من المجتمع لاتدين بالإسلام فلا تبالي بحلال أو حرام !

وكذلك إلى تأخر سن الزواج بين الشباب نتيجة المغالاة في متطلباته ، لذلك دعى جودت لتدارك هذه الظواهر الخطيرة حتى لاتحدث انهيارات في البنية الاجتماعية للدولة العثمانية (١) .

منهج جودت باشا في الإصلاح العسكري والأمني عموما :

كانت عند جودت جرأة كبيرة في طرح أفكاره الإصلاحية بل وتنفيذها في المناطق التي كانت تحت يده ـ خاصة في ذلك الوقت الذي كان يجعجع فيه باسم الوطنية والمساواة بين أفراد الوطن ـ ومن هذه المشاريع رفضه التام لتجنيد غير المسلمين بالجيش العثماني المسلم . وانطلاقا من مقدمات شرعية ورجوعا إلى آيات القرآن الكريم في استئمان أهل الذمة .

وللأسف كلف رجال الدولة والي البوسنة بانتخاب شباب من أبناء أعيان بعض المسلمين والنصارى وإرسالهم إلى استنبول كحرس للقصر الهمايوني .

وقد بنى **جودت باشا** اعتراضه على عقيدة أن المسلم يتحمس للقتال بدافع الفتح أو الشهادة ونصرة الدين الإسلامي ، وهذه الكلمات تلقن لهم منذ نعومة أظفارهم وهي الدافع لهم لتحمل أعباء ومتاعب القتال بصبر وجلد، كما يرى أن مثل هذه الدوافع المعنوية إلى الحرب هي السبب في شدة وبأس جنود المسلمين في القتال (٢).

ومن منطلق هذه الفكرة عارض جودت تجنيد غير المسلمين في الجيش العثماني وذلك للاختلاف القائم بين المسلمين وأهل الذمة فيما يتعلق بمفهومي التربية والقتال لدي كل منهما، ومن أسباب معارضته أيضا أن أهل الذمة سيكتسبون حقوقا عسكرية فإذا حدث وعجزت الدولة أو امتنعت عن الوفاء بهذه الحقوق المكتسبة ، ستكون عرضة للتدخل

---

(١) انظر فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا ص ١٥٠.

(٢) ماجدة مخلوف : معروضات أحمد جودت باشا ، دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية ج٣ . ص ١٤٠.

الأجنبي في الجيش العثماني ، وهذا أمر غير قائم طالما أن أهل الذمة غير مشتركين في الجيش العثماني الإسلامي .

وكذلك كان لجودت جهود إصلاحية في الجيش وفي الجهاز الأمني في الدولة كان يقوم بمتابعتها والتأكيد عليها بنفسه، وذلك حتى في المسائل الدقيقة المتخصصة ، ومن ذلك تأكيده على متابعة التدريب وخاصة للمجندين ومتابعة كل جديد في الفنون العسكرية والقتالية والتدريب عليها .

وأكد على ضرورة عنصر الخبرة في اختيار قيادات الجيش، وسعى حسب اجتهاده في الاختيار وخاصة في المناطق ذات الطبيعة الجغرافية القاسية أو المناطق الساخنة بالفتن .

واهتم **جودت باشا** كذلك بالعلوم الحديثة ، بجانب التدريبات الحديثة . وأكد على أهمية التحصيل النظري بجانب التدريب العملي .

وكذلك من النقاط التي ركز عليها تهيئة الرأي العام لنجاح الإصلاحات .

فقد كان حريصا قبل إجراء الإصلاحات في أية ولاية من الولايات على تهيئة المناخ العام في هذه الولاية لتقبل الإصلاح ــ لأن الناس بطبيعتها تخشى من التغيير خاصة كبار السن ــ وعمل استبيان أو استطلاع لهذه الإصلاحات حتى لايحصل أثر عكسي لها من اضطرابات وقتل وحركات تمرد .

وذلك من منطلقه أن استتباب الأمن ضرورة أساسية للإصلاح ([1]) .

وهذه النقطة نختم بها الحديث :

ولذلك فقد اهتم جودت اهتماما بالغا بإعادة الاستقرار الأمني للولايات الخاضعة للإصلاحات والتعامل العسكري مع المثيرين لأعمال الشغب والقرصنة ، باعتبار أن إعادة الأمن وضبطه والاستقرار الداخلي في رأي جودت ــ يعد أمرا حيويا قبل الشروع في إجراءات أي إصلاحات إدارية كانت أو عسكرية ([2]) .

الخلاصة :

وهكذا نجد أن **أحمد جودت باشا** لم يكن منظرا فحسب، بل كان رجل دولة ورجل عمل . فكان يخطط وينفذ ، ولكن مع ذلك كما علمنا من الأحداث المتعاقبة كان أعداء هذه الملة وهذه الدولة العثمانية أكثر تعاونا للأسف وأكثر ترتيبا وتنظيما في تخريبهم . وكانت

([1]) وفاء أحمد قطب البشاوى : المرجع السابق ص ١٦٤.

([2]) انظر المرجع السابق : ص ١٦٥.

الجولة لهم مع ضعف السلاطين وتخاذلهم في الأخذ على أيدي المفسدين ضعفا وخوفـــا . كما علمنا ذلك من سيرة السلطان **عبد الحميد** والذي يعد أعظم سلاطين الدولة في عصـــر الضعف .

إلا أنه يبقى **جودت باشا** نموذجا للعالم العامل، الذيـــن لايمكـــن أن ينســـاهم التـــاريخ الإسلامي الحديث .

ثانيا : محمد عاكف :

مولده ونسبه :

ولد محمد عاكف في مدينة استنبول عام ١٨٧٣م بحي الفاتح المجاور لمسجد السلطان محمد الفاتح .

أما اسمه فهو "محمد عاكف بن محمد الطاهر ،وأبوه ولد في قرية من قرى ألبانيا،وقد لازم محمد طاهر بعد قدومه استنبول حلقات العلماء ودروسهم حتى أخذ الإجازة وأصبح من أساتذة مدارس السلطان محمد الفاتح.

ومما ينبه عليه محمد عاكف في حديثه عن نفسه أنه بالرغم من أن والده كان من منسوبي الطريقة النقشبندية ومن مريدي الشيخ فيض الله،إلا أ نه لم يتأثر بوالده أو أن والده لم يلقنه الصوفية ،يقول محمد عاكف : (لم تكن أمي من الصوفيات ولم يلقني أبي الصوفية)([1]) .

دراسته وتعليمه:

درس محمد عاكف في المراحل النظامية للدولة من ابتدائية ومتوسطة وثانوية ومن ثم الجامعة ،فقد التحق بكلية الطب البيطري ..ويذكر عاكف سبب اختياره لكلية البيطرة فيقول:(سجلت في القسم العالي للعلوم الإدارية سنة ١٨٨٨م ودرست في السنة الأولى، ولكن توفي والدي واحترق منزلنا وأصبحت محتاجا ،... وكانت هناك صعوبات في التعيين بالنسبة للوظائف الحكومية مع قلة الراتب ،وفتحت أول مرة كلية البيطرة وترك كثير من إخواننا الدراسة في كلية الإدارة وسجلوا في الطب البيطري ...ويتابع عاكف قائلا :وكنت جيدا في اللغة ،وبدأت أكتب الشعر وأشتغل به .....وكان أكثر الدكاترة في الكلية من الأساتذة المتخصصين متمسكين بالإسلام ،وأثرت تلقيناتهم على تربيتي ومن أكثرهم أثرا في نفسي وسلوكي الأستاذ رفعت حسام الدين ([2]) .

([1]) عيسى مصطفى يوجار :محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية ،ص ١٣٩نقلا عن محمد عاكف لمدحت جمال :ص ٢٥ ،ص٢٦٣

([2]) عمر رضا :مقدمة ديوان الصفحات ،ص١٥

موقفه من التغريب ودعاته :

تمهيد :

قبل أن نتعرض لكل مواقفه من الغزو الفكري أو التغريب بوجه العموم، لابد أن نشير إلى موقفه ودفاعه عن الإسلام والخلافة الإسلامية بعدما انتصر الأتراك على أعدائهم الصليبيين في حرب الاستقلال ، وبدأ الإداريون وكبار المسئولين يبحثون عن نظام جديد ، وقد كان الغرب وقتها مستعمرا قلوب أبناء المتعلمين العثمانيين ، وماجاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ المستعمرين . وإزاء ذلك خلا الجو لهم ينفثون من سمومهم في البلاد المستعمرة ما يشاءون من ثقافتهم وفكرهم ، وجعلوا الثقافة الغربية هي المنبع الأساسي للثقافة في البلاد الإسلامية ، ثم أخذو يقذفون بالتيارات والمذاهب الوضعية ، وأحدث ذلك هزة عفيفة في العالم الإسلامي ونشأت طبقة من المثقفين الذين كان لهم أثر في التعليم وفي الحركة الثقافية ممن تأثروا بالثقافة الغربية ، واقتنعوا بها ، ودعوا إلى اتجاهاتها المعارضة للإسلام ومنهم **ضياء كوك ألب** وأصحابه. ولما بدأ الزحف الاستعماري الغربي على العالم الإسلامي لم يحمل معه أفكاره السياسية وآراءه الاجتماعية ، ونظمه الاقتصادية فقط ، وإنما نشر وبأوسع نطاق جميع تصوراته الخاطئة .

والغزو الفكري يحاول دائما أن يزاحم المسلمين في بلادهم ، وأن يشوش عليهم دينهم . والمعركة معركة فكر ، وجبهة الصراع الجديد هي عقول أبناء هذه الأمة ومشاعرهم . تلك التي يحاول هذا الغزو أن يغرس فيها بذوره ، ويعرض بضاعته ، لذا فإن جهاد **عاكف** لهذا الغزو كان يعتمد على سلاح من نوع سلاحه .

فهناك عديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية الهدامة غزت الدولة العثمانية ، ولاتزال مستمرة في غزوها تركيا .

وفي حالة الضعف والتردي التي كانت تعيشها الدولة تعرضت لزحف أوروبي حيث ليس عسكريا فقط كزحف الحروب الصليبية ، وإنما كان عسكريا وفكريا وسياسيا واجتماعيا . ووجد العدو الجو مهيأ لتنفيذ خطته الماكرة في تغريب العالم الإسلامي ، وكانت هذه الخطة تعتمد على تربية الجيل الذي سيقود البلاد في المستقبل ، وتغذيته بفكره وثقافته حتى تضمن أوروبا ولاءه وخضوعه له في نهاية الأمر .

ولقد كان عصر **عاكف** يموج بتنظيمات معادية للإسلام . وحلت حرب الأفكار والعقيدة محل الحروب الصليبية بعد حرب الاستقلال في تركيا .

ورفع المستغربون راية العلمانية ، وصبوا الدين في المساجد فقط ، وأبوا عليه أن يكون له سلطان خارج المسجد ، ورفعوا مبادئ الرأسمالية والديمقراطية في مختلف مجالات الحياة ، وقضوا على القيم والمثل والأخلاق الإسلامية .

وهكذا غزا الغرب المجتمع الإسلامي بقيم جديدة ، ليبتعد به عن قيم الإسلام ، وحقق الغرب هدفه في تقسيم الدولة العثمانية ، وفي القضاء على الخلافة الإسلامية ، وقطع كل صلات الدولة بالإسلام ، واتخاذ دستور علماني بدلا من الإسلام ، وتنتهي الإجراءات إلى سلخ تركيا من إسلامها ، وفي بداية الأمر بدأت محاولات لاقتباس بعض النظم الإدارية والقانونية من الغرب ،وانتهى الأمر إلى إقبال تام عليه ، وإعراض تام عن الدين .

ومن بين الوسائل التي اتخذها ذلك الغزو : تحريم الآذان باللغة العربية ــ وجعلوه باللغة التركية ــ وتحريم الكتابة بلغة القرآن ، واستيراد القوانين لكل مرافق الحكم ، وأطلقت وسائل الإعلام لتهاجم الإسلام بكل الصور والأشكال والأساليب ، والأخطر من ذلك كله أن العلمانية في تركيا لم يقتصر أثرها على تركيا فحسب ، بل تعداها إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي، وأصبح النظام الجديد النموذج والمثال للنظام الناجح .

ولعاكف وقفات قوية ضد الغزو الفكري في مجالات متعددة نبينها فيما يلي ...

موقف عاكف من الفكرة القومية :

لقد أحسن **عاكف** في أخريات أيام الدولة العثمانية كشف الكارثة التي توشك أن تحيط بالعالم الإسلامي وبالخلافة الإسلامية ، ووصف واقع المسلمين في تلك الأيام في آثاره، ويبدو أن فكرة الفتنة القومية ومسئوليتها لاتقع على طائفة بعينها ، بل تقع على الجميع فالحق أن ما أصاب الخلافة العثمانية في الفترة الأخيرة من خلاف وتمزيق وتقسيم بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد بين المحيط إلى المحيط ، فصارت أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لاتربطها رابطة مشتركة ، كان فتنة عامة ألا وهي القومية .

وكان سقوط الخلافة العثمانية بداية انهيار الوجود الإسلامي في شبه جزيرة البلقان وأوروبا . وبعد ذلك جاءت مراحل تأسيس دويلات متفرقة ، ثم تأسيس دولة اليهود ؛ وانقطاع العلاقات بين المسلمين ، لقد وجد بين هذه الدويلات نوع من التنافس على الزعامة والتوسع على حساب بعضهم البعض.

وأيقظت الدعوة للقومية التركية أو العربية طوائف أخرى ودفعتها لأن ترفع نفس الراية، ففي شرق تركيا وشمال العراق دعا سكان هذه المنطقة إلى بعث القومية الكردية ، وفي البلقان ارتفعت أصوات بالقومية الألبانية ، كرد فعل للقومية التركية . وفي مناطق أخرى ظهر مسلمون يفخرون بانتسابهم إلى قومياتهم .

وقد اتخذ الاتحاديون " **الطورانية** " طريقا لأنفسهم في الحياة الفكرية والثقافية تمسكوا بها ، وعاشوا في عالم الخيالات في جمع الأتراك في العالم تحت راية واحدة ، ولم يدافعوا عن الأمة الإسلامية، بل سلكوا طريق القومية التركية ([1]). كما انتشرت فكرة القومية بعد الثورة الفرنسية في دول أوروبا الشرقية ، وبدأ الدفاع عن الجامعة العثمانية عند بعض المثقفين الأتراك .

ثم ازدادت فكرة القوميات انتشارا بعد السلطان **عبد الحميد** خصوصا في البلقان،وازداد نشاط **ضياء كوك ألب** ورفقائه للدفاع عن الطورانية ([2]).

يقول **حسين مجيب المصري** :

إلى جانب هذه النزعة القومية المتطرفة ظهرت نزعة إسلامية رشيدة أمل أصحابها إصلاح الحال بالرجوع إلى تعاليم الإسلام والتمسك بعروته الوثقى، ففي القرآن نور يهدي في الظلمات وصلاح الدين والدنيا ، ولن تقوم قائمة للمسلمين عامة ، ولاللأتراك خاصة ،

([1]) انظر : أثر السنين ، ص ١٠٣

([2]) انظر أسس القومية التركية : لضياكوك ألب

إلا إذا أقاموا الدين ووقفوا عند الحدود . ومما يذكر أن أنصار هذا الرأي لا يميلون إلى القومية التركية ، لأن الإسلام لا يفضل جنسا على جنس فالغرب والعجم سواء في ظل منارته السابقة ، وهم يريدون وحدة إسلامية تجمع شمل المسلمين ، وتؤلف بين قلوبهم ، ولايحملون بالطورانية ولاالعثمانية كغيرهم . وفي ذلك يقول شاعرهم **محمد عاكف** مخاطبا الألبانيين ([1]) .

ماهي القومية الألبانية ؟ ألها محل في الشريعة الإسلامية ؟([2]).

واتفق الكتاب على أن عاكفا شاعر إسلامي دافع عن الإسلام والمسلمين في أنحاء العالم.

وقد انتشرت في أيامه فكرة القومية التركية، ودافع عنها بعض الأدباء والشعراء والكتاب وعلى رأسهم **ضياء كوك ألب ومحمد أمين يورداقل** (أى عبد الوطن) .. إلخ

ودافع المؤلفون الآخرون ، مثل : **ناظم حكمت ، وعبد الله جودت** عن الاشتراكية ، ودافع معظم الكتاب عن التغريب. ومايسمى بالحضارة الغربية .

أما **عاكف** فقد عاش بينهم ، ووقف ضدهم ، وعبر عن معارضته لهم ، وأصبح مخالفا تمام المخالفة لأفكارهم ، وأبرز خصومته للأفكار المعادية للإسلام ، ويظهر من مؤلفاته دفاعه عن المقدسات الإسلامية ، وردوده على مزاعم المخالفين جميعا ، واعتبرهم مفسدين تحت اسم الإصلاح، وضالين مضللين أفسدوا عقول الناس بمؤلفاتهم وكتاباتهم . وراجت كثير من الدعاوى العنصرية بعد عام ١٩١٢م وتبناها السياسيون ، فأصبح **ضياكوك ألب** عنصرا بارزا في الاتحاد والترقي، وفي نفس الفترة تقريبا ظهرت مؤلفات بالعربية تدعو إلى القومية، منها مانشره **نجيب العازوري** : " **يقظة الأمة العربية**" و " **أم القرى**" لعبد **الرحمن الكواكبي** .

والواقع أن **محمد عاكف** وقع مع بعض أصحابه من محرري مجلة "**سبيل الرشاد**" على طلب أرسلوه إلى **ضياكوك ألب** – عضو المركز العام لحزب الاتحاد والترقي – في تلك الأيام وطلبوا منه الاجتماع العلمي لعقد الحوار أو النقاش حول الأفكار المنتشره من قبل القوميين الطورانيين لبيان أضرار النشرات المتعلقة بالطورانية ولغرض التأليف بين الجماعتين أي الإسلاميين والطورانيين . ولكن لم يرد أحد من الطورانيين على هذه المذكرة، بل استمر الطورانيون في نشر أفكارهم . أما عاكف فلم يفرق بين العناصر الإسلامية في الدولة العثمانية ، وحاول تحقيق الوحدة ، وابتعد عن الطورانيين

([1]) تاريخ الأدب التركي : ٥١٤ – ٥١٥ .

([2]) انظر تفصيل قوله : ديوان الصفحات ١٧٣.

أعمال محمد عاكف ومواقفه الإصلاحية :

أولا : ضد القوميات عموما والقومية التركية خصوصا :

١ ــ يقول عاكف مخاطبا جميع المسلمين بلسان واعظ يلقي درسه في مسجد **السليمانية** باستنبول : " كان المفروض أن يربطنا الإسلام ربطا كاملا وقويا ، ولكن لم ولن أفهم من أين جاءت فكرة التفرقة واستولت على أذهانكم ؟ وكيف انتشر هذا الفكر ؟هل الشيطان لقنكم وبث في أذهانكم فكرة القومية ؟ فإن الإسلام جمع في بنيته أقواما مختلفة تحت راية أمة واحدة ، ولكن " القومية " زلزال يريد أن يهدم الإسلام من قواعده الأساسية . ونسيان هذه الحقيقة ولو لحظة واحدة خسران أبدي ولن تستمر حياة هذه الأمة إذا استمرت فيها دعوة القومية العربية أو القومية الألبانية . وأما السياسة الأخيرة في الدولة العثمانية ، وهي القومية التركية ([1]).فلا يرجى منها فائدة أبدا في استمرار حياة الأمة فإن خالقكم خلقكم كأفراد أسرة واحدة يجب عليكم أن تزيلوا أسباب التفرقة من بينكم . وإذا اشتغلنا بدعوى القومية فسوف يغز والأجانب ــ والعياذ بالله تعالى ــ بلادكم ليصبحوا فورا أصحاب الملك ، وقد قال آباؤنا الأقدمون : القلعة تفتح من داخلها " .

ولم يستمع أحد إلى هذه النصيحة ؛ لأن الأمة كأنها أمة ميتة ؛ لاتسمع ؛ لإنها صماء، وأن الدولة الإسلامية الحالية التي ترزح اليوم تحت نير الاستعمار الذي يسعى لإزالتها هي الفريدة في التاريخ ، فالدولة الإسلاميةالسابقة دخلت مقابرها بنفس السياسة (أي أزيلوا جميعا من الوجود نتيجة التفرقة).

لايستطيع العدو دخول بلد من البلاد قبل أن يدخل التفرقة بين أفراد الأمة التي تعيش فيه ، وحينما تصبح القلوب موحدة في إيمانها فلن تستطيع المدافع إسكاتها أو إزالتها . اتركوا النقاش حول الحكومات السابقة التي زالت من الوجود ، فإن الحكومات الحالية كافية للعبرة لمن يريد أن يعتبر ، هذه بلاد المغرب وتونس والجزائر كلها ضلعت ، والآن يقسم الأعداء بلاد إيران بينهم ([2]).ولاغرابة في هذا كله . بل هي أمور طبيعية ؛ لأن ميدان العمل ملك لمن يعمل ، وقد منح الخالق سبحانه وتعالى حق استمرار الحياة للقوي .

([1]) غيروا في عام ١٩٢٨م كلمة " القومية التركية " بقولهم " هذه السياسة ".

([2]) يقصد عاكف تقسيم إيران بين روسيا وبرطانيا ، ونشر هذه الأبيات في ١٩١٢/٨/١م وصور فيها واقع المسلمين في تلك الايام.

أصبح المسلمون أقواما مرضى بمرض التفرقة أفلا تحولها أوروبا المتحضرة لقيمات لتبتلعها ؟ أيتها الأمة : "إن المصائب كافية للعبرة ، استيقظوا بالله من نومكم وإلا فسوف تسمعون صوت الناقوس القوي بآذانكم" .

٢ـ كتب **عاكف** في مايو ١٩١٣م قصيدة طويلة ندد فيها بالقوميات ونشرتها جريدة "**الظهور**" التي كانت تصدر في مدينة بغداد ، ووزعتها في ملحق خاص ، ووعدت بنشر تلك القصيدة المكونة من خمسين بيتا باللغتين العربية والفارسية (١). وقد دخل جنود الصرب بلاد ألبانيا أيام حرب البلقان ، وقتلوا المسلمين ، وكان أصل **عاكف** من ألبانيا وحينما هاجم الأعداء بلاد آبائه وأجداده انفعل لذلك الحدث وعبر عن انفعالاته في قصيدة له . وبين أن سبب خروج سكان تلك المناطق على الدولة العثمانية هو انتشار فكرة القومية بين سكانها، يقول **عاكف** : " يا والدى ، انظر كيف يذبح ثلاثة ملايين مسلم بتخطيط من قبل بضعة من السفهاء . لاعون ولافائدة من الأحياء ، قم أنت من قبرك ؛ لتساعد المسلمين إن ألبانيا تحترق والحريق رهيب جدا في هذه المرة ، كان الحريق في البداية مجرد شرارة وأصبح الآن نار الجحيم ، وانتشرت ألسنة اللهب المنبعثة منها في كل أنحاء البلاد ، إنه حريق هائل جدا لم يترك بيتا إلا أحرقه : ولكن هيهات . أين أصحاب الأرض الأصليين الأبطال الذين دافعوا عن هذه الأراضي ضد الشعوب الأخرى من الصليبيين ؟ الغريب أنني لم أر أحدا في الميدان ولو فردا واحدا. أين الشجعان الذين لو أصيب شرف الواحد منهم بأدنى أذى لما سكن حسه ، ولاقنعت شجاعته حتى يقتل بضعة أشخاص من الأعداء المعتدين ؟ والآن شرف الأمة محضر وأصاب مجدها الضرر ، فأين الذين كانوا لايذكرون أسماء بناتهم وزوجاتهم عند غير المحارم ، ولايسمحون لهم أن يسألوا عن أسمائهن ويقولون : لا تسأل عن اسمها وإلا قتلتك ؟ وأين هؤلاء الذين كانوا لايسمحون بتسجيل أسماء نسائهم وبناتهم غيرة عليهم ؟ أين هؤلاء الأبطال ؟ . لم يظهروا شيئا من شجاعتهم السابقة حينما عمل هؤلاء الخبثاء لنشر الفحش بلا مراعاة للحرمات ولاحجاب النساء " .

ويخاطب **عاكف** الألبانيين قائلا : أيها القوم الأسرى ، كنتم تريدون الاستقلال فماذا حدث؟ أنا أخشى أن يكون نصيبكم الآن هو الندم الأبدي ـ فحسب . أيها العنصر الرافض للروابط ، أين استقلالك ؟ أرى أنه قد قضى على جميع آمالكم تماما . أين الخيالات العالية ـ في تحقيق الاستقلال ـ للشمقيين (أى المنظمة القومية الألبانية) ؟

---

(١) مقدمة ديوان الصفحات لروزداغ : ص ٣٥:٣٦

وقد نمتم في خدر تلك الرؤيا الملعونة سنوات طويلة ، حقا لقد كنتم نـــائمين وإلا فلـو استيقظتم في الوقت المناسب ، فهل كان يقدر لكم الهلاك بهذا الشكل ؟ وهل كان يحدث ذلك الانهيار السريع في جميع الآفاق في ذلك الصباح الدموي ؟ .

لقد أحاط البلاد من كل جانب قطاع الطرق من الجبل الأسود ، وحمـــير الصـــرب ، وأفاعي البلغار ، ثم كلاب اليونان . وقد أحاطت تلك الجيوش الثلاثـــة الســفيهة بجيشـــنا المستتر ، شردونا من بلادنا ، وأخذوا وطننا من أيدينا ، وذبحوا بعض الأسر الفقـــيرة ، وهاجموا أعراض النساء بأنواع من الفجائع ، وهكذا سفكوا دماء هذا ، وأحلـــوا عـــرض تلك، فأيها الخارجون عن الدولة العثمانية إن هذا الانهيار المؤلم هو نتيجة أعمال أولئـــك الثلاثة أو الخمسة من السفهاء الذين بثوا فيكم فكرة الخروج على الدولة . لماذا لم تتوقعـوا تلك العاقبة الشنيعة ؟ وقد كنتم تدعون أن ملتكم هي "**الإسلام**" إذا فما هذه الدعوى القوميـة . لماذا لم تتمسكوا بملتكم الإسلامية تمسكا كاملا ، وتستمروا على هذا السبيل ملتفين حوله ؟ ماهي القومية الألبانية ؟ ألها محل في الشريعة الإسلامية . إن التنادي بالقومية لن يكون إلا كفرا ، أي فضل لعربي على تركي ، أو للأز ([1]) على شركس ([2]) أو على كردي.

هل في الإسلام دعوى العنصرية ؟ لا ، ولا وجود في الإسلام للعنصريـــة ــ وأنـــى يكون هذا والنبى صلى الله عليه وسلم يلعن فكرة القومية ؟ إن دين رسول الله صلـــى الله عليه وسلم أكبر عدو للتفرقة ، الموت للسفيه الذي أدخل التفرقة بين المسلمين . وقد وصل إليكم خبر عاقبتكم الحالية قبل أكثر من ألف عام ، فهل يجوز لكم أن تشتغلوا الجدل رغـم علمكم بهذا الخبر ؟ .

ويخاطب **عاكف** القوميين قائلا : هدمت مائة وخمسون ألف بيت ، وقتل مـــن فيـــها ، أيها السفهاء الخمسة أو الستة الذين خططوا لهذه الحرائـــق أخذيتمونـــا أمـــام الصـــرب والكروات . لماذا فصلتم ألبانيا المطيعة للخلفية ([3])بالقرآن ، ونتيجه فصلكم هـــذا الجـــزء ضربتم جميع البلاد ، لماذا تسلكون طريق القومية ([4]).

وهناك أسباب لانتشار فكرة القومية بين المسلمين ومن أهم هذه الأســـباب فـــي رأي **عاكف** : " جهل المسلمين وعدم كفايتهم من ناحية التعليم والمدارس اعتبارا من رياض

([1]) اسم قوم يسكنون الساحل الجنوبي والشرقي من البحر الأسود .
([2]) قوم من أقوام القوقاز .
([3]) في الطبعة الأخيرة " الحكومة " .
([4]) ديوان الصفحات : ص ٢٣٩.

الأطفال والمدارس الابتدائية لتعليم الناشئين . ويذكر **عاكف** مثالا في بيان ذلك ويقول : كثير من يريد أن يصبح عبرة أمام أعين الناس . كأن ماسبق من العبر الصـــادرة منـــا للعالم لم تكن كافية . وفي الواقع لم يبق من أنواع المصائب شيء إلا أصابنا والسبب هـــو جهلنا .

٣ـــ يقول **عاكف** في تصوير أيام الاتحاديين : ظهرت التفرقات دائما باسم حزب أو قومية أو لغة ، لذا وقعت عداوات كبيرة بين أخلص الناس ، ولم يسبق في تاريخ الإســـلام ذل كالذي كان في أيامنا([1]) .

وبين **عاكف** أن فكرة القومية فكرة مدسوسة من قبل الإنجليز لتمزيق المسلمين ، قد نشروا هذه الفكرة بين المسلمين ، ليسهل لهم غزو هذه البلاد وركزوا في ذلـــك على الطورانية والعروبة للفصل بين هذين الشعبين أولا ، ثم تحطيم مركز الخلافـــة الإسلامية ، وتحدث عن الكوارث التي أصابت وطن الإسلام والمسلمين . وعن آلام الوطن الإسلامي وعذاباته ولم ينس في كتاباته دينه ودولة الخلافة، وقد اتفقت ضـــد الدين، وضد دولة الخلافة معظم الأفكار المعاديـــة للإســـلام كالقوميـــة والوطنيـــة والتغريب والإلحاد ، ودافع **عاكف** عن الإسلام ووطن الإســـلام بحـــرارة وإيمـــان صادق .

يقول **عاكف** في قصيدته بعنوان "**إلى متى النزاع**" : عند قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولاتنازعو فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾ ([2]) دع الألسنة تقول : أنـــا ـــ أنـــت ، وفرق وحدة الجماعة : فيومئذ تقوم القيامة التي تفني الأمم .

٤ـــ دفاع **عاكف** عن الروابط الإسلامية ووقوفه ضد القوميات خلال تفاسيره :

يقول في تفسير قوله تعالى ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا** ﴾ ([3]) :

الإسلام يجمع جميع العناصر من جميع الألوان واللغات والأنساب والأقاليم فـــي ملة واحدة ، ويربط بين تلك العناصر ، وليس للعثمانيين طريقة للسلامة فى الدنيـــا والآخرة إلا بالتمسك بهذه الرابطة تماما ، أيها المسلمون : انتبهوا .. اتركوا الغـــيرة القوميه ،إن مضيتم في إهمالكم الرابطة الدينيـــة ستهلكون .

([1]) عيسى مصطفى يوجار :محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية
([2]) سورة الأنفال : آية ٤٦ .
([3]) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

ويقول **عاكف** في تفسير قوله تعالى ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم** ﴾ (١):

(إن التفرقة والانقسام للتعارف ، وليكون وسيلة لصلة الرحم . أما التفاخر بالآباء والأجداد فإنه مغاير لمقاصد الشريعة ؛ لأن جميع القبائل والأقوام تشعبوا من أب واحد ، وليس بينهم رجحان وتفاوت .. . ويميز بين الناس شيء واحد ، وهو التقوى) .

ويقول **عاكف** : (وا أسفاه فإن معظم الذين يظنون أنهم على الحق لم يعرفوا عن الحقائق شيئا، ويرى أعداؤنا أن حياتهم مرتبطة بموتنا ،لذا نشرت حكومتهم بيننا النفاق والفساد والقومية والجنسية ، وخلاصة القول : نشرت كل أسباب ضياع وحدة هذه الأمة وتمزقها . ونحن نسعى لنجاح دعوات أعدائنا وإنتاج بذور فسادهم ، أيها المسلمون اعلموا جيدا أنه لاقومية في الإسلام إن ظللتم على تمسككم بقومياتكم المختلفة ، وترك الأخوة الإسلامية فهذا هو الخسران المبين للجميع ــ نعوذ بالله ــ من يتمسك بقوميته لايكون مسلما)

ويقول **محمد حرب** في كلمة ألقاها في ندوة الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بعنوان : " **تعريف بأدب الدعوة الإسلامية في تركيا منذ سقوط الخلافة** ":

(وإذا أخذنا مجموعة الإسلاميين الوطنيين مدخلا لدراسة أدب الدعوة الإسلامية في تركيا ، فواضح أنهم أنصار فكرة الوطن بمعناه الحديث ، وهي أرض عليها قوم يتحدثون لغة مشتركة ، ولهم دين مشترك هو الإسلام ، ويمثّل هؤلاء شاعر الإسلام **محمد عاكف** ، حقيقة أن أشعار **عاكف** مليئة بالإيمان لكننا نجد فيها قصائد ليست كثيرة يمثل إلى جانب القومية الوطنية مزج **عاكف** الإسلام بالوطنية ، ولذلك يمكن اعتباره شاعرا إسلاميا وطنيا. ثم يضيف قائلا : (يرد **عاكف** على قول نجلابك أولجاي ــ شخصية رئيسية في الأدب التركي الإسلامي بمفهوم الإسلامية في عهده فإنه يأخذ منطلقه من القرآن الكريم).

وقد اعترف **مصطفى كمال** قائلا : إن **عاكف** كتب نشيدا بروح الدفاع عن الأمة الإسلامية (٢) وهذا الاعتراف في موضع نقد **عاكف** ، وليس في الثناء عليه من قبل مصطفى كمال .

ثانيا :موقفه من الإلحاد

صور **عاكف** في قصيدته بعنوان :"**مسجد الفاتح**" موقف المسجد تجاه الأفكار الإلحادية، لأنه بوضعه المادي والمعنوي يقف ضد الإلحاد يقول **عاكف** : وعندما كانت

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣ .

(٢) تاريخ الأدب التركي المصور والمنقوش : ٦٢٨/٢

الأفكار الدنيئة تنشر الإلحاد في الأرض بقي هذا المعبد العظيم المقر بالتوحيد صامدا أمام هجمات الإلحاد وكان رائد الإلحاد الشاعر **توفيق فكرت** (١٨٦٧ــ ١٩١٥م) ويعد ماكتبه ممثلا لأدب التغريب حينا والإلحاد أحيانا .

ورد **عاكف** على **توفيق فكرت** في قصيدة طويلة تتكون من تسعة وأربعين بيتا ، ثم كتب عن آرائهم في الشعائر الإسلامية ورد عليهم بالحجة والإقناع .

وهناك شخص آخر من الملحدين هو **محمد رؤوف** ، كتب رواية بعنوان "**حكاية زنبق واحد**" سنة ١٩١٠م وهي حكاية خليعة مليئة بالفساد والضلال ، وقد كتب **عاكف** قصيدة في الرد على هذا الكاتب المضل ، وكان رفضه شديدا تجاهه، وكشف عاكف عن مقاصده وأعماله، وبين أن هذا الملحد يريد الفحش وإفساد الأخلاق من خلال انتاجه .

ومن خلال ماتقدم نستطيع أن نقول أن موقف **عاكف** من الإلحاد وكذلك الشيوعية هو الرفض التام المطلق، وقد نشأ الفكر الشيوعي في أوروبا وطبق في روسيا كما انتقل إلى البلاد الإسلامية ومنها تركيا ، وهو دخيل وغريب على أهله وديارە بثه اليهود رغبة في القضاء على الدعوة الإسلامية ، ولعدم التعرض لليهود واليهودية .

وكان عاكف يرى خطورة الإلحاد والشيوعية ، وحذر المسلمين منها.

ثالثا : موقفه من التغريب وانتشار الفساد الخلقي :

أ- موقفه من التغريب :

لاشك أن حركة التغريب هي حركة متكاملة ، لها نظمها وأهدافها ، وقادتها الذين يقومون بالإشراف عليها ، وتستهدف تدمير فكرة الشخصية الإسلامية وتسميم ينابيع الثقافة فيها . والتغريب في عصر **عاكف** لم يكن هو التبعية العاطفية والفكرية ، وتبني أنماط السلوك الدخيله فحسب ، بل هو انسلاخ المستغربين من القيم التي كانوا ينتمون إليها احتقارا لها والدعوة إلى تبني القيم الغربية إعجابا بها ، وحاول المستغربون بث الأفكار الغربية والتمكين للحضارة الغربية في الدولة وبذلوا الجهد وحاولوا أن يصلوا في مجال محاربة الفكر الإسلامي وتحقيره إلى حد تجريده تجريدا كاملا من كل الجوانب المشرقة فيه، وكان إعجابهم بالفكر الغربي وحماستهم له والدعوة المتفانية إليه قد بلغت أشدها . وكانوا يمثلون كيانا غريبا عن بني جلدتهم وعن الغرب، كذلك ولم ينجحوا في إقناع الغرب أنهم منهم قلبا وقالبا .

وقد اتفق **عاكف** مع كثير من المفكرين الإسلاميين في رأيهم أنه لابأس من أن نستفيد من الغرب في تقدمه التكنولوجي في الأمور المادية من صناعة وإنشاء ...، ولكن لايجوز

استيراد الفكر والثقافة الغربية ، لتعارضها مع تعاليم الإسلام ، ولكن الواقع يشير إلى أن الفصل بين المنتجات المادية والقيم الحضارية الغربية ليس دائما من السهولة بمكان ، وإن كان هذا الفصل مستحيلا إذا وجد الوعي الإسلامي ، ووضح الفرق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية كل بخصائصها ومقوماتها ، وفي رأي عاكف أن المنبع الذي يستقي منه المسلم أفكاره وتصوراته هو كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) . وان الأسوة الحسنة مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي هذا المنبع وتلك الأسوة يجب ألا تشوبها شائبة وإلا كانت النتيجة صورة مشوهة ومنهجا غير سليم . وهناك أسباب كثيرة أدت إلى الإعجاب بما يزعمه ويردده دعاة التغريب عن فضائل الحضارة الغربية ، بل دفعت كثيرا من المسلمين إلى تبني الأفكار الغربية ، كما أن هناك عوامل كثيرة جعلت التغريب ظاهرة مستمرة أيام **عاكف** ، ومن بين ذلك حملات التشكيك والشبهات التي ألصقها دعاة التغريب بالفكر الإسلامي .

يرى **عاكف** أن الأعداء يهدفون من وراء مخططاتهم إلى التغلغل الفكري ، وإلى إماتة الروح الجهادية ويضحكون على المسلمين .

وبين **عاكف** آراء وأفكار الأدباء المنحرفين قائلا : هل هؤلاء سيرشدون الشعب ؟ لا أبدا ؛ لأن بعضهم يرغب في نقل حسن الغرب .. والبعض الآخر يأخذ أدب إيران القديم ويشتغل بقدماء أدبائه، ثم يقول **عاكف** بعد التفصيل عن أعمال وأفكار المفكرين والأدباء: "لافائدة في سلوك الطريق التقليد في جميع المسائل ، خذوا علم الغرب وصناعته ، وأعطوا أقصى السرعة في نفس الوقت لمساعيكم ، لأن الحياة لاتستمر بدونها ، وليس للعلوم والفنون قومية" .

ويقول **عاكف** في بيان أفكار المفكرين في عصره : اسمعوا ماذا يقول من يسمون أنفسهم بالمفكرين : لايمكن تطور بلاد الشرق في مجال الحضارة عموما إلا بالسلوك في طريق واحد، ومن سلك طرقا أخرى فهو غافل . لابد من السير على طريق أوروبا بلا انحراف إلى اليمين أو اليسار، ويجب أن تتبنى أذهان أولاد الشرق أفكار الغرب .. فيكون منبع الإحساس واحدا .

ثم يوضح **عاكف** رأي عموم الشعب في تقليد الغرب وعدم أخذ شيء منه ويقول : فلنبين رأي العوام من الناس : لاشك أن رأيهم عكس رأي المثقفين ــ المستغربين ــ تماما ثم يوضح **عاكف** رأيه هو : إن المفكرين سلكوا طريقا خاطئا.ولم يلتفتوا إلى شيء آخر غير طريقهم . ثم استغربوا حينما لم يذهب الشعب وراءهم ، وفي الواقع أن الرأي العام هو

أفكار عامة الناس ، وهكذا ابتعد كل طريق عن الآخر ، ودخل بينهما النزاع ، واشتد المثقفون على الشعب ، وأظهر الشعب بغضه الشديد .

ثم بين **عاكف** أحوال الأدباء فقال : أما الأدباء فإنهم مخلوقات دنيئة هل هؤلاء سيرشدون الناس ؟ هيهات . بعضهم عميل باع نفسه بلا مقابل لنشر فحش الغرب في البلاد، والبعض الآخر يأخذ من إيران يشتري الأفكار القديمة ويبيع أشياء تافهة .

ويقول **عاكف** : لقد غش أبصارنا كابوس الغرب الدامي وحال دون النظر فمنذ قرون شل عقل المسلم وساعده ([١]).

ب - موقف عاكف من أعمال حزب الاتحاد والترقي :

بعد خلع السلطان **عبد الحميد** الذي كان ينادي " **بالجامعة الإسلامية** " ويدعو إليها، تولى أعضاء حزب الاتحاد والترقي السلطة في الدولة العثمانية وتبنوا العصبية القومية التركية ، ولم يكن للخلفاء الذين جاءوا بعد السلطان **عبد الحميد** إلا الاسم فقط ، كانوا سلاطين رمزيين ، واتجه زعماء هذا الحزب نحو الطورانية بإحياء وتاريخ الأتراك الوثنيين . وتمجيد الغزاة الوثنيين وفتوحات أسلافهم في جاهليتهم ، وتمادى الاتحاديون في خيالهم الذي كان يصور التئام الطورانيين من الترك العثمانيين والتركمان والتتر والمغول والفلنديين والمجر وأصبحوا يرون أن هذه الأجناس أقرب إليهم من العرب ومن سائر المسلمين الذين لاينتمون إلى العنصر الطوراني ، واستبعدت تلك الجماعة الوحدة الإسلامية وحاربت الجامعة الإسلامية .

والعلماء المشهورون في ذلك الوقت سجلوا أسماءهم في هذه الجمعية ، ولكنهم سرعان مارجعوا وكان من بينهم **عاكف** ، وخرجوا جميعا وهم أبرياء ، ولأن **عاكف** كان يهدف إلى المشاركة في نشاط الجمعية التعليمي ، وبين **عاكف** موقفه من أعمال الاتحاديين في كتاباته ونقدهم نقدا شديدا بروح تتلاءم مع الإسلام وأفكاره العظيمة فرفض جميع أعمالهم من القتل والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق .

ج -موقف عاكف من الحضارة الغربية :

عند الغربيين حضارة متميزة بخصائص معينة ، ولكنها تتسم بالروح الصليبية تجاه المسلمين ولابد لنا أن نتخذ موقفا محددا . فماذا نأخذ منها ؟ وماذا ندع ؟ وإذا أخذنا منها شيئا فما هو الطريق والشكل والأسلوب ؟

([١]) ديوان الصفحات : ص ٢٣٢ – ٢٣٥.

لقد حث **عاكف** المسلمين من خلال كتاباته ومواعظه على اقتباس علوم الغرب وفنونه، والمقصود من علوم الغرب ، العلوم التطبيقية، والمقصود من فنونهم التقنية المتطورة عندهم . وكان **عاكف** يرى أن هذا الاقتباس ضروري ليقف المسلمون أمام الغرب وجها لوجه . وقد حذر **عاكف** صراحة من اتجاه المسلمين روحيا نحو الغرب يخشى أن يأخذ المسلمون بالمظهر الخارجي البراق للحضارة الأوربية ويعجزوا عن إدراك كنهها وحقيقتها. ووقعت حركة التغريب على الصورة التي كان يخشاها **عاكف** ، وهي الإنبهار بالمظهر الخارجي للحضارة الغربية الصليبية .

والظاهر من آثار **عاكف** أنه انتقد الحضارة الغربية من عدة وجوه ، وبين أنها غير كاملة وأن تقدمها في العلوم والصناعات لايدل على كمال حضارتهم . فإن تقدمهم في التقنية لايبرر أعمالهم السيئة المنافية للإنسانية، فينبغي علينا أن نأخذ علومهم لكن لانثق بهم، وقد اختار عاكف الجانب المفيد مثل : العلوم ، وترك الجانب المضر . لذا كان موقفه بارزا سلبا وإيجابا .

وهذه بعض الجوانب التي كان يعجب بها **عاكف** ويعتبرها جوانب إيجابية لدي الغربيين([1]). فمنها تقدمهم في العلوم والفنون والمعارف، ومنها نشاطهم المستمر وعملهم الدائم للحاضر وللمستقبل بلا يأ س ولاانقطاع آمال، ومنها تقديرهم قيمة الوقت . أما سلبيات الغرب في رأيه ، فهي كثيرة جدا منها : أن الغرب مستعمر ومحتل .

ومن أعمال الحضارة الغربية في العالم الإسلامي ، العنصرية والتفرقة ، ونتيجة تسلط الغربيين انتشرت القوميات .

وأدى **عاكف** خدمة كبيرة في بيان حقيقة الغرب ، والحضارة الغربية كماهي في الواقع وبين أنها حضارة استعمارية ، وأن الاستعمار من أبرز أعمال أصحاب تلك الحضارة، وهي حضارة متهاوية وأن كان لها دوي ضخم .

وفي رأي **عاكف** أن القشرة الظاهرية المزيفة للحضارة الغربية لاتلبث أن تسقط أمام أي اختبار حقيقي ، وذكر بعض تجاربه ومشاهداته أيام إقامته في برلين، وبين أن غياب التربية الإسلامية والخلق الإسلامي والنظرة الإسلامية للعلاقات والأمور سبب مهم جدا من أسباب انتشار الحضارة الغربية بين أبناء المسلمين .

بعد ذلك يقر **عاكف** حقيقة واقعة وهي تخلف المسلمين عن غيرهم من الأمم ، ولكن ليس السبب في الإسلام، بل في الابتعاد عنه ، فلنعد إذا إلى الإسلام في أول عهده بالذي

([1]) انظر مقالات محمد عاكف : ٦ ، ٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٢٠٨، مواعظ محمد عاكف : ٥٦ ومابعدها . تفاسير محمد عاكف ١٤٦ .

أثره في نفوس المسلمين الأوائل ، وكيف أصبح المسلمون في ثلاثين عاما يتمثلون حضارات يربوعمرها على ثلاثين ألف سنة ، وكيف هذب الإسلام النفوس فجعل من **أبي بكر** بحرا في المعرفة والفضيلة ، وجعل من **عمر** مثالا للعدل لم يصل إليه أحد من بعده .. وكان **عاكف** يرى الغرب كأفعى تريد بكل إمكانياتها تسميم الشرق الإسلامي وقتله.

ويقول **عاكف** : إن الجسد في الحضارة الغربية انحل من كل القيود وهو الآن كالوحش الكاسر يدمر كل شيء وأن الروح هي القوة الوحيدة التي تحول بينه وبين تدمير الآخرين .

رابعا : دفاعه عن الإسلام وعقيدته ومعارضته البدع والخرافات :

كان **عاكف** يتمسك بالكتاب والسنة في جميع أعماله يبذل جهده للفهم الصحيح للإسلام وللوصول إلى فكرة إسلامية شاملة . ويدعو إلى العمل وينادي بالجهاد . لذا يحتل مقام المفكر الإسلامي الرائد في هذا القرن في تركيا .

ويقول عنه **مدحت جمال** : كان **عاكف** يدافع عن العودة إلى صدر الإسلام إلى ما قبل أربعة عشر قرنا وكان يقول : " إن أراد المسلمون الخلاص من الضياع أمام سيول الأيام فينبغي عليهم الرجوع إلى صدر الإسلام من جديد ".

ويقول **عبد السلام فهمي** : يعالج **عاكف** في ديوانه مشاكل الشعوب الإسلامية .. ، كما يظهر علمه الغزير في شتى الفنون وحرصه على الوحدة الإسلامية والدعوة إلى السلفية وتشجيعه الجيل الجديد على تعلم العلوم الغربية مع التمسك بأهداب الدين ، وعرف بشاعر الإسلام ، واستحق هو هذا الاسم لأنه دافع عن الإيمان والعقيدة الصحيحة . وأعطى كل مجهوده للدعوة إلى الله وإلى الجهاد في سبيل الله .

وكان **عاكف** يدعو لنبذ البدع ، والغلو المؤدي إلى الانحرافات في العقيدة والسلوك ، وكانت له مواقف صلبة مع أهل البدع والخرافات والانحرافات دعاهم إلى حقيقة الإسلام،ونصحهم وأرشدهم إلى الطريق الصحيح ، واستقام بعضهم ، وحاول إزالة الأوهام المنتشرة وأعمال المنحرفين في المجتمع .

ونذكر هنا بعض البدع التي حاربها . فعن البدع في المساجد يقول **عاكف** : أصبحت عبادتنا تقريبا تتخذ شكل البدع خذ مثلا صلاة الجمعة في المساجد الكبيرة ، فإن الوقت الذي يضيع بدون سماع القرآن والصلاة هباء

هناك كلمات تقرأ من القصائد ، تبدأ بـ " طيب الله أنفاسهم " فيها شيء من اللغة العربية والفارسية يقرؤونها بأداء مخصوص وهي أبيات مختارة من الشعر .. ، يقرؤها خدام المساجد بصوت عال ! من أحدث هذا ؟

أخبروني بالله مافائدة هذه الأبيات ، غير الإزعاج وتنويم المصلين ؟.

ينبغي اعطاء وقت أطول للموعظة ، ولكن نحن مستغنون عن سماع الإسـوائيليات ([1])، أما الخرافات المنتشرة في عصره ، فقد ذكر **عاكف** عددا منها بأسلوبه الخاص ، ووقـــف ضدها مستمدا من روح الإسلام وتعاليمه أسلوب العلاج الأمثل . ويصور لنا **عاكف** أعمال الذين ينشرون الخرافات في المجتمع ، ويشير إلى أضرارهم بقوله : " رغم ماتـــأمر بـــه الشريعة من ضرورة العمل فإنك لم تعمل ، بل قعدت عن العمـــل وأحدثـــت كثـــيرا مـــن الخرافات وزعمت أنها من الدين ، وأضفت في نهاية الأمر على ذلـــك توكـــلا مزعومـــا، وهكذا جعلت هذا الدين شيئا مضحكا ([2])، وهكذا يشير **عاكف** إلى ضرورة فهم التوكل فهما صحيحا مع العمل والسعي كما أمر الله تعالى وإلا فسنصبح بعيدين عن حقيقـــة الإســـلام، ويقول **عاكف** : في مناسبة أخرى : انتشرت الخراقات والنفخة(النفث لغـــرض الشـــفاء) وربط الحبل (لتحقيق بعض الرغبات) والذهاب إلى القبور بأمل الشفاء من الأمـــرا ض ، وكل ذلك بقية من بقايا البطالة الملوثة ([3]) . وقد أكد **عاكف** أن الإسلام منـــع مـــن التعلـــق بالأوهام والخيالات الكاذبة التي ليس لها في واقع الإسلام سند . كما عاب الإســـلام علـــى المقلدين تقليد الآباء وتمسكهم بما تناقلت الأجيال من الخرافات .

([1])محمد عاكف : لمدحت جمال :ص ١٨٨ .

([2]) ديوان الصفحات :ص ٣٢ .

([3]) المرجع السابق :ص ١٦٨.

ثالثا : الشيخ مصطفى صبري (شيخ الإسلام في الدولة العثمانية) :

أولا : في مجال الحكم (فصل الدين عن الدولة) :

لقد استأثرت هذه القضية ـ فصل الدين عن الدولة ـ البالغة الأهمية بعناية الشيخ واهتمامه ، فألف كتابه في الخلافة الإسلامية " **النكير على منكري النعمة** " الذي شدد فيه النكير على الكماليين لقيامهم بفصل الخلافة عن السلطة تمهيدا للقضاء على الخلافة ، كما خصص لهذه القضية الباب الرابع بأكمله من كتابه الكبير (**موقف العقل**) لعرضها وتحليل أبعادها ، وإيضاح مراميها ، ومناقشة المستغربين المروجين لها في عالمنا الإسلامي ودحض أقوالهم والرد على مفترياتهم .

ولكي نحيط بالموقف الذي اتخذه الشيخ من تلك القضية سوف نقسم الكلام فيه إلى قسمين:

ـ أحدهما : في عدم جواز فصل الدين عن السياسة.

ـ والآخر : في الرد على كتاب " **الإسلام وأصول الحكم** " لعلي عبد الرازق .

(أ) عدم جواز فصل الدين عن السياسة :

لقد عارض **مصطفى صبري** مسألة فصل الدين عن الدولة (١) . ورفضها جملة وتفصيلا ، وأكد مرارا على عدم جوازها ، وعلى أن الدين الإسلامي لايسوغها ، وعلى أن مصلحة الأمة تمنعها، وقد اتبع في سبيل إثبات ذلك مايلي :

١ـ حلل تلك المسألة تحليلا دقيقا بين فيه حقيقة ذلك الفصل والمراد منه ، وكشف عن أبعاده وعن مدى خطورته على دين الأمة حكومة وشعبا ـ فقال في نص جامع فيه خلاصة موقفه : " .... لكن حقيقة الأمر أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه ، وقد كان في كل بدعة أحدثها العصريون في البلاد الإسلامية كيد للدين ومحاولة للخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أوهى وأشد من كل كيد في غيره ، فهو ثورة حكومية على دين الشعب وشق عصا الطاعة من الحكومة لأحكام الإسلام ، بل ارتداد عنه من الحكومة أولا ، ومن الأمة إذا سكتت ثانيا ، وهو أقصر طريق إلى الكفر ، وقال :" .. فصل الدين عن السياسة هو خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته عليها وخروج الأئمة أيضا من ربقته باختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها ولاسيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة ، فمثل الفصل في تلك الحكومات

---

(١) وذلك من الناحية الفكرية النظرية و من الناحية التطبيقية العملية .

كمثل المنادة بالردة حكومة وأمة " . وقال : " .. إن القول بفصل الدين عن السياسة معناه إدعاء عدم لزوم الدين للحكومة بزعم أن في دين الأمة كفاية واستغناء عن ديانة الحكومة ، ومعنى عدم لزومه للحكومة ، أن لا يكون له، أي للدين سلطة عليها ورقابة على أعمالها كما كانت للحكومة سلطة على الأمة ورقابة على أعمالها ([1]).

وقال : " .. إن فصل الدين عن الدولة إعلان حرب من الحكومة على الإسلام ، وان شئت التخفيف من شدة التعبير بإعلان الحرب فقل إعلان استقلال من الحكومة التي كانت تابعة في أحكامها لأحكام الإسلام ضد متبوعها وهو لايقل في المعنى عن إعلان الحرب لتمردها على متبوعها وخروجها عن طاعته ".

وقال أيضا : " .. ليس معنى تجويز فصل الدين عن السياسة إلا تجويز تجرد الحكومة عن الدين، إلا أن الراغبين في تجريد الحكومة من الدين يسمونه فصل الدين عن السياسة تخفيفا لخطره وسوء تأثيره في سمع الأمة المتدينة ، فهم يتوسلون إلى القضاء على دين الحكومة بأن يعبروا عن هذا القضاء بالفصل بين الدين والسياسة ، ثم يتوسلون بالقضاء على دين الحكومة إلى القضاء على دين الأمة ([2]) .

ويستخلص الشيخ من التاريخ الإسلامي الدليل القاطع على صحة ماذهب إليه من أن فصل الدين عن السياسة هو في حقيقته تجريد الحكومة من الدين ؛ لتعمل بعقلها القصير متحللة من أوامره وأحكامه ، وهو : أن الحكومات الإسلامية كانت منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى عهد قريب مما نحن فيه اليوم من السنوات النحسات يحكمن على الأمة ويحكم عليهن الإسلام من فوقهن ،فإن فعلن في خلال هذه الخطة المرسومة مايخالف حكما من أحكام الدين فإنما كان ذلك يعد ذنبا على الحكومة الفاعلة كما لو اقترف أحد من المسلمين إثما متبعا هوى نفسه خافق القلب من مخافة الله ومخافة الناس، وأنه لم يحدث قط في تاريخ المسلمين ، ولم يطف ببال أي حكومة من حكوماتهم ــ مهما كانت فاسقة مستهترة في أفعالها المجاهرة ــ بالخروج عن رقابة الإسلام ومحاولة فصل الدين عن السياسة ، أي عزلة عن حكمه على الحكومة ووضع هذه المسألة موضع البحث في شكل مشروع جديد ومذهب اجتماعي جديد ومحاولة تقليد الحكومات الأجنبية عن الإسلام في ذلك ([3]) .

([1]) مصطفى صبري : موقف العقل من رب العالمين ج٤ /٤ : ٢٩١ .

([2]) المرجع السابق : ج٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣

([3]) انظر المرجع السابق : ج٤ / ص ٢٩٢.

٢ــ بين أن اقتصار الدول الإسلامية على التمسك بالدين في مظاهر الأعياد والمناسبات الرسمية تقليداً للدول الغربية في ذلك لايجدي نفعاً ولايكفي في اعتبارها دولاً إسلامية، وفصل القول في حكم خروج الحكومة على الدين ، فقال : " إن كون الدولة تقصد في ديانتها سوى مظاهر الأعياد والمراسم ليس من الديانة الحقيقية في شيء، وإنما هو نفاق ، أي ديانة في الظاهر وكفر بالدين في الباطن ، وإن كنا جادين في ديننا معترفين بأننا تحت حكم الله وتكاليفه الواصلة إلينا بواسطة رسوله فلا فرق بيننا في هذا الموقف منفردين أو مجتمعين، فكما لايجوز أن ينفصل الفرد المؤمن بالله ورسوله عن دينه فيكون في أفعاله محرراً عن القيود الدينية ([1]) لايجوز لدولة تعتبر دولة المسلمين فصل الدين عن نفسها لتكون الهيئة الحاكمة فيها لنقل ماتشاء غير مقيدة بأمر الدين ونهيه .

فإذا خرجت حكومة أمة مسلمة عن حدود دين الأمة من غير إدعاء لنفسها حق الانفصال عن الدين كانت حكومة فاسقة كأحد المذنبين من أفراد الأمة ولم تكن حكومة مرتدة عن الإسلام ، لأنها فصلت الدين عن الدولة عملياً لاعلمياً واعتقادياً فينطبق عليها قول الله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ ([2]).

أما إذا خرجت عن حدود الدين مدعية كون الخضوع لأمر الله ونهيه واجباً على الأمة دون الحكومة، فهذا فصل الدين عن الدولة مبدئياً أي عملياً واعتقادياً .

وهذا ارتداد الدولة عن الإسلام وارتداد الأمة معها إذا رضيت هذه الحالة لحكومتها أو كانت في حكم الراضية بأن تكون الحكومة حكومة برلمانية تحكم بالنيابة عن الأمة ، فينطبق عليها حينئذ قوله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ([3]) .

٣ــ ربط بين الدين والدولة ربطاً محكماً إلى حد أنه رأى أنه لااعتداد بأية دولة أو حكومة تدعي الإسلام مالم تقم على الدين وتلتزم بأحكامه ، وذلك باعتبار أن الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة شامل لجميع شؤون الإنسان ومحققاً للبشرية ماتصبو إليه من حياة آمنة كريمة، وحافظاً لها من طروء الظلم والفوضى والفساد .

ولهذا الربط مظاهر في كتابات الشيخ ، فإضافة إلى ماتقدم في بيان حقيقة الفصل بين الدين والسياسة هناك مظاهر عديدة منها على سبيل المثال :

([1]) مراد الشيخ هنا من القيود الدينية الحدود والضوابط الشرعية .

([2]) سورة المائدة ، الآية ٤٧.

([3]) سورة المائدة ، الآية ٤٤.

أ ـــ أنه حث العلماء المسلمين على الاشتغال بالسياسة، ونادى بضرورة مشاركتهم في الأحزاب والبرلمانات السياسية وفي تسيير دفة الحكم ، وعلى أن تكون السياسة آلة طيعة للدين مستخدمة في تعزيزه وتنفيذه .

ب ـــ أنه جعل تمسك الأمة الإسلامية بالدين مترتباً على خضوع حكومتها للإسلام ولأحكامه حيث قال : لما كان التمسك بالدين لازماً للأمة الإسلامية وشرطاً حيوياً لكيانها فإنه لابد أن تكون حكومته متدينة ، أي خاضعة للدين ، حتى يتسنى تدين الأمة ، ويسلم لها البقاء على دينها ([1]) .

جـ ـــ أنه اشترط لصحة إسلام الدولة أن تكون حكومتها منقادة لأحكام الدين مثلما أن شعبها منقاد لها أيضاً ، ولذا نجده يقرر أن ديانة الدولة تتصور لها جهتان وحيثيتان:

الأولى : كون أفراد شعبها منتسبين إلى الدين مقيدين به باختيارهم التام غير مخاطبين في ذلك بأمر أحد أو نهيه يبلغ درجة السلطة .

الثانية : كون حكومتها مقيدة بأحكام الشرع منقادة لأمر الله ورسوله كما يقيد أفراد الشعب([2]).

د ـــ أنه عزا تشتت شمل المسلمين في الأعصر الأخيرة وهبوطهم إلى حضيض الذل والمسكنة إلى ضعف اعتصامهم بدينهم القويم ، ورد منشأ الفوضى الاجتماعية والسياسية إلى الوهن في العقيدة .

هـ ـــ أنه ذهب في تعريف الخلافة الإسلامية إلى أنها عبارة عن كون حكومة ما نائبة مناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام بأحكام الشرع الإسلامي.

و ـــ أنه اعتبر إلغاء المحاكم الشرعية في البلاد الإسلامية ، أوتقسيمها إلى محاكم شرعية ومحاكم مدنية ، اعتبر هذا الإجراء من مستتبعات فصل الدين عن السياسة .

٤ـــ أنكر على محدثي مسألة الفصل بين الدين والدولة في المجتمع الإسلامي استخفافهم بما فيها من خطر عظيم على الإسلام وتفسيرها وتصويرها في أعين الناس على أنها عبارة عن مراعاة الدين والسياسة مستقلا أحدهما عن الآخر من غير إخلال بأي منها.

وفند هذا التفسير مستندا إلى بيان مايتضمنه ذلك الفصل من مفاسد وما يترتب عليه من محاذير ، وكان أهمها مايلي :

أ ـــ إن فصل الدين عن الدولة أشد ضررا بالإسلام من غيره من الأديان ، وذلك :

([1]) انظر موقف العقل : ج٤ / ص ٢٩٠ ، ٢٩١.

([2]) راجع مصطفى صبري : النكير على منكري النعمه ، ص ١٣٥ - ١٣٦.

١ــ لكونه لاينحصر في العبادات ، بل يعم نظره المعاملات والعقوبات ، وكل ما يدخل في اختصاص المحاكم والوزارات ، ومجالس النواب والشيوخ . فهو عبادة وشريعة وتنفيذ ودفاع .

٢ــ ولكونه دين ودولة وجنسية لمعتنقيه يحيط بهم من كل جانب ويزيل جميع الفوارق فيما بينهم ويذيب كل جنسية وقومية في جنسيته ، ففيه الوحدة الاجتماعية التي تبحث عنها كل أمة لتوحيد الأقوام المختلفة ولاتجدها .

٣ــ ولكونه ينطوي على كل ماتحتاج إليه الدولة والأمة من القوانين ، فهو مستغن بنفسه عن غيره لايدانيه في هذه الخصلة أي ملة ، فجميع قوانينه مستنبطة من الكتاب والسنة .

ب ــ إن فصل الدين وإقصاءه عن السياسة يؤدي إلى ضياع الأخلاق وفساد القيم ، حيث لايمكن إدعاء وجود واسطة لصيانة الأخلاق من السقوط أفضل من الدين .

جـ ــ إن السياسة التي تتولاها الحكومة المتخلية عن الدين لابد أن تضع الدين تحت أمر الحكومة ونهيها مع كل ما يدخل تحت سيطرتها ، ومجرد هذا الوضع ينافي عزة الإسلام الذي يعلو ولا يعلى عليه في كل المجالات ، حتى ولو احترمت الحكومة دين الأمة ولم تمسه بشيء من الاضطهاد مع كونها قادرة عليه ، من حيث أن سياسة البلاد بيدها لا بيد الدين .

د ــ إن فصل الدين عن السياسة أشد ضررا وأكثر مفعولا من فصل الدين عن الأمة بسبب واضح لايحتاج إلى كثير تمعن وتفكر وهو " أن الحكومة تستطيع التأثير في الأمة ولاتستطيع الأمة التأثير في الحكومة مادامت خاضعة لحكمها " .

هـ ــ وعلى فرض أن الحكومة المتحللة من قوانين الإسلام لم تكره الأمة ولم تحثها على هجرة الدين وإهماله ، بل ألقت حبلها على غاربها في مراعاة الأحكام الشرعية ، فإن هذا يتيح للفسقة هتاك الآداب والمحرمات والفرصة للجري في طرق الشهوات .

و ــ إن فصل الدين عن السياسة يستلزم إلغاء المادة التي تنص في دستور الدولة على أن دينها الإسلام ، ذلك أنه لايكون دين الدولة أو الحكومة الإسلام بمجرد أن يقال إن دينها كذلك.

ز ــ إنه لاينحصر كفر الحكومة ــ عند نبذها الدين ــ في نفسها ، بل يتعدى إلى الشعب ، ذلك أن الحكومة ليست إلا ممثلة للشعب أو وكيلته التي لاتفعل غير مايرضاه

،فإذا أخرجتها أفعالها عن الدين فلا مندوحة من أن يخرج موكلها أيضا ، لأن الرضـا بالكفر كفر ([1]) .

وقد استشهد **مصطفى صبري** على ماذكره من المفاسد والمضار بحال تركيا الحديثـة الكمالية ونبه على أن الضعف والانحطاط الذي حل بالعالم الإسلامي في هذا العصر أدعى إلى أن ترتبط الحكومات الإسلامية بالإسلام وتتشبث به لاأن تتخلع عنه وتخرج من ربقته.

ونظرا لوجود هذه المفاسد التي يتضمنها فصل الدين عن الدولة والمحـاذير المترتبـة عليه نجد أن الشيخ يقرر بأن الترويج لهذا الفصل سواء كان من قبل رجال الحكومة أو من قبل الكتاب المفكرين في مصلحة الدولة والأمة لايتفق مع الإيمان بأن الدين منزل من عنـد الله وأن أحكامه المذكورة في الكتاب والسنة أحكام الله المبلغة بواسطة رسوله .

ولأجل هذا الموقف القوي الصلب الذي اتخذه الشيخ من قضية فصل الدين عن الدولـة نجده لايرى أي فرق بين أن يتولى الأمر في البلاد الإسلامية حكومة مرتدة عن الإسـلام وبين أن تحتلها حكومة أجنبية عنه على اعتبار أن مدار الفرق بين دار الإسـلام ــ فـي نظره ــ وبين دار الحرب على القانون الجارية أحكامه في تلك الديار ، بل إنـه يـرى أن الحكومة المرتدة أبعد عن الإسلام من غيرها وأشد سوءا وتأثيرها الضار في ديـن الأمـة أكثر، من حيث إن الحكومة الأجنبية لاتتدخل في شؤون الشعب الدينية وتترك لهم جماعـة فيما بينهم تتولى الفصل في تلك الشؤون ([2]) .

ب ـ الرد على كتاب " الإسلام وأصول الحكم " لعلي عبد الرازق :

بهذه العقيدة القوية ــ التي عرضناها آنفا ــ وبهذا الفهم العميق والدقيق لخطر ضلالـة فصل الدين عن الدولة وقف **مصطفى صبري** يغالب المبهورين بحضارة الغرب ، ويتصدى لهم ويرد على أقوالهم وأفكارهم ، وكان على رأس هؤلاء وفي مقدمتهم الأستاذ **علي عبد الرازق** حيث فند مدعياته التي ضمنها كتابه " **الإسلام وأصول الحكم** " .

ونحن نبين ــ فيما يلي ــ المنهج الذي اتبعه الشيخ بوجه عام في الرد على كتاب **علي عبد الرازق** نقول : لقد اقتصر **مصطفى صبري** في الرد على مضمون ذلك الكتاب علـى تفنيد ثلاث دعاوى رئيسية هي :

١ــ أنه لم تكن لرسول الله ﷺ حكومة ، بل كانت له نبوة وهي لاتقبل الخلافة .

([1]) بالطبع الشيخ هنا يقرر ما ذكره في معرض الرد وبيان فداحة المشكلة التي تترتب على فصل الدين عن الدولة ، أي لازم المذهب وليس هو مذهبا كما هو معلوم . أنظر مفرح سليمان القوسي: مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد (رسالة ماجستير)

([2]) لايسلم هذا للشيخ على إطلاقه ، ذلك أن الكثير من الدول الاستعمارية الغربية تتدخل في شؤون المسلمين الدينية .

٢ــ أنه كانت لأبي بكر حكومة لكنها حكومة لا دينية.أي حكومة زمنية لاصلة لها بالدين.

٣ــ أنه ليس للإسلام خلافة ولاإمامة ، وأن نظام الخلافة الذي تعارف عليه المسلمون نظام عقيم عديم الجدوى ، وأنه لاضرر على الإسلام من إلغائه .

أما الدعوى الأولى :

قال **مصطفى صبري** : لقد تأول الأستاذ **علي عبد الرازق** مسألة جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ــ ولكنه لم يخرج منه بنتيجة تنفع أساس ما ادعاه ، فهو ينكر حكومة النبي ، ولاينكر محارباته ، ويدعي أنه لايحارب للدين ، ويتأول آيات الجهاد ،فيحصي الآيات الناطقة بأنه لا إكراه في الدين، ولكنه لم يفكر كيف تتفق محارباته (صلى الله عليه وسلم) مع هذه الآيات ، فإن لم تكن محارباته لأجل الدين ، فلا بد أن تكون من أجل تأييد الملك والحكومة ، ومما يفسر لنا موقف **علي عبد الرازق** المشوب بالتهيب والتزلف للغربيين والهرب من تصوير الواقع في مسألة جهاده ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو قوة الغرب المتغلب على الشرقيين وانتقادهم الجهاد الإسلامي .

أما الدعوى الثانية :

فقد أنكر فيها **علي عبد الرازق** أن تكون حكومة **أبي بكر** رضي الله عنه حكومة لادينيه، ويريد بذلك نزع الدين من حكومة **أبي بكر** لينتزع منها الخلافة ، وما ذلك إلا لتبرير حكومة **مصطفى كمال** اللادينية وذلك بتنزيل حكومة **أبي بكر** إلى درجة حكومته واعتبارها حكومة لا دينية مثل حكومته ، ويعلق الشيخ على ذلك بقوله : " غاية في الغرابة والشذوذ إدعاء أن يكون رئيس حكومة كهذا رئيس حكومة لادينية ، فهل رأيتم أو سمعتم حكومة زمنية لاعلاقة لها بالدين تدور رئاستها مع الإمامة في الصلاة ؟!([1]) .

فالمتتبع لحكمها والتزامها يرى أن قوام حكومتهما (**أبي بكر وعمر**) وسر أفضليتهما وكمالهما عائد إلى كونهما ملتزمين بالدين الإسلامي ، فقطع صلتهما الظاهرة به سيؤدي حتما إلى زوالهما وتلاشيهما، وهذا يكشف لنا عن الهدف الذي يسعى إليه **علي عبد الرازق** من هذه الدعوى التي نحن بصددها وهو : إنكار فضل الدين الإسلامي في ظل هذين الصحابيين الذي شهد العالم بكونهما مثال الحكم السامي الإنساني ([2]) .

([1]) موقف العقل : ج٤ ص / ٣٧٤.

([2]) راجع المرجع السابق .

أما الدعوى الثالثة :

فقد ادعى فيها أن الخلافة نظام للحكم تعارف عليه المسلمون وليس لـــه أصـل مـن الشرع(١)، وأنه عديم الجدوى ولاضرر على الدين من إلغائه ومن فصل الدين عن الدولة:

وقد اتبع **مصطفى صبري** في الرد على هذه الدعوى مايلي :

١ـ حدد مفهوم الخلافة المقصود إلغاؤها من قبل الكماليين في تركيـــا والمؤيديـن لـهم خارجها، حيث ميز بين الخلافة الحقيقية والخلافة العرفية ، ويرى أن الخلافة الحقيقية المقصودة من ذلك الإلغاء والتحبيذ هي الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم في تنفيذ ما أتى به من شرعة الإسلام، فالخلافة واستحقاق صاحب الحكم فيها بلقـب "**الخليفة**" على قدر اتباعه للإسلام .

٢ـ فند زعمه القائل بأنه لاضرر على الدين من فصله عن الدولة ، حيث أثبت أن هنـاك أضرارا بالغة من جراء ذلك الفصل ؛ أقلها وقوع الدين المفصول عـن الدولـة فـي موقف العاجز المهان ، ويتساءل الشيخ هل **علي عبد الرازق** لـم يفـهم إلـى الآن ماحدث بتركيا بعد إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الحكومة من ابتعاد المجتمـع عـن الإسلام تبعا لابتعاد الحكومة أو فهمه ولكنه تجاهله ، واستمر في اكبار محـدث هـذا الانقلاب في تلك البلاد ، وعده نهوضا حقيقيا لها وتمنى مثله لمصر ، ولو كان هـذا التمني مختفيا في قلبه لم يعلنه بعد ؟ (٢) .

ثانيا : في مجال التشريع :

مما لاشك فيه أن دخول القوانين الوضعية الغربية إلى البلاد الإسلامية من مقتضيـات فصل الدين عن الدولة وإقصائه عن شؤون السياسة والحكم والحياة في تلك البلاد .

ولكي نحيط بالموقف الذي اتخذه الشيخ من هذه المسألة التي نحن بصددها سوف نقسم الكلام فيه إلى قسمين :

أحدهمـا : في أدلة عدم جواز العمل بالقوانين الوضعية .

والآخر : في تفنيد الشبهات المثارة حول الشريعة الإسلامية وتطبيقها .

أ. أدلة إثبات عدم جواز العمل بالقوانين الوضعية :

بين **مصطفى صبري** أن تلك القوانين تشتمل على نقائص كثيرة توصم بها وتثبت عـدم صلاحيتها وكفايتها في مجال التشريع ، واستند في ذلك إلى بيان الفـرق بيـن أن يكـون

---

(١) راجع : الإسلام وأصول الحكم في الصفحات : ١٦ / ٣٨ ، ١٠٣.

(٢) راجع المرجع السابق : ج٤ ص ٣٦٢.

القانون موضوعاً من تلقاء البشر ، وبين أن يكون مأخوذاً من الوحي الإلهي ، حيث ذكر ثلاثة فروق مهمة في هذا الجانب ، هي ([1]):

الأول : أن كون القانون مستنداً إلى الوحي الإلهي يجعله محترماً مقدساً في نظر المكلفين بمراعاته والوقوف عند حدوده ، على العكس من ذلك لو كانت تلك القوانين من صنع إنسان ، حتى لو كانت عادلة سيكون ثقيلاً على النفوس العزيزة ، وحكم الإنسان على الإنسان نوع من الاسترقاق والاستعباد .

الثاني : لا كلام في احتياج كل مجتمع بشري يريد أن يعيش عيشة مدنية إلى حكومة وقوانين يطيعها الناس وتصونهم عن الفوضى وتوقف كل أحد عند حده ، والحاصل أن الإنسان إن كان في حاجة إلى القوانين فلماذا لايكون هناك قوانين يجب على واضعي القوانين أن يتبعها عند وضعها ؟ أليس واضعوا القوانين للناس من الناس ؟ وهل الإنسان يخضع للقانون أم القانون يخضع للإنسان ؟ إن الإجابة عن هذه التساؤلات تنبه على أن أفضل القوانين الأساسية ما لا يكون وضعه ولا تعديله في متناول أيدي البشر بأن يكون سماوياً .

الثالث : يعتمد على ثلاث مقدمات هي :

أ ــ لاشك أن أفضل الجنسيات ما كان سبباً لتأسيس الوجدان المشترك بين أفراد الجنس البشري ، إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيقي الذي هو الاتحاد الفكري . والحصول على توحيد القلوب بالقوانين الموضوعة غير مضمون كالحصول عليه من القوانين المأخوذة من الوحي الإلهي .

ب ــ ولاخلاف بين العقلاء في أن أفضل حكم في البلاد وأعدله ما يكون حاكمه القانون لا الفرد، كما في الحكومات المطلقة، ولاطائفة من الأفراد كما في الحكومات الدستورية ، فيظهر من هذا أن الحكم الجمهوري والديمقراطي الذي يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب لايكفل توحيد أكثر القلوب فضلاً عن جميعها ، ولايخلو من محاباة بعض وضرار بعض ([2]) .

جـ ــ وأخيراً لاشك في أن من الشروط الأساسية لسعادة الأمم بعد أن تكون قوانين حكومتها قوانين عادلة تراعي حقوق جميع الأفراد والطبقات أن تراعي العدالة في تطبيق

([1]) راجع في هذا كلا من : موقف العقل ج٤ في الصفحات ٣٢٥- ٣٣٥ ، والنكير على منكري النعمة : ص ١٣٧ - ١٤٢ .

([2]) ويرى مصطفى صبري أن سبب أخذ الغربيين لذلك النوع من الحكم هو عدم وجود القانون الألهي عندهم بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من الكتاب والسنة بل بسبب بعدهم عن الإسلام .

تلك القوانين مهما روعيت في وضعها ، لكن الحكومة العاملة بالقوانين الشـرعية الإلهيـة التي ترى نفسها تحت مراقبة وازع من مخالفة الله هي التي تراعي العدالـة فـي تطبيـق القوانين أيضاً لا الحكومة التي لاتؤمن بالله ولابقوانينه .

والجدير بالذكر أن هذه الفروق الثلاثة تمثل امتياز القانون الإلهي على القانون البشري، والوجه الثاني منها خاص بالقوانين الأساسية ، أما الوجه الأول والثالث فهما عامان لجميع القوانين، والمفهوم من هذا أن وجوب كون القانون مستنداً إلى الوحي الإلهي أشد وآكد فـي القوانين الأساسية .

٢ـ بين أن الحكومة المستندة إلى القوانين الوضعية ليست حكومة قانونية مدنية حتـى وإن ادعت لنفسها ذلك .

٣ـ بين كذلك أهم الموانع التي ينبغي أن تحول بين المسلمين وبين الأخـذ بـالقوانين الوضعية في البلاد الإسلامية ، فإضافة إلى ماسبق من وجود النقائص الكثيرة فـي تلـك القوانين ، فإن الإسلام كما يقول الشيخ ـ له تشريع مستقل مبني على نصـوص الكتـاب والسنة أو استنباط أئمة الفقه المجتهدين منها .

ب ـ تفنيد الشبهات المثارة حول الشريعة الإسلامية وتطبيقها :

أثار أعداء الإسلام والمستغربون في سبيل ترويج أفكارهم ونفث سمومهم شبهات كثيرة حول الشريعة الإسلامية وحول صلاحية تطبيقها في البلاد الإسلامية ، كان أهمها مايلي:

١ـ أن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني .

٢ـ أن هناك تحيزاً في تطبيق الشريعة الإسلامية لكونها توجد امتيازاً لرجال الدين .

٣ـ أن تطبيق الشريعة في البلاد الإسلامية يؤدي إلى الإجحاف بحقـوق الأقليـات غـير الإسلامية .

٤ـ أن الشريعة الإسلامية جامدة غير قابلة للتجديد والتطوير الذي يلائم حاجـات العصـر ومتطلبات مصلحة الأمة .

أما الشبهة الأولى :

فالشيخ يرى أن هذه الشبهة فرية باطلة وذلك لوجود مانع قطعي يمنع احتمالها ، وهو كون الفقه الإسلامي مستنداً إلى الكتاب والسنة وأنه ليس هناك أي حكم شـرعي إلا ولـه مأخذ من هذين الأصلين ، واستدل على ذلك بشهادة ثلاثة شهود أخصـائيين ، مسـيحيين ومسلم ، وهم جميعاً يؤكدون على بطلان تلك الشبهة، أحدهم **صاوا باشا** الرومـي مـن علماء الحقوق ومن رجال الدولة العثمانية، والثاني هو الدكتور **علي الزينى بك المصري** ،

وهو مختص بالدراسات القانونية ، وعمل مدرسا بالجامعة المصرية ، أما الثالث فهو الأستاذ صليب سامي باشا النصراني الذي نشر مقاله في جريدة (الأهرام) بعنوان "الشرعية الإسلامية والقانون الدولي الخاص" .

أما الشبهة الثانية :

فقد رد عليها بأنها دعوى باطلة وخاطئة، وأن منشأ الخطأ فيها هو قياس علماء الدين في الإسلام ــ من قبل الذين لم يعرفوا الإسلام ، ولم يدرسوه ــ على رجال الكنائس الذين كانوا يحكمون البلاد في الغرب ويضعون القوانين الدينية من عند أنفسهم .

ويرى الشيخ أن ذلك القياس قياس باطل ، لأن علماء الإسلام المجتهدين ــ فضلا عمن دونهم ــ لايرون لأنفسهم حق التشريع أبدا . وإنما التشريع في الإسلام لله تعالى ولرسوله بوحي منه سبحانه .

فالحاكم في الدولة الإسلامية هو القانون الإلهي بتمام معنى الكلمة ، والكل حتى السلطان أو الخليفة تحت حكمه وسلطته . إذن فليس هناك امتياز لعلماء الإسلام ، فإن كان هناك امتياز فهو امتياز العلم لا امتياز الحكم .

أما الشبهة الثالثة :

فقد رد عليها بقوله : إن توهم كون غير المسلمين المتوطنين في بلاد الإسلام لايأمنون جور القوانين الشرعية مردود بكون المسلمين الذين يمثلون الأكثرية في تلك البلاد يستطيعون التغلب على غيرهم في البرلمان في ظل القوانين الوضعية متى أرادوا ذلك ــ منصفين كانوا أو جائرين ــ ولايستطيعون الجور إذا عملوا في ظل القوانين الشرعية لكونها تمنعهم من التعدي على حقوق الآخرين حتى ولو كانوا غير مسلمين ([1]).

أما الشبهة الرابعة :

فقد رد عليها بأن قابلية القانون للتطوير والتغيير تؤدي حتما إلى التلاعب به ، ومن هنا كان القانون البشري قانونا غير حقيقي ، ذلك أنه إذا كان الإنسان هو واضع القوانين وكان حرا في إصدار وإنشاء قانون وإلغاء ما يشاء منه في اليوم التالي فإن تلك القوانين ــ التي يفترض فيها أن تضبط الحريات ــ لن تضبط حرية الواضعين . بل إن الإكثار من تطوير القوانين وتغييرها يجعل واضعيها من الحكومة والأمة كأنهم لا قانون بالنسبة إليهم ولاسيما إذا تخطوا في الوضع والتطوير حدود العقل والعدل، أما تعييب القوانين

([1]) انظر المرجع السابق : ج٤ / ص ٣٣٧ – ٣٣٨.

الشرعية بالجمود فقد رد عليه : بأن جمودها الأبي عن أن تتلاعب به الأهواء هو من أول فضائلها، وذلك أن الجمود من الأوصاف الأساسية اللازمة للقانون .

وفي نهاية المطاف يحذر الشيخ **مصطفى صبري** المسلمين جميعا من التـــهاون فـــي استبدال القانون الغربي الوضعي بالقانون الإسلامي الشرعي منبها على عظم خطر ذلـــك الاستبدال، فيقول بعد الحديث عن وقوع التشابه بين القانونين في بعض الجوانب : '' نحن نحذر من أن يجعل هذا التقارب بين الشريعة الإسلامية وبين قوانين أوروبا الحديثة مـــن الأسباب المخففة لجريمة استبدال القانون الأوروبي في بعض بلاد المســـلمين بالشـــريعة الإسلامية '' .

ثالثا : موقفه من الدعوة إلى تحرير المرأة وسفورها :

نتج عن تلقي الأفكار والمفاهيم الغربية الدخيلة آثار اجتماعية عديدة وخطـــيرة ،فقـــد تعالت الأصوات التي تنادي بتحرير المرأة وسفورها ومساواتها بالرجل ، وغزت الأمـــة الإسلامية كثير من العادات والتقاليد وأنماط السلوك الغربية .

ومما لاشك فيه أن المرأة المسلمة هي الركيزة الأولى في إعداد الأمة وتربية الأجيال وصنع الرجال وأنها الركن الأساسي أو حجر الزاوية في بناء الأسرة التي يتكـــون منـــها المجتمع الإسلامي ، ولقد أدرك أعداء الإسلام ذلك الأمر جيدا ، ولذلك عملوا على إفســـاد المرأة المسلمة، مما يترتب عليه فساد البيت المسلم، فوجـــهوا كـــل اهتمامـــهم ووجـــهوا مخططاتهم الماكرة ومؤامراتهم الخبيثة لإفسادها وإخراجها من بيتها ، ولقد كـــان أخطـــر هؤلاء المستغربين أدعياء التقدم وأنصار الاختلاط والسفور الأستاذ **قاســـم أميـــن** فتنـــة الأجيال وداعية السفور في عهد الاحتلال ، الذي تزعم حركة " **تحرير المرأة** " وألف فيها كتابين : أحدها سنة ١٣١٧هـــ ـــ ١٨٩٩م وهو المسمى " **تحرير المرأة** " والثـــاني ســـنة ١٣١٨هـــ ـــ ١٩٠٠م وهو المسمى " **المرأة الجديدة** " ، وأظهر في كتبه أن الحجاب عادة اجتماعية ، وأنه ليس في الشريعة الإسلامية مايوجب الحجاب ، واعتمـــد علـــى بعـــض المغالطات في سبيل إشاعة السفور، إلى غير ذلك من المغالطات ...

هذا وقد ناصر **قاسم** وأيده بعض العلماء والزعماء والأدباء وأشهرهم الشيخ **محمـــد عبده ومعروف الرصافي** . وتبعهم كتاب ومؤلفون منهم على سبيل المثال لاالحصر: **أحمد الصاوي** الذي نشر في جريدة الأهرام سلسلة مقالات تحت عنوان **(ماقل ودل)** شن فيـــها حربا شعواء على الحجاب ، وأثار حوله بعض الشبه .

وقدمت الصحافة في أكثر البلاد الإسلامية لحركة تحرير المرأة خدمات جليلة ، فقد أسهمت الصحف والمجلات النسائية وغير النسائية بنصيبها في تلك الحركة ، كما كانت تعمل على تزيين الفواحش والموبقات باسم الحب والفن ، وذلك بنشر القصص والحكايات الغرامية ، وأعدت للمرأة كافة وسائل الزينة والفتنة والإغراء ، وافتتحت دور الأزياء التي تعرض فيها الأزياء العارية المستوردة من بيوت الأزياء اليهودية في الغرب . وقد أخذت هذه الدعوات والصيحات والهتافات تتقاذف العالم الإسلامي من كل جانب حتى آل به الأمر إلى الواقع المؤلم الذي هو عليه الآن .

لم يقتصر اهتمام الشيخ على آثار الفكر الوافد السياسية فقط ، بل اهتم أيضا بآثار ذلك الفكر الاجتماعية ، فقد كانت مسالة المرأة وحجابها من جملة القضايا التي استأثرت بمتابعته واهتمامه ، ولذلك ألف فيها كتابا مستقلا هو كتاب " **قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب** " كما خصص لها مواضع متعدد ومتفرقة من كتابه **الكبير** " **موقف العقل** " وقد عمل في كتاباته هذه ــ عموما ــ على معالجة تلك القضية وتحليل أبعادها ، وركز على إظهار وجه الحق فيها وبيان موقف الإسلام منها ،وكذلك دور المرأة المسلمة إلى الحرية الحقيقية المتمثلة في العبودية الكاملة لله رب العالمين، كما ركز على فضح خطط المتآمرين على المرأة المسلمة والكشف عن أهدافهم وتحطيم المكامن التي يستترون خلفها .

ولكي نحيط بالموقف الذي اتخذه الشيخ في تلك القضية سوف نقسم الكلام فيه إلى قسمين :

أحدهما : في إثبات فساد حركة تحرير المرأة وبطلانها .

والآخر: في الرد على دعاة التحرر والسفور ونقض دعاويهم وشبهاتهم .

مما قال في **إثبات فساد حركة تحرير المرأة وبطلانها :**

لقد عارض **مصطفى صبري** حركة تحرير المرأة ورفض ــ بشكل قاطع ــ أفكارها التي تقوم عليها وهي التجرد من الحجاب والدعوة إلى الاختلاط ومساواة النساء بالرجال، وأكد مرارا على ما فيها من خروج على نصوص الكتاب والسنة ، وعلى ماتتضمنه من ضرر وخطر على مصلحة الفرد والأمة وقد اتبع في سبيل إثبات ذلك مايلي :

١ــ أكد في البداية على أن مسألة المرأة من المسائل الظاهرة الجلية التي لايلتبس فيها الحق بالباطل إلا على المنساقين خلف شهواتهم ونزواتهم، فالغربيون لاغيرة عندهم

وكذلك من يتبعهم فهو يستفيد من الاختلاط مقابل التنازل عن غيرته علـــى زوجتـه وأخته وبنته فيخالطهن غيره ويجالسهن .

٢ــ أنكر على دعاة الاختلاط والسفور تسمية حركتهم بـــ " **تحرير المرأة** " منبها علـــى مافي هذه التسمية من خطأ لغوي وتلبيس على الأذهان ، حيث قال : أنصار الســـفور الضالون يطلقون على حركتهم اسم " **تحرير المرأة** " مع أن الأمر بالعكس ، أعني إذا أسفرت المرأة تأمت (١)، وبذلك تتضاعف غفلة **قاسم أمين** وجهالته فـــي إدعــاء أن احتجاب المرأة دخيل على الإسلام من مخالطة بعض الأمم (٢) .

٣ــ حدد المعنى المقصود من السفور الذي جند أنصاره كل قواهـــم وجـــهودهم لنشــره وتعميمه بين النساء المسلمات ، فبين أنه ليس المراد به السفور المعروف الذي معنــاه في اللغة كشف الوجه، بل المراد به تقليد المرأة الغربية في لباسها الذي يجعلها أكـــثر من نصف عارية وكذلك تقليدها في فسقها وفجورها . وبعد أن حدد الشـــيخ المعنـــى المقصود من السفور الذي يدعو إليه أولئك المستغربون والـــذي أطلـــق عليـــه اســـم **(السفور العصري)** ، فصل القول في بيان حكمه الشرعي فذكر أن هناك فرقـــا بيـــن ارتكاب الفعل المحرم وبين استحلاله والدعوة إليه ، فصاحب الفعل الأول يعتبر فاسـقا عاصيا لله ورسوله ، ولكنه لايكفر لأن مذهب أهل السنة والجماعة يحكم بأن ارتكــاب الكبائر لايخرج المسلم عن دينه ، أما صاحب الفعل الثاني فهو كافر بالإجمــاع لأنـــه استحل ماحرم الله .

أما دعاة الاختلاط والسفور فهم ــ في نظره ــ مارقون من الدين لأنهم اســـتحلوا الحرام القطعي الذي هو رفع الحجاب عن النساء وجعلهن كاسيات عاريات كالغربيات مع أن كتاب الله يحرم عليهن إبداء زينتهن﴿ **إلالبعولتهن أوآبائهن أوآباء بعولتـــهن أوأبنائهن أوأبناء بعولتهن أوإخوانـــهن أوبنـــي إخوانـــهن أو بنـــي أخواتـــهن أو نسائهن....** ﴾ (٣) إلى آخر الآية الواردة في سورة النور بكل صراحة وتفصيل .

٤ــ بين بطلان مسعى دعاة الاختلاط والسفور في جعل المرأة المسلمة تعيش حياة فاســقة مستهترة كحياة المرأة الغربية ، ثم إضفاء الصفة الشرعية الإسلامية على تلك الحياة ، ويعتبر الشيخ أن مسألة النساء أعظم حاجز بين الإسلام والمدنية الغربيـــة ، فالمســلم

---

(١) أي أصبحت أمة .

(٢) انظر موقف العقل : ج١ / هامش ص : ٢٨٩.

(٣) سورة النور : آية ٣١ .

لايقبل الحياة العارية المختلطة بنساء المسلمين مادام يصح له إسلامه، والغربي لايرى حجاب النساء أكبر مانع في اختيار الإسلام ديناً له ، وربما لايشك في كونه أحق الأديان بالقبول ، لأنه يصعب عليه فراق ماتعوده من الحياة المختلطة بالنساء ، وفيها حظ عظيم للنفس الأمارة بالسوء (١).

٥ـ نبه على أن الاختلاط والسفور الذي يدعو إليه أولئك المستغربون إضافة إلى مافيه من مخالفة صريحة لنصوص الكتاب والسنة الآمرة بالحجاب والبعد عن الاختلاط ، ينطوي على مفاسد ومحاذير اجتماعية كثيرة ، فمنها أنه يؤدي إلى انهيار صرح العفة والنزاهة وإلى هدم سياج الخلق والفضيلة . وكذلك السفور وإبداء الزينة المحرم جعل الأندية والمحافل والشوارع معارض وأسواقا للنساء ، هذا بالإضافة إلى ذهاب قيمة المرأة وروعة جمالها بذهاب الحجاب وقيام الأصباغ والمعاجين الملونة الساترة لما تحتها من الحقيقة مقامة .

٦ـ حذر من الاغترار بكتابات دعاة الاختلاط والسفور الخلابة وكلماتهم المموهة والقيود الاحترازية التي ذكروها لتبرير دعوتهم إلى تحرير المرأة ، كما نبه على خبث نواياهم وإلى عدم صحة مازعموه من أن مقصدهم من الدعوة إلى تحريرها هو نصرتها وإكرامها وإنصافها بمساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات .

٧ـ نبه أنه لاصحة مطلقا لما أشاعه أنصار السفور من أن الانحطاط والجهل والتخلف من لوازم التمسك بالحجاب (٢) ، وأكد على أن الحجاب لاينافي النهوض ولايعيق تعليم المرأة، وكما أن الإسلام لايمانع تعليمها .

ثم أجمل الشيخ موقفه من تعليم المرأة مبينا التعليم الذي يحتاج إليه بنات المسلمين ، فهو يؤيد تعليمها وحريتها في التبحر في العلوم ولكن بشرط أن يكون التعليم في مدارس خاصة بالنساء لايخالطهن الطلاب الذكور وأن تكون مدرساتهن منهن والخلاصة إعدادهن لأن يكن خير أمهات وخير زوجات لا ليكن عدلا للرجال في جميع الأعمال لأن ذلك لايمكن ولا ينفع (٣).

---

(١) قولي في المرأة : ص ٥٥

(٢) ومن القائلين ذلك : محمد رجب البيومي الذي كتب مقالا طويلا بعنوان : المرأة في شعر الرصافي .

(٣) قولي في المرأة : ص ٧٥ - ٧٦ ، ٨١ .

مكانة الشيخ وآراؤه في مواجهة الفكر الوافد :

الشيخ مصطفى صبري يمثل مدرسة فكرية قائمة بذاتها متميزة بنظرتها لقضايا الإسلام المعاصرة وبمواقفها الفكرية والعقائدية القوية من الحضارة الغربية ، ويتميز من ناحية أخرى بتشخيصه الدقيق للأدوار التي يعاني منها العالم عامة والإسلامي بوجه خاص .

أما آراؤه في مواجهة الفكر الوافد فلا شك أن لها قيمتها الفكرية وأهميتها وجدواها الثقافية ، ويتضح ذلك من خلال الإطلاع على سماتها التي يمكن إجمال أبرزها في النقاط التالية :

١ــ **الشمول في النظرة :** فالشيخ عند معالجته للقضايا والمشكلات التي أثيرت في العالم الإسلامي نتيجة للغزو الفكري ينظر إليها نظرة شمولية ويدرسها من جميع جوانبها ويمحصها أو يقلبها على جميع وجوهها وملابساتها ، ثم يجيب إجابات تفصيلية .

٢ــ **التحليل المنطقي :** فهو دائماً ما يلزم نفسه بتحليل الأقوال والأفكار التي يدرسها ، وذلك بإرجاعها إلى أصولها التي نشأت عنها وبيان تطوراتها ومايمكن أن تنتهي إليه أو تسفر عنه، وكذلك تحليل عقليات أصحابها تحليلاً دقيقاً .

٣ــ **الواقعية :** فهو إنما يعالج القضايا والمشكلات كما هي في أرض الحقيقة والواقع ، ويدرسها كما هي واقعة فعلاً لا كما ينبغي أن تكون أو يمكن أن تكون . ولم تكن حلوله خيالية ، بل كانت معقولة ممكنة التطبيق وسهلة التنفيذ .

٤ــ **الأمانة والموضوعية :** فهو قد التزم في مواجهته للفكر الوافد بالأمانة العلمية والدقة في نقل أقوال من تصدى لمناقشتهم والرد عليهم ، كما أنه يعزو الحق لأصحابه ، ويذكر الحقائق والوقائع كما هي ولايغفلها أثناء تقريره للمسائل حتى وإن كانت في صالح مناظريه وخصومه.

٥ــ **الجرأة في إصدار الأحكام :** سواء فيما يتعلق بالقضايا أو فيما يتعلق بأشخاص مثيريها.

٦ــ **الالتزام بالمبادئ الإسلامية :** والتمسك بالقيم الخلقية والتشبث بأهداب الدين الإسلامي الحنيف في مواجهة الفكر الدخيل وعدم التزحزح عنها قيد شعرة .

٧ــ **التعمق في معالجة قضايا الفكر الوافد :** وآثاره على العالم الإسلامي ، مع الحرص على إبراز محاسن الدين الإسلامي وغاياته النبيلة وأهدافه السامية في عقائده ونظمه وشرائعه.

٨ ــ **التدرج في النقد** : فهو عندما يقوم بنقد أقوال أحد خصومه يبدأ أولا بنقل نصـــوص أقواله التي يرى فيها أخطاء ومخالفات يسيرة للإسلام ثم يرد عليها ، ثم ينقل أقـــوالا أخرى للشخص نفسه أشد مخالفة من التي قبلها ثم يرد عليها ، ثم ينقل أقوالا ثالثة أشد مخالفة من التي قبلها ويرد عليها .. وهكذا دواليك .

٩ــ **الاستشهاد بأقوال الفلاسفة الغربيين** : وخاصة في المباحث والمطـــالب الفلســفية ، وذلك انطلاقا من المبدأ القائل : (الفضل ماشهدت به الأعداء) . مع ملاحظـــة أنـــه يستشهد بموضع الشاهد منها فقط ولايلتزم بتلك الأقوال بتماميا ، كمـــا أنـــه يزنـــها بميزانين من دينه وعقله فما وافق منهما أخذ ، وماخالف منها رد ورفض .

١٠ــ **نقل نصوص المخالفين كاملة** : حتى وإن طالت قبل الرد عليها ، وذلك مـــن أجـــل عرض المسألة المختلف فيها أمام الأنظار بكل أمانة ووضوح ، ولكي يطلع القـــارئ على أقوال كلا الطرفين ويلم بأطراف تلك المسألة من جميع جوانبها ، ولكي يقضـــي القارئ حاجته الذهنية ويشبع نهمه وصولاً إلى الحقيقة ([1]).

([1])أنظر تفصيلا: مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد مرجع سابق ص ٥٠١-٥١٦ .

رابعا:- محمد رشيد رضا:

من النماذج الدعوية والقدوات البارزة في تاريخنا المعاصر المجدد الشيخ رشيد رضا - حيث ضرب أروع الأمثلة في دعوته وجهاده - وبذله - وتعدد ميادين نشاطاته وعلاقاته - وسعة الأفق عنده وما يسمى بالانفتاح ولكن بضوابطه الشرعية - حسب اجتهاده فتجد لـــه جهودا علمية وفكرية واجتماعية وسياسية ومشاركات فى شتى الميادين والآن نسلط الضـوء من سيرته على مايخص بحثنا فقط قدر الامكان -

ترجمة رشيد رضا:

اسمه: هو محمد رشيد بن السيد علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بـــن منلا علي خليفة البغدادي.

ولد في ٢٧ جمادى الأولى سنة١٢٨٢هـــ من الهجرة في قرية القلمون ونشأ فيها وهي تبعد عن طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال.

التحق رشيد رضا منذ الصغر بكتاب قريته، ودرس فيها العلوم الأولية المعتادة، كمـــا قـــرأ القرآن وتعلم الخط وقواعد الحساب ، ثم دخل المدرسة الرشيدية بطرابلس الشام. درس فيها علوم اللغة العربية من نحو وصرف. ودرس الحساب ومبادئ الجغرافيا وعلوم الدين عقائده وعباداته. ثم تحول إلى المدرسة الوطنية الإسلامية عام ١٣٠٠هـــ، وهي أعلى مستوى من المدرسة الرشيدية والتعليم بها باللغة العربية إلى جانب اللغة التركية والفرنسية.

لقد اكتسب رشيد رضا كثيرا من العلوم والمعارف بقراءته الشخصية وجـــهوده الذاتيـــة ، ودرس على شيخه "محمود نشابة"، وهو عالم سوري أزهري ،والشيخ حسين الجسر وهـــذا الأخير كان يجمع بين علوم الأزهر والعلوم العصرية. وكان لهذه الازدواجية أثر كبير فـــي تكوين رشيد العلمي و إصلاحه العملي وقد أخذ عن علماء مصر بعـــد هجرتـــه.وأبرزهـــم أستاذه محمد عبده والذي تأثر به في الأمور العقلية. بعد أن كان برز في علم الحديث رواية ودراية وجرحا وتعديلاً على يد الشيخ محمد القاوقجي، فأصبح الشيخ رشيد من أوائل مـــن اهتم اهتماما خاصا بالوقوف على صحيح الحديث من ضعيفه.(١)[1]

[1] (١)انظر أحمد فهد الشوابكة : رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسياسية ص ٥-٩ ،وانظر الأعلام للزركلي .

أولا : دعوته علماء الأزهر للقيام بدورهم القيادي في توجيه الأمة :

اصطبغ العصر الحديث بصفتين واضحتين أولهما : جمود معظم علماء الأزهـر وتخاذلـهم عن القيام بدورهم وقصرهم لحلقات دروسهم على المسجد الأزهر وحلقـات العلـم فقـط ، وطغيان الحضارة الغربية وافتتان عدد كبير من مختلف طبقات الأمة بتلك الحضارة وهـذا ثانيهما .

وقد قام رشيد رضا بدوره فى الناحيتين ، الأولى : لايكاد يخلو مجلد من مجلدات المنار دون الدعوة الحارة للعلماء الى القيام بدورهم فى مواجهة تلك القيادات التى وصفها أنها متحـورة، والثانية : من ناحية دعوة علماء الأزهر الى الخروج من دائرة التقليد والعمل على ترسـيخ مبدأ الاجتهاد فى أمور الدين .

فمن ناحية دوره تجاه الأزهر وعلمائه ، تذكر انه انتقد برامج التعليم الازهرية سـواء بالنسبة لمواد التدريس أو أساليب تحصيلها ، فالعلوم الشرعية يعتمد فى تدريسها على حفـظ المتون وماعليها من حواشي وتعليقات وهى الكتب التى توصف بأنها " مخدومـة" وعلـوم الحديث عندهم غير رائجة (١) ، وقد قل اهتمامهم بها ، وضعف مستوى اللغة العربية عنـد متخرجى الأزهر وضعفت تبعا لذلك ملكة التعبير السليم والإنشاء الصحيح ، وبذلك انتشـر اللحن وتفشت العامية حتى فى حلقات الدروس ، وكان جزاء ذلك أن قل ظهور أسماء بـارزة فى ميدان العلم والتصنيف من الأزهريين وبدأت تظهر فى أماكن أخرى غير الأزهر (٢).

وكما كانت دعوته تنصب على الاعتناء بعلوم القرآن والحديث والفقه وتحفيز العلماء لذلـك، لم تغفل محاولة اقناع هؤلاء العلماء بجدوى العلوم العصرية التى لاتناقض الدين . وقد واجه رشيد رضا صعوبة بالغة فى محاولة اقناع علماء الازهر بأهمية العلـوم العصريـة بكافـة أنواعها، وأنها تعد الى جانب العلوم الشرعية ركيزة بناء المجتمع الحديث وأسـاس تقدمـه العلمى والحضاري.(٣)

وكذلك أنكر رشيد رضا على العلماء موقفهم السلبى مما نشأ بين العامة والخاصة مـن البدع والمنكرات فىالعقائد والعبادات وشئون الحياة العامة ، مؤكدا أنه رغم كـون العلمـاء لايعتقدون مشروعيتها وينفون صلتها بالدين فى كتبهم ودروسهم الرسمية إلا أنهم فى واقـع الحياة يسكتون عنها ولايعمدون إلى تنبيه العامة إلى تعارضها مع العقيدة والدين ، كما أنـهم

---

(١) اهتم رشيد رضا بعلوم الحديث اهتماما واضحا بالحديث أكثر من استاذه عبده ، حتى انه أطلق عليه " فولتير المسلمين" انظر رشيد رضا الامام المجاهد " د. ابراهيم العدوى ص٢.

(٢) د. أحمد فهد بركات الشوابكة : محمد رشيد رضا ودوه فى الحياة الفكرية والسياسية ، دار عمان الطبعة الأولى عمان الأردن ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق ص ٧٣

يسكتون عن ممارسات اجتماعية مخالفة للدين وتمارس تحت سمع السلطة الرسمية وبتراخيص منها ويقول عن موقف العلماء من الموالد – على سبيل المثال " ومع هذا كله ترى ساداتنا وكبراءنا من العلماء الأعلام يغدون ويروحون هناك ، يهنيء بعضهم بعضا بهذا المولد والموسم العظيم ، كما تهنئهم الجرائد بذلك ، إسلامية ومسيحية ، أليس الأجنبي معذورا إذا اعتقد أن هذه الموالد من لباب دين الاسلام! " (١) .

ومن المآخذ التى أخذها كذلك على علماء الأزهر وعلى الازهر نفسه هى تقصيره فى تخريج قضاه للشرع يصلحون أمر المحاكم الشرعية وينظمونها ، وتقصير العلماء فى اعداد تقنين لقواعد الشريعة الاسلامية مشتمل على كافة المذاهب الفقهية وموافق لحال العصر، على نحو ماتم فى مجلة الاحكام العثمانية العدلية ، وقد كان من جراء رفض علماء الأزهر لهذا المشروع بحجة أنه مخالف للمألوف والمعهود فى كتب الفقه المعهودة لديهم ، ان فتح الباب أمام القوانين الأوربية لتأخذ طريقها الى المحاكم الأهلية فى مصر وغيرها .

وقد ذكر رشيد رضا من نصيحة ذلك انشاء المحاكم الاهلية التى تولى القضاء فيها قضاه غير شرعيين ويحكمون بقوانين غير اسلامية ، وقد بدت هذه المحاكم أحسن نظاما وأسهل تعديلا وأقل تعقيدا من مثيلاتها من المحاكم الشرعية ، مما أدى الى اقبال الناس عليها وايثارها على غيرها، بل عرف العلماء انفسهم من اثر الاحتكام اليها على المحاكم الشرعية(٢)

أما عن دور رشيد رضا فى نقده للسلطة الفعلية لمشيخة الأزهر فيذكر أن الأزهر كان قبل عهد الخديوى اسماعيل مؤسسة علمية دينية مستقله ، فينتخب شيوخه بموجب نظام خاص يضعه العلماء دون أي تدخل من جهة أخرى ، فكان يتمتع بالاستقلال التام الذى يعطى له حصانة أدبية ومادية تؤهل علمائه للاسهام فى كل مايتعلق بالصالح العام ومصلحة المسلمين ، ثم أخذ الأمر شكلا مغايرا فى بداية حكم الخديوى إسماعيل ، وعلى سبيل المثال ، فقد كانت المؤتمرات الاسلامية التى عقدت فى أعقاب إلغاء الخلافة العثمانية فى تركيا ١٩٢٤ ، والمواقف التى اتخذتها مشيخة الأزهر دليلا على ان الحركة الذاتية للمشيخة لم تكن قائمة وأنها لاتتحرك إلا فى فلك السلطة العثمانية . سواء كانت فى الاتجاه السليم أوغيره .(٣)

وكان رشيد رضا من الرافضين لهذا المشرب فقال أنه يكبر على هذه المجلة – ويقصد أن تجعل الحرمان من الشئون السياسية خطة مرسومة لها لاتتعداها فتجارى ماكاد يكون

(١) المرجع السابق ص ٧٣ نقلا عن المنار والازهر لرشيد رضا .

(٢) المرجع السابق ص ٧٤.

(٣) المرجع السابق ص ٧٤-٧٥-٧٦.

عزما عاما لدى الحكام من تحريم الاشتغال بالسياسة على علماء الدين وابعادهم عـــن أهـــم شئون المسلمين ([١])

ويعد هذا النقد موجهاً إلى رؤساء تحرير المجلة ومشيخة الأزهر الذين كان لـــهم معـــه مساجلات ومعارك فكرية كثيرة ، أمثال فريد وجدى ، محمد الخضر حسين اللـــذان رأســـا تحرير المجلة . وقد ألف العلماء هذا الجو الذي أبعدهم عن السياسة ومتاعبها وأثروا السلامة والانقطاع للعلوم ومدارستها ، حتى جعلوا البند الرئيسي للمجلة التي كان يصدرها الأزهـــر لاشأن للمجلة بالشئون السياسية . وقد انتقدهم في هذا المذهب ([٢])

ثانيا : موقفه من دعاة التحديث على أسس غربية :

بادئ ذي بدء أنقسم تلامذة الأفغانى وعبده إلى تيـــارين أساســـيين نـــادى الأول منـــهما بالعلمانية الشاملة ، التي تستبعد الدين عن محيط حياة الأفـــراد وكافـــة مؤسســـات الدولـــة والمجتمع ، وتبنى بعضهم الدعوة إلي الإلحاد ، كما نادى آخرون بأفكار اشتراكية وشيوعية، وقد شكل نصارى الشوام نسبة عالية من هذا التيار إلى جانب من سايرهم مـــن المصريـــين (شبلي شميل – جورجى زيدان– فرج انطون – نقولا حداد – يعقوب صروف من الشوام)

أما التيار الآخر فقد تبنى توفيقية غير متوازنه أي (تلفيقية)، انقسم اتباعها إلى فريقيـــن : الأول كانت مهمته الجمع بين التراث الإسلامي والثقافة الغربية ولكن على طريقتـــه وهـــى أساسها العلماني المحض أمثال قاسم أمين ،(١٨٦٣–١٩٠٨) وأحمد فتحي زغلول (١٨٦٣–١٩١٤) ، أحمد لطفى السيد (١٨٧٢–١٩٦٣) ، علـــى عبـــد الـــرازق (١٨٨٨–١٩٦٦) وغيرهم كثيرين ([٣])

الفريق الثاني : نادى بالجمع بين الإسلام ومنجزات الحضارة الغربية ، فقد قدر أصحاب هذا الاتجاه مافى هذه الحضارة من جوانب علمية وعملية لاغنى عنها لأي مجتمـــع حديـــث حتى يقيم حضارته الحديثة على أساسها ، إلا أنه يجعل للمفاهيم الدينية السلفية الأولوية فـــي تشكيل مؤسسات المجتمع، وكان على رأس هذا التيار الشيخ رشيد رضا ، الذي نســـتطيع أن نصفه أنه إصلاحي ديني ، يجعل أساس الإصلاح الديني هو الأساس والمبدأ وهو في ذلـــك يتفق مع محمد إقبال في تلك النزعة ([٤]) .

([١]) المرجع السابق ٧٦–٧٧.

([٢]) المرجع السابق ٧٦ .

([٣]) المرجع السابق ٨١–٨٢

([٤]) انظر محمد اقبال: تجديد الفكر الدينى فى الاسلام . ترجمة عباس محمود ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر.

وقد دارت مساجلات عديدة بين رشيد رضا وبين أنصار التيار السابق الذكر وقد أنكر عليهم رشيد رضا أشياء كثيرة وأنكروا عليه كذلك أشياء ، وذلك على الرغم من اعتراف كلا الطرفين بما للآخر من فضل .

لايتفق رشيد رضا مع أنصار هذا التيار في اقتباس هذه النظم كماهى لاستعمالها في الشرق، وذلك لما بين الطرفين من فوارق واختلاف، تجعل مايصلح شأن طرف لايصلح في إصلاح شأن الآخر، بل يرى أن الإسلام قد اشتمل على نظام شامل للحياة بكافة جوانبها ، ولما كان الجانب السياسي يحتل مكانه بارزة في هذا النظام ، فقد أولاه مكانة بارزة في هذا النظام ، فأقيمت له القواعد العامة وتركت التفاصيل تناسب تغيير الزمان والمكان ، وهو يرى أن تلك النظم الديمقراطية في الغرب قد استبدلت باستبدادية الفرد استبدادية جديدة تقدم بها الأحزاب أو الشعوب ، عندما جعلت سلطة هذه الشعوب مطلقة لاحدود لها أو تعتمد على أنظمة وقوانين من وضعها لاتسلم في محاباة جماعة ضد أخرى . وهذا يعتبر أن نظام الخلافة الإسلامي هو الشكل الأمثل للنظام السياسي ، باعتباره النظام الأوسط بين استبدادية الأفراد واستبدادية الأحزاب أو الجماعات (١) .

ويرى رشيد رضا أيضا أن مفهوم الخلافة لايتفق وازدواجية السلطة ، فليس هناك سلطة دينية وأخرى زمنية ، بل هناك سلطة واحدة يمارسها الحاكم في مختلف المسائل في ضوء أحكام الشريعة ، أما مفهوم الازدواجية ، فهو مفهوم كنسى ظهر في الغرب استجابة لظروف دينية وسياسية ، فالديانة النصرانية تخلو من تشريع كامل ينظم جوانب الحياة العامة ، وتقتصر على أمور تعبدية وأخلاقية فردية ، يشرف رجال الدين على تنظيمها ومراقبتها ، وترك الحكام السياسيين وضع القوانين والتشريعات التي تنظم أمور الدولة وجوانب المجتمع، فاقتضى ذلك وجود سلطتين منفصلتين أولها دينية ويتولاها البابوات ودنيوية ويتولاها الحكام السياسيون (٢) .

---

(١) محمد رشيد رضا ، الخلافة أو الإمامة العظمى ، ص١٠ مطبعة المنار القاهرة ١٣٤١هـ

(٢) محمد رشيد رضا (شبهات النصارى وحجج الإسلام)ص ١٢٢ ط١٣ النهضة مصر ١٩٥٦ (الخلافة البابوية والسلطة الروحية)

ثالثاً : موقفه من علي عبد الرازق وكتابه :

وجد دعاة مدنية القوانين في صدور كتاب الشيخ على عبد الرازق الإسلام أصول الحكم عام ١٩٢٤ فرحتهم لتأصيل مايدعون إليه من أفكار علمانية ، فموضوعه الرئيسي يدور حول عدم مشروعية نظام الخلافة الإسلامي ، وان الإسلام لم يحدد نظاما سياسيا بعينه أما الدين فهو علاقة بين الفرد وربه وأنه لاشأن له وشئون الحياة العامة ، أما تنظيم أمور الحيلة العامة فهو متروك لاجتهاد المستشرقين القانونيين الذين يقتبسون ما شاءوا من أنظمة الدول أو ما يتوصلون إليه عن طريق اجتهاداتهم الخاصة [١].

وقد استغل دعاة التجديد أن صاحب الكتاب لم يكن من بين دعاة العلمانية إنما كان من زمرة العلماء ، فوجدوا فيه مستندا شرعيا يدللون به على شرعية أفكارهم ويقنعون العامة أن مايطلبون به غير متعارض مع الدين ، كما أنهم ليسوا دعاة لادينية وأن المسألة بينهم وبين العلماء تعدو مجرد اختلاف في وجهات النظر [٢]

وكان الشيخ رشيد رضا ممن تولوا الرد على ماورد في كتابه ومناقشة ادعاءاته ، كما نبه مشيخة الأزهر الشريف إلى ضرورة المسارعة في اتخاذ موقف حازم من ذلك الكاتب حتى لايفسر الناس سكوتهم أنهم راضون عن الكتاب أو عجزهم عن الرد عليه ، ولاسيما وأن المؤلف واحد من هيئتهم ، فأصدرت هيئة العلماء قرارا يدين الكتاب وصاحبه ، ويليه فصله عن سلك العلماء والقضاء الشرعي [٣] وقد قابل كتاب جريدة السياسة وخاصة محمد حسين هيكل نقد رشيد رضا بالهجوم عليه هجوما ضاريا حتى أن محمد حسين هيكل قال انه لابد من قتل صاحب المنار وقال إننا قتلناه في مؤتمر الخلافة ولابد أن نجهز عليه مرة أخرى [٤].

ودخلت اللغة العربية في مجال الجدل والخلاف بين دعاة الفكرة الإسلامية ودعاة التجديد على أسس غربية ، أما رشيد فقد عد اللغة العربية ركنا من أركان الدين وهما معا من أسس الاصطلاح الذي يعمل له ويسعى إليه ، فمعرفة الدين الإسلامي بمختلف فروعه وعلومه لابد لها من معرفة جيدة باللغة العربية ، كما أن الاجتهاد لمعرفة الأحكام الشرعية يعتمد على أكتاف اللغة العربية وفهم أساليبها وهدف تراكيبها ، وفى رأيه ان دعاة الاصلاح الديني لابد لهم من معرفة جيدة بأكبر قدر ممكن من مفردات اللغة وعلومها وأساليبها ، وقد وصف الشيخ رشيد اللغة العربية أنها اللغة الراقية العالية التي تحقق رابطة الإخاء والمودة وأن

---

(١) انظر على عبد الرازق ، الاسلام وأصول الحكم ، ص ٥ ، ص١٦ ط بيروت ١٩٧٢ المؤسسة العربية للدراسات .

(٢) المنار ، م ٢٦ ج٣ ص ٢٢١ (إنكار علماء الأزهر على كتاب أصول الحكم)

(٣) المنار ، ج٢٨ ، ج٣ ص ٢٤٠.

(٤) محمد رشيد رضا ، يسر الإسلام أصول التشريع الاسلامى ص هـ من المقدمة .

الإسلام لاحياة له إلا بحياة اللغة العربية وحياة اللغة العربية تكمن في العلم والتخاطب عند أهلها وقد توصل الشيخ إلى حكم شرعي من خلال استقرائه لنصوص الفقهاء ، بأن تعلم اللغة العربية واجب شرعا على كل مسلم ، فهي وان كانت اللغة العربية القومية والدينية ، فهي لغة المسلمين الدينية أيضا .

وقد ظهرت بوادر الدعوة إلى العامية بديلا عن الفصحى من أواخر القرن التاسع عشر عندما بدأت بعض الجامعات تستعين باللهجة العربية المحلية وتستعين على ذلك بالشرقيين الذين كانوا يعملون في الغرب ، والمستشرقين الذين كانت لهم معرفة بهذه اللهجات وظهرت في هذا المجال عدة دراسات حول هذه اللهجات وقد عرض رشيد رضا لنماذج من بعض هذه المحاولات التي قام بها بعض الأوربيين الذين أتاحت لهم فرصة العمل والإقامة في القاهرة وكانت أول الدراسات للألماني وليهم سبتا **Wilhelm spitla** الذى كان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية ووضع كتابا اسماه (قواعد اللغة العامية في مصر) وذلك بحجة صعوبة استعمال العربية الفصحى؛ وقد اقترح كتابتها بحروف لاتينية . وكذلك بذل المهندس وليم ولكوكس **William willcoks** جهودا متواصلة في الدعوة إلى إقصاء الفصحى من ميدان الكتابة والأدب وإحلال العامية محلها .

وفى مرحلة تالية أخذت بعض الصحف المصرية والتي يملكها أهل الذمة تردد هذه الدعوى وتعارضها إما دون تعليق أو بتعليق يومي باستحسان تلك الدعوى فكانت مجلة المقتطف أسبق الصحف إلى هذا الموقف ومجلة الأزهر كذلك حيث اشرف عليها الإنجليزي اكبر دعاة العامية د. ويلوكس والاستاذ أحمد الأزهري عام ١٨٩٣ ، وكانت الدعوة تكمن في أن اللغة العامية أكثر تأدية للأغراض العملية والأدبية من الفصحى ولاسيما لغير المثقفين ثقافة عالية (١) .

وقد أشار رشيد رضا إلى أخطر مراحل هذه الدعوة عندما تسربت إلى مجمع اللغة العربية وكتب عضو المجمع عيسى اسكندر معلوف مقالات عن " اللهجة العربية العامية " وقال رضا : إن هذا المجمع قد أنشئ للحفاظ على العربية وأصالتها ، فظهر من بين أعضائه من استحسن العامية أو إيجاد مشروع لغوي وسط بينها وبين الفصحى .

يجب أن يكون الأدب كفاحا تحارب به رواسب القرون المظلمة ، وتدعو فيه إلى الحضارة العصرية ، أي حضارة أوربا ، إذ نحن على يقين بأنه إذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإن النور يأتى إلينا من الغرب " (٢).

---

(١) المقتطف ، ٦ نوفمير ١٨٨١ ، ص ٣٢٥ ٣٥٤ (اللغة العربية والنجاح)

(٢) انظر انور الجندى ، المعارك الأدبية ص ٦٤٨ – ٦٥٥ انيس سلامة وموسى وخصومه .

* من جهود رشيد رضا الإصلاحية اقتحام شتى الأوضاع والأوساط الاجتماعية من السياسة حتى العلمانية منها بغية التعرف على طبيعة أي تنظيم أو جمعية محاولة التقليل من خطورته .

فقد تقدم معنا في الحديث عن الجمعيات الأدبية والاجتماعية والسياسية ومالها من دور في الدولة انتساب رشيد رضا وعضويته في كثير من الجمعيات حتى غير الإسلامية فهى بل بعضها كانت بطبيعة قانونها الأساسي وبنوعية الأشخاص المنتسبين أليها أبعد عن الاتجاه الديني وأقرب إلى الصبغة العلمانية . وهذه الجمعية هي ماعرفت باسم " جمعية الرابطة الشرقية " وقد شملت عضويات من شتى البقاع والمذاهب والديانات من نصارى ويهود وفرس .....

فانتسب رشيد لهذه الجمعية وهو على علم بطبيعتها إلا أنه كان يرى أن من مستلزمات مهمته الإصلاحية التعرف على طبيعة أي تنظيم وحضور أي لقاء والانتساب إلى أية رابطة يمكن من خلالها أن يخدم فكرته .

بل اعتاد أن يحضر لقاءات لم يدع لها وتكلم في مناسبات لم ينتدب للكلام فيها . وفى رده على منتقديه أكد بأنه إن لم يستطع تسخير الجمعية لخدمة مايعتقده صوابا ، فلا أقل من أن يخفض من أخطارها بالحيلولة دون استغلال دعاة التجديد لها والذي قد يتم في غيبة رجال الإصلاح (1).

وهذا بالطبع اجتهاد من الشيخ . فإذا ساغ لمن كان في مكانته في علمه وقوته أن يلج هذه المواقع فلا يعنى ذلك أن هذا يسير على كل الأفراد من دعاة الإصلاح .

رابعاً : جهوده في مواجهة الدعوة إلى الفرعونية وسائر القوميات :

ظهرت جهود مكثفة للكشف عن الآثار العربية القديمة – كما سبق وأوضحناه – وافقتها دراسات مستفيضة عن التاريخ القديم لكل منطقة عربية على حدة ، تناولت حضارات البابليين والآشوريين والكلدانيين والحيثيين والفينيقيين والفراعنة (2) .

إلا أنه في مصر زادت هذه الاتجاهات عمقا ورسوخا . بسبب الغزو الذي سلط عليها أولا . ثم تبنى كثير من الأحزاب والجمعيات برامجها الفكرية و السياسية على الأسس القومية .

وكان موقف رشيد رضا من هذه الدعوة جريئا وقويا. وكان في مقام من يسبح في عكس التيار إلا أنه تولى كعادته الرد على هؤلاء الذين يفاضلون بين الحضارة الفرعونية

---

(1) المنار ، م ٢٩ ٢ ٧٨٨ - ٧٩١.

(2) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج٢ ص ١٣١.

والحضارة الإسلامية ، مؤكدا أنه لاوجه للمقارنة ولامجال للمفاضلة ، فالأسس لكل منـــهما متفاوتة والنتائج تبعا لذلك متباعدة .

ففي مجال العمران النافع والمفيد لايوجد أمة ولادولة في هذا العصر تسفه نفسها ببنـــاء أهرامات كأهرامات الجيزة وهى غاية ماوصلت إليه العمارة الفرعونية .(١)

– أما من ناحية اللغة فلا يمكن لعاقل أن يؤثر استعمال اللغة الهيروغليفية على العربيـــة لأنها لغة ميتة ، وذهبت عنها وتعبت آثارها وليس فيها مزية توجب إحياءها (٢).

– أما من الناحية الدينية فقد قامت ديانة الفراعنة على الوثنية بينما دين السواد الأعظـــم من المصريين هو الإسلام ولايرضى أحد من المصريين أن يترك عبادتـــه القائمـــة علـــى التوحيد ويرجع إلى دين وثنى .

– أما المدنية الفرعونية فكانت تستعبد البشر وتذلهم ، هذه الأهرامات . وهـــى اظـــهر آثارهم حجة عليها وعليهم .

كما أنه ليس هناك مصلحة حقيقية لمصر وللمصريين يمكن تحقيقها مـــن خـــلال هـــذه الدعوة ، وكل ماكان يهدف إليه دعاتها من النصارى أو العلمانية وهو مجرد التفتيش عن أى بديل تقيمونه في موضع الإسلام وحضارته (٣) .

خامسا : جهود رشيد رضا في إصلاح التعليم الديني والأزهر خاصة :

لقد انتقد الشيخ واقع التربية والتعليم ، وشمل انتقـــاده المؤسســـات التعليميـــة بأنواعـــها الحكومي والأهلي والمدني والديني . فكان فمن أوائل من نبهوا إلى خطـــورة خلـــو مصـــر والعالم الإسلامي من جامعة علمية عالية ، تغنيهم عن المدارس الأجنبية الخالية من لغتـــهم ومن التربية العملية التي تليق بهم (٤) .

وتعرض الشيخ للتعليم الديني الذي كان يشرف عليه الأزهر . بكثير مـــن الملاحظـــات والانتقادات من حيث المكان وطريقة أخذ الدروس بل والفوضى نتيجـــة تجـــاوز الحلقـــات واختلاط الأصوات (٥) وبالتالي انعدام الفائدة وضعف مستوى الطلبة بل زهدهم في التحصيل العلمي . وانخفاض مستوياتهم العلمية عن أمثالهم من منتسبي المدارس المدنية .

---

(١) المنار : م٣١ ج٦ ص ٤٦٨.

(٢) المنار : م ٣١ ج٦ ص ٤٦٨

(٣) المنار : م ٣١ ج١ ص ٤٧١.

(٤) المنار : م٦ . ج ١٤ ص ٥٦٦.

(٥) المنار : ج٢٦ ج٢ ، ص ١٢٧ (طلب أماكن صحية للأزهر .)

واصبح العلماء أنفسهم يؤثرون إرسال أبنائهم إلى مدارس الحكومة والمدارس الخاصة لما فيها من فرص التعليم العصري والوسائل العلمية والصحية التي تفتقر إليها معاهد الأزهر.

وعند تحديده للأطراف المسئولة عن حالة التربية والتعليم بنوعيه المدنى والديني ذكر طرفين أساسيين أحدهما خارجي يمثله مستشار التعليم البريطانى دنلوب القس البروتستانتى(١). والطرف الثانى داخلى يتمثل بدعاة التجديد على أساس من الثقافة الغربية (العلمانيين) حيث التقت مصالح الطرفين عند ضرورة إبعاد الدين عن شؤون الحياة العامة. وتحقيق الفصل الكامل بينه وبين مختلف مؤسسات الدولة والمجتمع (٢).

وكان من خطواته الإصلاحية في مجال التعليم أن يشترط إقامة نظام التعليم على أسس التربية الدينية و يعدها أقوى الركنين وانفع العنصرين (٣).

وكذلك نبه إلى أمر كان فيه كثير من اللبس في عصره خاصة بين طبقة العلماء وطلبة العلم وذلك انه مع تسليمه بأهمية العقل ودوره كوسيلة هامة من وسائل العلم والمعرفة ، إلا انه يأتى في المرتبة الثانية بعد الوحي الذي هو مصدر الدين والذي يعده مصدر الحق المطلق والعلم اليقين – وهو بذلك يخالف شيخه محمد عبده ...

من هذا المنطلق ، كان الشيخ من المعترضين على وصول أفراد من الدعاة التجديديين على أساس من الثقافة الغربية إلى المراكز القيادية العلمية فانتقد تعيين احمد لطفي السيد وزيرا للمعارف ، كما انتقد بصورة أشد اختيار مراد بك سيد احمد وزيرا للمعارف ، وهو الذي أقر في عهده تدريس مادة الرقص في مدارس الحكومة وكذلك تعليم البنات فن الرسم وتجردهم للمدرسين من الرجال ، وهذه الخطوة لقيت معارضة عامة ، استدعت إبدال الوزير بآخر فأبطل كلا الخطوتين .

وفى المقابل امتدح رشيد رضا ماقام به آخرون من خطوات إصلاحية في مجال التربية والتعليم . مثلما فعل احمد حشمت باشا فى وزارة المعارف من تحسين تعليم البنات خاصة وجعله أكثر مواءمة من طبيعة المرأة واحتياجها من النظري إلى العملي الذي يهمها فى حياتها العملية (٤)

---

(١) حرجس سلامة ، التعليم الأجنبى ص ١٦٧.

(٢) المنار : م ٢٧ ج٨ ص ٦٢ (التاريخ بين الدين والالحاد فى مصر .)

(٣) المنار : م١ ج٣ ص ٥٦٧ (مالابد منه)

(٤) انظر المنار : م١٦ ج١٢ ص ٩١٠ ، ٩١١ (اصلاح حشمت باشا فى نظارة المعارف)

سادسا : موقفه من قضية المرأة :

أسهم رشيد رضا فى الجدال الذى دار حول المرأة ودورها فى المجتمع ، بعد أن فتح قاسم أمين هذا الباب من خلال كتابيه : تحرير المرأة والمرأة الجديدة ، وقد أثار ظهور الكتابين ضجة كبيرة ورد فعل لفترة غير قصيرة ، وكان محور هؤلاء الكتابين يدور حول اصلاح حال المرأة الشرقية وتأكيد دورها فى المجتمع ، وربط ذلك كله بتركها الحجاب الذى رأى فيه مانعا لإصلاحها ، كما طالب قاسم أمين بتحرير المرأة وتأهيلها حتى تتمكن من ممارسة دورها فى الحياة وهى مسلحة بالعلم والثقافة ، وأكد الكتابان على أهمية التوجه نحو الغرب والاخذ بأسباب الثقافة الغربية .(١)

وقد قام رشيد رضا بعرض الكتابين ، وأشاد بما يحملاه من أفكار إيجابية ، مثل تعليم المرأة وتثقيفها ، ولكن توقف عند ماأسماه بمبالغات قاسم أمين ولاسيما فى حملته الشديدة على الحجاب، إذ اعتبره العامل الأكبر فى تخلف المرأة الشرقية وانعزالها وجهلها ، وعلى الرغم من اتفاقه مع قاسم أمين فى ضرورة إصلاح أوضاع المرأة الشرقية واعدادها للقيام بدورها فى المجتمع اكثر إيجابية ، ولكنه يرى أن المشكلة تكمن فى النظرة السليمة العامة التى تعارف عليها الشرقيون الى المرأة جيلاً بعد جيل حتى أصبحت هذه الأعراف والتقاليد جزءاً من الدين رغماً عنه .

وهناك بعض الآراء التى تردد أن الشيخ محمد عبده كان له دور كبير فى كتب قاسم أمين وانه صحح له بعض الكتب ولذلك كان رشيد رضا فى بداية إنشاء مجلته متعاطفا الى حد كبير مع أفكار قاسم أمين أو بعض تلك الأفكار ، وذلك لأنه كان يحتاج إلى دعم الشيخ محمد عبده، وذلك المنشأ ينطبق ايضا على الفكر السياسى الذي برع فيه حتى أننا نجد مؤلفات كاملة في الفكر السياسي، بعد وفاة الامام بالذات .

ونحن نتفق مع وجهة النظر سابقة الذكر ، وممايؤكد صحة كلامنا أن رشيد رضا قد الف كتابا عن حقوق المرأة فى الإسلام ، خالف فيه ونقض كثيرمن الآراء التى سبق وأن أيدها ، ومن خلال تفسير المنار يلاحظ البعض اختلال موقف رشيد رضا وأستاذه عبده ــ الذي أيد قاسم أمين (٢) ــ وان كان اتفق معه فى قضية المساواة بين الرجل المرأة فى الحقوق والواجبات وإن شاب رأيه بعض التحفظ من الاعمال التى يقوم بها الرجل ولاتقدر عليها المرأة. إلا أن ما يهمنا هو مخالفة السيد رشيد رضا لاستاذه عبده ، فى قضية تعدد الزوجات على سبيل المثال، فقد أفتى الشيخ عبده أن التعدد يكاد يصل الى درجة التحريم ،

---

(١) انظر الاعمال الكاملة لقاسم أمين : ص ٢٣٢ ، المنار ص ٣٧٠ كلمة فى الحجاب .

(٢) يروى أن الامام محمد عبده اثناء الشرح فى الجامع الأزهر ، دخلت فتاة حلقات الدرس فقال اتركوها لعلها المرأة الجديدة .

وذلك لعدم استطاعة العدل . وكان القرآن نهى عن كثرة الزواج بينما يقصص رضا لـــهذه القضية بأسلوب اكثر مرونة وواقعية – في رأى – فهو لا ينكر أن مسألة التعدد مسألة اجتماعية كبرى ، ولكن يرى أن تعدد الزوجات راجع إلى طبيعة الرجل فهو اكثر طلباً للأنثى منـــها ، ومـــا يحرمه رشيد رضا هو التعدد الذي يلجأ إليه الذواقون فقط (١) .

، و بالنسبة لقضية تعليم المرأة وأي نوع من التعليم يبدى رشيد رضا تحفظا – فى رأينا أنـــه مطلوب – وهو لا ينكر أهمية تعليم المرأة ومشاركتها فى المجتمع ، وذلك لأن الإسلام يدعو الـــى التفكير في أمور الدنيا والآخرة ، ولكن يحذر من عواقب التعليم العصرى الذى لاتصحبـــه رقابـــة التربية الدينية، و محمد عبده لايضبط محتوى التعليم الذى تتلقاه المرأة ، وذلك بحجة أن أحـــوال الناس تتجدد والملابسات الاجتماعية متطورة (٢) . ونحن نختلف مع الكاتب فى وصفه لموقـــف محمد عبده أنه اوضح من موقف رضا ، وذلك لأننا نعتقد أن على المرأة وليس المرأة فحســـب ، بل أن التعليم يجب أن يكون دينى أولا ثم تأتى بعد ذلك أنواع التعليم الآخرى النافعة ، أمـــا عـــن تقليد الغرب فى علومه الضارة بالشرق فهذا لايرضى عنه رشيد رضا . ويتفق معـــه فـــى ذلـــك الاستاذ / مصطفى صادق الرافعي فيقول " ان من الوسائل التى تبنى المرأة الغربية فى هذا العصر ماإذا نقل الى الشرق ابطل أقوى الوسائل التي بالشرقية فجعلها بذلك لاتصلح ان تبنى وجعلـــها بعد ذلك لاتصلح الا ان تهدم (٣) .

وبذلك يكون رشيد رضا يخالف الكثيرين الذين يرون أن اصلاح المرأة الشرقية لن يكـــون الا عن طريق الانسلاخ من كل ماكتسبته من عادات وتقاليد ، وان تسارع في محاكات المرأة الغربية فى جميع شئونها ، وهو بذلك يعد موقف وسط بين التيارين وهو المنهج الذى إلتزمه فى كثـــير من الموضوعات التي عالجها والمواقف التي تعرض لها لاقامة حزب الإصلاح الإسلامي الوســـط المعتدل (٤).

وينادى رشيد رضا بالأخلاق والفضيلة والعفة فيقول للمرأة تمسكي بـــالأخلاق والفضيلـــة ولايمكن أن تجدى ذلك الا فى دينك ، ولايمكن أن ترى مكانة عالية فى القلوب التى تتشـــدينها فى المجتمع الا بعد أن تتفهمى أمور دينك ، وما انطوى عليه مـــن أحكـــام عاليـــة. وآداب سامية(٥)

---

١ - المنجى الشملى : قضية المرأة فى تفسير المنار - حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث - ١٩٦٦ م - ص ١٢،١٣

٢ - المنجى الشملى : مرجع سابق ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

٣ - مجلة الهلال : رأى مصطفى صادق الرافعى فى المرأة الشرقية " ص ١٤١. الهلال العدد ١٢ - السنة ٧٥ ، ١٣٧٨هـ - ١٨٦٧م

٤ - رشيد رضا : حقوق النساء : ص ٢٠.

٥ - مجلة المنار : رشيد رضا : مجلد ٢٨ ج٥ مقال " مايسمى بالنهضة النسائية فى مصر " ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م ص ٣٥٧.

ويقول لايوجد فى أوربة شعب أهمل التربية الدينية للإناث كإهمال مصر شعبا وحكومة وهى مع ذلك تبيح حرية الفكر والفسق والرقص والسباحة مع الرجال والزنا فى بعض الأحوال([1]) .

وقد تعرض رشيد رضا لمسألة حجاب المرأة المسلمة ، وذلك باعتبارها مسألة غدت مطروحة بين المفكرين والباحثين ، فأكد أنه لاتوجد مشكلة حقيقية تدور حول الحجاب وتستحق كل ماأثير حولها من جدل ، وأما الحجاب الذى ينتقده البعض فهو الحجاب الذى لايمثل الاسلام فى شئ وانما هو للزينة فقط ووسيلة للفت النظر الى النساء .

وذهب إلى مايقصده دعاة السفور والاختلاط بين الجنسين، وذلك بحجة أنه يعمل على تهذيب العواطف وترقية الأذواق بين الجنسين ، وفى زعمهم أن اقامة الزيجات على هذا الاساس هى الزيجات الناجحة . ([2])

وقد نظر هؤلاء المجددون الى الدين على أنه أكبر حائل بين تنفيذ كل ما يرمون اليه من تجديد فى حياة المرأة ، ولذلك طالبوا باستبعاده عن أمور الحياة العامة وعبروا عنه بقولهم " أن الاعتقادات الشرقية التى تفيد بأن المرأة والرجل متى اجتمعا فإن الشيطان يكون ثالثهما ، وهذا هو سر تأخر الشرق ، وهذه بقايا عصور الجهل اوالخوف والظلام .

ويقول رضا انه اذا كان المقصود من الاختلاط ، تعليم المرأة وتربيتها وتثقيفها ، وهو مطلب عادل وملح وكل وسائل توفيره ميسرة من غير ان نقع فى محذور دينى او اجتماعى، ويمكن أن تستغل المساجد ودور العبادة العامة فى هذا المجال ، كما يمكن تأسيس جمعيات نسوية تتولى ادراتها بعض النابغات منهن ، وتلقى فيها المحاضرات وتعقد الندوات وتعوض لكل ماهن بحاجة ماسة اليه ومما يتجاوب مع تفكيرهن واحتياجهن . ولا مانع عند رشيد رضا من ان يشارك فى هذا بعض المفكرين (الذين يحسنون اختيار بعض الموضوعات أو إعداد مايطلب منهن فى هذا المجال ([3]) .

ويرى رشيد رضا أنه بهذه الوسيلة يمكن تحقيق الفرضين ، أى تثقيف المرأة وتعليمها وتربيتها ، دون الوقوع في أي محذور شرعي أو اجتماعي ([4]).

وقد مارس رشيد رضا هذا المنهج عمليا ، فكان يلقى دروسا فى بلدته لتعليم النساء، إلا أنه اختلف مع دعاة التجديد المطالبين بتعليم المرأة حول ماهية التعليم اللازم لها وأسلوب التربية والتعليم اللازم، أكد الشيخ أن هناك خطرا يهدد كيان المرأة الشرقية المتعلمة ، وهو

([1]) المنار : م ٢٨ ج١٠ : النهضة النسائية فى مصر – ص ٣٥٨.

([2]) الهلال : يناير ١٩٣٥ – نقلا عن الشوابكة .

([3]) حقوق النساء فى الاسلام ص ١٧ – ١٩ نقلا عن الشوابكة ص ١٥١.

([4]) المنار : م٣٠ ج٢ – مقال تحت عنوان " غوائل اختلاط الاناث والذكور "

تلقيها مناهج معتدلة عن المناهج الغربية أو شبيهة بها وأن تتربى تربية ذات نمـــط غربـــي فصار هم الفتاة كما يقول أن تتقن لغة أوربية لايعرف أهلها عنها شيئا ، وصارت تتفنن فـــي وضع النطاق حول خصرها ، وان تضرب البيانو على أحسن نوتة من الألحان الإفرنجيـــة وأن تتقن تلك الرقصة أو تلك على يد معلمها الإفرنجي ، فإذا رجعت إلى منزلها الذي نشأت فيه وجدت عالما غير العالم، فوقع التصادم والتنافر بينها وبين كل شئ في بيتها[١].

وفى سبيل تحقيق ذلك دعا رشيد رضا الى تخصيص المرأة بمنهاج يختلف عما يتلقـــاه الذكور تبعا لاختلاف الجنسين وتغاير وظيفة كل منهما ، فرأى التركيز على مايخدم وظيفتها الطبيعية وهو ماتكون به سيدة فى بيتها ومديرة شئونه وحاضنة اطفاله ومربية ولدها وقـــرة عين زوجها ، وليس ماتكون به فيلسوفة او سياسية أو صانعة[٢] وقد خالف فى هذا اســـتاذه عبده – على نحو ماذكرنا.[*]

وقد أكد رشيد رضا على أهمية التربية القائمة على الدين ولاسيما أن ماعليه المتعلمـــات من البنات من انحراف السلوك وخلل التربية كان صادقا لكثير من الآباء عن تعليم بناتهم .

وقد أثار دعاة التجديد مسالة المساواة بين الرجـــل والمـــرأة ، زاعميـــن أن الشـــريعة الإسلامية جاءت منحازة الى جوار الرجل وضد المرأة واستدلوا على ذلك بحق الرئاسة التى تعطى للرجل مثل حظ الانثيين ، وخلصوا من ذلك إلى أفضلية الأحكام في هذه الأمور إلـــى القوانين الوضعية التى أنصفت المرأة واعترفت لها بكامل حقوقها [٣]

ومما زاد من حدة هذا الموضوع أن المتصدين له من النصارى [٤] ، فقد كان أول مـــن آثار هذا الموضوع سلامة موسى في محاضرة عامة في جمعية الشـــبان المســـيحيين ، ثـــم نشرها في مجلة الرابطة الشرقية ، ثم أثار الموضوع الدكتور فرج ميخائيل فـــى محـــاضرة ألقاها في الجامعة الأميركية ثم طبعها وقام بتوزيعها وذكر ذلك رشيد رضا في مناره ، وقـــد اعتبر ذلك رشيد رضا – تدخلا من جانبهم في أحكام دينية قطعية ، وليست مجـــالا للبحـــث والمداولة، فأنكر عليهم تدخلهم في هذه الأمور التي لا تخضع لاجتهاد علمـــاء المســـلمين ، فضلا عن أفراد النصارى [٥].

---

(١) المنار : م٥ ج٢٣ ص ٤٨٣ " انتقاد تعليم البنات " .

(٢) المنار : م١ ج٢٣ ص ٤٣٨ " ضرر تعليم البنات على الطريقة الافرنجية :

(*) انظر ص ١٢ من هذا المبحث " قضية المرأة فى تفسير المنار : المنجى الشملى " تونس .

(٣) حقوق النساء فى الاسلام : رشيد رضا ص ٢٨ – ٢٩.

(٤) المنار : م ٣٠ ج٩٠ ص ٦٩٩ – ٧٠٠ تأييد د . فرج الكاثوليكى لسلامة موسى القبطى "

(٥) المنار : م ٣٢ ج٣ ص ١٨٠ " الفوضى الدينية والجهل بضروريات الدين "

وقد أكد رشيد رضا أن المنتقدين من النصارى لهذه الجوانب قد وقفوا عند حدود الشـكل دون النفاذ إلى الجوهر ، ولو فعلوا لتأكدوا أن الإسلام لم يكن ظالما للمرأة ، بل منصفا لـها ومؤكدا حقوقها ([1]) .

خلاصة القول :

خلاصة القول أن رأى رشيد رضا فى المرأة من الآراء التى تستحق الاحترام ، ولـو أن رشيد رضا عاش الى الفترة التى نعاصرها اليوم ، ووقع بصره على ما وصلت إليه المـرأة المسلمة بالاسم دون الفعل، لصرخ فى وجهها، ليست هذه المساواة التى نادى بها الإسـلام، وليس هذا التقليد الأعمى للغرب هو الذى نادى به المصلحون ورواد الإصلاح،حقيقـة إنـها لآراء جديرة بالتقدير والاحترام وأن تحيى تلك الكلمات والكتابات من جديد.

([1]) المنار : م٣٠ ج٩ ص ٧٠١ " وجوب الاذعان والتسليم لكل ماهو قطعى فى الدين : وانظر ايضا : المنار م ٣١ ج١ ص ٦١ تفنيد الشبهات فى حقيقة المساواة فى الأرث .



حمداً لك ربي على ما أتممت من فصول هذا البحث وإكتمال مباحثه .....

وبعد أن سلطنا الضوء على حقبة زمنية من تاريخ أمتنا المجيد كانت مليئة بالنكسات والإنحرافات والتخبطات .. فمنذ أواسط القرن الثامن عشر الميلادي العاشر هجري ، والعالم الإسلامي كله مقتلع النوافذ والأبواب في وجه الفكر الغربي ، والمنهج الغربي ، والثقافة الغربية، والعلم الغربي ، والحضارة الغربية ، والفنون والآداب والأذواق والتقاليد الغربية بدرجات متفاوتة ، بطرق متباينة فصلناها في هذا البحث ، فمنذ أن بدأ أهل الذمة ينشئون كنائسهم التنصيرية ويجاورها أو بداخلها مدارسهم التعليمية في بيروت والقاهرة وبغداد والموصل والإسكندرية واستنبول وغيرها من حواضر المسلمين .. والحصون الفكرية والعقدية الإسلامية التي كانت متبقية لدى هذه الأمة كانت تتهادى واحداً بعد الآخر والأجيال المسلمة تتعرض لعملية استلاب فكري وثقافي هائل انتهت بأن أصبحت جميع معارفنا أوجلها غربية ، أو موضوعة في قالب وإطار غربيين سوى زوايا متفرقة من العالم الإسلامي - وللأسف كانت تنادي ولكن بصوت أقرب إلى الهمس مقارنة بأبواق التغريبيين ، بل حتى تلك العلوم التي تسميها الشرعية أو الأصلية أو التقليدية أو كتب التراث لم تسلم من عملية الاستلاب والتغيير هذه ، فأخضعت جوانب كثيرة منها للتطور الغربي وللوسائل الغربية والطرائق الغربية في توصيل المعرفة ومعالجة القضايا الشرعية فضلاً عن الدنيوية .

وبذلك انمحت الشخصية الإسلامية بانهيار مقوماتها الأساسية ، وقد يتهم قاريء هذا الكلام بالقصور أو التشاؤم واليأس أو أنه لا يخلو من مبالغة ، ولكن من يتصفح حجم السيطرة التي بلغها أهل الذمة والنجاح الباهر السريع الذي توصلوا إليه في إفساد المسلمين وشعوبهم ومدى الهزائم (المادية والمعنوية) التي لحقت بالمسلمين يدرك حينئذ أننا بحاجة إلى عرض جاد لمعالجة مشاكلها الفكرية والإنحرافات العقدية التي أصابت المسلمين في العقود الأخيرة من تاريخهم فيها وإن ظهرت مبكراً إلا أن دائرتها تتسع مع مرور الزمن حتى ألقت بثقلها في القرن الثالث عشر الهجري . ولنا في هذه الخاتمة عدة وقفات :

- إن الأمة كانت قوية ومتقدمة ومتصدرة للعالم حيث كانت متمسكة بدينها محافظة على عقيدتها .. بالتالي كانت مؤثرة لا متأثرة مما عاد إيجاباً في السابق لمعايشة أهل الذمة لهم ، ولما ضعف التمسك وبدأ خط الإنحراف يزداد انقلبت الموازين فأصبح الحسن قبيحاً والقبيح حسناً .

- أهمية عقيدة الولاء والبراء في حياة الأمة وأن الأمة لم تسقط فريسة للغزو الفكري والتنصير وتفتح أبوابها على مصراعيها لكل مخرب ، وتصبح تابعة لقوى الشر والكفر إلا بعد أن حطمت تلك العقيدة في نفوس المسلمين .

- أن الحالة العلمية في تلك الفترة كانت ضعيفة للغاية وكانت السيادة للدجالين والمخرفين .

- ترتب على ماسبق أن موقف العلماء في تلك الفترة لم يكن على المستوى المطلوب بل ولا قارب المطلوب إضافةً إلى عزوف كثير من العلماء عن المشاركة بالأحداث التي كانت تعصف بالأمة .

- وأخيراً بالرغم من ضخامة العقبات وكثرة المشكلات إلا أن هناك من المبشرات الشرعية والبوادر المرئية المحسوسة في تاريخنا المعاصر ما يبشر بأن المستقبل لهذا الدين وأن العاقبة للمتقين (وإن جندنا لهم المنصورون) .

- وبعد فما كان في هذا البحث من صواب فمن الله وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك .

الملاحق

ملحق (١)

خط كلخانة الذي أصدره السلطان العثماني عبد المجيد عام ١٢٥٥هـ - ١٨٣٩م والذي بدأ به رسميا عهد "التنظيمات"

لقد علم الجميع أنه لما كانت حصلت الرعاية التامة للأحكام الجليلة القرآنيــة والقوانيــن الشرعية منذ بداية ظهور دولتنا العلية، وصلت قوة واستحكامات سلطتنا السنية وجميع تبعتها إلى أعلى مرتبة من الرفاء والمعمورية، لكن بحسب ماوقع منذ مائة وخمسين سنة من عــدم الانقياد الى العرش الشريف، والامتثال الى القانون المنيــف، بدعــاوى الغوائــل المتعاقبــة والأسباب والمتنوعة، وقد تبدلت تلك القوة الأولى والعمار بما هو عكس ذلك من الضعـــف والافتقار. ولما كان من الأمور الواضحة عدم إمكان ثبات الممالك التى لاتكون إدارتها تحت قوانين شرعية، كانت أفكارنا الملوكانية الخيرية منحصرة منذ جلوسنا الهمايونى فى مجــرد إعمار الممالك والأنحاء، وترفيه الأهالى والفقراء. ونظرا لموقـــع ممــالك دولتنــا العليــة الجغرافى، وخصب أراضيها وقابلية واستعداد اهاليها، لابد مع توفيـــق البــارئ تعــالى أن يحصل المطلوب بظرف خمس أو عشر سنين، متى حصل التشبث بالوسائل اللازمـــة بعــد الاعتماد على معونة الله، واستمداد عنايته الإلهية، وللتوســـل بجنــاب صــاحب الرســالة، والاستناد على روحانيته النبوية. ولذلك نرى من اللازم المهم لأجــل حســن ادارة ممالكنــا المحروسة، وضع بعض قوانين جديدة تتعلق موادها الأساسية بأمنية النفـــوس، والمحافظــة على الأموال والعرض والناموس، وكيفية تعيين التكاليف، وجمع العساكر المقتضيــة ومــدة استخدامها، ذلك لأن لاشئ فى الدنيا اعز على الإنسان من النفس والعرض والناموس، فـــإذا رآها فى التهلكة، ولم يمل عند ذلك الى الخيانة بحسب مافى خلقته الذاتية، وجبلته الفطريـــة، لابد له أن يتشبث ببعض الصور لأجل المحافظة عل نفسه وناموسه. ومن المســـلم أن هـــذا الأمر يكون مضرا بالدولة والمملكة كما يسلم ان الانسان متى كان مســـتأمنا علـــى نفســـه وناموسه، لابد له من أن لاينفصل عن الصدق والاستقامة وتكون اشغاله وأعماله عبارة عــن حسن الخدمة لدولته وملته، لكن عندما تفقد الأمناء على المال لايعود يلتفت لا إلى الدولة ولا إلى الملة، ولاينظر الى اعمار الملك، بل يكون دائما غير خال من بلبلة الفكر والاضطراب ، وبعكس ذلك إذا كان بحالة الأمنية الكاملة من جهة أمواله وأملاكه، فإنه يكون مهتما بأشغاله، وتوسيع دائرة معاشه، وتتزايد غيرته يوما فيوما على دولته وملته، ومحبته لوطنه، ولاريــب أنه يجتهد بحسن السلوك الموافق لذلك. كما أن مادة تعيين التكاليف تستلزمها كل دولة بسبب الاحتياج الى العساكر، وغيرها من المصاريف المقتضية لأجل المحافظة على بلادها، وبمــا

أن هذا الامر لايدرك الا بالأموال، ولايدرك المال الا من عطاء الأهالى، كان التبصر فـــى صورة حسنة له من أهم الأمور ومع أن أهالى ممالكنا المحروسة قد تخلصت قبل الآن ، ولله الحمد والمنة ، ومن بلية اليد الواحدة التى كانت تعلن فيما سلف ايـرادا لـم تـزل اصـول الالتزامات التى هى من الات الخراب ، ولم يجن منها ثمر نافع فى وقت مـــن الأوقـات ، جارية حتى اليوم وكأنما هى عبرة عن تسليم مصالح أحدى البلاد السياسية وأمورها الماليـة لإدارة أحد الناس ، وربما الى مخالب جبره وتغلبه ، فإنه إذا لم يكن فى حد ذاتـــه صالحـا ينظر لحين فى ماهو لمنفعته الخصوصية ، وتكون جميع حركاته وسكناته مبنية على الغـدر والظلم ، ولذلك يلزم بعد الآن أن يتعين على كل فرد من أهالي البلاد قدر مناسب بالنسبة الى املاكه ومقدرته ، كيلا يؤخذ من أحد شئ زائد عن مقدرته ، وكذلك يجب تحديد مصـــاريف دولتنا العلية العسكرية وغيرها برا وبحرا ، وتعيينها بقوانينها المقتضبة ، وعلى ذلك يصـير اجراؤها ، وهكذا مادة العساكر ايضا لأنها من الأمور المهمة كما تحرر. ومـــع أن إعطـاء العساكر لأجل محافظة الوطن ، وهو من فرائض ذمة الأهالى ، لم يزل على ماهو جار الـى حد الآن ، غير منظور فيه إلى عدد النفوس الموجودة فى كل بلد ، بل يطلب مـــن بعضـها ماهو زائد عن درة احتماله ، ومن البعض الآخر ماهو أنقص ، وكما أن هذا الأمر يوجـب عدم الترتيب والخلل فى منافع مواد الزراعة والتجارة، وكذلك استخدام الذين تراجـع الـى العسكرية الى نهاية عمرهم يوجب الملل وقطع النسل ، فيجب وضع بعض اصـول حسـنة لأجل ماتطلب عند اللزوم من كل بلدة من النفار العسكرية ، وتأسيسه بطريق المناوبة ايضا ، فتكون عدة الاستخدام أربع أو خمس سنين ، والحاصل إذا لم تتحصل هذه القوانين النظاميـة لايمكن تحصيل القوة والعمار والراحة ، لأن اساسها جميعا هو عبـارة عـن هـذه المـواد المشروعة . كذلك يلزم أن تنظر دعاوى اصحاب الجرائم بعد الآن علنـا بوجـه التحقيـق بمقتضى القوانين الشرعية ، وقبل أن يصدر الحكم لايجوز إعدام أحد اصلا،لاخفيا ولاجليا ، ولابطريق التسميم وأن لايحصل تسلط من طرف أحد على عرض وناموس شخص آخـر ، بل كل واحد يكون مالكا امواله واملاكه ، ومتصرفا بهما بكمال حريته ، وليـس لأحـد أن يتداخل معه بذلك ، واذا بالفرض وقع أحد بتهمة أو قباحة ، وكان ورثاؤه ابرياء الذمة مـن تلك التهمة والقباحة ، ولايحرمون من حقوق مورثهم بواسطة ضبط أمواله ، ولكـى تكـون أهل الإسلام وباقى الملل الذين هم من تبعة سلطتنا السنية نائلين مساعداتنا هـذه الشـاهانية بدون استثناء ، أعطيت من طرفنا الشاهانى الأمنية الكاملة بمقتضى الحكم الشرعى لجميـع أهالى ممالكنا المحروسة على نفوسهم وأعراضهم وناموسهم . وبما أن باقى القضايا سـوف يعطى لها قرار باتفاق الآراء ، فيلزم تكثير أعضاء مجلس الأحكام العدلية بقدر اللزوم ، وأن يجتمع ايضا هناك وكلاء ورجال دولتنا العلية فى بعض ايام يصير تعيينها ، ويتكلموا جميعـا

بحرية غير متأخرين عن إبداء آرائهم ومطالعاتهم ، ويتذاكروا من جهة القوانين المقتضبة فيما يخص هذه الأمنية على الانفس أوالأموال ، وتعيين الوبركو ، ويتكلموا عن قضية التنظيمات العسكرية ايضا فى دار شورى الباب السر عسكرى ، ولما تقرر قانون يعرض لطرقنا الهمايونى لأجل المصادقة عليه وتوشيحه بخطنا الهمايونى ، ليكون دستورا للعمل الى ماشاء الله تعالى . وبما أن هذه القوانين الشرعية سيصير وضعها لإحياء الدين والدولة والملك والملة ، يعطي العهد والميثاق من جانبنا الهماينون بعدم حركة تخالفه ، والقسم بالله على ذلك أيضا بحضور جميع العلماء والوكلاء فى حجرة الخرقة الشريفة، وتحلف العلماء والوكلاء ، ويتنظم قانون جزاء مخصوص لإجراء التأديبات اللائقة للذين يفعلون حركة تخالف القوانين الشرعية من العلماء والوزراء ، أو غيرهم أيا كان بحسب القباحات التى تثبت عليهم غيرملتفت فى ذلك الى رتبة ولاخاطر ، وبما أن جميع المأمورين لهم والحالة هذه معاشات وافية ، وستترتب معاشات ايضا لمن وجد بينهم بلا معاش ، يجب أن ينظر بقانون قوى يتأكد بعد الآن عدم وقوع مادة الرشوة الكريهة المنفور منها شرعا ، التى هى السبب الأعظم فى خراب الملك . وبما أن هذه المواد المشروحة هى كناية عن تغيير الاصول العتيقة وتجديدها بتمامها ، ينبغى أن تعلن إرادتنا هذه السلطانية مشاعة الى أهالى دار السعادة ، وجميع ممالكنا المحروسة ، وأن يعمل بها رسميا جميع السفراء المقيمين فى دار سعادتنا ، لتكون الدولة المتحابة ايضا شهودا على ابقاء هذه الأصول الى الأبد إن شاء الله تعالى . ونلتمس من ربنا تعالى وتقدس أن يوفقنا جميعا ، والذين يفعلون حركة تخالف هذه القوانين المؤسسة فيكونون مستحقين لعنة الله تعالى ، وعدم الفلاح الى الأبد آمين .

في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥هـ يوم الأحد(١)

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، عبد الكريم المشهداني : العلمانية وأثرها على الأوضاع الإسلامية في تركيا .

ملحق (٢)

الخط الهمايونى الذي أصدره السلطان عبد المجيد عام ١٢٧٢هـ يتابع به سياسة التنظيمات

لما كان من أقدم أفكارى الخيرية السلطانية تحصيل سعادة الأحوال الصنوف تبعتى الشاهانية التى هى وديعة البهارى ليدى المؤيدة الملوكانية واستكمالها من كل جهة ، شوهدت ولله الحمد بكثرة وافرة اثمار هممى المخصوصة الشاهانية ، التى ظهرت فى هذا الباب منذ يوم جلوسى الهمايونى المقرون باليمن ، وقد أخذت معمورية ملكنا وثروة ملتنا فى الازدياد من وقت الى وقت ، الا انه لما كانت عدالتى السطانية تطلب تجديد وتأكيدالنظامات الخيرية التى توفقت بوضعها وتأسيسها لحد الآن لايصال الحالة الموافقة بشأن دولتنا العلية ، واللائقة بالوقع العالى المهم الذى حازت عليه بحق فيما بين الشعوب المتمجهة الى درجة الكمال ، ولاسبيل الآن حيث تضاعف بعناية الله تعالى تأكيد الحقوق السنية التى لدولتى العلية فى الخارج بحسب تأثير المساعى الجميلة من حمية عموم تبعتى الشاهانية ، وهمة ومعاونة نوايا الدول المفخمة الخيرية التى هى معنا باتفاق خاص باهر الاخلاص مايجعل هذا العصر مبدأ زمان مقرون بالخير لدولتنا العلية ، اصبح من اقتضاء ارادة مراحمة المعتادة الملوكانية أن تترقى آنا فآنا فى الداخل ايضا الأسباب والوسائل المستلزمة لتزايد قوة ممكنة سلطتى السنية ، وتحصيل سعادة الأحوال الكاملة من كل وجه لجميع صنوف تبعتى الشاهانية ، المرتبطين مع بعضهم بالروابط القلبية الوطنية ، والمتساوين فى نظر معدلة شفقتى الملوكانية ، وبناء على تلك قد صدرت إرادتى العادلة السلطانية بإجراء الخصوصيات الآتية ، وهى : بما أن تلك التأمينات التى صار الوعد الاحسن بها من طرفى الإشرف السلطانى ، لأجل امنية النفوس والأموال وحفظ الناموس فى حق جميع تبعتى الموجودين فى أى دين ومذهب كان بدون استثناء ، وجب خطى الهمايونى الذى تلى فى كلخانة ، وقد جرى الآن تأكيدها وتأييدها مع التنظيمات الخيرية ، يجب اتخاذ التدابير المؤثرة لاجل اخراجها بكمالها الى الفعل ، اما الامتيازات والمعافيات الروحانية جميعها التى اعطييت من طرف أجدادى العظام ، او احسن بها فى السنين الأخيرة الى جماعة المسيحين ، وباقى التبعة الغير المسلمة الموجوين فى ممالكى المحروسة الشاهانية ، فقد ثار تقريرها وابقاؤها الآن ايضا ، انما يلزم أن حصل المبادرة فقط الى رؤية امتيازات كل جماعة من المسيحين والتبعة الغير المسلمة ، ومعاينة امتيازاتهم الحاضرة بظرف مهلة معينة ، وتحصل المذاكرة فى اصلاحاتها التى اوجبها الوقت واثار التمدن والمعارف المكتسبة فى مجالس مخصوصة ، تتشكل فى البطركخانات

بإرادتى واستحسانى الملوكى ، وتحت نظرة بابنا العالى ، ونجبر على عرضها والافادة عنها الى بابنا ، ويصير توفيق الرخصة والاقتدار اللذين صار التكرم بإعطائهما من طرف حضرة ساكن الجنان السلطان أبى الفتح محمد خان الثانى ، ومن خلفائه العظـام ، الـى البطاركـة واساقفة المسيحين للحال ، والموقع الجديد الذى صار التأمين فيه لـهم مـن نيـات فتوتـى السلطانية ، ومن بعد أن تصلح اصول انتخاب البطاركة الجارى والحالة هذه ، يصير كذلـك اجراء اصول نصبهم وتعيينهم لمدة حياتهم تطبيقا الى احكام برأة البطريكية العلية بالصحـة والتمام ، وحين نصب البطرك والمطران والمرخص وايبسكبوس والحاخام ، يقتضى أن يفوا الأصول التحليفية تطبيقا الى صورة يحصل القرار عليها فيما بين بابنـا العـالى ورؤسـاء الجماعات المختلفة الروحيين ، ثم يصير منع الجوائز والعائدات التى تعطى الـى الرهبـان تحت أى صورة واسم كان بالكلية ، ويتخصص عوضها ايـرادات معينـة الـى البطاركـة ورؤساء الجماعات ، وكذلك يتعين معاشات الى باقى الرهبان على وجه الحقانية بالنظر الـى اهمية رتبهم ومناصبهم ، بحسب القرار الذى يعطى بعد الآن وتحال ادارة المصالح الماليـة المختصة بجماعة المسيحيين وباقى التبعة الغيرالمسلمة لحسن محافظة مجلس مركـب مـن اعضاء منتخبة فيما بين رهبان كل جماعة وعوامها بدون أن يحصل ايراث سكنة الى ارزاق وأموال الرهبان منقولة كانت وغير منقولة ، ولاينبغى أن يقع موانع فى تعمير وترميم الأبينة والمختصة بإجراء العبادات فى المدائن والقصبات والقرى التى جميع اهاليها من مذهب واحد ولا فى باقى محلاتهم كالمكاتب والمستشفيات والمقابر حسب هيئتها الأصلية ، لكن اذا لـزم تجديد محلات غير هذه ، فيلزم عندما يتوصبها البطرك أو رؤساء الملة ، أن تعرض صورة رسمها وانشائها مرة الى بابنا العالى لكى تقبل تلك الصورة المعروضة ، ويجرى اقتضاؤهـا على وجب تعلق إرادتى السنية الملوكانية ، أو تتبين الاعتراضات التى ترد فى ذلك البـاب بظرف مدة معينة ، وإذا وجد فى محل جماعة أهل مذهب واحد منفرديـن - يعنـى غـير مختلطين بغيرهم - فلا يقيدوا بنوع ماعن اجراء الخصوصات المتعلقة بالعبادة فـى ذلـك الموضع ظاهرا وعلنا . أما فى المدن والقصبات والقرى التى تكون أهاليـها مركبـة مـن جاعات مختلفة الأديان ، فتكون كل جماعة مقتدرة على تعمير وترميم كنائسها ومستشـفياتها ومكاتبها ومقابرها ، واتباعا للأصول السابق ذكرها فى المحلة التى تسكنها على حدتها ، لكن متى لزمها يقتضى انشؤها جديدا ، يلزم أن تستدعى بطاركتها أو جماعة مطارنتها الرخصـة اللازمة من جانب بابنا العالى، فتصدر رخصنا السنية عندما لا توجد فى ذلك موانع ملكيـة من طرف دولتنا العلية ، والمعاملات التى تتوقع من طرف الحكومة فى مثل هذه الأشـغال لايؤخذ عنها شئ ، وينبغى أن تؤخذ التدابير اللازمة القوية لأجل تأمين من كانوا أهل مذهب واحد مهما بلغ عددهم ، ليجروا مذهبهم بكل حرية ، ثم تمحى وتزال مؤبدا من المحـررات

الديوانية جميع التعبيرات والألفاظ والتمييزات التى تتضمن تدنى صنف عن صنف آخر من صنوف تبعة سلطتى السنية بسب المذهب أو اللسان أو الجنسية ويمنع قانونيا استعمال كل نوع تعريف وتوصيف يوجب الشين والعار ، أو يمس الناموس ، سواء كان بين أفراد الناس أو من طرف المأمورين . ولما كانت قد جرت فرائض كل دين ومذهب يوجد فى ممالكى المحروسة بوجه الحرية ، وجب أن لايمنع أحد اصلا من تبعتى الشاهانية عن اجراء فرائض ديانته ولايعاين من جراء ذلك جورا ولاأذية، ولايجبر أحد على ترك ديانته ومذهبه . أما انتخاب ونصب مأمورى سلطتى السنية وخدامها ، فهو منوط بتنسى وإرادتى الملوانية ، وبما أن جميع تبعة دولتى العلية من أية ملة كانوا سوف يقلون فى خدامة الدولة ومأمورياتها ، فيستخدمون فى المأموريات امتثالا الى النظامات المرعية الاجراء فى حق العموم بحسب أهليتهم وقابلتهم ، والذين هم من تبعة سلطتى السنية يقبلون جميعا عندما يفون الشرائط المقرة، سواء كان من جهة السن ، أو الامتحانات فى النظامات الموضوعة للمكاتب بدون فرق ولاتمييز فى مكاتب دولتى العلية العسكرية والملكية ، وعدا لذلك تكون لك جماعة مأذونة بعمل مكاتب وحلبة للمعارف والحرف والصنائع ، لكن تكون اصول تدريس مثل هذه المكتب العامة، وانتخاب ومعلميها تحت نظارة وتفتيش مجلس المعارف مختلط منصوبة أعضاؤه من طلابى الشاهانى ، أما جميع الدعاوى التى تحدث فيما بين أهل الإسلام والمسيحين وباقى التبعة الغير المسلمة ، وأو بين التبعة المسيحية وبين باقى تابعى المذاهب المختلفة الغير المسلمة ، تجارية كانت أو جنائية فتحال الى دواوين مختلط ، والمجالس التى تعقد من طرف هذه الدواوين لأجل استماع الدعوى تكون علنية بمواجهة المدعى والمدعى عليه ، والشهود الذين يقيمانهم ينبغى أن يصادقوا على تقاريرهم الواقعة دائما واحدة فواحدة بيمين يجرون حسب اعتقادهم ومذاهبهم . أما الدعاوى العائدة الى الحقوق العادية ، فينبغى أن ترى شرعا أو نظاما بحضور الوالى وقاضى البلدة فى مجلاس الإيالات والأولوية المختلطة ايضا ، وتجرى المحاكمات الواقعة فى هذه المحام والمجالس علنا. واما الدعاوى الخاصة مثلا حقوق الأرثية فيما بين شخصين من المسيحيين وباقى التبعة الغير المسلمية ، فتحال على ان ترى اذا أرادت اصحاب الدعوى بمعرفة البطر أو الرؤساء والمجالس ، وينبغى تتميم اصول اونظامات المرافعات التى تجرى فى الدواوين المختلفة بمقتضى قوانين المجازاة والتجارة بأسرع مايمكن ، ثم تضبط وتدون ، وتنشر وتعلن مترجمة بالألسن المختلفة المستعملة فىممالكى المحروسة الشاهانية ، وتحصل المباشرة فى ظرف مدة قليلة لأن تتصلح بقدر الإمكان كل السجون المخصوصة لحبس وتوقيف اصحاب مظنة السوء ، والمتسحقين التأيديبات الجزائية ، مع اصلاح أصول الحبس فى جميع المحلات ، لأجل توفيق الحقوق الإنسانية مع حقوق العدالة ، وتلغى وتبطل بكل حال ايضا كل انواع المجازاة

الجسمانية بتمامها ، وكافة المعاملات التى تمثل الأذية والاضرار فى الحـــواس ، ومـــاعدا المعاملات الموافقة للنظامات الانضباطية الموضوعة من جانب سلطتى السنية ، ومـــايحصل من منع الحركات التى تقع خلافا لذلك وزجرها بكل شدة ، ويجرى تكدير المأمورين الذيـــن يأمرون بها ، والاشخاص الذين يجرونها فعلا ، وتأديبهم بمقتضى قانون الجـــزاء ايضـــا ؛ وينبغى أن تنظم أمور الضبطية فى دار سلطنتى السنية والايالات والبلاد والقـــرى بصـــورة أمينة صحيحة وقوية ، لمحافظة أموال جميع تبعتى الملوكانية اصحاب الكينة وارواحـــــهم . وكما ان مساواة الويركو توجب مساواة باقى التكاليف ، كذلك المســـاواة الحقوقيـــة تســـتلزم المساواة فى الوظائف ايضا ، فينبغى أن يكون المسيحيون وبـــاقى التبعـــة الغـــير المسـلمة مجبورين ان ينقادوا الى القرار المعطى خيرا بحق اعطاء الحصة العســـكرية مثـــل أهـــل الاسلام، وتجرى هذا الخصوص اصول المعافية من الخدمة الفعلية أما بعطاء البدل ، وامـــا بعطاء دراهم نقدية . وتعمل النظامات اللازمة بحق صورة استخدام التبعة عدا عن الاســـلام فيما بين صنوف العسكرية وتنشر وتعلن فى اقرب وقت أمكن. وأن يوضع أمـــــر انتخـــاب اعضاء الذين يوجدون فى مجالس الايالات والأولوية من الاســـلام والمســـيحين وغـــيرهم بصورة صحيحية ، وتحصل مطالعة استحصال الوسائل المؤثرة بأمر التشـــبث بإصلاحـــات النظامات الكائنة بحق صورة تركيب وتشكيل هذه المجالس ، لأجل حصول التـــأمين علـــى ظهور الآراء المستقيمة ، فتعلم دولتى العلية نتيجة الآراء ومايعطى من الحكم والقرارا علـــى وجه الصحة وتناظر على ذلك ، وبما أن القوانين الكائنة بحق قضايا بيع الأملاك التصـــرف فى العقارات متساوية يحق تبعتى الملوكانية كافة ، فمن بعد أن تعمل الصور التنظيمية فيمـــا بين سلطتى السنية والدول الأجنبية ، تعطى المساعدة للاجانب ان يتصرفوا فى الأملاك ايضا بحسب اتباع قوانين دولتى العلية ، وامتثال نظامات الضابطة البلديـــة ، واعطائـــهم اصـــل التكاليف التى تعطيها الأهالى الوطنيون ، اما الويركو والتكاليف التى تطرح على جميع تبعـــة سلطتى السنية فيما أنها تؤخذ صورة واحدة غير منظور فيها الى الصدق والمذهب ، ينبغـــى أن تحصل المطالعة والمذاكرة بالتدابير السريعة لإصلاح سوء الاستعمالات المتوقعة فى أخذ واستيفاء هذه التكاليف والاشعار الخاصة ، وتجرى اصول اخذ الويركو شيئا فشيئا على خـــط مستقيم ، وتوخذ هذه الصورة إذا كانت قابلة للأخذ عوض أصول الـــزام ايـــرادات دولتـــى العلية. ومادامت الاصول الحالية جارية ينبغى أن يمتنع مأمور دولتـــى العليـــة ، وأعضـــاء المجالس من التعهد بإدى الالتزمات التى تجرى مزايداتها علنا ، أو أخذ حصة منها ويشـــدد فى المجازاة على ذلك ثم توضع وتتعين التكاليف المحلية ايضا فى صورة لاتوجب الخلل فى المحصولات ، ولاتمن التجارة الداخلية مهما أمكن ، ويضم على المبالغ المناسبة التى يصـــير تعيينها وتخصيصها لأجل الامور النافعة الويركو المخصوص الذى سوف يصـــير وضعـــه

وتأسيسه فى الايالات والسناجق التى تستفيد من الطرق والمسالك الـــذى يصــير انشـــاؤئها واحداثها برا وبحرا . ولما كان قد عمل اخيرا نظام مخصوص بحق تنظيـــم وارداة دفـــتر ايرادات ومصروفات سلطتى السنية فى كل سنة ينبغى أن يحصل الإعضاء بإجراء احكامـــه بتمامها ، وتحصل المباشرة بحسن تسوية المعاشات المخصوصة لكل مـــن المأموريـــات ، وتجلب مخصوصا من اطرف جلالة مقام وكالتى المطلقة ، رؤاء كـــل جاعـــة ، والمـــأمور المعين لها من طرفى الأشرف الشاهانى ، لكى يوجدوا فى المجلس العالى عند التذكر فـــى المواد العائد والراجعة لعموم تبعة سلطتى السنية ، وهؤلاء المأمورون بتعينون لسنة واحدة ، وعندما يبتدئون فى مأمورياتهم يجرى تحلفهم ، وينبغى أن اعشاء المجلس العالى يفصحـــون ويفيدون فى اجتماعاتهم العادية ، والتى هى فوق العادة عن آراهـــم ومطالعاتـــهم باســـتقامة لايحصل لهم تكدير اصلا من جراء ذلك ، وتجرى احكام القوانين الموضوعة فيما يخـــص الافساد والارتكاب والاعتساف توفيق الى اصلها المشروعة بحق جميع تبعة سلطنتى الســـنية من أى صنف كانوا ، أو فى أية مأمورية وجدوا ويصير تصحيح اصول سكة دولتى العليـــة وتعمل اشياء توجب الاعتبار لأمورها المالية كالبانكات ، وتعيين الرأس المال المقتضى الـــى الخصوصات التى هى منبع الثروة المادية لممالكى المحروسة الشاهانية ، وتفتتـــح الطـــرق والجداول المقتضية لأجل نقف محصولات ممالكى الشاهانية ، وتجرى التسهيلات الصحيحـــة بمنع الأسباب الحائلة دون توسيع أمر الزراعة والتجارة ، ويلتفت الـــى اســـتفادة المعـــارف والعلوم والرأس المال لأجل ذلك من اوربا ، وتوضع فى موقع الاجراء شيئا فشيئا مع النظر المدقق فى اسبابها . فأنت إذن أيها الصدر الأعظم الممدوح الشيم المشار اليه ، أعلن واشـــع فرمانى هذا الجليل العنوان الملوكانى حسب اصوله فى دار السعادة ، وفى كل طـــرف مـــن ممالكى الشاهانية ، وأبذل جل الهمة بإجراء مقتضيات الخصوصات المشروحة على الوجـــه المبين، واستحصال واستكمال الأسباب اللازمة والوسائل القوية لأن تكون احكامه الجليلة منذ الآن مرعية الاجراء على الدوام والاستمرار . وهكذا أعلموا ، وعلـــى علامتـــى الشـــريفة اعمدوا .

تحريرا فى أوائل شهر جمادى الآخر سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف (١) .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ، عبد الكريم المشهداني : العلمانية وأثرها على الأوضاع الإسلامية في تركيا .

ملحق (٣)

في ترجمة سلاطين آل عثمان

١- عثمان بن ارطغرل - ٦٥٧ - ٧٢٧ هـ / ١٢٥٨ - ١٣٢٦م .

مؤسس الدولة العثمانية الأول تسلم من حمية (اودبالى) منطقه السيف والكتب ليكــــون غازيا فى سبيل الله .

٢- اورخان بن عثمان ٧٢٧ - ٧٦٤ هـ / ١٣٢٦ - ١٣٦٢م .

خلف اباه عثمان ، احتل مدينة بروصة من البيزنطيين . وافتتح ازمير وأنشأ فيـــها أول مدرسة جامعة عثمانية .

- صك أول نقود عثمانية تحمل اسمه .
- أمر المسلمين بتوحيد لباسهم ليتميزوا عن غيرهم ، واتخذت لذلك الثياب البيضاء .
- أسس الانكشارية على أسس دينية حيث لايقبل غير المسلم .

٣- مراد الأول بن اورخان . ٧٦٤-٧٩٢ هـ / ١٣٦٢ - ١٣٨٩م.

- فتح ادرنة واتخذها عاصمة للدولة .
- فتح البلقان واحتل صوفيا .
- لقى حتفه غيلة فى ميدان القتال فى سبيل الله .

٤- بايزيد الأول ٧٩٣-٨٠٦هـ / ١٣٩٠ - ١٤٠٣م.

تولى القيادة بعد مقتل ابيه وحقق نصرا ساحقا على ملك الصرب (لازار) واحتز رأسه ، كا حقق نصرا ساحقا عل ملك المجر (سيجسموند) فى معركة (نيقوبوليس) وهـزم الفرسان المسيحيين ، ولكنه هزم امام تيمورلنك القائد المغولى ، وبقى أسيرا لديه إلى أن مات .

٥- محمد الأول - ٨٠٦ - ٨٢٥ هـ / ١٤٠٣ - ١٤٢١م.

- خاض صراعا على العرش مع أخوته ، وانتصر عليهم جميعا .

٦- مراد الثانى - ٨٢٥-٨٥٥هـ / ١٤٢١-١٤٥١.

فتح سالونيك عنوة ودمرها خاض حربا ضد الجيوش الصليبية بقيادة (يوحنا هونييـاى) تنهزم الجيوش العثمانية قرب (صوفيا) . ثم تستأنف الحروب الصليبية مـــرة اخـرى بتحريض من البابا اوجانبوس الرابع ، ولكن مرادا يلحق بهم هزائم ساحقة بالقرب مــن (فارنا).

- كما يهزم (هونيادى) فى سهل قوصوه .

٧- محمد الثانى الملقب بالفاتح ٨٥٥-٨٨٦هـ / ١٤٥١ - ١٤٨١م.

- فتح القسطنطينية عام ٨٦٧هـ - ١٤٥٣ م. وحول كنيستها (ايا صوفيا) الى مسجد .
- حاصر مدينة (بلغراد) ولم يتمكن من فتحها ، تابع جهاده فى شبه جزيرة المورة وشبه جزيرة القرم . وفى البانيا توفى وهو فى طريقه لفتح جزيرة رودس .
- شجع الفنون والعلوم ، وبنى المساجد والمدارس والمستشفيات والحمامات ، وسبل الماء والأسوار والقصور . ويعتبر الفاتح من أعظم سلاطين آل عثمان .

٨- بايزيد الثانى ٨٨٦- ٩١٨هـ / ١٤٨١ - ١٥١٢م.

- خاض حربا ضد اخيه أحمد وأخذ الملك عنوة .
- استولت قواته على البوسنة عام ١٤٩٧، خاض ثلاثة حروب ضد البنادقة وانتصر فيها .
- اسقطه ابنه سليم (ياوز) عن العرش حيث مات مسموما.

٩-السلطان سليم الأول ٩١٨ - ٩٢٧هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠م.

- هزم اخاه احمد خلال صراعهما على العرش وقتل . وكما هزم الشاه اسماعيل واحتل (تبريز).
- قاتل المماليك واحتل سوريا ومصر ، وتسلم مفاتيح الحرمين الشريفين وأعلن نفسه خليفة للمسلمين . وتوفى وهو يعد لفتح جزيرة (رودس) وتخليصها من فرسان القديس يوحنا.
- كان دمويا قاسيا ، لذلك لقب (ياوز) أى القاسى .

١٠- سليمان القانونى -٩٢٧-٩٧٤هـ / ١٥٢٠-١٥٦٦م .

- من أعاظم سلاطين آل عثمان ، احتلت الجيوش العثمانية فى عهده (بلغراد) كما احتلت جزيرة (رودس) واخرجت منها فرسان القديس يوحنا . استأنف القتال مع المجر ، وقتل ملكهم (لويس الثانى) فى موقعة (موهاكس) . حاصر (فيينا) عام ٩٣٦هـ ١٥٢٩ م ثم اضطر لرفع الحصار عنها لقلة المؤن . أنشأ أول اسطول عثمانى بقيادة خير الدين بربروس . أحدث انتصارا كاسحا على المجر . دخل بودابيست ، وحول كنيستها الى مسجد . كان سليمان أول من أعطى لفرنسا مايسمى بالامتيازات الأجنبية ، حين وقع مع ملكها فرانسوا الأول معاهدة تنص على حق حماية المراسلين وحجاج الاراضى المقدسة . توفى فى ساحة الجهاد ضد القوات الاسبانية المتحالفة مع فرسان القديس يوحنا .

١١- سليم الثانى - ٩٧٤ - ٩٩٣هـ / ١٥٦٦ - ١٥٧٤م.

- ابن سليمان من محظيته الروسية (روكسلانة) فى عهده دمرت الاساطيل الصليبية الأسطول العثمانى فى (ليبانتو) .
- كان سليم منصرفا لملذاته مدمنا على الخمر .

١٢- مراد الثالث ٩٨٢ - ١٠٠٤هـ / ١٥٧٤ - ١٥٩٥م.

- كان مثل ابيه غارقا فى الملذات ، أمه محظية يهودية تدعى (نوربانو).

١٣- محمد الثالث ١٠٠٤-١٠١٢هـ / ١٥٩٥ - ١٦٠٣م.

- اتسم عهده بثورة الانكشارية بقيادة " عبد الحليم قرة يازيجى " كما ان عباس الكبير شاه فارس استرد من العثمانيين مدينتين شروان وتبريز .

١٤- أحمد الاول ١٠١٢-١٠٢٦هـ / ١٦٠٣ - ١٦١٧م.

- اتسم عهده بعدة ثورات كثورة حنبلاط الكردى فى سوريا ، وثورة الأمير فخر الدين المعنى فى لبنان . هزم عباس شاه فاس ، واسترد منه بغداد وتبريز .

١٥- مصطفى الأول

- دام سلطانه فى المرة الأولى بضعة شهور ، ثم اضطر للتنازل لابن اخيه عثمان الثانى .

١٦- عثمان الثانى ١٠٢٧ - ١٠٣٢هـ / ١٦١٨-١٦٢٢م.

- خذلته الانكشارية التى اعلنت عليه التمرد والثورة ، ثم اسقطه بترفع عمه مصطفى الأول مرة اخرى . مات مقتولا بأيديهم .

١٧- مصطفى الأول مرة اخرى ١٠٣٢-١٠٣٣هـ / ١٦٢٢-١٦٢٣م.

١٨- مراد الرابع : ١٠٣٣- ١٠٥٠هـ / ١٦٢٣ - ١٦٤٠ م.

- ارسل اسطوله لضرب الدروز ، والقبض على فخر الدين المهنى حيث قتل فى استانبول وقع معاهدة صلح مع حكام فارس بعد ان استرد منهم بغداد . كان مدمنا على المسكرات.

١٩- السطان ابراهيم : ١٠٥٠هـ / ١٦٤٠-١٦٤٨م.

- استبدت امه وبعض محظياته بشئون الملك ، لأن السلطان كان غارقا فى الملذات . اعتبر مسؤولا عن عجز الجويش العثمانية عن فتح جزيرة (كريت) فنحى وقتل .

٢٠- محمد الرابع :١٠٥٨-١٠٩٩هـ / ١٦٤٨-١٦٨٧م.

- خلف أباه ابراهيم قبل أن يبلغ سن الرشد . البنادقة فى عهده بدمرون الأسطول العثمانى . واجه حلفا صليبيا يضم امبراطور ألمانيا ، وملك فرنسا ، والبنادقة وعصبة اوسبرج . فى عهده سقطت جزيرة (كريت) فى يد العثمانيين ، ولكنهم يمنون يهزائم متتالية ويخسرون المجر كلها . خلعه العلماء بعد أن حملوه مسؤولية هذه الجرائم .

٢١- سليمان الثانى ١٠٩٩-١١٠٣هـ / ١٦٨٧-١٦٩١م.

- فى عهده يتولى المصلح المشهور (مصطفى كوبر يللى) الصدارة العظمى ، ويتسم عهده بسلسة من الحروب فى المجر تتراوح بين النصر والهزيمة .

٢٢- أحمد الثانى ١١٠٣- ١١٠٧هـ / ١٦٩١-١٦٩٥م.

- فى عهده هزم العثمانيون فى المجر كما خسروا جزيرة (خيوس) أمام البنادقة .

٢٣- مصطفى الثانى : ١١٠٧-١١١٥ هـ / ١٦٩٥ - ١٧٠٣م.

- اتسم عهده بسلسلة من الهزائم امام الروس والمجريين والبولنديين والبنادقة . فتخلى عن مسؤولياته ، وانسحب الى أدونة بينما تولى المفتى (فيض الله افندى) تصريف شؤون الدولة . ثم تندلع الثورة ضد السطان ، ويستدعى للمحاكمة حتى اذا رفض المثول امام الديوان خلع عن العرش ، نودى بابن اخيه احمد الثالث سلطانا .

٢٤- أحمد الثالث ١١١٥ - ١١٤٣هـ / ١٧٠٣ - ١٧٣٠م.

- أخو مصطفى الثانى ، فى عهده يلحق العثمانيون الهزيمة بقوات بطرس قيصر الروس ، ويحاصرونه مع جنوده ولايتمكن القيصر من النجاة إلا برشوة الصدر الأعظم العثمانى . وفى عهده ايضا يهزم العثمانيون البنادقة ، ولكنهم يخسرون بلغراد . وقد ثار الانكشارية على السطان احمد الثالث وخلعوه عن العرش .

٢٥- محمود الأول : ١١٤٣-١١٦٨هـ / ١٧٣٠- ١٧٥٤م.

- تولى السلطة بعد خلع عمه أحمد الثالث فى عهده احرزت القوات العثمانية النصر على الامبراطور الألمانى وتمكنت من استرداد بلغراد . خاضت القوات العثمانية حربا خاسرة ضد نادر شاه فى فارس .

٢٦- عثمان الثالث : ١١٧٨-١١٧١هـ / ١٧٥٤- ١٧٥٧م.

- كان على خلق ودين ، وقد تشدد فى منع المسكرات .

٢٧- مصطفى الثالث : ١١٧١-١١٨٨هـ / ١٧٥٧ - ١٧٧٤م.

- كان عهده عهد هزائم متلاحقة امام الروس الذين استولوا على خوتين ونهر الدانوب واشعلوا النار فى الاسطول العثمانى ، وكادوا يقتحمون العاصمة استانبول كما اخضعوا شبه جزيرة القرم .

٢٨- عبد الحميد الأول : ١١٨٩-١٢٠٤هـ / ١٧٧٣-١٧٨٩م.

- تنازلت الدولة فى عهده عن أعظم قلاع البحر الأسود لروسيا اعترفت الدولة باستقلال تتار شبه جزيرة القرم الذين مالبثوا ان خضعوا لروسيا ، وأكره السلطان على قبول ذلك كما أعلنت النمسا الحرب على الدول العثمانية فى الصرب وترسلغانيا .

٢٩- سليم الثالث / ١٢٠٤-١٢٢٢هـ / ١٧٨٩ - ١٨٠٧م.

- وقعت الدولة فى عهده صلحا مع روسيا تنازلت بموجبه نهائيا عن شبه جزيرة القرم ، نابليون يغزو مصر ، أنصار الدعوة السلفية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب يغيرون على كربلاء وعلى مكة والمدينة .

- وفى هذه تبدأ التنظيمات داخل الجيش العثمانى الذى يقتبس النمط الفرنسى الانكشارية تثور على التنظيمات وتكره السلطان على التنازل عن العرش ، وتسوق أنصار الإصلاح الى ميدان السباق وتجتز رؤوسهم .

٣٠- مصطفى الرابع : ١٢٢٢-١٢٢٣هـ / ١٨٠٧-١٨٠٨م.

- بقى في الحكم قرابة عام ثم يسقطه حاكم سلسترة (مصطفى بيرقدار) .

٣١- محمود الثانى : ١٢٢٣-١٢٥٥هـ / ١٨٠٨-١٨٣٩م.

- أباد الانكشارية لوقوفهم ضد الاصلاحات العسكرية التى كان يزعم القيام بها حيث دمر عليهم ثكناتهم ، فلم يفلت منهم أحد ، كما تعقب البكتاشية بالإعدام والمطاردة .
- وفى عهده تم توقيع حلف بين فرنسا وروسيا وانجلترا وبروسيا ضد الدولة العثمانية بهدف إرغامها على تحرير اليونان .
- وفى عهده وقعت كارثة ناقارين البحرية التى تعرض لها الأسطولان العثمانى والمصرى بقيادة ابراهيم بن محمد على والى مصر حين تصدت لهم اساطيل الحلف الأوربى المشار اليه سابقا . وأبادت مايزيد على مائة قطعة بحرية ، وذلك سنة ١٨٢٧م - ١٢٤٣هـ.
- وفى عهده استقلت اليونان عام ١٨٢٩م - ١٢٤٥هـ .
- كما وقعت الحرب بين العثمانيين والمصريين مرتين ، حقق المصريون فى كلتيهما نصرا ساحقا بقيادة إبراهيم باشا ، ولولا تدخل الدول الأوربية لتابع القائد المصري زحفه حتى استانبول .

٣٢- عبد المجيد / ١٢٥٥ - ١٢٧٨هـ / ١٨٣٩-١٨٦١م.

استهل عهده باصدار أول دستور للبلاد ، وهو خط كلخانة " عام ١٢٥٥هـ ١٨٣٩ م . ثم اصدر بعد ذلك " خط همايون " ١٨٥٦م- ١٢٧٣هـ .

- وفى نهاية عهده قامت الفتنة المشهورة بين الدروز والموارنة ، والتى ذهب ضحيتها ثلاثون ألفا من الطرفين وذلك عام ١٨٦٠م - ١٢٧٧هـ .

٣٣- عبد العزيز : ١٣٧٨-١٢٩٣هـ / ١٨٦١-١٨٧٦م.

- اتسم عهده بالإسراف والبذخ وإغراق الدولة بالديون، مما أدى الى خلعه ليموت بعد ذلك منتحرا .

٣٤- مراد الخامس : ١٢٩٣-١٢٩٣هـ / ١٨٧٦- ١٨٧٦م.

- لم يستقر على العرش إلا بضعة شهور ، ثم خلع لضعف قواه العقلية ، وكان مدحت باشا من وراء خلعه وخلع عمه عبد العزيز من قبله .

٣٥- عبد الحميد الثانى : ١٢٩٣-١٣٢٧هـ / ١٨٧٦-١٩٠٩م.

- انظر الفصل الخاص بالسلطان عبد الحميد فى هذا البحث . فقد ذكرت أهم الأعمال فـــي عهده بالتفصيل. . .. .

٣٦- محمد رشاد (محمد الخامس) : ١٣٢٧-١٣٣٧هـ / ١٩٠٩-١٩١٨م.

- تولى السلطة بعد خلع أخيه السلطان عبد الحميد ، ولم يكن له من الأمر شئ حتى اسـتبد الاتحاديون بالسلطة من دونه ، وأبرز الأحداث التى وقعت فى عهده : احتلال ليبيا مـــن قبل ايطاليا ، وقيام الاضطرابات فى البلقان ، وثم دخول تركيا الحرب العالمية الأولـــى الى جانب ألمانيا حيث خسرت الحرب ، وبالتالى جميع ممتلكاتها فـــى آسـيا وأفريقيـا واوربا .

٣٧- محمد وحيد الدين (السادس) : ١٣٣٧-١٣٤١هـ / ١٩١٨-١٩٢٢م.

- تولى السلطة بعد وفاة أخيه محمد الخامس والدولة مهزومة فى الحرب العالمية ، حيـث اضطرت الدولة لتوقيع معاهدة " سيفر " المذلة . وقامت الحركة الوطنية فى الأناضول ، وحين تمكنت من أمرها أسقطت السلطان الذى لجأ الى بارجة إنجليزية أقلته إلى مالطـة عام ١٩٢٢م.

٣٨- عبد المجيد الثاني ١٣٤١ - ١٣٤٣هـ / ١٩٢٢-١٩٢٤م.

- وهو خليفة بلا سلطان ، ثم لم يلبث الكماليون أن أسقطوه بعد إلغاء الخلافة ، وعاش بقية حياه فى منفاه بباريس حيث توفى عام ١٩٤٤م - ١٣٦٣هـ .

جدول رقم (١) يبين تطور المدارس الفرنسية في مصر :

تبعية المدرسة	سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م				سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧ م				سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م			
	عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ		
		مصريون	أجانب	جملة		مصريون	أجانب	جملة		مصريون	أجانب	جملة
حكومية	١	٣٩٤	٨٣	٤٧٧	-	-	-	-	-	-	-	-
جمعيات دينية	٩٦	١٠٩٠٥	٨٩٣٦	٩٨٤١	١٦٧	٢١٩٧١	٧٧٨٤	٢٩٧٥٥	١١١	٢٦٣٨٥	٦٠٩٠	٣٢٤٧٥
جمعيات غير دينية	١٢	١١١٦٣	٢٠٧٧	٣٢٤٠	٩	١٨٥٨	١٩٠٢	٣٧٦٠	-	-	-	-
حرة	٦	٥٨٢	١١٤٤٨	٤٤٩٢	١٣	١٧١٢	٧٦٦	٢٤٧٨	١٠	٢٠٩١	١١١٢٠	٣٢١١
الجملة	١١٥	١٣٠٤٤	١١٤٤٨	٢٤٤٩٢	١٨٩	٢٥٥٤١	١٠٤٥٢	٣٥٩٩٣	١٢١	٢٨٤٧٦	٧٧٢١٠	٣٥٦٨٦

جدول رقم (٢) يبين تطور المدارس الإنجليزية :

تبعية المدرسة	سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م				سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧ م				سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م			
	عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ		
		مصريون	أجانب	جملة		مصريون	أجانب	جملة		مصريون	أجانب	جملة
حكومية	١٠	-	٤٧٦	٤٧٦	٩	-	٧٤٢	٧٤٣	٥	١٢٧٦	٨٩٩	٢١٧٥
جمعيات دينية	١٧	١٨٥٥	٥٣٢	٢٣٨٧	٢٣	٢٤١٥	١٠٦٠	٣٥٠٥	١٤	٢٣١٥	١٣٩٢	٣٧٠٧
جمعيات غير دينية	-	-	-	-	٢	١٨٢	٢٦٦	٤٤٨	-	-	-	-
حرة	٦	١٧٦	٣٢١	٤٩٧	٩	٥٠٣	٨٩٢	١٣٩٥	٧	١٢٥٠	٩٥٤	٢٢٠٤
الجملة	٣٣	٢٠٣١	١٣٢٩	٣٣٦٠	٤٣	٣١٠٠	٢٩٦١	٦٠٩١	٢٦	٤٨٤١	٣٢٤٥	٨٠٨٦

جدول رقم (٣) يبين مدى تطور المدارس الأمريكية في مصر :

تبعية المدرسة	سنة ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢ م				سنة ١٣٥٦هـ - ١٩٣٧م				سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م			
	عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ		
		مصريون	أجانب	جملة		مصريون	أجانب	جملة		مصريون	أجانب	جملة
ارساليات امريكية	٥٩	٦٣٧٧	٤٢٤	٦٨٠١	٣٢	٦٠٣١	٢٩٥	٦٣٢٦	٢٤	٦٩٩٩	٦٢٦	٧٦٢٥
جمعيات غير دينية	١	١٩٤	٥	١٩٩	٣	٥٨٧	١٥٧	٧٤٤	-	-	-	-
جمعيات دينية	-	-	-	-	٤	٦٦٦	١	٦٦٧	٢	٦٠٤	١	٦٠٥
حرة	١	٢٢١	-	٢١١	-	-	-	-		-	-	-
الجملة	٦١	٦٧٨٢	٤٢٩	٧٢١١	٣٩	٧٢٨٤	٤٥٣	٧٩٣٧	٢٦	٧٠٣٧	٦٢٧	٨٢٣٠

جدول رقم (أ)

المحاضر	المحاضرة
فانديك	فضل المتقدمين على المتأخرين
فانديك	لذة العلم وفوائده
ورثبات	مقدار زيادة العلم في سورية في هذا الجيل
بطرس البستاني	تعليم النساء
بطرس البستاني	مدينة بيروت
نصيف اليازجي	علوم العرب
مخائيل مشاقة	السعد والنحس
نوفل نعمة الله نوفل	النبات
سليم نوفل	الشرائع الطبيعية

جدول رقم (ب)

إحصاء التلاميذ والمدارس العمومية والخصوصية بالقطر المصري ١٣٢٤هـ - ١٩٠٦، ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م

جنسية المدارس	مصريون	أجانب	جملة
المدارس الفرنسية	٢٥٦٢٨	٨٦٦٤	٣٤٢٩٢
المدارس الأمريكية	٨٦٠٥	٤٧٤	٩٠٧٩
المدارس البريطانية	٦٢٦٥	٤١١٩	١٠٣٨٤
المدارس الإيطالية	٥٦٣٦	٣٨٦١	٩٤٩٧
المدارس اليونانية	٣٨٧	٩٩٠٨	١٠٢٩٥
مدارس أجنبية اخرى	٥٠٥	١٨٨	٦٩٣
الجملة	٤٧٠٢٦	٢٧٢١٤	٧٤٢٤٠

جدول رقم (ج)

يبين الهيئات المختلفة التي كانت المدارس الأجنبية تابعة لها في عام ١٣٤٠هـ - ١٣٦٨هـ

١٩٢٢م - ١٩٤٩م

	١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م				١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م			
جنسية المدرسة	دينية	طوائف	حكومات	حرة	دينية	طوائف	حكومات	حرة
مدارس فرنسية	١٦	١٢	١	٦	١١٣	٤١	-	١
مدارس بريطانية	١٧	-	١٠	٦	١١	-	١	١٥
مدارس يونانية	-	٥٠	-	-	١	١٠	-	٤
مدارس إيطالية	٢٧	١٠	١٧	١	٤٧	-	-	-
مدارس أمريكية	٥٩	١	-	١	٣٦	-	-	-
مدارس ألمانية	-	-	-	-	٢	-	-	-
مدارس أجنبية أخرى	٢	-	-	١٠	-	-	-	١٤
الجملة	٢٠١	٧٣	٢٨	٢٤	١٠	٥١	٩	٤٢

جدول رقم (د)

المدارس اليونانية في مصر والهيئات التابعة لها وعدد التلاميذ بها سنة ١٣٧١هـ

١٩٥٢م

	عدد	عدد التلاميذ		
	المدارس	يونانيون	آخرون	جملة
تابعة لجمعيات دينية	١	٧	٣	١٠
،، جمعية خيرية يونانية	١	١٣	-	١٣
،، للطائفة	٣٦	٨٣٤٢	٧٠٧	٩٠٤٩
حرة	٣	١٩٥	٢٩	٢٢٤
الجملة	٤١	٨٥٥٧	٧٣٩	٩٢٩٦

جدول رقم (هـ)

يبين حجم المدارس الإيطالية في

عام ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م وعام ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

تبعية المدارس	عدد المدارس	عدد التلاميذ			عدد المدارس	عدد التلاميذ		
		إيطالي	آخرون	جملة		إيطالي	آخرون	جملة
حكومية	١٧	٢٨٤٠	٧٧٧	٣٦١٧	–	–	–	–
جمعية دينية	٢٧	١٤٩٣	٢٤٤٢	٣٩٣٥	٣٤	١٨٦٨	٧١٠٩	٨٩٧٧
،، غير دينية	١٠	٣٥٢	١١٩٠	١٥٤٢	–	–	–	–
حرة	١	٢١	٢٢	٤٣	–	–	–	–
جملة	٥٥	٤٧٠٦	٤٤٣١	٩١٣٧	٣٤	١٨٦٨	٧١٠٩	٨٩٧٧

جدول (و)

يبين عدد رياض الأطفال التابعة لأهل الذمة في

استنبول في بداية القرن العشرين

نوع رياض الأطفال	العدد
رياض الأطفال الرومية	٣
رياض الأطفال الأرمنية	١٧
رياض الأطفال اليهودية	٢
رياض الأطفال الفرنسية	٥
رياض الأطفال الأمريكية	٣
رياض الأطفال الإنجليزية	١
رياض الأطفال الإيطالية	٨
رياض الأطفال غيرها	٣

جدول رقم (ز)

يبين عدد المدارس الابتدائية الأجنبية

في استنبول عام ١٣١١هـ - ١٨٩٢م

نوع المدرسة	العدد
المدرسة الابتدائية الرومية	٩١
المدرسة الابتدائية الأرمنية	٤٢
اليهودية	٤٩
الفرنسية	١١
الأمريكية	١
البلغارية	٢
الإيطالية	٨
الروسية	٢
الألمانية	١
النمساوية	١

ملحق رقم ٧ إحصاء التلاميذ والمدارس العمومية والخصوصية بالقطر المصرى ١٩٠٦ – ١٩٠٧

اسم المدرسة	اسم الحى	سنة التأسيس	درجة التعليم	النوع	العدد	الجنسيات: مصرية	ايطالية	فرنسية	نمساوية	يونانية	انجليزية	المانية	غيرهم	غير معروف	الديانات: يهودي	مسلم	مسيحي	غيرهم
مدرسة تلمود توراة بالقاهرة	حارة اليهود	١٨٦١	أطفال	ذكور	٥٠	٤٠	٣	٢	٢	٣	–	–	–	–	٥٠	–	–	–
				أناث	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
			ابتدائى	ذكور	١٥٢	١١١	١٩	١١	٤	٢	٥	–	–	–	١٥٢	–	–	–
				اناث	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–	–
مدرسة الطائفة الاسرائيلية بالقاهرة	عابدين	١٨٦١	ابتدائى	ذكور	٣١٣	١١٥	–	–	–	–	–	–	–	١٩٨	٣١٣	–	–	–
				اناث	١٣	٤	–	–	–	–	–	–	–	٩	١٣	–	–	–
مدرسة الطائفة الاسرائيلية للبنات	عابدين	١٨٧٦	أطفال	ذكور	٧٧	٣٩	–	–	–	–	–	–	–	٣٨	٧٦	١	–	–
				اناث	٣٤٩	١٤٦	–	–	–	–	–	–	–	١٠٢	٢٤٢	٧	–	–
			ابتدائى	اناث	١٠٨	٣٥	–	–	–	–	–	–	–	٧٣	١٠٨	–	–	–
مدرسة كريات بالقاهرة	الرابلى	١٨٩٤	أطفال	ذكور	٣٥	٣٥	–	–	–	–	–	–	–	–	٣٢	٣	–	–
				اناث	١٥	١٥	–	–	–	–	–	–	–	–	١٥	–	–	–
مدرسة طائفة الاسرائيليين القارئين	الخرنفش	١٨٩٩	أطفال	ذكور	٥٢	٣٦	–	١٠	–	٦	–	–	–	–	٤٣	٨	١	–
				اناث	٣٤	٢٣	٢	٦	–	–	–	–	٣	–	٣٤	–	–	–
			ابتدائى	ذكور	٦٠	٤٣	٣	١١	–	–	–	–	٣	–	٣٥	٢٢	٣	–
				اناث	٤٤	٢٧	٢	١٣	–	–	–	–	٢	–	٤٠	٤	–	–
مدرسة الاسرائيليين القرائين الخيرية	الرابلى	١٨٩٩	أطفال	اناث	٢٤	٢٤	–	–	–	–	–	–	–	–	٢٣	١	–	–
			ابتدائى	اناث	٢٨	٢٨	–	–	–	–	–	–	–	–	٢٦	٢	–	–

اسم المدرسة	اسم الحى	سنة التأسيس	درجة التعليم	النوع	العدد	الجنسيات									الديانات			
						مصرية	ايطالية	فرنسية	نمساوية	يونانية	انجليزية	المانية	غيرهم	غير معروف	يهودي	مسلم	مسيحي	غيرهم
مدرسة الكرمبانسياسيون بالقاهرة	العباسية	١٩٠٦	ابتدائى	ذكور	٨٠	٧٨	-	-	-	-	٢	-	-	-	٧٥	٢	٣	-
				أناث	٨٧	٧٩	٣	١	-	-	٤	-	-	-	٨٠	٤	٣	-
مدرسة مورديل الاسرائيلية بالقاهرة	الظاهر	١٩٠٧	ابتدائى	ذكور	٢٧	٢٦	١	١	-	-	-	-	-	-	٢٧	-	-	-
				اناث	٥٣	٥	-	-	-	-	-	-	-	-	٥	-	-	-
			ابتدائى	ذكور	٤٨	٤٣	٢	٢	-	-	-	٢	-	-	٤٨	-	-	-
				اناث	٤٠	٣٢	٢	٢	-	٢	-	١	-	-	٣٧	-	٣	-
مدرسة المختلطة بالقاهرة	الوايلى	١٩٠٨	أطفال	ذكور	٣٤	-	-	-	-	-	-	-	-	٣٤	٣٤	-	-	-
				اناث	٢٦	-	-	-	-	-	-	-	-	٢٦	٢٦	-	-	-
مدرسة الطائفة الاسرائيلية المجانية بالقاهرة	الجمالية	١٩٠٩	ابتدائى	ذكور	١٢٢	٧١	-	-	-	-	-	-	-	٥١	١٢٢	-	-	-
				اناث	١٥٧	١١١	-	-	-	-	-	-	-	٤٦	١٥٧	-	-	-
مدرسة الاسرائيليين الالمانية بالقاهرة	الدرب الاحمر	١٩١١	أطفال	ذكور	٣٩	٣٠	-	-	-	-	-	-	-	٩	٣٩	-	-	-
				اناث	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-	-

الفهارس

فهرس الآيات

المراجع والمصادر

ـ أ ـ

أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الاسلامي – ط . القاهرة النهضة الحديثة .

أبو الحسن الندوي / الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغرب دار القلم ط الخامسة ١٤٠٥ – ١٩٨٥ م

أحمد السعيد سليمان / التيارات الدينية والقومية في تركيا المعاصرة .دار المعرفة – القاهرة – ١٩٦١م .

أحمد الهواري / الإصلاحات من عهد سليم إلى عهد عبد العزيز . رساله علمية لنيل درجة الماجستير من جامعة عين شمس

أحمد شوقي / ديوان شوقي (الشوقيات) . دار النهضة مصر –الفجالة – القاهرة – شرح أحمد الحوطي

أحمد عبد الرحيم / أصول التاريخ العثماني .ط القاهرة – الزهراء للأعلام العربي ط. الأولى

أحمد فهد الشوابكة / حركة الجامعة الإسلامية.مكتبة المنارة ١٤٠٤ه ١٩٨٤

أحمد فهد بركات الشوابكة / محمد رشيد رضا ودوره في الحياة فكرية والسياسية.دار عمار ط. الأولى عمان الأردن ١٤٠٩ ه

أحمد محمد سلمان / خفايا المبشرين في تنصير أبناء المسلمين.ط.المطبعة السلفية القاهرة – ١٣٥٣ هـ

أحمد مصطفى طاش مجدي / مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ط / الأولى – دار الكتب العلمية – بيروت

أديب مروة / الصحافة العربية نشأتها وتطورها .مكتبة الحياة بيروت الناشر دار الجبيل ١٩٨٥ –١٤٠٥ ه

أسعد منصور / تاريخ الناصرة في العراق.ط.القاهرة ١٩٤٢ م

أمين سعيد / الثورة العربية الكبرى .، ومأساة الشريف حسين ،لاتوجد سنة طبع ولا المكن

أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد مصطفى عطا / تركيا والسياسة من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك.،ضمن سلسلة اخترنا لك ،نشر دار المعارف في مصر.

أنور الجندي / الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب.مطبعة الرسالة

أنور الجندي / الإسلام والدعوات الهدامة.ط١ ، دار الكتاب اللبناني .بيروت ١٩٧٤ م

أنور الجندي / العالم الإسلامي .دار الاعتصام – توزيع دار الاصلاح القاهرة

أنور الجندي / سقوط العلمانية .

أنور الجندي / ملتقى الفكر الإسلامي بتلمسان - المحاضرة الرابعة ١٣٩٥هـ–١٩٧٥م.

أنور ضياء قرال / التاريخ العثماني .نشر جمعية التاريخ التركي ١٩٨٤ أنقرة

إبراهيم العدوي / رشيد رضا الإمام المجاهد.المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ،سلسلة الأعلام العرب . القاهرة

إبراهيم النعمة / المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري.ط شركة ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة ، العراق ١٩٨٦ م

إبراهيم النعمة / لمن انفرد القارب ـــ مجلة الأمة ع١ سنة٢ .

إبراهيم عبده / تطور الصحافة المصرية .١٧٩٨ – ١٨٨١ م ،ط الهيئة العامة للكتاب المصري ١٩٧٣ م

إبراهيم عكاشة / ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي .ط جامعة الامام محمد بن سعود – الرياض –١٤٠٧هـ –١٩٨٧ م

إسماعيل الكيلاني / فصل الدين عن الدولة ط.المكتب الاسلامي – بيروت

إلحان دار ندلي أوغا / الحركات الملية في تركيا.دار طوكر ، ط٣ ١٩٧٧استانبول .

إلياس الأيوبي / تاريخ مصر في عهد إسماعيل.(١٨٦٣ –١٨٦٩).ط.القاهرة

جمال الدين عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي / زاد المسير.في علم التفسير طالثالثة ١٤٠٤-١٩٨٤. بيروت المكتب الاسلامي

جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور / لسان العرب .ط. دار صادر ، بيروت ١٣٨٨،١٩٦٨ م (مصورة)

اسماعيل بن حماد الجوهري / الصحاح .تاج اللغة وصحاح العربية ،ط الثالثة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤ م . دار العلم للملايين ، بيروت

الدرر السنية في الأجوبة النجدية .ط٢ ١٤٠٢ هـ- بيروت – دار الطباعة العربية

السيد أحمد فرج / جذور العلمانية .

محمد بن علي الشوكاني / فتح القدير.الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير / ط مصورة . بيروت.دار إحياء التراث

الماوتلين / عبد الحميد ظل الله في الأرض.ترجمة راسم رشدي /ط١٩٥٠ م القاهرة

المعجم الوسيط .

ـ ب ـ

بديع الزمان سعيد النورسي / حياته وترجمته.الناشر دار الكلمات ١٩٧٦ استانبول .

برنارد لويس / الغرب والشرق الأوسط .تعريف نبيل الطويل والمؤلف محاضر .

برنارد لويس /الدولة بين القديم والحديث .

بطرس البستاني / دائرة المعارف.

دائرة المعارف الاسلامية /مجموعة المستشرقين – تعريب ابراهيم ذكي خورشيد وزملاؤه – دار المعرفة بيروت

ـ ت ـ

تسيبيرس / تاريخ الثورة الفرنسية .(موسوعة من عدة مجلدات)

توفيق يوسف الواعي/ الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية.ط دار الوفاء المنصورة ١٤٠٨هـ القاهرة

ـ ث ـ

ثريا شاهين / دور الكنيسة في هدم الخلافة ترجمة: محمد حرب.مخطوط ترجمة خاصة من د.حرب

ـ ج ـ

جاهد كارجا / رواية ثروة الفنون من ناحية التغريب.وزارة الثقافة والسياحة ط١. ١٩٨٥ أنقرة

جرجي زيدان / تراجم مشاهير الشرق .ج٢. ج١. ط الأعمال الكاملة لجرف زيدان

جلال يحيى / مشكلة قبرص .دار المعارف القاهرة ١٩٨١ م

جمال سلطان / الغارة على التراث الإسلامي ./ط لندن برمنجهام /المنتدى الاسلامي

جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت / علم الآثار .ط جدة – مكتبة الرفاء +ط دار الشروق جدة

جمال كوطاي / بديع الزمان سعيد النورسي.المسلم المثالي في عصرنا – دار أسيا الجديدة ،١٩٨٠ استانبول

جميل بيهم / العرب والترك.في الصراع بين الشرق والغرب ، ط ١٩٥٧

جميل عبد الله المصري / حاضر العالم الإسلامي .ط١ المدينةالمنورة – الجامعة الاسلامية ١٤٠٦ه

جواد ممدوح الفار / تاريخ الأوبرا.نشر وزارة الثقافة والسياحة ، ١٩٨٢ أنقرة

جورج أنطونيوس / يقظة العرب .ط. دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ م

جورجي زيدان / تاريخ سوريا .ط. بيروت

جورجي زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية .ط. دار الهلال

جي . أي كرونباوم ترجمة د.صدقي حمدي / الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ط.مكتبة المثنى بغداد

جرجس سلامة /:تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين (١٩-٢٠)-القاهرة –
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – ١٩٦٣م .

– ح –

حسنة لبيب/ تاريخ الأتراك العثمانية.مصر مطبعة الهلال ١٩٢١م

حسين عثمان الطنوبي / الحركة الكمالية والعلمانية في تركيا.(١٩١٨- ١٩٣٨)رسالة ماجستير
جامعة الأسكندرية كلية الآداب قسم التاريخ

حسين الخولي / سياسة الاستعمار الصهيونية في فلسطين .

حسين مؤنس / المشرق الإسلامي .ط. القاهرة - ١٩٨٢

حسين حلاق / موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.ط . بيروت دار الرسالة

حلمي علي مرزوق / تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين.

– خ –

خلف بن دبلان الوذيناني/ الغزو الفكري في الدولة العثمانية. رسالة جامعة أم القرى،

خليل صابات / تاريخ الطباعة في الشرق العربي .

خير الدين التونسي / مقدمة المسالك في معرفة أحوال الممالك .تحقيق المنصف الشنوفي ط١ الدار التونسية للنشر ١٩٧٢

– د –

دروزاس / مفهوم الدولة الحديثة.

دوريات / صدى بابل عدد٢١٤ .

مجلة التضامن الاسلامي لسنة ٤٤ الجزء ٥ (الرجل المريض رعاية يهودية)

ـ ر ـ

رأفت باشا / السلطة والخلافة- حديث للأهرام عدد ١٣٩٠٣ عام ١٩٩٢ م.

روفائيل بابواسحق / تاريخ نصارى العراق .ط١٩٤٨ بغداد

روفائيل بطي / تاريخ الصحافة في العراق .ط القاهرة ١٩٥٥

ـ ز ـ

زياد أبوغنيمة / السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية .ط٢ دار عمار الاردن عمان ١٤٠٩هـ –١٩٨٩م

زين نور الدين زين / نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقة العربية التركية .ط دار النهار للنشر بيروت ١٩٦٨م

ـ س ـ

ساطع الحصري / أبحاث مختارة في القومية العربية .ط مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت

ساطع الحصري / الدولة العثمانية والبلاد العربية .ط٢ ١٩٦٠ ،دار العلم للملاين ، بيروت

ساطع الحصري / اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية .ط٢ ١٩٦٦ دار الطليعة بيروت

ساطع الحصري / محاضرات في نشوء الفكرة القومية .ط٢ مركز دراسات الوحدة العربية – بيروت

سامي عزيز / الصحافة المصرية وموقفها من الإحتلال الإنجليزي .ط ١٩٦٨ دار الكتاب العربي

سبريت سبيريدوفيتش / حكومة العالم الخفية، ترجمة مأمون سعيد تقديم أحمد راتب. ط الأولى ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م دار النفائس بيروت

سعدي أبو حبيب / القاموس الفقهي – ط دمشق ١٩٨٤ م

سعيد عبد الستار فتح الله / الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام. ط ١٩٧٧م ، القاهرة

سعيدة محمد حسني / اليهود في مصر . (١٨٨٢ – ١٩٤٨ م) ط القاهرة

سفر بن عبدالرحمن الحوالي / العلمانية .الدار السلطية ط . الأولى

سهام نصار / صحافة اليهود العربية في مصر . ١٨٧٧ م – ١٩٥٠ م

سيد كمال علي أوغلو / تاريخ الأدب التركي المصور والمنقوش من أيام التنظيمات إلى الجمهورية. ط. ١٩٧٨ م استانبول

ـ ش ـ

شاهين مكاريوس / المعارف في سوريا ـــ المقتطف ج٧ ـــ ٥٣٧ .

شاهين مكاريوس / تاريخ الإسرائيليين .

شكيب أرسلان / تعليقات على حاضر العالم الإسلامي .لوثروب ستودارد الأمريكي ، ترجمة اعجان نويهض دار الفكر ط٤ ١٣٩٤ هـ ١٩٧٣ م لبنان

شمس الدين بن قيم الجوزية / أحكام أهل الذمة / تحقيق صبحي الصالح ط بيروت ١٩٨٢

شمس الدين الرفاعي / تاريخ الصحافة السورية . ١٩١٨ – ١٩٤٧ م ط . دار المعارف . مصر

شوقي أبو خليل / عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي.دار الفكر دمشق .

- ص -

صادق البابراق / محنة السائرية على طريق الشريعة.دار المدرسة ١٩٧٩ م استانبول

صادق البابراق / من الشريعة إلى العلمانية ، الحرب بين الإسلام والتقريب في تركيا. دار السبيل ١٩٧٧ استانبول

صالح العبود / فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام . ط١ دار طيبة للنشر – الرياض – السعودية

صلاح العقاد / دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا وايطاليا وأمريكا وتركيا . ط القاهرة ١٩٥٦ م

- ض -

ضابط تركي سابق / الرجل الصنم كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن.د مؤسسة الرسالة ط٤ ١٤٠٢ هـ– ١٩٨٢م

ضيا كوك ألب / أسس القومية التركية.ط وزارة الثقافة ، أنقرة ،١٩٨٦ م

- ط -

طلعت ذكرى مينا / الإرسالية الأمريكية ونشاطها التربوي في مصر المصرية التاريخية.

- ع -

عباس العقاد / بين الكتب والناس ــ الحركة الطورانية .

عباس سيد أحمد محمد علي / علم الآثار ــ المولد والنشأة (بحث مجلة المنهل ع٤٥٤) .رمضان وشوال ١٤٠٧هـ

عبد الحميد عبد المنعم مدكور / دراسات في الفكر الإسلامي. ط. القاهرة ١٩٨٩م

عبد الحميد مطر / التعليم والمتعطلون في مصر .

عبد الرحمن الرافعي / تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر .ط. دار الفكر – مصر – القاهرة

عبد الرزاق الهلالي / تاريخ التعليم في العراق .

عبد العزيز الشناوي / الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. جـ١–ج٤مكتبة الأنجلو – القاهرة ١٩٨٠م

عبد العزيز المحويني، مقال في مجلة المنهل عـ ٤٨٥.جمادي الآخرة ١٤١١هـ. جدة المملكة العربية السعودية

عبد العزيز نوار / تاريخ العراق الحديث .ط. القاهرة مكتبة رأفت سعيد جامعة عين شمس

عبد العليم القباني / نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية .١٨٧٣م–١٨٨٢م ط.الهيئة العامة للكتاب المصري ١٩٧٣م

عبد الفتاح بركات دويدار / الحركة الفكرية ضد الإسلام .القاهرة دار التراث العربي –١٩٧٤م

عبد القادر دادا أغلو / ألبوم العثمانيين.ط. دار العثمانية استانبول

عبد الكريم رافق / العرب والعثمانيون / ط. الاولى دمشق

عبد الكريم غرايبة / سورية في القرن التاسع عشر.القاهرة – جامعة الدول العربية – معهد الدراسات – ١٩٦١م

عبد الكريم غرايبة / تاريخ العرب الحديث .

عبد الكريم زيدان / أحكام الزميم والمستأنس في دار السلام ط. مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

عبد الكريم مشهداني / العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا .مكتبة الدولية الرياض ط١ ١٤٠٣هـ

عبد الله التل / الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام.ط٢ بيروت ،دار الارشاد

عبدالرحمن عوض / التبشير في ديار المسلمين .
عز الدين الخطيب التميمي و آخرون/ نظرات في الثقافة الإسلامية.دار الفرقان عمان الأردن ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م
عطية محمد صقر / الإسلام في مواجهة التحديات .الكويت -وزارة الأوقاف -١٤٠١هـ
علي حيدر / المدارس الرومية في تركيا .
علي شلش / اليهود والماسون في مصر .الزهراء للاعلام العربي . ط الاولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م
علي عبد الحليم محمد / الغزو الفكري وأثره في المجتمعات الإسلامية المعاصرة .
علي عبد الحليم محمود / الغزو القاري ،التيارات المعادية للإسلام.ط جامعة الامام محمد بن سعودالرياض ١٤٠١هـ
علي عبد الحليم محمود /الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر.ط. الاولى القاهرة مصر
علي عبد الرزاق / الإسلام وأصول الحكم.ط. بيروت ١٩٧٢م المؤسسة العربية للدراسات
عماد الدين اسماعيل / تهافت العلمانية .ط. الرسالة ١٩٧٥م
عماد شرف / حقائق عن التبشير .
عمر الدسوقي / في الأدب الحديث.ط. الخامسة . دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٦٤م
عمر رضا / ديوان الصفحات.لمحمد عاكف ،ط دار الانقلاب ط٧ استانبول
عمر عبد العزيزعمر / تاريخ المشرق العربي.
عمر عودة الخطيب / لمحات في الثقافة الاسلامية . ط١
عواطف عبد الرحمن / اليهود المصريون صحفهم ومجلاته(رسالة ماجستير من كلية الاعلام بجامعة القاهرة)م .
عيسى مصطفى يوجار / محمد عاكف عصره وجهوده في الدعوة.الاسلامية - رسالة دكتوراه -
قسم العقيدة جامعة أم القرى

_ف_

فوزية عبد الله / محمد عاكف.
هربرت فيشر / تاريخ أوروبا في العصر الحديث .(١٧٨٩-١٩٥٠)تقريب أحمد نجيب ، وديع الطبع ،
دار المعارف ١٩٦٤م القاهرة
فيليب حتى ادور جرجي - جبرائيل جيور ، / تاريخ العرب المطول.ط٣ ١٩٦١ م .
فيليب طرازي / تاريخ الصحافة العربية .بيروت المطبعة الأدبية -١٩١٣م

-ق-

قاسم السامرائي / الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية .ط الأولى.

-ل-

لطيفة محمد سالم / مصر في الحرب العالمية الأولى.ط الأولى الهيئة العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٨٤م
لوريمر / تاريخ الخليج العربي .(١٤ جزءا)ط دولة قطر
لويس شيخوا /فن الطباعة في استنبول / مقال بمجلة الشرق ــ عدد ١ السنة الثالثة ١٩٠٠م .
ليلى الصباغ / الجاليات الأجنبية في بلاد الشام طالأولى -دمشق دار الرسالة

-م-

ماجدة صلاح مخلوف/معروضات جودت باشا ترجمة وعرض – رسالة دكتوراة رسالة عين شمس – الآداب قسم اللغات الشرقية

مدحت جمال كونطاى ، محمد عاكف في ذكرى وفاته السادس ، دار الكو أنقرة

ماهر إز / أثر السنين دار عرفان ١٩٧٥ م استانبول

مجلس النواب / الهيئة النيابية الثامنة – دور الانعقاد العادى الثالث –المجلد الثاني.

محب الدين الخطيب /الغارة على العالم الاسلامي .ط. المكتب الاسلامي بيروت لبنان .

محمد أنيس / الدولة العثمانية والمشرق العربي .ط. ١٩٩٠م نشر مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة .

مجمد إقبال /تجديد الفكر الديني في الاسلام ترجمة عباس محمود مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

محمد أمين الشهير بابن عابدين / رد المختار على الدر المختار شرح تنوير البصار / ط العثمانية

محمد الأمين أرسلان / مجموعة العلوم

محمد البهي / العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق .ط. الأزهر ١٩٧٦م

محمد جلال كشك / الغزو الفكري ط٤ القاهرة – المختار الاسلامي للطباعة والنشر ١٣٩٥هـ

محمد حرب / ابوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ط. مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي –القاهرة ١٤١٤هـ

محمد حرب / العثمانيون في التاريخ والحضارة ط مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي – القاهرة ١٤١٣هـ

محمد حرب / ترجمة الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة . د. بلال (ترجمة خاصة)

محمد حرب /مذكرات السلطان عبد الحميد . دار الأنصار – القاهرة ١٩٧٨م

محمد دروزة / نشأة الحركة العربية الحديثة . ط المكتبة العصرية – بيروت ١٩٧١م

محمد رشيد رضا / الخلافة أو الأمامة العظمى ط. المنار القاهرة ١٣٤١هـ

محمد رشيد رضا / تفسير المنار ط٢ دار المعرفة بيروت

محمد رشيد رضا / شبهات النصارى وحجج الاسلام) ط١٣ النهضة مصر – ١٩٥٦م

محمد رشيد رضا / يسر الاسلام وأصول التشريع العام ، مطبعة دار المنار ، القاهرة

محمد رشيد رضا /المنار والازهر :مطبعة المنار القاهرة ١٣٥٣هـ

محمد العرمابي /نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الاسلامي الرياض – دار العاصمة ١٤٠٧هـ

محمد صابان / المؤسسات التعليمية في نهايات الخلافة العثمانية في أستنبول

محمد صامل السلمي / منهج كتابة التاريخ الاسلامي ، ط الرباط دار طيبة

محمد صبيح / أتاتورك .

مجمد العبدة / أبعيد التاريخ نفسه / ط لندن برمنجهام – المنتدى الاسلامي .

محمد ضياء الدين الريس /الإسلام وأصول الحكم في العصر الحديث .

محمد عزت إسماعيل الطهطاوي / التبشير والستشراق ، أحقاد وحملات علي النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبلاد الإسلام الهيئة العامة لشؤن المطابع الاميرية بالقاهرة ١٩٧٧م

مجمد عزت دروزة / تركيا الحديثة

محمد عمر / يهود الدونمة .

محمد فؤاد شكري / بناء دولة مصر محمد علي .

محمد فايد / نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع المسلم .

محمد فريد بك / تاريخ الدولة العلية العثمانية ط دار الجيل — بيروت تحقيق حسان حقي .

محمد قطب / مذاهب فكرية معاصرة دار الشروق — جدة

محمد قطب / واقعنا المعاصر ط — المدينة المنورة — مؤسسة المدين المنورة للصحافة والنشر .

محمد كمال دسوقي / أوربا في العصور الوسطى .

محمد كمال دسوقي / الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ط ١٩٧٦م ، دار الثقافة بالقاهرة .

محمد محمد ابراهيم / دور يهود الدونمة في سقوط الخلافة العثمانية .

محمد محمد الدهان / قوى الشر المتحالفة . ط المنصورة دار الوفاء ١٤٠٦هـ

محمد محمد حسين / الإتجهات الوطنية في الأدب المعاصر ط دار الرسالة .

محمد ناصر الدين الألباني / إرواء الفليل تخريج أحاديث منار السبي / ط المكتب الإسلامي بيروت .

محمد هاشم ريان / أخطار التقليد التربوي للغرب على البلاد الإسلامية ، مجلة الأمة القطرية .

محمود شاكر / أندونسيا (مواطن الشعوب الإسلامية) ط . المكتب الإسلامي بيروت .

محمود صالح منسي / حركة اليقظة العربية في الشرق .

محمود عبد اللطيف البحراوي / الإصلاحات العثمانية في عهد محمود الثاني .

محمود محمد سليمان أحمد / النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب في مصر . رسالة ماجستير جامعة الزقازيق كلية الآداب .

محمود محمد شاكر أباطيل وأسمار .ط . مكتبة دار العروبة دبي . مكتبة ابن تمية القاهرة .

مركز الدراسات الفليسطنية / لمحات عن يهود العراق في العهد العثماني ج٢ ع٢ .

مسيتوارد لوثروب /حاضر العالم الإسلامي — تعليق شكيب أرسلان —ترجمة عجاج نويهض — بيروت — دار الفكر ط٤ ١٣٩٤

مصطفى الخالدي وعمر فروخ / التبشير والاستعمار. بيروت

مصطفى صبري / النكير على منكري النعمة.

مصطفى صبري / موقف العقل من ... والعلم والعالم من رب العالمين / ط. دار إحياء التراث العربي بيروت

موفق بني المرجة / صحوة الرجل المريض . ط الكويت — دار الصقر — ١٩٨٩ م

منير البعلبكي (قاموس المورد)دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٧ م

منير بكر التكريتي / الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والأجتماعية والثقافية من ١٨٦٩-١٩٢١ ط م ٩٦٩١ . دالغب داشرلإا ةعبطم

ـ ن ـ

نابليون / مراسلات نابليون .

نبيه أمين فارس / مقدمة يقظة العرب .

نبيل عبد الحميد / النشاط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية حتى عام (١٩٢٣)

المجلة المصرية التاريخية ، مجلد ٧٢ قدس ١٨٩١ م.

نعمة محمد عيد / النشاط التربوي والأجنبي وأثره في التعليم على الأقليم المصري .

نيازي بيركز / تطور العلمانية في تركيا .

ـ هـ ـ

هـ. س أمسترونج / الذئب الأغبر ، ترجمة دار الهلال.ط ١٩٥٢ م

هاملتون جيب ورفيقه / المجتمع الإسلامي و الغرب.هاملتون ، هارولدبوون ترجمة

د . أحمد عبد الرحيم مصطفى دار المعارف المصرية

ـ و ـ

وجيه كوثراني / الإتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ط٨٧٩١٢ تويرب

وزارة المعارف العمومية / المراقبة العامة لإحصاء شئون التعليم .

وفاء أحمد قطب البستاوي / فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا.رسالة ماجستير جامعة عين شمس

وليام غاي / أحجار على رقعة الشطرنج ،ط. دار النفائس — لبنان بيروت ترجمة سعيد جزائرلي —سنة ١٩٧٣

ـ ي ـ

يوسف آصاف / المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوربية.

يوسف العظم / رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر ط دار الكتب .

يوسف كمال بك / مذكرات مدحت باشا .

ملحق مصادر كتب السنة والفقه

- أحمد بن حنبل /المسند–طبعة إحياء التراث–بيروت
- الترمذي:أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي/طبعة دار الكتب العلمية،ترقيم عبدالباقي
- ابن ماجه:الحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القزويني/السنن الطبعة الثانية مصر
- ابن إدريس الحنبلي، منصور بن إدريس(كشاف القناع عن متن الاقناع).المطبعة الشرقية بمصر ١٣١٩
- ابن عابدين ، محمد أمين الشهير بابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار) شرح (تنوير الأبصار) المطبعة العثمانية ١٣٢٤
- ابن قدامة، أبي محمد عبدالله بن أحمد المقدسي (المغنى) الطبعة الثالثة،١٣٦٧هـ
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر (أحكام أهل الذمة)مجلدان تحقيق صبحي الصالح مطبعة بيروت ط١ /١٤٠١هـ دار العلم للملايين
- (زاد المعاد في هدى خير العباد). الطبعة الثانية ١٤٠١هـ الرسالة بيروت
- أبو داود ، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود) للمنذري والخطابي وابن القيم الجوزية(صورة عن) مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة–١٣٦٩
- أبو عبيد ، الإمام القاسم بن سلام (الأموال) . نشر مكتبة الكليات الأزهرية تحقيق خليل ١٣١هراس محمد.
- أبو يعلي، محمد بن الحسن الفراء الحنبلي (الأحكام السلطانية) . القاهرة ١٩٣٨م
- أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (الخراج).المطبعة السلفية القاهرة ،ط٣،١٣٨٨٢هـ
- السرخسي، أبي بكر محمد (المبسوط). مطبعة السعادة مصر، ١٣٢٤هـ.
- السرخسي (شرح السير الكبير) مطبعة دائرة المعارف النظامية. حيدر آباد، الهند،١٣٣٥هـ
- القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (الجامع لأحكام القرآن)مطبعة دار الكتب المصرية،ج٥ ، طبع ١٣٥٢هـ
- الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) مطبعة البابي الحلبي مصر ط٢ ١٩٦٦م
- مسلم، الإمام مسلم أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، (صحيح مسلم) شرح النووي. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ
- جماعة من علماء الهند (الفتاوى العالمكارية)المعروفة بـ(الفتاوى الهندية). المطبعة الأميرية ،بولاق ١٣١٠هـ
- خلف بن دبلان الوذيناني / الغزو الفكري في الدولة العثمانية / رسالة دكتوراة جامعة أم القرى
- الجويني أبو المعالي / الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد
- ابن مفلح شمس الدين ابن عبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي /الآداب الشرعية والمنح المرعية مؤسسة قرطبة ـ القاهرة

فهرس المحتويات والموضوعات